الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

أصول الإيمان والإسلام



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي
عضو المجامع الفقهية العالمية

أُصُولُ الإيمانِ والإسلامِ





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

أصول الإيمان

أ.د. وهبة الزحيلي

الجزء الأول

الرقم الاصطلاحي: ١- ٢٠٦٥,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9953-511-21-4

الرقم الموضوعي: ٢١٤ (العقيدة وأصول الدين)

ج١/ ٥٨٤ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة الثانية: ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م

ط١ / ٢٠٠٨م

أصول الإيمان والإسلام / وهبة الزحيلي .- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ٢ج (١٢٣٨ص) ؛ ٢٥ سم.

١-٢١٤ ز ح ي أ   ٢-٢١٦ ز ح ي أ
٣-العنوان   ٤- الزحيلي

مكتبة الأسد

المحتوى



تقديم

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وحبيبه، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين.

وبعد، فهذا كتاب جليل جمع بين أصول الإيمان والإسلام، أو شُعَب كل منهما، فهو يوضح من تلك الأصول مايزيد على سبعين، من معين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حتى شملت أركان العقيدة والإيمان والتوحيد الستة، وأركان الإسلام الخمسة، وفرائض العبادة الأربع، وأحكام الشريعة المطهرة، وأصول الأخلاق والآداب الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية أو الثقافية والتربوية والبيئية، لإيجاد شخصية إسلامية متميزة وواعية ومتماسكة، حتى يلقى المسلم والمسلمة ربّهما تبارك وتعالى وهو عنهما راضٍ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، والميزان بينهما التزام الشرع كله أو الغربة عن كله أو بعضه.

إنه واحة خصبة تجمع أقوم وأجمل وأرشد شريعة هي شريعة الإسلام، وهو محطة انطلاق جذرية لكل آفاق الحياة الإنسانية، فمن التزم هذه الأصول نجا، ومن ابتعد عنها هلك وضل، والإيمان أو الإسلام والكفر نقيضان لا يجتمعان، عبَّرت عنهما جملة واحدة من آية كريمة هـــــي: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥].

ومن المعلوم أن الإيمان جذر الدين وأساس اليقين وطريق تقويم عمل الإنسان في الدنيا والآخرة، والإسلام ترجمة عملية للإيمان، وقد عرَّف علماء الشرع الإيمان بأنه «التصديق بالقلب، والعمل بالأركان» والإسلام هو «الاستسلام لحكم الله تعالى والانقياد الظاهر» وبالإيمان والإسلام معاً قوام الحياة، والإيمان قول وعمل، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، والتصديق يتمثل بالطاعات كلها، فمهما ازداد المؤمن من أعمال البر كان إيمانه أكمل، ومتى نقصت أعمال البر لديه نقص كمال الإيمان، ومتى زادت زاد الإيمان كمالاً، كما أوضح الإمام النووي رحمه الله تعالى[1]، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤-١٢٥]. وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٤]. وقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ١٩/ ٧٦].

والإنسان الذي يستحق المدح والولاية (النصرة) من المؤمنين هو الذي يأتي بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان،

---

(١) شرح مسلم ١/ ١٤٤ - ١٥٠.

والعمل بالأعضاء، ولو أقر الإنسان بقلبه، وعمل على غير علم منه ومعرفة بربِّه، لا يستحق اسم «مؤمن». ولو عرف وعمل وجحد بلسانه، وكذَّب ما عرف من التوحيد، لا يستحق اسم «مؤمن»، وكذلك إذا أقرَّ بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمناً بالإطلاق، كما ذكر النووي في شرح مسلم أيضاً.

وهذا يدلنا على أن الإيمان والإسلام كوكبان نيران متلازمان، والأول أصل أساسي، والثاني برهان عملي، والإيمان قول وعمل في مذهب جماعة أهل السنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢-٤].

وثمرات الإيمان كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأولها تصحيح العقيدة، وثانيها تأسيس العمل، وثالثها الإضاءة والإرشاد إلى أقوم السبل، ورابعها الظفر بالنجاة والثواب في عالم الآخرة، وخامسها تمييز المؤمن عن الكافر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩-١٠].

وثمار الإسلام أيضاً كثيرة، فأولها ترجمة العقيدة والإيمان إلى واقع عملي، وثانيها إثبات مصداقية الإيمان، وثالثها معرفة أهل الحق والدين، ورابعها الظفر برضوان الله تعالى، وخامسها تمييز المسلم الصادق المخلص من الفاسق الفاجر.

ويقطف القارئ الكريم هذه الثمرات كلها من خلال معرفة «أصول الإيمان والإسلام»، موضوع هذا الكتاب.

لأن كلاً من الإيمان والإسلام هو أسمى قيمة حضارية صحيحة في هذا العالم، تجمع بين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين الطمأنينة والسعادة، وبين الارتباط الوثيق ببارئ الكون ونظام الحياة، وبين السر والعلانية، وبين التوفيق الإلهي والهداية والعمل الرشيد.

إن مضمون هذا الكتاب مستمد من مصدري الإسلام الأساسيين كما ذكرت وهما القرآن والسنة، ومن كتب السنة كلها، وشراحها ومواردها، ولا سيما كتاب (شعب الإيمان) للبيهقي[(١)] (٣٨٤ - ٤٥٨هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٦م) رحمة الله ورضوانه عليه، والذي قال إمام الحرمين عنه: «ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في مذهبه وبسط موجزه وتأييد آرائه». وهو الذي أفرد بكتابه الكلام عن (شعب الإيمان) سبع مجلدات، أضيف إليها جزءان في الطباعة (٨، ٩) للفهرسة. وافتتحه بحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأرفعها - أو فأفضلها - قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[(٢)].

وقد حرصت على اختيار أصح الأخبار والآثار والمواعظ والآداب، وحيث قلت: «رواه البيهقي» فالمراد في كتاب (شعب الإيمان) وإذا كان من كتابه (السنن الكبرى) صرحت بذلك، وقد خرَّجت جميع الأحاديث، وأذكر في الغالب درجتها صحة وضعفاً إلا عند الحاجة إلى زيادة البحث.

---

(١) هو الإمام الزاهد العالم الحافظ من أئمة الحديث، ولد في قرى بيهق - نيسابور، ونشأ فيها، ورحل إلى حواضر بلاد الإسلام العلمية مثل مكة وبغداد والكوفة، ومات في نيسابور بعد عيشه فيها، صنَّف زهاء ألف جزء، منها السنن الكبرى - عشر مجلدات، والسنن الصغرى، وشعب الإيمان، ودلائل النبوة، وفضائل الصحابة (الأعلام للزركلي ١/ ١١٣).

(٢) أخرجه مسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجه والبيهقي وأحمد والترمذي والحاكم وغيرهم.

ولم أفرق بين كلمة «أخرج» و «روى»، وإذا كان الحديث ضعيفاً صح العمل به في فضائل الإعمال كما قرر أهل الحديث.

وأقول: رضي الله عن جميع الصحابة الكرام في هذا الكتاب وغيره، فذلك يعوِّض ما سكتُّ عنه من بيان الرضوان بعد اسم الصحابي، إيثاراً للاختصار.

وقد ختمت الكلام على أصول الإيمان ببيان درجات الجنة ودركات النار، وصفة الجنة وصفة النار، وأهل كل منهما، ليكون ذلك بياناً لعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين.

والكلمة الأخيرة: إنني بهذا الكتاب بالإضافة إلى كتبي وموسوعاتي: (التفسير المنير) ١٧ مجلداً، و (الفقه الإسلامي وأدلته) ١١ مجلداً، ويطبع الآن الطبعة ٢٨ في ١٥ مجلداً، و (أصول الفقه الإسلامي) في مجلدين، ازددتُ إيماناً وخلقاً وثقافة وعلماً وحبّاً لله تعالى والإسلام، سائلاً المولى أن ينفع به غيري، والله أكرم مسؤول، وعليه الاتكال وبه الاستعانة.

وهبة مصطفى الزحيلي

حقيقة الإيمان وأصوله

الإيمان جذر الإسلام وأساسه، وبه يتميز المسلم الحق عن غيره من أهل الضلال والانحراف، والكفر أو الجحود، والنفاق والرياء، وعليه مدار قبول الأعمال المختلفة عند الله تعالى في الدار الآخرة، والإيمان لا يتجزأ، فإما إيمان ثابت راسخ في النفس المؤمنة والقلب الواعي وإما لا إيمان، وإذا انعدم الإيمان انعدم الدين الحق في نفوس البشر، وتخبَّط الإنسان في دياجير الظلام، وتاه وحار في مسالك الحياة، فمن وفقه الله للإيمان وانشرح صدره للإسلام، سعد سعادة غامرة، واطمأنت نفسه، وهدأت مشاعره وحواسه، وعاش قرير العين، ولقي الله تعالى وهو عنه راضٍ.

والإيمان مشتق من الأمن الذي هو ضد الخوف، وهو التصديق الراسخ في النفس المؤمنة الذي لا يحتمل أي تردد في مصداقيته، والاعتقاد بأن ما يؤمن به الإنسان هو الحق والصدق، مع الابتعاد عن أي كذب أو تلبيس أو تدليس.

والإيمان يقتضي أساساً وبداهة الطاعة التامة لمن يؤمن به، أمراً ونهياً، فالإيمان بالله عز وجل معناه الاعتقاد بإثبات ذات الله وصفاته العليا وأسمائه الحسنى، والاعتراف بوجوده ووحدانيته، والمبادرة لطاعته. والإيمان بالنبي محمد ﷺ وكل واحد من إخوانه الأنبياء والرسل معناه

إثباته والاعتراف بنبوته والإقرار برسالته المرسل بها من عند الله تبارك وتعالى، وقبول ما جاء به والطاعة له.

والإيمان بالله وبرسوله نوعان: خفي وجلي، فالخفي المكتوم هو الحاصل في القلب، ويسمى اعتقاداً. والجلي الظاهر هو الواقع باللسان ويسمى إقراراً وشهادة.

والخفي يشمل النيات والعزائم التي لا تصح العبادة لله إلا بها، واعتقاد وجوب ما أوجب الله ورسوله، وإباحة ما أباحه الله ورسوله، وحَظْر أو منع المحظور الذي حرمه الله ورسوله.

والجلي يشمل كل ما تمارسه الأعضاء ممارسة ظاهرة للعيان، كالطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله.

وكل ذلك إيمان وإسلام، وطاعة لله عز وجل ولرسوله الأمين ﷺ.

والإيمان بالله وبرسوله أصل جوهري ينقل الإنسان من دائرة الكفر والضلال. وطاعة الله والرسل فرع يكمُل الإيمان بكماله، وينقص الإيمان بنقصانه، أي إن الإيمان الأساسي في القلب لا يزيد ولا ينقص، وإنما النقصان يكون بنقص الطاعة، والزيادة بزيادة الطاعة. والطاعة تشمل الفرائض والنوافل أو التطوعات، فكل ما يؤديه الإنسان من الفروض والنوافل يزداد به الإيمان، لكن ترك شيء من أصول الإيمان بالله وبرسوله يعد كفراً، وهو الجحود والنفي والتكذيب، وترك شيء من الطاعات لا يعد كفراً، وإنما يعد شقاقاً وعصياناً.

قال الله تعالى في وصف المؤمنين وتعرضهم لزيادة إيمانهم أو نقص طاعتهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢-٤].

وأصول الإيمان أو شعابه ثلاث وسبعون شعبة، لما أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داوود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان بضع وستون، أو سبعون[1] شعبة، فأرفعها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». ومن المعلوم أن البِضع من الثلاث إلى التسع.

وتنقسم شعب الإيمان إلى ثلاثة أقسام: أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

أما أعمال القلب المشتملة على العقائد والنيات، فهي سبع وعشرون وهي:

لا إله إلا الله، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب الإلهية، الإيمان بالرسل، الإيمان بالقدر، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالبعث والنشور، الإيمان بالحشر والصراط والميزان، الإيمان بالجنة والنار، محبة الله تعالى، محبة النبي ﷺ، تعظيم النبي ﷺ، الحب في الله والبغض في الله، الإخلاص، التوبة، الخوف من الله، الرجاء، شكر نعم الله تعالى، الصبر على المصائب، التوكل على الله، رحمة الصغير وتوقير الكبير، ترك الغلّ والحسد، حسن الخلق، الحياء، السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة، محبة المرء لأخيه ما يحبه لنفسه، شحّ المرء المسلم بدينه.

---

(١) قال الإمام أحمد والحافظ البيهقي رحمهما الله تعالى: وهذا الشك وقع من سهيل بن أبي صالح في «بضع وستين» أو في «بضع وسبعين». وسليمان بن بلال قال: «بضع وستون» لم يشك فيه. وروايته أصح عند أهل العلم بالحديث، غير أن بعض الرواة عن سهيل رواه من غير شك قال: «بضع وسبعون، أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى والعَظْم عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان».

وأما أعمال اللسان فهي ست شعب: القرآن، طلب العلم، نشر العلم، الدعاء، الذكر، حفظ اللسان.

وأما أعمال البدن المشتملة على أربعين شعبة، فهي ثلاثة أنواع: ما يتعلق بالذوات أو الأعمال الشخصية، وما يتعلق بأتباعها، وما يتعلق بالأعمال العامة.

وأعمال الذوات أو الأعمال الشخصية خمس عشرة شعبة هي: الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الاعتكاف، الحج والعمرة، الوفاء بالعقود، قبض اليد عن الأموال المحرمة، الاقتصاد في النفقة، الملابس والزي، المطاعم والمشارب، الملاعب والملاهي، الزهد في الدنيا وقصر الأمل، القرابين، الغيرة المحمودة والمذمومة.

والأعمال التابعة للذوات أو الأعمال الشخصية ست شعب هي: الزواج، غض البصر وحفظ الفرج، برّ الوالدين، صلة الرحم، تأديب البنين والبنات، الإحسان إلى الخدم.

والأعمال العامة تسع عشرة شعبة وهي: طاعة أولي الأمر والتمسك بالجماعة، الحكم بين الناس بالعدل، الإصلاح بين الناس، التعاون على البر والتقوى، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إقامة الحدود، الجهاد، الأمانة، إكرام الجار، إكرام الضيف، الجود والسخاء، الستر على العصاة، تحريم أعراض الناس، موادة المؤمنين، عيادة المريض، تحريم النفوس والاعتداء عليها، تشميت العاطس، الصلاة على موتى المسلمين، إماطة الأذى عن الطريق.

فصارت شعب الإيمان ثلاثاً وسبعين، سأبينها بياناً كافياً بمشيئة الله تعالى.

الإيمان

تصديق بالقلب وإقرار باللسان

الإيمان الحقيقي لا الرمزي الشائع هو اعتقاد جازم وتصديق تام بالقلب، ثم إقرار علني باللسان ليكون القول ترجماناً للمستقر في القلب، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: ٢/١٣٦]، فهذا أمر واضح للمؤمنين بأن يقولوا بألسنتهم: آمنا وصدقنا بالله تعالى. وفرق ظاهر بين الأمرين، لقول الله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٤]، فدلّ على التفرقة بين اعتقاد القلب والتلفظ باللسان، فلو وجد مجرد القول باللسان دون تصديق بالقلب، لم يكن هناك إيمان.

ويؤكد ذلك ما ثبت في السنة النبوية من قوله ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة: «أمرت أن أقاتل الناس[1] حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، فإن شهدوا أن لا إله إلا الله، وآمنوا بي، وبما جئت به، فقد عصموا مني دماءهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». دلَّ الحديث على وجوب اقتران الشهادة والإعلان باللسان مع الإيمان في القلب.

---

(١) أي مشركي العرب الوثنيين.

يوضحه ما رواه النسائي والبيهقي وغيرهما عن أنس بن مالك، عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صادقاً من قلبه، دخل الجنة»[1].

وروى أحمد عن أنس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

والجمع بين التصديق بالقلب وإعلان الشهادتين باللسان ينجّي الإنسان من النار، فلا يخلَّد فيها إن كان عاصياً، ولم تمسّه النار إن طائعاً، لما رواه ابن مردويه والطبراني في الكبير والخطيب البغدادي عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلّ[2] بها لسانه، واطمأن بها قلبه، لم تَطْعمه النار».

ومن طرائف قول مجاهد من التابعين في هذه المناسبة فيما رواه أبو يعلى عنه: أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٦]، قال: شهد بالحق وهو يعلم أن الله ربُّه.

إن التلازم بين الاعتقاد بالقلب الذي هو الإيمان، والإقرار باللسان الذي هو الإسلام، واجب في شرع الله ودينه، فمن لم يعتقد بقلبه اعتقاداً جازماً أن الله ربّه، وأن محمداً رسوله، لم يكن مؤمناً، ومن نطق بالشهادتين في الظاهر دون تصديق بالقلب، كما كان عليه حال المنافقين، فليس بمؤمن ولا بمسلم حقاً، فمن جمع بين الإيمان في القلب والإعلان باللسان كان مؤمناً مسلماً.

والإيمان والإسلام قوام الدين، لأن الإيمان هو التصديق، والإسلام هو التسليم والخضوع لله عز وجل.

---

(١) قال الهيثمي: رجاله موثقون، وأخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) نطق بها لسانه بسهولة وخضع.

روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ سئل عن الإيمان مرّة فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر». وسئل عن الإسلام فقال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان».

وكما أنه لا بد من الاقتران بين إذعان القلب والتصديق فيه تصديقاً تاماً، وإعلان الشهادتين باللسان، لا بد أيضاً من جعل الإيمان القلبي شاملاً للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ولا بد كذلك من ممارسة أركان الإسلام وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً.

وبه يتجلى ويظهر حال المسلمين الآن وفي كل زمان، ترى الأكثرية منهم يقولون: إنهم مؤمنون مصدقون بأركان الإيمان الستة، ولكنهم متفاوتون تفاوتاً واضحاً في ميدان الطاعة، فمنهم من لا يصلي، ولا يصوم، ولا يحج، ولا يزكي، ومنهم من يصوم فقط، ويهمل بقية أركان الإسلام، ومنهم من يصوم ويصلي ويحج لأنها أمور سهلة في الممارسة والتطبيق حيث إنها لا تكلف الإنسان شيئاً، لكنه يهمل أداء زكاة أمواله من زراعة أو تجارة أو ملك ماشية، أو ثروة نقدية، فهؤلاء جميعاً مقصرون في أداء الطاعات، عصاة آثمون بسبب تعطيل فرض أو أكثر من فرائض الإسلام، وهم مسؤولون أمام الله عن تقصيرهم وعصيان أوامر ربّهم.

الطاعات إيمان بالله تعالى

أول أصول الإيمان الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. وأداء الطاعات كلِّها لله سبحانه من جوامع الإيمان، فهي دليل على مصداقية الإيمان، وأساس الحكم على الإنسان بأنه مؤمن. قال الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢-٤]. فالموصوفون بهذه الصفات استوجبوا اسم المؤمنين حقاً بسبب ممارستهم الأعمال التي وصفهم الله تعالى بها، سواء كانت مفروضة أو مندوبة، ويدخل فيها أيضاً الامتناع عن المعاصي، لأنه من أمارات وَجَل القلب. وهذه الصفات المذكورة في الآيات المتقدمة هي وجَل القلب، أي الخوف من الله، وتلاوة القرآن، والتوكل على الله، وإقامة الصلاة التي هي عبادة بدنية، والإنفاق في سبيل الله الذي هو عبادة مالية، فهذه كلها طاعات يكتمل بها الإيمان. وكذلك اجتناب المعاصي من علامات الإيمان، كما قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٧]. دلت الآية على أن الكفر والفسوق من نواقض الإيمان، وأن الطاعات كلها

إيمان. والفسوق الذي ينقض الإيمان هو ما كان من الكبائر أو الإصرار على الصغائر.

والصلاة إيمان لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]. وجعل رسول الله ﷺ الطهور من الإيمان، أي التطهر فيما أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الطهور شطر الإيمان».

والحج والصيام والجهاد والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، لما أخرجه أبو داوود عن معاوية بن سويد بن مقرّن عن البراء مرفوعاً، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ يوماً نتحدث، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون أي عُرَى الإيمان أوثق؟» فقالوا: الصلاة. فقال: «إن الصلاة لحسنة، وما هي بها». فقالوا: الجهاد. فقال: «إن الجهاد لحسن، وما هو به». فقالوا: الحج. فقال: «إن الحج لحسن وليس به» فقالوا: الصيام. فقال: «الصيام لحسن، وليس به». فقال رسول الله ﷺ: «إن أوثق عُرَى الإيمان أن تحب لله، وتبغض له». أي تحب من أجل مرضاة الله، وتبغض كل ما يبغض الله، ومن أجل الله، فذلك هو عنوان الإيمان ومنطلقه، وجعل النبي ﷺ هذه الشرائع كلها من الإيمان، وجعل عنوانها أو مفتاحها أو شاهدها الحب في الله والبغض في الله، لما أخرجه الترمذي - وهو حديث حسن - عن عبد الله بن يزيد مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «من أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله، فقد استكمل إيمانَه». فهذه الخصال كلها إيمان، وأوثق عرى الإيمان الإخلاص.

يوضح ذلك ما رواه ابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»[1]. أي إن

---

(١) لكن سنده ضعيف.

العمل بأركان الإسلام هو عمل بالطاعات، والطاعات من شعب الإيمان، وممارستها إيمان لله ورسوله.

ويرشد إلى اعتبار الطاعات من الإيمان قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧]. دلَّ على أن الأعمال الصالحة أي الطاعات هي رديف أصل الإيمان الذي يخرج الناس من ظلمات الكفر، وأن الطاعات هي من فروع الإيمان، ومن الطاعات مثلاً إماطة الأذى عن الطريق، فهي من شعب الإيمان.

وأما آية ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١٠٣/٣]، فهي مثل الآية السابقة، لكنه تعالى أفرد بالذكر التواصي بالحق والتواصي بالصبر من قبيل عطف الخاص على العام، أي عطف هذين الأمرين على الأعمال الصالحة، زيادة في التنويه أو العناية بشأن التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهما من الأعمال الصالحة. والأعمال الصالحة ترقى بالإنسان من أصل الإيمان الناقل من الكفر إلى الدرجة الأكمل والأوفى، ويكون العمل الصالح الشامل لكل الطاعات لزيادة الإيمان، واكتمال الإيمان، وكل أصول الإيمان مؤهلة لدخول الجنات.

وعبر الحافظ البيهقي عن أصل الإيمان بأنه الإيمان بالله، وعن عمل الصالحات، أي الطاعات بأنه إيمان لله، أي قبول عنه وطاعة له، وعبادة له. وكذلك الإيمان للرسول معناه قبول عنه دون عبادة له، لأن العبادة لا تجوز من أحد لأحد إلا لله عز وجل.

والخلاصة: إن أصل الإيمان واحد وهو الإيمان بالله تعالى أي بوجوده وتوحيده، وللإيمان فروع وشعب كلها تكمِّل الإيمان وتدل عليه، وهي الطاعات كلها من فرائض ونوافل، وانزجار عن المعاصي.

الإيمان والإسلام دين واحد

الشائع بين الناس ولدى جمهور العلماء أن الإيمان غير الإسلام، فهما متباينان يدل كل منهما على معنى يختلف عن معنى الآخر، والظاهر أنهما اسمان لدين واحد، ويكمِّل كل منهما الآخر، وإن كانت حقيقة الإسلام التسليم والانقياد لله تعالى، وحقيقة الإيمان التصديق، فاختلاف الحقيقة فيهما في اللغة والعرف لا يمنع أن يجعلا اسماً لدين واحد، كالغيث والمطر، هما اسمان لمسمى واحد، وإن كانت حقيقة الغيث في لسان العرب غير حقيقة المطر.

والأدلة على كون الإسلام والإيمان ديناً واحداً في الاصطلاح الشرعي كثيرة، منها آيتان: آية ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ٣/١٩] وآية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٣٦] حيث أرشدنا الله إلى أن الإيمان بالله إسلام.

ومنها آية ثالثة في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٣٥-٣٦]. فسماهم الله مرة مؤمنين، ومرة مسلمين، وإنما أراد الله تمييزهم عن غيرهم بأديانهم، فصح - كما قال البيهقي في شعب الإيمان[1] - أن الإيمان والإسلام اسمان لدين واحد.

---

(١) ١/ ٥٠.

ويؤكده أحاديث صحاح، منها ما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لوفد عبد القيس من ربيعة: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وأن تعطوا من المغانم الخمس..».

فسمى رسول الله ﷺ كلمة الشهادة في هذا الحديث إيماناً، وسماها في حديث آخر إسلاماً.

وهذا الحديث الآخر هو ما أخرجه أصحاب الكتب الستة إلا البخاري باللفظ الآتي من حديث عمر رضي الله عنه المشهور، حيث أجاب النبي ﷺ جبريل عليه السلام حينما سأله عن الإسلام، فقال: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». وقال عن الإيمان: «أن تؤمن بالله، وملائكته، والجنة والنار والبعث بعد الموت، والقدر كله».

قال الإمام أبو بكر البيهقي رحمه الله في الشعب[1]: وفي تسمية كلمة الشهادة في هذا الحديث إسلاماً، وفي الحديث الأول إيماناً دلالةٌ على أنهما اسمان لمسمى واحد، إلا أنه فَسَّر في هذا الحديث الإيمان بما هو صريح فيه وهو التصديق. وفسَّر الإسلام بما هو أمارة له، وإن كان اسمُ صريحه يتناول أماراته، واسم أماراته يتناول صريحه، وهذا كما فصَّل بينهما وبين الإحسان، وإن كان الإيمان والإسلام إحساناً، والإحسان الذي فُسِّر بالإخلاص واليقين يكون إيماناً، والله تعالى أعلم.

يؤيده حديث البخاري ومسلم والترمذي وأحمد والبيهقي وابن خزيمة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادةِ

---

(١) ١/٥٣ - ٥٤.

أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». وفيه دلالة واضحة حيث سمى هذه الأركان الخمسة في هذه الرواية إسلاماً، وقد سمّاهنَّ في رواية أخرى إيماناً، كما ذكر في حديث وفد عبد القيس.

وأخرج مسلم أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن، ما لك تحجّ وتعتمر، وقد تركت الغزو[١] في سبيل الله؟ قال: ويلك! إن الإيمان بني على خمس: تعبدُ الله، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان. قال: فردَّها عليه[٢]، فقال عبد الله: كذلك حدثنا رسول الله ﷺ، ثم الجهاد بعد ذلك حسن. قال البيهقي: وإنما أراد - والله أعلم - أن الجهاد من فروض الكفايات، وليس بفرض على الأعيان.

وفي حديث آخر تصريح بأن الإسلام هو الإيمان، وهو ما أخرجه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، من حديث عمرو بن عبَسة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال: «أسلم تسلم». قال: وما الإسلام؟ قال: «تُسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك». قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»[٣]. قال: فما الإيمان؟ قال: «تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبالبعث بعد الموت. قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال: «الهجرة». قال: وما الهجرة؟ قال: «أن تهجر السوء». قال: فأي الهجرة أفضل؟

---

(١) الغزو كلمة في أصل اللغة مرادفة لكلمة الجهاد، لا بالمعنى الشائع في عصرنا.

(٢) أي حاول الرد عليه بإيراد كلمة (الإسلام) بدل (الإيمان).

(٣) أراد أن الإيمان أفضل الإسلام، ثم فسره بأركان الإيمان مريداً أن الإيمان بالغيب أفضل من الإيمان بما يُشاهد ويُرى، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٢/ ٣] مدحاً لهم وثناء عليهم.

قال: «الجهاد»؟ قال: وما الجهاد؟ قال: «أن تجاهد - أو تقاتل - الكفّار إذا لقيتَهم».

والإسلام يشمل الاعتقاد والأعمال الظاهرة لأن قول النبي ﷺ: «الإسلام أن تسلم قلبك لله» إشارة إلى تصحيح الاعتقاد، وقوله: «أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك» إشارة إلى تصحيح المعاملات الظاهرة.

قال الحليمي: وهذا يدل على أن الطاعات في الإيمان إيمان، وأن المعاصي في الكفر كفر، فإذا أسلم الكافر أحبط إسلامُه كفرَه. فإن أحسن في الإسلام، أحْبَطت طاعاته تلك المعاصي التي قدَّمها في حال كفره، وإن لم يحسن في الإسلام، بقيت تلك المعاصي بحالها، لم يجد ما يحبطها، فأُخذ بإساءته في الإسلام وما قبله. أي والإسلام يجبُّ ما قبله، لا يُلزم بقضاء ما فاته من صوم وصلاة، لسقوطها عنه.

زيادة الإيمان ونقصانه

إن جوهر الإيمان وأساسه وأصله إذا تمكّن في القلب لا يزيد ولا ينقص، ولكن تزداد درجة الإيمان بزيادة الطاعات، وتنقص درجة الإيمان بنقص الطاعات، لأن الطاعات - كما تقدم - كلها إيمان. وهذا هو المراد من زيادة الإيمان في الآيات القرآنية وهي: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٤]، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣١].

ثبت بهذه الآيات الكريمات أن الإيمان قابل للزيادة بالطاعات، فإذا انعدمت الزيادة نقص الإيمان. ودلّت السنة على ما دلّ عليه القرآن.

منها ما أخرجه أحمد والحاكم، وصححه الذهبي، عن عبد الله بن يزيد المقرئ مرفوعاً من دون الجملة الأخيرة، وأخرجه أحمد أيضاً وأبو داوود والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وخياركم خياركم لنسائهم». قال الحليمي رحمه الله: دلَّ هذا القول على أن حسن الخُلُق إيمان، وأن عدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين متفاوتون في إيمانهم، فبعضهم أكمل إيماناً من بعض.

وفي حديث آخر يدل على ضعف الإيمان بسبب ضعف الطاعة، وهو ما أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة أيضاً يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أخاف على أمتي إلا ضعف اليقين»(١). وكلا الحديثين يدلان على تفاوت المؤمنين في اليقين.

أما قوله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/٣] وما ورد في معناه، فإنه لا يمنع من القول بزيادة الإيمان ونقصانه، لأن معنى الآية: إني أكملت لكم وضع الدين في أساسه وفروعه المشروعة، فلا أفرض عليكم من بعدُ ما لم أفرضه عليكم إلى اليوم، ولا أضع عنكم بعد اليوم ما قد فرضتُه قبل اليوم، فلا تشديد من الآن ولا تخفيف، ولا نسخ ولا تبديل. وليس معناه - كما قال البيهقي - أنه أكمل لنا ديننا من قبل أفعالنا، لأن ذلك لو كان كذلك، لسقط عن المخاطبين بالآية الدوام على الإيمان، لأن الدين قد كمل، وليس بعد الكمال شيء، فالكمال راجع إلى إكمال الشرع والوضع من حلال وحرام، لا إلى كمال أداء المؤدين له بالطاعات، وقيام القائمين به. وبعد نزول هذه الآية أثناء وقوف النبي ﷺ في عرفات، لم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام. ثم مكث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين يوماً، ثم قبضه الله تعالى إليه وإلى رحمته.

وتتبدى منزلة هذه الآية فيما أخرجه البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب أن رجلاً من اليهود قال لعمر: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم

---

(١) حديث حسن.

تقرؤونها، لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أيُّ آيـة؟ قـال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/٣]، فقال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي أنزلت فيه على رسول الله ﷺ، بعرفات يوم الجمعة.

ومن أسباب نقص الإيمان رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ في قوله تـعـالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٤٩/٢]، والمعنى لا يحملنكم أيها المهاجرون هجرتُكم مع النبي ﷺ، ولا أيها الأنصار إيواؤكم إياه على أن تضيِّعوا حرمته، وترفعوا أصواتكم فوق صوته، فتكونوا بذلك صارفين ما تقدم منكم من الهجرة، والإيواء والنصرة عن ابتغاء وجه الله به إلى غرض غيره، ووجهٍ سواه، فلا تستوجبوا به مع ذلك أجراً.

وكذلك إبطال الصدقات بالمنّ والأذى، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٤]، فليس معناه أن المنَّ يحبط الصدقة، وإنما المراد أن المنَّ من المتصدق على السائل، وإيذاءه بالتعيير يصرف عمله عن ابتغاء وجه الله تعالى إلى وجه السائل، فيحبط الله أجره.

وبما أن المبدأ المقرر في الإسلام «أن سيئات المؤمن متناهية الجزاء، وحسناته ليست بمتناهية» فإن تبعة السيئة المتناهية لا تأتي على ثواب حسنة لا نهاية له.

وأما قول النبي ﷺ الذي أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عمر: «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان». فمعناه أنه يحرم لأجل هذه السيئة بعض ثواب عمله، ويجوز أن يُحَرم بعض جزاء حسناته، ويقلِّلُ الله ثوابه لأجل سيئة أو سيئات تكون منه.

وكذلك شأن المفلس يوم القيامة الذي يشتم غيره أو يقذف غيره أو يأكل مال غيره، أو يسفك دم غيره، فإنه يعطى خصماؤه من أجر حسناته ما يوازي عقوبة سيئاته فإن فني أجر حسناته، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار، كي يعذب بها إن لم يُغْفَر له، فإذا عوقب على الخطايا رُدّ إلى الجنة بسبب ما كُتب له من الخلود، فضلاً من الله ورحمة للمؤمن.

تفاضل المؤمنين في الإيمان

يترتب على المبدأ الذي تقدم بيانه بزيادة الإيمان ونقصه أن المؤمنين متفاضلون متفاوتون في إيمانهم، كما هم متفاضلون في أعمالهم، وذلك بسبب التفاضل أو التفاوت في الطاعات، مما يترتب عليه أنه يحرم أن يقول قائل: إيماني وإيمان الملائكة والنبيين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - واحد. فلا يصح أن يقارن إيمان هؤلاء الصفوة بغيرهم، سواء أكانوا صالحين أم عاديين. والأمثلة على ذلك كثيرة.

أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبة يرفعُ الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن». المراد بقوله: «وهو مؤمن» مطلق الإيمان، لكنه في الواقع ناقص الإيمان بما ارتكب من الكبيرة، ولم ينزجر عنها، وذلك لا يترتب عليه الوقوع في الكفر أو التكفير بالله عز وجل، وهكذا كل موضع من كتاب أو سنة، ورد فيه تشديد على ترك فريضة، أو ارتكب كبيرة، فإن المراد به نقصان الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء ٤/ ٤٨ و ١١٦].

وهذه آثار عن الصحابة تدل على أن الطاعات من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص بسببها، وأن أهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان،

منها ما أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة، عن هُزَيل بن شَرْحبيل قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو وُزِن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرَجَح بهم».

وأخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن طلحة عن زُبيد عن ذَرّ قال: كان عمر بن الخطاب ﷺ ربما أخذ بيد الرجل والرجلين يقول: «تعالوا نزدد إيماناً».

وأخرج ابن أبي الدنيا في اليقين عن العلاء بن عبد الرحمن قال: قام رجل إلى علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين، ما الإيمان؟ فقال: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، والعدل، واليقين، والجهاد». ثم ذكر تقسيم كل واحدة من هذه الدعائم.

وأخرج ابن أبي شيبة في الإيمان أن حِجْر بن عدي قال: سمعت علي بن أبي طالب ﷺ يقول: «الوضوء نصف الإيمان».

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وغيرهم عن بُريدة بن حصيب عن النبي ﷺ أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». والمراد أنه ناقص الإيمان لله تعالى بترك شعبة من شُعبه، وليس المراد به الكفر الذي يكون نقيض الإيمان بالله، إذا لم يجحد أو ينكر فرضية الصلاة.

وأخرج ابن أبي شيبة في الإيمان وغيره قال: قال معاذ بن جبل لأصحابه: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة». أي نذكر الله. وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن ابن مسعود أنه قال: «اجلسوا بنا نَزْدَدْ إيماناً». وأخرج أحمد والآجري في الشريعة أن ابن مسعود كان يقول: «اللهم زدني إيماناً وفقهاً». وكل ذلك يدل على أن الإيمان يزداد بالطاعة، وبه يزداد إيمان الطائع.

وكان أبو هريرة - فيما قال داوود بن الحسين البيهقي - يقول: «ثلاث من الإيمان: أن يَحْتَلم الرجل في الليلة الباردة، فيقوم فيغتسل لا يراه إلا الله، والصوم في اليوم الحارّ، وصلاة الرجل في الأرض الفلاة لا يراه إلا الله».

وأخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء قال: «الإيمان يزداد وينقص». وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: «الإيمان يزاد وينقص». وأخرج ابن أبي شيبة عن حبيب بن خماشة قال: «الإيمان يزيد وينقص». فقيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: «إذا ذكَرْنا ربّنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيَّعْنا فذلك نقصانه». وكل هذه الآثار تدل صراحة على أن إيمان المؤمنين يزداد بذكر الله وبالطاعة، وينقص بالغفلة عن ذكر الله وتضييع الطاعات.

ومثال ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص من إيمانه». وأخرج ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن عديّ بن عديّ أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه: «أما بعد، فإن للإيمان حدوداً وشرائع وفرائض، من استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها، لم يستكمل الإيمان».

وحدّث سفيان الثوري عن مجاهد قال: «الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص». وأخرج الطبري في التفسير عن مجاهد أيضاً في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠] قال: أزدادُ إيماناً إلى إيماني».

وأخرج ابن النجار والديلمي وسعيد بن منصور عن أنس بن مالك، وذكره أبو عبد الله البيهقي عن الحسن البصري قال: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدّقته الأعمال، من قال حسناً، وعمل غير صالح، ردّه الله على قوله، ومن قال حسناً، وعمل

صالحاً، رفعه العمل». ذلك بأن الله تعالى قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

كل ما ذكر يدل على أن إيمان المؤمنين يزداد بالعمل الصالح، وينقص بسوء العمل، والله يتقبل العمل الصالح.

تعليق الإيمان على المشيئة

(الاستثناء في الإيمان)

الإيمان إخبار عن تصديق القلب بعناصر الإيمان الستة المعروفة، ويجب أن يكون إيراد الخبر جازماً قاطعاً دون تردد، ودون استثناء أي ربطه بمشيئة الله تعالى، فلا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لأن القائل يخبر عما في نفسه من اعتقاد في الحال، إلا على أساس ربطه بالرجاء والطمع بفضل الله، أو إذا كان الخبر عن المستقبل خاصة، أو كان وارداً على كمال الإيمان لا على أصله وأساسه. وهذا توضيح ما ذكر في النصوص والآثار والأقوال.

دليل الجزم بالإيمان دون تردد ما أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان من حديث موقوف صحيح الإسناد، عن علقمة قال: قال رجل عن عبد الله بن مسعود: أنا مؤمن. فقال له: قل: إني في الجنة. فرد عليه قائلاً: ولكنا نقول: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله. فهذا ابن مسعود يخبر عن حاله بقوله: «أنا مؤمن» وهذا إخبار عن الحال، أما المستقبل فيكل أمره إلى الله عز وجل.

أما تعليق الإيمان بالرجاء فهذا لا مانع منه، لما ذكر إبراهيم النخعي، قال: قال رجل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله. قال

البيهقي: وهذا مروي أيضاً عن جماعة من الصحابة والتابعين والسلف الصالح ﷺ أجمعين.

وروى البيهقي عن معاذ بن جبل ﷺ أنه خطب الناس فقال: «أنتم المؤمنون، أنتم أهل الجنة، والله إني لأطمع أن يكون عامةُ من تصيبون من أهل فارس والروم في الجنة، لأن أحدهم يعمل لكم العمل، فتقول: أحسنت رحمك الله، بارك الله فيك، والله يقول: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٦]» فهذا معاذ جزم بوصف الجماعة بأنهم مؤمنون من أهل الجنة، ثم قال في آخر كلامه: «إني لأطمع» فهذا على سبيل الرجاء وتفويض الشأن في دخول الجنة لله تبارك وتعالى.

ويؤكده ما روى محمد بن إسحاق، عن سعيد بن يسار قال: بلغ عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً يزعم أنه مؤمن، فكتب إلى أميره أن ابعثه إليّ، فلما قدم عليه، قال: أنت الذي تزعم أنك مؤمن؟ قال: نعم، والله يا أمير المؤمنين. قال: ويحك، ومِمَّ ذاك؟ قال: أو لم تكونوا مع رسول الله ﷺ أصنافاً: مشرك، ومنافق، ومؤمن، فمن أيهم كنتَ؟ قال: فمدّ عمر يده إليه معرفة لما قال، حتى أخذ بيده[1]. وهذا الموقف من عمر تثبّت من القول المقول، ثم إقرار وتصويب بما قال حين اطمأن لقوله.

وفي حادثة أخرى أخبر محمد بن إسحاق أيضاً عن عثمان بن الأسود، قال: قلت لعطاء بن أبي رباح (من التابعين): الرجل يقول: لا أدري أمؤمن أنا أم لا؟ قال: «سبحان الله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢/٣] فهو الغيب، فمن آمن بالغيب، فهو مؤمن

(١) حديث مرسل.

بالله». دلَّ قول عطاء هذا على صحة تسمية من آمن بالله وبرسوله بالمؤمن فيما يخبر عن نفسه في الحال أو الوقت الحاضر.

قال الحليمي رحمه الله تعالى: لا ينبغي للمؤمن أن يمتنع من تسمية نفسه مؤمناً في الحال لأجل ما يخشاه من سوء العاقبة - نعوذ بالله منه - لأن ذلك إن وقع، وحبط ما قدَّم من إيمانه، فليس ينقلب الموجود منه معدوماً من أصله، وإنما يحبط أجره، ويُبطل ثوابه. أي إنَّ وصْفَه نفسه الآن بالإيمان صحيح، فإذا تغير حاله ظل كلامه السابق صحيحاً، لكنه يحبط إيمانه وعمله.

فقول المؤمن: أنا الآن مؤمن. غير مستنكر، وإنما يصح الاستثناء أي الربط بمشيئة الله إذا كان الخبر عن المستقبل خاصة، ويكون المراد من إخبار المؤمن عن وضعه في المستقبل: أرجو أن يمنَّ علي بالتثبت ولا يسلبني هدايته، بعد أن آتانيها.

ويصح الاستثناء أو التعليق بمشيئة الله تعالى في موضع ثالث، وهو أن يرد الاستثناء على كمال الإيمان لا على أصله وأُسّه، كما روي أن رجلاً سأل قتادة بن النعمان (من التابعين): أمؤمن أنت؟ فقال: أما أنا فأومن بالله، وملائكته، وبكتبه، وبرسله، وبالبعث بعد الموت، وبالقدر خيره وشره، أما الصفة التي ذكرها الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قرأ الآيات إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢ - ٤]، فلا أدري أنا منهم أم لا.

دلَّ هذا على أن قتادة أبان أنه قد آمن الإيمان الذي يُبعده عن الكفر، ولكنه لا يدري استكمل الأوصاف التي حكى الله تعالى بها قوماً من المؤمنين، فأوجب لهم بها المغفرة والدرجات، فكان تشككه في استكمال أوصاف الإيمان التي توجب له الدرجات، لا في مجانبة الكفر الذي يسقط عنه العذاب، فلا يكون من الشاكّين.

ويؤكده ما أخبر به أبو عبد الله الحافظ عن تمام بن نجيح قال: سأل رجل الحسن البصري عن الإيمان فقال: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٨/٢ - ٤]، فوالله ما أدري أنا منهم أو لا.

والخلاصة: يصح للمؤمن أن يخبر عما هو عليه من الإيمان في الحال، ولا يقول: أنا مؤمن عند الله عز وجل. لأن الله يعلم ما يصير إليه أمره في المستقبل، وهو لا يعلم، فيفوّض الأمر فيما لا يعلم إلى عالمه وهو الله تعالى.

ألفاظ الإيمان

الدخول في الإسلام يتطلب النطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وكذلك التبرؤ من الدين السابق، وقد ينعقد الإيمان بغير هذا القول المعروف، إذا أتى الإنسان بما يؤدي معناه، بدليل الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٢٦-٢٨]، والكلمة الباقية هي قول: لا إله إلا الله.

ويؤيد مدلول الآية الحديث المتواتر الذي أخرجه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس[1] حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها[2]، وحسابهم على الله».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله عليه[3]». قال عمر: فما أحببت الإمارة قط حتى يومئذ. فدعا علياً، فبعثه. ثم قال: «اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت». قال علي رضي الله عنه: على ماذا أقاتل الناس؟ قال:

(١) هم مشركو العرب الوثنيون بالإجماع.

(٢) ومن حقها قتال المرتدين المحاربين.

(٣) قال سهيل بن أبي صالح: «أحسبه خيبر».

«قاتلهم، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا منكم[١] دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل».

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: الإقرار بالإيمان وجهان: فمن كان من أهل الأوثان، ومن لا دين له يدّعي أنه دين نُبوّة، فإذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فقد أقرَّ بالإيمان، ومتى رجع عنه قُتل. ومن كان على دين اليهودية والنصرانية، فهؤلاء يدَّعون دين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وقد بَدَّلوا منه، وقد أُخذ عليهم فيه الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، فكفروا بترك الإيمان به، واتباع دينه، مع ما كفروا به من الكذب على الله قبله، فقد قيل لي: إن فيهم من هو مقيم على دينه يشهد أن لا إله إلا الله، ويشهد أن محمداً رسول الله، ويقول: لم يُبعث إلينا. فإن كان فيهم أحد هكذا، فقال أحد منهم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، لم يكن هذا مستكمل الإقرار بالإيمان حتى يقول: وإن دين محمد حق أو فرض، وأبرأ مما خالف دين محمد ﷺ أو دين الإسلام، فإذا قال هذا فقد استكمل الإقرار بالإيمان.

وقياساً على هذا الكلام كل من تلفظ بكلام محتمل، لم يكن ذلك منه صريح إقرار بالإيمان حتى يأتي بما يرفع الاحتمال.

وقد ينعقد الإيمان بغير القول المعروف من النطق بالشهادتين إذا أتى بما يؤدي معناه. فمن قال من المشركين: أنا مسلم أو أسلمت لله. قبل قوله، لما رواه البخاري ومسلم من حديث المقداد بن الأسود أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيتُ رجلاً من الكفار، فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف، فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أقتلُه يا

---

(١) في صحيح مسلم: «منعوا منك».

رسول الله، بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتله» فقلت: يا رسول الله، إنه قطع يدي، ثم قال ذلك بعد، أقتلُه؟ فقال: «لا تقتلْه، فإن قتلْتَه فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول الكلمة التي قال».

وأما حكم من كفَّر مسلماً فحرام، فإن كان المخاطب كافراً فصحيح، وأما إن كان مسلماً، فيرجع الاتهام للقائل، ويكون هو الكافر، فمن كفَّر مسلماً كفر، لما أخرجه مسلم عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «إذا كفَّر الرجل أخاه، فقد باء بها أحدهما». وفي رواية أخرى: «إن كان كما قال، وإلا رجعت إليه».

قال الحليمي رحمه الله: إذا قال ذلك مسلم لمسلم، فهذا على وجهين: إن أراد أن الدِّين الذي يعتقده كُفْر، كفر بذلك. وإن أراد أنه كافر في الباطن، ولكنه يظهر الإيمان نفاقاً، لم يكفر. وإن لم يُرد شيئاً، لم يكفر، لأن ظاهره أنه رماه بما لا يعلم في نفسه مثله.

والدليل في حال كون المنافق هو المخاطب ما رواه البيهقي رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في حاطب بن أبي بلتعة، حين خان رسول الله ﷺ بالكتابة إلى أهل مكة[1]: دعني أضربُ عُنُق هذا المنافق. فسماه عمر منافقاً، ولم يكن منافقاً، فقد صدَّقه النبي ﷺ فيما أخبر عن نفسه[2]، ولم يَصِرْ به عمر كافراً، لأنه أكفره بالتأويل، وكان ما ذهب إليه عمر محتَملاً.

والخلاصة: أن كلمة الإسلام لله تعصم الإنسان عن القتل أو الاعتداء، وهي كلمة عظيمة، لا يجوز لأحد إهدارها أو المساس بها،

---

(١) أي قريش أهل مكة قبل فتح مكة.

(٢) أي صدَّق النبي ﷺ حاطباً فيما أخبر به أنه لم يفعل ذلك نفاقاً أو كفراً، وإنما وفاء بمعروف قدمته قريش له.

فلا يصح أن يبادر الإنسان لقتل المعتدي بعد إعلان الإسلام. ولا يجوز لمسلم أن يتهم غيره من المسلمين بالكفر، أو يخاطبه بكلمة: يا كافر. فتلك كلمة خطيرة، يتحمل وزرها القائل إن كان المخاطب مسلماً.

إيمان المقلِّد والمرتاب

المقلِّد من تديَّن بدين لأنه دين آبائه وقرابته، وأهل بلده، وليس لديه حجة على صحة عقيدته. أي إن إيمانه مجرد وراثة دون حجة ولا برهان.

والمرتاب من يقول: اعتقدت الإسلام، وتابعت أهله احتياطاً لنفسي، فإن كان حقاً فقد فُزْت، وإن لم يكن شيء من ذلك، لم يضرني.

وكل واحد من هذين ليس بمسلم.

وعلى المسلم أن يثبت صحة عقيدته أو إيمانه بدليل من الأدلة أو حُجة من الحجج ليكون إيمانه عن قناعة ورضا، لا عن مجرد تقليد أو وراثة.

فمن استطاع أن يثبت إيمانه بالله تعالى بكونه قادراً لا يعجزه شيء، عالماً، حكيماً، كان ولا شيء غيره، وهو الذي خلق أو أبدع كل موجود سواه من السماوات والأرض وما بينهما، وهو الذي أنعم بالخيرات على المخلوقات، ورزق كل إنسان بما يحتاج إليه، وأن كل موجود لا يشبه الله تعالى لا من جنسه ولا مثله، ولا من قدرته، فهذا إيمانه صحيح، لأنه استطاع أن يقنع نفسه وغيره بهذا الكلام.

ومن اقتنع أن الله أرسل رسوله محمداً ﷺ إلى الناس ليعرِّفهم عليه، وينبِّههم على آثار خلقه، ويدعوهم إلى طاعته وعبادته، وذلك بدليل أنه

الصادق الأمين فيما أخبر عنه، أو لإظهار معجزات النبوة على يديه مما لم يأت أحد بمثله، فهذا إيمانه صحيح.

ومن قدر أن يضيف أدلة كثيرة ولو بسيطة على صحة إيمانه، كان خيراً وأجدى، وتعزّز إيمانه وزاد بمقدار الأدلة التي يوردها.

والأمثلة على أدلة الإيمان كثيرة، منها ما أخرجه الإمام أحمد وغيره من قصة **إيمان النجاشي** ملك الحبشة، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: إن النبي ﷺ لما فُتن أصحابه بمكة، أشار عليهم أن يلحقوا بأرض الحبشة.. وجاء في الحديث أن جعفر بن أبي طالب كلَّم النجاشي، حينما سأله عن النبي ﷺ فقال: كنا على دينهم - يعني دين أهل مكة - حتى بعث الله عز وجل فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وعفافه، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئاً، ونخلعَ ما يعبد قومنا وغيرُهم من دونه، وأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر، وأمرنا بالصلاة والصيام والصدقة وصلة الرحم، وكلِّ ما يُعرَف من الأخلاق الحسنة، وتلا علينا تنزيلاً جاءه من الله عز وجل لا يشبهه شيء غيره، فصدّقناه وآمنا به، وعرفنا أن ما جاء به هو الحق من عند الله عز وجل، ففارقنا عند ذلك قومنا وآذونا وفتنونا، فلما بلغ منا ما يُكره، ولم نقدر على الامتناع، أمَرَنا نبينا ﷺ بالخروج إلى بلادك، اختياراً لك على من سواك، لتمنعنا منهم.

فقال النجاشي: هل معكم مما أُنزل عليه شيء تقرؤونه عليَّ؟

قال جعفر: نعم، فقرأ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١٩/١] فلما قرأها، بكى النجاشي، حتى أخضل لحيته[١]، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، **وقال النجاشي**: إن هذا الكلام والكلام الذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة.

(١) ابتلّت.

وقصة أخرى وهي إيمان رجل عادي، روى البيهقي عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: بِمَ كنت نبياً؟ قال: «أرأيت إن دعوتُ شيئاً من هذه النخلة فأجابني، تؤمن بي؟». قال: نعم، فدعاه، فأجابه، فآمن به وأسلم.

وهناك أمثلة كثيرة من إيمان رجال من السلف حين رأوا شيئاً من معجزات النبي ﷺ، واطلعوا على صدقه، وصحة قوله.

قال الخليفة عمر بن عبد العزيز حين سأله رجل عن شيء من الأهواء فأجابه: عليك بدين الأعرابي والغلام في الكتّاب، واله عمن سواه. وقال هذا غيره من السلف.

وهذا دليل مبسط، ولا حاجة كبيرة لما يذكره علماء الكلام من إقامة الأدلة العقلية على صحة نبوة الرسول ﷺ، لأن نبوته تأيدت بالحجج، وتوحيد الله ثبت بأدلة كثيرة، فكان ذلك كافياً في إثبات التوحيد والنبوة معاً، ولا حاجة لغيرها من الأدلة المعقدة أو البعيدة عن عقول الذين لم تكتمل عقولهم، لذلك نهى جماعة من الأئمة كالإمامين مالك والشافعي عن الاشتغال بعلم الكلام إشفاقاً منهم على الضعفاء أو الناس العاديين، أو لاشتغال أهل الأهواء به.

لكن الاشتغال بعلم الكلام مفيد لإقناع أهل العلم أعداء الله تعالى، لإيراد الأدلة العقلية والنظرية والبراهين النيِّرة التي تثبت أن مذاهب أهل السنة توافق المعقول، كما توافق ظواهر الكتاب والسنة، وكان بعض السلف يشرع في تعلم علم الكلام والتخصص به، ويردُّ به على أهل الأهواء، منهم ما ذكر الإمام مالك أنه دخل يوماً على عبد الله بن يزيد بن هرمز، فذكر قصة، ثم قال: وكان - يعني ابن هرمز - بصيراً بالكلام، وكان يردّ على أهل الأهواء، وكان من أعلم الناس بما اختلفوا فيه من هذه الأهواء.

والخلاصة: يكفي لإثبات إيمان المؤمن العادي وجود دليل بسيط من تأملاته ومشاهداته في هذا الكون، وفي بدائع النباتات، واختلاف الألسنة والألوان، ونحو ذلك.

تبعية الأطفال في الإيمان
أو استقلالهم

يكون المولود الذي مات قبل البلوغ أو الطفل الذي توفاه الله قبل البلوغ مؤمناً ناجياً عند الله تعالى، فأولاد غير المسلمين الذين يموتون في وقت الصغر هم ناجون غير معذَّبين، لأنهم قبل البلوغ ليسوا مكلفين بشيء من التكاليف الإلهية، إنما التكليف والمسؤولية وترتيب الجزاء يكون بعد البلوغ.

والدليل على كون المولود حين الولادة يكون مؤمناً قول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الـروم: ٣٠/ ٣٠]، يؤكده الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم». وفي رواية أخرى: «كل إنسان تلده أمه يَلْكزُه الشيطان في حِضْنه إلا مريم وابنها».

قال الإمام الشافعي رحمه الله في هذا الحديث: هي الفطرة التي فطر الله تعالى عليها الخلق، فجعلهم رسول الله ﷺ - ما لم يفصحوا بالقول، فيختاروا أحد القولين: الإيمان أو الكفر - لا حكم لهم في أنفسهم، إنما الحكم لهم بآبائهم، فما كان آباؤهم يوم يولدون، فهم بحاله إما مؤمن فعلى إيمانه، أو كافر فعلى كفره.

هذا قول الشافعي المتفق مع آية كريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٥٢/ ٢١]. فقول الشافعي مفاده أن الله تعالى خلق المولود لا حكم له في نفسه، وإنما هو تبعٌ لوالديه في الدين، في حكم الدنيا، حتى يعرب عن نفسه بعد البلوغ. وأما في الآخرة فمن العلماء من ألحقهم بآبائهم في حكم الآخرة أيضاً، والأكثرون على أن أولاد المسلمين تبع لهم، وأولاد المشركين خدم أهل الجنة، أي هم في الجنة أيضاً. وذهب آخرون إلى توكيل أمرهم إلى الله عز وجل.

ومتى أسلم الأبوان أو أحدهما، صار الولد مسلماً بإسلام أبويه أو أحدهما، فالولد يتبع خير الأبوين ديناً، سواء كان المسلم أباً أو أماً، حرصاً على مصلحته.

وأما إسلام الصبي بإرادته المستقلة فمقبول، بدليل قبول إسلام علي رضي الله عنه وهو ابن عشر سنين لما أسلم.

فإذا بلغ الطفل عاقلاً، صار مكلفاً بجميع التكاليف الشرعية من إيمان وغيره، ومطالباً بأداء الفرائض والواجبات والآداب، مثل الاستئذان على الأبوين أو غيرهما، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٥٩]، فأخبر تعالى أنه إنما يثبت عليهم فرض الاستئذان إذا بلغوا. وكذلك قوله تعالى في آية: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤]، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠]، حيث خاطب تعالى بالفرائض من عقلها.

وأما ما قبل البلوغ فلا تكليف بشيء من التكاليف الشرعية، للحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن

عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن المعتوه حتى يُفيق، وعن النائم حتى يستيقظ».

وأما الدعوة إلى الإسلام فهي عامة للكبار والصغار من غير المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعوة من لم تبلغه دعوة الإسلام واجبة مستحقة، ودعوة من بلغته الدعوة إذا لم يَحتج إلى التثبت مستحبة.

والدليل هو ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له رسول الله ﷺ: «إنك لتأتي أقواماً أهل كتاب، فادْعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أجابوك لذلك، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم، فإن هم أجابوا لذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، وإياك ودعوةَ المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

تضمن هذا الحديث الشريف أصول الدعوة إلى الإسلام بالمنطق والحجة والبرهان وهي إعلان التوحيد بشهادة أن لا إله إلا الله، وهذا جذر العقيدة، ثم تكليف من أسلم بأداء خمس صلوات مفروضات في اليوم والليلة، وهذه عبادة بدنية محضة تصل الإنسان بربه، فتخشع نفسه، ويتربى بها على الفضيلة والإحسان، والامتناع عن الفحشاء والمنكر. ويليها العبادة المالية وهي فريضة الزكاة لتحقيق التكافل الاجتماعي في المجتمع المسلم، وتؤخذ الزكاة من وسط المال لا من كرائمه أو نفائسه، ولا من رديئه. وليستشعر الداعية إلى الله ضرورة الحرص على إقامة الحق والحكم بين المتخاصمين بميزان العدل، حتى لا يؤدي الحكم إلى الظلم، فإن دعاء المظلوم مقبول.

الأصل الأول من أصول الإيمان

الإيمان بالله عز وجل

الشعبة الأولى من شُعَب الإيمان أو الأصل الأول هو قول: لا إله إلا الله، فهو جوهر الإيمان وأساسه، ومرتكز الاعتقاد، وأساس قبول الأعمال الصالحة عند الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩/٤٧]، وقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم وابن منده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بِضْع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». وإعلان هذه الشهادة بتوحيد الله تشمل اعتقاد القلب، والاعتراف باللسان، ويتبع ذلك العمل الصالح. وشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن عدة أشياء:

احدها: إثبات وجود الباري جل جلاله، منعاً من تعطيل الألوهية.

والثاني: إثبات وحدانية الله تعالى، للبراءة من الشرك.

والثالث: إثبات أنه ليس بجوهر ولا عَرَض، للبراءة من التشبيه.

والرابع: إثبات كون الموجودات كانت معدومة قبل خلق الله إياها، للبراءة من قول من يقول بالعلّة والمعلول، أي مجرد العلاقة بين المؤثر والأثر.

والخامس: إثبات أن الله تعالى مدبر ما أبدع، ومصرّفه على ما يشاء، للبراءة من قول القائلين بالطبيعة، أو تدبير الملائكة، أو تدبير الكواكب.

أما إثبات وجود الباري جل ثناؤه فهو للابتعاد عن التعطيل الصادر من الملاحدة القائلين بأنه لا فاعل لهذا العالم، ولا موجود إلا المادة أو المحسوسات، وأن الكائنات إنما تحدث بالطبيعة الموجودة في العناصر الأربعة وهي الماء والنار والهواء والأرض، ولا مدبر للعالم، فمن أثبت وجود الله تعالى، وأنه هو الإله العالم، فقد اجتنب الإلحاد والتعطيل.

وأما البراءة من الشرك بإثبات الوحدانية فهو للرد على الثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين: النور والظلمة، أو أن أحدهما يفعل الخير، والآخر يفعل الشر، أو الذين يشركون مع الله إلهاً آخر، فإذا أثبت المثبت أن لا إله إلا الله، وأنه واحد ولا خالق سواه، ولا قديم غيره، فقد انتفى عن ادعاء الشريك الذي هو في البطلان وصفة الكفر كالإلحاد والتعطيل.

وأما البراءة من التشبيه بإثبات أنه ليس بجوهر ولا عرض، فلإبطال قول من وصف الباري ببعض صفات المحدَثين كالجوهر، والجسم، أو كونه قاعداً على العرش، كما يكون الملك على سريره. وذلك كله كفر كالتعطيل والتشريك، فإذا أثبت المثبت أنه ليس كمثل الله شيء، وأنه ليس بجوهر ولا عرض، فقد انتفى التشبيه، وإلا لجاز عليه ما يجوز على سائر الجواهر والأعراض كالتأليف والتجسيم، وشغل الأمكنة والحركة والسكون، ولأن الأعراض يطرأ عليها الحدوث وعدم البقاء.

وأما البراءة من التعطيل بإثبات أنه مبدع كلِّ شيء سواه، فلإبطال قول المعطلة الذين قالوا: إن الباري موجود غير أنه علة لسائر الموجودات، وسبب لها، أي إن وجوده اقتضى وجودها شيئاً فشيئاً، وأن المعلول لا يفارق العلة، ويؤدي هذا إلى قدم العالم، أو أن مادة هذا العالم لم تَزَل معه، ولأن الله لا يبعثه شيء على شيء، ولا يحمله شيء على شيء،

وإلا كان ذلك نقصاً في حقه، فمن أثبت أن الله هو المبدع الموجد المُحدِث لكل ما سواه من جوهر وعرض باختياره وإرادته، المخترع لها، لا من أصل موجود، فقد انتفى عن قوله التعليل الذي هو في اتصافه بالكفر كالتعطيل.

وأما البراءة من الشريك في التدبير بإثبات أنه لا مدبِّر لشيء من الموجودات إلا الله، فللرد على الذين زعموا أن الملائكة تدبّر العالم، وسموها ملائكة، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٧٩/ ٥]، ومعنى المدبرات المنفِّذات لما دبَّر الله على أيديها، كما يقال لمنفذ حكم الله بين الخصوم: إنه حاكم.

وزعم قوم أن الكواكب تدبِّر ما تحتها، وأن كل حادثة في الأرض، فإنما هي من آثار حركات الكواكب.

فمن أثبت أن الله عز وجل هو المدبِّر لما أبدع، ولا مدبِّر سواه، فقد انتفى عن قوله: التشريك في التدبير، الذي هو كفر كالتشريك في القدم أو الخلق.

والخلاصة: إن الله تعالى جمع كل هذه المعاني بكلمة واحدة وهي: «لا إله إلا الله» وأمر بالإيمان بذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٩]، وذمَّ الله المشركين من العرب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٥-٣٦]، أي إنهم إذا قيل لهم: لا إله إلا الله. استكبروا ولم يقولوا ذلك، وإنما قالوا مكانها: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾.

وتلك الكلمة هي التي عرضها النبي ﷺ على عمه أبي طالب - فيما أخرجه مسلم - عن أبي هريرة: «قل: لا إله إلا الله أشهدُ لك بها يوم القيامة».

وأخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عثمان بن عفان أن أبا بكر سأل رسول الله ﷺ عن طريق النجاة، فقال له: «من قبل الكلمة التي عرضتها على عمّي فهي له نجاة».

وأخرج أحمد وأبو داوود والحاكم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة». وأخرج أحمد عن عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «من مات يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة».

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط والصغير، ورجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله. نفعته يوماً من دهره، أصابه قبل ذلك ما أصابه».

وأخبر أبو سعد أحمد بن محمد الماليني عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله يَنْفضون عن رؤوسهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

أسماء الله تعالى وصفاته

لله تعالى تسعة وتسعون اسماً وردت بها النصوص، فهي الأسماء الحسنى، ومنها الاسم الأعظم لله عز وجل، فهي أسماءٌ ذات دلالات عميقة وواسعة ومفيدة، فعلى كل مسلم أن يعرف معانيها ودلالاتها، لأنها تزيده إيماناً. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

وعلى المسلم أيضاً معرفة صفات الله العلا، ليكون إيمانه صحيحاً، وهذه الصفات أنه الإله الموجود القديم، لم يزل ولا يفنى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٣].

وهو الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وذات أبدية، لا يتبعَّض ولا يتجزَّأ، ليس بجوهر ولا عَرَض، ولا جسم، قائم بنفسه، مستغنٍ عن غيره، حيّ، قادر، عالم، مريد، سميع، بصير، متكلم، دائم الحياة، والقدرة، والعلم والإرادة، والسمع والبصر والكلام، لم يزَل ولا يزال هو بهذه الصفات، ولا يشبه شيء منها من صفات المخلوقات المصنوعات.

ولا يقال: إنها هو ولا غيره، ولا هي هو وغيره، ولا تفارقه أو تجاوزه، بل هي نعوت له أزلية، وصفات له أبدية تقوم به، موجودة بوجوده، دائمة بدوامه، ليست بأعراض ولا بأغيار، ولا حالّة في أعضاء، غير مكيَّفة في تصور الأذهان، ولا مقدورة التمثيل في الأفكار.

فقدرته تعمُّ المقدورات، وعلمه يعم المعلومات، وإرادته تعم المرادات، لا يكون إلا ما يُريد، ولا يريد ما لا يكون من المستحيلات.

وهو المتعالي عن الحدود والجهات والغايات، المستغني عن الأماكن والأزمان، لا تناله الحاجات، ولا تمسُّه المنافع والمَضَرَّات، ولا تلحقه اللذات ولا الدواعي ولا الشهوات. ولا يجوز عليه شيء مما جاز على المُحدثات.

وهذا يعني أن الله تعالى لا يجوز وصفه بالحركة ولا السكون، والاجتماع والافتراق، والمحاذاة والمقابلة، والمماسَّة والمجاورة، ولا وجود شيء حادث به، ولا بطلان صفة أزلية عنه، ولا يطرأ عليه العدم أو الفناء على الإطلاق.

ويستحيل أن يكون له ولد، أو زوجة، أو شريك، قادر على إماتة كل حي غيره، وإفناء كل شيء غيره، وإعادته الأجسام إلى ما كانت عليه، وخلق أمثالها دون اقتصار على حد معين، قادر على كل شيء، له الملك، وله الحُكْم، يفعل الحكمة، ويدبِّر الأمور ويسددها بمقتضى

حكمته ومشيئته، كل ما أنعم به من النعم بفضل منه، وكل ما صدر عنه عدل، لا يجوز عليه جور، ولا يصح منه ظلم.

أخرج أحمد والترمذي عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا: يا محمد، انسُب لنا ربك. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٢]. ثم قال عن الصمد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١١٢/٣-٤] لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تبارك وتعالى لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كُفُواً أحد، لم يكن له شبيه، ولا نظير، ولا مثيل، وليس كمثله شيء. هذه صفات الله تعالى.

وأما أسماء الله الحسنى فقد ورد في السنة النبوية بيانها، أخرج الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحدة، إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها[1] دخل الجنة:

هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملِك، القُدُّوس، السّلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفَّار، القهَّار، الوهَّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، السميع، البصير، الحكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد،

(١) أي من علمها، كما ذكر الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني.

المحيي، المميت، الحي، القيّوم، الماجد، الواجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البَرّ، التوَّاب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الوالي، المتعالي، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغني، الرافع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير».

وفي رواية: «المانع» بدل قوله: «الرافع»، و «الوالي المتعالي» عقب قوله: «الباطن».

هذه الأسماء ثمانية وعشرون اسماً للذات الإلهية، وثمانية وعشرون اسماً لصفات الذات، وثلاثة وأربعون اسماً للفعل الصادر عن الله تعالى.

معاني أسماء الذات العلية

لله تبارك[1] وتعالى - كما تقدم - ثمانية وعشرون اسماً للذات الإلهية، لكل منها معنى يختلف عن معنى الاسم الآخر، وله دلالته وآثاره المتعلقة بعقيدة الإيمان والإسلام.

١- وأول هذه الأسماء «الله»، ومعناه أنه القادر على الخلق، وأنه لا يكون إلا ما يريد، وأنه الغالب الذي لا يُغْلَب، وأنه القاهر الذي لا يُقْهر، وأنه لا يصح التكليف إلا منه.

٢- «المَلِك» أي الذي يعز من يشاء، ويُذل من يشاء، ويستحيل عليه الإذلال.

---

(١) أي ارتفع وعلا.

٣- «القدُّوس» أي البريء من المعايب والشركاء، والأنداد والأضداد.

٤- «السلام» أي السلامة به وفيه.

٥- «المؤمن» أي إن الإيمان والهدى إليه.

٦- «المهيمن» أي صاحب السلطان والكمال المطلق.

٧- «العزيز» أي القوي الغالب الذي لا يُرام.

٨- «الجبّار» الذي لا يحنو عند التعذيب، ولا يُشفق عند البذل، إذا أعطى أعطى عن سعة، وإذا منع منع عن قدرة.

٩- «المتكبِّر» المترفع الذي لا مقدار لشيء عنده.

١٠- «العلي» المتعالي عن المالك والآمر والناهي والتحديد والرسم والمنع والإيجاب.

١١- «العظيم» الذي يجب له التذلل والخضوع عند الطاعة.

١٢- «الجليل» الذي يجب الانقياد له.

١٣- «الكبير» الذي لا يقع عليه المقدار والتقدير، ولا يُرد عليه في التدبير، ولا يُخالف في الأمور.

١٤- «الحميد» الذي له معانٍ محمودة، وله صفات المدح والكمال.

١٥- «المجيد» المنفرد بالجلال والكبرياء والعزّ، ولا يساويه أحد في أوصاف المدح.

١٦- «الحق» الثابت الذي لا يمكن ردّه، ولا يصح رفعه.

١٧- «المبين» البيِّن لذوي العقول.

١٨- «الواجد» الذي لا يجوز عليه التبعيض، ولا التشبيه، ولا الخروج من ملكه.

١٩- «الماجد» المتصف بالارتفاع والعلو في أتم أوصاف المبالغة.

٢٠- «الصَّمَد» المقصود في طلب الحوائج، الذي لا يتجزأ في الوهم.

٢١- «الأول» القديم الأزلي الذي لا أول له، ولم يزل كذلك.

٢٢- «الآخر» الدائم، الذي يستحيل عليه العَدَم والفناء.

٢٣- «الظاهر» الذي ليس فوقه شيء، ويصح إدراكه بالأدلة القطعية اليقينية.

٢٤- «الباطن» الذي ليس تحته شيء، ويدرك الخفيات، ولا يُدْرَك باللمس والشمّ والذوق.

٢٥- «المتعال» أنه تعالى عن أن يطاق، وعن الحاجة، وعن الزوال بالذات والصفات.

٢٦- «الغني» المستغني عن أي قدرة لغيره، فلا يحتاج إلى دعامة أو علاقة.

٢٧- «النور» الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل، ولا يصح إدراكه بالأبصار، ويظهر لكل عاقل بالعقل.

٢٨- «ذو الجلال» المختص بكمال الأوصاف المذكورة، فهو السيد المطلق. وهو «المولى» الذي يغيِّر ما شاء كيف شاء، و «الأحد» الذي لا يجوز عليه النقصان والزيادة. وهو «الفرد» الذي لا تصح له الزوجة والولد، و «الوتر» الذي لا يوصف بصفة يصح وصف غيره بها، إلا وله اختصاص ومباينة.

ويلاحظ أن أسماء الله تعالى تسعة وتسعون اسماً معناه تسميات العباد لله، لأنه في نفسه واحد. والاسم المسمى الواحد، فالقول بأنه «قديم» و«شيء» و«إله» و«مالك» كل ذلك للذات العلية الواحدة، والاسم والمسمى واحد.

والاسم صفة قائمة للمسمى، أي لا يقال: إنها هي المسمى، ولا يقال: إنها غير المسمى، مثل «العالم» و «القادر» من اسم هو العلم والقدرة، فالصفة صفة قائمة بذات الله تعالى، والاسم ذات الله الذي له هذه الصفات.

وأما صفات الفعل فالاسم فيه غير المسمى، مثل «الخالق» و «الرازق» من الخلق والرزق هما صفتان وهما غير المسمى. وليست هذه الصفات أسماء، بل الاسم ذات الله الذي له هذه الصفات.

معاني صفات الذات الإلهية والأفعال الصادرة عن الله تعالى

للذات الإلهية صفات عددها ثمان وعشرون تتعلق بالقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والبقاء والكلام.

ولله تعالى أفعال عددها ثلاثة وأربعون كما تقدم.

أما معاني أسماء صفات الذات الإلهية المتعلقة بالقدرة فهي كما يأتي:

١- «القاهر» الغالب.

٢- «القهار» الذي لا يُغلب ولا يُقهر.

٣- «القوي» المتمكن من كل مراد.

٤- «القادر» صاحب القدرة.

٥- «ذو القوة المتين» صاحب النهاية في القدرة وجميع المقدورات.

«الغلاب» - في بعض الآثار - الذي يكرِه على ما يريد، ولا يكرَه على ما يراد.

وأسامي الذات المتعلقة بالعلم:

٦- «العليم» الشامل العلم بجميع المعلومات.

٧- «الخبير» الذي يعلم ما يكون قبل أن يكون.

٨- «الحكيم» الذي يعلم دقائق الأوصاف، ويفعل بمقتضى الحكمة.

٩- «الشهيد» الذي يعلم الغائب والحاضر، أي لا يغيب عنه شيء.

١٠- «الحافظ» لا ينسى ما علم.

١١- «المحصي» لا تشغله الكثرة عن العلم، كضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم بها وهو الذي خلقها، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٤].

وأسامي الذات المتعلقة بالإرادة:

١٢- «الرحمن» المريد لرزق كل حي في الدنيا.

١٣- «الرحيم» المريد لإنعام أهل الجنة.

١٤- «الغفار» المريد لإزالة العقوبة بعد الاستحقاق.

١٥- «الودود» المريد للإحسان إلى أهل الولاية.

١٦- «العفوُّ» المريد لتسهيل الأمور على أهل المعرفة.

١٧- «الرؤوف» المريد للتخفيف عن العقوبة.

١٨- «الصبور» المريد لتأخير العقوبة.

١٩- «الحليم» المريد لإسقاط العقوبة في الأصل على المعصية.

٢٠- «الكريم» المريد لتكثير الخيرات عند المحتاج.

٢١- «البرّ» المريد لإعزاز أهل الولاية والقرب.

وأسامي الذات المتعلقة بالسمع:

٢٢- «السميع» التام السمع.

٢٣- «البصير» الشامل البصر.

وأسامي الذات المتعلقة بالحياة:

٢٤- «الحي» الدائم الحياة.

وأسامي الذات المتعلقة بالبقاء:

٢٥- «الباقي» الدائم البقاء.

٢٦- «الوارث» الذي يبقى بعد فناء خلقه.

وأسامي الذات المتعلقة بالكلام:

٢٧- «الشكور» الوافي الشكر والجزاء لعمل كل عامل عملاً صالحاً.

وأسامي الذات العائدة للعلم والسمع والبصر:

٢٨- «الرقيب» التام الرقابة لجميع المخلوقات.

وأما معاني أسماء صفات الفعل الإلهي فهي:

١- «الخالق» مخترع الشيء دون مثال سابق.

٢- «البارئ» مخترع الشيء بصفة الحسن.

٣- «المصوِّر» القائم بأنواع تركيب الشيء.

٤- «الوهّاب» مانح العطايا الكثيرة دون وجود ما يحجز عنها.

٥- «الفتّاح» مُيسِّر ما تعسَّر.

٦- «القابض» السالب للأشياء.

٧- «الباسط» الموسع في المنح.

٨- «الخافض» مذلّ الجاحدين.

٩- «الرافع» معطي المنازل العالية.

١٠- «المعزّ» محسِّن الأحوال.

١١- «المذلّ» الذي يحطّ المراتب.

١٢- «الحَكَم» الفاعل ما يريد.

١٣- «العدل» لا يقبح منه ما يفعل.

١٤- «اللطيف» القائم بدقائق الأفعال.

١٥- «الحفيظ» الواسع الحفظ الذي لا يشغله دفع الأذى عن دفع ما يريد.

١٦- «المُقيت» الذي لا يشغله فعل بلية عن فعل بلية، ويجازي عليها.

١٧- «الحسيب» الذي لا يشغله موافقة عن موافقة.

١٨- «الرقيب» لا يشغله شأن عن شأن.

١٩- «المجيب» الذي يبذل عند المسألة.

٢٠- «الواسع» الذي لا يتعذر عليه عطية.

٢١- «الباعث» يبعث الناس من القبور عند الحشر.

٢٢- «الوكيل» المتوكل بكفالة الخلق.

٢٣- «المبدئ» مبتدئ التفضل.

٢٤- «المعيد» إعادة الخلق.

٢٥- «المحيي» خالق الحياة.

٢٦- «القيّوم» القائم بتدبير الخلق وإدامته على الأوصاف.

٢٧- «الواجد» يوجد ما يريد.

٢٨- «المقدِّم» يقدِّم ما يريد.

٢٩- «المؤخِّر» يؤخر ما يريد.

٣٠- «الولي» حافظ أهل الولاية المقربين.

٣١- «التوَّاب» خالق توبة التائبين.

٣٢- «المنتقم» يعاقب ناكثي العهد.

٣٣- «المقسط» فاعل العدل.

٣٤- «الجامع» يجمع الخصوم.

٣٥- «الغني» يزيل النقائص والحاجات.

٣٦- «النافع» خالق اللذات.

٣٧- «الهادي» يرشد إلى فعل الطاعات.

٣٨- «المضلّ» الذي يخلق المعاصي.

٣٩- «البديع» الذي لا شريك له في الخلق.

٤٠- «الرشيد» الذي يصيب المقصود.

٤١- «مالك الملك» يملك كل شيء، ويبدل الأحوال.

بعض أدلة وجود الله وتوحيده

العالَم عبارة عن كل شيء غير الله، وهو جملة الأجسام والأعراض، وجميع ذلك موجود عن عدم لم يكن، فكان بإيجاد الله تعالى واختراعه إياه. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧]:

وسئل نبينا ﷺ عن بدء هذا الأمر، فقال: «كان الله ولم يكن شيء غيره..» ثم ذكر الخلق.

والدليل العقلي على حدوث الأجسام هو طروء الحوادث المتعاقبة عليها كالاجتماع والافتراق، والسكون والحركة، والألوان، والمطعوم والروائح، فهذه محدثة مثل الأجسام، لأنها لا تنفك عنها. ودليل حدوث الأعراض أن بعضها يبطل ببعض، وما يجوز عليه البطلان لا يكون إلا حادثاً، لأن القديم لم يزل موجوداً، ولا يصح عليه العدم.

والدليل على أن الحوادث لا بد لها من مُحْدِث هو الواقع، فحقيقة المُحدَث ما وجد عن عدم، ولولا أن موجوداً أوجده لم يكن وجوده أولى من عدمه.

ومراحل خلق الإنسان من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام ولحم تدل على وجود الخالق، لأن هذا التنقل من حال إلى حال، والإنسان لا يقدر على نقل نفسه من حال إلى أخرى، ولا أن يخلق لنفسه عضواً من الأعضاء، فهو أعجز من ذلك. وكذلك مراحل نموه في الحياة من كونه طفلاً ثم شاباً ثم كهلاً، ثم شيخاً، فيه دلالة على أن ناقلاً نقله من طور إلى طور، ودبَّره على ما هو عليه.

ومن الأمثلة الأخرى أن القطن مثلاً لا يتصور أن يتحول غزلاً مفتولاً، ثم ثوباً منسوجاً من غير صانع ولا مدبر. والطين والماء لا يمكن أن يصيرا بناء مشيَّداً من غير بانٍ، وبما أنه لا يجوز أن يكون صانع لا صنع له لا يجوز ولا يتصور صنع من غير صانع.

ونبهنا القرآن على مصنوعات الله تعالى، فدلت على وجود الصانع لها، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ

خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٠-٢٥].

فهذه بعض المخلوقات من سماء وأرض وماء وهواء وغير ذلك أجسام محدودة متناهية، فلا يجوز أن تكون قديمة، لأن القديم لا سبب لوجوده، فلا نهاية له، أما المخلوق فيحتاج إلى سبب لوجوده فهو غير قديم، ثم يتناهى وينعدم، فهو ليس بقديم.

والدليل على أن محدث الموجودات هو واحد هو أنه لو كان للعالم صانعان لاختلف التدبير والتنظيم، والخلق والإماتة، فلا يتم المراد، وعدم إتمام المراد دليل على العجز، والعاجز لا يكون إلهاً قديماً، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢]. ودعانا الله عز وجل إلى توحيده في كتابه في آيات كثيرة، منها: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٣-١٦٤].

أخرج الطبري عن أبي الضحى أنه لما نزلت آية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ عجب المشركون، وقالوا: إن محمداً يقول: وإلهكم إله واحد، فليأتنا بآية إن كان من الصادقين. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤]، أي إن في هذه الآيات الواصفة لخلق السماوات والأرض لأدلة قاطعة على وجود الخالق الواحد، لكل قوم يتأملون ويتفكرون في هذا الخلق.

قال الشاعر:

فيا عَجَباً كيف يُعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده جاحد؟

ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وهناك أدلة تفصيلية أخرى في السنة والآثار على وجود الله وتوحيده، منها كيفية خلق الإنسان في بطن أمه وصلب أبيه وتطورات هذا الخلق كما ذكرت الآية الكريمة في سورة (المؤمنون) وغيرها. أخرج الحاكم في المستدرك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ١١] قال: خلقوا في أصلاب الرجال، ثم صوِّروا في أرحام النساء.

وأخرج ابن السني في الطب، والأصبهاني في الترغيب، عن خالد بن معدان قال: قال أبو ذر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أخلص الله قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أُذنه مستمعة، وعينه ناظرة. فأما الأُذن فقمع، وأما العين فمقرَّة لما يوعى القلب، وقد أفلح من جعل الله قلبه واعياً».

وأخرج ابن عدي في الكامل، وله متابع أخرجه أبو الشيخ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «القلب ملِك، وله جنود، فإذا صلُح الملك صلُحت

جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده، والأذن قِمْع، والعينان مسلحة، واللسان ترجمان، واليدان جناحان، والرِّجلان بريد، والكبد رحمة، والطحال ضحك، والكُليتان مكر، والرية نفَس». قال البيهقي رحمه الله: هكذا جاء موقوفاً.

أدلة أخرى على وجود الله تعالى

من أدلة وجود الله تعالى وقدرته تكوين كل نفس إنسانية بتركيب عجيب، وقيام كل عضو بوظيفة دقيقة ومرتَّبة، وإيداع ملايين الخلايا في الرأس والجسم والحواس، وخلق الإنسان في أحسن تقويم وجمال. قال الله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢١]، أخرج الطبري في تفسيره عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في بيان بعض أجهزة الجسم قال: سبيل الخلاء والبول، أي كيف يقوم هذا الجهاز بتصفية ما في الجسم من سموم وأضرار.

وأما قيام الحواس بوظائف عجيبة فمعروف، قال ابن السمَّاك لرجل: «تبارك من خلقك، فجعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتتكلم بلحم».

ومن الأدلة على وجود الله تعالى تحسين الصوت في الكلام سواء بنغم أو بغير نغم، أخرج ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن شهاب الزهري في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١]، قال: حسن الصوت. وقال قتادة في الآية نفسها: الملاحة في العينين.

ومن تلك الأدلة ما قال ذو النون بن إبراهيم المصري: «إن الله عز وجل خلق القلوب أوعية للعلم، ولولا أن الله سبحانه وبحمده أنطق اللسان بالبيان، وافتتحه بالكلام ما كان الإنسان إلا بمنزلة البهيمة، يومئ بالرأس، ويشير باليد».

وأخرج أحمد وأبو نعيم في الحلية عن أبي الدرداء قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة». وقيل لأم الدرداء: ما كان أفضلُ أعمال أبي الدرداء؟ قالت: التفكر.

وجاء في الأثر عن ابن عمر: «تفكروا في آلاء الله - يعني عظمته - ولا تفكروا في الله»(١).

وقال يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨): «جملة التوحيد في كلمة واحدة وهي ألا تتصور في وهمك شيئاً إلا واعتقدت أن الله عز وجل هو مالكه من جميع الجهات».

ومن أدلة وجود الله سبحانه كما تقدم أنه أوجد العالم وأحدثه، والفعل لا يصح وقوعه إلا من ذوي قدرة، والقدرة لا تقوم بنفسها، فوجب أنها تقوم بقادر موجود. ولأن استحالة وقوع الفعل من معدوم كاستحالة وقوعه لا من فاعل، فلما استحال فعل من لا فاعل، استحال فعل من معدوم، وفي ذلك دليل على وجود الله تعالى.

والدليل على أن الله سبحانه قديم لم يزل أنه قد ثبت أنه موجود، ولو كان محدثاً لتعلق بغيره لا إلى نهاية(٢)، والموجود لا ينفك من أن يكون قديماً أو محدثاً، فلما فَسَد كونه محدثاً ثبت أنه قديم. أي لو كان الله محدثاً لشارك الحوادث في الحاجة إلى المقدّم، والمؤخر، والمخصِّص، وهذا يقتضي أن يكون لكل مُحدَث شيء قبله أحدثه، فلا بد من وجود أول لم يحدثه أحد، فثبت أن ذلك الأول قديم لم يزل.

والدليل على أن الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض أنه لو كان جسماً لكان مؤلَّفاً مركباً من أكثر من واحد، أو من أجزاء، والمؤلَّف

---

(١) روي حديثاً في إسناده نظر عند ابن عدي والطبراني في الأوسط.

(٢) أي يؤدي هذا الافتراض إلى الدوران، وهو باطل، أي من الذي أحدث كل محدث؟ وهذا لا ينتهي.

شيئان، وهو سبحانه شيء واحد، لا يحتمل التأليف. ولو كان جوهراً فالجوهر هو الذي له صفات وأعراض متضادّة، ولو كان كذلك، لكان هذا دليلاً على حدوثه، والله تعالى قديم لم يزل.

ولو كان عرضاً لم يصح، لأن العرض لا يصح بقاؤه، بل إنه يتغير ويزول، ولا يقوم بنفسه، والله سبحانه قائم بنفسه، لم يزل موجوداً، ولا يصح عدمه.

وصحيح أن الله شيء لا كالأشياء، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٩] فقد سمى الله نفسه شيئاً، لكنه ليس جسماً كالأجسام، لأنه لو كان كذلك للزم أن يكون صورة لا كالصُّور، وجسداً لا كالأجساد، وجوهراً لا كالجواهر، وإذا بطل هذا بطل كونه جسماً. والله تعالى لم يسم نفسه جسماً، ولا ورد عن رسول الله ﷺ أنه سماه به، ولا اتفق المسلمون عليه، فعلينا نحن ألا نسمي الله عز وجل باسم لم يسم هو به نفسه ولا رسوله، ولا اتفق المسلمون عليه، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

والدليل على أن الله تعالى لا يشبه المصنوعات أي المخلوقات، ولا يتصور ذلك في الوهم هو أنه لو أشبهها، لجاز عليه جميع ما يجوز على المصنوعات، من سمات النقص وأمارات الحدوث، والحاجة إلى محدث غيره، وذلك يقتضي نفيه، فوجب أنه كما وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١١].

والبرهان على أن الله قائم بنفسه مستغنٍ عن غيره أنه لو كان غير كذلك، أي أوجده غيره، لوجب كونه محتاجاً إلى غيره، والحاجة دليل الحدوث، وما جاز اتصافه بالحوادث كان محدثاً مثلها، مع أنه قامت الأدلة على قدمه.

هذه البراهين العقلية تدل بنحو قاطع على أن الله تعالى منزَّه عن مشابهة الحوادث، فيكون متصفاً بالقدم، ويكون موجوداً على الدوام، والموجود الدائم هو شيء واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

الأدلة على صفات الله المعنوية وغيرها

لله تعالى صفات تسمى صفات المعاني، وصفات تسمى الصفات المعنوية مثل كون الله تعالى حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً.

أما الدليل على كون الله تعالى حياً عالماً قادراً فهو ما يظهر له من أفعال تدل على حياته وقدرته وعلمه، لأن ذلك لا يصح وقوعه من ميت ولا عاجز ولا جاهل به، فهو سبحانه بخلاف من لا يتأتى ذلك منه، ولا يخالف غيره إلا وهو حي قادر عالم.

والدليل على أنه مريد أنه حي، عالم، ليس بمكرَه على شيء ولا مغلوب، ولا به آفة تمنعه من ذلك، فهو إذن مريد مختار قاصد.

والدليل على أنه سميع بصير أنه حي، ويستحيل وجود حي لا يدرك المسموعَ والمرئي، وليس به آفة تمنع من السمع والبصر، فهو سميع بصير، ومن كان ممنوعاً من هاتين الصفتين كان مغلوباً، وذلك صفة الحدث المخلوق، والباري قديم، لم يَزَل ولا يزال موجوداً، فهو سميع بصير.

والدليل على أنه متكلم أنه حي ليس بساكت، ولا به آفة تمنعه من الكلام، وكل حي غير ممنوع من الكلام، فهو متكلم، ولأنه يستحيل وجود الخطاب والأمر منه ما لم يصح منه الكلام، فوجب أن يكون متكلماً.

والدليل على أنه لم يزل حياً، قادراً، عالماً، مريداً، سميعاً، بصيراً، متكلماً أنه لو لم يكن كذلك، لكان موصوفاً بأضدادها من موت أو عجز أو آفة، ولو كان كذلك لاستحال أن يقع منه فعل، ووجود الفعل منه دليل على أنه لم يزل ولا يزال كذلك.

والدليل على اجتماع صفات المعاني والصفات المعنوية - أي أنه حي، قادر، عالم، مريد، سميع، بصير، متكلم، له الحياة، والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام - أنه يستحيل إثبات موجود بهذه الأوصاف مع نفي هذه الصفات عنه، وإذا لزم إثباته بهذه الأوصاف، لزم إثبات هذه الصفات له. قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ٩٨]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ٦٥/ ١٢]، أي علمُه قد أحاط بالمعلومات كلها. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٨]، فأثبت القوة لنفسه، وهي القدرة، وأثبت العلم، فدلّ على أنه عالم بعلم، قادر بقدرة، ويستحيل وجود عالم لا علم له، كما يستحيل علم لا لعالم كما يستحيل وجود فاعل لا فعل له، ووجود فعل لا لفاعل.

ولأن حقيقة العلم ما يعلم به العالم، وإذا انعدم العلم انعدم كونه عالماً.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٧٦]: أنه ذو العلم بصفة التعريف، لا التنكير، أي ذو علم، كما نقول: إنه ذو الجلال والإكرام، على التعريف، ولا نقول: إنه ذو جلال وإكرام، على التنكير. فمعنى الآية إذن: وفوق كل ذي علم محدث من هو أعلم منه. ولا يصح وصف الله تعالى بأي شيء من صفات الحوادث.

فهو سبحانه لا يحتاج إلى تعليم من غيره، لأنه لا يجوز عليه

الحاجة، لأنه غني، والله تعالى عالم بكل معلوم، ويعلم بكل ما يصح أن يعلم، أما غير الله تعالى فلا يوصف بهذه الصفة.

وهكذا كل الصفات الذاتية مثل العلم، فهي مختصة بذاته تعالى، قائمة به، لم يزل موصوفاً بها، ولا يزال هو موصوفاً بها. ولا يقال: إنها مع الله أو في الله.

ولله تعالى أيضاً صفات خبرية، منها الوجه واليد، وطريق إثباتها ما ورد في القرآن الكريم من الإخبار بها.

ولله كذلك صفات الفعل كالخلق والرزق، فهي ثابتة لله عز وجل، وهي فيما لا يزال، ولكن لا يصح وصفه بها في الأزل، وإنما يقول المحققون: خالقنا لم يزل، ورازقنا لم يزل، فهو قادر على الخلق والرزق متى يشاء وبما يشاء ولمن يشاء. ووصفه سبحانه بهذه الصفات الفعلية لا يترتب عليها تغير في نفسه، فإذا سُمِّي خالقاً بعد وجود الخلق، لم يوجب ذلك تغيراً في ذاته.

ومعنى قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٥] أوضحه ابن عباس فيما أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير وغيره فقال: هل تعلم للرب عز وجل مثلاً أو شبهاً؟ وفي رواية أخرى للحاكم وصححه الذهبي قال: ليس أحد يسمّى الرحمنَ غيره.

الخلاصة: إن الله تعالى متصف بصفات كثيرة كالعلم والسمع والبصر والكلام والقدرة والحياة والإرادة، وبكونه عالماً سميعاً بصيراً متكلماً قادراً حياً مريداً، وله صفات الفعل كالخلق والرزق، وصفات أخبر عنها كالوجه واليد نؤمن بها كما وردت من غير تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، فلا يشبهه شيء من المخلوقات من بشر وغيرهم.

الأصل الثاني من أصول الإيمان

الإيمان بالرسل عليهم السلام

الإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده هو جذر الإيمان وقاعدته الأصلية الأساسية الأولى، ويليه الإيمان برسل الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، فهذا أصل ثانٍ أو شعبة من شعب الإيمان، اعتقاداً وإقراراً.

لكن الإيمان بمن عدا نبينا عليه الصلاة والسلام معناه الإيمان بأنهم كانوا مرسَلين إلى أقوامهم، وكانوا في ذلك صادقين محقّين، أي فرسالتهم خاصة بأقوامهم.

والإيمان بالمصطفى نبينا ﷺ هو التصديق بأنه نبي ورسول من عند الله إلى قومه الذين بعث فيهم، وإلى من بعدهم من الجن والإنس إلى يوم القيامة.

أي إن رسالته عامة لجميع البشر وإلى جميع الجن.

والنبي من أوحي إليه ليعمل به في خاصته، ولم يؤمر بتبليغه والدعوة إليه، فهو نبي لا رسول، وإن أُمر بتبليغه إلى غيره فهو نبي رسول، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وعدد الرسل السابقين (٣١٣ رسولاً) لما أخرجه أحمد عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاث مئة وبضعة عشرة جَمّاً غفيراً». قلت: آدم نبيٌّ كان؟ قال: «نعم، نبي مُكَلَّم».

وعدد الأنبياء المتقدمين (١٢٤,٠٠٠) نبي، لما أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وغيره عن أبي ذرّ ﵁، قال: قلت: يا رسول الله، كم النبيون؟ قال: «مئة ألف نبي، وأربعة وعشرون ألف نبي». قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: «ثلاث مئة وثلاثة عشر»[1].

ونحن نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين السابقين، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٥٢].

فهو إيمان لا يتجزأ ولا يتفرق، فكل هؤلاء أرسلهم الله تعالى، نؤمن بهم على السواء.

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ١٥٠] جعل الله عز وجل الكفر ببعض رسله كفراً بجميعهم، ثم جعل الكفر بجميعهم كفراً به.

ثبت بهذا أن طريق النجاة عند الله وحسن المآب إنما يكون لمن لم يفرِّق بين رسل الله عز وجل، وآمن بجماعتهم.

وفي حديث الصحيحين عن عمر ﵁ حين سئل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر كله، خيره وشره».

وعلى جميع الناس والجن الإيمان برسالة رسولنا محمد بن عبد الله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٧]، فقرن الإيمان برسوله بالإيمان به.

---

(١) لكن في إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وضعفه ابن حجر في فتح الباري.

يؤيد الآية الكريمة أحاديث كثيرة صحاح في معناها، منها ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس[١] حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل».

وأخرج مسلم أيضاً عن أنس بن مالك ﷺ، أن نبي الله ﷺ ـ ومعاذ بن جبل رديفه على الرَّحل ـ قال: «يا معاذ». قال: لبَّيك يا رسول الله وسعديك، قال: «ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرَّمه الله على النار». قال: يا رسول الله، أفلا أُخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: «إذاً يتَّكلوا». قال: فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.

وروى البيهقي في السنن الكبرى، وابن المبارك في الزهد، والبخاري في أبواب التهجد، عن أنس بن مالك، عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، وأن محمداً رسول الله، دخل الجنة».

والإيمان برسول الله ﷺ يتضمن الإيمان له، وهو قبول ما جاء به من عند الله عنه، والعزم على العمل به وطاعته، لأن تصديقه في أنه رسول الله إلزام بطاعته، وهذا معنى الإيمان بالله والإيمان له، فالطاعة من مقتضيات تصديق الرسل، وفي طاعة الرسول طاعة للمرسل، لأنه أمر بطاعة الرسل. قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠]، وإرسال الرسل ليكونوا حجة على العباد، فلا يدَّعوا أنهم لم يعلموا برسالات الله، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

---

(١) أي مشركي العرب بالإجماع.

وقال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٥]. وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٤].

فقطع الله تعالى ببعثة الرسل ذرائع العباد وحججهم، بأنهم لم يعلموا أوامر الله ونواهيه وما شرع لهم من شرائع، ونهج لهم من مناهج، فصاروا مسؤولين عن تقصيرهم وترك طاعة الرسل، فوجب عليهم العذاب.

ومن المعلوم كما روى البيهقي في السنن الكبرى عن أبي ذر قال: كان الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وصالح، وهود، ولوط، وشعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام

أرسل الله تعالى رسله بالبينات، وأيدهم بالمعجزات، وهي الأمور الخارقة للعادات، ليقيم الحق سبحانه البرهان القاطع للناس أن كل رسول صادق في إخباره أنه رسول الله. وبرّأ الله الرسل عليهم السلام من ادعاء الكذب وافتراء ما لم يُنْزل عليهم من الوحي الإلهي، فذلك من أعظم الجنايات التي لا تجوز، ولا يعقل أن تصدر عن رسول حق، قال تعالى على سبيل المثال والافتراض: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٦].

ومعجزات الرسل عليهم السلام أصناف كثيرة تتناسب مع عصور رسالاتهم وبيئات حياتهم، أخبر الله عز وجل أنه أعطى موسى عليه

السلام تسع آيات بيّنات: العصا، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والطمس على قلوب أعدائه، وانفلاق البحر.

وكانت العصا التي تنقلب حية وثعباناً عظيماً بمجرد إلقائها من يده عليه السلام حجة على الملحدين والسحرة جميعاً، حيث كان السحر في ذلك الوقت فاشياً، فلما انقلبت عصاه حية تسعى وتلقفتْ حبالَ السحرة وعصيَّهم، علموا أن حركتها عن حياة حادثة حقيقة، وليست من جنس ما يُحْدِثونه بالحيل، مما دل على وجود الله الخالق وعلى نبوة موسى عليه السلام.

وأما سائر الآيات فكانت دلالات على فرعون وقومه القائلين بالطبيعة أو الدهر، فأظهر الله تعالى بها صحة ما أخبرهم به موسى عليه السلام من أن له ولهم رباً وخالقاً.

وألان الله عز وجل الحديد لداوود، وسخَّر له الجبال والطير، وكانت تسبِّح معه بالعشي والإشراق.

وأقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على الكلام الحكيم في المهد، ومكَّنه من إحياء الموتى بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص بدعائه أو بيده إذا مسح المصاب بذلك، وخلق الطير من الطين بإذن الله، ثم رفعه الله من بين اليهود والرومان لما أرادوا قتله وصلبه، ليعصمه الله تعالى بذلك من أذاهم ومن ألم القتل والصلب، وذلك حيث كان الطب عاماً غالباً في زمانه، فأظهر الله تعالى على يد عيسى ما هو أعجب وأقوى من علم الأطباء.

وكان المصطفى نبينا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين أكثر الرسل آيات بيِّنات، وبلغت أعلام ودلائل نبوته ألفاً، وفي قمة معجزاته القرآن الكريم المعجز في نظمه ومعناه، والدائم الإعجاز، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤١-٤٢]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٧-٨٠]. وقال عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨].

ثم تحداهم الله بالإتيان بعشر سور، فقال تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: ١١/١٣]. ثم تحداهم بسورة واحدة: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/٢٣].

أنزل الله تعالى القرآن على رسوله محمد ﷺ على نحو مباين لأوصاف كلام البشر، فهو منظوم غير منثور، وليس نظمه كنظم الأشعار والرسائل والخطب، ولا هو كأسجاع الكهّان، فظهرت معجزة نبينا ﷺ، واعترفت العرب بقصورهم عن القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله. أخرج الحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي على تصحيحه، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له الوليد: «والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برَجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطَلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطِم ما تحته»(١).

وكذلك قال عن القرآن النضر بن الحارث وعتبة بن ربيعة وغيرهما عند سماعه، واعترفوا به بأنهم لم يسمعوا بمثله.

ومن أوجه إعجاز القرآن إخباره عن الغيب في قوله عز وجل: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٩/٣٣]، وقوله: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٢٤/٥٥]، وقوله في انتصار الروم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣٠/٣-٤].

---

(١) قال البيهقي: هكذا حدثناه موصولاً.

ومن إعجاز القرآن ما فيه من الخبر عن قصص الأولين من غير نزاع ولا مخالفة.

وللنبي ﷺ معجزات وآيات باهرات غير القرآن، مثل إجابة الشجرة إياه لما دعاها، وتكليم الذراع المسمومة إياه، وازدياد الطعام لأجله حتى أكل منه ناس كثير، ونبع الماء من بين أصابعه حتى توضأ منه ناس كثير، وحنين الجذع له، وصدقه في الأخبار عن مغيبات كثيرة أخبر عنها. وجمع له أمرين: أحدهما: بعثه إلى الجن عامة. والآخر: ختمه النبوة به. ومن معجزاته أنه على الرغم من أميته نطق بأفصح الكلام وأبينه، وقال فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي».

قال ابن شهاب الزهري فيما رواه البخاري ومسلم: وبلغني أن جوامع الكلم أن الله تعالى جمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين أو نحو ذلك.

وروى البيهقي أن الحسن لما قرأ آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠] قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك (العدل والإحسان) من طاعة الله شيئاً إلا جمعه، ولا ترك (الفحشاء والمنكر والبغي) من معصية الله شيئاً إلا جمعه.

الأصل الثالث من أصول الإيمان

الإيمان بالملائكة

الإيمان بملائكة الله الكرام ذوي الوعي والعقل والإدراك، والقدرة على الأداء والتنفيذ هو الأصل الثالث من أصول الإيمان، أو الشعبة الثالثة من شعب الإيمان. فيجب على كل مسلم أمور ثلاثة في هذا الشأن:

أحدها: التصديق بوجود الملائكة وأنهم عالم آخر غير الإنس.

والثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم من عباد الله وخلقه كالإنس والجن، وأنهم مأمورون مكلفون، لا يَقْدرون إلا على ما يُقدرهم الله تعالى عليه. والموت جائز عليهم ولكن بعد أمد بعيد، فلا يتوفاهم الله حتى يبلغوا هذا الأمد.

والثالث: الاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من عباده، وقد يرسل بعضَهم إلى بعض. منهم حملة العرش، ومنهم الصّافون، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره.

أمر الله تعالى بالإيمان بهم خاصة في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥]. وهذا خبر بمعنى الأمر، بدليل حديث عمر في الصحيحين عن

النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

والملائكة هم خيار الجن، وأشرار الجن يدعون شياطين، لأن الأحياء العقلاء الناطقين فريقان: إنس وجن، وكل واحد من الفريقين أخيار وأشرار، فأخيار الإنس يُدعون أبراراً، منهم الرسل وغير الرسل، وأخيار الجن يسمون ملائكة، ومنهم رسل وغير رسل، وأشرار الإنس يدعون فجاراً، منهم الكفار وغير الكفار.

وإنما قيل للملأ الأعلى ملائكة، لأنهم مخصصون للرسالة التي تسمّى الولاية، ويقال لواحد الملائكة: مالك أو ملك لأنه موضع الرسالة والمختار لسكنى السماء، ومن السماء تأتي الرسالة لسكانِ الأرض.

والملائكة من الجن، لما أخبر الله عز وجل عن الكفار الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨/٣٧]. والإنس هم الظاهرون، والجن هم المجتنون الأخفياء.

وأما إبليس فهو من شرار الجن، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠] فلما عصى أمر ربه بالسجود لآدم لُعن، وصار من الجن الذين يسكنون الأرض. أما قبل ذلك فقد أذن الله تعالى له في مساكنة الملائكة ومجاورتهم بحسن عبادته وشدة اجتهاده.

وأما قول الله عز وجل: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٤-١٥]، فيراد به أن الأصل الذي خلق منه الإنس هو التراب والماء والنار والهواء، بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ فكان، والأصل الذي منه الجن هو النار، وأما الملائكة فهم مخلوقون من نور، بقول الله عز وجل: «كونوا» فكانوا، وإن كانوا

موافقين الجن في أصل الخلقة، أي بحسب الأصل الذي منه خلق الجن، ثم تميزوا عنهم، وصاروا صنفاً آخر غير الجن، لحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم». وهذا دليل على أنه أراد نوراً آخر غير نور النار.

وإذا قورنت النار التي خُلق منها الجن مع نار جهنم، رأينا العجب العجاب، لما أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن ناركم هذه التي توقدون لجزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، وإن السَّموم الحارَّ التي خَلَق الله منها الجانَّ لجزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم».

ثم إن الملائكة يسمون روحانيين، وسمى الله عز وجل جبريل عليه السلام: (الروح الأمين) و (روح القدس) فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٧٨/٣٨].

والكروبيون من الملائكة هم سكان السماء السابعة، كما قال وهب بن منبّه.

وهل الملائكة أفضل أو البشر؟ التحقيق الذي عليه الأكثرون أن الرسل من البشر أفضل من رسل الملائكة، وأولياء البشر أفضل من أولياء الملائكة، وأعيان الملائكة أفضل من أعيان البشر، والأفراد العاديون المؤمنون من البشر أفضل في الجملة من أفراد الملائكة، لما أخرجه الطبراني والخطيب البغدادي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء أكرمُ على الله من ابن آدم». قال: قيل: يا رسول الله، ولا الملائكة؟ قال: «الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر»[1].

---

(١) الصحيح أنه موقوف على ابن عمرو.

وأما أعيان الملائكة فسبب فضيلتهم أداء مهامهم الكبرى، لقول عبد الرحمن بن سابط: «يُدبِّر أمر الدنيا أربعة: جبريل، وميكائيل، وملَك الموت، وإسرافيل، فأما جبريل فوكِّل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فوكِّل بالقَطْر والنَّبات، وأما ملك الموت فوكِّل بقبض الأرواح، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم».

الأصل الرابع من أصول الإيمان

الإيمان بالكتب المنزلة

الإيمان أو التصديق بالكتب المنزلة على الأنبياء المرسلين عليهم الصلاة والسلام، ومنها القرآن العظيم هو الأصل الرابع من أصول الإيمان في شريعتنا، أو الشعبة الرابعة من شعب الإيمان. وهذا كغيره من الثوابت الأساسية في ديننا، فلا معدل عنه، ولا يصح لمسلم أو مؤمن عدم الإيمان بكتاب منزّل من عند الله على رسول من الرسل الكرام، لآيات كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ٤/ ١٣٦]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥]. وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤].

يؤيد الآيات أحاديثُ صحاح منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله».

والإيمان بالقرآن الكريم يتضمن أصولاً ثلاثة: أولها - بأنه كلام الله تعالى، وليس من كلام مخلوق، سواء محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام. والثاني- الاعتراف بأن القرآن معجز النظم، لو اجتمعت الإنس والجن

على أن يأتوا بمثله لم يقدروا عليه. والثالث - الاعتقاد الجازم بأن جميع القرآن الذي توفي النبي ﷺ بعده هو الموجود في مصاحف المسلمين، من غير زيادة أو نقص، ولا تبديل ولا تغيير، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩/١٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٩٢-١٩٤]، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤١-٤٢].

وهذا القرآن ليس مخلوقاً، إذ لو كان مخلوقاً لتعلق بقول آخر، إلى ما لا يتناهى، ولقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٩]، والسبق على الإطلاق يقتضي سبق كل شيء سواه. وميَّز الله تعالى بين المخلوق والأمر في آية: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤] ولو كان الأمر مخلوقاً لم يكن لتخصيص الأمر بالذكر معنى.

وقد أثبت الله تعالى صفة الكلام لنفسه في آيات، منها مكالمة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦٤] وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٩]. وإنما ذكر الكلام بلفظ الجمع على طريق التعظيم.

وفي قصة مناظرة آدم وموسى قال النبي ﷺ فيما يرويه عمر بن الخطاب: «فقال آدم لموسى: أنت نبي بني إسرائيل الذي كلَّمك الله من وراء حجاب، لم يجعل الله بينك وبينه رسولاً من خلقه».

وأخرج أبو داوود والترمذي وغيرهما عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم، فقال: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربي عز وجل».

وروى البيهقي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه لما قرأ سورة الروم على مشركي مكة، فقالوا: هذا مما أتى به صاحبك؟ قال: لا، ولكنه كلام الله عز وجل وقوله. وهناك آثار كثيرة تؤكد على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وعلى أن القرآن كلام الله تعالى.

قال الأستاذ أبو بكر بن فورَك رحمه الله: لو كان كلام الباري جل وعز محدثاً، كان قبل حدوثه موصوفاً بأنه يمنع منه، كما لو كان غير عالم، كان موصوفاً بجهل وآفة مانعة منه، ولو كان كذلك، لما صح أن يتكلم في حال، كما لا يصح أن يعلم لو كان لم يزل غير عالم، فوجب أنه لم يزل متكلماً لما لم يلحق به أضداد الكلام من السكوت والخرس والطفولية. والمعنى لو كان كلام الله مخلوقاً لوجب أن يكون موصوفاً بضده قبل خلقه له، لاستحالة أن يخلو الحي من الكلام وضده، ويؤدي ذلك إلى استحالة وصفه بالأمر والنهي والخبر، وذلك خلاف الدِّين.

وقد أثبت الله تعالى أن القرآن كلامه في آية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/٦] فلا يجوز أن يكون كلام جبريل أو غيره. وأما آية: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٨١/١٩-٢١] فمعناه: إنه لقول تلقاه النبي محمد عن رسول كريم.

قال البيهقي رحمه الله: والمقصود من تلك الآية تكذيب المشركين فيما كانوا يزعمون من وضع النبي ﷺ هذا القرآن. ثم قد أخبر الله عز وجل أنه هو الذي نزل به الروح الأمين عليه السلام على قلب محمد ﷺ، وأن جبريل نزل به من عند الله تعالى.

وإعجاز القرآن دليل على كونه معجز النظم. ومن تمام الإيمان بالقرآن الاعتراف بأن جميعه هو هذا المتوارث خلفاً عن سلف، لا زيادة فيه ولا نقصان منه.

جمع القرآن بالترتيب المتداول

جُمع القرآن الكريم بعد نزوله منجماً مقسطاً ثلاث مرات: الأولى في عهد النبي ﷺ حيث دوِّن تدويناً كاملاً، ولكن في صحف مختلفة على الرقاع وجرائد النخل والحجارة ونحوها، ثم جُمع في عهد أبي بكر الصديق ؓ في صحف واحدة أو موحدة، ثم جمع مرة ثالثة في عهد عثمان بن عفان ؓ على حرف واحد هو لغة قريش.

أما الجمع الثاني في عهد أبي بكر فتفصيله كما أخرج البخاري والترمذي عن ابن شهاب الزهري، عن زيد ثابت قال: أرسل إلي أبو بكر الصديق ؓ، بمقتل أهل اليمامة، فإذا عمر جالس عنده، فقال أبو بكر: إن عمر جاءني فقال: إن القتل قد استحرَّ بقرَّاء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرَّاء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت في ذلك رأي عمر ؓ. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآن واجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلَّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمروني به من جمع القرآن. قال: قلت: وكيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شُرح له صدر أبي بكر وعمر، قال: فتتبَّعت القرآن

أجمعه من الرقاع والعُسُب[١] وصدور الرجال[٢]، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة أو أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩] خاتمة سورة براءة.

قال زيد: وكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى توفّاه الله عز وجل، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله عز وجل، ثم عند حفصة بنت عمر أمير المؤمنين.

هذا هو الجمع الثاني الذي قام به زيد بن ثابت في صحف واحدة بعد تفرقه في صحف مختلفة، بتدوينه مما دوِّن في عهد النبي ﷺ، ومن حفظ القراء.

وأما **الجمع الثالث** فهو ما رواه ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك أن حُذيفة قدِم على عثمان بن عفان، وكان يغازي أهل الشام، مع أهل العراق في فتح أرمينية وأذربيجان، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلف اليهود والنصارى. فبعث عثمان إلى حفصة أن أرسلي المصحف، أو قال: الصحف، ننسخها في المصاحف، ثم نردّها إليك، فبعثت بها إليه، فدعا زيد بن ثابت، فأمره وأمر عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص. وأمرهم أن ينسخوا الصُّحف في المصاحف، وقال لهم: ما اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

فكُتبت الصحف في المصاحف، فبعث إلى كل أفق بمصحف، وأُمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُمحى أو يُحرق.

---

(١) جرائد النخل.

(٢) ما يحفظونه.

قال زيد بن ثابت: فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب حين نُسخت الصحف، كنا نسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، فالتمستها، فوجدتها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣] فألحقتها به في سورتها في المصحف.

قال البيهقي رحمه الله: وجَمْع (تأليف) القرآن على عهد النبي ﷺ، لقول زيد بن ثابت: «كنا عند رسول الله ﷺ نجمع (نؤلف) القرآن من الرقاع». وخلاصة أنواع جمع القرآن الثلاثة فيما ذكره البيهقي وغيره:

«وإنما أراد - والله تعالى أعلم - تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورتها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ، ثم كانت مُثبتة في الصدور، مكتوبة في الرِّقاع واللُّخف[1] والعسب، فجمعت منها في صحف بإشارة أبي بكر وعمر وغيرهما من المهاجرين والأنصار، ثم نُسخ ما جمع في الصحف في مصاحف بإشارة عثمان بن عفان، على ما رَسَم المصطفى ﷺ».

أخرج البخاري في الصحيح عن عبد العزيز بن رُفيع قال: دخلت مع شدَّاد بن مَعْقِل على ابن عباس، فسألناه: هل ترك رسول الله ﷺ شيئاً سوى القرآن؟ قال: ما ترك سوى ما بين هذين اللوحين. ودخلنا على محمد بن الحنفية، فقال مِثْلَ ذلك.

وأخرج البخاري أيضاً عن ابن عباس قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم أحدثُ الأخبار، بالله تقرؤونه».

وأخرج البخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أن عمر أتاه، فقال: إنا نسمع أحاديث من اليهود تُعجبنا، أفترى أن نكتب

(١) حجارة بيض.

بعضها؟ فقال (أي النبي ﷺ): «أمتهوكون[1] أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتّباعي».

(١) أي متحيرون، كما قال الحسن البصري رحمه الله.

الأصل الخامس من أصول الإيمان

الإيمان بالقدر خيره وشره (١)

الإيمان بالأقدار وما يصيب الإنسان من خير وشرّ مخلوق من الله تعالى هو الأصل الخامس من أصول الإيمان في شريعتنا، أو هو الشعبة الخامسة من شعب الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٤/٧٨]، أي ما أصابك من شيء يسرك من صحة بدن وظفر بعدُوّ وسعة رزق وغير ذلك، فالله مبتليك بالإحسان به إليك، وما أصابك من شيء يسوؤك ويغمُّك من جراحات أو قتل أو أخذ مال أو هزيمة، فبكسب يدك أو جنايتك، لكن الله مع ذلك ساقه إليك، وأوجده لك، وقضى به عليك من غير إلجاء إليه ولا إجبار، فهو من خلق الله تعالى، ولكن ارتكابه من الإنسان. وقوله سبحانه: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي كل ذلك من الخير والشر بتقدير الله عز وجل، ولكن كما جاء في آية أخرى إنما يصيبه جزاءً له بما جناه على نفسه بتحصيله وكسبه واختياره، وليس ذلك بخلاف مغاير لما ذُكر في الآية الأولى، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٤/٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠].

والإيمان بالقدر بنوعيه مطلوب مأمور به في أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ في الحديث المشهور حين سئل النبي ﷺ من جبريل عليه السلام بقوله: أخبرني عن الإيمان ما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره». قال: صدقت. وفي رواية: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، حلوه ومُرّه، وبالبعث بعد الموت». قال: صدقت. وفي رواية أبي هريرة: «وتؤمن بالقدر كله».

والمعنى أن كل مقدور فالله قادره، وأن الخير والشر وإن كانا ضدين، فإن قادرهما واحد، وليس قادر الشر غير قادر الخير، كما تزعم الثنوية[1]، فإذا ثبت أن الإيمان بالقدر شعبة من شُعب الإيمان، فقد دلَّ القرآن والسنة على أن الله تعالى علم في الأزل ما يكون من عباده من خير وشر، ثم أمر القلم فكتب في اللوح المحفوظ بما علم الله، قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٣٦/ ١٢]. وقال سبحانه: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٨]، وقال عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٢] أي إن كل ما يصدر عن الخلائق مدوَّن في اللوح المحفوظ بعلم الله في المستقبل، وعلم الله لا يتغير، وهذا ما أوضحه حديث رواه البيهقي عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكتب في الذِّكْر كلَّ شيء، ثم خلق السماوات والأرض».

ومن آي القرآن المُثْبِتة للقدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٩] أي خلق الخلق على ما علم منهم، وعلى ما قدَّره عليهم، وذلك بحسب ما قدَّره قبل أن يخلق الخلق، فجرى الخلق على مقتضى علمه وكتابه.

---

(١) الذين يقولون بإلهين اثنين.

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: «كان مشركو قريش عند رسول الله ﷺ يخالفونه في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٧-٤٩].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ آدمَ مُوسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا خيَّبتنا، أخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخطَّ لك التوراة، أفتلومُني على أمر قدَّره الله تعالى عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى».

وفي هذا دليل على تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد، وصدورها عن تقدير منه، أي علم وسبق قضاء، فليس لأحد من الناس أن يلوم أحداً على القدر المقدَّر الذي لا مدفع له إلا على جهة التحذير من الوقوع في المعصية، أي إن القدر المقدور لا بد من وقوعه بحسب علم الله تعالى، لكن العلم لا يقتضي الإجبار والإكراه، وإنما تصدر الطاعات وترتكب المعاصي باختيار الناس.

أخرج مسلم عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة، فلما انتهينا إلى بقيع الغَرْقد، قعد رسول الله ﷺ، وقعدنا حوله، فأخذ عوداً فنكت به في الأرض، ثم رفع رأسه، فقال: «ما منكم من نفس منفوسة إلا وقد عُلم مكانُها من الجنة والنار، وشقيّةً أم سعيدة». قال: فقال رجل من القوم: يا رسول الله، ألا ندع العمل، ونتّكل على كتابنا، فمن كان منا من أهل السعادة صار إلى السعادة، ومن كان من أهل الشَّقْوة صار إلى الشقاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ، فمن كان من الشَّقْوة يُيسَّر لعملها». ومن كان من أهل السعادة ييسَّر لعملها، ثم قال رسول الله ﷺ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٩٢/ ٥-١٠].

الإيمان بالقدر خيره وشره (٢)

من أصول الإيمان الإيمان بالقدر المقدر من الله تعالى قضاءً وخلقاً وتيسيراً، فكل إنسان ميسّر لما خلق له، والتيسير ناجم عن حق المُلك الإلهي بالعباد، والله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم (أي عباده) يسألون، وهم مطالبون بأن يكونوا في علاقتهم مع الله تعالى على أساس الجمع أو الدمج بين الخوف والرجاء اللذين هما من مستلزمات العبودية والخضوع لله تعالى، حتى يستكملوا بذلك صفة الإيمان.

يوضح هذا المنهج حديث آخر غير حديث علي المتقدم، وهو ما أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «إن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون عَلَقة مثلَ ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك، فيَنْفخُ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع: بكَتْب رزقه وعمله وأجله، وشقي هو أم سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلُها».

قال البيهقي رحمه الله: وفي الحديث دلالة على أن الاعتبار بما يُختم عليه عمله، وإنه إنما يُختم بما سبق كتابه، وفي ذلك كله دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وإن أعمال عباده

مخلوقة له، مكتسبة للعباد[١]، ومما دلَّ عليه قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٩٦]. وما يعمله ابن آدم ليس هو الصنم (أي الشيء المخلوق) وإنما هو حركاتُنا واكتساباتُنا، أي اختياراتنا، وقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٢]. فكما لا إله إلا هو، كذلك لا خالق إلا هو.

يؤيده ما أخرجه البخاري عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق كلَّ صانع وصنعته». وبما أن الإنسان مخلوق مُحْدَث، فالمحدث لا يصح أن يحدث غيره، كما أن الحركة لا يصح أن تتحرك.

واكتساب الشيء أو ارتكابه غير الخلق والاختراع، فنحن الناس مكتسِبون للشيء غير مخترعين له.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ٦٧/١٣-١٤] يدل على أن الله تعالى خلق الإسرار والجهر اللذين يكتسبان بالقلب، وأنه عليم بهما، وكيف لا يعلم وهو خلقهما؟ فدلَّ على أن الخلق يقتضي علم الخالق بالخلق من كل الوجوه.

ولا فاعل في الحقيقة إلا الله عز وجل، كما أنه لا خالق إلا هو، والإنسان مكتسِب مرتكِب جانٍ على الحقيقة، غير فاعل ولا محدث الشيء عن العدم.

وهذا دليل على أن الفعل ليس له فاعلان أو قادران، وإنما فاعل واحد وهو الله، ومقدور لقادر واحد.

وإذا كان الله تعالى خلق أعمال الإنسان كلَّها، فكيف يكون الثواب

---

(١) أي إن أعمال الخير والشر مخلوقة من الله تعالى، لكن الذي يرتكبها ويتورط بها هم الناس باختيارهم دون إكراه ولا إجبار، فيسأل كل إنسان عما جنته يداه.

والعقاب؟ أو كيف تكون المسؤولية؟ والجواب أن المسؤولية لا تكون من غير سبب، والسبب إن كان خيراً استحق فاعله الثواب، وإن كان شراً استحق فاعله العقاب، والله تعالى منزّه عن الظلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩].

ومعنى مشيئة الله تعالى الكفرَ والظلمَ هو نفي الغلبة من الغير، ونفي العجز عن الله تعالى، ونفي الإكراه من الله على ما يشاء.

ولله تعالى توفيق للطاعة، وخذلان منه في المعصية، قال الله عز وجل: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٩]. ولا تكون عبادة العبد إلا بمعونة الرب، وأمَرَ الله تعالى عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١/ ٥] ولم يكلف الله تعالى عباده بشيء إلا بمقدار ما يستطيعون فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦].

قال ذو النون: «ثلاثة من علامات التوفيق: الوقوع في أعمال البِر بلا استعداد له، والسلامة من الذنب مع الميل إليه وقلة الهرب منه، واستخراج الدعاء والابتهال. وثلاثة من علامات الخذلان: الوقوع في الذنب مع الهرب منه، والامتناع من الخير مع الاستعداد له، وانغلاق باب الدعاء والتضرع».

والخلاصة: إن ربنا عز وجل فعّال لما يريد، لا علة لفعله، ولا معقِّب لحكمه، وأنه علم في الأزل ما يكون من الحوادث بخلقه، فقدَّره على ما لم يزل عالماً به، ثم خلقه على ما قدَّره، فلا تبديل لحكمه، ولا مردَّ لقضائه. وفي الإيمان به وجوب التبرّي من الحول والقوة إلا إليه، والاستسلام للقضاء والقدر بالقلب واللسان.

الرضا بالقضاء والقدر

رغَّب الشرع الشريف بالاستسلام للقضاء والقدر والرضا بهما، مع ضرورة القيام بالواجب، وبذلِ المساعي المطلوبة، والأخذِ بالأسباب، فلا يعني الرضا بالقضاء والقدر التكاسل والقعود عن بذل الإنسان أقصى وسعه في تحقيق الغايات، وفعل الطاعة واجتناب المعصية. وقد ثبت في أخبار السنة وجوب الرضا بالقضاء والقدر، منها ما يأتي:

أخرج النسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أعلمك أو أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، يقول الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم». أي إن تفويض الأمر لله عز وجل بعد اتخاذ الأسباب وحسن التوكل على الله شيء مطلوب في الإسلام، فيكون ذلك أمارة على الرضا بما قدر الله وقضى.

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجَز، وإن أصابك شر فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، قل: قدَّر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» أي إن الرضا بالقضاء والقدر على عكس ما يفهمه الناس من التقصير في أداء الأعمال، وإنما هو سبيل لتخطي وتجاوز الماضي، والإقبال على الحياة بهمة عالية، وعزيمة قوية، دون تأثر معوق بما حدث، فكل حادث بمراد الله تعالى.

ومن الوقائع في العهد النبوي الدالة على حسن التفويض لله فيما قضى وقدر ما رواه مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: «خدمتُ

رسول الله ﷺ عشر سنين، فما أرسلني في حاجة قط، فلم تتهيأ إلا قال: لو قضى الله كان، ولو قدَّر كان». فهذا منع من الرجوع للوراء، أو الوقوع في مشكلات الماضي الذي وقع، ولا فائدة من بحث ذلك، لأن ما فات زال، ولا مقدرة لإنسان في تعديل أو تغيير ما حدث، وعلى الإنسان أن يفكر دائماً في المستقبل ويعدّ العدّة المناسبة، وترك تقدير النتائج لله تعالى.

يوضحه ما رواه الترمذي والبيهقي والآجري عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: «يا غلام أو يا غُلَيم، احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده تُجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبْه الله لك، لم يقدِروا على ذلك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبْه الله عليك، لم يقدِروا على ذلك، قُضي القضاء، وجَفت الأقلام، وطُويت الصُّحف».

ومن الأدعية المأثورة في هذا دعاءُ النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الصحة والعفة، والأمانة وحسن الخُلُق، والرضا بالقدر». «وأسألك الرضا بعد القضاء».

وأخرج مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعمَ الإيمان من رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً».

وأما أداء الواجب والسعي فلا يتنافى مع الرضا بما قسم الله وحكم، أخبر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: «أدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس، واجتنب ما حرَّم عليك تكن من أورع الناس، وارضَ بما قَسَم الله لك تكن من أغنى الناس».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي الدرداء، قال: «ذِروة الإيمان أربع: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب عز وجل».

وأخرج الترمذي وغيره عن عائشة، عن أبي بكر الصديق ﷺ: أن النبي ﷺ كان إذا أراد أمراً قال: «اللهم خِرْ لي واختر لي».

إن الرضا بالقضاء والقدر راحة للنفس، وجلب للطمأنينة والسرور، وبُعْد عن الحزن والشعور بالكآبة، قال ذو النون: «من وثق بالمقادير لم يغتم». وروى البيهقي عن موسى بن جعفر بن أبي كثير، عن عمّه قال: بلغني في قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٢]: أن الكنز الذي كان لوحاً من ذهب، مكتوب فيه: «عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يضحك، عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، عجباً لمن يرى الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ كثيراً ما يدعو «اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحبَّ تعجيل شيء أخّرته، ولا تأخير شيء عجّلته».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ذي النون يقول: «ثلاثةٌ من أعلام التسليم: مقابلةُ القضاء بالرضا، والصبرُ على البلاء، والشكر على الرخاء. وثلاثة من أعلام التفويض: تركُ الحُكْم في أقدار الله في وقت إلى وقت، وتعطيلُ الإرادة لإرادةِ في النوافل وأسبابِ الدنيا، والنظر إلى ما يقع به من تدبير الله عز وجل. وثلاثة من أعلام ذكاء القلب: رؤيةُ كلِّ شيء من الله، وقبولُ كل شيء عنه، وإضافة كلِّ شيء إليه».

الهداية والعمل في ضوء القضاء والقدر

الهداية الإلهية للإيمان والعمل الصالح تسير في فلك القضاء والقدر، وكذلك أعمال العباد المخلوقة من الله تعالى تنسجم في نهاية العمر مع القضاء والقدر، والعبرة في معرفة السعادة والشقاوة بما يختم عليه عمل الإنسان، ويختم هذا العمل الإنساني بما يتوافق مع سبق علم الله تعالى بمصير كل مخلوق في هذا الوجود.

وتتضح هذه الحقائق من خلال الأخبار النبوية الثابتة، ومنها تقرير الخاتمة في الحديث الذي أخرجه مسلم في الصحيح، وكذا البخاري من وجه آخر، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكونُ عَلَقة مثل ذلك، ثم يكونُ مضغة مثل ذلك، ثم يُبعث إليه الملك، فينفخُ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع: بكتْب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع فيسبقُ عليه الكتابُ، فيُختم له بعمل أهل الجنة فيدخلُها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتاب، فيختمُ له بعمل أهل النار فيدخلُها». قال البيهقي: دلَّ الحديث على أن الاعتبار بما يُختم عليه عمل الإنسان، وأنه إنما يُختم بما سبق كتابه. وفي ذلك كله دلالة على أن الله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأن أعمال عباده مخلوقة له، مكتسَبة للعباد. ومما دلَّ عليه قوله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٩٦] وقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٢]. فكما لا إله إلا هو، كذلك لا خالق إلا هو.

ومن جملة ما يخلقه الله تعالى الهداية والضلال، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥]. فقوله: (يشرح) و (يجعل) يوجب الفعل والخلق من الله. يوضحه حديث الطبراني الصحيح: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له». وعن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ: «إن الله خلق كل صانع وصنعته».

ومن أمثلة الخلق الإسرار والجهر اللذان يكتسبهما القلب، والله عليم بهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٣-١٤].

وكون خلق الأفعال من الله وأن الإنسان يكتسب الفعل ويمارسه، لا يعني أن الفعل وقع من فاعلين، فلا فاعل في الحقيقة إلا الله عز وجل، كما أنه لا خالق إلا هو، والإنسان مكتسب ممارس الفعل على الحقيقة غير فاعل.

والمسؤولية من الله لعبده وحسابه على ما يفعله ليس ظلماً له، وإنما بسبب اختياره الفعل وممارسته له، ولا يكون الله ظالماً لعبده، لأن حقيقة الظلم هو تعدي الحد والرسم الذي يرسمه الآمر الذي لا آمر فوقه، فلا يكون العقاب على اختراق الحد وجناية الفعل الإنساني ظلماً من الله تعالى، لأن الله هو المالك على الحقيقة، وهو فيما يفعله في ملكه غير متعدّ.

وأما عمل الإنسان أو استطاعته فهو داخل في قدرة الله، والله يوفق العبد للطاعة، ويخذله في المعصية، قال الله عز وجل: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٩]. فالذي مارس الضلال هو الإنسان.

وعلى الإنسان مجاهدة نفسه وإعمال عقله، فيختار الإيمان والعمل الصالح، لأنه يفيده، ويتجنب الكفر وسوء العمل لأنه يضره. روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تَعْجز، وإن أصابك شر فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، قل: قدَّر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان».

ولا يستطيع الناس قاطبة تغيير ما قدر الله، لما رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن ابن عباس قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجدْه تُجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبْه الله لك، لم يقدروا على ذلك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقْدِروا على ذلك، قُضي القضاء، وجَفَّت الأقلام، وطُويت الصحف».

ولا بد للإنسان من الرضا بالقضاء والقدر، كما جاء في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الصحة والعفة والأمانة وحسن الخُلُق، والرضا بالقدر». وفي حديث آخر: «وأسألك الرضا بعد القضاء».

وروى أحمد ومسلم والترمذي عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً».

وذكر البيهقي أنه كان مكتوباً في كنز الغلامين في سورة الكهف: «عجباً لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجباً لمن أيقن بالحساب كيف يضحك، عجباً لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، عجباً لمن يرى الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله».

الأصل السادس من أصول الإيمان

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالقيامة أو باليوم الآخر هو الأصل السادس من أصول الإيمان أو الشعبة السادسة من شعب الإيمان. ومعناه التصديق بأن لأيام الدنيا آخراً، أي إن الدنيا زائلة منتقضة، والعالم زائل منتقض يوماً من الأيام، وفي الاعتراف بانقضائه اعتراف بابتدائه، لأن القديم لا يفنى ولا يتغير.

ووجود اليوم الآخر ضرورة حتمية لإقامة العدل المطلق من الله بين العباد، ولأن الإيمان به يبعث الرهبة من الله تعالى، وقلّة الركون إلى الدنيا، والتهاون بأحزانها ومصائبها، والصبر عليها وعلى مضض الشهوات، واحتساب الأجر أو الثواب عند الله، والثقة بما عنده سبحانه من حسن الجزاء والثواب.

وقد وردت النصوص الشرعية القطعية الثابتة بإثبات وجود هذا اليوم، بعضها يأمر بالإيمان به، وبعضها فيه توجيه اللوم والتوبيخ لمن لم يؤمن به، ومنها الإخبار بقرب يوم القيامة أو الساعة، ومنها وصف كيفية حدوث هذا اليوم فجأة من غير إنذار ولا تحذير، ومنها تصوير أهوال القيامة وعجائبها.

قال الله تعالى في شأن الإيمان بالآخرة: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦٢].

ونفى الله الإيمان بالآخرة عن المنافقين بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨].

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره».

وورد في آي القرآن الكريم إطلاق كلمة الساعة إما على الساعة الآخرة من ساعات الدنيا، وإما على الساعة الأولى من ساعات الآخرة، قال الله تعالى عن آخر ساعات الدنيا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧]، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٦٣].

وقال سبحانه عن أول ساعات الآخرى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٥]، أي حين يبعث الناس من القبور. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٦].

قال البيهقي رحمه الله: وقد نطق القرآن بأن النبي ﷺ كان لا يعلم متى تقوم الساعة، ولا يعلمه أحد من خلق الله. وهذا أي قيام الساعة من الغيبيات الخمس التي اختص الله بعلمها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤].

وموعد القيامة أو الساعة قريب، لما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين». والمعنى - كما قال البيهقي - أني أنا النبي الآخر، ولا يليني نبي آخر، وإنما يليني

القيامة، وهي مع ذلك دانية، لأن أشراطها (علاماتها) متتابعة بيني وبينها، غير أن ما بين أول أشراطها إلى آخرها غير معلوم.

والساعة أو القيامة تأتي بغتة (فجأة) لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ٣١]. وقوله سبحانه: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧]. ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٠].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لتقومنَّ الساعة، وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما لا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يَليط[١] حوضه لا يسقيه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقْحة[٢] من تحتها، لا يطعمها، وقد رفع أكلته إلى فيه، فلا يطعمها».

وأهوال القيامة شديدة، وردت بها النصوص منها قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٥] وقوله سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٠].

قال الحليمي رحمه الله: وقد أخبر الله عز وجل على لسان نبيه ﷺ أنه مُفني ما على الأرض، ومبدِّل الأرض غير الأرض، وأن الشمس تكوَّر، والبحار تُسجَّر، والكواكب تنتثر، والسماء تتفطر، وتصير كالمُهْل، فتُطوى كما يُطوى الكتاب، وأن الجبال تصير كالعِهْن المنفوش، ويَنْسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً، لا ترى عوجاً فيها ولا أمتاً، وكل ذلك كائن كما جاء به الخبر، ووعد الله صدق، وقوله حق.

---

(١) يلصقه بالكلس والجص.
(٢) الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

الأصل السابع من أصول الإيمان

الإيمان بالبعث والنشور من القبور

من أصول الإيمان أو من شعبه الأساسية الإيمان ببعث الناس أحياءً، ونشورهم من القبور بعد الموت، تمهيداً لجمعهم وحسابهم على أعمالهم يوم القيامة، والله على كل شيء قدير.

وقد وردت آيات كثيرة في التنديد بمن يكفر بالبعث في الآخرة، منها قول الله عز وجل: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٦٤/٧].

وقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥].

وفي حديث الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث من بعد الموت، وبالقدر كله».

ومعنى الإيمان بالبعث - كما قال البيهقي - هو أن يصدِّق الإنسان بأن الله تعالى يعيد الرُّفات من أبدان الأموات، ويجمع ما تفرق منها في البحار وبطون السباع وغيرها حتى تعود لهيئتها الأولى، ثم يجمعها حية، فيقوم الناس كلهم بأمر الله تعالى أحياء، صغيرُهم وكبيرهم، حتى السِّقط

الذي قد تم خلقه، ونُفخ فيه الروح. فأما الذي لم يتم خلقه، أو لم يُنفخ فيه الروح أصلاً، فهو وسائر الأموات بمنزلة واحدة. والله تعالى أعلم.

وأما إسقاط النساء الحوامل أحمالهن يوم القيامة فمعناه إن كانت الأحمال أحياء في الدنيا أسقطنها يوم القيامة أحياء. وإن كانت لم ينفخ فيها الروح أسقطنها أمواتاً كما كانت.

وأدلة إثبات البعث كثيرة، منها قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٣٦/ ٨١]. وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣].

فإحياء الموتى أهون من خلق السماوات والأرض التي هي أعظم جسماً من الناس، وقدرة الله شاملة لكل شيء.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩] فجعل النشأة الأولى دليلاً على جواز النشأة الأخرى، لأنها في معناها. ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٠]. فجعل ظهور النار من الشجر الأخضر دليلاً على جواز خلقه الحياة من الرمم البالية والعظام النخرة. ومن الأدلة المتكررة في القرآن إحياء النبات من الأرض الميتة. وكذلك إحياء النطفة التي هي ميتة، وخلق الحيوان منها، كل ذلك دليل على قدرة الله على إحياء الموتى، كما قال سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨] أي كنتم نطفاً في الأصلاب والأرحام، فخلقكم منها بشراً تنتشرون في الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٠-٢٣] فمن يقدر على إيجاد الحياة من النطف، يقدر على إعادة الحياة مرة أخرى.

يؤكد ذلك آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣٧-٤٠].

ونبَّه الله تعالى الناس على إعادة الحياة بخلق الحب والنوى، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٥]، فإن الحب والنوى بعد اليبس في حالة موت، فإذا أودعا الأرض الحية، فلَقَهما الله تعالى، وأخرج منهما النخل والزرع حياً ينشأ وينمو إلى أن يبلغ غايته. ومثل ذلك البيضة في حكم الموت، ثم يخلق الله منها حياً، فهل هذا إلا إحياء الميتة؟

ونبهنا الله تعالى على إحياء الموتى بما أخبر من إراءة إبراهيم عليه السلام إحياء الأموات، وبما أخبر عن الذين أخرجوا من ديارهم، وهم ألوف، حذر الموت، وهم جماعة من اليهود، فقال الله لهم: موتوا. ثم أحياهم. وبما أخبر به عن الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وهو العُزير، قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٩] فأماته الله مئة عام ثم بعثه. وبما أخبر به عن عصا موسى عليه السلام، وقلبها حية، ثم إعادتها خشبة، ثم جعلها عند محاجَّة السحرة حية، ثم إعادتها خشبة. وبما أخبر به من قصة أصحاب الكهف الذين أنامهم الله ثلاث مئة وتسع سنوات ثم أحياهم، ليدل قومهم عندما عثروا عليهم على أن ما أنذروا به من البعث بعد الموت حق لا ريب فيه.

كل هذه الوقائع والأمثلة دليل على قدرة الله على إعادة الأجسام حية يوم القيامة.

الأصل الثامن من أصول الإيمان

الحشر في الموقف

بعد أن يبعث الله تعالى الناس من القبور يجمعهم في الموقف المبين لهم من الأرض وهو المسمى بالحشر في الموقف، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، فأولئك هم السعداء، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله، أو وراء ظهره، وهؤلاء هم الأشقياء. قال الله تعالى في بعض الأشقياء وهم المطففون في الكيل والميزان: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٤-٦].

ويكون الناس في موقف الحشر يوم القيامة واقفين على أقدامهم، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨].

وأخرج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يقوم الناس يوم القيامة لرب العالمين، حتى يغيب أحدهم في رَشَحه(١) إلى أنصاف أذنيه».

وأخرج مسلم أيضاً عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنى الشمس يوم القيامة من الخَلْق حتى تكون منهم كمقدار ميل(٢)».

---

(١) أي عَرَقه.

(٢) المراد به إما ميل مسافة الأرض، وإما الميل الذي تكحل به العين.

فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرَق، فمنهم من يكون إلى كَعْبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْويه[1]، ومنهم من يُلجمه إلجاماً». وأومأ رسول الله ﷺ إلى فيه، أي فمه.

ويعرف السعداء بتسلم الكتب باليمين، والأشقياء بتسلم الكتب بالشمال أو من وراء الظهر، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨٤/٧-١٢].

أما كيفية الحساب بعد تسلّم الكتب فعلى النحو الآتي:

يحاسب الله تعالى المكلفين بنفسه، ويخاطبهم معاً، لا واحداً بعد واحد، غير أن تكليمه تعالى أهل رحمته يزيدهم بشارة وكرامة، وتكليمه أهل عقابه يزيدهم خسارة وحسرة. روى البخاري عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلّمه ربّه، ليس بينه وبينه حجاب ولا تَرْجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدَّمه، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا شيئاً قدَّمه، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشقّ تمرة».

وروى ابن النجار كما في كنز العمال عن أبي هريرة قال: قال أعرابي: يا رسول الله، من يحاسب الخلق يوم القيامة؟ قال: الله. قال: الله. قال: الله. قال: نجونا وربِّ الكعبة، قال: وكيف يا أعرابي؟ قال: لأن الكريم إذا قدر عفا.

وأهل اليمين يحاسبون حساباً يسيراً؛ وأهل الشمال يناقشون ويحاسبون حساباً عسيراً، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من حوسب عُذِّب». قالت عائشة: يا رسول الله،

---

(١) الحَقْو الإزار أو الخصر.

فأين قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨٤/٧-٨] قال: «ذلكم العرض، ولكنه من نوقش الحساب عُذِّب».

والحساب لأن الناس إذا بعثوا لا يذكرون أعمالهم، لكنها محفوظة لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٥٨/٦].

وأخبر الله عز وجل أن المحاسبة تكون بشهادة النبيين والشهداء، قال سبحانه: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/٤١]، والشهيد في هذه الآية النبي ﷺ، وشهيد كل أمة نبيها. وأما الشهداء في الآية قبلها، فالأظهر أنهم كتبة الأعمال.

وتشهد الأمة الإسلامية على الأمم السابقة أن أنبياءهم بلَّغوهم رسالة ربهم، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة، فيقال: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم. فتدعى أمته، فيقال: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد. قال: فيقال: من شهودكَ؟ قال: فيقول: محمد وأمته. قال: فيؤتى بكم، فتشهدون أنه قد بلَّغ، وذلكم قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣]».

وتشهد أعضاء الإنسان على أهلها بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤/٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٤١/٢١] و ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٣٦/٦٥].

والمسؤولية فردية، فلا يسأل أحد عن أحد لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨/٢٨] أي لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الماضية الذين عذبوا في الدنيا، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩/٥٥] أي يوم تَشَقَّق السماء وتكوَّر لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان. وذلك عند الفراغ من الحساب، ولا تسأل الملائكة عن المجرم إنساً ولا جاناً.

ودلت الأخبار عن المصطفى ﷺ على أن كثيراً من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب، وكثيراً منهم يحاسبون حساباً يسيراً، وكثيراً منهم يحاسبون حساباً شديداً. أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب». ثم دخل، ولم يبيِّن لهم، فأفاض القوم، فقالوا: نحن الذين آمنا بالله، واتّبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا الذين وُلدوا على الإسلام، فإنا نحن وُلدنا في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «هم الذين لا يكتوون، ولا يَسْتَرقون[1]، ولا يتطيرون[2]، وعلى ربهم يتوكلون». فقال عكاشة بن محصن: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «نعم». ثم قال رجل آخر: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «قد سبقك بها عكاشة».

وزن الأعمال بعد الحساب الأخروي

إذا انقضى الحساب الأخروي من الله تعالى لعباده، كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد الحساب، لأن

(١) أي الرقية غير الشرعية.
(٢) أي لا يتشاءمون.

المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، كما ذكر البيهقي وغيره من أهل السنة. قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٧]، وقال: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨-٩]. وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١-١٠٤].

والإيمان بالميزان كالإيمان بالبعث وبالجنة والنار وتوابعها. وقد ورد ذكر الميزان في حديث الصحيحين عن الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، سئل عن الإيمان، قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال السائل: إذا فعلت هذا فأنا مؤمن؟ قال: «نعم». قال: صدقت.

ووزن الأعمال يكون للمؤمنين وغيرهم، للآية السابقة: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨-٩]. فالكفار يُسألون عن كل ما خالفوا به الحق من أصل الدين وفروعه، فهم في رأي الجمهور مخاطبون بجميع الشرائع القرآنية، فتوزن أعمالهم لإقامة الحجة عليهم في موقف الحساب. قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ، ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٦-٧]. فتوعَّدهم الله على منع الزكاة. وكذلك أخبر سبحانه عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤٢-٤٧]. وهذا الرأي

بتكليفهم بناء على ما ذكر هو الصحيح كما قال البيهقي. فهم مخاطبون بالإيمان بالبعث وغيره، وبإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومسؤولون عنها، ومجازَون على ما أخلوا به منها.

وفائدة وزن أعمال الكفار أن الكافر قد يكون منه صلة الأرحام، ومواساة الناس، ورحمة الضعيف، وإغاثة اللهفان، والدفاع عن المظلوم ونحو ذلك، فجزاء خيراته أن يخفف عنه العذاب، ويبقى عذابه على الكفر وأصول الدين.

روى البخاري في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحفظك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح[1] من النار، ولولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار».

ويؤيد هذا الاتجاه في أن الأعمال الصالحة تفيد الكافر حديث مرفوع أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحسن من مُحسن، كافر أو مسلم، إلا أثابه الله عز وجل». قلنا: يا رسول الله، وما إثابة الله الكافر؟ قال: «إن كان وصل رحماً أو تصدق بصدقة، أو عمل حسنة أثابه الله تعالى، وإثابته إياه المالُ والولدُ الصحة وأشباه ذلك». قال: قلنا: وما إثابته في الآخرة؟ قال: «عذابٌ دون عذاب». وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/٤٦].

وأما حساب المؤمنين فإن أعمالهم توزن، وهم فريقان: أحدهما: المؤمنون المتقون لكبائر الذنوب، فهؤلاء توضع حسناتهم في الكفة النيرة، وصغائرهم - إن كانت لهم - في الكفة الأخرى، فلا يجعل الله لتلك الصغائر وزناً، وتثقل الكفة النيّرة، وترتفع الكفة الأخرى ارتفاع

(١) أي قريب القعر.

الفارغ الخالي، فيؤمر بهم إلى الجنة، ويثاب كل واحد منهم على قدر حسناته وطاعاته، على النحو المذكور في آيات الموازين.

والفريق الآخر: المؤمنون المخطئون، وهم الذين يوافون القيامة بالكبائر والفواحش، غير أنهم لم يشركوا بالله شيئاً، فحسناتهم توضع في الكفة النيرة، وسيئاتهم في الكفة المظلمة، فيكون يومئذ لكبائرهم التي جاؤوا بها ثقل، ولحسناتهم ثقل، إلا أن الحسنات تكون بكل حال أثقل، أن معها أصل الإيمان، وليس مع السيئات كفر، ويستحيل وجود الإيمان والكفر معاً لشخص واحد. ويغفر الله لمن يشاء بفضله، ويشفّع فيمن يشاء منهم بإذنه، ويعذِّب من شاء منهم بمقدار ذنبه، ثم يخرجه من النار.

ودلَّ القرآن على وزن أعمال المخلِّطين من المؤمنين في قوله عز وجـل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧].

وذهب المفسرون إلى إثبات الميزان، ودلت الأخبار عليه، روى الكلبي عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكِفتان، يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة، فتوضع في كفّة الميزان، فيثقل على السيئات، فيؤخذ فيوضع في الجنة عند منازله. ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة، فتوضع في كفة الميزان، فتُخفِّف، والباطل خفيف، فيطرح في جهنم إلى منازله منها.

كبائر الذنوب وصغائرها

الذنوب أو المعاصي نوعان: كبائر وصغائر، والفرق بينهما أن الكبائر هي التي اجتمع فيها المنع والانتهار أو التغليظ. أو هي كل ذنب

ختمه الله بنار أو غضب أو عذاب أو لعنة. والصغائر هي المنهي عنها باعتبارها ذريعة أو مقدمة إلى غيرها، ولكن لم يرد في شأنها توبيخ أو انتهار.

فمن الذنوب الصغائر أن يدل شخص رجلاً على مطلوب ليقتل ظلماً، أو يقدم له سكّيناً، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٥/٢]، أو أن يقبِّل امرأة أجنبية غير ذات رحم من المحارم الأقارب، فهذا حرام، وكون ذلك من الصغائر، لأنه مجرد ذريعة للظالم للتمكن من ظلمه، من غير مشاركة له في الفعل. ويكون الإصرار على الصغائر من الكبائر. ومن الصغائر أيضاً قذف الفتاة الصغيرة أو المتهتكة أي رميها بالزنا، وكذلك القذف بالخيانة والكذب والسرقة. أخرج البيهقي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقَّرات الأعمال، إنهن ليجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وأن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل يجيء بالعود، والرجل يجيء بالعُويد، حتى جمعوا من ذلك سواداً، ثم أجَّجوا ناراً، فأنضجت ما قذف فيها».

والصغائر هي المعبر عنها في القرآن الكريم بكلمة (اللمم) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ﴾ [النجم: ٥٣/٣٢].

والكبائر سبع أو تسع أو سبعون، قيل لابن عباس: الكبائر سبع، قال: هي إلى السبعين أقرب. وكلها من أجل تعظيم حرمات الله والترهيب من ارتكابها.

والسبع الموبقات[1] من الكبائر، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله

---

(١) المهلكات.

وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: وليس في تقييده ذلك بالسبع منع الزيادة عليهن، وإنما فيه تأكيد اجتنابهن، ثم قد ضم إليهن غيرهن.

ومن الكبائر عقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، وقول الزور أو شهادة الزور، واليمين الغموس، والتسبب في سبّ الوالدين، بأن يسبّ أبا الرجل، فيسبّ أباه، ويسبّ أمه فيسبّ أمه، ومنها أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك، وأن تزاني حليلة جارك، والسرقة، والزنا، وإتيان الناس بالبهتان، والعصيان في معروف، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وتناول الخمر والميسر، وأكل مال اليتيم، وأكل أموال الناس بالباطل، وترك الصلاة المفروضة، والفرار من الزحف أمام اثنين من الأعداء، ومنع الزكاة كبيرة، لكن ردّ السائل صغيرة، والظلم كبيرة، وكل ما كان أفحش ذكراً فهو زائد على الكبيرة.

وأكبر الكبائر الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/١١٦]. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/٤٨].

قال ابن عباس: أكبر الكبائر الشرك بالله، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٥/٧٢]. واليأس من رَوْح (رحمة) الله كبيرة، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٨٧].

والأمن من مكر الله كبيرة، لأن الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٩٩].

وعقوق الوالدين كبيرة؛ لأن الله تعالى جعل العاقَّ جباراً شقياً عصياً.

وقتل النفس التي حرّم الله بغير حقّ كبيرة؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٤/ ٩٣].

وقذف المحصنات (رمي الحرائر العفيفات بالزنا) كبيرة؛ لأن الله يقول: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٣].

وأكل مال اليتيم كبيرة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

والفرار من الزحف كبيرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٦].

وأكل الربا أو الفوائد المصرفية كبيرة، لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥].

والسحر كبيرة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

والزنا كبيرة؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٦٩].

واليمين الغموس الكاذبة الفاجرة عمداً كبيرة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٧].

ومنع الزكاة المفروضة كبيرة؛ لأن الله يقول: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٥].

وشهادة الزور وكتمان الشهادة كبيرة، فإن الله يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣].

وترك الصلاة عمداً كبيرة؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ومن ترك الصلاة متعمداً، فقد برئ من ذمة الله ورسوله».

وشرب الخمر كبيرة، لأن الله عدل بها الأوثان.

ونقض العهد وقطيعة الرحم كبيرة، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٥].

مصير أصحاب الكبائر يوم القيامة

الذين يرتكبون الكبائر في الدنيا وتابوا منها قبل الموت توبة خالصة لله تعالى، مع الندم الشديد، والتصميم على عدم العودة إلى الذنب مرة أخرى، وردُّوا حقوق الناس المالية إليهم، يغفر الله لهم، والمصرّ على ذنبه أمرُه إلى ربه، يعذبه بذنبه، ثم يدخله الجنة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [٤ / ٤٨، ١١٦]. يؤكده حديث الصحيحين عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال لصحابته كما في بيعة النساء: «تبايعون على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا - كما في الآية كلها - فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب فهو كفارته، ومن أصاب من ذلك[1] شيئاً، فستره الله عليه، فهو إلى الله عز وجل إن شاء غفَر له،

(١) أي ما خلا الشرك.

وإن شاء عذَّبه». فجعل الحدّ كفارة لما أصاب من الذنب غير الشرك، وجعل ما لم يُحدّ فيه موكولاً إلى مشيئة الله عز وجل، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه. وليس التعذيب مؤبداً، بدليل ثبوت أخبار الشفاعة، وما ورد في معناها من كتاب الله عز وجل.

أما الذين يرتكبون الذنوب الكبائر، وماتوا ولم يتوبوا، فأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء شفَّع فيهم نبيهم ﷺ، وإن شاء أمر بإدخالهم النار، فكانوا معذبين مدة، ثم أمر بإخراجهم منها إلى الجنة، إما بشفاعة وإما بغير شفاعة، ولا يخلّد في النار على الدوام إلا الكفار، لقول الله عز وجل: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨١]. أخبر الله في هذه الآية أن التخليد في النار إنما هو لمن أحاطت به خطيئته، والمؤمن صاحب الكبيرة أو الكبائر، لم تحط به خطيئته، لأن رأس الخطايا هو الكفر، وهو غير موجود في المؤمن، فصح أنه لا يخلَّد في النار. وربما تكون حسناته تزيل آثار سيئاته، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

صحيح أن صاحب الكبيرة لم يَعِدْه الله بالجنة لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٢].

والمراد بآية: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٤/ ٣١]، الكبائر هنا هي الشرك، وهي مطلقة، وتكفير السيئات مطلق، لكن آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤/ ١١٦] مقيدة، فيجمع بين الآيتين، بحمل المطلق على المقيد.

والتوبة تعم جريمة القتل وغيرها من الكبائر المذكورة بعدها في آيات صفات عباد الرحمن، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ

أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٧٠]. فانصرف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع ما تقدم ذكره. قال أبو سليمان الخطابي البُسْتي رحمه الله: «القرآن كله بمنزلة الكلمة الواحدة، وما تقدم نزوله وما تأخر في وجوب العمل به سواء، ما لم يقع بين الأول والآخر منافاة».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٤/ ١٤] الحدود فيها اسم جمع، وإنما يصير متعدياً لحدود الله تعالى أجمع بترك الإيمان، وتارك الإيمان يخلّد في النار.

والآيات كثيرة في الدلالة على أن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأحسن الأعمال الإيمان بالله وبرسوله، ومنها قوله تعالى ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٠] وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة قاربت التواتر تثبت الشفاعة، وإخراجَ أهل التوحيد من النار، وكذلك آيات في مغفرةِ الله تعالى لجميع الذنوب غير الشرك، فضلاً من الله ورحمة، منها: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩]. أخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: «الشفاعة». أي فهي المقام المحمود لنبينا ﷺ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٩٣/ ٥].

وحين قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٨] رفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهم أمتي أمتي». وبكى، وقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسلْه ما يبكيك؟ فأتاه جبريل، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال تبارك وتعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك.

وقال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان والترمذي عن جابر بن عبد الله: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي..» وذكر منها: «وأعطيت الشفاعة». وأخرج مسلم أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوةً قد دعا بها في أمته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي»(١).

وهذه الشفاعة كما في رواية البخاري ومسلم عن أنس بن مالك هي لأهل الكبائر من أمته. وأخرج الحاكم والترمذي وأبو داوود عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(٢). قال البيهقي رحمه الله: وكذلك رواه الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد، وزاد: أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٨] فقال: «إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

والخلاصة: أن المؤمن لا يخلد في النار بذنوبه، غير أن القَدْر الذي يبقى فيها غير معلوم.

جزاء العصاة في الآخرة

العصاة في الآخرة نوعان: المؤمنون الطائعون الذين تورطوا بالمعصية، والكافرون الذين لم يؤمنوا برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين. أما أهل الإيمان الذين ارتكبوا بعض المعاصي، فأمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم، وقد يأذن الله تعالى لرسوله الكريم بأن يشفع لهم، والشفاعة لأهل المعاصي ثابتة لنبينا ﷺ - كما تقدم -

(١) وكذلك أخرج مسلم مثله عن أبي هريرة.
(٢) وكذلك أخرج الترمذي والحاكم عن جابر مثل هذا الحديث.

وكما أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتَعَجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً».

ويخرج هؤلاء من النار بعد أن يغتسلوا في نهر من أنهار الجنة هو نهر الحياة، فيخرجون كأنهم عيدان السماسم البيض. ولا يبقى من المؤمنين في النار أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وفي قلبه مثقال ذرة من خير، كما روى البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري في حديث الرؤية والصراط ومرور المؤمنين عليه. وكان أبو سعيد إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: وإن لم تصدقوني فاقرؤوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤/ ٤٠].

وبعد شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين الصالحين تبقى شفاعة أرحم الراحمين بالعصاة، وهي أرفع وأشمل الشفاعات وأتمها، حيث يدخلهم الله في جنته، ويمنحهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

ويكافئ الله تعالى هؤلاء بمنحهم عشرة أمثال الدنيا. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً، وآخرَ أهل النار خروجاً من النار، رجلٌ يخرج حَبْواً، فيقول له ربه: ادخل الجنة. فيقول: أرى الجنة ملأى. فيقول له ذلك ثلاث مرات، كل ذلك يعيد: الجنة ملأى. فيقول: إن لك مثل الدنيا عشر مرات».

وتعم الرحمة الإلهية كل من دعا ربه وهو في النار بقوله: يا حنّان يا منّان. أخرج أحمد والبيهقي، عن أنس، عن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً يُنادي في النار ألف سنة: يا حنّان يا منّان. فيقول الله لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا. قال: ذهب جبريل، فوجد أهل النار منكبين

يبكون.قال: فرجع إليه، فأخبر ربّه، قال: اذهب إليه فأتني به، فإنه في مكان كذا وكذا. قال: فذهب فجاء به، قال: يا عبدي، كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ قال: يا ربّ، شرَّ مكان وشرَّ مقيل. قال: رُدّوا عبدي. قال: ما كنتُ أرجو أن تُعيدني إليها إذ أخرجتني منها. قال الله لملائكته: دعوا عبدي».

وأما الكافرون العصاة فهم مخلّدون في النار، معذبون فيها على الدوام، لقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦].

ولما أخرجه البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون..».

وروى مسلم عن أبي سعيد أيضاً أن النبي ﷺ خطب، فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٧٤] أي لا يحيا حياة السعداء، ولا يموت موت فئة الفناء.

وهذه مقارنة بين الفريقين فريق أهل الجنة وهم المؤمنون، وفريق أهل النار وهم الكفار، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/١٨-٢٠].

والخلاصة: إن المؤمن لا يخلَّد في النار بذنوبه، غير أن القدر الذي يبقى فيها غير معلوم، والذي تلحقه الشفاعة ابتداء حتى لا يعذب أصلاً غير معلوم، فالذنب خطره عظيم، وشأنه جسيم، وربنا غفور رحيم، عقابه شديد أليم، كما قال البيهقي رحمه الله.

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْرَج قوم من النار بعدما امتُحشوا[1]، فيدخلون الجنة». قال عبيد بن عمير: لو لم أسمعه من ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ ما حَدَّثته.

ما يتجاوز الله عنه فضلاً منه ورحمة

القرآن الكريم أو الإسلام كله رحمة ويُسْر وفضل من الله تعالى، فلا نجد في القرآن ما يوقع الناس في الحرج والمشقة، وإنما نجد فيه ظاهرة التيسير والتخفيف منتشرة في جميع التكاليف الشرعية، وقد نجد في القرآن حكماً ربما يكون شاقاً، ثم يأتي بعده ما يخففه وييسره. ومثال ذلك ما جاء في أواخر سورة البقرة، إذ كان الحكم الإلهي مساءلة الناس عما يظهرونه أو يخفونه في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٤] فاشتد ذلك على الصحابة، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم بَرَكوا على الركَب، ثم قالوا: أيْ رسول الله، كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق، الصلاة، والصيام، والزكاة، والصدقة، وقد نزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما قرأها القوم وذلّت بها أنفسهم، أنزل الله عز وجل في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ

(١) احترقوا.

اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلـى قـولـه: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ الآيـة [البقرة: ٢/ ٢٨٥ - ٢٨٦]»[1]. فكانت الآية الأخيرة وإن وصفت بأنها ناسخة لما قبلها هي بمعنى التخصيص والتبيين، ولا مانع من النسخ في الأخبار المتعلقة بالأمر والنهي.

واستقر التشريع على أن الله تعالى تفضلاً منه ورحمة عفا عن وسوسة النفس أو حديث النفس أو الهمّ بالشيء أو نية السوء دون أن يقترن ذلك بالتنفيذ الفعلي أو الكلام، وقد أوضح النبي ﷺ كل ذلك لأمته.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تُجُوِّز لأمتي عما وسوست به أنفسها أو حدَّثت به أنفسها، ما لم تَكَلَّم به أو تعمل به».

وفي حديث آخر أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها، ما لم يتكلموا به أو يعملوا». دلَّ الحديثان على أن الله تعالى عفا عن حديث النفس، ما لم يعقبه كلام أو عمل.

وعفا الله تعالى عن الهمّ بالسوء، وأثاب على الهمّ بالحسنة، أخرج مسلم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «إن الله كتَبَ الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بالحسنة فلم يعملها، كتب الله له حسنة، ومن عملها كتب الله بها عشراً، إلى سبع مئة ضعف وأضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها، كتب الله له بها حسنة كاملة، ومن همَّ بها فعملها كتب الله عليه سيئة واحدة».

وفي رواية أخرى لمسلم: «إن ربكم رحيم، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنةٌ، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، إلى سبع مئة إلى

---

(١) أخرجه مسلم.

أضعاف كثيرة؛ ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك».

وفي رواية للبخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله عز وجل: «إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة، فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، فإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعمل فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف».

يوضح ذلك صراحة ما أخرجه مسلم بلاغاً أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا رسول الله ﷺ عن الوسوسة التي يوسوس بها الشيطان في أنفسهم، فقالوا: يا رسول الله، أشياء نجدها في أنفسنا، يسقط أحدُنا من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به. فقال النبي ﷺ: «أوَجَدْتم ذلك؟ ذاك صريح الإيمان، إن الشيطان يريد أن يوقع العبد فيما دون ذلك، فإذا عُصم منه، وقع فيما هنالك».

قال البيهقي رحمه الله: وإنما الإيمان اغتمامه بما وقع في قلبه، مما لا طاقة له بدفعه وكراهيته له، وإشفاقُه محبةٌ، وبالله العصمة.

أمارات القيامة

لا بد من انتهاء عالم الدنيا وموت جميع الخلائق، والانتقال إلى عالم الآخرة بأهواله وتقدير مصير الناس قاطبة وغيرهم من المخلوقات من الجن والملائكة والحيوان. ويوم القيامة يوم رهيب يختلف في كل شيء عن عالم الدنيا وزخارفها، والمصير المحتوم إما جنة للأبرار، وإما نار للكفار والأشرار لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٧].

وأمارات أو علامات ومقدمات انتهاء الحياة الأولى للإنس والجن كثيرة، وهي التي تسمى أشراط الساعة، ومنها الأمارات الكبرى، وهي خروج الدجّال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وقتله الدجال في فلسطين عند باب اللُّد بالرملة. ومنها خروج يأجوج ومأجوج، وخروج دابة الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢/٢٧]. ومن الأمارات طلوع الشمس من مغربها.

وهناك علامات صغرى للقيامة مثل قبض العلم من صدور العلماء، وغلبة الجهل، واستعلاء أهله، وبيع الحِكَم، وظهور المعازف، واستفاضة شرب الخمر، واكتفاء النساء بالنساء، والرجال بالرجال، وإطالة البنيان، وإمارة الصبيان، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وكثرة الهرج والفتن، وغير ذلك.

فإذا ظهرت هذه الأمارات، وحان الوقت الذي يريد الله عز وجل فيه إماتة الأحياء من سكان السماوات والبحار والأرضين، أمر الله الملَك إسرافيل عليه السلام وهو صاحب اللوح المحفوظ، فينفخ في الصور - وهو القرن الذي ينفخ فيه - نفختين بينهما أربعون عاماً.

أما القرن فشأنه رهيب مخيف، أخرج الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه وأحمد وابن المبارك وأبو نعيم في الحلية، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه، فأصغى سمعه، وحنا جبينه، ينتظر متى يؤمر فينفخ». قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

وإذا حدث النفخ في الصور النفخة الأولى مات جميع الخلائق، لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨/٣٩]. والذين يستثنون من الموت بعد هذه النفخة هم

كما قال زيد بن أسلم: «الذين استثنى الله عز وجل اثنا عشر: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملَك الموت، وحملة العرش».

وثبت في حديث صحيح كما ذكر البيهقي عن جابر بن عبد الله أنه قال: موسى فيمن استثنى الله، فإنه قد صُعق مرة.

ومن المستثنين الشهداء، لما في حديث مرفوع عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقال: «ومن الذين لم يشأ الله عز وجل أن يصعقوا؟» قال: «هم شهداء الله عز وجل». وهذا لأن الله عز وجل أخبر في كتابه أنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩].

وكذلك لا يموت بالنفخة الأولى الولدان والحور العين لأن الجنة فوق السماوات.

فإذا مات الأحياء وجاء وقت النفخة الأخرى في الصور بعد أربعين سنة من النفخة الأولى، مات جبريل، وميكائيل، وحملة العرش، وإسرافيل، وملك الموت بالنفخة الثانية، وينظر الله تعالى إلى أهل السماوات وإلى أهل الأرضين فيقول: وعزتي لأعيدنَّكم كما بدأتكم، ولأحيينكم كما أمتكم، ثم يأمر إسرافيل فينفخ النفخة الثانية.

وبالنفخة الثانية يبعث الناس من القبور، فيقول إسرافيل: يا أيتها الجلود المتمزقة، ويا أيتها الأعضاء المتهشمة، ويا أيتها العظام البالية، ويا أيتها الأجساد المتفرقة، ويا أيتها الأشعار المتمرطة، قوموا من تحت العرش على جميع الموتى، فيحيون كما تحيا الأرض الميتة بوابل (مطر) السماء، فيبعث الله الأجساد التي كانت في الدنيا من حيث كانت، بعضها في بطون السباع، وبعضها من حواصل الطير وبنيان البحور، وبطون الأرض وظهورها، فيُدخل كل روح في جسده، فإذا هم قيام ينظرون، فيبعث الله ناراً

من المشارق، فتحشر الناس إلى المغارب، إلى أرض تسمى الساهرة من وراء بيت المقدس، أرضٍ طاهرة، لم يعمل عليها سيئة ولا خطيئة.

فذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤]، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٨٣/ ٦]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٨/٤٧]، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٨/٩٩-١٠١].

توصيف نفخة الصور

الإنذار بوقوع القيامة يكون بنفختين في الصور من الملَك المخصص لهذه المهمة، وتكون النفخة الأولى لإماتة الخلائق والثانية لبعثهم من القبور وإعادة خلقهم أحياء، وكلاهما يحدث فجأة وصيحة واحد(١)، كما قال تعالى عن المشركين المكذبين بيوم البعث: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٨ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٦/٤٨-٥٣]. دلت الآيات على وجود النفختين: الأولى لإنهاء عالم الحياة، والثانية للحساب والحشر بين يدي الله تعالى.

وبين النفختين أربعون سنة، جاء في الحديث الثابت الذي أخرجه البيهقي وغيره عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «بين النفختين

---

(١) أي نفخة واحدة.

أربعون». قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْتُ[١]. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أَبَيْت. قال: «ثم يُنزل الله عز وجل من السماء ماء، فيَنْبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شيء إلا يَبْلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب[٢]، وفيه تركيب الخلق يوم القيامة».

وإذا أحيا الله تعالى الخلق أو الناس كلهم بالنفخة الثانية، قاموا على عجل ينظرون ما يراد بهم، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٨]، ثم يُحْشَر الناس إلى موقف العرض والحساب، وهو الساهرة[٣]، حيث قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٣-١٤] أي فإذا هم قد صاروا على وجه الأرض بعد أن كانوا في جوفها. والساهرة إما بيت المقدس كما قال وهب بن منبِّه، أو أرض بالشام، كما روي عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً، وهو الأصح.

وجاء في صفة الحشر في قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٨٥-٨٦]. والوفد الركبان. والورد العطاش.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين، اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُر بقيتَهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا،

(١) أي امتنعت عن القول بما لم أعلم.
(٢) أي أصل الذنب.
(٣) الساهرة الأرض أو وجه الأرض، سميت بهذا الاسم - كما قال الفراء - لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم.

وتمسي معهم حيث أمسوا». وقوله: «على ثلاث طرائق» أي أصناف ثلاثة: الأبرار، والمخلِّطين، والكفار، فالأبرار الذين يحملون على نجائب (نوق) الجنة هم الراغبون إلى الله جل ثناؤه فيما أعد لهم من ثوابه. والراهبون الذين هم بين الخوف والرجاء. والمخلِّطون هم الذين يُحملون على الأبعرة، فمنهم من يُغْفَر ذنبه، ومنهم من لا يغفر له ذنبه، ومنهم الركبان، ومنهم الماشون.

والمشاة على وجوههم هم الكفار، وبعضهم أعتى من بعض، وهم القادة المتبوعون، والأتباع يمشون على أقدامهم. قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٣٤].

ويكونون في تلك الحالة عمياً وبُكماً وصُمّاً، لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧]. وقبل ذلك يكونون كاملي الحواس لقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٥]، وقوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ٢٠/ ١٠٣].

فإذا أُدخل الكفار إلى النار رُدَّت إليهم حواسهم، ليشاهدوا النار وما أعدَّ لهم فيها من العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٨-٩].

وإذا نُودوا بالخلود، سُلبوا أسماعهم، لقول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٠].

ويكون حشر الناس - كما روى البيهقي عن ابن عباس - حفاة عُراة غُرْلاً[1]، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤].

---

(١) غير مختونين كما ولدوا.

ثم يُكْرَم المتقون، ومن شاء الله من المخلِّطين المؤمنين بالكسوة والركوب.

ويحشر كل إنسان على حسب عمله الذي يموت عليه من خير أو شر، لما أخرجه مسلم وابن ماجه عن جابر بن عبد الله: «يُبْعث كل عبد على ما مات عليه».

وتكون صفات الكفار يوم القيامة حال مضيهم إلى الموقف، موقف الحساب والجزاء، كما أخبر الله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٣]، ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القمر: ٥٤/ ٧]، ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١]، هذا في النفخة الأولى، كما روي عن ابن عباس، ثم في النفخة الأخرى يقومون بحسب قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٥٠].

أحوال القيامة

للقيامة أحوال غريبة، وأهوال شديدة، وأوضاع خطيرة، والناس في القيامة لهم أحوال ومواقف ولهم أخبار، فمنها أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ولا يفيده إلا عمله، وتنقطع صلة الأنساب كما أخبر الله عز وجل بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١]، روى البيهقي عن ابن عباس أنه قال: هذا في النفخة الأولى، يُنْفخ في الصور، فيَصْعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. ثم إذا نفخ فيه النفخة الأخرى قاموا ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٧].

والناس أثناء الحشر قسمان: المجرمون يكونون عطاشاً، والمؤمنون المتقون إذا شربوا من حوض النبي ﷺ لم يظمؤوا أبداً، قال الله تعالى عن القسم الأول: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦/١٩] يعني عطاشاً، والعطش يعم الناس في ذلك اليوم إلا أن المجرمين لا يسكن عطشهم، ولكنه يزداد حتى يُورَدوا النار، فيشربون الحميم شُرْب الهيم (الإبل العطاش) نعوذ بالله من عذاب جهنم.

وأما المتقون فإنهم يسقون من حوض نبينا ﷺ، أخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إني فَرَطكم[1] على الحوض، من مرَّ علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً».

ومن أهوال القيامة ما ذكر الله عز وجل في كتابه من زلزال الأرض، وتبديلها، وتغير هيئتها ومدِّها، وما يكون في الجبال من تسييرها ونسفها، وما يكون في البحار من تفجيرها وتسجيرها (التهاب النار فيها) وما يكون في السماء وتشقيقها وطيِّها، وما يكون في الشمس من تكويرها، وفي القمر من خسفه، وما يكون في النجوم من انكدار (سقوط) وانتثار، وما يكون من شغل الوالدة عن ولدها، ووضع الحوامل ما في بطونها.

وأكثر أهل العلم على أن ذلك يكون بعد النفخة الثانية، وخروج الناس من قبورهم، ووقوفهم يوم القيامة قبلها ينظرون، لينتشر الرعب، بدليل أكثر الأحاديث، ومنها حديث أبي سعيد الخدري الذي أخرجه البخاري ومسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول تبارك وتعالى يوم القيامة: قُم يا آدم ابعث بَعْث النار. فيقول: لبّيك وسعديك والخير في يديك، وما بَعْث النار؟ قال: فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون. قال: فحينئذ يشيب المولود، وتضَع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد».

---

(١) أي متقدمكم.

فيقولون: وأيُّنا ذلك الواحد؟ فقال رسول الله ﷺ: «تسع مئة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج، ومنكم واحد». فقال الناس: الله أكبر. فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». فكبَّر الناس، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو الشعرة السوداء في الثور الأبيض».

ومن أهوال القيامة ما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ١-٢].

ومنها قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٨]. سألت عائشة: أين الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط»[1]. وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ زيادة قال: «هم في الظلمة دون الجسر، والجسر هو الصراط».

ومن أهوالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٣-٤] ومعناه قد ألقت ما فيها.

ومنها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ١-٢]. معناه وقد أخرجت الأرض أثقالها.

ومنها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٣] ومعناه النفخة الآخرة (الثانية).

ومقدار يوم القيامة على الكافرين بمقدار خمسين ألف سنة، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ

(١) أخرجه البيهقي.

سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤]. وهذا يوم القيامة. وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ٥] فقال ابن عباس: هذا في الدنيا[١]. وأما مقدار يوم القيامة على المؤمن فهو كما روي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً، قال: «يوم القيامة على المؤمن كقدر ما بين الظهر والعصر». وفي رواية عنه: «إن الله يخفِّف على من يشاء من عباده طول يوم القيامة، كوقت صلاة مكتوبة».

ويكون حساب الخلائق في مقدار نصف يوم، لما رواه البيهقي عن مقاتل بن سليمان أنه قال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤]: ولو ولِّي حسابَ الخلائق وعرضهم غيري، لم يَفْرغ منه إلا في مقدار خمسين ألف سنة. فإذا أخذ الله في عرضهم يفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، فلا ينتصف ذلك اليوم حتى يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٤] أي ليس مقيلهم كمقيل أهل النار.

---

(١) أخرجه البيهقي.

الأصل التاسع من أصول الإيمان

الايمان بالجنة والنار

إن من أهم شعب الإيمان أو أصول الإيمان الاعتقاد بوجود الجنة والنار، وأن الجنة هي مأوى المؤمنين، وأن النار هي مأوى الكافرين، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧] وقوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/٨١-٨٢]. وقوله تعالى في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١١/ ١٠٥-١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١١/١٠٧] الدوام جارٍ على عرف العرب في إرادة التأبيد، أو أن كل شيء مرتبط بمشيئة الله تعالى.

والفرق بين أهل الجنة وأهل النار هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، بالنسبة لأهل الجنة، والإشراك بالله بالنسبة لأهل النار، لما رواه

مسلم في الصحيح عن جابر وغيره عن النبي ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار».

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨ و ١١٦]. وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٨٣/ ٧] و ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٨]. والسجين (سجل أهل النار) خلاف العليين (ديوان الخير) كما أن الفجار (الكفار الفساق) خلاف الأبرار (المؤمنين الأتقياء). والجنة فوق السماوات ودون العرش، لقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٠] وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ٨١/ ١١] أي تكشط عما وراءها من الجنان، ننظر وراءها، وروى البيهقي في دلائل النبوة من حديث عبد الله بن سلام عن النبي ﷺ: «وإن أكرم الخلائق على الله تعالى أبو القاسم ﷺ، وإن الجنة في السماء، وإن النار في الأرض، فإذا كان يوم القيامة بعث الله الخلائق أمة أمة، ونبياً نبياً، ثم يوضع الجسر على جهنم..» قال الحليمي رحمه الله: وفي ورود الأخبار بذكر الصراط وهو جسر جهنم، بيان أن الجنة في العلو، كما أن جهنم في السفل، إذ لو لم يكن كذلك، لم يحتج الصائر إليها إلى جسر[1]. وموضع النار في الأرض تحت البحر بعد نضوبه، لما رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب أنه قال ليهودي: أين جهنم؟ قال: تحت البحر. فقال علي: صدق. ثم قرأ ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٥٢/ ٦].

وأما تبدل الأرض والسماوات يوم القيامة في آية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٨] فيكون بعد ركوب الناس الصراط، لما روى البيهقي عن عائشة، أنها سألت النبي ﷺ عن ذلك، وقالت: فأين الناس يومئذ؟ قال: «على الصراط».

---

(١) ما وري عن أنس مرفوعاً وغيره: «الصراط كحد الشفرة، أو كحد السيف» قال البيهقي: هي روايات ضعيفة.

ويشير أو يرشد لهذا قوله الله عز وجل: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩/٣٦] أي في وقت ركوب الكفار الصراط، ونجاة المؤمنين وفرحهم بالخلاص منه. ودليل آخر من قول الله عز وجل: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨/٦٧] وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤/٥٠] لأن الإلقاء في الشيء أكثر ما يستعمل في الطرح من علو إلى سفل، والله أعلم بكيفية ذلك.

وأما المنافقون فالأشبه أنهم يركبون الجسر مع المؤمنين ليمشوا في نورهم، فيظلم الله عز وجل على المنافقين، فيقولون للمؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣/٥٧]. فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور على قدر إيمانهم وأعمالهم، فينصرفون إليهم، كما نصت الآية التالية: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/١٣-١٤](1)

قال البيهقي رحمه الله: فيحتمل - والله أعلم - أن هذا السور إنما يضرب عند انتهاء الصراط، ويترك له باب يخلص منه المؤمنون إلى طريق الجنة، فذلك هو الرحمة التي في باطنه، وأما ظاهره فإنه يلي النار، وإن كانت النار سافلة عنه، لا محاذية إياه، ما دام لم يجد المنافقون إلى باطن السور سبيلاً، فليس إلا أن يُقذفوا من أعلى الصراط، يهوون إلى الدرك الأسفل من النار، هذا باستهزائهم بالمؤمنين في دار الدنيا.

---

(1) أي نصلي بصلاتكم ونحارب معكم.

الورود على النار

وردت آيات كثيرة في تقرير الورود على النار، وهو يشمل المؤمنين وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٧١] والورود الدخول، إلا أن أهل الإيمان تكون النار عليهم برداً وسلاماً، وأهل الكفر يبقون فيها، يتلظون في جحيمها، وأخرج أحمد وهو عند البخاري في تاريخه عن جابر بن عبد الله، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرّ ولا فاجر إلا دَخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إن لجهنم فحيحاً من بردهم، ثم ننجي الذين اتقوا، ونذر الظالمين فيها جثياً».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أم مبشّر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها». قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٧١] فقال النبي ﷺ: «فقد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٧٢]».

قال البيهقي رحمه الله: وهذا يحتمل أن يكون النبي ﷺ إنما نفى عن أصحاب الشجرة دخول النار دخولَ البقاء فيها، أو دخولاً يمسّهم منها أذىً، لا أصل الدخول، ألا تراه احتج بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٧٢].

وروى البيهقي عن مقاتل بن سليمان رحمه الله أنه قال: يجعل الله النار على المؤمنين يومئذ برداً وسلاماً، كما جعلها على إبراهيم عليه السلام.

ومصير غير المؤمنين دخول النار وخلودهم فيها، لقول الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٦٨-٧٢].

قال ابن عباس في أصح الروايتين عنه: المراد بالورود الدخول، مستشهداً بقوله عز وجل: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨-٩٩]. وبقوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ١١/٩٨].

وروى السدي عن عبد الله بن مسعود أنه حدَّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يرد الناسُ النار، ثم يصدرون بأعمالهم». وفي رواية أخرى عنه قال: «يلجونها ثم يصدرون عنها بأعمالهم». وقال البيهقي: يحتمل أن يكون المراد بالورود المرور على الصراط.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، فيَلجُ النار إلا تَحِلَّةَ القسم». ثم قرأ سفيان أحد رجال السند: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ١٩/ ٧١] أي وردوها ولم يصبهم من حرِّها شيء إلا ليَبَرّ الله قسمه.

وروى البيهقي في الحديث الثابت عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ في حديث الرؤية قال: «فيُنْصب الجسر على جهنم، ويقولون: اللهم سلِّم سلِّم». قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دحض مزلّة[1]، عليه خطاطيف وكلاليب وحسك، ويسجر فيه شوك يقال له السعدان فيمرّ المؤمن كطرف العين، وكالبرق، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مسلمٌ،

---

(١) أي مزلقة.

ومخدوشٌ مرسل، ومكدوس في جهنم[١]، حتى إذا خلص المؤمنون من النار». وفي رواية عبد الله بن مسعود: «فيمرّون على قدر أعمالهم، حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدمه، يجرُّ يده، وتعلق يد، ويُجَرّ رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منكِ بعد الذي أراناكِ».

وروى البيهقي عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: من حُمَّ من المسلمين فقد وردها. أي من تعرض للحُمّى.

وفي حديث خالد بن معدان عند البيهقي قال: لما أُدخل أهل الجنة قالوا: يا ربنا، ألم تكن وعدتنا الورود؟ قال: نعم، ولكنّكم مررتم بجهنم وهي جامدة.

فداء المؤمن من النار

يتفضل الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين في الآخرة بفضائل كثيرة منها شفاعة النبي ﷺ بأمته، وشفاعة بعض الصالحين وغيرهم ببعض أقاربهم بإذن الله تعالى، ومنها أن الله تعالى يجعل للعاصي المؤمن فداء له من غير المؤمنين، يفديه من النار.

وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الفداء كما فدى الله إسماعيل عليه السلام من ذبح أبيه إبراهيم له بكبش عظيم، من هذه الأحاديث ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال: قال

(١) أي مستقر فيها.

رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دُفع إلى كلِّ مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له: هذا فداؤك من النار».

وأخرج مسلم أيضاً هذا الحديث بلفظ آخر عن أبي بردة: «لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات بأن أباه حدَّثه عن النبي ﷺ، فحلف.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا أُري مقعده من النار، لو أساء، ليزداد شكراً، ولا يدخل النارَ أحد إلا أُري مقعده من الجنة، لو أحسن، ليكون عليه حسرة».

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «ما منكم من رجل إلا له منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار. فإن مات ودخل النار، وَرِث أهلُ الجنة منزله، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠]». قال البيهقي: هذا الحديث يشبه أن يكون تفسيراً لحديث الفداء، فإن الكافر إذا ورَّث المؤمن مقعده من الجنة، والمؤمن إذا ورث عنه الكافر مقعده من النار، يصير في التقدير كأنه فدى المؤمن بالكافر، والله أعلم.

وحديث أبي بردة في صحيح مسلم المتقدم لا ينافي حديث الشفاعة الثابتة بإذن من الله لخاصة أوليائه، فإن حديث الفداء وإن ورد مورد العموم في كل مؤمن، فيحتمل أن يكون المراد به كل مؤمن قد صارت ذنوبه مكفَّرة بما أصابه من البلايا في حياته، ففي بعض ألفاظه: «إن أمتي أمة مرحومة، جعل الله عذابها بأيديها، فإذا كان يومُ القيامة، دفع الله إلى كل رجل من المسلمين رجلاً من أهل الأديان، فكان فداءَه من النار».

وحديث الشفاعة في المؤمن يكون فيمن لم تصر ذنوبه مكفّرة في حياته. ويحتمل أن يكون هذا القول للعلماء في حديث الفداء بعد الشفاعة.

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن سفيان بن عيينة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦] مدَّ إبليس عنقه، فقال: أنا من الشيء، فنزلت ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦]. قال: فمدّ اليهود والنصارى أعناقها، فقالوا: نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ونؤدي الزكاة، قال: فاختلسها الله من إبليس واليهود والنصارى، فجعلها لهذه الأمة خاصة، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧].

وروى البيهقي واقعة عن عمر بن أحمد الزاهد، قال: سمعت الثقة من أصحابنا يذكر أنه لما رأى أبا بكر بن الحسين بن مهران في المنام، في الليلة التي دفن فيها، قال: فقلت: أيها الأستاذ، ما فعل الله بك؟ فقال: إن الله عز وجل أقام أبا الحسن العامري بحذائي (جانبي) وقال لي: هذا فداؤك من النار.

قال: وتوفي العامري الذي كان معروفاً بالإلحاد في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر بن مهران، نعوذ بالله من الكفر والفسوق وسوء العاقبة.

أصحاب الأعراف

في عالم الآخرة أناس يقال لهم: أصحاب الأعراف، والأعراف هو السور الكائن بين الجنة والنار، وقال ابن عباس: الأعراف هو الشيء المشرف، ومن هنا سميت السورة بسورة الأعراف. قال الله تعالى في الإخبار عن أهل الأعراف: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٦] وقال سبحانه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٨] أي بين أهل الجنة وأهل النار حاجز أو سور مانع من وصول أهل النار، وعلى الأعراف أعالي السور رجال تساوت حسناتهم وسيئاتهم، يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بعلاماتهم، من بياض وجوه المؤمنين، وسواد وجوه الكافرين، فينادي أهل الأعراف أصحابَ الجنة حين رأوهم، قائلين لهم: سلام عليكم، أي تحيةٌ لكم وتكريم. ولكن أهل الأعراف يطمعون في دخول الجنة، لما يرون من فضل الله ورحمته، وأن رحمته تغلب غضبه.

وأخبار أصحاب الأعراف أوضَحتْهَا أحاديث وآثار في السنة، منها ما أخرجه البيهقي عن حذيفة بن اليمان من حديث مرفوع أنه قال: «أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا ﴿صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٧] فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك، فقال لهم: قوموا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم».

وورد في حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[١] في قوله:

---

(١) رواه عثمان بن سعيد الدارمي.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ [الأعراف: ٤٦/٧] قال: يَعْرِفون أهل النار بسواد الوجوه، وأهل الجنة ببياض الوجوه. قال: والأعراف هو السور بين الجنة والنار. وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦/٧] قال: هم رجال كانت لهم ذنوب عظام، وكان جسيم أمرهم لله عز وجل، يقومون على الأعراف، فإذا نظروا إلى الجنة طَمِعوا أن يدخلوها، وإذا نظروا إلى النار تعوّذوا بالله منها، فأدخلهم الله الجنة، فذلك قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩/٧]. والمعنى أن أهل النار أقسموا أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم.

قال مقاتل بن سليمان مثل قول ابن عباس: هذا قول أصحاب الأعراف لرجال من أهل النار في النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨/٧] فأقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف داخلون النار معهم، فقالت الملائكة الذين حَبَسوا أصحاب الأعراف على الصراط: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ يا أهل النار ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ وهم داخلون النار معكم بالموت ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩/٧].

وفي الجملة إن أصحاب الأعراف هم كل من وافى القيامة مؤمناً، ولسيئاته وزن في ميزانه، وهو بين أن يُغْفر له من غير تعذيب، وبين أن يعذَّب بقدر ذنوبه، ثم يُغْفر له، فقد يكون منهم من لا يدخل الجنة في الحال، ولا يدخل النار، ولكن يُحْبَس على الأعراف، وهو السور، قال مقاتل بن سليمان: على الصراط، فإذا أراد الله دخولهم الجنة أمرهم - الله - بدخولها برحمته، أو بشفاعة الشفعاء.

إن هذا الفضل الإلهي يغمر هؤلاء المقصرين في أداء الأعمال الصالحة، والمتورطين في كبائر الإثم، وفضل الله عظيم، ورحمته

واسعة، وسعت الناس وكل المخلوقات في الدنيا بالمدد الإلهي، وفي القيامة أيضاً حيث لا يوجد لجماعة الأعراف ما يؤهلهم لدخول الجنة، فتشملهم عناية الله ورحمته، فيدخلهم الجنة بعد اليأس، ولكن مع الطمع في دخول الجنة. وما أعظم ذلك النداء وتلك البشارة حيث يقول الله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٩].

الجنة والنار مخلوقتان

على المسلم أن يعلم أن الجنة والنار مخلوقتان مُعَدَّتان لأهلهما، لقول الله عز وجل في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] وقوله سبحانه في الجنة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] والمعدوم لا عَرْض له. وقوله تعالى في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤] والإعداد لا يكون إلا لشيء مخلوق موجود.

ووردت أحاديث ثابتة أيضاً تدل على وجود الجنة والنار، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٧]».

وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار». قال البيهقي رحمه الله: وفيه زيادة في رواية: «يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه

يوم القيامة» وفي رواية سالم عن ابن عمر: «إن كان من أهل الجنة فالجنة، وإن كان من أهل النار فالنار».

وأخرج الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي وأحمد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها: قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيتُ ألا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، فإذا هي تركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها، فأمر بها، فحُفَّت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها».

وأما عدد الجنان فهي أربع، لقوله تعالى في سورة الرحمن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٦] ثم وصفهما، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٢] ثم وصفهما.

وروى البيهقي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «جنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما».

وجنة المأوى اسم للجميع أي للجنات الأربع، وكذلك جنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، ودار السلام. وكذلك «الفردوس» وقيل: هي اسم لأعلاهن درجة.

وأبواب الجنة ثمانية، لأحاديث منها حديث عتبة بن عبد السلمي، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإن لها - يعني الجنة - ثمانية أبواب، ولجهنم

سبعة أبواب». وقال الله عز وجل في جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٤]. والأبواب السبعة كما في حديث مرسل هي: جهنم، ولظى، والحُطَمة، والسعير، وسَقَر، والجحيم، والهاوية.

وقال علي ﷺ: أبواب جهنم هكذا - يعني باباً فوق باب.

وقال بعض العلماء: جهنم اسم لجميع الدركات، ودركاتها سبع، وذكر «الحريق» مع السبع.

وإذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ينادي منادٍ بالخلود لكل منهما، كما ورد عن أبي سعيد الخدري فيما أخرجه مسلم عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يُجاء بالموت، كأنه كبش أملح(١)، فينادي مناد: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، وكلهم قد رآه، فيقولون: نعم هذا الموت. ثم يؤخذ، فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت».

ومن الطبيعي أن يرغب الناس في الجنة حين يرون نعيمها، ويهربون من النار حينما يرون عذابها، كما ورد فيما أخرجه الترمذي(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا رأيت مثل الجنة نام طالبها».

ومما ينبغي معرفته أن نار جنهم تأكل ولا تقتل، قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٤/ ٥٦]. والعرب تجعل «بدَّلتُ» بمعنى «أبدلت» كما في قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] أي إنه تعالى قد أزال السيئات وجعل مكانها الحسنات.

---

(١) أي شعره مختلط البياض بالسواد.

(٢) لكن فيه يحيى بن عبد الله ضعيف عند أكثر أهل الحديث.

قال البيهقي رحمه الله: إن الحسن البصري قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودون كما كانوا.

وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْس الكافر في النار مثل أحد، وغِلَظ جلده مسيرة ثلاث».

روى أحمد والترمذي وقال: هذا حديث غريب، عن عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الكافر ليجرّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتوطأه الناس».

عذاب القبر

يتميز المؤمنون عن الكفار عند قبض الأرواح وفي القبر، فالمؤمن المستقيم تقبض روحه بلطف، والكافر تقبض روحه بشدة، قال الله تعالى في المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠]. وقال تعالى في الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٠] أي يقولون لهم تعريضاً لهم، بأنهم يُقْدمون على عذاب الحريق. وفي آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٣] الآية.

دلت هذه الآيات على أن الكفار يُعَنَّف عليهم في نزع أرواحهم، وإخراج أنفسهم، ويعرفون مع ذلك أنهم قادمون على الهون والعذاب الشديد، كما يُرفق بالمؤمنين ويُبَشرون بما هم قادمون عليه من الأمن والنعيم المقيم، كما قال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ

ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٧].

روى البيهقي عن البراء بن عازب وأبي هريرة، عن النبي ﷺ أن ذلك في المؤمن إذا سئل في قبره(١).

والقبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حُفَر النيران، كما ثبت في السنة النبوية، وقال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٥-٤٦]. قال مجاهد: يعني بقوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ ما كانت الدنيا. وقال قتادة: يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخاً وصغاراً ونقمة.

وأخبر الله تعالى عن المنافقين بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠١]. قال قتادة عن العذابين: عذاب في القبر، وعذاب في النار.

وأخبر الله سبحانه عمن يعرض عن ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا(٢) وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طـه: ٢٠/ ١٢٤] روي عن جماعة من الصحابة(٣) أن ذلك في عذاب القبر.

وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٥] قال: ضعف الممات عذاب القبر. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٥٢/ ٤٧] قال: عذاب يوم القيامة.

---

(١) وكذلك روي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.
(٢) أي معيشة شدة ومشقة.
(٣) وهم أبو سعيد الخدري وأبو هريرة مرفوعاً، وابن مسعود وابن عباس من قولهما.

وفي حديث آخر طويل عن البراء بن عازب[1] عن النبي ﷺ قال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر...». وروى البيهقي أحاديث، منها عن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ قال: «قد أوحي إلي أنكم تفتنون[2] في القبور، قريباً من فتنة الدجال». ومنها عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطةً لو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ».

ومنها ما أخرجه البيهقي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه». وقال: « والله ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ خرج حين وجبت الشمس[3]، فقال: «هذه أصوات يهود تُعذَّب في قبورها».

وأخرج الترمذي وقال: هذا حديث غريب، عن علي قال: ما زلنا في شك من عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١٠٢/١-٢].

وذكر البيهقي عن الأوزاعي عن بلال بن سعد قال: ينادي القبر كل يوم: أنا بيت الغربة، وبيت الدود والوحشة، وأنا حفرة من حُفَر النار، أو روضة من رياض الجنة. وقال: تُنادى النار يوم القيامة: يا نارُ أنضجي، يا نار أحرقي، يا نار كلي ولا تقتلي.

(١) أخرجه أبو داوود وأحمد والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي، وقال: هذا صحيح الإسناد.
(٢) تسألون وتختبرون.
(٣) مالت للغروب.

وذكر البيهقي أيضاً عن محمد بن كعب القرظي قال: إذا استُنفقت حياة المؤمن، جاءه ملك الموت، فقال: السلام عليك يا ولي الله، إن الله يقرأ عليك السلام. قال: ثم قرأ هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٣٢].

الأصل العاشر من أصول الإيمان

محبة الله عز وجل

إن من أصول الإيمان أو من شعب الإيمان محبة الله عز وجل محبة شاملة تملأ القلب والنفس والوجدان، وهي محبة مقدمة على أي حب آخر في الدنيا والآخرة، بل هي فرض، لعظيم فضل الله ورحمته، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا[1] يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٥]. قال البيهقي رحمه الله: فدل ذلك على أن حب الله جل جلاله من الإيمان، لأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ إشارة إلى أن الإيمان يحرِّك على حب الله جل جلاله ويدعو إليه.

وقال جل ثناؤه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]. فأبان أن اتباع نبيه ﷺ من موجبات محبة الله، فإذا كان اتباع النبي ﷺ إيماناً، فقد وجب أن يكون حب الله الموجب له إيماناً.

وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤] قال البيهقي رحمه الله: فأبان

---

(١) آلهة شركاء ونظراء.

بهذا أن حب الله وحب رسوله والجهاد في سبيله فرض، وأنه لا ينبغي أن يكون شيء سواه أحبَّ إليهم منه، وبمثل ذلك جاءت السنة .

جاء فيما رواه جماعة[١] عن رفاعة بن عرابة الجهني قال: صَدَرنا مع رسول الله ﷺ من مكة، فجعل الناس يستأذنون رسول الله ﷺ، فجعل يأذن لهم، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال شق الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشق الآخر؟»[٢] قال: فلا نرى من القوم إلا باكياً، قال: فيقول أبو بكر الصديق ﷺ: إن الذي يستأذنك في نفسي بعد هذا لسفيه. فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أشهد عند الله - وكان إذا حلف قال: والذي نفسي بيده - ما منكم من أحد يؤمن بالله، ثم يُسدّد إلا سُلك به في الجنة، وقد وعدني ربي أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وإني لأرجو ألا تدخلوها حتى تتبوؤوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة».

ومن الأحاديث الموجبة صراحة لمحبة الله والرسول ﷺ ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يوقد له نار، فيُقذف فيها».

قال البيهقي رحمه الله: فأبان المصطفى ﷺ بهذا أن حب الله وحب رسوله من الإيمان، وأبان بما قبله أن ترك متابعته تدل على خلاف المحبة، وفي ذلك دلالة على وجوب المحبة ووجوب ما تقتضيه المحبة من المتابعة والموافقة.

---

(١) وهم الطبراني في الكبير وأحمد وابن حبان وأبو نعيم في الحلية والبيهقي، ورجال بعض الأسانيد رجال الصحيح.

(٢) أي تهملون ما جاء به الرسول ﷺ.

وذكر البيهقي أن الحسن البصري دخل على أبي عباس بن سريج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فرض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي (أي أنت يا ابن سريج) فقال له: قوله عز وجل ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ - إلى قوله -: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤] والوعيد لا يكون إلا على ترك فرض.

وأورد البيهقي عن سفيان بن عيينة يقول: والله لا تبلغوا ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله عز وجل، ومن أحبَّ القرآن فقد أحب الله عز وجل.

معاني محبة الله تعالى

تقتضي محبة الله عز وجل عشرة أوصاف لا بد منها ليصح الإيمان بالله، وهي عشرة ذكرها الحليمي رحمه الله:

أحدها: الاعتقاد أن الله تعالى محمود من كل وجه في أسمائه وصفاته.

الثاني: الاعتقاد أنه سبحانه محسن إلى عباده، منعم متفضل عليهم.

والثالث: اعتقاد أن الإحسان الواقع من الله أكبر وأجل من أي قول أو عمل، مهما حسن وكثر شكراً له.

والرابع: ألا يستقل العبد قضايا ربه، ويستكثر تكاليفه.

والخامس: أن يكون الإنسان في عامة الأوقات خائفاً من إعراضه عن ربه، وسلبه معرفته التي أكرمه الله بها، وتوحيده الذي زيَّنه به.

والسادس: أن تكون آماله منعقدة بالله لا يرى في أي حال من الأحوال أنه غني عنه.

والسابع: أن يحمله تمكّن هذه المعاني في قلبه على أن يديم ذكر ربه بأحسن ما يقدر عليه.

والثامن: أن يحرص الإنسان على أداء فرائض الله والتقرب إليه من نوافل الخير مما يطيقه.

والتاسع: أن الإنسان إذا سمع من غيره ثناء على ربه، وعرف تقرباً إليه، وجهاداً في سبيله سراً أو علناً ناصره ووالاه.

والعاشر: أن الإنسان إذا سمع من أحد ذكراً لله أعانه عليه، أو عرف منه غياً عن سبيله سراً أو إعلاناً قاطعه وناوأه.

فإذا اجتمعت هذه المعاني في قلب أحد، تحققت محبة الله تعالى. وهذه المعاني مأخوذة من جملة نصوص، منها ما أخرجه الترمذي والحاكم والطبراني عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبّوا الله لما يغذُوكم به من النعمة، وأحبّوني لحب الله، وأحبُّوا أهل بيتي لحبي».

ومنها ما رواه أنس بن مالك[١]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم عن أقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله عز وجل، على منابر من نور عليها؟» قالوا: من هم؟ قال: «الذين يُحبّبون عباد الله إلى الله، ويحببون الله إلى عباده، وهم يمشون على الأرض نصحاء». قال: قلنا: يحبّبون الله إلى عباد الله، فكيف يحبّبون عباد الله إلى الله؟ قال: «يأمرونهم بحب الله وينهونهم[٢]، فإذا أطاعوهم أحبهم الله».

---

(١) فيما أخرجه أبو سعيد النقاش في معجمه وابن النجار والبيهقي.
(٢) يعني عما كره الله.

وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «علامةُ حبّ الله حُبُّ ذكر الله، وعلامة بغض الله بغض ذكر الله».

ومن أحب الله تعالى، لم يتضايق من المصائب، ولم يستثقل وظائف عبادته، وتكاليفه المكتوبة عليه، ومن أحب أحداً من جنسه لم يكد يبصر منه إلا ما يستحسنه، ويومئ لهذا المعنى الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داوود عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «حُبُّك الشيء يُعْمي ويُصمّ».

ومن نماذج الحب الخالص لله ما أخرجه البيهقي عن مالك بن دينار قال: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل حُبّك أحبَّ إلي من سمعي وبصري ومن الماء البارد».

ومن هذه النماذج ما أخرجه البيهقي أيضاً عن محمد بن سعيد الخوارزمي، قال: سمعت ذا النون المصري، وسئل عن المحبة قال: أن تُحب ما أحب الله، وتُبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير لله، وترفض كل ما يَشْغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم، مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين، واتباع سنة رسول الله ﷺ في الدين.

وقال ذو النون أيضاً: من علامة الحبِّ ترك كل ما شغله عن الله، حتى يكون الشغل كلّه بالله عز وجل وحده(١).

وقال يحيى بن معاذ: حقيقة المحبة ألا ترى شيئاً سوى محبوبك، ولا ترى سواه لك ناصراً ولا مُعيناً، ولا تستغني بغيره عنه.

وقال أبو سعيد الخراز في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦٠]: هل جزاء من انقطع عن نفسه إلا التعلّق بربه؟ هل جزاء من انقطع عن أُنس المخلوقين إلا الأُنس برب العالمين؟

---

(١) هذه الآثار وما بعدها ذكرها البيهقي في شعب الإيمان.

وهل جزاء من صبر علينا إلا الوصول إلينا؟ ومن وصَل إلينا هل يجمل به أن يختار علينا؟ وهل جزاء التعب في الدنيا والنصب فيها إلا الراحة في الآخرة؟ وهل جزاء من صبر على البلوى إلا التقرب إلى المولى؟ وهل جزاء من سلَّم قلبه إلينا أن نجعل توليته إلى غيرنا؟ وهل جزاء من بعد عن الخلق إلا التقرب إلى الحق؟

مقتضيات المحبة لله وجزاؤها

المحبة الخالصة لله عز وجل تتطلب الإخلاص والتفاني في الحب، والإقبال على الطاعة، وانشغال القلب بذكر الله تعالى، وترك التعلق المهيمن بالأهل والولد، وملازمة تلاوة القرآن الكريم، والأنس بالله سبحانه، والشوق إلى لقائه الكريم، ويترتب على حب الله ورسوله أن يحشر المرء مع من أحب، والرضا بمراد الله تعالى، وموافقة الحبيب في جميع الأحوال، والظفر بالجنة.

أما الظفر بالجنة للمحب فلما أخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦٠] قال: ما جزاء من أنعمتَ عليه بالتوحيد إلا الجنة»(١).

و أما موافقة هوى المحبوب فلما ذكره الجنيد قال: قوام المحبة موافقة المحبوب في البهج والغضب. وسئل رويحة عن المحبة فقال: موافقة الحبيب في جميع الأحوال(٢).

---

(١) لكن تفرد به إبراهيم بن محمد الكوفي، وهو منكر، والله أعلم.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٣٨٣

وأما الرضا عن الله تعالى فلقول عبد الله بن محمد الرازي: علامة المحبة ثلاث: الرضا عنه في المكروه، وحسن الظن في المجهود، والتحسين لاختياره في المحذور[(١)].

وأما **الحشر مع المحبوب** فلما أخرجه مسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما أعددتَ لها؟» فقال الأعرابي: ما أعددتُ لها من كثير أَحْمد عليه نفسي إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «فإنك مع من أحببت».

وأما **الشوق للقاء الله** فلقول ذي النون المصري: الشوق أعلى الدرجات، وأعلى المقامات، إذا بلغها العبد استبطأ الموتَ شوقاً إلى ربه، وحباً للقائه والنظر إليه.

وقال أبو عثمان: الشوق هو المحبة، من أحب الله اشتاق إلى لقائه. وقال في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥]: هذه تعزية للمشتاقين. معناه إني أعلم أن اشتياقكم إلي غالب، وإني قد أجَّلت للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصالكم إلى من تشتاقون إليه[(٢)].

وأما **الأنس بالله** فلقول الفضيل بن عياض: طوبى لمن استوحش من الناس[(٣)]، وأنس بربه، وبكى على خطيئته[(٤)].

وقال إبراهيم بن أحمد الخواص: لا تطمع في لين القلب مع فضول

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٨٢

(٢) المرجع نفسه: ١/ ٣٧٩

(٣) أي ملَّ منهم، إلا من أهل ولاية الله، فإن الأنس بهم هو الأنس بالله.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

الكلام، ولا تطمع في حُبّ الله مع حب المال والشرف، ولا تطمع في الأنس بالله مع الأنس بالمخلوقين(١).

وقال ذو النون المصري: الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالناس غم واقع(٢).

وأما الأنس بتلاوة القرآن فقد سئل يحيى بن معاذ بن الرازي: ما عيد المؤمن؟ قال: السرور بالإيمان، والنزهة بالقرآن، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

وأما ترك التعلق المسيطر بالأهل والولد فلقول أبي جذيمة وهب بن أبي حافظ الليثي قال: قال راهب من الرهبان: إذا استقرت المحبة في القلب ذهل عن الأهل والولد(٣).

وأما طاعة الله وجعلها دليلاً على محبة الله فلقول العباس بن عبد المطلب لابنه حين نزل به الموت: يا عبد الله، إني موصيك بحب الله عز وجل، وحب طاعته، وخوف الله، وخوف معصيته، فإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متى أتاك، وإني أستوصيك الله يا بني. ثم استقبل القبلة، فقال: لا إله إلا الله. ثم شخص بصره، فمات(٤).

وأما التفاني في حب الله فلقول ذي النون المصري: من علامة الحب ترك كل ما شغله عن الله حتى يكون الشغل كله بالله عز وجل وحده(٥).

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٣٧٧

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٧٥

(٣) المرجع نفسه: ١/ ٣٧١

(٤) المرجع نفسه: ١/ ٣٦٨-٣٦٩

(٥) المرجع نفسه: ١/ ٣٧٠

وقال عبد الله بن أبي عيسى: كان رجل من أهل البصرة يقال له: ضيغم، تعبَّد قائماً حتى أُقعد، ثم تعبد قاعداً حتى استلقى، ثم تعبد وهو مستلق حتى أفحم (أسكت وأنهك) فلما أجهد قال: أجلسوني، فرفع بصره إلى السماء، فقال: سبحانك، عجباً للخليقة، كيف أَنِستْ بأحد سواك؟[1]

والخلاصة: إن محبة الله يجب أن تهيمن على النفس الإنسانية، فلا يتقدم عليها حب، ولا يشغلها عن الله شيء من ملاهي الدنيا، سمع الفضيل بن عياض ابنته تقول: المحبة للخالق، والرحمة للأولاد. فلطم رأس نفسه وقال: يا رب، هذه ابنتي هَجَنتني في حبها وحب أخيها، وعزتك لا أحببت معك أحداً حتى ألقاك[2].

مداومة ذكر الله تعالى

من أمارات محبة الله تعالى كما تقدم بيانه إدامة ذكر الله عز وجل، في السر والعلن، وفي جميع الأحوال، لقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤١-٤٢]. وقوله عز وجل: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢] وليس ذكر الله بمجرد الترداد في اللسان وإنما استحضار القلب والجنان.

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة في الحث على الاستكثار من ذكر الله، منها ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمرَّ على جبل يقال له: جُمْدان،

---

(١) المرجع نفسه: ١/ ٣٧٧

(٢) المرجع نفسه ١/ ٣٧٧

فقال: «سيروا، هذا جُمْدان، سبق المُفَرِّدون». قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

ومنها ما أخرجه البيهقي وأحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحرَّكت بي شفتاه». دل على أن معونة الله تعالى لعباده تكون مع ذكر الله تعالى من تسبيح وتحميد وتكبير، وإقرار بالوجود الإلهي ووحدانية الله تعالى.

ويظل ذكر الله تعالى هو المفيد في الآخرة أيضاً، عملاً بما أخرج الترمذي وقال: حسن غريب، عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ و ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كلُّه عليه، لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر الله عز وجل».

وأخرج الترمذي أيضاً، عن عبد الله بن بُسْر قال: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ يسألانه، فقال أحدهما: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره، وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرت علي، فمُرني بأمر أتشبّث به. قال: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله عز وجل».

وفي حديث آخر عن معاذ بن جبل يقول: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل»(١).

يؤكد ذلك حديث آخر أخرجه الترمذي والحاكم(٢) عن أبي بن كعب ﷺ: كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام، فقال: «يا أيها الناس

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والبزار وابن حبان في صحيحه.
(٢) وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». إن هذا الإلحاح في ذكر الله بسبب اقتراب القيامة، يرشد إلى ضرورة ملازمة الذكر، وأنه ينجِّي الإنسان من أهوال القيامة.

يوضحه ما أخرجه الأصبهاني في الترغيب عن معاذ بن جبل ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر الله على كل حال، فليس عمل أحبَّ إلى الله، ولا أنجى لعبده من ذكر الله في الدنيا والآخرة».

قال الحليمي: وفي هذا الحديث أن المراد بالذكر ليس هو الذكر باللسان وحده، ولكنه جامع اللسان والقلب، والذكر بالقلب أفضل، لأن الذكر باللسان لا يردع عن شيء، والذكر بالقلب يردع عن التقصير في الطاعات، والتهافت في المعاصي والسيئات. وهذا كلام واضح في بيان طريقة الذكر الناجعة وهي استحضار عظمة الله وفضله في القلب واللسان.

والقيامة لا تقوم إلا على أشرار الناس، ولا يبقى حينئذ أحد ممن يذكر الله عز وجل، لما أخرجه مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله».

والمهم متابعة الذكر لله في جميع الأحوال، حتى وإن وصف الذاكر بوصف غريب كالجنون، لما أخرجه الحاكم وأحمد وأبو يعلى وابن حبان، وصححه الحاكم عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

ومجالس الذكر هي من رياض الجنة، لحديث جابر بن عبد الله، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس، إن لله عز وجل سرايا من الملائكة تقف وتحلُّ على مجالس الذكر، فارتعوا في رياض الجنة». قلنا: أين رياض الجنة يا رسول الله؟ قال: «مجالس الذكر،

اغدوا وروِّحوا في ذكر الله، واذكروه بأنفسكم. من كان يحب أن يعلم كيف منزلته من الله عز وجل، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تبارك وتعالى يُنزل العبد حيث أنزله من نفسه»[١].

وفي حديث آخر مشابه رواه الترمذي عن أنس: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر».

فضائل مجالس الذكر

مجالس ذكر الله تعالى ذات فوائد كثيرة، فليحرص المسلم على مجلس الذكر وحده أو مع جماعة ليأنس بهم، ويبعث وجودهم نشاطاً للذاكرين، ويتأهل الجميع لإحاطتهم بالملائكة، وغشيان الرحمة الإلهية، وإفراغ السكينة والطمأنينة على قلوبهم، ومفاخرة الله تعالى بهم، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وفي حديث آخر أُوضح فيه كيفية إحاطة الملائكة بالذاكرين، والعناية بهم، وإعانتهم على أداء مهامهم وأعمالهم، وهو ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سيّارة، فُضُلاً عن كُتّاب الأيدي[٢]، يطوفون في الطريق، يلتمسون أهل

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا وأبو يعلى والبزار والطبراني والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

(٢) أي غير الملكين الملازمين للإنسان ذات اليمين وذات الشمال.

الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تبارك وتعالى يُنادون: هَلُمَّ إلى حاجتكم. قال فتحفُّهم بأجنحتها إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم -: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبّحونك، ويكبّرونك، ويحمدونك، ويمجّدونك[1]. قال: وهل رأوني؟ قال: فيقولون: لا، والله يا رب ما رأوك. فيقول: فكيف لو أنهم رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا لك أشد عبادة وأشد تحميداً وأكثر تسبيحاً. فيقول: فما يسألوني؟ فيقولون: يسألونك الجنة. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، والله يا رب ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. فيقول: مم يتعوَّذن؟ فيقولون: يتعوذون من النار. فيقول: هل رأوا النار؟ فيقولون: ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة. فيقول: فإني أشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملَك من الملائكة: فيهم فلان وليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم». دل الحديث على فضل مجالس الذكر، وسؤال الجنة، والتعوذ من النار، وأن عموم المغفرة يشمل جميع الجالسين بدليل حديث آخر رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجاله رجال الصحيح، عن عبد الله بن مغفّل قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل إلا ناداهم منادٍ من السماء: قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات». وفي رواية أخرى عن عبد الله بن مغفل عن النبي ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا في مجلس فيتفرقوا، ولم يذكروا الله عز وجل إلا كان ذلك عليهم حسرة يوم القيامة». فالتقصير في الذكر يؤدي إلى الحسرة والندامة.

وما أجمل المقارنة بين بيت ذاكر وغير ذاكر، فيما أخرجه البخاري

---

(١) يعظمونك.

ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَثَل البيت الذي يُذكَر الله فيه، والبيت الذي لا يُذكر فيه مثل الحي والميِّت» .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» ومنهم: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» فالذاكر يظله الله في ظله يوم القيامة.

ويرفع الله قدر الذاكر، فيذكره الله في نفسه وفي الملأ الأعلى، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منه».

والذكر في النفس هو الذكر الخفي، وقد أمر الله تعالى به في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٥].

والذكر الخفي نوعان أحدهما الذكر في النفس، والآخر ما دار به اللسان، ولم يسمعه إلا صاحبه، أخرج أحمد وغيره عن سعد بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي».

وذكر الله تعالى مطلوب في كل الأوقات ولا سيما عند لقاء الأعداء، وعند الشدة، وفي حال الجهاد، وفي الجنازة، وفي عيادة المريض، وبعد الغداة (الفجر) إلى طلوع الشمس، وبعد العصر إلى غروب الشمس، وذلك أفضل من عتق ثمانية رقاب من ولد إسماعيل عليه السلام، وذاكرُ الله بين الغافلين عن ذكره.

أخرج البخاري في التاريخ وابن عبد البر في التمهيد عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين».

والذكر في الخفاء أفضل من العلانية.

أنواع عبارات الأذكار

وردت صيغ وعبارات مختلفة من الأذكار في السنة النبوية، وأشار القرآن الكريم إلى بعضها مثل: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ١٨/٤٦] والباقيات الصالحات في رأي بعض المفسرين هي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلى بالله.

أخرج النسائي عن أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «التكبير والتسبيح والتهليل والحمد، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

والذاكر الله كثيراً مستجاب الدعوة، لما رواه البيهقي عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يَرُد الله دعاءهم: الذاكر الله كثيراً، ودعوة المظلوم، والإمام المُقْسط».

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أيُّ الناس أعظم درجة؟ قال: «الذاكرين الله».

وأخرج أحمد عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تبّاً للذهب والفضة، يتخذ أحدكم لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وزوجة تعين على الآخرة».

قال الحليمي رحمه الله: فبان بهذا أن ذكر الله إيمان.

ومن أنواع الذكر ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي ذرّ ﷺ أن رسول الله ﷺ عاده، أو أنه عاد رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أيُّ الكلام أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «ما اصطفاه الله لملائكته، سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده».

وأما صيغة التهليل فقد روى البخاري والبيهقي عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. في يوم عشر مرات، كان له بعِدْل عشر محرَّرين». أي معتقين. وفي لفظ: «بعِدْل محرر». أو «عدل أربع محررين». أو «عدل أربع رقاب».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس».

وأخرج أحمد عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لجلسائه: «أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟» فقال رجل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «يسبح مئة تسبيحة، فيُكتب له ألفُ حسنة، ويكفَّر عنه ألف خطيئة».

وأخرج مسلم في صحيحه عن سمرة بن جُنْدب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله أربع: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، لا يضرّك بأيِّهن بدأت».

وأخرج أبو داوود عن أبي هريرة ﷺ، عن أبي ذرّ ﷺ قال: يا رسول الله ذهب أصحاب الدثور[1] بالأجور، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يتصدقون بها، ولا نجد

(١) الأموال.

ما نتصدَّق به. قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، ألا أعلِّمك كلمات إذا قُلْتهن أدركت من سَبَقك، ولا يلحق بك أحد من بعدك؟». قال: بلى يا رسول الله. قال: «تكبِّر في دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين تكبيرة، وتحمد ثلاثاً وثلاثين تحميدة، وتسبِّح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وتختمها بـ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وفي رواية عند البخاري والبيهقي عن أبي هريرة: «... تسبِّحون في دُبُر كل صلاة عشراً، وتحمدون عشراً، وتكبِّرون عشراً».

وتسن صلاة التسابيح كل يوم أو شهر أو سنة أربع ركعات، يسبح في كل ركعة خمساً وسبعين تسبيحة بصيغة «الله أكبر، والحمد لله، ولا إله إلا الله» خمس عشرة بعد القراءة، وعشر في الركوع، وعشر في الاعتدال، وعشر في كل سجدة، وفيما بين السجدتين، وبعد السجدة الثانية فتلك خمس وسبعون في كل ركعة[(١)].

ودعاء تفريج الكرب والمصيبة «لا إله إلا الله الحليم، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»[(٢)].

ودعاء كفارة المجلس أخرجه الترمذي وأحمد عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس مجلساً يكثر فيه لَغَطه، ثم قال قبل أن يقوم: سبحانك ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

والاستغفار مطلوب لما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث غريب، وابن ماجه والبيهقي، عن أبي رافع ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم عن علي ﷺ.

النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». وفي رواية: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة».

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وزرقه من حيث لا يحتسب».

ودعاء سيد الاستغفار أخرج البخاري عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء[1] لك بذنوبي، وأبوء لك بنعمتك علي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وقائع عملية من الأذكار

ذكر البيهقي رحمه الله آثاراً وأخباراً وردت في ذكر الله عز وجل، يفيد إيرادها لتكون نماذج عملية تطبيقية عن السلف الصالح والأولياء الصالحين، وتصير قدوة حسنة للناس، منها ما يأتي[2]:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن أسبّح تسبيحات أحب إلي من أن أنفق عددهن دنانير في سبيل الله.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي العمل أفضل؟ قال: ذكر الله أكبر. وفسر عطية قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٥] بأنه هو قوله:

---

(١) أقر.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ١/٤٤٧-٦٦١

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢] فذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال معاذ بن جبل ﷺ: لأن أذكر الله من بكرة إلى الليل أحب إلي من أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله من بكرة إلى الليل.

وقال ابن عباس: ما من مولود إلى على قلبه الوسواس، فإن ذكَر الله خنَس، وإن غفَل وَسْوَس، وهو قوله عز وجل: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١١٤/ ٤].

وقال موسى عليه السلام: يا ربِّ، ما الشكر الذي ينبغي علي؟ فأوحى الله عز وجل إليه أن لا يزال لسانك رطباً من ذكري. وقال ابن عباس: وفَد موسى عليه السلام إلى طور سيناء، قال: يا ربِّ، أي عبادك أحبّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

قالت أم الدرداء: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٥]: وإن صليت فهو من ذكر الله، وإن صمت فهو من ذكر الله، وكل خير تعمله فهو من ذكر الله، وكل شيء تجتنبه فهو من ذكر الله، وأفضل من ذلك تسبيح الله عز وجل.

قال ابن أبي عمران: قال رسول الله ﷺ: «من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلَّت صلاته وصيامه وتلاوة القرآن، ومن عصى الله فقد نسي الله، وإن كثُرت صلاته وصيامه وتلاوة القرآن».

وفسر فضيل بن عياض قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢] فقال: اذكروني بطاعتي، أذكركم بمغفرتي لكم.

وقال أبو عبيدة: ما دام الرجل يذكر الله فهو في صلاة، وإن تحرك اللسان والشفتان، فذاك أعظم.

قال سهيل بن حنظلة: لقد ذُكر لي أنه لا يجتمع قوم على ذكر الله، إلا نُودوا: قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات. وقال سهيل

أيضاً: قال رسول الله ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله فيه، فيقومون حتى يقال لهم: قوموا فقد غُفرت لكم ذنوبكم، وقد بُدِّلت سيئاتكم حسناتٍ».

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول ﷺ: «إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس ناساً مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمن كان مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جُعل مفاتيح الشر على يديه».

جاءت امرأة إلى الحسن البصري فقالت: يا أبا سعيد، إني إذا أتيت الذكر رقَّ قلبي، وإذا تركته أنكرت نفسي. قال: اذهبي حيث يصلح قلبك.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل.

وقال ذو النون المصري: إلهي أنا لا أصبر عن ذكرك في الدنيا، فكيف أصبر عنك في الآخرة؟. وأضاف قائلاً: لا يزال العارف ما دام في الدنيا بين الفقر والفخر، فإذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه افتقر، وزاد الزهد في روايته، ثم قال: بالله فخْرنا، وإلى الله فقرنا.

وسئل محمد بن النضر: أما تستوحش من طول الجلوس في البيت؟ قال: وما لي أستوحش؟ وهو يقول: «أنا جليس من ذكرني».

قال مكحول: قال رسول الله ﷺ: «إن ذكر الله شفاء، وإن ذكر الناس داء».

عن ماهان الحنفي قال: ما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركبها وثوبه الذي يلبس أكثر ذكراً لله منه؟ فكان لا يفتر من التسبيح والتهليل والتكبير.

كان عمر بن هاني يسبح في كل يوم مئة ألف، إلا أن تخطئ الأصابع. وكان أبو مجلز يسبح الله في موكبه اثني عشر ألف تسبيحة، ويعدّها ببنانه.

سئل أبو يزيد البسطامي عن حقيقة المعرفة، فقال: الحياة بذكر الله. وسئل عن حقيقة الجهل، فقال: الغفلة عن الله. وسئل: ما علامة العارف؟ فقال: ألا يفتر من ذكره، ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.

وقال حسان بن عطية رضي الله عنه: ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذِكْره، أو من يَذْكره.

الأصل الحادي عشر من أصول الإيمان

الخوف من الله تعالى

أوجب الله تعالى الخوف منه في آيات كثيرة من القرآن الكريم، لأن الخوف يولد الأمان، والأمان أمارة النجاة. والظفر بالنجاة غاية المنى.

وهذه الآيات منها: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٥] فكلمة «وخافون» توجب الخوف. ومثلها: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤] ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠] وأثنى الله على ملائكته لخوفهم منه، فقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٨]. وكذلك مدح الله أنبياءه عليهم السلام وأولياءه بمثل ذلك بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢١].

وعاتب الله الكافرين على غفلتهم عن خشية الله، فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٧١/ ١٣] أي ما لكم لا تخافون عظمة الله، وذمهم في آية أخرى بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢١] أي لا يخافون.

كل ما ذكر دليل على أن الخوف من الله تعالى من تمام الاعتراف بملكه وسلطانه ونفاذ مشيئته في خلقه، ويكون إغفال ذلك إغفالاً

للعبودية لله، لأن من واجب كل عبد ومملوك لغيره أن يكون راهباً لمولاه.

وللخوف أوجه ثلاثة كما قال الحليمي رحمه الله:

أحدهما: ما يحسّ به العبد من ضعفه وعجزه أمام مولاه.

والثاني: ما يحدث من محبة العبد لسيده إن أحسن إليه.

والثالث: ما يترتب على الوعيد من مخاوف.

كما في الآيات المتقدمة ومنها ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٧١/ ١٣] أي لا تخافون عظمة الله، ولا تبالون بها وهذا للوجه الأول. وفي الوجه الثاني يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٣/ ٨] وهذا الطلب لا يكون إلا ممن هو خائف على هدى الله له. وفي الوجه الثالث قال سبحانه في كثير من الآيات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ٤/ ١، لقمان: ٣١/ ٣٣، الحج: ٢٢/ ١]، ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٠] ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٢/ ٤١] فالله أمر بالتقوى، وهي أن يقي الإنسان نفسه من نار جهنم، بفعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، وقال النبي ﷺ في الصحيح عند البخاري: «اتقوا الله ولو بشق تمرة». وأخرج البيهقي من طريق الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦٦/ ٦] تلاها رسول الله ﷺ ذات ليلة، أو يوم، فخرَّ فتىً مغشياً عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو يتحرك، فقال: «يا فتى، قل: لا إله إلا الله». فقالها، فبشره بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله، أمِن بيننا؟ فقال ﷺ: «أما سمعتم قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٤]».

وقال السدّي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

﴿قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢/٨]: إذا همَّ بمعصية أو ظلم أو نحو هذا، قيل له: اتق الله. وجل قلبه(١).

وقال إبراهيم النخعي ومجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٤٦]: هو الرجل يريد أن يُذنب، فيذكر مقام ربه، فيدع الذنب.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أخرجوا من النار من ذكرني أو خافني في مقام». وأخرج البيهقي أيضاً في الأسماء والصفات والدولابي في الكنى، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان».

وقال عبد الله بن مسعود موقوفاً ومرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله»(٢).

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث مُنْجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، وكلمة الحق في الرضا والغضب».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار جهلاً. وأخرج أيضاً عن مسروق: حقيق بالمرء بأن يكون له مجالس يخلو فيها، فيذكر ذنوبه، فيستغفر الله منها. وقال مسروق أيضاً: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يُعْجب بنفسه أو بعلمه.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور.

(٢) الموقوف عزاه الزبيدي إلى الديلمي، والمرفوع إلى البيهقي.

لماذا الخوف من الله تعالى؟

الخوف من الله سبحانه وتعالى ضرورة نفسية تجديدية للمؤمن في عقيدته وعبادته وسلوكه وأخلاقه، لأن عظمة الله تعالى وعلمه الواسع وجهل الإنسان وتفريطه في شؤون نفسه تجعله محتاجاً إلى تجديد سلوكه ومراقبة أعماله، حتى يظل المرء في شفافية عالية، رقيق القلب، لا تقسو نفسه، ولا يشتد طبعه، لذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/١٦].

والإنسان سرعان ما ينسى أو يتناسى أو يتقلب كالريح، فيكون تذكّر الحساب بين يدي الله زاجراً يعيده إلى جادة الاستقامة والهدى، أخرج البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل القلب مثل ريشة بأرض فلاة تقلّبها الرياح».

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي القلب من تقلّبه». «إنما مثل القلب كمثل ريشة بالفلاة، تعلّقت في أصل شجرة، تقلّبها الريح ظهراً لبطن».

وفي حديث أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه[1]: «قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات». وأخرج أبو يعلى في مسنده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك». فقال له أهله وأصحابه: أتخاف علينا، وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: «إن القلوب بيد الله عز وجل يقلّبها».

(١) وقال الذهبي: فيه انقطاع.

وفي الحديث المتفق عليه بين الشيخين، عن النعمان بن بشير أنه قال: سمع أذناي من رسول الله ﷺ، وهو يقول: «في الإنسان مضغة إذا صلَحت صلح له سائر جسده، وإذا سقمت سقم له سائر جسده، وهي القلب».

أخرج أبو داوود عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت، سبحانك إني كنت من الظالمين، اللهم إني أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب».

وروى البيهقي عن النبي ﷺ أنه قال في دعاء المضطر: «اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت».

وفي لفتة حساسة مهمة ودقيقة ما رواه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق، وهو يخاف ألا يقبل منه». فالمهم تحقق قبول الأعمال.

وكذلك الموقف النبوي الشديد الحساسية، حيث أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يُنْجيه عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل». ووضع يده على رأسه هكذا يصف فعله.

وفي الاتجاه نفسه روى البخاري وأحمد وأبو داوود والترمذي والحاكم والبزار، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«اقرأ» فقلت: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم». فقرأت سورة النساء، حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/٤١] قال: «حسبك الآن». قال: فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم، عن مطرف، عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلّي، وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

قال أحمد البيهقي رحمه الله: وروينا عن حذيفة بن اليمان أنه صلّى مع النبي ﷺ، فما مرَّ بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل، ولا بآية عذاب إلا وقف عندها وتعوَّذ.

وروى البيهقي أيضاً عنه ﷺ أنه قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت».

وكل هذا من شدة معرفة النبي عليه الصلاة والسلام بالله عز وجل، وخوفه على أمته.

وأخرج ابن ماجه والحاكم عن أبي ذر يقول: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح يرددها، والآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ٥/١١٨].

وأخرج عبد الله بن المبارك، والبزار، ورجاله رجال الصحيح[1] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يروي ذلك عن ربه عز وجل أنه يقول: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة».

---

(١) غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث.

ملازمة الخوف من الله تعالى

على أهل الإيمان من رجال ونساء ملازمة الحذر والخوف من الله تعالى حتى لا يتورط الإنسان في صغيرة ولا كبيرة، ويكون متنبهاً للمخاطر والمزالق من حوله، ويشتد إقباله على طاعة الله وتقواه، لأن المصير مجهول، والحساب عسير، والخطر جاثم، والسعادة بالطاعة غنيمة.

وهذا ما حذر منه رسولنا عليه الصلاة والسلام، فقد أخرج البيهقي من طريق الحاكم عن أبي ذر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١] حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء[1]، وحُقَّ لها أن تئط، وما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[2] تجأرون إلى الله عز وجل، والله لوددت أني شجرة تعضد».

وقد تربى في مدرسة النبوة الخالدة الصحابة الكرام، فكانوا من أخلص الناس وأتقاهم لله، وأشدهم حذراً وخوفاً، وإحساساً بعظم المسؤولية، والأمثلة كثيرة، فقد أخرج البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تِبْنَة من الأرض، فقال: يا ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكن شيئاً، ليت أمي لم تلدني! ليتني كنت منسياً!

---

(١) صوتت.

(٢) الطرقات.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبيدة بن الجراح قال: لوددت أني كنت كبشاً فيذبحني أهلي، وددت أني رماد على أكمة تنسفني الرياح في يوم عاصف.

قال الإمام أحمد رحمه الله: فكل ذلك يدل على أن كل من كان بالله عز وجل أعرف، كان منه أخوف.

وتتابعت الإرشادات النبوية إلى ضرورة تحلي المؤمن بصفة الخوف من الله تعالى وكثرة البكاء على التقصير في جنب الله، منها ما أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وفي معناه أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٣/٥٩-٦٠] بكى أصحاب الصُّفة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع رسول الله ﷺ حنينهم، بكى معهم، فبكينا ببكائه، فقال ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مصرٌّ على معصية الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيغفِر لهم».

وأخرج البيهقي أيضاً والأصبهاني في الترغيب عن أنس قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤، والتحريم: ٦٦/٦] فقال: «أُوقد عليها ألفَ سنة حتى احمرَّت، وألف عام حتى ابيضَّت، وألفَ عام حتى اسودَّت، فهي سوداء مظلمة، لا يطفأ لهبها». قال أنس: وبين يدي رسول الله ﷺ رجل أسود يهتف بالبكاء،

فنزل جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، من هذا الباكي بين يديك؟ قال: «رجل من الحبشة». وأثنى عليه معروفاً، قال: فإن الله عز وجل يقول: «وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، لا تبكي عينُ عبدٍ في الدنيا من مخافتي إلا أكثرت ضحكه معي في الجنة».

وأخرج الترمذي(١) والنسائي والحاكم وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللَّبن في الضَّرع(٢)، ولا يجتمع غبار في سبيل الله(٣) ودخان نار جهنم في مِنْخري عبد مسلم أبداً».

وطريق النجاة من دخول النار عفة اللسان، واعتزال الفتن، والتوبة، أخرج الترمذي وقال: حسن غريب، عن عقبة بن عامر الجُهَني، قال: قلت: يا نبي الله ما النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليَسَعْك بيتك، وابك على خطيئتك».

وتذكر الموت ليكون عبرة مطلوب على الدوام، لما أخرج البزار والطبراني وإسنادهما حسن، عن أنس، عن النبي ﷺ مرَّ بقوم يضحكون ويمزحون فقال: «أكثروا ذكر هاذِم اللذات». أي قاطعها بسرعة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن يحيى بن أبي كثير قال: قال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه: «يا بنيَّ لا تكثر الغيرة على أهلك، ولم تر منها سوءاً، فتُرمى بالشر من أهلك وإن كانت بريئة، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تستخف فؤاد الرجل الحكيم، وعليك بخشية الله عز وجل، فإنها غاية لكل شيء».

---

(١) وقال: حسن صحيح.
(٢) هذا مثال للاستحالة.
(٣) أي المجاهد الذي تعرض للغبار.

نماذج عالية من خوف الله سبحانه

الخوف من الله تعالى وعظمته وحسابه هو أحد أصول الإيمان أو شعبه الأساسية، فيكون التجرد من هذا الخوف أو إضعافه طعنة موجهة لإيمان المؤمن، بل ويكون الإيمان ناقصاً غير مكتمل، أو ربما زيفاً غير ثابت، لذا تحلى بظاهرة الخوف من الله سبحانه خواص أهل الإيمان من الملائكة والأنبياء والرسل، وصفوة الصالحين، كما سأبين هنا من إيراد نماذج من إيمان هؤلاء.

أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن المطلب بن المطلب أن رسول الله ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «يا جبريل ما لي لا أرى إسرافيل يضحك ولم يأتني أحد من الملائكة إلا رأيته يضحك؟».قال جبريل عليه السلام: ما رأينا ذلك الملَك ضاحكاً منذ خلقت النار.

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغني أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ وهو يبكي فقال: «ما يبكيك؟». قال: ما جَفَّت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة أن أعصيه، فيُلقيني فيها.

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي والخطيب البغدادي وابن عساكر عن عدي بن أرطاة وهو على منبر المدائن وهو يحدث هذا الحديث عن رجل من الصحابة اسمه عباد يحدث عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله عز وجل ملائكة تُرْعَد فرائصهم من مخافته، ما منهم مَلَك يقطر من عينيه دمعة إلا وقعت ملَكاً قائماً يسبح».

وأخرج البيهقي وابن عدي عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو وُزن دموع آدم بجميع دموع ولده لرجح دموعه على دموع ولده».

وأخرج ابن عدي عن ابن بريدة أيضاً قال: لو عُدل بكاء أهل الأرض ببكاء داوود ما عَدَله، ولو عُدل بكاء أهل الأرض ببكاء آدم حين أهبط إلى الأرض ما عدله[١].

وأخرج البيهقي في الشعب عن يحيى بن معاذ الرازي يقول: كيف يفرح المؤمن في دار الدنيا؟ إن عمل سيئة خاف أن يؤخذ بها، وإن عمل حسنة خاف ألا تقبل منه، وهو إما مسيء وإما محسن.

وعند البيهقي أيضاً عن أبي هريرة أنه كان يقول في آخر عمره: اللهم إني أعوذ بك أن أزني ، أو أعمل بكبيرة في الإسلام. قال بعض أصحابه: يا أبا هريرة، ومثلك يقول هذا أو يخافه، وقد بلغت من السن ما بلغتَ، وانقطعتْ عنك الشهوات، وقد شافهت النبي ﷺ وبايعته، وأخذت عنه؟ قال: ويحك وما يُؤمِنُني، وإبليس حي؟

ومن أخبار البيهقي كذلك في الشعب، عن عبد الله بن عُكيم قال: صليت خلف أبي بكر المغرب، فلما قعد في الركعة الثانية، كأنما كان على الجمر، حتى قام فقرأ الفاتحة، ثم قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٣/٨].

وذكر البيهقي أيضاً عن بلال بن سعد، وهو يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من زيغ القلوب، وتبعات الذنوب، ومن مُرْديات الأعمال، ومضلاّت النفس».

ومن روايات البيهقي عن إبراهيم بن أدهم قال: «الهوى يُرْدي، وخوف الله يشفي، وأعلم أن ما يُزيل عن قلبك هواك إذا خفت من تعلم أنه يراك».

---

(١) هذان الحديثان وإن وجد فيهما أحمد بن بشير الذي ينكر حديثه، لكن ذلك يعمل به في فضائل الأعمال.

وأخرج الترمذي[١] عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدْلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا وإن سلعة الله لغالية، ألا وإن سلعة الله الجنة». أي من خاف الله سار في الطاعة من أول الليل.

وذكر البيهقي عن ذي النون بن إبراهيم قال: «صلاة الفرض مفتاح باب الخوف، والنافلة مفتاح باب الرجاء، وذكْر الله الدائم مفتاح باب الشوق، وليس بالخوف تَنَال الفرض، ولكن بالفرض تنال الخوف، ولا بالرجاء تنال النافلة، ولكن بالنافلة تنال الرجاء، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر، قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه، وهو سر الملكوت فاعقله واحفظه».

وأخرج البيهقي في الشعب أيضاً[٢] عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُحب كل قلبٍ حزين».

ولدى البيهقي كذلك عن عبد الله بن المبارك قال: «من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيراً، ثم لا يبالي ولا يحزن عليه».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي سليمان الداراني يقول: قد أكرمهم الله وأذلّهم من قبل أن يخلقهم، وأسكنهم الجنة والنار من قبل أن يوفقهم لطاعته، ويبتليهم بمعصيته، عدلاً منه وتفضلاً على أوليائه، فسبحانه من كريم ما أكرمه، والعجب لمن وجده كيف تركه؟ والعجب لمن لم يجدْه كيف لم يطلبه؟

وأخرج البيهقي عن لقمان الحكيم قال لابنه: «يا بني لقد وعظتك حتى لو كنت حجراً لانفطرتَ ماءً». فبينا هو يعظه يوماً إذ تصدع قلب الغلام ومات.

---

(١) وقال: حسن غريب.
(٢) وقال: هذا الإسناد أصح.

وعند البيهقي في الشعب أيضاً عن الأوزاعي يقول: «إذا ذُكرت جهنم فلْيبكِ من كان باكياً».

ومن أخبار البيهقي عن الفضيل بن عياض قال: «إن خفت الله لم يضرّك أحد، وإن خفت غير الله لم ينفعك أحد».

وذكر البيهقي عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت للمغيرة بن حكيم: يا مغيرة، إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر، وما رأيت أحداً قط أشد فَرَقاً[1] من ربه من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في المسجد، ثم يرفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه، فلم يزل رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه.

---

(١) خوفاً.

الأصل الثاني عشر من أصول الإيمان

الرجاء من الله تعالى

من أصول الإيمان أو شعبه الأساسية رجاء النجاة والسعادة من الله تعالى، وينبغي على المؤمن أن يكون بين حالين متلازمين ألا وهما الخوف من الله تعالى، والرجاء، وهذان الحالان يقترنان في كثير من آي الذكر الحكيم، منها قول الله سبحانه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٦] والخوف الإشفاق من الذنوب، والطمع الرجاء من الله بالرحمة والقبول والمغفرة.

ومدح الله قوماً وأثنى عليهم لجمعهم بين الوصفين بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ١٧/٥٧] وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٠] والرغبة الرجاء، والرهبة الخوف.

وقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ٧١/١٣] أي ما لكم أيها القوم لا تقدِّرون لله حقاً، ولا تخشون عظمته وجلاله. والمراد ما لكم لا تكونون على حال تأملون فيها الخير والثواب.

وللرجاء أوجه، كما ذكر الحليمي رحمه الله، وهي أربعة:

رجاء الظفر بالمطلوب، ورجاء الدوام بعد الحصول، ورجاء دفع المكروه، ورجاء الدفع وإماطة ما قد وقع.

وأوضحت السنة النبوية في أحاديث كثيرة أحوال الرجاء، منها ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنِط من جنته أحد». أي إن مشاهدة ألوان العقاب في الآخرة توقع الإنسان في اليأس من الجنة، ولكن الله تعالى يفسح باب الأمل والرجاء لجميع الناس ليدخلوا الجنة برحمته إن أنابوا وتابوا.

وأخرج الترمذي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شابّ وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف». أي إن اجتماع الرجاء والخوف في قلب المؤمن حال الاحتضار يكونان سبباً للنجاة والظفر برضوان الله سبحانه.

وأخرج البيهقي عن واثلة قال: الله أكبر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أقْسم الخوف والرجاء ألا يجتمعا في أحد في الدنيا، فيرح ريح النار، ولا يفترقا في أحد في الدنيا فيرح ريح الجنة».

وأضاف واثلة في حديث آخر: «قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي».

وروى الحاكم وابن حبان عن واثلة أيضاً: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء».

قال إبراهيم النخعي - فيما ذكره البيهقي -: كانوا يستحبون أن يُلقِّنوا العبد محاسن عمله عند موته، لكي يحسن ظنه بربه.

وأخرج البيهقي عن السري بن المغلس قال: الخوف أفضل من

الرجاء ما كان الرجل صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف. فقال له رجل: كيف يا أبا الحسن؟ قال: لأنه إذا كان في صحته محسناً عظم رجاؤه عند الموت، وحسن ظنه بربه، وإذا كان في صحته مسيئاً، ساء ظنه عند الموت، ولم يعظم رجاؤه.

وقال البيهقي مفسراً ذلك: وإنما أراد به خوفاً يمنعه من معصية الله عز وجل، ويحمله على طاعته، حتى إذا حضره الموت عظم رجاؤه في رحمة ربه، وكثر طمعه في إحسان الله ثقةً منه بوعد الله عز وجل.

جاء في صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، قبل أن يموت بثلاث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل». وأخرج الطبراني والحاكم عن أبي هريرة حديثاً بلفظ: «يا أيها الناس، أحسنوا الظن برب العالمين، فإن الرب عند ظن عبده».

وأفضل الرجاء - كما ذكر البيهقي - ما تولد عن مجاهدة النفس ومجانبة الهوى، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢/٢١٨].

وأخرج أبو داوود وابن حبان والحاكم حديثاً عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «حسن الظن من العبادة»[١].

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن مطرِّف أنه تلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦/١٣] فقال: «فلو يعلم الناس قدر مغفرة الله ورحمة الله، وعفو الله، وتجاوز الله، لقرَّت أعينهم، ولو يعلم الناس نكال الله، ونقم الله، وبأس الله، وعذاب الله، ما رقأ لهم دمع، ولا انتفعوا بطعام ولا شراب».

---

(١) لكن فيه راوٍ ضعيف.

والمطلوب من الخائف من ربه أن يبتعد عن معاصي الله، والمطلوب من الراجي عفو الله أن يقترب مما يرضي الله.

وبعد أن يجمع المؤمن بين حالي الخوف والرجاء، عليه أن يعتقد كما ورد في الحديث الصحيح عند مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: سبقت رحمتي غضبي».

وأخرج مسلم أيضاً عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل خلق مئة رحمة، منها رحمة يتراحم بها الخلق، وتسع وتسعون ليوم القيامة».

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء، عن نبي الله ﷺ، عن جبريل عليه السلام عن ربه تبارك وتعالى قال: «قال ربكم: عبدي ما عبدتني ورجوتني، ولم تشرك بي شيئاً، غفرت لك ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بمثلها مغفرة، أغفر لك ولا أبالي».

أمثلة رائعة من رجاء الله تعالى

في سجل الصالحين المؤمنين الخالدين نماذج طيبة وأمثلة رائعة من رجاء الله تعالى في التوصل إلى رحمته ومغفرته، وتجاوز الذنوب والخطايا، وهي دروس وعبر نتعلم منها كيف يكون الأمل والرجاء وطلب العفو.

منها ما أخرجه أحمد في الزهد عن عون بن عبد الله، قال لقمان لابنه: «يا بني ارجُ الله رجاءً لا تأمن فيه مكره، وخف الله مخافة لا تيأس فيه من رحمته. قال: يا أبتاه، وكيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: المؤمن كذا له قلبان: قلب يرجو به، وقلب يخاف به».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت أوصى بنيه، فقال: إذا مِتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرّوني في الريح في البحر، فوالله لئن يقدر علي ربي، ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. ففعلوا به، فقال الله عز وجل للأرض: أدّي ما أخذتِ. فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتُك يا رب - أو قال: مخافتك - فغفَر له».

وروى أبو هريرة أيضاً في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هِرة ربطتها فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت». قال الزهري: هي لئلا يتكل أحد، ولا ييأس أحد.

وروى معاذ بن جبل[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن شئتم أنبأتكم بأول ما يقول الله للمؤمن يوم القيامة، وبأول ما يقولون؟». قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «يقول للمؤمن: هل أحببتم لقائي؟ قال: فيقولون: نعم يا ربنا. فيقول: لِمَ؟ فيقولون: رجونا عفوك ورحمتك. فيقول: إني قد أوجبت لكم رحمتي».

وقال ابن مسعود: «الكبائر: الإشراك بالله عز وجل، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رحمة الله»[2].

ومرّ ابن مسعود على قاصّ، وهو يُذكّر فقال: يا مذكّر لا تُقنط الناس، ثم قرأ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣][3].

---

(١) فيما أخرجه أبو داوود الطيالسي وأحمد والطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن أبي الدنيا في التوبة.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الله بن حميد وابن أبي الدنيا في حسن الظن وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ثابت البناني، قال: كان داوود عليه السلام يَذْكُر ذنوبه، فيخاف الله مخافةً تنفرج أعضاؤه ومفاصله من مواضعها، ثم يذكر رحمة الله على أهل الذنوب ورأفته بهم، فيرجع كل عضو إلى موضعه.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد أن النبي ﷺ خرج على رهط من أصحابه وهم يتحدثون، فقال: «والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». فلما انصرفنا أوحى الله إليه: يا محمد لم تقنطُ عبادي؟ فرجع إليهم فقال: «أبشروا، وقاربوا، وسدِّدوا». قال البيهقي رحمه الله: ففي هذا دلالة على أنه لا ينبغي أن يكون خوفه بحيث يؤيسه ويقنطه من رحمة الله، كما لا ينبغي أن يكون رجاؤه بحيث يأمن مكر الله، أو يجرّئه على معصية الله عز وجل.

ومن سنن الاعتدال والوسطية في الإسلام مراعاة أحوال الإنسان وظروفه، وضرورة التفاعل مع الواقع ومتطلبات النفس وحوائجها المباحة، وهذا منهاج سديد عملي، يتبين لنا فيما أخرجه مسلم عن حنظلة التميمي الأسيدي الكاتب قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فذكّرنا بالجنة والنار كأنهما رأي عين، فقمت وأتيت إلى أهلي، فضحكت ولهوت، فلقيت أبا بكر، فذكرتُ ذلك له، فقلت: يا أبا بكر، نافق حنظلة! فقال أبو بكر: وما ذاك؟ فأخبرته، فقلت: كنا عند رسول الله ﷺ، فذكّرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فقمت إلى أهلي، فضحكت ولعبت. فقال أبو بكر: إنا لنفعل ذلك، فأتيت النبي ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، إنا إذا كنا عندك تُذَكِّرنا بالجنة والنار كأنا رأي عين، فقمتُ إلى أهلي، فضحكت ولعبت. فقال النبي ﷺ: «يا حنظلة ساعةً وساعةً، لو كنتم تكونون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في بيوتكم وعلى فرشكم، يا حنظلة ساعةً وساعةً».

قال الفضيل بن عياض - فيما أخرجه البيهقي في الشعب -: ما يسرّني أن أعرف الأمر حق معرفته، إذاً لطاش عقلي.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي سليمان الداراني يقول: لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك، ولئن طالبتني بتوبتي لأطالبنك بسخائك، ولأن أدخلتني النار لأخبرن أهل النار أني أحبك.

وقال بعض الحكماء في مناجاته - فيما ذكره البيهقي في الشعب -: إلهي لو أتاني الخبر أنك غير قابل دعائي ولا سامع شكواي، ما تركتُ دعاءك ما بل ريقي لساني، أين يذهب الفقراء إلا إلى الغني؟ وأين يذهب الذليل إلا إلى العزيز؟ أنت أغنى الأغنياء وأعز الأعزاء يا ربّ.

لمن يكون الرجاء؟

الخوف الحقيقي لا يكون إلا من الله تعالى، وكذلك الرجاء وطلب العفو لا يكون إلا من الله سبحانه، لأنه لا يملك أحد من دون الله ضراً ولا نفعاً، ولا يكشف الضر، ولا يجلب النفع إلا الله عز وجل.

يرشد لهذا المعنى حديث مهم جداً، أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس ﵄ قال: كنت رديف النبي ﷺ، فقال: «يا غلام أو يا بني أوَلَا أعلّمك كلمات ينفعُك الله بهن؟» قلت: بلى. قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلْق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك، لم يقدروا عليه، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على

ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

ومن أمثلة توجه الرجاء لله وحده موقف إبراهيم عليه السلام حينما ألقاه النمروذ وبطانته في النار، أخرج ابن جرير الطبري عن بشر بن الحارث قال: لما رُفع إبراهيم ﷺ ليُلْقَى في النار، عَرَض له جبريل عليه السلام، فقال: يا إبراهيم، هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

والله سبحانه هو الذي بيده تحقيق الأمل إما عاجلاً وإما آجلاً، فقد أخرج أبو داوود والترمذي وقال: حديث صحيح غريب[1] عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «من نزلت به حاجة فأنزلها بالناس لم تسدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله تعالى له بالغنى، إما أجلٍ عاجل، وإما غنى عاجل».

وأخرج البخاري عن ابن عباس قال: لما أُلقي إبراهيم في النار قال: حسبي الله ونعم الوكيل، وكذلك قال محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣].

ومن أخبار الصالحين في رجاء الله ما قال يحيى بن معاذ فيما ذكره البيهقي في الشعب: ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء.

وأخرج السُّلَمي في طبقات الصوفية عن أبي عثمان يقول: «الموفَّق من لا يخاف غيرَ الله، ولا يرجو غيره، فيُؤثر رضاه على هوى نفسه».

وأخرج السلمي أيضاً عن أبي يعقوب النهرجوري يقول: «من كان شِبعه بالطعام لم يزل جائعاً، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً، ومن قصد بحاجته الخلق لم يزل محروماً، ومن استعان في أمره بغير الله لم يزل مخذولاً».

---

(١) وأخرجه أيضاً أحمد وأبو نعيم في الحلية.

وصِدْق الطلب والدعاء إلى الله والثقة به يحقق المطلوب، أخرج البيهقي عن الليث بن سعد قال: رأيت إسماعيل بن عقبة بصيراً، ثم رأيته قد عَمي، ثم رأيته بصيراً، فقلت: أليس رأيتك بصيراً، ثم عميت، ثم أبصرت؟ قال: نعم. قلت: وبِمَ ذلك؟ قال: رأيت في المنام، فقيل لي: قل: يا قريب يا مجيب، يا سميع الدعاء، يا لطيف لما يشاء. فقلتها، فرُدَّ علي بصري.

وأخرج التنوخي في «الفرج بعد الشدة» عن سعيد بن عنبسة بن سعيد قال: بينما رجل جالس في الكعبة، وهو يعبث بالحصا، ويخذفها إذ رجع حصاةٌ منها، فصارت في أذنه، فعالجوه بكل الحيل، فلم يقدروا على إخراجها، فبينما هو ذات يوم جالساً، إذ سمع قارئاً يقرأ هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٢] فوثب الرجل، فقال: يا رب أنت المجيب، وأنا المضطر، اكشف ضر ما أنا فيه. فنَدَرت الحصاة من أذنه.

وفي قصة مشابهة ذكرها البيهقي في الشعب عن أبي علي الدقاق يقول: كان بي رمد في ابتداء أمري، وما نعست مدة من الوجع، فنعست لحظة، فسمعت قائلاً يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٦] فانتبهت وزال الوجع في الوقت وما رمدت عيني بعده قط.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يسأله يغضب عليه».

وعن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٩] قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[١].

---

(١) أخرجه الحسن بن سفيان في مسنده وابن جرير، والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي.

الثقة برجاء الله تعالى

إذا وثق المؤمن بقدرة الله سبحانه وتعالى وفضله وإحسانه، وتعلق رجاؤه بالله جل جلاله جاز له أن يسأل الله كل ما يحتاج إليه صغيراً أو كبيراً، لأن جميع الأشياء بيد الله تعالى، لا قاضي للحاجات غيره، قال الله عز وجل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] فالله كريم معطاء، يجيب دعاء الداعي المخلص إذا دعاه.

أخرج الترمذي وقال: حسن صحيح، وأبو داوود وابن ماجة عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الدعاء هو العبادة». ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] الآية.

وأخرج الترمذي أيضاً وقال: حسن غريب وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ليس شيء أكرمَ على الله من الدعاء». وعن الأوزاعي قال: «أفضل الدعاء الإلحاح على الله عز وجل والتضرع إليه»(١). فالإلحاح في الدعاء دليل الثقة بالله.

وأخرج أحمد في الزهد عن مورق العجلي قال: «ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا كمثل رجل في البحر على خشبة، فهو يدعو: يا ربّ، يا ربّ، لعل الله ينجيه».

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات مرفوعاً وموقوفاً عن سلمان الفارسي قال: «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال: يا آدم واحدة لي

---

(١) هو من قول الأوزاعي وهو الصحيح كما ذكر البيهقي.

وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك. فأما التي هي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً؛ وأما التي هي لك فما عملت من شيء جزيتك به، وأن أغفر فأنا الغفور الرحيم؛ وأما التي بيني وبينك فمنك المسألة والدعاء ومني الإجابة والعطاء»[١].

وأخرج الأصبهاني في الترغيب، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تظهر فتنة لا ينجِّي منها إلا الله عز وجل، أو دعاء كدعاء الغَرْقَى».

وفي رواية عن حذيفة مرفوعاً قال: «يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق».

وترغيباً من الله تعالى في توجه عبده إليه، دون وجل ولا استحياء، يفتح الله باب قبول الدعاء حتى في أصغر الأمور، أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يسأل أحدكم ربَّه حاجته كلها، حتى يسأله شِسْع نعله إذا انقطع»[٢] أي رباط النعل.

وفي حديث مقارب ذكره البيهقي في الشعب عن بكر بن عبد الله المزني يقول: كان النبي ﷺ يقول: «سلوا الله حوائجكم حتى الملح»[٣].

وفي حديث عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يُصيب بها من يشاء من عباده، وسلوا الله أن يَسْتُر عوراتكم ويُؤَمِّنَ روعاتكم»[٤].

والمحفوظ من رواية هذا الحديث ما أخرجه البيهقي وابن عساكر في

---

(١) هذا موقوف.
(٢) أسنده بعضهم، وأرسله بعض آخر.
(٣) قال البيهقي: هكذا جاء به مرسلاً.
(٤) أخرجه الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية.

تاريخ دمشق عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله».

وأخرج ابن عدي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل من فضله، وأفضل العبادة انتظار الفرج».

هذه الآثار والأحاديث ترشد إلى أن الله تعالى يحب من عباده أن يتضرعوا إليه، ويهرعوا إلى جنابه سائلين كل ما فيه الخير أو دفع الشر والفساد، أو الحماية من كل سوء.

وإجابة السؤال أو الدعاء مشروط بشرطين: هما إجابة ما طلبه الله منهم بإخلاص، والعمل بما أمرهم به من الإيمان به والعمل الصالح، ونصت الآية الكريمة على هذين الشرطين وهي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦] أي لكي يهتدوا إلى العمل الذي فيه خير الدنيا والآخرة. والقرب من الله لعباده مجاز، بمعنى أنه لا حجاب بينه وبين عباده، يجيب دعاء الداعين إذا دعوه.

أركان الدعاء وآدابه وأوقاته وأحواله ومواطنه

الدعاء طلب الحاجة من الله تعالى، كأن يقول القائل: يا الله، أو يا رحمن، أو يا رحيم وما أشبه ذلك، اغفر لي وارحمني. ويسمى أيضاً نداء، كما في وصف دعاء زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ١٩/٣] ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٩]، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ﴾ [آل عمران: ٣/٣٨] ومعنى «رب» يا رب، فثبت أن الدعاء نداء، والنداء دعاء.

أركان الدعاء

١- أن يكون المرغوب فيه ملائماً لقدر السائل، فلا يتشبه بإبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٠] ولا يتشبه بموسى عليه السلام قائلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٣] ولا أن يتشبه بعيسى عليه السلام قائلاً: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٤]. فهذا من خصائص الأنبياء عليهم السلام، ولكن إذا دعا كما دعا نوح عليه السلام قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/ ٢٦] جاز. ويجوز لضرورة من جوع أو برد شديد أو كشف ضر أو مرض ونحو ذلك.

٢- ألا يكون فيه حرج فيما يسأل.

٣- أن يكون له في السؤال غرض صحيح أو مشروع.

٤- أن يكون حَسَنَ الظن بالله عز وجل.

٥- أن يدعو الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٠].

٦- أن يسأل بجدّ وحقيقة، ولا يختار شيئاً مؤلفاً فيسرده سرداً، وهو عنه غافل.

٧- ألا يشغله الدعاء عن فريضة حاضرة حتى لا يفوّتها.

٨- أن يكون سؤاله حقيقة، لا اختباراً لربه عز وجل.

٩- أن يصلح لسانه إذا دعا، فلا يخاطب ربه كما يخاطب قرينه.

١٠- ألا يدعو متضجراً إن أجيب وإلا ترك، بل يدعو متعبداً متخشعاً ملازماً الدعاء إلى أن يجاب.

١١- أن يسأل الصغيرة والكبيرة سؤالاً واحداً موقناً بالإجابة.

وآداب الدعاء كثيرة منها الجدّ في الطلب والإلحاح. والمحافظة على الدعاء في الرخاء أو حال الشدة، وأن يعزم في المسألة. وأن يدعو ثلاثاً. وأن يقتصر على جوامع الدعاء ما لم تعرض له حاجة بعينها فيذكرها. وأن يدعو وهو طاهر، ومستقبل القبلة، وفي دُبُر صلواته، وأن يرفع اليدين حتى يحاذي بهما المنكبين. وأن يخفض صوته. وأن يمسح وجهه بيديه إذا فرغ من الدعاء. وأن يحمد الله عز وجل إذا عرف الإجابة. وألا يُخْلي يوماً ولا ليلة من الدعاء.

وأوقات الدعاء هي أن يتحرى مواطن الإجابة مثل ما بين الظهر والعصر يوم الأربعاء، وما بين زوال الشمس من يوم الجمعة إلى الغروب، وفي الأسحار (في ثلث الليل الأخير) وعند تفيؤ الأفياء، ويوم عرفة.

وحال النداء للصلاة، وحين فطر الصائم، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفين، وعند اجتماع المسلمين على الدعاء، وفي أدبار المكتوبات، وعند القيام من المجلس.

ومواطنه الموقفان موقف عرفة والمزدلفة، والجمرتان الكبرى والصغرى، وعند البيت الحرام، والملتزم خاصة (ما بين الحَجَر وباب الكعبة) وعلى الصفا والمروة.

والدعوات المستجابة خمس أخرج الطبري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «خمس دعوات يُستجاب لهن: دعوة المظلوم حتى يَنْتَصر، ودعوة الحاج حتى يَصْدُر (يعود) ودعوة المجاهد حين يَقْفُل، ودعوة المريض حين يبرأ، ودعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب» وأسرع هذه الدعوات إجابة دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب.

والإجابة مفوضة لله تعالى، لما أخرجه أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مؤمن ينصُب وجهه لله، يسأله مسألة إلا أعطاه

إياها إما عجَّلها له في الدنيا، وإما أخرها له في الآخرة ما لم يَعْجَل، يقول: قد دعوتُ ودعوتُ فلا أراه يستجاب».

وأخرج مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أنه كان يقول: « ما من داعٍ إلا كان بين إحدى ثلاث: إما أن يُستجاب، وإما أن يؤخر عنه، وإمّا أن يُكفَّر عنه» .

وفي وراية، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها مأثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يستجيب له دعوته، أو يصرف عنه من الشر مثلها، أو يُدَّخر له من الأجر مثلها»[1].

وإطابة المطعم شرط للإجابة، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله عز وجل أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يده إلى السماء: يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنى يستجاب له؟»

وفسر أبو بكر الشبلي قوله عز وجل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠] بقوله: ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة.

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري في الأدب، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

الأصل الثالث عشر من أصول الإيمان

التوكل على الله

من أصول الإيمان أو شعب الإيمان التوكل على الله عز وجل في كل أمر من أمور الحياة، ومعنى التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به، بعد اتخاذ الأسباب. فإذا تعاطى الإنسان الأسباب العادية من عمل وسعي وأداء مطلوب بحسب المعتاد، ثم فوض الأمر إلى الله تعالى في إنجاح عمله أو سعيه وتحقيق مراده، كان متوكلاً على الله. فليس معنى التوكل هو التواكل وإهمال العمل، فهذا تعطيل لمسعى الإنسان. إن من أراد النجاح في أي مشروع يريد تحقيقه، وبَذَل المساعي المناسبة له، ثم توكل على ربه في إنجاح مراده كان متوكلاً.

وقد أمرنا الله عز وجل بالتوكل في آيات، منها قول الله لنبيه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٠] وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣] أي كافيه ومنجز له مطلبه.

ومن أمثلة توكل السلف الصالح ما كان منهم في حال الشدة في غزوة حمراء الأسد بعد غزوة أحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ

﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٧٣].

ومن تعاطي الأسباب تناول الدواء واستئصال موضع الداء، فقد أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مِحْجَم، أو شَرْبة عسل، أو كيَّة بنار، وأنا أنهى عن الكيّ». أي إنه مكروه.

والنهي في أحاديث أخرى عن الكي أو الرقية يقصد به التنبيه إلى ضرورة التوكل على الله، وأن الاعتماد على مجرد الكي أو الاسترقاء دون اعتماد على الله تعالى إهمال للتوكل، وقد يكون النهي عن الاسترقاء مراداً به ما لا يعرف من كتاب الله عز وجل، أو منعاً من الشرك.

وكذلك التطير بزجر الطائر أو إزعاجه عن وِكْره عند إرادة الخروج للحاجة، هو من فعل أهل الجاهلية الذين يعتقدون ذلك، ويهملون تدبير الله عز وجل، فمن فعل ذلك من أهل الإسلام استحق الوعيد دون الثناء، فنهي عنه شرعاً.

أخرج أبو داوود والترمذي(١) وابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الطيرة شِرْك، وما منا إلاّ، ولكن الله يُذهبه بالتوكل». وجملة «وما منا إلاّ» هي من قول ابن مسعود، وليس من قول النبي ﷺ، والمراد منه: وما منا إلا وقع في قلبه شيء من ذلك بحسب العادة والتجربة، لكن ينبغي طرد هذا التصور، والاعتقاد أن لا مدبر في الوجود سوى الله تعالى، فيسأل الله الخير، ويستعيذ به من الشر، ويتوكل على الله عز وجل، كما روى البيهقي عن النبي ﷺ قال: «إذا أُريت من الطيرة ما تكره، فقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

---

(١) وقال: حسن صحيح.

والفأل الحسن بالاسم الحسن والبلدة الطيبة ونحو ذلك جائز ومطلوب شرعاً، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم» فالبشارة بالخير، والاسم الجميل، واسم البلدة الحسن من الفأل الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه ويرغب فيه.

والتوكل على الله - كما تقدم - مقترن بتعاطي الأسباب، لما أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو توكلتَ على الله حق توكله، لرزقت كما يُرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وفي رواية: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزُق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً». أي تذهب في الصباح جائعة، فتبحث عن رزقها، وتعود مساء شبعانة.

وعلى طالب الرزق البحث عن الكسب الحلال واجتناب الحرام، لما روي عن مجاهد[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: ٤/٢] قال: لا تعجل الرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قد قدِّر لك.

وأخرج البيهقي عن المطلب بن حَنْطب أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت شيئاً مما أمركم به الله، إلا وقد أمرتكم به، وما تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد نفَث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تستبطؤوا الرزق، فإنه لم يكن عبد يموت حتى

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي.

يبلغه آخر رزق هو له، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب من الحلال، وترك الحرام».

وإجمال الطلب هو أن يطلبه من الحلال معتمداً على الله عز وجل، ولا يلاحظ في طلبه قواه ومكايده وحِيله، ولا يطلبه من الحرام.

التوكل والعمل

العمل المطلوب في كل شيء، سواء في طلب الرزق، أو تحقيق الآمال، أو التزود لخيري الدنيا والآخرة، وهو أمر واجب، وسعي مطلوب، وشرط لصحة التوكل على الله تعالى، وهذا ما تقوم به الحياة، ويتقبله العقلاء، وينتهجه أهل الإيمان، وتستقيم به الأمور الدينية والدنيوية.

وذلك للأدلة الواضحة والتوجيهات التشريعية في القرآن الكريم والسنة النبوية، منها قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥] وأوضحت السنة ضرورة السعي والعمل، وملازمة التؤدة والتعقل في كسب الرزق، أخرج البخاري في الأدب المفرد عن الزهري قال: حدثني رجل من بُلَيّ قال: انطلقت مع أبي إلى النبي ﷺ فناجى أبي دوني، فقلت لأبي: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: قال: «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك مخرجاً، أو قال: فرجاً».

وأخرج البيهقي وغيره[1] عن خالد بن رافع أن رسول الله ﷺ قال لابن مسعود: «لا تكثر همك، ما يقدَّر يكن وما تُرزق يأتك».

(١) رواه أيضاً البغوي وابن أبي الدنيا وأبو نعيم وابن عساكر، وقال البغوي عن خالد بن رافع: لا أدري له صحبة أم لا.

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرزق يطلب العبد كما يطلبه أجله». والمراد بهذا ـ والله أعلم ـ أن ما قدِّر له من الرزق يأتيه، فليثق به، ولا يجاوز الحد في طلبه.

وأخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجّون ولا يتزوَّدون[1]، ويقولون: نحن متوكلون، فيحجّون إلى مكة، فيسألون الناس فأنزل الله عز وجل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧]. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: وفي هذا أن الله تعالى أمر زوَّار بيته بالتزود، وقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ يعني - والله تعالى أعلم - فإن خير الزاد ما عاد على صاحبه بالتقوى.

فعلى كل مسافر أن يُعد ما يحتاجه في سفره لأي مكان، في البادية والحقل والمعمل وغير ذلك، وألا يتوكل على أزواد الناس فيؤذيهم ويضيِّق عليهم، وهذا ما منعت منه الآية الكريمة المتقدمة، فلا معنى لاستحباب ترك الزاد، وإنما المستحَب هو التزود، أو الجلوس من غير ارتحال إذا لم يكن زاد حتى يكون.

والصدقة لا تكون لغني أو قادر على العمل، لما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سوي». وفي حديث آخر: «لا حق فيها لغني ولا لذي مِرَّة مكتسب». أي ذي قدرة على العمل، وهذا يدل على ضرورة اقتران التوكل بالعمل المعبر عن عزة الإنسان وكرامته .

والتداوي من الأسباب التي لا بد منها للحفاظ على الحياة، وهو لا يتنافى ولا يتعارض مع التوكل على الله، لأن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه، على الرغم من تناول الدواء، قال تعالى حاكياً على لسان

---

(١) لا يحملون الزاد معهم.

إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٠] وأخرج أبو داوود والترمذي[١] وابن ماجه من حديث أسامة بن شَريك أن النبي ﷺ قال: «تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا الهرم». وأمر النبي ﷺ بالاسترقاء بالقرآن وأذن فيه، وقال: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه». وأخرج الحاكم في المستدرك[٢] من حديث أبي خزامة عن أبيه أنه قال: يا رسول الله، أرأيت أدوية نَتَداوى بها، ورقىً نسترقي بها، وتُقىً نتقيها، هل يرد ذلك من قدر الله من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه من قدر الله».

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: وهذا هو الأصل في هذا الباب، وهو أن يستعمل هذه الأسباب التي بيَّنها الله تعالى لعباده وأذن فيها، وهو يعتقد أن المسبِّب هو الله سبحانه تعالى، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله عز وجل، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة، مع استعماله السبب، فتكون ثقته بالله عز وجل، واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب. وهذا الكلام الرائع هو عقيدة أهل السنة بالإجماع.

وأخرج الحاكم[٣] في المستدرك، عن عمرو بن أمية الضمري قال: يا رسول الله أُرسل راحلتي وأتوكل؟ قال: «بل قيّدها وتوكل». وعند ابن حبان بلفظ: «اعقلها وتوكل». أي اربطها برباط أو حبل.

---

(١) وقال: حسن صحيح.

(٢) وقال الذهبي: صحيح.

(٣) وقال الذهبي: سنده جيد.

التوكل والتواكل

يخلط العوام والجهلة بين مفهوم التوكل الذي هو من أصول الإيمان والتواكل المعبر عن الكسل والاسترخاء، بل وسوء الفكر والتدبير، فالتوكل على الله تعالى استمداد العون والقوة من الله، والثقة بفضل الله وتيسيره وتذليله الصعاب بعد أداء العمل المطلوب، والتواكل أمارة على التخلف والتقصير وسوء التصرف والاعتماد على جهد الآخرين، وصيرورة الإنسان عالة على غيره.

جاء في كتاب المنهاج للحليمي من الآثار عن معاوية بن قُرة، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى على قومه فقال: ما أنتم؟ قالوا: نحن المتوكّلون. قال: بل أنتم المتّكلون[١]، ألا أخبركم بالمتوكلين؟ رجل ألقى حبة في بطن الأرض ثم توكل على ربه.

وروى البيهقي عن عمر أن قال: يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم فقد اتضح الطريق، استبقوا الخيرات، ولا تكونوا عالة على المسلمين.

وأخرج الحليمي في المنهاج عن سعيد بن المسيب قال: «من لزم المسجد، وقبل كلما يُعطى، فقد ألحف في المسألة». أي ألحّ في السؤال.

وما أعظم هذا المثل الرائع في صون عزة المؤمن، فيما أخرجه البخاري ومسلم عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جده (أي الزبير) قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي الجبل، فيجيء بحُزمة

---

(١) أي المعتمدون على أموال الناس.

من الحطب على ظهره، فيبيعها، فيستغني بها، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

وأخرج البخاري في الصحيح عن المقدام بن معدي كرب عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، قال: وكان داوود لا يأكل إلا من عمل يده».

وأخرج البيهقي في حديث مرسل[١] عن سعيد بن عمير الأنصاري قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الكسب أطيب؟ قال: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»[٢].

وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين المسلم مع الشهداء يوم القيامة».

وأخرج البيهقي عن السَّكَن مرفوعاً قال: «طلب الحلال مثل مقارعة الأبطال في سبيل الله، ومن بات عييّاً من طلب الحلال، بات والله عز وجل عنه راضٍ».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا - أو التمسوا - الرزق في خبايا الأرض»[٣]. أراد به الحرث (الفلاحة) وإثارة الأرض للزراعة.

وأخرج أحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير الكسب كسب يدي العامل إذا نصح».

وأخرج ابن عدي عن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب المؤمن المحترف».

---

(١) ما رواه غير الصحابي قائلاً: قال رسول الله ﷺ.
(٢) رواه أيضاً الحاكم.
(٣) لكن فيه راوٍ ضعيف.

وأخرج البيهقي عن نافع، قال: دخلت على عائشة حين كنت أجهز إلى العراق، فقالت: يا بني، الزم تجارتك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا فُتح لأحدكم رزق من باب فليلزمه».

وأخرج الحاكم في المستدرك وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «إن هذا المال خَضِرة حُلْوة، فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة»[(١)]. وفي لفظ آخر: «فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ونعم صاحب المال من أعطى فيه المسكين واليتيم وابن السبيل».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الليث بن سعد، عن سعيد بن المسيب (مرسلاً) قال: «لا خير فيمن لم يُحب المال يصل به رحمه، ويؤدي به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه عز وجل».

وذكر البيهقي عن أبي بكر الصديق ﷺ قال: «دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك، ولا خير في أمر بلا درهم».

وأخرج البخاري تعليقاً في الصحيح عن خالد بن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال أعرابي: يقول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤] الآية، قال ابن عمر: من كنزهما فلم يؤد زكاتهما، فويل له، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال. ثم التفت إليّ، فقال: ما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً، أعلم عدده، وأزكّيه، وأعمل فيه بطاعة الله.

هذه آثار وأحاديث ترشد جميعها إلى مشروعية جمع المال، وبذل

---

(١) وهو مخرَّج في الصحيح.

الجهد والعمل وقرن العمل بالتوكل، ووصف الكسل والاتكال على مال الآخرين بأنه تواكل مذموم، وما أحسن ما أختم به مما رواه أبو داوود عن عوف بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «إن الله يلوم على العجز[1]، ولكن عليك بالكيس[2]، فإن غلبك أمر، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

الحض شرعاً على العمل مع التوكل

حث الشرع الإسلامي على متابعة العمل للقادر عليه، مصحوباً بالتوكل على الله سبحانه في تحقيق الأسباب والوصول إلى النتائج والغايات، فذلك عين الشرع، ومطلب العقل، وأساس الكرامة، وعزة النفس، قال الله تعالى واصفاً العاملين: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠].

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي عن مسروق في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢-٣] قال: مخرجه أن يعلم أن الله يرزقه، وهو يعطيه، وهو يمنعه. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣] قال مسروق: ليس كل من توكل على الله كفاه، إلا أنه من توكل على الله يكفِّر عنه من سيئاته، ويعظم له أجراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فيمن توكل على الله، ومن لم يتوكل: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي أجلاً.

فهذا الأثر الذي فسرت به الآيات يجمع بين المطالبة بالعمل، والتوكل وحسن الاعتماد على الله الذي بيده وحده تحقيق الأهداف.

---

(١) الاستضعاف عن الاكتساب والتعيش، لا العجز القاهر.

(٢) المراد الفطنة لموارد الرزق.

وهذا يوضحه ما رواه البيهقي عن سالم بن عبد الله يقول: «من طعن في الاكتساب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان».

وروى أبو نعيم في الحلية عن عقبة بن أبي زينب قال: «مكتوب في التوراة: تتوكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت».

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوكل عن صالح بن شعيب قال: «أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: أنزلني من نفسك كحياتك، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرَّب إلي بالنوافل أُدْنك، وتوكل علي أكْفك، ولا تولّ غيري فأخذُلك».

وروى البيهقي في الشعب عن إبراهيم بن شيبان (من الصوفية) يقول: «حسن الظن بالله هو الإياس عن كل شيء سوى الله عز وجل».

وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ قال: خير مالي ثقتي بالله تعالى، وإياسي مما في أيدي الناس.

وأخرج البيهقي في الشعب عن يحيى بن معاذ يقول: «من طلب الفضل من غير ذي الفضل ندم، وأن ذا الفضل هو الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٣]».

وأخرج البيهقي أيضاً عن معروف الكرخي حين طلب إليه إبراهيم البكّاء أن يوصيه، فقال: «توكل على الله عز وجل حتى يكون هو معلّمك وموضع شكواك، فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك».

وقال سعيد بن جبير: «التوكل على الله عز وجل جَمَاع الإيمان». أي مجموعه.

وروى البيهقي عن عامر بن قيس أنه كان يقول: ثلاث آيات في كتاب الله عز وجل، اكتفيت بهن عن جميع الخلائق:

أولهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠/١٠٧].

والآية الثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٣٥/٢].

والآية الثالثة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ١١/٦].

والرزق مكفول لكل مخلوق في الحياة، روى البيهقي: قيل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٧].

وأخرج البيهقي أيضاً عن سفيان الثوري قال: قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٢٢]. فقال: رزقي في السماء، وأنا أطلبه في الأرض، والله لا أطلبه في الأرض أبداً، فدخل خربة بالكوفة، فلم يأته يومين شيء، فلما كان اليوم الثالث إذا هو بدَوْخَلة[1] من رطب، وكان له أخ أحسن نيةً منه، فأصاب دوخلتين، فكان ذلك حالَهما، حتى فرق الموت بينهما.

وذكر البيهقي قصة بين الأصمعي وأعرابي، قال الأعرابي للأصمعي: اتْل علي شيئاً من القرآن، فتلا عليه سورة الذاريات، حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فصاح الأعرابي، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، قد وجدنا ما وعدنا ربناً حقاً. ثم قال الأعرابي: يا أصمعي هل غير هذا للرحمن كلام؟ قلت: نعم يا أعرابي، يقول الله عز وجل: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٢٣] فصاح الأعرابي عندها، وقال: يا سبحان الله، من ذا أغضب الجليل حتى حلف؟ فلم يصدِّقوه بقوله، حتى ألجؤوه إلى اليمن، قالها ثلاثاً، وخرجت نفسه.

(١) الدوخلة ما ينسج من الخوص، ويجعل فيه الرطب، بتشديد اللام وتخفيفها.

الأصل الرابع عشر من أصول الإيمان

حبّ النبي ﷺ

إن كل عمل لا يكون متقناً ولا سليماً إلا إذا صدر من حب لهذا العمل، سواء أكان دينياً أم دنيوياً، أما في الدنيا فالأمر واضح، فإن إتقان الحرفة أو الصنعة والتفوق فيها لا يتوافر إلا إذا كان ذلك نابعاً عن حب لها وانسجام معها. والنبوغ في العلوم لا يكون إلا عن حب لها أيضاً. وأما الشؤون الدينية فهي أحوج إلى المحبة لها من أي شيء آخر، وذلك لارتباطها بصحة الإيمان والتقرب من الله سبحانه وتعالى، وعليه كان حب الله وحب رسوله أمرين واجبين لتحقيق أصول الإيمان، والانتفاع به والإحساس بروعته وعظمته. وقد تقدم الكلام عن فرضية حب الله. أما حب رسول الله ﷺ فكذلك هو أمر مفروض ومن شعائر الإيمان وأساسياته التي لا بد منها، وحب الله ورسوله الذي يكلَّف به الناس وغيرهم من الجن والملائكة يعني الطاعة والانقياد لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]. وحب الله ورسوله مقدم على أي حب في هذا الوجود.

وأكدت السنة النبوية على مدلول محبة الرسول، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين».

وفي حديث آخر أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده والبيهقي من طريقه عن أنس بن مالك أيضاً أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يقذف الرجل في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، وأن يحب الرجلُ العبدَ لا يحبه إلا لله»(١).

وأسباب المحبة لله ورسوله كثيرة، مادية ومعنوية، حسية وعاطفية، لما أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي، وكذا البيهقي من طريق الحاكم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذُوكم به من نِعَمه(٢)، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي».

وثمرة محبة الله ورسوله عظيمة جداً، وهي الظفر بدخول الجنان، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: متى الساعة؟ فقال: «ما أعددتَ لها؟» فقال: لا، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت».

والمحبة تقتضي طاعة المحبوب كما تقدم، لما أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقال: لأنت أحب إلي من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أني آتيك، فأراك لخشيت أني سأموت. وبكى الأنصاري، فقال له النبي ﷺ: «ما أبكاك؟» قال: ذكرت أنك ستموت ونموت فتُرفع مع النبيين، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك. فلم يخبره النبي ﷺ بشيء، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٤/٦٩] إلى قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ فقال له النبي ﷺ: «أبشر».

---

(١) وأخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين بلفظ آخر.

(٢) أي يربيكم على النعمة.

ومحبة الله والرسول أسمى شيء في الحب، وهي مقدمة على كل شيء حتى على النفس، لما أخرجه البخاري من واقعة فاصلة، عن عبد الله بن هشام، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: والله يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال عمر: فأنت الآن - والله - أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر».

وأخرج البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده».

وهناك أسباب عامة وخاصة لتميز محبة الرسول ﷺ، وأولها: المرتبة العظمى وهي النبوة والرسالة، وهي رسالة عامة للثقلين الإنس والجن، وأنه خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وأكرمهم في الدنيا أعلاماً، وأحمدهم في الآخرة مقاماً، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع ومشفَّع، وهو صاحب اللواء المحمود، وصاحب الحوض المورود، وأقسم الله بحياته، ولم يخاطبه باسمه في القرآن ولا بكنيته، بل دعاه باسم النبوة والرسالة، واصطفاه بذلك على الجماعة.

وأما الأسباب الخاصة فكثيرة، وهي شرف أصله وطهارة مولده، وأسماؤه التي اختارها الله له وسماه بها، وإشادة الله تعالى بذكره قبل أن يخلقه، وحسن خَلْقه وخُلقه، وكرم خصاله وشمائله، وبيانه وفصاحته، فقال «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الحديث اختصاراً». ومن خصائصه حدبه على أمته ورأفته بهم، وخيراته لهم في الدنيا، وشفاعته لهم في الآخرة. وزهده في الدنيا وصبره على شدائدها ومصائبها.

شرف الأصل النبوي وطهارة المولد

يتميز الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بطهارة مواليدهم وشرف أصولهم، حتى يكونوا في القمة والرفعة بين الناس، مما يستدعي قبول دعواتهم ورسائلهم. ومن هذا الأصل العام كان نبينا عليه الصلاة والسلام شريف الأصل، طاهر المولد، لم يكن أحد من آبائه وأجداده من سفاح، وإنما من نكاح مشروع.

وهذا ما نجده في السنة والسيرة النبوية أوضح الواضحات، فقد أخرج البيهقي رحمه الله في دلائل النبوة عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك دعوةُ إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْن، وإن أم الرسول ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام».

وأما دعوة إبراهيم عليه السلام فإنه لما أخذ في بناء البيت، دعا الله تعالى، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩/٢] فاستجاب الله دعاءه في نبينا محمد ﷺ.

وأما بشارة عيسى عليه السلام فهو أن الله تعالى أمر عيسى عليه السلام، فبشر به قومه، فعرَّفه الحواريون بني إسرائيل قبل أن يُخلق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦].

والاحتفاء بمولده ﷺ يوم الاثنين لولادته فيه، لما أخرج مسلم

والبيهقي عن أبي قتادة الأنصاري، عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: يا رسول الله، صوم يوم الاثنين؟ قال: «فيه ولدت، وفيه أنزل علي القرآن».

وفي حديث آخر للبيهقي عن محمد بن إسحاق قال: «وُلد رسول الله ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول». وكانت ولادته عام الفيل.

وأخرج البيهقي عن محمد بن إسحاق عن والده إسحاق بن يسار في خبر طويل جاء فيه أن آمنة بنت وهب حين حملت بمحمد من أبيه عبد الله، قيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة. وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بُصْرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمداً، فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد، فسمِّيه بذلك.

وعمود النسب النبوي معروف ينتهي إلى عدنان، وما وراء ذلك فليس فيه شيء يعتمد. وأقرب الناس برسول الله ﷺ بنو عبد المطلب بن هاشم، وهم آل العباس وآل أبي طالب وآل الحارث وآل أبي لهب.

وأبو طالب وعبد الله أبو رسول الله ﷺ أخوان من أم دون بني عبد المطلب. وبنو عبد شمس والمطلب وهم إخوة هاشم بن عبد مناف لأبيه وأمه .

ووَلَد عبد المطلب عشرةَ نفر وستَ نسوة. قال إبراهيم بن المنذر: فولَد عبد الله بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ سيّد ولد آدم محمد بن عبد الله، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر.

ثم قال إبراهيم بن المنذر: ورسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه.

أخرج مسلم والبيهقي عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه».

وأخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق السماوات سبعاً، فاختار العليا منها، فأسكنها من شاء من خلقه، ثم خلق الخلق، فاختار من خلقه بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مُضَر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خِيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] قال: شرف لك ولقومك.

وأخرج البيهقي عن محمد بن علي مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل أخرجني من النكاح، ولم يخرجني من السفاح».

أسماء النبي ﷺ ومعانيها

للنبي المصطفى ﷺ أسماء عديدة، منها خمسة ذكرت في حديث أخرجه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفار، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي[1]، وأنا العاقب، والعاقب ليس بعده نبي».

وفي حديث آخر أن الأسماء ستة فقد أخرج مسلم عن نافع بن جبير بن مطعم أنه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أتحصي أسماء رسول الله ﷺ التي كان جبير بن مطعم يعدّها؟ قال: نعم، هي ستة، هي محمد، وأحمد، وخاتم، وحاشر، وعاقب، وماحي، فأما حاشر فبُعث مع الساعة نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وأما عاقب فإنه عقب الأنبياء، وأما ماحي فإن الله عز وجل محا به سيئات من اتبعه.

وفي رواية أخرى في حديث أخرجه مسلم والبيهقي عن أبي موسى الأشعري، قال: كان رسول الله ﷺ سمَّى لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والحاشر، والمُقَفِّي، ونبي التوبة، والمَلْحمة».

قال الحليمي رحمه الله: من تأمل علم أنه ليس من أسماء الناس اسم يجمع من الحسن والفضل ما يجمعه محمد وأحمد، لأن محمداً هو المبالَغ في حمده، والحمد في هذا الموضع المدح، وأحمد هو الأحق بالحمد، وهو المدح أيضاً.

---

(١) أي أنا متقدمهم وهم ورائي، فأنا أول من يبعث من القبر.

وأخرج ابن حبان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله، انظروا كيف يَصْرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مُذَمّماً وأنا محمد، ويلعنون مذمَّماً وأنا محمد»(١).

والحاشر أول من يبعث من القبر، وكل من عداه فإنما يبعثون بعده، وهو أول من يُذْهَب به إلى المحشر، ثم الناس بعده على أثره.

والماحي الذي يمحو الله به السيئات لأتباعه، وإنما سمي النبي ﷺ بالحاشر والماحي لأن الله تعالى جعل حشره سبباً لحشر غيره، ونبوته سبباً لإزهاق الباطل كله من الكفر وغيره، فصار من طريق التقدير كأنه الحاشر والماحي.

وأما المقفِّي فمعناه المُتّبِع، أو أنه المقفي لإبراهيم عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٣]. أو المقفِّي لموسى وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام لنقل قومهم عن اتّباعهم إلى اتباعه، أو عن اليهودية والنصرانية إلى الحنيفية السمحة.

والخاتم هو الذي ختمت به النبوات.

وهو نبي الرحمة، أخرج البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما أنا رحمة مهداة». وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادْعُ الله على المشركين، قال: «إنما بعثت رحمة، ولم أبعث عذاباً». أي لأنه كأنه يرجو إسلامهم. وفي رواية للبيهقي في دلائل النبوة عن أبي صالح قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة». يعني أهديت لكم، على معنى أن الله تعالى بعثه ليرحم به عباده، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، كما قال الله عز وجل حين امتنَّ عليهم: ﴿وَٱذْكُرُوا

(١) ورواه البخاري في الصحيح عن سفيان الثوري.

نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

وأما أنه نبي التوبة كما أخرج البيهقي في الدلائل: «أنا نبي التوبة». فلأنه أخبر عن الله تعالى أنه يقبل التوبة عن عباده إذا تابوا، سواء كبرت ذنوبهم أو صغرت، وهذا مختلِف عن شرائع المتقدمين، روى ابن جرير وعبد بن حميد والطبراني والبيهقي عن ابن مسعود قال: كان الرجل أحسبه في بني إسرائيل إذا أذنب، أصبح على بابه مكتوباً: أذنب كذا وكذا، وكفارته من العمل كذا، فلعله أن يتكاثر أن يعمله. قال ابن مسعود: ما أحب أن الله أعطانا ذلك مكان هذه الآية: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠].

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي، أنا أبو القاسم، الله يعطي، وأنا أقسم».

وأخرج البخاري وأبو داوود وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكنّى بكنيتي فلا يتسمى باسمي». أي إن النهي - والله أعلم - راجع إلى من أراد أن يجمع بينهما، لكن أخبار النهي عن التكني بأبي القاسم مطلقاً أكثر وأصح.

خصائص النبي ﷺ وأوصافه

أشاد الله تعالى بالنبي عليه الصلاة والسلام قبل خلْقه لدى موسى وعيسى عليهما السلام، فقال الله عز وجل فيما أخبر عن كلامه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى

﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٦-١٥٧]. هذه خصائص ومهام نبينا عليه صلوات الله وسلامه في قضايا التشريع، وقال سبحانه أيضاً عنه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/ ٤] فهذه الآية والتي قبلها تشيد بالنبي ﷺ قبل خلقه، وترفع صيته وشهرته في الأولين قبل خَلْقه ونبوته.

وأخرج البخاري عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت له: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخِب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أُقيم به الملة العوجاء، أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً».

وأما أوصافه البشرية فهي كما وصفه علي بن أبي طالب قال: كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل، ضخم الرأس واللحية، شثن[١] الكفين والقدمين، ضخم الكراديس[٢]، مشرب وجهه حمرة، طويل المسرُبة[٣]، إذا مشى يتكفأ تكفؤاً، كأنه ينحط من صبب[٤]، لم أرَ قبله ولا بعده مثله ﷺ[٥].

---

(١) شثن الكف أي غليظ الكف، وهي صفة مدح في الرجل.

(٢) الكردوس كل عظم تام ضخم.

(٣) المسربة الشعر من الصدر إلى السرة.

(٤) ما انحدر من الأرض أو الطريق.

(٥) أخرجه الترمذي وأحمد والبيهقي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وأخرج البخاري عن أبي إسحاق قال: قيل للبراء: أكان وجه رسول الله ﷺ كالسيف؟ قال: لا بل كالشمس. وفي حديث جابر بن سمرة عند البخاري قال: لا، بل مثل الشمس والقمر مستديراً.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كان عَرَقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفّأ، ولا مسستُ ديباجة، ولا حريرة ألين من كفه، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحته مسكة ولا غيرها ﷺ.

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ من أجمل الناس، ومن أجود الناس، ومن أشجع الناس. وعند البيهقي في الشعب عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً.

وأخرج مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضرب خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه إلا أن يكون لله، فإذا كان لله انتقم منه، ولا عَرَض له أمران إلا أخذ الذي هو أيسر حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً، كان أبعد الناس منه ﷺ.

وأخرج مسلم أيضاً في الصحيح عن سعد بن هشام بن عامر الأنصاري، قال: قلت لعائشة: يا أم المؤمنين، حدثيني عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإنه خُلُق رسول الله ﷺ.

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي عن يزيد بن بابنوس أنه سأل عائشة رضي الله عنها، عن ذلك، فقالت: اقرأ سورة المؤمنين، فقرأ حتى بلغ العَشْر من آياتها، فقالت: هكذا كان خلقه.

وأخرج مسلم عن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقال[1] عندنا، فعرق، فجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي ﷺ، فقال: «يا أم سليم، ما هذا الذي تصنعين؟» قالت: هذا عرقك، نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب.

وقال أنس: «وخدمته ﷺ عشر سنين بالمدينة، وأنا غلام، وليس كل امرئ ما يشتهي صاحبي أن أكون، فما قال لي فيها: أُف، وما قال لي: لم فعلت هذا، وألا فعلت».

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن ابن أبي هالة التميمي أنه سأل الحسن بن علي عن خلق رسول الله ﷺ، فقال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيه ويؤلفهم ولا يفرقهم. وكان سكوت رسول الله ﷺ على أربع: الحلم، والحذر، والتقدير والتفكير، فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس، وأما تذكره أو تفكيره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده في الرأي فيما هو أصلح لأمته، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة.

بيان النبي ﷺ وفصاحته

كان بيان النبي ﷺ - على الرغم من أميته - متميزاً بالبلاغة والفصاحة والإيجاز والوضوح، فهو في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم بهذه المقومات ونحوها، والأدلة على ذلك كثيرة، منها في الطليعة بيان

---

(١) من القيلولة.

القرآن العظيم وإيضاح معانيه وتخصيص عامه، وتقييد مجمله، فقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٤] فلو لم يكن للنبي ﷺ غير هذه المهمة لكفى دلالة على سمو بيانه، وارتقائه أعلى الدرجات لكشف معاني الخطاب الإلهي.

وكان ﷺ يقول: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الحديث اختصاراً»[1]. وأخرج مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعثت بجوامع الكلم». وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه». فقلنا: يا رسول الله، علِّمنا مما علَّمك الله، فعَلَّمَنا التشهد في الصلاة.

ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ للذي سأله أن يعلِّمه ما يدعو به: «سلْ ربك اليقين والعافية». فليس شيء مقبولاً في الآخرة إلا باليقين، وليس شيء من أمر الدنيا إلا بالأمن والصحة وفراغ القلب، فجمع أمر الآخرة في كلمة واحدة وهي اليقين، وجمع أمر الدنيا كله في كلمة أخرى وهي العافية.

وأخرج البيهقي عن يحيى بن جَعْدة قال: قال أبو بكر رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ في الصيف، عام أول، والعهد قريب يقول: «سلوا الله اليقين والعافية».

وأخرج عبد الله بن أحمد، وأحمد عن أبي بكر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم تُؤتوا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فسلوا الله العافية».

وكتب مسيلمة كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فإني أُشركت في الأمر معك، فلي نصف الأرض، ولك نصفها، ولكن قريشاً يعتدون». فكتب

(١) أخرجه البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إليه النبي ﷺ كتاباً يدل على حسن الجواب ووجازة الكلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من ابتع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

ومن جوامع كلامه ﷺ فيما أخرجه البيهقي في الدلائل: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده». دل على تساوي المسلمين في دمائهم، ووجوب وقوفهم صفاً واحداً أمام غيرهم.

ومنها ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن محمد بن عبد الله بن عَتيك عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات حتف أنفه - وإنها لكلمة ما سمعنا من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - فقد وقع أجره على الله عز وجل».

ومن الكلام المختصر ما أخرجه مسلم عن وائل بن حُجْر: أن النبي ﷺ كتب له كتاباً جاء فيه: «ولا شغار[1] في الإسلام، وكل مسكر حرام».

ومن بدائع الكلام النبوي الموجز ما أخرجه ابن حاتم في وصف سحائب مرت، عن إبراهيم بن الحارث التميمي، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ في يوم دَجْن[2]: «كيف ترون بواسقها؟» قالوا: ما أحنها وأشد تراكمها. قال: «فكيف ترون قواعدها؟». قالوا: ما أحسنها وأشد تمكنها. قال: «كيف ترون جَوْنها؟». قالوا: ما أحسنه وأشد سواده. قال: «فكيف ترون رحاها استدارت؟». قالوا: نعم ما أحسنها وأشد استدارتها.

---

(١) الشغار باطل وهو جعل المرأة بديلاً عن امرأة أخرى في الزواج دون مهر.

(٢) فيه غيم مظلم غير ممطر.

قال: «كيف ترون برقها خفقاً أو وميضاً أم يشق شقاً؟». قالوا: بل يشق شقاً. قال: «الحياء». فقال له رجل: يا رسول الله، ما أفصحك، وما رأينا الذي هو أعرب منك. قال: «حق لي، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين».

والبواسق فروعها المستطيلة في السماء إلى وسط السماء وإلى الأفق الآخر.

وقواعدها يعني قواعد السحاب وهي أصولها المعترضة في آفاق السماء.

والجون الأسود، ورحاها استدارة السحاب في السماء. والخفق هو الاعتراض من البرق في النواحي. والوميض أن يلمع قليلاً ثم يسكن. والذي يشق شقاً استطارته في الجو إلى وسط السماء من غير اتجاه إلى اليمين والشمال، والحياء هو المطر الغزير.

رأفة النبي ﷺ بأمته

لم أجد في تاريخ النبوات مثل نبينا رسولنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين في كونه شديد الرأفة والرحمة بأمته، لإنقاذها في الدنيا ونجاتها من العذاب في الآخرة، لما أودع الله تعالى في قلبه من هاتين الصفتين الرائعتين وهما: الرأفة والرحمة.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧] وهذه الرحمة العامة تتجلى بالحرص على هداية جميع الشعوب والأمم إلى دين الحق والتوحيد، وإنقاذهم من الكفر والضلال، وإرشادهم إلى أقوم السبل، وأرفع السلوك والأخلاق.

ودليل آخر خاص بالأمة الإسلامية هو: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨] والرأفة أخص من الرحمة، فهي تجمع بين الإنقاذ من العذاب الشديد، والظفر بجنات النعيم، لذا قال تعالى في نفي الرأفة في تطبيق العقاب: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٤/٢].

وهاتان الصفتان الرأفة والرحمة النبوية نجدهما بارزتين في التأكيد على هداية الأمة وحجبها عن التورط في العذاب، وفي القيامة حيث يشتغل الناس بأنفسهم، فيدع النبي حدث نفسه، ويقول: أمتي أمتي. بسبب مزيد الشفقة عليهم، ويقول كما تقدم في حديث سابق عن شفاعته يوم القيامة: «إني أسلمت نفسي إليك، فافعل بي ما شئت، ولا تردني في شفاعتي في عبادك».

وأخرج البخاري في الصحيح ومسلم من وجه آخر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة».

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٩٣/٥] قال: رضاه أن يُدخل أمته كلهم الجنة.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما أنا رحمة مهداة».

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن عبيد قال: لما كُسرت رباعية رسول الله ﷺ وشُجّ في جبهته، فجعلت الدماء تسيل على وجهه، قيل: يا رسول الله، ادع عليهم. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثني طعاناً ولا لعَّاناً، ولكن بعثني داعية ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي حديث آخر في دلائل النبوة للبيهقي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قال الحليمي رحمه الله: وجاء عن النبي ﷺ أنه ضحى بكبشين، فقال في أولهما: «اللهم عن محمد وآل محمد». وقال في آخرهما: «اللهم عن محمد وعمن لم يضحّ من أمة محمد»[١].

وأخرج البخاري وابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بتأخير العشاء، والسواك عند كل صلاة».

وامتنع النبي ﷺ من الخروج لصلاة التراويح جماعة في الليلة الثالثة من رمضان لما كثُر الناس وقال: «قد رأيت الذي صنعتم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت عليكم أن تفرض عليكم». قال الحليمي رحمه الله: المعنى خفت أن تفرض عليكم، فلا ترعوا حق رعايته، فتصيروا في استحقاق الذم أسوة من قبلكم، وهذا كله رأفة ورحمة. وجزاه عنا أفضل الجزاء رسولاً ونبياً عن أمته.

وسمى الله نبينا في كتابه ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦/٣٣] وذلك لأنه أخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الهدى والتبيان، كما قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١].

وإذا تأملنا في السيرة والسنة النبوية إلى مواقع الخيرات التي ساقها الله تعالى إلى عباده بالنبي ﷺ في الدنيا، وما يحظون به من شفاعته لهم في الآخرة، وجدنا أنه لا حق بعد أداء حقوق الله تعالى أوجب ولا ألزم ولا أولى من حق النبي ﷺ على أمته وفضله، ويرشد لهذا ما امتن الله تعالى علينا من نعمة بعثة النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمة الهداية فضلاً عن أمة الدعوة العالمية لمختلف الأمم والشعوب، في قول الله عز وجل:

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢].

فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله صلاة وسلاماً دائمين بدوام ملك الله، وجزاك الله تعالى عن أمتك خير الجزاء، وخير ما جزى نبياً عن أمته.

زهد النبي ﷺ في الدنيا

كان الإعداد الإلهي والتربية الربانية للنبي ﷺ في غاية القوة والمتانة، والتأهيل لعلو الدرجة يوم القيامة بسبب الخلود فيه، والتهوين من شأن الدنيا وطيباتها وشهواتها وزينتها، ليكون هذا الرسول أسوة حسنة ومثلاً طيباً أعلى لأمته، فاختار الله تعالى له الاتصاف بصفة الزهد والصبر على شدائد الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣١].

ومن أمثلة زهده ﷺ جلوسه على الحصير حتى أثّر في جنبه، أخرج مسلم في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل النبي ﷺ نساءه، دخلت على رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع(١)، ومثلَها قرظاً(٢) في ناحية الغرفة، وإذا إهاب(٣) معلّق قال: فابتدرت

---

(١) الصاع: ٢,١٧٦ غم.
(٢) ورق السَّلَم يدبغ به.
(٣) جلد.

عيناي، فقال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟! فقال: «يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟». قلت: بلى.

والقصة مروية بلفظ آخر، فيما أخرجه الحاكم ووافقه الذهبي، قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ، وهو على الحصير قد أثّر في جنبه، فقال: يا رسول الله، لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: «وما لي والدنيا، وما الدنيا وما لي، والذي نفسي بيده، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها».

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ، فخيَّره بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا.

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الله تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه ﷺ بين أن يكون عبداً نبياً أو مِلِكاً نبياً، فأشار إليه جبريل عليه السلام أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: «بل عبداً نبياً».

وأخرج الترمذي، وقال: حديث غريب، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة». فقالت عائشة رضي الله عنها: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردي المساكين، ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين، وقرِّبيهم، فإن الله تعالى يقرِّبك يوم القيامة».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق آل محمد قوتاً».

وكذلك أخرج الشيخان عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم رسول الله ﷺ المدينة من طعام بُرٍّ، ثلاثة أيام حتى مضى.

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة أيضاً قالت: كان يأتي على آل محمد ﷺ الشهر ما يوقدون فيه ناراً إلا التمر والماء، إلا أن يؤتى باللحم.

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خِوَان(١) حتى مات، ولا أكل خبزاً مرققاً حتى مات.

وأخرج أحمد وابن ماجه(٢) عن أنس قال: دعي النبي ﷺ إلى خبز الشعير وإهالة سَنِخة(٣)، ولقد سمعته ذات غداة يقول: «والذي نفسي بيده ما أصبح عند آل محمد صاع حب، ولا صاع شعير، وإن له يومئذ تسع نسوة». ولقد رهن درعاً له عند يهودي بالمدينة أخذ منه صاعاً، ما وجد ما يفتكه.

وأخرج الشيخان في الصحيح عن عائشة قالت: كان فراش رسول الله ﷺ من أَدَم(٤) وحشوه من ليف.

وأخرج مسلم عن أبي بردة قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فأخرجت إلينا إزاراً غليظاً وكساء ملبداً، فقالت: في هذا قبض رسول الله ﷺ.

---

(١) الذي يؤكل عليه.

(٢) وأصل الحديث رواه البخاري في صحيحه.

(٣) الإهالة أو الوَدَك الدهن، والسنخة الزنخة.

(٤) جمع أديم وهو الجلد.

تقشف النبي ﷺ وصبره

لقد اتجهت جهود الرسول ﷺ وتوجهاته وهممه إلى أمر أعظم من شهوات الدنيا وطيباتها وزخارفها ألا وهو بناء صرح الإسلام، وإعلان دعوة القرآن، وإيجاد الأمة المسلمة الموحدة ربها، والقائمة بشؤون دينها ونشر عقيدتها، وتقويم سلوكها وأخلاقها، والعمل لدار الخلود وهي الآخرة الباقية.

لهذا سمت نفس النبي عليه الصلاة والسلام عن أوضار المادة، وعني بالروح العالية، والتطلع لرضوان الله، والتشبه بالملأ الأعلى من الملائكة حملة العرش وغيرهم، وأمثلة هذا الترفع عن مفاتن المادة والدنيا الكثيرة.

منها ما أخرجه ابن سعد عن أبي البجير، وكان من أصحاب الرسول ﷺ قال: أصاب يوماً النبيَ ﷺ الجوعُ، فوضع على بطنه حجراً، ثم قال: «ألا يا رُبَّ نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رُبَّ نفسٍ جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رُبَّ مكرمٍ لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا يا رُبَّ متخوضٍ ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق، ألا وإن عمل الجنة حزَنْ بربوة[1]، ألا وإن عمل النار سهلة بسَهْوة، ألا يا رُبَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً». قال: السهوة اللينة التربة. هذه موازنات دقيقة بعيدة النظرة، بين الانصراف لمتاع الدنيا، وحرمان نعيم الآخرة.

---

(١) أي صعب في مكان مرتفع.

ومثل تطبيقي لهذا التوجه مما أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس ﷺ أن نبي الله ﷺ لم يجتمع له غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضَفَف، أي الأكل مع الجماعة، أو في حال الضيق والشدة، أي لم يشبع منهما إلا عن ضيق وقلة.

ومثال آخر أخرجه البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله ﷺ خالصة، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الكُراع[1] والسلاح عدة في سبيل الله تعالى.

وإن منهاجه عليه الصلاة والسلام في الإنفاق يظهر مما أخرجه الترمذي[2]، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ لا يدّخر شيئاً لغد.

يوضحه ما أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني في الكبير عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «أطْعِمنا يا بلال». قال: يا رسول الله ما عندي إلا صُبَر[3] من تمر خبأته لك. قال: «أما تخشى أن يخسف به في نار جهنم؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً».

ومن روائع الأمثلة ما أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن، عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عَرَض علي ربي أن يجعل بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت، وإذا شبعت حمدتك وذكرتك».

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مَثْنية، فانطلقت، فبعثت إلي

---

(١) خيل الجهاد.

(٢) وقال: هذا حديث غريب.

(٣) مفرده صُبرة أي من الطعام وهي الكومة الصغيرة.

بفراش حَشْوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: قلت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك، فذهبت، فبعثت إلي بهذا. فقال ﷺ: «ردّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة».

وأخرج الشجري عن أنس بن مالك قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: إني أحبك. قال: «فاستعد للفاقة». أي الفقر.

وفي حديث مشابه أخرجه أحمد عن عبد الله بن مغفل قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لأحبك. قال: «انظر إن كنت صادقاً، فأعد للفقر تِجْفافاً[1]، فالفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه».

وعلَّم النبي ﷺ أصحابه ورباهم على الزهد والتقشف في الدنيا إعداداً لأنفسهم في تحمل المشاق، والتطلع إلى عالم الخلود في الآخرة، أخرج البيهقي في الشعب حديثاً مرسلاً عن سعيد بن أبي سعيد أن أبا سعيد الخدري شكا إلى رسول الله ﷺ حاجته، فقال: «اصبر أبا سعيد، فإن الفقر إلى من يحبني أسرع من السيل إلى أعلى الوادي يهوي من أعلى الجبل إلى أسفله» .

عموم الرسالة النبوية

تميزت رسالة النبي العربي الهاشمي محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه بشمولها وعمومها للثقلين: الإنس والجن، ولجميع الناس على وجه الأرض.

---

(١) آلة حرب يتقى بها كالدرع.

أما الإنس أو عموم الناس فكانت رسالته إليهم شاملة، لا فرق بين عرب وعجم، ولا بين جنس وجنس، ولا بين قوم و قوم، ولا بين عصر وعصر، فهي رسالة خالدة عالمية عامة لجميع البشر إلى يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨/٧]. وأمره ربه أن يقول: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] أي جميع من بلغهم القرآن. وأخبره الله تعالى عن عموم الرسالة النبوية بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١/٢٥] أي لعالمي الإنس والجن.

وأما الجن فهم مكلّفون مطالبون بالإيمان برسالة النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩/٤٦] إلى قوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١/٤٦] وفي مطلع سورة خاصة في القرآن تتحدث عن الجن قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧٢/١-٢] فتبين بقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾: أنهم عرفوا أنه مبعوث إليهم، وسمعوا دعوته إياهم، والذين لم يحضروا من جملتهم، فلذلك قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ قالوا: آمنا.

وأكدت السنة النبوية الصحيحة عموم الرسالة النبوية، فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيباً وطهوراً أو مسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة».

وروى البيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت إلى الجن والإنس».

ويدل على العموم والبقاء أنه ﷺ كان خاتم النبيين والمرسلين، قال الله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠]. قال البيهقي: والخاتم الذي لا نبي بعده، كما ليس بعد خاتمة الأمر من شيء، وليس بعد ختم الكتاب نشر، وليس بعد ختم الكيس إخراج شيء منه.

ويرشد لهذا أيضاً ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيتاً، فحسَّنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويُعجبهم البنيان، فيقولون: ألا وضعت ههنا، فيتم بناؤك، فقال محمد ﷺ: فأنا اللبنة». وفي رواية لمسلم: «وأنا موضع اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

ويدل أيضاً على عموم الرسالة الإسلامية كون النبي ﷺ سيد الناس، أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع».

وكذلك فإن الرسالة الإسلامية أفضل الرسالات، فكان المرسل بها أفضل الرسل، لذا نسختْ ما تقدمها من الرسالات، ولا يأتي بعدها رسالة تنسخها، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤١-٤٢] ومعناه ليس فيما تقدمه من يكذبه، ولا يأتي بعده ما يوقفه أو يعطله.

والله تعالى أقسم بحياة النبي ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٢] مما يدل على أنه أفضل الرسل وأكرمهم.

والله تعالى جمع لنبينا بين إنزال الملك عليه، وإصعاده إلى مساكن الملائكة، وإسماع كلام الملَك وإراءته إياه في صورته التي خلقه عليها، وجمع له بين إخباره عن الجنة والنار، وإطلاعه عليهما، فصار العلم له واقعاً بالعالمين ودار التكليف ودار الجزاء عياناً. وهذا لم يكن إلا لنبينا ﷺ، فينبغي أن يكون لذلك أفضل الأنبياء عليهم وعليه الصلاة والسلام. ومن خصائصه عليه السلام نزول الملائكة لقتال المشركين يوم بدر.

من خصائص النبي ﷺ

خص الله تعالى نبينا ﷺ بخصائص كثيرة أهَّلته ليكون سيد الأنبياء والرسل وخاتمهم ومتقدمهم وسيد بني آدم، وكونه رسولاً إلى جميع العالمين من الإنس والجن.

من هذه الخصائص الشفاعة العظمى بجميع المخلوقات يوم القيامة لإنقاذهم من أهوال ذلك اليوم وتقديمهم للحساب، وشفاعته أيضاً لأمته.

أخرج الإمام أحمد عن أبي نضرة قال: سمعت ابن عباس يخطب على منبر البصرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكن نبي إلا له دعوة يتنجزها في الدنيا، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواء الحمد، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر». ثم ذكر حديث الشفاعة العظمى بطوله.

ومنها أنه ﷺ في الدنيا أكثر الأنبياء إعلاماً (إبلاغاً للدعوة)، ومعلوم أن أقل الإعلام إذا كان يوجب الفضيلة، فإن كثرة الإعلام توجب لصاحبها اسم الأفضل.

ومما يدل على فضل نبينا ﷺ أن الله جل ثناؤه لم يخاطبه في القرآن قط إلا بالنبي أو الرسول، ولم يناده باسمه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، وأما سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه دعاهم بأسمائهم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ١١/ ٤٦]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ١١/ ٧٦]، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ١٢/ ٢٩]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٠]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٦].

وكنى آدم عليه السلام في الجنة «أبا محمد» مما يدل على أنه أفضل النبيين.

وأكرم الله عز وجل نبيه ﷺ أن يسوءه في أمته، فرفعه إليه، وبقيت النعمة، وذلك فيما أخرجه البيهقي عن أنس بن مالك، لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤١-٤٢].

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: كان في هذه الأمة أمانان: أمان رسول الله ﷺ والاستغفار، فذهب أمان، يعني رسول الله ﷺ، وبقي أمان، يعني الاستغفار.

وأما النهي عن التفضيل بين الأنبياء فذلك للرد على محاولة أهل الكتاب الإزراء ببعضهم، مما قد يؤدي إلى فساد الاعتقاد فيهم، والإقلال الواجب من حقوقهم، وذلك النهي في حديث أخرجه البيهقي: «لا تفضلوا بين أنبياء الله». و «لا تخيروا بين أنبياء الله». و «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى». وذلك أيضاً إرشاد إلى التواضع لله عز وجل، فكان ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

وأما اتخاذ الله عز وجل إبراهيم عليه السلام خليلاً في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ١٢٥]، فإنما هو بالنسبة لمن كان في عصره من أعداء الله عز وجل، وليس ذلك للتفضيل على غيره من النبيين، وهو أنه هداه إلى معرفته، وأرشده إلى توحيده حين أطبق الكفر الأرض.

وقد اتخذ الله محمداً ﷺ حبيباً بدلالة القرآن وهو قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١]. فإذا كان اتباعه يفيد المتّبع محبة الله عز وجل، فالوسيلة المتبع بها يكون أولى، ودرجة المحبة فوق درجة الخُلّة. أي ليس الطريق إلى محبة الله إلا اتباع حبيبه، ولا يُتوصل إلى الحبيب بشيء أحسن من متابعة حبيبه ومصطفاه ورضاه.

وتميز النبي ﷺ بكثرة العبادة، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقوم حتى تَورَّم قدماه، فقيل: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد جاءك من الله أن قد غفر لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي سلمة، عن النبي ﷺأنه لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١-٢] قام حتى انتفخت قدماه، وتعبد حتى صار كالشَّرَك البالي[1]، فقالوا: يا رسول الله، تفعل هذا، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». وفي رواية: «فهلا أكون عبداً شكوراً». وعن ابن عباس أن النبي ﷺ أول ما أنزل عليه الوحي، كان يقوم على صدر قدميه، فأنزل الله عز وجل: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢٠/ ١-٢].

---

(١) الحبل الخَلَق.

ومما يدل على منزلة النبي ﷺ ما أخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام، فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه». فقال له أبي بن كعب: يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك منها؟ قال: «ما شئت». قال: ربع. قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير». قال: النصف. قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير». قال: ثلثين. قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير». قال: يا رسول الله، أجعلها كلها لك. قال: «إذاً تُكْفَى همك، ويغفر لك ذنبك».

وذكر البيهقي عن منصور بن صفية قال: مرَّ النبي ﷺ برجل وهو يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام، وجعلني من أمة أحمد. فقال رسول الله ﷺ: «شكرت عظيماً». ومر برجل وهو يقول: يا أرحم الراحمين. فقال: «قد أقبل عليك، فسل».

الأصل الخامس عشر من أصول الإيمان

تعظيم النبي ﷺ

إن تعظيم النبي الرسول عليه الصلاة والسلام أحد أصول الإيمان أو شعبه، لأن الله تعالى جعل الإقرار أو الشهادة بأنه رسول الله أحد أركان الإسلام، ولأن الله تعالى أنقذنا به من النار في الآخرة، وعصمنا من المزالق والمضار في الدنيا، وهدانا لأقوم الطرق، وألزمنا طاعته واتباعه في جميع ما جاء به من عند ربه، وتوعدنا على معصيته بالنار، ووعدنا باتباعه الجنة، فحق علينا بالإضافة إلى محبته أن نعظّمه، ونوقّره ونجلّه ونهابه أكثر من إجلال كل ولد والده أو سيده.

وهذا ما أمر الله به في كتابه، فقال عز وجل: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ[1] وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧/٧] وهو دليل على أن تعظيمه وتأييده مقترن بالإيمان. وفي آية أخرى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٤٨/٨-٩] وهو دليل آخر على أن حق رسول الله ﷺ على أمته أن يكون معظماً موقراً مهيباً، فلا يعامل كما يعامل الأقران والأصحاب، لقول الله عز وجل: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

(١) عظموه وأيدوه على عدوه، فلا خلاف بأن التعزير ههنا التعظيم.

﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٣] أي ليس كبقية الناس، وإنما عليكم إجابته دون تباطؤ، حتى ولو كنتم في الصلاة، إذا دعا أحدَكم وهو يصلي، بدليل ما أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نادى أبي بن كعب وهو قائم يصلي، فلم يجبه، فقال: «ما منعك أن تجيبني يا أبيّ؟» فقال: كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله تبارك وتعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]. لا تخرج من المسجد حتى أعلّمك سورة ما أنزل الله في التوراة والإنجيل والزبور مثلها». قال أبيّ: ثم اتكأ على يدي، حتى إذا كان بأقصى المسجد، قلت: يا نبي الله، قلت كذا وكذا. قال: «نعم، هي أم القرآن، والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة والإنجيل والزبور مثلها، وإنها السبع المثاني التي أوتيتُ، وإنها القرآن العظيم».

وفي أثر آخر(١)، قال الحسين بن علي(٢): سمعت الشافعي يقول: يكره للرجل أن يقول: الرسول، ولكن يقول: قال رسول الله ﷺ تعظيماً له.

ومن أدلة وجوب طاعة رسول الله ﷺ قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١] أي لا تقضوا في شأن القتال وغيره بشيء إلا بأمر رسول الله ﷺ.

روى الحاكم ووافقه الذهبي عن أبي هريرة في شأن آية ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾: أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: والذي أنزَل عليك الكتاب يا رسول الله، لا أكلِّمك إلا كأخي السرار، حتى ألقى الله عز وجل.

---

(١) رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي.
(٢) هو غير الحسين بن علي بن أبي طالب.

ومن الأدلة أيضاً قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٢٤/ ٦٢] الآية.

وكذلك آية ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١] ففيها التوبيخ على ما كان من الصحابة من انفضاضهم عن النبي ﷺ في أثناء الخطبة.

وقال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه الذين أرسلوه لاستطلاع شأن النبي ﷺ(١): أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه تعظيم أصحاب محمد، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، فإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له.

وذكر البيهقي أيضاً في حديث بريدة قال: كنا إذا قعدنا عند رسول الله ﷺ لم نرفع رؤوسنا إليه، تعظيماً له. وفي حديث البراء بن عازب قال: فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير.

وأخبر البيهقي أيضاً عن أسامة بن شُرَيك قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه عنده، وكأن على رؤوسهم الطير، فقال: «يا أيها الناس تداووا، فإن الله عز وجل لم ينزل داء إلا وأنزل له دواء - زاد غيره: إلا الهرم». قيل: يا رسول الله، ما خير ما أعطي الناس؟ قال: «خلق حسن».

وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان عن أنس رضي الله عنه: أن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافير.

---

(١) ذكره البيهقي في شعب الإيمان.

وروى البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لما حلق شعره يوم النحر، تفرق الناس، فأخذوا شعره، فأخذ أبو طلحة منه طائفة. قال ابن سيرين: لأن يكون عندي منه شعرة، أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وأخبر البيهقي عن عبد الرحمن بن أبي قُراد أن النبي ﷺ توضأ يوماً، فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه، فقال لهم النبي ﷺ: «ما حملكم على هذا؟» قالوا: حب الله ورسوله. فقال النبي ﷺ: «من سره أن يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله، فليصدق حديثه إذا حدث، وليؤد أمانته، وليحسن جوار من جاوره».

من مظاهر تعظيم النبي ﷺ لدى أصحابه

لقد استولى على قلوب الصحابة الكرام حب النبي عليه الصلاة والسلام وتعظيمه تعظيماً يليق به، دون مبالغة ولا غلو، ولا إهمال ولا تقصير، والأمثلة على ذلك كثيرة.

منها ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير قال: كنت عند عبد الله بن مغفل، حذف عنده رجل من قومه[1]، فقال: تحذفنَّ؟ فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، وقال: «إنه لا يصطاد بها صيداً، ولا يقتل بها عدواً، ولكنها تكسر السن وتفقأ العين». قال: فلم ينته الرجل، فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ أنه نهى عنه، ولم تنتهِ، لا أكلمك كلمة أبداً.

وروى ابن حبان عن أبان بن يزيد مرسلاً أن أبا سلمة حدثه أن محمد بن عبد الله بن زيد حدثه أن أباه شهد النبي ﷺ عند المنحر، هو

---

(١) الحذف الرمي بالحصى ونحوه.

ورجل من الأنصار، قال: فحلق رسول الله ﷺ رأسه في ثوبه، فأعطاه، فقسم منه على رجال، وقلّم أظفاره، فأعطاه صاحبه، فإنه عندنا لمخضوب بالحناء والكَتَم[1].

وذكر البيهقي في الشعب عن ثابت البناني قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس، تحدث، فخلع نعليه، فخلعها يوماً، وجلس يتحدث، فلما قضى حديثه قال لغلام من الأنصار: «يا بني ناولني نعلي». فقال غلام من الأنصار: دعني فلأنعلك. قال: «شأنك فافعل». فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عبدك يتحبب إليك فأحبه».

وأخرج مسلم عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: «ائذنوا للنساء إلى المساجد بالليل». فقال بعض بنيه: والله لا نأذن لهم، يتخذنه دغلاً[2]، فقال ابن عمر: فعل الله بك وفعل، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقول: لا نأذن لهن.

وروى البيهقي في الحديث الثابت الصحيح، عن فاطمة بنت قيس حين خطبها رسول الله ﷺ لأسامة بن زيد، فكرهته، فقال رسول الله ﷺ: «طاعة الله ورسوله خير لكِ». قالت: أنكحته، فجعل الله فيه خيراً، واغتبطتُ به.

وذكر البيهقي أن مصعب بن الزبير همَّ بعريف الأنصار أن يقتله، فدخل عليه أنس بن مالك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «استوصوا بالأنصار خيراً أو معروفاً، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم». فنزل عن سريره على بساطه، فألزق جلده، أو جلداً، أو قعد، وقال: أمْر رسول الله ﷺ على الرأس والعينين، أمر النبي ﷺ على الرأس والعينين، وخلّى سبيله.

---

(١) نبت يخلط بالوسمة يختضب به.

(٢) الدَّغل الفساد.

وذكر البيهقي أيضاً عن إسحاق بن محمد القروي قال: سمعت مالك بن أنس يقول: كنا ندخل على أيوب بن أبي تميمة السختياني، فإذا ذكر له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه. أي نشفق عليه.

ومن الأدب مع النبي ﷺ في مثواه الشريف ألا ترفع الأصوات عند قبره، ولا يكون عنده لهو ولا لغو ولا باطل، ولا شيء من أمر الدنيا، مما لا يليق بقدره ومكانته من الله عز وجل. وذلك مأخوذ من الآية الكريمة: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٢].

وكلما ذكر النبي ﷺ عند أهل الإيمان تُذكَر الصلاة والسلام عليه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣] فإذا كانت الملائكة تصلي عليه، وهم غير مكلَّفين بشريعته، كنا نحن المؤمنين أولى وأحق بذلك.

وصيغة الصلاة عليه، كما أخرج مسلم عن عبد الله بن زيد، كما علمنا إياها(١) وهي: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»(٢).

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشراً». وفي رواية للنسائي وأحمد وابن حبان عن أنس بن مالك يقول عن النبي ﷺ: «من صلى علي صلاة، صلى الله عليه عشر صلوات، وحُطت عنه عشر خطيئات، ورُفع له عشر

---

(١) ورواه كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ، وهو مخرَّج في الصحيحين.
(٢) وإذا لم يذكر آل إبراهيم في بعض الروايات فهم داخلون مع إبراهيم، لقول الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٦] وفرعون داخل مع أهله.

درجات» وفي حديث آخر لمولى عبد الرحمن بن عوف (ابن أبي سندر السلمي): «إن جبريل عليه السلام بشرني أنه من صلى علي صلى الله عليه، ومن سلَّم عليّ سلم الله عليه».

وأخرج أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلَّى علي صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى علي، فليُقلّ عبد من ذلك أو ليكثر».

وروى البيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة».

وأخرج الترمذي وقال: حسن صحيح غريب عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيل الذي ذكرت عنده ولم يصلّ علي» .

معنى الصلاة على النبي ﷺ والمباركة والرحمة وحكمها

هذه ألفاظ ثلاثة واردة في صيغة الصلاة على النبي ﷺ ولكل منها معنى يختلف عن الآخر، وكلها تدل على تعظيم النبي ﷺ وإيفائه حقه على الأمة والأفراد.

أما **الصلاة** في اللسان العربي فهي التعظيم، ثم سموا القراءة صلاة إذا كان المراد منها ما في الصلاة من قيام وقعود وغيرهما من تعظيم الرب تعالى. ثم توسعوا وسموا كل دعاء صلاة إذا كان الدعاء تعظيماً للمدعو بالرغبة إليه والثناء عليه لإضفاء فضل الله تعالى.

والصلوات لله أي الأذكار التي يراد بها تعظيم الله، والاعتراف له بجلال العبودية وعلو الرتبة كلها لله، أي إنه هو مستحقها لا يليق بأحد سواه بها، فإذا قلنا: اللهم صل على محمد، فإنا نريد به اللهم عظمّ محمداً في الدنيا بإعلاء مرتبته، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وإجزال أجره ومثوبته، وإبداء فضله للأولين والآخرين بالمقام المحمود، وتقديمه على كافة المقربين في اليوم المشهود. والغاية من قولنا: «اللهم صل على محمد». هي إيصال ما يعظم به أمره، ويعلو به قدره إليه، لأننا لا نملك إيصال ذلك إليه. فتكون صلاتنا عليه الدعاء له بذلك، وابتغاؤه من الله عز وجل، وإيصالها إليه.

وأما التسليم فهو أن يقال: السلام على النبي. ولو قال المصلي: اللهم صل وسلم على محمد، لأغنى ذلك عن السلام عليه في التشهد.

ومعنى «السلام عليك» اسم السلام عليك، والسلام اسم من أسماء الله عز وجل، يقال: اسم الله عليك، وتأويله لا خلوتَ من الخيرات والبركات، وسلمتَ من المكاره والمذامّ.

وأما الرحمة «ورحمة الله» فإنها تجمع معنيين: أحدهما: إزاحة العلة، والآخر: الإثابة بالعمل. وهي في الجملة غير الصلاة، بدليل أن الله تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: ٢/١٥٧] والعطف يقتضي المغايرة، وقد فصل بينهما. والمعنى في الآية أن الصلوات هي الثناء من الله تعالى عليهم، والمدح والتزكية لهم. والرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ معناه وأولئك هم المصيبون طريق الحق دون من خالفهم. أما المخالفون فهم متعرضون لسخط الله وغضبه.

وأما المباركة فإنها فضل الله تعالى، وهذا التبريك هو أن يقول: «اللهم بارك على محمد». وأصل البركة الدوام، ويراد بها عادة النماء

والزيادة، لأن تزايد الشيء موجب دوامه. وقد يراد بها التيمن، فيقال للميمون: مبارك. والبركة توجب الدوام. وقد يقصد بها موضوع اليمن أي إنه محبوب ومرغوب فيه، وهذا لا يعارض معنى الدوام، لأن البركة يقصد بها دوام الشيء والرغبة في بقائه، فإذا قلنا: «اللهم بارك على محمد» كان المعنى اللهم أدم ذكر محمد ودعوته وشريعته، وكثِّر أتباعه وأشياعه، فكان من يمنه وسعادته على أمته أن تشفِّعه فيهم وتدخلهم جناتك، وتحلِّهم دار رضوانك، فيجمع التبريك عليه الدوام والزيادة والسعادة.

وأما حكم الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير (الواجب في الصلاة) فهي واجبة بالاتفاق. وأما في التشهد الأول فهي سنة.

وأما الصلاة على الآل - وهم في رأي الشافعي بنو هاشم وبنو عبد المطلب الذين حَرُمت عليهم الصدقة - فهي سنة غير واجبة باتفاق الأئمة الأربعة، وقال أبو إسحاق المروزي: أنا أعتقد أن الصلاة على النبي ﷺ واجبة في التشهد الأخير من الصلاة.

فآل محمد هم القرابة الخاصة، لا عامة المؤمنين.

وأما إطلاق آل البيت على أزواج النبي ﷺ فهو تشبه بالنسب النبوي، وقد أوصى النبي أمته بتسمية أزواجه عند الصلاة عليه، فدل ذلك على دخولهن في الصلاة عند الصلاة على الآل.

ومن مقتضيات تعظيم النبي ﷺ ألا يقابل قول يحكى عنه أو فعل له بوصف أو حال له تذكّر بما يوصف بالإزدراء به، وكذلك ألا يسمى النبي ﷺ أو يوصف بشيء من الأوصاف التي هي في متعارف الناس من الأوصاف الوضعية، فلا يقال: كان النبي ﷺ فقيراً، أو مسكيناً، كما يوصف غيره ترحماً وتعطفاً عليه.

ومن متطلبات تعظيم الله وتعظيم رسوله ألا يوضع شيء فوق المصحف أو فوق جوامع السنن، لا كتاب ولا غيره من متاع البيت، وأن ينفض الغبار عنه، ولا يَمْسح أحد يده من طعام أو غيره بورقة فيها ذكر الله تعالى أو ذكر رسوله، ولا يمزقها تمزيقاً، ولكن إذا أراد به تعطيلها فليغسلها بالماء حتى تذهب الكتابة فيها، وإن أحرقها بالنار فلا بأس، لأن عثمان ﷺ حرَّق مصاحف كانت عنده فيها آيات منسوخة، ولم يُنكر ذلك عليه أحد. كذلك ألا يكسر درهماً فيه اسم الله تعالى واسم رسول الله ﷺ، لما جاء عن النبي ﷺ أنه «نهى عن كسر سكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس».

من مقتضيات تعظيم النبي ﷺ

إن إكرام النبي عليه الصلاة والسلام وتعظيمه يتطلب بداهة وشرعاً وعرفاً وعادة إكرام آل بيته وقرابته وأزواجه أمهات المؤمنين وتعظيمهم، وتعظيم أولاد المهاجرين والأنصار، لأن أصولهم هم أعيان الصحابة الكرام، فقد جاء عن النبي ﷺ فيما أخرجه ابن عدي وهو صحيح عن أبي هريرة أنه قال: «قدِّموا قريشاً، ولا تقدموها». وما ذلك إلا أنه ﷺ منهم. وروى البيهقي عن ابن عمر عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس أرضوا محمداً ﷺ في أهل بيته».

ومن مقتضى تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام تعظيم العرب وإجلالُهم، لأنه ﷺ عربي، لما جاء عنه فيما رواه ابن عدي أنه قال: «إن الله خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مُضَر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم،

واختارني من بني هاشم، فأنا من خِيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»[١].

وذكر البيهقي في الشعب عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك». قلت: يا رسول الله، وكيف أُبغضك وقد هدانا الله بك؟! قال: «تبغض العرب فتبغضني».

وأخرج الحاكم عن أنس، والبيهقي عن البراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «حب العرب إيمان، وبغضهم نفاق»[٢].

وأخرج العقيلي والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي»[٣].

وأخرج ابن أبي عاصم والطبراني في الكبير عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «أحبوا قريشاً، فإن من أحبهم أحبه الله عز وجل»[٤].

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الفقراء وجالسوهم، وأحِبَّ العرب من قلبك، وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك»[٥].

والأحاديث كثيرة في فضل العرب وفضل قريش، وبما أن النبي ﷺ وبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من العرب، والقرآن عربي، فعلى

---

(١) ورواه الطبراني أيضاً في الأوسط عن أنس، وهو ضعيف.
(٢) لكنه ضعيف كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير.
(٣) وهو حديث صحيح.
(٤) وهو ضعيف.
(٥) وهو صحيح.

المسلمين فرضاً أن يتعلموا لسان العرب، وإن كان ذلك من فروض الكفاية، ليفهموا ويعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه ووعده ووعيده، وعن رسوله بيانه وتبليغه، وما حكم به بأن «الأئمة من قريش».

ومن فضل الله على العرب ما أخبر به الله تعالى في قرآنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤] قالت عائشة رضي الله عنها فيما ذكره البيهقي: هذه للعرب خاصة. وآية أخرى في معناها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢].

وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] قال: شرف لك ولقومك. وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠] قال: شرفكم.

وأخرج الحاكم[١] والبيهقي عن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: «ألهم إبراهيم عليه السلام هذا اللسان، بدأ اللسان العربي إلهاماً».

وأخرج الحاكم أيضاً عن جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ تلا ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣] ثم قال رسول الله ﷺ: «ألهم إسماعيل هذا اللسان إلهاماً».

وفي الحديث الثابت عن سعيد بن جبير في قصة إسماعيل وزمزم، ونزول قوم جُرْهم في أسفل مكة، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل، وهي تحب الأنس، فنزلوا بها حتى كان بها أهل البيان منهم، وشبّ الغلام - يعني إسماعيل - وتكلّم بالعربية منهم، فأنفسهم وأعجبهم، فلما أدرك زوَّجوه امرأة منهم».

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٣] قال: بلسان جُرْهم.

---

(١) وقال: هذا حديث غريب صحيح على شرط الشيخين.

هذه بعض مقتضيات أو معالم تعظيم النبي ﷺ، وكلها تعظيم لأمته، وبيان رفعة رسالته وعلو شريعته، فمن عظَّم رسول الله بالصلاة والسلام عليه، فإنما يعظم نفسه وأمته، وهو بذلك يرتفع شأنه، ويحقق لنفسه الثواب العظيم، والنجاة في الآخرة بشفاعة هذا النبي، فكان عليه الصلاة والسلام رحمة وخيراً وبركة، وشرفاً ومجداً، وعزاً وسمواً لأمة الإسلام في الدنيا والآخرة، وحتى تتميز هذه الأمة عن بقية الأمم.

الأصل السادس عشر من أصول الإيمان

الحرص على الدِّين

من أصول الإيمان أو شُعَبه أن يحرص الإنسان على دينه الحق، فالحرص على الدين الحق أو شحُّ المرء بدينه حتى يكون الإلقاء أو القذف في النار أحب إليه من الكفر، هو رأس مال الإنسان الحقيقي، فعليه الحفاظ على دينه وإيمانه مهما كانت التحديات أو الصعاب، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحبَّ إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه». هذه هي قواعد الإيمان والإسلام محبة الله ورسوله مقدمة على أي حب آخر، ومحبة الإنسان غيره محبة خالصة لله لا لغرض دنيوي، وإيثار الإلقاء في النار على العودة إلى مستنقع الكفر والضلال. فأبان ﷺ بهذا الخبر أن الشح بالدين أو الحرص عليه من الإيمان، وشبَّه ذلك بالشعور بطعم الحلاوة، فمن شحَّ بالإيمان، لم يأت بما يفسده، كما أن من وجد حلاوة الحُلْو لم يأت بما يلطها عليه.

ومن أمثلة ذلك خبر شعيب النبي عليه السلام إذ قال له قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:

٨٨/٧] فقال لهم شعيب: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٨-٨٩] إلى آخر الآية. ففي هذا تمسك شديد بالدين، أو شح بالدين، حيث أعلم شعيب قومه أن الكفر هلاك، والإيمان نجاة، واستعان بالله ليعصمه من الجلاء عن الوطن، وإن كان الإخراج من الوطن أحبَّ إليه من مفارقة الدين، لذا دعا شعيب ربه في أن ينصره وينقذه كما ينقذه من أهوال الشدائد والخطوب، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٩] استعظاماً منه لمحاولات قومه وأذيتهم.

قال الله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٧-١٨] فتبين بهذا أن الحرص على الدين أو الشح بالدين من أركان الدين. وهذا ما يمليه العقل السديد، لأن من اعتقد ديناً ثم لم يكن غيوراً عليه أو حريصاً على صونه، وفي غاية الشح به والإشفاق عليه، لم يعرف قدره وحظه الكبير منه، ومن كان الحق عنده حقيراً، لم يسكن الحق قلبه، كما ذكر البيهقي رحمه الله.

والحرص على الدين أو الشح بالدين له مظهران: الشح بأصله كيلا يذهب، والشح بكماله كيلا ينقص.

فكما مدح الله تعالى شعيباً عليه السلام بأنه شح على دينه، فلم يفارقه، على الرغم من استكراه قومه إياه على مفارقته، كذلك مدح يوسف عليه السلام بأن استعصم بربه، حين راودته امرأة العزيز عن نفسه وقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٣] فدل ذلك على أن الشح على شعب الإيمان كيلا ينقص بالمعاصي، كالشح على أصل الإيمان كيلا يذهب من أساسه.

ومن مظاهر الشح على الدين أن يهاجر الإنسان من بلد لا يستطيع أن يؤدي حقوق الدين فيه بينهم، ويخشى أن يفتنوه عن دينه، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٤/ ١٠٠] ومن هنا هاجر الصحابة الكرام من ديار الكفر، فإنهم هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة، للتخلص من الشدائد والمكاره.

ومن أمثلة الثبات على الدين ما أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن مسروق عن خبَّاب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً[١]، وكان لي على العاص بن وائل دَين، فأتيته أتقاضاه، فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث. فقال العاص: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ١٩/ ٧٧]. وقد عذب المشركون خبَّاباً، حيث كانوا يلزقون ظهره بالرَّضف (الحجارة المحماة) حتى ذهب لحم ظهره.

ومن أمثلة ثبات الإيمان في القلب ثبات بلال الحبشي من المهاجرين على تعذيب المشركين له في مكة، كما أخرج البيهقي في الشعب، عن عطاء الخراساني قال: كنت عند سعيد بن المسيب، فذكرت بلالاً، فقال: كان شحيحاً على دينه، وكان يعذَّب في الله، وكان يعذب على دينه، فإذا أراد المشركون أن يقاربهم[٢] قال: الله الله.

وكان ورقة بن نوفل يمر ببلال، وهو يعذَّب على الإسلام، وهو يقول: أحد أحد، فيقول ورقة: أحد أحد يا بلال[٣].

---

(١) القين الحداد.

(٢) أن يجاملهم في شركهم.

(٣) لكن من المعلوم أن ورقة توفي قبل إعلان دعوة الإسلام.

وأخرج الحاكم والبيهقي من طريقه عن رجال من آل عمار بن ياسر أن سمية أم عمار بن ياسر عذبها بنو المغيرة على الإسلام، وهي تأبى حتى قتلوها - فكانت أول شهيدة في الإسلام - وكان النبي ﷺ يمر بعمار وأبيه وأمه وهم يعذَّبون بالأبطح في رمضاء مكة، فيقول: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة».

أمثلة رائعة من ثبات السلف على دينهم

لقد قدَّم السلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين الأطهار أمثلة مشرفة من الصبر على التعذيب الشديد من المشركين، والثبات على الدين والإيمان مما أذهل الأعداء وأوقعهم في المذلة والخسارة والهوان.

من هذه الأمثلة الرائعة ثبات الرسول المصطفى وبلال فيما أخرجه الترمذي، وقال: حسن غريب عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أُخفت في الله عز وجل، وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله عز وجل وما يؤذى أحد، ولقد أتى عليَّ وعلى بلال ثلاثون يوماً وليلة وما لي من طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبْطُ بلال».

ومثل بلال صحابة آخرون كثيرون، حتى سألوا الدعاء لكشف الضر عنهم، أخرج البخاري عن خبّاب قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّد ببردة له، وهو في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا؟ ألا تستنصر الله لنا؟ قال: فجلس مُحْمراً وجهه، ثم قال: «والله، إن كان ممن قبلكم ليؤخذ الرجل، فتحفر له الحفرة، فيوضع المنشار على رأسه، فيُشق اثنتين، ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين عظمه ولحمه، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب

منكم من صنعاء إلى حضرموت، لا يخشى إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه، ولكنكم قوم تعجلون».

وأخرج مسلم في الصحيح عن صهيب قصة الساحر والراهب والغلام والملك الذي يدعي الربوبية، وفيها أن الملِك حفر أخدوداً في نجران، وأضرم فيها النيران، وأمر بإقحام كل من يؤمن بالله في هذا الأخدود حتى الأم المرضع، قال الله عز وجل عن أصحاب الأخدود: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨٥/ ٤-٨].

وقصة أخرى مشابهة فيما أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي مرت رائحة طيبة، فقلت: ما هذه الرائحة؟ قالوا: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها، كانت تمشطها، فوقع المشط من يدها، فقالت: بسم الله، فقالت ابنته: أبي؟ فقالت: لا، بل ربي وربكِ ورب أبيك. فقالت: أُخبرُ بذلك أبي؟ قالت: نعم، وأخبَرتْه، فدعا بها وبولدها، فقال: ألكِ رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربُّكَ الله. فأمر بنُقرة من نحاس، فأحميت، ثم أمر بها، فتُلقى فيها، فقالت: لي إليكَ حاجة. قال: وما هي؟ قالت: أن تجمع عظامي وعظام وَلَدي، فتدفنه جميعاً. فقال: ذلك لك، لما لك علينا من الحق. فأتى بأولادها، فألقى واحداً واحداً، حتى إذا كان آخر ولدها، وكان صبياً مرضعاً، فقال: اصبري يا أماه فإنك على الحق. ثم ألقيت مع ولدها».

وقال رسول الله ﷺ: «وتكلَّم أربعة صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم».

وفي حادثة تعذيب أخرى قصة زوجة فرعون، أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن سلمان الفارسي قال: «كانت امرأة فرعون تعذَّب

بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة».

وأخرج عبد بن حميد عن أبي رافع قال: «وتَّد فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم حمل على بطنها رحىً عظيمة حتى ماتت».

وفي تاريخنا النضر قصة عبد الله بن حُذافة السهمي، وهي ما ذكر في كتاب حياة الصحابة، عن أبي رافع قال: وجّه عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً إلى الروم، وفيهم رجل يقال له: عبد الله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم؛ فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد. فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصّر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال له عبد الله: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب - وفي رواية القطان: أو جميع ما ملكته العرب - على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت. قال: إذاً أقتلك، قال: أنت وذاك. فأمر به فصلب، وأمر الرماة برميه قريباً من يديه ومن رجليه، وهو يعرض عليه التنصر فأبى، ثم أنزله وصبَّ عليه وعلى أسير آخر ماء حاراً، ثم عرض عليه النصرانية فأبى، ثم عرض عليه الطاغية أن يطلق سراحه مع جميع أُسارى المسلمين، على أن يقبِّل رأسه، ففعل، فحينما عاد قبَّل رأسه ابن عمر، وأخبر عمر بخبره، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبِّل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام عمر، فقبل رأسه.

وأخرج مسلم عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فأعطاه غنماً بين جبلين، فأتى قومه، فقال: أي قوم، أسلموا، فوالله، إن محمداً يعطي عطاء رجل لا يخاف الفاقة، وإن الرجل ليجيء إلى النبي ﷺ ما يريد إلا الدنيا، فما يمشي حتى يكون دينه أحب إليه أو أعز عليه من الدنيا وما فيها.

وذكر البيهقي في الشُّعب، عن ميمون بن سياه، قال: «لا تُمهر الدنيا دينك، فإن من أمهر الدنيا دينه زَفَّت إليه الندم».

الأصل السابع عشر من أصول الإيمان

طلب العلم

الأصل السابع عشر من أصول الإيمان أو من شعبه هو طلب العلم، والعلوم قسمان: علوم الشريعة، وعلوم الدنيا أو علوم الوسائل والأدوات، والعلوم الشرعية فرض عين في الحد الأدنى الذي ينبغي معرفته، وهو المعلوم من الدين بالضرورة، أي بالبداهة، والأساسيات التي يجب على كل مسلم ومسلمة معرفتها، وهي علم العقيدة أو الإيمان من معرفة الله تعالى، ومعرفة ما جاء عن الله وهو علم النبوة والرسالة، وما تميز به الأنبياء والمرسلون، وعلم الأحكام الشرعية الواردة في الكتاب والسنة نصوصها ومعانيها كفرائض الصلاة والصيام والحج والزكاة والحلال والحرام والشرائع والأحكام الأساسية، فمعرفة هذه العلوم فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ويلحق بها بالنسبة لأهل الاختصاص معرفة الناسخ والمنسوخ، ومعرفة مسائل الإجماع وما أجمع عليه السلف الصالح، وتمييز الاجتماع عن الاختلاف، ومعرفة وجوه القياس وشروطه، وأقاويل السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهذه مطلوبة من أهل العلم والاختصاص.

وأما علوم الدنيا أو علوم الوسائل والأدوات فهي معرفة أصول فهم القرآن والسنة، وهو العلم بلسان العرب وعاداتهم في المخاطبات. وتمييز

مراتب الأخبار أو الآثار والأحاديث لينزل كل خبر منزلته. وهذا لا بد منه لأهل الاختصاص.

فإذا بلغ العالم مرتبة المجتهدين، وجب عليه النظر في أقوال المختلفين، واختيار الراجح منها، ثم القياس لكل ما يستجد أو يحدث على أشبه الأصول وأولاها به.

ومنها معرفة ما تحتاج إليه الأمة من علوم الطب والهندسة والحساب والرياضيات والفلك والزراعة والصناعة والتجارة والفيزياء والكيمياء ونحوها من العلوم المعاصرة، وطلب هذه العلوم فرض كفاية، فيجب على بعض المسلمين معرفتها لتتحقق الكفاية، فإن أهملتها الأمة أثم الجميع، وإن تعلمها بعضهم سقط الإثم عن الباقين.

قال الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة: العلم علمان: **علم عامة**: لا يسع للبالغ العاقل جهلها كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان وزكاة الأموال وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وأن الله حرم على الناس الزنا والقتل والسرقة والخمر وأمثال ذلك، مما نص عليه كتاب الله عز وجل أو تناقله المسلمون قاطبة، أو أدركوه وحكوه عن رسول الله ﷺ وهذا واجب على جميع أهل الإسلام.

والنوع الثاني: ما ينوب العباد من فروع الفرائض وخواص الأحكام فما ليس فيه نص قرآن أو سنة، وهذا من علوم الخاصة، لا أخبار العامة، وعلى الخاصة أهل الكفاءة معرفته، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢].

ومثال ذلك في رأي الإمام الشافعي: الجهاد في سبيل الله عز وجل، والصلاة على الجنازة، ودفن الموتى، ورد السلام.

وقد أنذر النبي ﷺ المسلمين من إهمال فرائض العلم وإعداد العلماء بقوله فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا». قال الإمام البيهقي رحمه الله: وفي تحذير رفع العلم دليل على وجوب طلبه، وتحريض عليه.

سئل سعيد بن جبير - فيما ذكره البيهقي في الشعب - ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم.

وعن أنس بن مالك[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم». وفي لفظ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، والله يحب إغاثة اللهفان»[2]. وفي لفظ آخر: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[3].

وروى أبو يعلى والبزار عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلَّموا القرآن وعلِّموه الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس، فإني امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، حتى يختلف الرجلان في الفريضة لا يجدان من يخبرهما بها»[4].

وروى البيهقي عن عمر قال: « تفقهوا قبل أن تسوّدوا». «تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن». «تعلموا العربية فإنها تثبِّت العقل وتزيد في المروءة».

---

(١) أخرجه ابن عدي والعقيلي، وله طرق كثيرة، وهو شبه مشهور، وإسناده ضعيف، وقد روي من أوجه كلها ضعيفة.
(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامعه.
(٣) أخرجه ابن عبد البر.
(٤) رواه الدارقطني أيضاً، وفي إسناده غير معروف.

فضل العلم وأهميته

العلم سبيل نهضة الفرد والأمة، وطريق ازدهارها، وأساس عزتها ومكانتها، ولقد قامت دعوة الإسلام على صرح العلم، لأنه ينير العقل، ويرشد إلى الحق والخير والجمال وتحقيق المصالح. لذا كان العلم في الإسلام وغيره مطلوباً قبل العمل، فقال تعالى في معرفة الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩/٤٧] فبدأ بالعلم قبل العمل، وجعل الله تعالى في الشهادة عليه اسم العلماء مع الملائكة فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨]. وأبان الله سبحانه أن خشيته إنما تكون بالعلم في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨/٣٥].

ولم يسوّ الله بحال من الأحوال بين العلم وضده وهو الجهل، فقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩/٣٩] وامتن الله على رسوله بالعلم والتعليم فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٣]. وجعل الله للعلماء درجات، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ٨٣] ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١].

كل ذلك تنويه بأهمية العلم وفضله، وكونه نوراً للعقل والنفس والمجتمع، وقد أيدت الأحاديث هذا التنويه والتشريف للعلم، فقال النبي ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة». أي إن العلم سبيل الوصول إلى الجنة دار الخلود .

وما أعظم مرتبة العلماء حيث جُعلوا ورثة الأنبياء، فيما أخرجه أبو داوود عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ: «ومن سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء. إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر».

وأخرج أبو داوود أيضاً وابن ماجه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جاء مسجدي هذا لم يأت إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، وفيما لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره». أي إن العالم كالمجاهد في سبيل الله.

وسبيل التمايز بين الناس في الجاهلية والإسلام هو العلم، وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وأخرج البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وأخرج الطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة بن اليمان، والحاكم عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع».

ومن أعجب ما جاء في تقييم العلم ما أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكرُ الله، وعالم أو متعلم».

وأخرج الطبراني في الصغير عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً، ولا تكن الخامس فتهلك».

وأخرج الدارقطني عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ما عُبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل دين عماد، وعماد الدين الفقه».

وأخرج الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس يقول: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

وأخرج ابن عدي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء دِعامة، ودِعامة الإسلام الفقه في الدين، ولفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد».

ومن أطرف وأهم ما يتميز به العالم هو الشفاعة يوم القيامة، أخرج ابن عدي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبْعَث العالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة. ويقال للعالم: اثبُت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم». وقال ابن مسعود: «موت العالم ثُلْمة(١) لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار».

وخرج ابن عدي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً فيما ينفعهم من أمر دينهم، بعثه الله يوم القيامة من العلماء، وفضل العالم على العابد سبعين درجة، الله أعلم بما بين كل درجتين».

وأخرج البيهقي والسلفي وابن النجار عن أبي الدرداء قال: سئل رسول الله ﷺ: ما حد العلم إذا حفظه الرجل كان فقيهاً؟ فقال: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها، بعثه الله فقيهاً، وكنت له يوم القيامة شافعاً وشهيداً».

---

(١) خلل في الحائط.

ضوابط نشر العلم

العلم والتعلم والتعليم حلقة متكاملة دائمة، لا غنى للحياة عنها، ولا لأي مجتمع أو فرد التخلي عنها، فالعلم غذاء الفكر والعقل والنفس، والتعلم وسيلة التزويد والإغناء، والاستذكار والالتزام، والتعليم واجب اجتماعي وفردي على العالم وأهل العلم، ولا يستقيم التعليم ولا يعم أثره وتتحقق غاياته ومقاصده إلا بأربع خصال: هي الإخلاص في التبليغ والإفهام، والتواضع لمن يتعلم منه ولمن يعلِّم، والمتابعة ضمن منهج معين رصين دون انقطاع، والأمانة الكبيرة في نقل العلوم والمعارف، من غير غش ولا كتمان ولا خطأ ولا تقصير، وإنما ببساطة ويُسْر وجلاء وترغيب.

أما التعلم فهو فرض عيني في الواجبات الإسلامية الأساسية، وفرض كفائي في بقية ساحات المعرفة الواسعة وفي جميع آفاق الحياة ومتطلباتها لتحقيق التقدم والازدهار، والنهضة بالأفراد والمجتمعات. وقد عبر القرآن الكريم صراحة عن الإقبال على العلم وفنونه في قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢] فلم يوجب القرآن التعلم الكفائي أو التخصص على جميع الناس، وإنما على فئة معينة من كل جماعة أو طائفة.

وأما التعليم ففريضة دائمة على كل من أوتي علماً نافعاً، فعليه أن ينشره ولا يكتمه، ويتفانى في نقل ما تعلمه الإنسان، سواء أكان من الأنبياء والمرسلين أم من العلماء وصفوة الناس في مختلف الاختصاصات، قال الله تعالى مبيناً كون نشر العلم تنفيذاً لميثاق وعهد

قديم بين الله تعالى وخاصة أوليائه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٧].

وعلى طالب العلم أن يختار في تعلمه وسؤاله أهل الثقة والورع والأمانة والتضلع في العلم، لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٣] فالجاهل أو غير العالم عليه سؤال العالم الثقة، وعلى هذا العالم الجواب إذا سئل.

ونشر العلم يثاب عليه العالم ثواباً عظيماً، فهو يؤدي واجبه في الهداية والتنوير، بأمانة وإخلاص منقطع النظير، لا يبغي من الناس جزاءً ولا شكوراً، عملاً بما أرشد إليه النبي المصطفى ﷺ فيما أخرجه أبو داوود والترمذي وغيرهما عن عبد الرحمن بن أبي أبان بن عثمان عن أبيه قال: بعث مروان بن الحكم إلى زيد بن ثابت نصف النهار، فقلنا: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأله. فلما خرج سألناه، فقال: نعم سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ فقال: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً، فحفظه حتى يبلّغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه. ثلاث لا يُغَلّ عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم. ومن كانت نيته الآخرة جمع الله له أمره، وجعل الغنى في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له».

وأخرج الدارمي والدارقطني في سننهما وغيرهما عن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلّموا العلم وعلّموه الناس».

وأخرج الترمذي وقال: حسن، وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سهل البغدادي يقول: «شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم» وفي لفظ آخر: «شكر العلم التعليم، وشكر العمل مزيد المعرفة».

وروى أبو يعلى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة يزيده الله بها هدى، أو يرده بها عن ردى».

وقال كثير بن مرة الحضرمي: «لا تحدِّث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك، ولا تحدِّث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث به غير أهله فتجهل، إن عليك في علمك حقاً، إن عليك في مالك حقاً».

وأخرج الشجري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من أجود جوداً؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الله أجود جوداً، ثم أنا أجود بني آدم، وأجودُ مَنْ بَعْدي رجل علِم علماً فنشره، يأتي يوم القيامة أميراً وحده، أو أمة وحده».

وتبسيط العلم والابتعاد عن الغرائب والخيالات والأقاصيص هو منهج أهل الاعتدال، لما أخرجه ابن عدي في الكامل عن المقدام بن معدي كرِب، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا حَدَّثتم الناس عن ربهم، فلا تحدثوهم بما يغرب عليهم، ويشق عليهم».

وأخرج البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله».

آداب طالب العلم

على طالب أي علم شرعي أو غير شرعي أن يتصف بآداب معينة مفيدة له في دينه ودنياه وآخرته، فتتحقق له آماله في الحياة، ويستفيد من علمه، ويستنير به في تنمية فكره، وزيادة معرفته، واتساع نطاق عقله، وإغناء تجاربه وخبرته في الحياة، وهذا شيء ملموس ودائم الأثر.

من هذه الآداب أن يكون تعلم العلم لوجه الله تعالى، لا يريد به تكسب مال، ولا جاه، ولا رغبة في استعلاء ولا ترفع، ولا يكون بقصد الشهرة والرياء والسمعة والمباهاة، فيتحدث الناس عنه أنه عالم، أو متفوق على غيره، وإنما يكون قصد المتعلم نفع نفسه وأمته ومجتمعه، وإحياءَ معالم الدين، وصونه عن أي تشويه، وحمايته من الزوال.

وعلى طالب العلوم الدينية أن يحرص على العمل بما يرضي الله تعالى عنه، وأن يعمل بما علم، وأن يُكثر سواد العلماء، ونفع الناس، وصون العلم عن الانقراض أو الزوال.

أخرج أبو داوود وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً يبتغي به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة». أي ريحها. دل الحديث على أن العلم الشرعي لا يكون بقصد الدنيا أو التكسب.

وأخرج الحاكم والبيهقي من طريقه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «لا تعلّموا العلم لتباهوا به العلماء، أو تماروا به السفهاء ولا لتحيَّزوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار». أي فليس العلم سلعة للمباهاة أو الشهرة أو مجادلة السفهاء أو الترفع في المجالس.

وعلى العالم أن يعمل أولاً بما تعلمه، حتى يكون أسوة حسنة لغيره، ويكون عمله قرينة على صدق علمه وإخلاصه في طلب العلم، أخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت ليلة أسري بي على قوم، تُقْرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قرضت وُفَّت، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون». أي إن العلم من غير عمل به، أو تلاوة القرآن دون امتثال لأحكامه، داء يستوجب العقاب.

وأخرج الطبراني في الكبير، والبزار، ورجاله رجال الصحيح عن عمران بن حصين ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدي منافق عالم اللسان». وفي رواية: «إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة منافق عليم اللسان».

والانتفاع بالعلم أول ثماره في العالم، أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه». وروى مسلم وغيره عن زيد بن أرقم عن أنس قال: كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع».

وكل إنسان مسؤول يوم القيامة عن خمسة أمور هي قوام الحياة وأساس النجاة، أخرج ابن عدي والبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدمُ ابنِ آدم من بين يدي ربه حتى يسأل عن خمس خصال: عن شبابه فيما أبلاه، وعمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم».

ومن ألزم آداب العلم التواضع للعالم والمتعلم، أخرج الإمام أحمد في الزهد وابن عبد البر وابن أبي شيبة وغيرهم أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «تعلَّموا العلم وعلِّموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة،

وتواضعوا لمن تعلّمونه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم بجهلكم».

ومن خصائص العلم زيادة الخوف من الله والتقوى، ذكر البيهقي عن الفضيل بن عياض قال: «من أوتي علماً لا يزداد فيه خوفاً وحزناً وبكاء خليق به بألا يكون أوتي علماً ينفعه، ثم قرأ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٥٣/٥٩-٦٠]».

والعلم ميزان الكلام النافع، قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، ومن عمل بغير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

والعلم يرشد إلى مكارم الأخلاق والآداب، قال بعض الحكماء: ويل للقائلين بالحق، العاملين بالباطل، الذين قالوا الحسنات، وعملوا السيئات، كيف يقبل قولهم إذا خالفوا أمر الله، ونزلوا بأعمالهم منازل المجرمين؟

وكتب رجل إلى أخ له يقول: اعلم أن الحلم لباس العلم، فلا تعرض عنه.

الأصل الثامن عشر من أصول الإيمان

تعظيم القرآن

القرآن الكريم كتاب الكون الأكبر، وصفحة الوجود، وفاتحة الدين والدنيا والآخرة، وأساس النجاة والسلامة، ومنهاج الهداية والرشاد الدائم الخالد إلى يوم القيامة، لذلك كان تعظيم القرآن من أصول أو من شعب الإيمان، وهو الأصل التاسع عشر أو الشعبة التاسعة عشرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩-١٠].

فيكون تعظيم القرآن الكريم واجباً شرعياً، ومن شعائر الإيمان وأصوله ومظاهر تعظيم القرآن كثيرة منها:

افتتاح القرآن بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ثم البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» في كل سورة ما عدا التوبة، ثم متابعة تعلمه ومداومة تلاوته: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠] واستحضار القلب عند قراءته، والتفكر في آياته، واستشعار عظمته، والميل إلى البكاء، والخوف من مواعظ الله ووعيده فيها. وإذا ختم القارئ القرآن حمد الله تعالى، وصلى على رسوله الكريم، وشهد لله بالوحدانية وللنبي ﷺ بالرسالة والتبليغ لكل ما أنزل عليه. ويتحرى المؤمن ختم

القرآن أول النهار أو أولَ الليل، ويكبِّر الله عند الختم. ويدعو الله بما شاء من أمر الدين والدنيا.

وتعظيم القرآن يتطلب التوقف عند ذكر الجنة والنار، والرغبة إلى الله في الجنة، والاستعاذة به من النار، والاعتراف بنعم الله تبارك وتعالى وشكره عليها، وأداء سجود التلاوة في آيات السجدة.

ومن آداب تلاوة القرآن الطهارة، فلا يقرأ في حالة الجنابة أو الحيض والنفاس، ولا يلمس القرآن ولا يحمله إلا في حال الطهارة. وينظف الإنسان فمه لأجل القراءة بالسواك والمضمضة، ويتطيب، ويحسن اللباس، ولا يقطع القارئ القراءة لمكالمة الناس. ويجهر بالقراءة ليلاً، ويسرّ بها نهاراً إلا إذا كان في موضع خالٍ لا لغو فيه ولا صخب، فيجهر بالقراءة. ويحسِّن صوته بالقراءة أقصى ما يقدر عليه.

وعليه ترتيل القرآن وتجويده، فلا يسرع فيه، ولا يقرأ القرآن في أقل من ثلاثة أيام. ويقرأ آية آية ولا يدرجها إدراجاً.

وكل من تعلم شيئاً من القرآن علّمه من يرغب فيه. ويقرأ بالقراءات المجمع عليها المشهورة لا بالغريبة الشاذة. وتعلم القرآن يكون من العدول العلماء.

وعلى كل مسلم ومسلمة ألا يعطل مصحفاً عنده، ولا يأتي عليه يوم إلا وينظر فيه ويقرأ منه. ويكثر من القراءة في الصلاة ويختم القرآن في صلاته بقدر المستطاع. ويزداد من قراءة القرآن في شهر رمضان، لأنه شهر القرآن الذي أنزل فيه.

ويبتعد الإنسان قدر الإمكان عن الجدل في القرآن، ولا يفسر آية بالظن، ولا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، ويُعرب القرآن ويفخمه، ومن بدأ قراءة سورة أكملها، ويختم تلاوته بالفاتحة.

وعلى قارئ القرآن معرفة معاني الآيات وتفهمها والعلم بها، ومعرفة ما ورد في فضل كل سورة، ويقرأ كل سورة في وقت أو حال ورد الخبر بتوقيته أو تعيينه.

ويستشفي قارئ القرآن بآياته، ويتبرك بقراءته على نفسه وعلى المريض والحزين والخائف والمسافر، ويتبع قراءته بالدعاء والمسألة.

والمؤمن اليقظ يفرح بما آتاه الله من القرآن أشد من فرحة الغني بغناه، وذي السلطان بسلطانه، ويستعظم نعمة الله تعالى عليه، ويحمده في كل وقت على شرف الانتماء لأهل القرآن وإدراك نعمته.

وعلى القارئ للقرآن ألا يباهي بقراءة القرآن قارئاً غيره، ولا يقرأ في الأسواق والمجالس لإعطاء المال، فيأكل الأموال بالقرآن، ولا يقرأ في الحمام والمواضع القذرة، ولا في حال قضاء الحاجة، ولا يتعمق أو يتشدق في القرآن.

وإذا اجتمع الجماعة في مسجد أو غيره في غير الصلاة والخطبة لا يشوش بعضهم على بعض، ولا مانع شرعاً من القراءة الجماعية بقصد التعليم. أما في أثناء الصلاة فيقرأ الإمام فقط في الصلاة الجهرية، ويستمع المقتدون. ولا يقرأ أحد القرآن في حال الخطبة إذا كان يسمعها.

ومن تعظيم القرآن ألا يوضع فوقه كتاب آخر، ولا ثوب، ويجوز وضع المصحف على مصحف آخر. ولا يخلط في المصحف ما ليس من القرآن من عدد الآيات والسجدات والأعشار والوقوف واختلاف القراءات ومعاني الآيات.

وينور البيت الذي يقرأ فيه القرآن بالأنوار المعروفة في كل زمان.

ويُطلب تعظيم حملة القرآن وتوقيرهم لمعرفتهم بأحكام القرآن وآدابه.

تعليم القرآن

إن أشرف مهنة وأعظم مهمة تربوية وتعليمية هي تعليم القرآن نطقاً وتلاوة، وفهماً و تدبراً، وتنبيهاً لما في القرآن الكريم من أحكام وشرائع، وعظات وزواجر، وترغيب وترهيب، فذلك يسهم في تبليغ ألوان الوحي الإلهي من أجل إسعاد البشرية وإنقاذها من وهاد الكفر والضلال، والانحراف والعصيان. وقد أرشد القرآن الكريم لمهمة التربية والتعليم واتباع الآيات، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩].

وأخرج البخاري في صحيحه عن عثمان بن عفان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أفضلكم من تعلّم القرآن وعلَّمه». وفي رواية: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة من تبعه، ولا يعوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيُستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، و لكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، ثلاثون حسنة». هذه مقومات معرفة القرآن الشاملة للدين والدنيا و الآخرة. فهو في الدنيا نعم المؤدب والمعلم وفي الآخرة يرشد إلى الجنة والثواب، ويحذر من النار.

وأخرج مسلم عن عقبة بن عامر يقول: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً، ونحن في الصُّفَّة، فقال: «أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان أو العقيق، فيأتي كل يوم بناقتين كَوْماوين زهراوين، فيأخُذهما في غير إثم بالله، ولا قطع رحم؟» قال: قلنا: كلنا يا رسول الله نحب ذلك. قال: «فلأن يغدو أحدكم إلى المسجد، فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين كَوْماوين، وثلاثٌ خير له من ثلاث، وأربعٌ خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل».

وأخرج مسلم والبيهقي عن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ أنه قال فيما خطب: «إني تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله، فخذوا به». فحَثَّ عليه ورغبَّ فيه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قلنا: نعم أو بلى. قال: «فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله تعالى، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً».

يؤكد عظمة القرآن وفائدة تعليمه وتبليغه للناس ما أخرج البغوي في شرح السنة، والترمذي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنها ستكون فتنة». قال: قلت: فما المخرج؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى - أو العلم - من غيره، أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ، يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧٢/ ١-٢] من قال به

صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[١].

والقرآن طريق النجاة من الفتن والشرور، أخرج الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي عن حذيفة بن اليمان ﵁ قال: قلت: يا رسول الله، أبعد هذا الخير الذي نحن فيه من شر نحذره؟ قال: «يا حذيفة، عليك بكتاب الله، فتعلَّمه، واتبع ما فيه». حتى قال ذلك ثلاث مرات، قلت: نعم.

وأخرج الترمذي والحاكم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، عن ابن عباس ﵄، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

وحفظ القرآن والعمل به سبيل لدخول الجنة والشفاعة، أخرج الترمذي وابن عدي في الكامل والبيهقي عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن فحفظه، واستظهره، وأحل حلاله، وحرم حرامه، أدخله الجنة، وشفَّعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد وجبت لهم النار».

وأخرج الحاكم والبخاري في تاريخه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم القرآن في شيبته، اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره، فهو يتفلت منه، ولا يتركه، فله أجره مرتين».

وكان منهج الصحابة الكرام تعلُّم بعض الآيات والعمل بها أولاً، ثم الانتقال إلى غيرها، أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن مسعود قال: «كنا إذا تعلَّمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن، لم نتعلم من العشر التي أنزلت بعدها، حتى نتعلم ما فيه». قيل لشريك الراوي: من العمل؟ قال: نعم.

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي حديث الحارث الأعور مقال.

متابعة تلاوة القرآن

إن أحب شيء لكل مسلم ومسلمة بعد محبة الله ورسوله هو كتاب الله عز وجل الذي أنزله على نبيه المصطفى ﷺ هادياً ومبشراً ونذيراً، ومنقذاً ومنجياً من ظلمات الكفر والضلال، والانحراف والتقصير والعصيان. فتكون تلاوة آياته صباح مساء وفي كل وقت مأموراً به شرعاً، للتذكر والعظة والاعتبار، ولإنارة العقل والقلب والنفس بأنوار الآيات، وإمداد الفكر بالغذاء الضروري لصحوة الإنسان، وإيقاد الوعي، وشحن العزيمة والإرادة لأداء الواجبات وعدم التفريط بشيء منها.

لذا وجّهنا الله عز وجل إلى ضرورة إدمان تلاوة القرآن، وأثنى على التالين والقرّاء والمتأملين في كل آية من الآيات الكريمات، مثل قوله سبحانه: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٣]. وسمى الله القرآن «ذِكْراً» في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤] وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٣٨/ ٨٧] وتوعد الله سبحانه كل من أعرض عن القرآن، ومن تعلم منه شيئاً ثم نسيه أو تناساه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٢٠/ ٩٩-١٠١] ثم قال تعالى بعد ذلك بآيات: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٤-١٢٦].

وأكدت السنة النبوية على هذا التوجه أو المنهج فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن،

فوالذي نفسُ محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عُقُلها» أو «من عُقُلها».

وأخرج البخاري أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المُعْقَلة. إن عاهد عليها أمسكها. وإن أطلقها ذهبت». ورواه مسلم عن ابن عمر.

ومن الأخبار النبوية المحذِّرة من نسيان القرآن ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسِّي، استذكروا القرآن فهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النَّعَم في عُقُلها». جمع عقال، والتفصي التهرب.

وقال الضحاك بن مزاحم: ما من أحد تعلّم القرآن، ثم نسيه إلا بذنب يحدثه، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠] وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب[١].

وأخرج أبو داوود والترمذي[٢] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرضت علي أجور أمتي حتى القَذَاة[٣] يخرجها الرجل من المسجد. وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها».

وأخرج أحمد عن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل تعلَّم القرآن ثم نسيه، إلا لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو أجذم، وما من أمير عشرة إلا أتى الله عز وجل يوم القيامة مغلولاً لا يطلقه إلا العدل».

---

(١) أخرجه ابن المبارك وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر، وابن أبي حاتم والبيهقي.

(٢) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) النبتة أو القشة ونحوها.

والتنافس المحمود أو الغبطة - أي محبة ما لدى الآخرين دون تأمل زواله عنهم - مرغوب فيه شرعاً، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاه الله هذا الكتاب، فقام به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق به آناء الليل والنهار».

ومن أجلى ثمار تلاوة القرآن الانتفاع به وتطييب القارئ، أخرج أبو داوود الطيالسي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة[1] ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها خبيث، وريحها خبيث».

فوائد تلاوة القرآن

إن تلاوة القرآن غذاء الروح والنفس، وضياء القلب، ونور الإيمان وسبيل زرع اليقين، وطريق معرفة رضوان الله والحق، وإدراك الشرائع والأحكام، والاطلاع على مراد الله سبحانه في هذا الوجود. وصف الله تعالى القرآن المجيد بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٥-١٦].

(١) ثمر تسميه العامة الكبّاد.

ونور القرآن شامل كل مناحي الحياة الدنيوية والأخروية، فقد أوضحت السنة النبوية مشاعل هذا النور وإضاءاته وجدواه، أخرج مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي شفيعاً لصاحبه يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غَيَايتان، أو كأنهما فِرْقان[1] من طير صواف، تُحاجّان عن صاحبهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تطيقها البطلة». أي السحرة.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تلا آية من كتاب الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن استمع لآية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة».

وفي حديث لعائشة رضي الله عنها عند البيهقي قالت: قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء، كما تتراءى النجوم لأهل الأرض».

وثواب تلاوة القرآن عظيمة جداً، فبكل حرف منه عشر حسنات، أخرج الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود أيضاً أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله، والنور المبين النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة من تبعه، ولا يَعْوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيُستعتب،

---

(١) قسمان أو فريقان.

ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق عن كثرة الرد، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، و لكن الألف واللام والميم».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: أي ربِّ، إني منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفِّعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفِّعني فيه، فيشفعان».

وأخرج البيهقي من طريق أبي داوود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْقَ ورتِّل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وأخرج الترمذي وقال: حسن غريب، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة يقولان: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة على كثيب من مسك أسود يوم القيامة، لا يهولهم الفزع، ولا ينالهم الحساب: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأَمَّ به قوماً وهم به راضون، ورجل أَذَّن في مسجد دعا إلى الله ابتغاء وجه الله، ورجل ابتُلي بالرق في الدنيا، فلم يشغله ذلك عن طلب الآخرة».

وأخرج الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: من شغله قراءة القرآن عن ذِكْري ومسألتي، أعطيته أفضل ثواب السائلين، وفضلُ القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وقال عبد الله بن مسعود - فيما رواه البيهقي -: «من أحب أن يعلم أنه يحب الله ورسوله فلينظر فإن كان يحب القرآن، فإنه يحب الله ورسوله».

وروى البيهقي عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن». وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: «إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما يبقى الصلاة، وإن هذا القرآن الذي بين أظهركم وشِك أن يرفع». قالوا: كيف وقد أثبته الله في قلوبنا، وأثبتناه في المصاحف؟ قال: «يسْرى عليه ليلاً، فيَذْهب ما في قلوبكم، ويُرفع ما في المصاحف». ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٦]».

استحضار القلب في تلاوة القرآن

تلاوة القرآن الكريم ليست مجرد ترداد الكلمات باللسان والإعجاب بجرس الآية وحلاوتها، وعذوبة ألفاظها، وتذوق جمالها، وإنما الهدف الصحيح من القراءة هو تدبر المعاني، والتأمل في العبرة من الخبر أو القصة أو المقصود من الأحكام المستنبطة من الآيات، وهذا ما حدده القرآن الكريم من التلاوة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٨] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/ ٢٩].

وما أحكم ذلك التوجيه والتوبيخ القرآني والإنذار بالعذاب لأولئك الذين يعطّلون حواسهم، ويحجبونها عن إدراك مغزى الهداية الإلهية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

وهذه أمثلة رائعة من الهدي النبوي والسيرة النبوية في إحضار القارئ للقرآن قلبه، وإدراك ما يقرؤه، والتفكر فيه، أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه، وأحمد والنسائي وابن مردويه في سننه عن أبي ذر الغفاري قال: قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح، أي قام مصلياً قيام الليل في آية قرآنية وهي: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨/٥] وفي رواية أخرى: فقلت: يا رسول الله، ما زلت تردد هذه الآية حتى أصبحت. فقال: «إني سألت ربي الشفاعة لأمتي فأعطانيها، وهي نائلة من لا يشرك بالله شيئاً».

وقال ابن عباس - فيما أخبر به البيهقي - عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القرآن، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: لئن أقرأ البقرة في ليلة أتدبرها وأرتلها أحب إلي أن أقرأه كما تقرأ.

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: «اقرؤوا القرآن، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة». وقال ابن مسعود أيضاً لرجل سأله بقوله: أوصني. فقال: إذا سمعت الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأصغ إليها سمعك، فإنه خير توصى به أو شر تصرف عنه.

وذكر البيهقي عن رجل من ولد ابن أبي ليلى قال: دخلتْ عليّ امرأة، وأنا أقرأ سورة هود، فقالت: يا أبا عبد الرحمن، هكذا تقرأ سورة هود؟ والله إني فيها منذ ستة أشهر وما فرغت من قراءتها.

وأخرج النسائي عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ خطب الناس، وهو يسند ظهره إلى نخلة، فقال: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس، إن خير الناس رجل عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره، أو على قدميه، حتى يأتيه الموت وهو على ذلك. وإن شر الناس رجل فاجر جريء يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه».

وربما يؤدي التفاعل مع قراءة القرآن إلى البكاء. روى البيهقي حديث مطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحا من البكاء». وفي رواية لأبي داوود والترمذي والنسائي: «أتيت النبي ﷺ وهو يصلي، وبصدره أزيز كأزيز المرجل».

وفي حديث متفق عليه بين البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي سورة النساء». قال: قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت عليه سورة النساء، فلما بلغت هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ٤١] غمزني غامز، فرفعت رأسي، فإذا تذرفان. وسبب البكاء الإحساس الكبير بعظم المسؤولية بالشهادة على أمته هل آمنوا أو كفروا؟

ومن الأمثلة ما رواه البيهقي عن عائشة في قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه ابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يتعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن.

وكذلك روى البيهقي عن عبد الله بن شداد بن الهاد يقول: سمعت نشيج عمر بن الخطاب وأنا في آخر الصفوف من صلاة الصبح يقرأ من سورة يوسف يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٦].

وروى البيهقي عن ابن أبي مليكة قال: سمعت ابن عباس من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة، وكان يصلي ركعتين، فإذا نزل، قام شطر الليل، ويرتل القرآن، يقرأ حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب، يقرأ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ٥٠/ ١٩].

التكبير عند ختم القرآن

تعظيماً لله جل جلاله، وإكباراً لعظمة كلام الله وبلاغته في قرآنه، يستحب التكبير بقول: «الله أكبر» بعد الانتهاء من ختم القرآن الكريم، لقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١١] وهذا دليل واضح على طلب التكبير والحمد لله، لأن الله تعالى أمر بهما في هذه الآية. وأجمع العلماء على أن الحمد مستحب، فوجب أن يكون التكبير مستحباً أيضاً. ويبدأ التكبير عند كل سورة بعد سورة الضحى، فإذا ختم سورة الناس وختم كبّر.

وبما أن قراءة القرآن عبادة، وكل عبادة تتطلب الدعاء بعد الفراغ منها، كالصيام وغيره، فيشرع التكبير بعد ختم القرآن، لقوله تعالى بعد الصيام: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٦]. ثم أتبع الحق ذلك بتوبيخ الكفار على تركهم الإيمان بالقرآن، ومدح العلماء بالتخشع لله عز وجل إذا سمعوه، فقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١١٠] أي ادعوا الله إذا قرأتم القرآن. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك القرآن أو بدعائك الذي تدعو به إذا فرغت من التلاوة.

وقد ثبت عن جماعة من الصحابة الكرام كابن عباس وأبي بن كعب، وعن التابعين مثل مجاهد وإسماعيل بن عبد الله المكي وعبد الله بن كثير

أنهم أمروا بالتكبير، بعد سورة الضحى حتى يختم القرآن. وقد أخبر أبي بن كعب أن النبي ﷺ أمر بذلك.

وصفة التكبير - كما قال الحليمي رحمه الله - في أواخر هذه السور من الضحى حتى الناس، أن القارئ كلما ختم سورة وقف وقفة، ثم قال: «الله أكبر» ثم ابتدأ السورة التي تليها، إلى آخر القرآن، ثم كبَّر بعد كل سورة، ثم أتبع التكبير بالحمد لله، والتصديق «صدق الله العظيم» والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء. قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٥].

وقبل أهل الحديث ما ورد من الدعوات وفضائل الأعمال في الأحاديث الضعيفة، منها ما روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: صليت خلف النبي ﷺ فقرأ سورة البقرة، فلما ختمها قال: «اللهم لك الحمد»[1] قلت (أي الراوي حنظلة القاضي) لعبد الكريم: كم مرة؟ قال: عشراً، أو سبع مرات، ثم قرأ الذي بعدها، ففعل مثل ذلك.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن، وحمد الرب، وصلى على النبي ﷺ، ويستغفر ربه، فقد طلب الخير مكانه».

وأخرج البيهقي كذلك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أسْمع حرفاً من كتاب الله طاهراً، كتبت له عشر حسنات، ومحيت عنه عشر سيئات، ورفعت له عشر درجات، ومن قرأ حرفاً من كتاب الله في صلاة قاعداً، كتبت له خمسون حسنة، ومحيت عنه خمسون سيئة، ورفعت له خمسون درجة، ومن قرأ حرفاً من كتاب الله قائماً في صلاة كتبت له مئة حسنة، ومحيتْ عنه مئة سيئة، ورفعت له مئة درجة، ومن قرأه فختمه، كتب الله عنده دعوة مجابة معجلة أو مؤخرة». فقال له رجل:

---

(١) وفي رواية: «اللهم ربنا لك الحمد».

يا ابن عباس: كان رجل لم يتعلم إلا سورة أو سورتين. قال: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال: «ختمه من حيث علمه، ختمه من حيث علمه».

ومن روايات البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «مع كل خَتْمة دعوة مستجابة». وفي لفظ: «له عند ختم القرآن دعوة مستجابة، وشجرة في الجنة».

وكان عبد الله بن المبارك يعجبه إذا ختم القرآن أن يكون دعاؤه في السجود.

هذه الأخبار وإن كانت ضعيفة السند، لكنها ترشد قارئ القرآن إلى أن يجلب لنفسه النفع ويدفع الضر، لأن شأن المؤمن في دعائه أن يغتنم المناسبات التي تقرِّبه إلى ربه، والتجليات الإلهية بالرحمة والرضوان التي تتنزل عند تلاوة القرآن، ففي كل حال ينبغي أن يكون الإنسان خاشعاً لله، قريب الصلة بالله، واثق الاعتقاد بأنه ربه قريب سميع مجيب رحيم، وسعت رحمته كل شيء، وعمّ فضله وإحسانه ونعمته جميع مخلوقاته. وكل هذه الأوصاف دوافع ومشجعات تدفع الإنسان للاستزادة من دعاء الله، وتكبيره وحمده، والصلاة والسلام على نبيه، والاستغفار الدائم.

سؤال الجنة والاستعاذة من النار

يفرح المؤمن حينما يمر في أثناء تلاوة القرآن الكريم بآية الرحمة وجنة النعيم، ويخاف ويخشى ويضطرب حينما يمر بآية فيها عذاب النار وأهوالها، فكان من مقتضى ذلك أن يسأل الله تعالى الجنة وإفاضتَه الرحمة، ويستعيذ به من النار، وهذا ما علّمنا إياه نبي الرحمة صلوات الله عليه وسلامه.

أخرج مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ فافتتح البقرة، فقلت: يصلي بها في ركعة، ثم مضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء، فقرأها، ثم افتتح آل عمران، فقرأها يقرأ مترسلاً، فإذا مرّ بآية فيها تسبيح سبَّح. وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوّذ، ثم ركع فقال: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ثم قام قريباً مما ركع، ثم سجد، فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه.

وفي رواية للبيهقي عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أن النبي ﷺ كان يصلي تطوعاً، فمر بآية، فقال: «ويل لأهل النار، وأعوذ بالله من النار».

وفي رواية لابن أبي شيبة عن عائشة ﷺ أنها كانت إذا قرأت ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٥٢/٢٧] قالت: اللهم مُنَّ علي وقني عذاب السموم.

وفي رواية أخرى للبيهقي عن مسلم بن مخراق قال: قلت لعائشة: إن رجالاً يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثة. قالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع رسول الله ﷺ في الليل التام، فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فإذا مرَّ بآية فيها استبشار، دعا ورغِب، وإذا مرَّ بآية فيها تخويف دعا واستعاذ.

وذكر البيهقي عن ابن مسعود قال: إني لأرجو ألا يقرأ أحدهم الآيات، ثم يستغفر الله، يجد الله غفوراً رحيماً، إلا غفر الله له. ﴿وَلَوۡ

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٤/ ٦٤] ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥].

وذكر البيهقي عن الشعبي قال: إذا قرأت القرآن فأفهِمه قلبك، وأسمِعه أذنيك، فإن الأذنين عدل بين القلب واللسان، فإن مررت بذكر الله فاذكر الله، وإن مررت بذكر النار فاستعذ بالله منها، وإن مررت بذكر الجنة فسلها الله عز وجل.

والقارئ يعترف ويقر لله تعالى بما يخبر به عن نفسه إيماناً به، أخرج البيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٤٠] قال: بلى، وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٩٥/ ٨] قال: بلى[1].

وأخرج البيهقي من طريق أبي داوود عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون، فانتهى إلى آخرها: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فليقل: وأنا على ذلك من الشاهدين، ومن قرأ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٧٥/ ١] فانتهى إلى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٤٠] فليقل: بلى، ومن قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ١] فبلغ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٥٠] فليقل: آمنا بالله».

وروى البيهقي عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً: «وإذا قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١] قال: سبحانك، بلى». ورفعه إلى النبي ﷺ.

---

(١) لكن فيه راوٍ مجهول هو أبو اليسع عن أبي هريرة، والسند بذلك مضطرب، كما ذكر الذهبي.

وذكر البيهقي عن عمرو بن عثمان، عمن يقال له: أبو جعفر: «إذا قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقل: أنت هو الله أحد».

وفي القرآن أربع عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان، وأما سجدة سورة «ص» فهي سجدة شكر، لما أخرج البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه سئل عنها فقال: «ليست من عزائم السجود». وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. أي فهي سجدة شكر، لحديث مرسل يرويه عمر بن ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «سجدها داوود لتوبة، ونسجدها نحن شكراً»[1].

وروى البيهقي أيضاً في السنن الكبرى عن ابن مسعود: كان لا يسجد في «ص» ويقول: إنما هي توبة نبي.

وروى البيهقي كذلك عن عمرو بن عثمان وابن عمر وابن عباس أنهم كانوا يسجدون فيها. وأخرج البيهقي عن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة، فيها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان.

من آداب تلاوة القرآن (مقدمات التلاوة)

١

يتطلب تعظيم القرآن الكريم التزام آداب معينة قبل تلاوته، لأنه كلام الله عز وجل، فلا يجوز أدباً وشرعاً تجاوز هذه الآداب، وتكون مخالفتها غالباً حراماً يوجب الوقوع في الإثم والعصيان.

(١) أخرجه البيهقي كالحديث السابق في السنن الكبرى.

من هذه الآداب **حظر القراءة على الجُنب والحائض والنفساء** حتى يتم التطهر بالغسل السابغ للجسد كله، لما ثبت في السنة النبوية، روى الترمذي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يقرأ الجنب ولا الحائض شيئاً من القرآن».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل الخلاء، فيقضي حاجته، ثم يخرج، فيأكل معنا اللحم، فيقرأ القرآن، لا يحجبه، وربما قال: لا يَحْجِزه عن القراءة شيء ليس الجنابة». أي إلا في حال الجنابة. قال الحليمي رحمه الله: الحيض أشد من الجنابة، فهو بتحريم القراءة على الحائض أولى.

ومن هذه الآداب **تحريم حمل القرآن ومسّه في حال الحدث الأصغر** أي إذا لم يكن متوضئاً، لقول الله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٨-٧٩]. وعلى البشر التشبه بالملائكة، ويكون المطهر من الناس هو الذي ينبغي له أن يمس المصحف.

وأخرج الحاكم عن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ أنه كتب إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات، وفيه: «لا يمس القرآن إلا طاهر». أي متوضئ.

ومن السنة النبوية المندوبة **السواك لتلاوة القرآن**، لما أخرجه مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل شوَّص فاه[1]، سئل الأعمش: بالسواك؟ قال: نعم.

يوضحه ما أخرجه البخاري ومسلم في حديث آخر عن حذيفة رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يشوص فاه بالسواك». وظاهر هذا أنه كان يفعل ذلك للصلاة ولقراءة القرآن.

---

(١) أي نظَّفه بالسواك.

وأخرج البيهقي عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قام أحدكم يصلي من الليل، فليستك، فإن أحدكم إذا قرأ في صلاته، وضع ملَك فاه على فيه، ولا يخرج من فيه شيء إلا دخل في فم الملَك».

وأخرج النسائي عن عائشة ﵂ مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «السواك مَطْهرة للفم، مرضاة للرب».

وعلى من يتلو القرآن أن يستن بآداب، منها **لُبس الحَسَن من الثياب والتطيب**، لقول مجاهد وغيره: كانوا يكرهون أكل الثوم والبصل والكُّراث للقيام من الليل، ويستحبون أن يمس الرجل عند قيامه طيباً. وقال مجاهد أيضاً: إذا تثاءبت وأنت تقرأ، فأمسك عن القراءة حتى يذهب عنك.

وفي صلاة الليل يسن أن يجهر القارئ بقراءة القرآن، أخرج البيهقي في الشعب عن كُرَيب قال: سألت ابن عباس عن جهر النبي ﷺ بالقراءة بالليل، فقال: كان يقرأ في حجرته قراءة لو شاء حافظٌ أن يتعلمها لفعل. وقال مَخْرمة: كان - أي النبي ﷺ- يقرأ في بعض حُجَره، فيسمع قراءته من كان خارجاً.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أم هانئ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالليل، وأنا على عريشي بمكة، وهو يرفع. أي يرفع صوته بقراءة القرآن.

واستحب بعض أهل العلم ومنهم الشافعية الجهر ببعض القراءة، والإسرار ببعضها، لأن السر قد يُمل، فيأنس بالجهر، والجاهر قد يَكِلّ فيستريح بالإسرار، إلا أن من قرأ بالليل جهر بالأكثر، ومن قرأ بالنهار أسرّ بالأكثر، إلا أن يكون بالنهار في موضع لا لغو فيه ولا صخب، ولم يكن في صلاة، فيرفع صوته بالقرآن.

أخرج البيهقي عن عبد الله بن أبي قيس أنه سأل عائشة ﵂: كيف

كان يقرأ رسول الله ﷺ من الليل، أكان يجهر أم يُسرّ؟ قالت: كل ذلك كان يفعل، ربما جهر وربما أسرّ. فقلت: الحمد لله الذي جعل في الأمر سعة. وروى البيهقي عن أبي هريرة في قراءة النبي ﷺ بالليل قال: كان يرفع طوراً، ويخفض طوراً. وعن أبي قتادة في قراءة النبي ﷺ في الظهر والعصر قال: فكان يسمعنا الآية أحياناً.

وأخرج الحاكم عن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرّ بالقرآن كالمسرّ بالصدقة».

ويكره قطع القرآن لمكالمة الناس، حتى لا يؤثر كلامهم على قراءة القرآن، أخرج البخاري عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن، لم يتكلم حتى يفرغ منه.

ويسن تطويل القراءة في صلاتي الصبح والعشاء، فقد كان عمر ﷺ يَقْسم في صلاة العشاء آل عمران قسمين: يصلي بمئة آية في كل ركعة(١). وكان ابن مسعود ﷺ في صلاة العشاء يقرأ أربعين آية من سورة الأنفال في الركعة الأولى، ثم يقرأ في الركعة الثانية من سورة المفصل.

من آداب تلاوة القرآن (أثناء التلاوة)



لتلاوة القرآن الكريم كلام الله عز وجل آداب أخرى ثابتة في أحكام الشريعة بصريح القرآن والسنة النبوية.

---

(١) أخرجه أبو عبيد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وغيرهم.

فيجب على قارئ القرآن ترتيله وتجويده بصريح الآية الكريمة ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ٤] هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، ولأن الترتيل يساعد على فهم الآيات الكريمة، وغرس مدلولاتها في القلب والنفس، وازدياد التأثر بها وبما تهدف إليه من تحقيق الغايات والمقاصد المنشودة، سواء من القصة القرآنية أو الأخبار، أو التذكير والترغيب والترهيب، أو إدراك الحكم الشرعي على وجهه الصحيح، أو التزام الأدب الإسلامي والأخلاق الكريمة والآداب القويمة.

وأكدت السنة النبوية على إيجاب الترتيل، أخرج مسلم عن حفصة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ أنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ يصلي في سُبْحته[1] قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعامين، وكان يرتِّل السورة فيطوِّلها، حتى تكون أطول من أطول منها».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن مغفل يقول: «رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته أو على جَمَله وهو يسير، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح، قراءة ليِّنة وهو يرجِّع». وترجيع الصوت ترديده في الحَلْق كقراءة أصحاب الألحان.

وأخرج البخاري عن قتادة قال: سألت أنساً عن قراءة النبي ﷺ، فقال: كان يمُدّ مداً.

وأخرج أبو داوود والترمذي وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي عن يعلى بن مالك أنه سأل أم سلمة عن صلاة رسول الله ﷺ، فقالت: ما لكم ولصلاته؟ كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى، حتى يصبح. قال: ونَعَتت قراءته فإذا هي تنعت قراءةً مفسَّرة حرفاً حرفاً.

---

(١) تطوعه بالذِّكْر والصلاة.

وأخرج أبو داوود والترمذي وقال: حسن صحيح، والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «يقال له[١]: اقرأ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

وروى البيهقي عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس: إني رجل سريع القراءة، فربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين. فقال ابن عباس: لأن أقرأ بسورة واحدة أعجب إلي من أن أفعل مثل الذي تفعل، فإن كنت فاعلاً بعدُ، فاقرأه تُسمعْ أذنيك، ويعيه قلبك.

ومن آداب التلاوة تحسين الصوت بقراءة القرآن، لما أخرجه الحاكم وابن ماجه عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم».

وفي رواية الدرامي عن البراء قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «حسِّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي يتغنى بالقرآن». قال صاحب له: يريد يجهر به، وقال البيهقي: يتغنى يريد به تحسين القارئ صوته به، غير أنه يميل به نحو التحزين دون التطريب.

والقراءة الناجعة هي التي تحمل صاحبها على خشية الله سبحانه، وأخرج الخطيب في تاريخ بغداد عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ: من أحسنُ الناس قراءة؟ قال: «من إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل».

وتحسين الصوت بالقراءة للوحي المنزّل كان منهج داوود عليه السلام والصحابة الكرام، أخرج مسلم عن عبد الله بن بُرَيْدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ صوت أبي موسى وهو يقرأ، فقال: «لقد أوتي أبو موسى مزماراً

---

(١) لقارئ القرآن.

من مزامير آل داوود». قال: فحدثت به أبا موسى، فقال أبو موسى: لو علمت أن رسول الله ﷺ يستمع قراءتي، لحبّرتها تحبيراً. أي حسَّنتها تحسيناً.

وكان ابن مسعود - فيما ذكر أبو عبيدة - يقول: إن الصوت الحسن زينة القرآن[1]. وكان ابن شهاب الزهري يقول في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١] قال: حسن الصوت[2].

وتلحين القرآن وتمطيطه بما يزيد على القدر المعتاد في الترتيل مكروه عند العلماء عملاً برأي القاسم بن محمد من التابعين، وعبد الله بن أحمد وغيرهما، لأن التلحين تطريب، وهو لا يتناسب مع عظمة القرآن، ولأنه يخرج القارئ عن الانتباه ويصرفه عن المعاني إلى الألحان والأنغام، وهذا تضييع لرسالة القرآن وغاياته التشريعية والأدبية.

مدة ختم القرآن

المهم الأكبر في تلاوة القرآن الكريم هو تدبر المعاني، وتفهم المراد، والتأمل في مدلولات الآيات، والعمل على تطبيق المستنبط من القرآن، سواء أكان حكماً شرعياً، أم عظة وعبرة، أم تخلق بخلق كريم، أم زيادة في الخشوع لله تعالى وغرس عظمته في القلب، والاستعداد للحساب بين يديه سبحانه، فذلك ونحوه هو الغاية، وإن كان مجرد التلاوة فيه الثواب والأجر العظيم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٤].

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي.

والتأمل والتدبر يحتاج إلى وقت وفراغ قلب، وراحة نفس وفكر، لذا يستحب تلاوة القرآن على نحو أفضل في مدة أسبوع لا أقل ولا أكثر، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو ﷺ، قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في شهر». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في عشرين ليلة». فقلت: إني أجد قوة. قال: «اقرأه في خمس عشرة ليلة». قلت: إني أجد قوة. قال: «فاقرأه في عشر». قال: إني أجد قوة. قال: «اقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك».

وأخرج أبو داوود في سننه عن عبد الله بن عمرو، أنه سأل النبي ﷺ: في كم يُقرأ القرآن؟ قال: «في أربعين يوماً، ثم قال: في شهر، ثم قال: في عشرين، ثم قال: في خمس عشرة، ثم قال: في عشر، ثم قال: في سبع، لم ينزل عن السبع».

ورخص النبي ﷺ في روايات أخرى في خمسة أيام، لما أخرجه أبو داوود الطيالسي عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ القرآن في خمس.

وفي حديث آخر أخرجه البخاري عن ابن عمرو أيضاً: «اقرأه في ثلاث».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن ابن عَمْرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث». أي عشرة أجزاء في كل يوم.

ويقسم القرآن كما هو معلوم إلى أجزاء، وكل جزء إلى أحزاب، والحزب معدود بحسب الآيات، أخرج أبو داوود وأحمد وابن ماجه عن عبد الله بن أوس عن أبيه قال: كنا بمكة مستضعفين مُستذلين، فلما قدمنا إلى المدينة، كانت سجال الحرب لنا وعلينا، فحُبس (أي النبي ﷺ) عنا

ليلة، فقلنا: يا رسول الله، لقد أبطأت عنا الليلة عما كنت تأتينا. قال: «نعم، طرأ علي حزب من القرآن، فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه». فلما أصبحنا قلنا لأصحاب رسول الله ﷺ: حَدَّثنا (أي النبي ﷺ) أنه طرأ علي حزب من القرآن، فقلنا لهم: كيف تحزِّبون القرآن؟ قالوا: نحزِّبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وحزب المفصل فما بين قاف وأسفل.

وأما مقدار ما يقرأ في كل ركعة، فهو سورتان في كل ركعة، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن عشرين سورة من أول المفصل، سورتين في كل ركعة .

وهذا على طريق الاستحباب، أما الجواز فأخرج البيهقي عن عبد الرحمن بن عثمان أن عثمان بن عفان تقدم في الصلاة حول الكعبة فقرأ القرآن كله في ركعة.

وروي عن تميم الداري أنه قرأ القرآن في ركعة. وكان سعد بن إبراهيم يصوم الدهر، ويقرأ القرآن في كل يوم وليلة. وكان يحيى بن معين يختم القرآن في كل يوم وليلة بين المغرب والعشاء.

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى في ليلة بمئة آية لم يكتب من الغافلين، ومن صلى في ليلة بمئتي آية، فإنه يكتب من القانتين المخلصين».

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ في ليلة مئة آية كتب من القانتين».

ويجوز قيام الليل بعشر آيات لما أخرجه أبو داوود عن عبد الله بن

عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بألف كتب من المقنطرين».

وأخرج الخطيب البغدادي عن ابن عباس قال النبي ﷺ: «من قرأ في ليلة مئة آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ مئتي آية كتب من العابدين، ومن قرأ ثلاث مئة آية كتب من القانتين، ومن قرأ أربع مئة آية أصبح له قنطار من الأجر، والقنطار مئة وعشرون قيراطاً، والقيراط مثل أحد».

وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر التجار أيعجز أحدكم إذا رجع من سوقه أن يقرأ عشر آيات، فيكتب الله له بكل آية حسنة».

تعليم القرآن الكريم ومنهاج القراءة

كل مسلم ومسلمة مطالب بتبليغ القرآن المجيد إلى غيره، فهو جزء من تبليغ الدعوة الإسلامية ونشرها في أصقاع المعمورة ولكل أصناف البشر، إسعاداً للإنسان نفسه، وعملاً على إنجائه من العذاب والعقاب في الدار الآخرة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٩].

وتعليم القرآن تبليغ وتعميم، لقوله عليه الصلاة والسلام: «بلِّغوا عني ولو آية».

والآثار كثيرة في السنة النبوية في هذا الشأن، منها ما أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس أن النبي ﷺ قال لأُبَيّ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك». قال: أو سمّاني لك؟ قال: «وسمّاك لي». قال: فبكى أُبَيّ. فهذا

تعليم من الله لنبيه ﷺ أن يقرأ القرآن على أبي بن كعب، وإرشاد لأمته في هذا التوجه.

وأخرج البيهقي أيضاً والبخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٩٨/١] قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك». قال: وذكرني؟ قال: «نعم». فبكى أبيّ. ويلاحظ أن المراد من هذه القراءة من النبي ﷺ على أبيّ أن يتعلم منه أبيّ ويأخذه عنه.

وأخرج البخاري عن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «خيركم - أو أفضلكم - من تعلَّم القرآن وعلَّمه». وهذه الأفضلية أو الخيرية لا تكون إلا بسبب علو مرتبة معلِّم القرآن ومتعلمه، ونفس التعليم يوجب التفضيل والتشريف.

وأخرج أبو يعلى في معجمه والبيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الرحمن على سائر خلقه»(١).

ويتميز حامل القرآن بأن له دعوة مستجابة يدعو بها، فيستجاب له.

وتكون قراءة القرآن بالقراءات المشهورة دون الغريبة والشاذة، للقطع بأن القراءة المتواترة أو المشهورة هي من عند الله عز وجل، ولقول عبد الله بن مسعود: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم»(٢).

والقراءة من المصحف أفضل من القراءة حفظاً أو سماعاً أو من غير المصحف، لما أخرجه ابن عدي عن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن في المصحف كتب له ألفا حسنة، ومن

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو ﷺ.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

قرأه في غير المصحف أظنه قال: فألف حسنة». وفي رواية: «قراءة القرآن في غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضعف على ذلك ألفي درجة»، لأن النظر إلى القرآن عبادة كالنظر إلى الكعبة المشرفة، والبحر، ووجه الوالدين.

ولم يكن الصحابة والتابعون والصالحون يتركون يومياً تلاوة القرآن من المصحف مثل عثمان بن عفان، وابن مسعود، وعكرمة بن أبي جهل؛ وعروة بن الزبير، والربيع بن خيثم، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك الذي كان إذا ختم القرآن أكثر دعاءه للمؤمنين والمؤمنات، وغيرهم.

والقراءة في الصلاة أفضل من القراءة في غيرها، لما رواه مسلم والبيهقي عن وكيع بن الجراح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خَلِفات[1] عظاماً سماناً؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فثلاث آيات يقرأ بهن في صلاته خير له من ثلاث خَلِفات عظام سمان».

وعن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التكبير والتسبيح، والتسبيح أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصوم، والصوم جُنّة من النار»[2].

وعن أنس بن مالك قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون القرآن من أوله إلى آخره في الفرائض[3]. وقال محمد بن جحادة: إنهم كانوا

---

(١) الحوامل من النوق جمع خَلِفة.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي.
(٣) رواه البيهقي.

يستحبون إذا ختموا القرآن من الليل أن يختموه في الركعتين بعد المغرب، وإذا ختموه من النهار أن يختموه في ركعتي الفجر[(١)].

ويستحب للقارئ **عرض القرآن في كل سنة على من هو أعلم منه**، أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه الملَك جبريل عليه السلام، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة في رمضان، فيدارسه القرآن. قال: فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وذكر البيهقي عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كل رمضان، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة يعرض فيها ما يعرض، أصبح وهو أجود من الريح المرسلة، لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه، فلما كان الشهر الذي هلك بعده عرض عليه عرضتين.

ما يستحب في تلاوة القرآن

يندب أو يستحب في تلاوة القرآن الكريم ما يأتي تعظيماً للقرآن، ولعدم الابتعاد عنه، والحرص على تحقيق الفائدة المرجوة من تلاوته.

يستحب **الإكثار من القراءة في شهر رمضان**؛ لأنه شهر القرآن المصرح به في قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٩٧/ ١] وهي الليلة المباركة في آية: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٣]. بل إن رمضان

(١) ذكره البيهقي في شعب الإيمان.

كان وقت نزول جميع الكتب الإلهية، أخرج أحمد عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لعشر مضين من شهر رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من شهر رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان».

قال الحليمي رحمه الله: يريد به ليلة خمس وعشرين.

وروى البيهقي عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة لقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٦]. وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرّق في السنين، قال: وتلا الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧٥] قال: نزل مفرَّقاً.

وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ القرآن من الجمعة إلى الجمعة، وفي رمضان يختمه في كل ثلاث.

وينبغي ترك المماراة (الجدال) في القرآن لما أخرجه أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مراء في القرآن كفر».

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة: «الجدال في القرآن كفر». والمراء الإصرار على التغليظ والتضليل، وترك الإذعان لما يقام من الحجة. أما المباحثة التي توضح الآية وتبين المراد فليست بحرام.

ويكون المراء أو الجدال بأن يسمع الرجل من الآخر قراءة أو آية وكلمة لم يعلم بها أو لم يفهم معناها، فيتعجل في تخطئة غيره ويقول: إنه ليس بقرآن، أو يجادل في تأويل الآية بحسب رأيه، ولم يكن له مستند لهذا الرأي، فيخطّئ غيره ويضلله، فكل هذا ربما أزاغه عن الحق وعدم

قبوله. فلهذا حرم المراء في القرآن، وسمي كفراً، لأنه يعرِّض صاحبه للكفر. وإذا كان المراء في نفي حرف أو إثباته أو نفي كلمة أو إثباتها، كان الزائغ من الممارين عن الحق بعد تبيّنه، وكان كافراً، لإنكار شيء من القرآن أو ادعاء زيادة فيه.

وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: هجَّرتُ[1] إلى رسول الله ﷺ يوماً، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

وأخرج مسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا». وقال عمر: «اقرؤوا القرآن ما اتفقتم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه». دل هذا على أن قراءة القرآن تكون سائغة مفيدة فيما اتفق الناس فيه، فإذا حدث خلاف بينهم، تركوا القراءة.

وقد نزل القرآن على سبعة أحرف، وهي على الصحيح اللغات السبع التي هي شائعة في القرآن. أخرج البخاري عن هشام بن حكيم أنه قرأ سورة الفرقان كما أقرأه رسول الله ﷺ، وقال: هكذا أنزلت. وأقرأ النبي ﷺ عمر هذه السورة نفسها بقراءة أخرى، وقال له: هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه».

وأخرج البخاري أيضاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أقرأني جبريل عليه السلام على حرف، فلم أزل أستزيده، فيزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف». قال ابن شهاب الزهري: «بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر إذا كان واحداً، لا يختلف فيه حلال

---

(١) التهجير والتهجُّر السير في الهاجرة، وهي نصف النهار عند اشتداد الحرّ.

ولا حرام». وتعدد القراءات كما قال ابن مسعود: إنما هو كقول أحدهم: أقبل، وهلم، وتعال. بإجماع الصحابة.

قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤] ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۢ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٦].

تفسير القرآن بالظن

يجب ترك تفسير القرآن بالظن، وعدم التسرع في بيان المعنى المراد من كل آية أو كلمة، لأن تعظيم القرآن واجب، وهو كلام الله تعالى، فلا يصح لإنسان مهما بلغ علمه أن يتجرأ على تحديد معنى آية برأيه، دون تأكد من مدلول الآية بحسب قواعد وأصول اللغة العربية والمأثور من التفسير، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣] فالتقوّل على الله بغير علم حرام بنص الآية.

وقوله عز وجل أيضاً: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٦] أي لا تتبع غير المعلوم. وأكدت السنة النبوية في أحاديث كثيرة تحريم تفسير القرآن بالظن، منها ما أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

وأخرج الترمذي أيضاً عن جُنْدب بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». قال البيهقي رحمه الله: وهذا - الحديث - أصح، فإنما أراد - والله أعلم - الرأي الذي يغلب

على القلب من غير دليل قام عليه، فمثل هذا الرأي لا يجوز الحكم به في النوازل، فكذلك لا يجوز تفسير القرآن به. فأما الرأي الذي سنده برهان فالحكم به في النوازل جائز، وكذلك تفسير القرآن به جائز.

وهذا هو المعنى أيضاً فيما قاله أبو بكر الصديق ﷺ في ذلك وهو: «أي سماء تظلّني، وأي أرض تُقلّني إذا قلت في كتاب الله برأي». وفي رواية: «إذا أنا قلت في آية من كتاب الله بغير ما أراد الله سبحانه وتعالى».

وكذلك قال ابن مسعود ﷺ: «القرآن كلام الله، فمن قال فليعلم ما يقول، فإنما يقول على الله عز وجل».

ومن أمثلة التثبُّت في بيان المعنى والسؤال عنه من كبار الصحابة ما أخبر به أنس بن مالك ﷺ أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقرأ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٨٠/ ٢٧-٣٢] فقال عمر: فكل هذا قد عرفنا، فما للأبّ، ثم نفض ما كان في يده، فقال: هذا لعَمْر الله التكلّف، اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب. ثم قام رجل من هذيل فقال: هذه لغتنا، الأبّ العشب.

وذكر البيهقي في الشعب عن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر بن الخطاب ذات يوم، فجعل يحدث نفسه، فأرسل إلى ابن عباس، فقال: كيف تختلف هذه الأمة، فكتابها واحد، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟! قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أُنزل علينا القرآن، فقرأناه، وعلِمنا فيم نزل، وأنه يكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، لا يعرفون فيم نزل، فيكون كلّ يوم فيه رأي، فإذا كان لقوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا. فزبره[١] عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ثم دعاه بعدُ، فعرف الذي قال، ثم قال: إيها أعد.

---

(١) زجره وانتهره.

وقال مسروق بن الأجدع الهمداني - فيما ذكره الأعمش عن مسلم - ما نسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن شيء إلا وجدناه في كتاب الله، إلا أن رأينا يقصر عنه.

ومن وقائع التثبت في تفسير القرآن ما ذكره البيهقي في الشعب، عن مروان الأصغر قال: كنت عند سعيد بن جبير جالساً، فسأله رجل عن آية في كتاب الله، فقال سعيد: الله أعلم، فقال الرجل: قل فيها أصلحك الله برأيك. فقال: أقول في كتاب الله برأيي؟! فردد مرتين أو ثلاثاً، ولم يجبه بشيء.

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: كانوا يكرهون أن يتكلموا في القرآن.

وقال مالك بن أنس رحمه الله: لا أُوتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر ذلك إلا جعلته نكالاً، أي طلبت عقوبته.

هذه النقول عن كبار الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب في التورع والاحتياط عن الخوض في كتاب الله بما لا يعلم الإنسان، تدل دلالة واضحة على تهيب الصفوة الأولى من هذه الأمة في بيان معاني كلام الله سبحانه، وهو موقف عظيم توجبه الحكمة والتثبت والورع والعقل السديد، لأن كلام الله حَمَّال أوجه.

مقتضيات البيان القرآني

على كل مسلم ومسلمة الحرص الشديد على إدراك بيان القرآن الكريم ومعرفة أسراره ومدلولاته، والمبادرة إلى تطبيقه وتعظيمه وصونه من العبث به أو الإخلال بحرمته ومكانته، لأنه كلام الله عز وجل.

فمن أوجه تعظيمه إضافة لما تقدم بيانه ترك السفر بمصاحف القرآن إلى أرض العدو، كيلا يعرِّض القرآن إلى تدنيسه أو الإساءة إليه، أخرج البخاري ومسلم من حديث مالك وغيره عن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو».

ومن مقتضيات فهم القرآن الكريم وإدراك معانيه قراءته بالتفخيم والإعراب والإفصاح والتفاعل مع بيانه بحسب مقصده وغايته، لما أخرجه البيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن واتبعوا غرائبه، وغرائبه فرائضه وحدوده، فإن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

وأوضح الحليمي رحمه الله أسلوب تلاوة القرآن بالتفخيم والإعراب فقال: ومعنى هذا - والله أعلم - أن يقرأ على قراءة الرجال، ولا يُخضع الصوتَ به، ليكون مثل كلام النساء، ولا يَدْخل في هذا كراهية الإمالة فإنها إحدى القراءات المعتمدة، وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم ورخص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته، على لسان جبريل عليه السلام.

وذكر البيهقي في شعب الإيمان أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يقول: أعربوا القرآن فإنه عربي، وتفقهوا في السنة، وأحسنوا عبارة الرؤيا، فإذا قص أحدكم على أخيه، فليقل: اللهم إن كان خيراً فلنا، وإن كان شراً فعلى عدونا.

وذكر البيهقي عن سليمان بن يسار قال: خرج عمر على قوم يقرؤون القرآن ويتراجعون فيه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نقرأ القرآن ونتراجع. فقال: تراجعوا ولا تَلْحنوا. وقال عمر أيضاً: تعلموا السنة والفرائض واللحن ولا تعلَّموا القرآن.

وقال الحليمي رحمه الله: ومعنى إعراب القرآن شيئان: أحدهما أن يحافظ على الحركات التي بها يتميز لسان العرب على لسان العجم، لأن أكثر كلام العجم مبني على السكون وصلاً وقطعاً، ولا يتميز الفاعل من المفعول، والماضي من المستقبل باختلاف المقاطع. والآخر أن يحافظ على أعيان الحركات، ولا يبدل شيء منه بغيره، لأن ذلك ربما أوقع في اللحن أو غيَّر المعنى.

وأبان هشام بن هبيرة الفرق بين من يلحن في القرآن وبين من لا يلحن به، فقال: ما استوى رجلان قط دينهما واحد، وجنسهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، وأفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن. فقال له سالم بن قتيبة: أصلح الله الأمير، هذا في الدنيا، الفضل فصاحته، وعربيته، ففضله في الآخرة لماذا؟ قال: لأنه يقيم كتاب الله على ما أنزل الله عز وجل، وهذا (أي اللاحن) يُدخل في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخرج ما هو فيه.

ويقتضي البيان السوي ترك خلط سورة بسورة؛ لما رواه الحليمي رحمه الله بسنده أن رسول الله ﷺ مرَّ بأبي بكر، وهو يتخافت[١]، ومر بعمر وهو يجهر، ومرَّ ببلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة، فقال لأبي بكر: «إني مررت بك وأنت تخافت». فقال: إني أُسمع من أناجي. فقال: «ارفع شيئاً». وقال لعمر: «مررت بك وأنت تجهر». قال: لأطرد الشيطان وأوقظ الوسنان[٢]. قال: «اخفض شيئاً». وقال لبلال: «مررت بك وأنت تقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة». قال: أخلطُ الطيب بالطيب. قال: «اقرأ السورة على وجهها».

---

(١) يُسرّ بالقراءة.
(٢) النائم.

ولا مانع أيضاً من قراءة القرآن بحسب ترتيب آيات النزول، وإن كان الأولى بالقارئ أن يقرأ القرآن بحسب الجمع المنقول المتفق عليه بالإجماع في ترتيب المصحف المتداول، وذلك - أي خلاف الجمع المألوف - لما أخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين ﵂، إذ جاءها أعرابي، فقال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك. قالت: لمه؟ قال: لعلّي أولف القرآن عليه[1]، وأنّا نقرؤه غير مؤلف[2]. قالت: وما يضرك أية آية قرأت قبل، إنما أنزل أول ما أنزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندعها أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا، لقد نزل بمكة - وإني لجارية ألعب - على محمد ﷺ: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٥٤/٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فاطّرحتْ له المصحف، فأملت عليه آي السور.

والقراءة بحسب الجمع الصادر من النبي ﷺ، لما رواه البيهقي عن ابن مسعود أنه قيل له: إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً[3]، قال: ذلك منكوس القلب. وتكره القراءة على عكس الترتيب المذكور في المصحف، لما روي عن الحسن البصري وابن سيرين من الكراهية، قال ابن سيرين: تأليف الله خير من تأليفكم. أي جمع الله خير من جمعكم.

---

(١) أرتب آيات القرآن بحسبه.

(٢) غير مرتب.

(٣) أي مقلوباً غير مرتب بالنحو المعروف.

مفاتيح التلاوة

التلاوة الصحيحة سبيل للفهم الصحيح والتدبر الأمثل لآيات كتاب الله عز وجل، فيكون هناك تلازم وانسجام بين النطق باللفظ وبين فهم المعنى المراد، والانتهاء إلى العمل بمضمون الآية واحدة بعد الأخرى، وهذا ما علَّمنا إياه النبي العربي الهاشمي ﷺ لتعليم الله تعالى له طبيعة اللسان العربي المبين الذي أنزل الله به القرآن، فقال: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٦/١٠٣] ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٢].

وتتطلب التلاوة السليمة استيفاء النطق بكل حرف أثبته إمام معتمد، ليكون القارئ قد أتى على جميع ما هو قرآن، ولم يبق منه شيء، فيكون ختمه أصح من الترخص بحذف حرف أو كلمة، ومَثَل النطق الصحيح بكل حرف كمثل الفعل الواقعي، لا يصح ترك جزء من الأفعال المكوِّنة لحقيقة واحدة.

وتفتتح تلاوة كل سورة ما عدا سورة «براءة» بالبسملة، فهي في الأصح آية تامة من فاتحة الكتاب، وكذا من كل سورة في رأي جماعة من الصحابة والتابعين، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت علي آنفاً[١] سورة». فقرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها، قال: «هل تدرون ما الكوثر؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر عظيم، وعدنيه ربي عز وجل في الجنة».

(١) وربما لم يقل بعض الرواة فيه: «آنفاً» وهو أصح كما قال البيهقي.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم عن أم سلَمة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله يقطِّع قراءته: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أم سلمة: «أن النبي ﷺ كان يعدّ بسم الله الرحمن الرحيم آية ماضية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ولذلك كان يقرؤها.

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى عن سعيد بن جبير قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ قال: هي أم القرآن. وقال ابن جريج: قال أبي، وقرأ على سعيد بن جبير: بسم الله الرحمن الرحيم، حتى ختمها[1]، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة. قال سعيد بن جبير لأبي: وقرأها علي ابن عباس كما قرأتها عليك، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم الآية السابعة. قال ابن عباس: فادّخرها الله لكم، فما أخرجها لأحد قبلكم[2].

وأخرج أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم هي أم القرآن، وهي أم الكتاب، وهي السبع المثاني».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو اسم من أسماء الله عز وجل وما بينه وبين اسم الله الأعظم إلا كما بين سواد العين وبياضها من القُرْب».

قال البيهقي رحمه الله: إن المسلمين توارثوا خلفاً عن سلف مصاحف القرآن قد أثبت فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، على رأس كل سورة سوى

---

(١) أي ختم الفاتحة.
(٢) وهذا مروي أيضاً عن علي بن أبي طالب، وعن أبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وكذلك عن عمار بن ياسر وجابر، وابن مسعود وابن عمرو وابن الزبير.

براءة، مع ما بعدها بصفة واحدة، على هيئة واحدة، ويوجب أن يكون على ذلك قرآناً، فإنه يثبتها في أول كل سورة سوى سورة براءة، فقد روينا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر ما دل على ذلك.

أخرج البيهقي من طريق أبي داوود عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه: بسم الله الرحمن الرحيم.

وأخرج الطبراني في الكبير عن ابن عباس قال: كان جبريل عليه السلام إذا أتى رسول الله ﷺ ببسم الله الرحمن الرحيم، عرف رسولُ الله ﷺ أنها سورة ختمت، واستقبل السورة الأخرى.

وأخبر البيهقي في الشعب عن الأزرق بن قيس قال: صليت وراء ابن الزبير، فكان يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا قال: ولا الضالين، قال (أي في افتتاح سورة أخرى): بسم الله الرحمن الرحيم.

وأخبر البيهقي أيضاً عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لأم القرآن والسورة التي بعدها. وكان ابن عمر يقرأ في الصلاة: بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا ختم السورة قرأها، ويقول: ما كتبت في المصحف إلا لتقرأ. يعني آية كان يقرؤها للفاتحة، وإذا ختمها قرأها للسورة التي بعدها.

وقال سفيان الثوري: بسم الله الرحمن الرحيم في فواتح السور من السور.

وكان أحمد بن حنبل يقول: من لم يقرأ مع كل سورة: بسم الله الرحمن الرحيم، فقد ترك مئة وثلاث عشرة آية[1].

وقال ابن عباس: من ترك بسم الله الرحمن الرحيم فقد ترك آية من كتاب الله عز وجل.

---

(١) وهذا قول عبد الله بن المبارك أيضاً.

وقال إسحاق بن إبراهيم: من ترك: بسم الله الرحمن الرحيم متعمداً، فصلاته فاسدة، لأن الحمد سبع آيات.

فضائل الفاتحة

فاتحة الكتاب الكريم مطلع القرآن، ومجمع أصول الإسلام، ونشيد أهل الإيمان، ومحور مناجاة الله عز وجل، ففيها محاسن أو مشتملات القرآن من العقيدة والعبادة والسلوك السوي، وورد في شأنها آية في القرآن، وهي ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فهي سبع آيات تثنّى وتكرر في الصلاة، وهي لب القرآن والقرآن العظيم، وكفى بهذه الفضيلة أو الميزة لفاتحة الكتاب. قال قتادة: هي فاتحة الكتاب تثنى في كل ركعة مكتوبة أو تطوع.

ووردت أحاديث صحاح تؤكد فضيلة الفاتحة، منها ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد بن المعلّى الأنصاري أن النبي ﷺ دعاه - وهو يصلي - فصلى، ثم أتى، فقال: «ما منعك أن تجيئني إذ دعوتك؟». قال: إني كنت أصلي. فقال: «ألم يقل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]. ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن؟». قال: فكأنه نسيها أو نسي، قلت: يا رسول الله الذي قلت لي. قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وتكررت هذه الواقعة مع أُبيّ[1]، أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك سورة ما أُنزل في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن

(١) لكن حديث ابن المعلّى رجاله أحفظ كما ذكر البيهقي.

مثلها؟». قلت: بلى. قال: «إني لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتى تعملها». فقام رسول الله ﷺ، وقمت معه، فجعل يحدثني ويدي في يده، فجعلت أتباطأ كراهية أن يخرج قبل أن يخبرني بها، فلما دنوت من الباب، قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتني. فقال: «كيف تقرأ إذا قمت إلى الصلاة؟». فقرأت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني التي قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٧] الذي أعطيت».

وأخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: بينما جبريل عليه السلام جالس عند النبي ﷺ إذ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: إن هذا الملَك قد نزل، ما نزل إلى الأرض، قال: فجاء الملَك إلى رسول الله ﷺ، فسلَّم عليه، وقال: يا محمد، أبشر بنورين أُوتيتَهما، لم يؤتهن نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته.

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي السائب يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة ولم يقرأ فيها بأم القرآن، فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج غير تمام». قلت: يا أبا هريرة، إني أكون أحياناً وراء الإمام، قال: فغَمَز ذراعي، وقال: يا فارسي اقرأ بها.

وقال القعنبي: اقرأها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل». قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا، يقول العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: حمدني عبدي. يقول العبد: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يقول الله: أثنى علي عبدي. يقول العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقول الله: مجدني عبدي. يقول العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. يقول

العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ[1] ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل». ويلاحظ أن التنصيف نسبي أو أغلبي، فيكون مثلاً نصف الشهر القمري هو خمسة عشر يوماً، ولو نقص منه يوم، لكون الشهر تسعة وعشرين.

والفاتحة رُقْية من الداء، لما أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فلم يضيفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟ فإن سيد الحي لديغ أو مصاب. فقال رجل منهم: نعم، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطي قطيعاً من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وقال: يا رسول الله والله ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب. فتبسم وقال: «وما أدراك أنها رُقْية؟». ثم قال: «خذوها منهم، واضربوا لي بسهم معكم».

وأخرج البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من السم». وفي رواية أخرى عند الدارمي والبيهقي في الشعب عن عبد الملك بن عمير، عن النبي ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء».

فضائل سورة البقرة وآل عمران
(الزهراوان)

السورتان التاليتان لسورة الفاتحة في مطلع القرآن الكريم وهما البقرة وآل عمران فيهما الثراء الأعظم من الأسرار الإلهية، والأحكام والشرائع،

---

(١) هو دين الإسلام القائم على توحيد عز وجل.

والحكمة التشريعية، ومغزى بعض القصص القرآنية، وتحديد علاقة المسلمين بغيرهم، والتزام وحدة الأمة في العقيدة والشريعة والسياسة والحُكْم والاقتصاد وغير ذلك من معادن وجواهر القرآن المجيد وثروته الخصبة، ومنها إبطال السحر، ومقاومة الجن ووساوس الشيطان، وطرده من البيت بتلاوة سورة البقرة.

ويستطيع القارئ لهاتين السورتين إدراك الفوائد الجمة منهما لأول وهلة من غير عناء ولا عسر، بسبب طول الآيات ووضوحها، وعلاجها قضايا في غاية الأهمية. وقد أوضحت السنة النبوية في مجموعة أحاديث ثابتة أهمية هاتين السورتين وهما تسميان بالزهراوين.

منها ما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي أمامة الباهلي ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا القرآن، فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يأتيان يوم القيامة كأنهما غَمامتان أو غَيَايتان[١]، أو كأنهم فِرْقان[٢] من طير صوافّ[٣]، تُحاجَّان عن صاحبهما، اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة[٤]». والبطلة السحرة، كما قال معاوية بن سلّام.

وأخرج الترمذي عن النوَّاس بن سَمْعان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به، تَقْدمُهم سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول الله ﷺ أمثالاً ما نسيتهن بعد، قال: كأنهما غَمامتان أو ظُلَّتان سوداوان بينهما سور، أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ يحاجان عن صاحبهما».

---

(١) مثنى غياية، وهي بمعنى الغمامة، والمراد أن ثوابهما يأتي يوم القيامة هكذا.
(٢) مثنى فرق، وهو الجماعة المنفردة.
(٣) باسطة أجنحتها في الهواء.
(٤) أي لا يقدر على تحصيلها وحفظها من ليسوا أصحاب همة عالية.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم، وصححاه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن سورة البقرة».

وفي رواية أخرى للبيهقي والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: «إن لكل شيء سناماً، وسنام القرآن سورة البقرة، وإن الشيطان إذا سمع سورة البقرة تقرأ خرج من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

وأخرج النسائي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم يضع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة، يقرؤها، فإن الشيطان يفرُّ من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت[1] الجَوْفُ الصِّفْر[2] من كتاب الله عز وجل». أي إن أصفر البيوت من الخير البيت الصِّفر من كتاب الله تعالى، أي الخالي من تلاوة القرآن.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا سورة البقرة في بيوتكم، فإن الشيطان لا يدخل بيتاً فيه سورة البقرة».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر[3]، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة».

وتضمنت بعض آيات سورة البقرة وآل عمران اسم الله الأعظم، وذلك في الآية (١٦٣) من سورة البقرة وهي: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ﴾ وفي مطلع سورة آل عمران، أخرج أبو داوود، والترمذي وقال: حسن صحيح عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ﴾».

---

(١) أي الخالية.
(٢) داخل البيت الخالي، يقال: بيت صِفْر من المتاع، ورجل صفْر اليدين.
(٣) أي خالية من الصلاة وتلاوة القرآن.

وفي لفظ آخر: «إن في هاتين الآيتين اسمَ الله الأعظم، وهما ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الٓمٓ ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

إن سورة البقرة قنطرة القرآن، فهي أطول السور القرآنية، وفيها كثير من الأحكام التشريعية، والعبر والعظات، وبيان أصول التشريع الإسلامي القائم على السماحة واليسر ودفع الحرج، وأركانِ الإسلام والإيمان.

وإن سورة آل عمران تشمل على بيان مبدأ توحيد الله عز وجل والأدلة الكونية على ذلك، كما تشتمل على تحديد نوع العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب، وبيان ملة إبراهيم الذي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وأن النبي ﷺ أولى وأجدر الناس به وبشرف الانتماء إليه، ووجوب العمل بكتاب الله تعالى، والحفاظ على وحدة الأمة.

فضائل آية الكرسي

آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم لاشتمالها على بيان وحدانية الله عز وجل وحياته وقيّوميته، أي قيامه بتدبير الكون، واستمرار رقابته دون تعرض لنعاس أو نوم، وكونه مالك السماوات والأرض وما بينهما تصرفاً وخَلْقاً وتعبّداً، وتفرده بحساب الخلائق يوم القيامة، دون أن يجرؤ أحد على الشفاعة ولو كان نبياً أو ملَكاً أو رسولاً مقرَّباً إلا بإذنه تعالى، وعلى علمه الشامل والواسع بجميع الجزئيات والكليات، وأنه لا يَعْلم أحد شيئاً من علوم الله إلا بتعليم منه ومشيئة وإرادة، ولا يثقله تحمل مسؤولية السماوات والأرض، وهو صاحب العلا المطلق والعظمة المطلقة.

وورد في فضائل آية الكرسي أحاديث كثيرة منها ما ورد في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي بسنده عن النبي ﷺ قال: «من قرأ آية الكرسي في دُبُر كل صلاة، لم يكن بينه وبين أن يدخل الجنة إلا أن يموت، فإذا مات دخل الجنة».

وأخرج أبو داوود في سننه عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «أيّ آية في الكتاب أعظم؟» قال أُبيّ: الله ورسوله أعلم. قال: فرددها مراراً، ثم قال أبيّ: آية الكرسي. فقال النبي ﷺ: «يهنك العلم أبا المنذر، إن لها لساناً وشفتين، تقدس المُلْك عند ساق العرش».

وأخرجه مسلم بلفظ: «أبا المنذر، أي آية معك أعظم من كتاب الله؟» قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ قال: فضرب على صدري، فقال: «ليهنِ العلم لك أبا المنذر، فوالذي نفسي بيده، إن لهذه الآية لساناً وشفتين، تقدس المُلْك عند ساق العرش».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بزكاة رمضان، فكنت أحفظها، فأتاني آتٍ من الليل، فجعل يحثو من ذلك الطعام[1]، فأخذتُه، فذكَر الحديث في إطلاقه وعوده ثلاث ليال.. إلى أن قال: قلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني، فإني لا أعود، وأعلّمك كلمات ينفعك الله بها. قال: وما هي؟ قال: إذا أويت فراشك، فاقرأ بهذه الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ حتى تختمها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظاً، ولا يقربُك شيطان حتى تصبح. فذكر الحديث إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدقك، وهو كذوب، أتدري من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قال: لا. قال: «ذاك شيطان».

---

(١) أي يأخذ وهو الشيطان.

وأخرج البيهقي في الشُّعب من طريق الحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيد آي القرآن، لا تقرأ في بيت، وفيه شيطان إلا خرج منه، آية الكرسي».

وأخرج أحمد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست إليه، فذكر فضل الصلاة والصيام والصدقة، قال: قلت: يا رسول الله أيّما آية أنزلت عليك أعظم؟ قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ وذكر الآية حتى ختمها. وفي رواية وكيع قال: قلت: يا رسول الله، أي القرآن أُنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾».

وذكر البيهقي في الشعب عن مسروق التابعي عن عبد الله بن مسعود أن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ إلى آخر الآية. وأن أكثر وأكبر آية في كتاب الله فرحاً: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣] إلى آخر الآية. وأن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ، وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢-٣] وأن أجمع آية في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

كل هذه الأحاديث وغيرها الواردة في فضل آية الكرسي من سورة البقرة ترشد الناس إلى أنها آية الإيمان والاعتقاد الصحيح، وآية بيان عظمة الله وجلاله، فبيده مقاليد السماوات والأرض، وآية الإخبار بسعة علم الله تعالى، وآية الأمان والاطمئنان في الليل والنهار، وآية الحفظ من الشيطان ووساوسه، فمن حافظ على تلاوتها حظي بثمراتها وفوائدها، ولا يحافظ عليها إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وهي كما ذكر البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «سيد آي القرآن: لا إله إلا هو الحي القيوم».

فضائل خواتيم سورة البقرة

ختمت سورة البقرة بآيات عبَّرت عن كون جميع ما في السماوات والأرض لله تعالى ملكاً وتصرفاً وتعبداً، وأن الله تعالى يعلم جميع ما تظهره النفوس ومكنوناتها، وهو صاحب السلطان المطلق في المغفرة والعذاب، وأن أركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر واحدة في جميع رسالات الرسل عليهم السلام، وأن من فضل الله تعالى على أمة الإسلام اليسر والسماحة وعدم التكليف بشيء فيه حرج ومشقة وثقل، خلافاً للملل والأديان الأخرى، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٤-٢٨٦].

وبشَّرتنا السنة النبوية الشريفة ببشائر وفضائل وميزات اشتملت عليها هذه الآيات، منها ما أخرجه مسلم في الصحيح عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ، وانْتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة أو السادسة، إليها ينتهي ما يعرج من تحتها فيُقبض منها، وإليها ينتهي ما هبط من فوقها ليقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ٥٣/١٦] قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ منها

ثلاثاً، أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يشرك من أمته بالله شيئاً المُقْحمات. أي التي تدخل النار من غير روية.

وأخرج البيهقي في الشعب عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلت على الناس بثلاث: جعلت الأرض كلها لنا مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وأوتيتُ هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعط أحد منه قبلي، ولا يعطى منه أحد بعدي». فهذه الآيات من خصوصيات ما أنزل على نبينا ﷺ.

وأخرج الحاكم وصححه هو والذهبي على شرط مسلم عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل كتب كتاباً قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا تقرأ في دار ثلاث ليال، فيقربُها شيطان».

وأخبر البيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذرّ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلَّموهن وعلِّموهن نساءكم وأبناءكم، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء».

أرشدت هذه الأحاديث إلى فضيلة خواتيم سورة البقرة، وأنها نازلة من كنز تحت العرش، وأنها كفيلة لمن قرأها بطرد الشيطان من المنازل، مما ينبغي تعلمها وتعليمها.

ومن مزايا خواتيم سورة البقرة أنها دعاء وأمان ومجلبة للغفران، أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».

تفضل الله تعالى على الأمة الإسلامية بأواخر سورة البقرة المعبرة عن العفو الإلهي عن الخطأ والنسيان، وكون التكليف بالطاعات على قدر طاقات النفوس، أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٤] قال: دخل قلوبَهم منها شيء لم يَدْخلهم من شيء، فقال النبي ﷺ: قولوا: «سمعنا وأطعنا وسَلَّمْنا». قال: فألقى الله عز وجل الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله عز وجل ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] الآية، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[1] قال (أي الله): قد فعلت، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٦] قال: قد فعلت». دل الحديث على مشتملات هذه الآيات من أدعية علَّمنا الله إياها، وأجابنا لكل ما دعوناه وطلبناه منه سبحانه، فقال: «قد فعلت» أي رفعت الحرج والنسيان والخطأ عنكم، وعفوت عنكم، وغفرت لكم، ورحمتكم، فوفقنا يا رب للنصر على الأعداء. وقد قال الله تعالى كما في خبر ابن أبي حاتم: قد نصرتكم على القوم الكافرين.

وأخرج الحاكم عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال النبي ﷺ: «وحَقٌّ له أن يؤمن».

وأخبر البيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال: «من قرأ عشر آيات من سورة البقرة أول النهار لم يقربه شيطان حتى يمسي، وإن قرأها حين يمسي لم يقربه حتى يصبح، ولا يرى شيئاً يكرهه في أهله وماله، وإن قرأها على مجنون أفاق، أربع آيات من أولها وآية الكرسي واثنتين بعدها،

---

(١) الإصر: الذنب والثقل.

وثلاث آيات من آخرها». دل الحديث على أن تلاوة مجموع هذه الآيات العشر من سورة البقرة عصمة من الشيطان في الليل والنهار، وسبب لصحوة المجنون من جنونه.

كما أن هذه الآيات عون على حفظ القرآن وعدم نسيانه، لما أخبر به البيهقي عن المغيرة بن سبيع قال: من قرأ عند منامه آيات من البقرة، لم ينسينَّ القرآن: أربع آيات (أي من أولها)، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وآية الكرسي وثلاث آيات من آخرها.

السبع الطوال من السور

صُنِّفت سور القرآن بتصنيفات عديدة تدل على مقدار الآيات التي تشتمل عليها بعض هذه السور، فمنها السبع الطوال، والسبع المثاني غير الفاتحة، والمئين وهي كل سورة بلغت مئة آية فصاعداً، والمثاني كل سورة دون المئتين وفوق المفصل.

أخرج أحمد والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي عن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «من أخذ السبع فهو حبر». يعني السبع الطوال.

وفي رواية أخرى عند البيهقي من طريق الطيالسي عن واثلة بن الأسقع ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل». قال البيهقي: والأشبه أن يكون المراد بالسبع في هذا الحديث السبع الطوال، والمئين كل سورة بلغت مئة آية فصاعداً، والراجح أن يكون المراد بالمثاني فاتحة الكتاب، بدليل حديث ابن عباس المتقدم عن النبي عليه الصلاة والسلام في تفسير آية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٧] ولأن الفاتحة مكية، والسبع الطوال نزلت بعدها، كما روي عن أبي العالية.

وأخرج البيهقي من طريق الحاكم وصححه هو والذهبي عن ابن عباس قال: «أوتي رسول الله ﷺ سبعاً من المثاني والطِّوال، وأوتي موسى عليه السلام سبعاً». والسبع المثاني في رواية أخرى عن ابن عباس هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس. والمثاني في هذه الرواية يراد بها اشتمالها على القضاء والقصص.

يؤيد هذه الرواية ما روي عن مجاهد في قوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ قال: هي السبع الطوال الأول، والقرآن العظيم هو سائر القرآن.

وقيل فيما يروى عن زياد بن مريم في قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ هي أعطيتك سبعة أجزاء: آمر، وأنهى، وأبشِّر، وأنذر، وأضرب الأمثال، وأعدِّد النعم، وآتيتك نبأ القرون. وهذا حسن، غير أن تفسير النبي ﷺ للسبع المثاني أولى من غيره.

ويحتمل أن يكون المراد بالمثاني جميع القرآن، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣] وإنما سمي مثاني، لأن القصص والأنباء ثنِّيت فيه، لقول ابن عباس في رواية: المثاني تثنّى الأمثال والخَبَر[١] والعبر.

وذكر البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: «السبع الطِّوَال لم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، فأعطي موسى عليه السلام منها آيتين».

ومن فضائل طوال السور ما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء، كُتب عند الله من الحكماء» أو «من القانتين».

(١) الخَبَر واحد الأخبار.

وفي سورة النساء خمس آيات متميزات، لما أخرجه البيهقي من طريق الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرّني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٤٠] و ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٤/ ٣١] الآية، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨] و ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٤].

قال ابن مسعود: ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، وما أظن الخامسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠].

ويؤكد فضيلة السبع الطوال ما قاله أنس ﷺ: وجَد رسول الله ﷺ ذات ليلة شيئاً[1]، فلما أصبح قيل: يا رسول الله، إن أثر الوجع عليك لبيِّن. قال: «أما إني على ما ترون بحمد الله، قد قرأت بحمد الله السبع الطُّول»[2].

وفي بعض الآثار عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلِّموا نساءكم سورة النور»[3].

وفي أثر آخر لأم عمرو عن عمها أنه كان مع النبي ﷺ في سير، فأنزلت عليه سورة المائدة، فاندق عنق الراحلة من ثقلها[4].

---

(١) اي أحس بوجع.

(٢) أخرجه أبو يعلى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه، والبيهقي.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور، لكن في بعض رواته كلام.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، وأحمد والبغوي في معجمه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

وجاء في أثر آخر عن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة المائدة على النبي ﷺ حتى إن كادت، أو كادت، من ثقلها لتكسر عظام الناقة[١].

هذه أخبار إجمالية عن فضائل السور الطوال في القرآن، ومن قرأها وجد فيها فيضاً من القصص والشرائع والأحكام والآداب وأخبار أهل الكتاب، والعبر والعظات والأمثال، وغير ذلك من أصول الإيمان والاعتقاد وبراهين وإثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وعظمته وشمول قدرته وإرادته.

فضائل سورة الأنعام والأعراف والتوبة والنور وهود والنحل والكهف

هذه ميزات وفضائل لمجموعة من سور القرآن الكريم، مما يستدعي تعظيمها، والمبادرة إلى إدراك ما فيها، والعمل بتوجيهاتها، والظفر بغاياتها.

أما سورة **الأنعام** فقد ورد فيها بعض الأحاديث، منها ما أخرجه الحاكم عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت سورة الأنعام، سبَّح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق».

وفي رواية للطبراني في الكبير عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام، ومعها موكب من الملائكة سدَّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح، والأرضُ بهم ترتجُّ، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم، ثلاث مرات»[٢].

(١) أخرجه أحمد وعبد بن حميد وابن جرير، وآخرون.
(٢) لكن فيه راويين قال الهيثمي: ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

وأما سورة الأعراف ففيها حديث أخرجه البيهقي من طريق ابن عدي عن ابن عمر: أنه رأى رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «لمن الملك اليوم؟ فيقول: لله الواحد القهار، فيرمي بالسماوات والأرض، ثم يردّ فيها، حتى رأيت المنبر يهتز، فأين الجبارون، وأين المتكبرون؟ فنادوه من ناحية: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٧]».

وأما سورتا التوبة والنور ففيهما أثر عن أبي عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلَّموا سورة براءة، وعلِّموا نساءكم سورة النور، وحلُّوهن بالفضة.

وأما سورة هود فقال عبد الله بن رباح عن كعب، قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا هود يوم الجمعة»[١]. وذكر البيهقي عن أبي علي السَّرِي يقول: رأيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، روي عنك أنك قلت: «شيبتني هود». قال: «نعم». فقلت: ما الذي شيَّبك قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «لا». ولكن قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١/ ١١٢]».

وأما سورة النحل ففيها أجمع آية للخير لما أخرجه البيهقي من طريق الحاكم وصححه والذهبي، عن المعتمر بن سليمان قال: سمعت منصور بن المعتمر يحدث عن عامر قال: جلس شُتَير بن شَكْل ومسروق بن الأجدع، فقال أحدهما لصاحبه: حدِّث بما سمعت من عبد الله وأصدِّقك أو أُحدِّث وتصدقني، قال[٢]: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن للخير والشر في سورة النحل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠] قال: صدقت.

---

(١) أخرجه الدارمي، وأبو داوود في المراسيل وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

(٢) أي مسروق.

وأما سورة الكهف ففيها أخبار كثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن البراء ﷺ قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشَطَنين[١]، فتغشَّته سحابة، فجعلت تدور وتدنو، وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن».

وأخرج مسلم عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال».

وأخرج الحاكم موقوفاً ومرفوعاً عن أبي سعيد الخدري قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق».

وفي رواية عند البيهقي في الشعب عن الخدري نفسه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت، كان له نوراً يوم القيامة».

وأخرج البخاري في الصحيح عن عبد الرحمن بن يزيد يقول: سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل[٢] والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: إنهم من العِتَاق الأُوَل، وهن من تِلادي. أي هن من أول ما أخذته وتعلَّمته بمكة، أو هذه السور من الذي أخذته من القرآن قديماً. والعتاق جمع عتيق وهو الكريم من كل شيء، والخيار من كل شيء، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقاً، يريد بذلك تفضيل هذه السور، لما تضمنته من ذكر القصص وأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الأمم. والتلاد ما كان قديماً من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام، لأنها مكية وأنها من أول ما قرأه وحفظه من القرآن.

---

(١) الشطن الحبل.

(٢) أي في سورة بني إسرائيل وهي سورة الإسراء.

وأخرج ابن عدي والدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تكلم بهذا، أي تكلم بهما وأفهمهما ملائكته».

وأخرج الحاكم وصححه هو والذهبي عن عمر ﵁ قال: «تعلموا سورة البقرة وسورة النساء وسورة المائدة وسورة الحج وسورة النور، فإن فيهن الفرائض».

التنويه بفضائل هذه السور يراد به ضرورة تكرار تلاوتها والاستفادة منها، لما اشتملت عليه من الخير والبركة والعطاء الجم في الدنيا والآخرة.

فضائل سورة السجدة والمُلك ويس والإسراء والزمر والحواميم والفتح

لكل سورة في القرآن الكريم ميزة وفضيلة بسبب ما اشتملت عليه، ولتنبيه الناس إلى ضرورة العناية والاستفادة الدائمة من كل سورة على حدة، وقد وردت أخبار في فضائل سورة ألم تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك، ويس.

أخرج البيهقي في الشعب عن جابر ﵁: «أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك»[1] قال طاووس: يفضّلان على سائر القرآن بستين حسنة.

---

(١) وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وأما سورة يس المشهورة ففي فضائلها أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة يس اقرؤوها على موتاكم». قال الحليمي رحمه الله: يعني على المحتضرين.

وفي حديث مرسل عن حسان بن عطية أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ يس فكأنما قرأ القرآن عشر مرات».

وأخرج الترمذي[1] عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل شيء قلب وإن قلب القرآن يس، من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات».

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ يس كل ليلة غفر له». وفي رواية: «من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر له». وفي رواية ثالثة: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفَر الله له تلك الليلة».

وأما سورة بني إسرائيل (الإسراء) والزمر فقد أخرج الحاكم في شأنهما عن عائشة رضي الله عنها تقول: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة سورة بني إسرائيل والزُّمَر».

وأما الحواميم وهي المبدوءة بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ فهي سبع سور، وهي المؤمن (غافر) وفُصّلت (أو السجدة) والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، وقد ورد في شأنها أحاديث ثابتة، منها ما أخرجه الحاكم عن مجاهد قال: قال عبد الله بن مسعود: «الحواميم ديباج القرآن».

---

(١) وقال: غريب.

وأخرج الترمذي[١] عن حبيب بن أبي ثابت عن رجل أنه مرَّ على أبي الدرداء وهو في مسجد، أو قال: يبني مسجداً، فقال في مسجد، أو قال: ما هذا؟ فقال: هذا لآل حاميم.

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم[٢]، حُفظ في يومه ذلك حتى يمسي، وإن قرأهما حين يمسي، حفظ من ليلته تلك حتى يصبح».

وأخرج الترمذي[٣] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من قرأ الدخان في لَيْلةٍ، أصبح وهو يستغفر له سبعون ألف ملَك».

وأخرج البيهقي وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الدخان في ليلةِ جُمُعة، أصبح مغفوراً له». وفي رواية: «من قرأ ليلة الجمعة حم الدخان ويس، أصبح مغفوراً له».

وأما سورة الفتح فروى البخاري في الصحيح عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه، فسأله عمر عن شيء، فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثلاث مرات، فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر، نزرت[٤] رسول الله ﷺ ثلاثاً، لا يجيبك. قال عمر: فحركت بعيري، حتى تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ، قال: قلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، قال: فجئت رسول الله ﷺ، فسلَّمت عليه، فقال: «لقد أُنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه

---

(١) وقال: غريب.

(٢) أي سورة المؤمن (غافر).

(٣) وقال: غريب.

(٤) نزر ألح عليه في السؤال.

الشمس». ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١-٢].

يغلب على هذه السور القرآنية (فصلت، والملك، ويس، والإسراء، والزمر، والحواميم، والفتح) أنها حض على طلب المغفرة من الله تعالى، ودخولِ الجنة، والنجاة من النار، وتذكر أهوال الآخرة، وما فيها من مخاطر ومخاوف تملأ النفس رعباً وهلعاً، فجدير بأهل الإيمان الإكثار من تلاوة هذه السور، وملازمة الخوف من الله تعالى.

فضائل المُفَصَّل وبعض السور القرآنية

صُنِّفت سور القرآن الكريم من حيث الكم أو المقدار والحجم إلى أقسام هي: السبع الطوال، وسور المئين، وسور المثاني، وسور المفصل[1].

أما **السبع الطوال** - كما تقدم - فهي البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس.

وأما **السور المئون** فهي ما ولي السبع الطوال، لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها.

وأما **المثاني** فهي ما وَلِي المئين، لأنها ثَنَتْها، أي كانت بعدها، فهي لها ثوانٍ، والمئون لها أوائل. فهي السور التي آيها أقل من مئة، لأنها تُثَنَّى أكثر مما يُثَنَّى الطوَال والمئون. أو هي السور التي ثُنِّيت فيها القصص، وقد تطلق على القرآن كله أو على الفاتحة كما تقدم.

وأما **المفصل** فهي ما وَلِي المثاني من قصار السور بدءاً من سورة

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ٢٢٠-٢٢٢

القتال (محمد) إلى آخر سورة الناس، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، أو هي المحكَم من القرآن، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير.

واختُلف في أول المفصل فقيل: هي سورة «ق» لحديث أوس، أو سورة الحجرات، كما صحح النووي، أو سورة القتال (محمد) كما يرى الأكثرون.

وللمفصَّل طوال وأوساط وقصار، فطواله إلى «عمَّ»، وأوساطه منها إلى الضحى، والقصار من الضحى إلى آخر القرآن.

وقد ورد في فضائل المفصل أحاديث، منها ما أخرجه البيهقي في الشعب عن واثلة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت مكان التوراة السبعَ، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأُعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضِّلت بالمفصَّل».

وأخرج البيهقي أيضاً عن معقل بن يسار، عن النبي ﷺ قال: «إن القرآن شافع، مشفَّع ما حلٌ، مصدَّق، وإن لكل آية منه نوراً يوم القيامة ظهراً وبطناً، ألا إني أعطيت فاتحة الكتاب، وخواتيم البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصَّل نافلة».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: «إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن لكل شيء لباباً، وإن لباب القرآن المفصَّل».

ولبعض سور القرآن ميزات خاصة، منها سورة القمر وسورة ق، لما أخرج مسلم في الصحيح عن أبي واقد الليثي قال: سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه عما قرأ رسول الله ﷺ في صلاة العيدين، فقال: قرأ: اقتربت الساعة، وانشق القمر، وقاف والقرآن المجيد». وأخرج مسلم

أيضاً عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: «أخذتُ ق والقرآن المجيد من في رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس».

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قارئ اقتربت يدعى في التوراة المبيِّضة، تبيِّض وجه صاحبها يوم تسودّ الوجوه».

ومنها سورة **الأعلى والغاشية**، لما أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير، أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيد بسبِّح اسم ربك الأعلى، وهل أتاك حديث الغاشية. وإذا اجتمع يوم عيد ويوم جمعة قرأ فيهما جميعاً».

ومنها سورة **السجدة والدهر والمنافقون**، لما أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر ألم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان، وفي الجمعة سورة الجمعة والمنافقون».

ومنها سورة **الطور**، أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن جبير بن مطعم أنه دخل المسجد، والنبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب بالطور، فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن.

ومنها سورة **الرحمن**، لما أخرجه البيهقي في الشُّعَب عن جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً، لَلجِنُّ أحسنُ منكم رداً، ما قرئت عليهم هذه الآية مرة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك نكذِّب، فلك الحمد».

وأخرج البيهقي أيضاً عن علي ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن».

وفي حديث آخر مشابه عن فاطمة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ:

«قارئ الحديد، وإذا وقعت، والرحمن يدعى في ملكوت السماوات والأرض ساكن الفردوس».

فضائل بعض آخر من السور القرآنية

وردت أحاديث ثابتة في تبيان فضائل سور أخرى من القرآن الكريم، لشد أنظار القراء والعناية بما يستنبط منها من أحكام شرعية ودنيوية، منها ما ذكره البيهقي في شعب الإيمان عن أبي طيبة أن عثمان بن عفان ﷺ، عاد ابن مسعود في مرضه، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيه قبل اليوم، فلا حاجة لي فيه. قال: فدعه لأهلك وعيالك؟ قال: إني علَّمتهم شيئاً إذا قالوا لم يفتقروا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم يفتقر». وفي رواية: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم يصبه فاقة». أو «لم يصبه فاقة أبداً».

وورد في سورة الحشر كما ذكر البيهقي في الشعب عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ خواتيم الحشر في ليل أو نهار، فمات من يومه أو ليلته، فقد أوجب الجنة».

وعن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ الثلاث من آخر سورة الحشر، وكَّل الله به سبعين ألف ملَك يصلون عليه حتى يمسي، ومن قالها مساءً فمثل ذلك».

وفي المسبِّحات المبدوءة بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ونحوه ذكر البيهقي عن

العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبِّحات، وقال: «إن فيهن آية أفضلَ من ألف آية».

وعن ميسرة أنَّ هذه الآية مكتوبة في التوراة بسبع مئة آية: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أولِ سورة الجمعة.

وفي شأن سورة «المُلْك» تبارك أخبار خاصة بها، منها ما ذكره البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له». زاد أبو عبد الله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «وددت أنها في قلب كل مؤمن». يعني تبارك الذي بيده الملك. وفي رواية الترقفي أن رسول الله ﷺ قال: «لوددت أن تبارك في صدر كل إنسان من أمتي».

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال في سورة تبارك: جادلت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة.

وسورة الملك تمنع قارئها من عذاب القبر، لحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي عن ابن مسعود قال: يؤتى الرجل في قبره، فيؤتى رجليه، فتقول رجلاه: ليس لكم عليّ ما قِبَلي سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره أو قال: بطنه، فتقول: ليس لكم عليّ ما قِبَلي سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم عليّ ما قِبَلي سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة الملك، قال: فهي المانعة تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليله، فقد أكثر وأطنب.

وعن عمرو بن مالك البكري قال: سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء عن ابن عباس: أن رجلاً من صحب النبي ﷺ ضرب خباءه على قبر،

وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله، إني ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك حتى ختمها، قال له رسول الله ﷺ: «تلك المانعة تنجي من عذاب القبر».

وأخبر البيهقي أيضاً عن زهرة بن معبد أن ابن شهاب (الزهري) كان يقرأ في صلاة الصبح: تبارك الذي بيده الملك، وفي الآخر: قل هو الله أحد، فقلت: تقرأ هذه السورة الطويلة مع هذه السورة القصيرة، قال ابن شهاب: إن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن، وإن «تبارك» تخاصم لصاحبها في القبر.

وفي سورة الزلزلة أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال له رسول الله ﷺ: «اقرأ ثلاثاً من الر». فقال الرجل: كبرت سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني. فقال: « اقرأ ثلاثاً من ذوات حم». فقال لرسول الله ﷺ مثل مقالته الأولى، قال: «اقرأ ثلاثاً من المسبِّحات». فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أهدني سورة جامعة، فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت، حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليه أبداً. ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرجل». ثم ذكر ما بعده.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن».

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه وغيرهما عن المعرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حجاجاً، فصلى بنا الفجر، فقرأ: ألم تر، وإيلاف قريش.

فضائل سورة التكاثر والكافرون والنصر والإخلاص

فُضِّل نبينا عليه الصلاة والسلام بقصار السور الجامعة على إيجازها بين معانٍ كثيرة، وترشد إلى فضائل عديدة، وتوضح للناس طريق الحق والخير والمعروف، وتغرس في القلب جذوة الإيمان بالله عز وجل وبما أنزل على نبيه في القرآن، وتسهل على الناس ولا سيما العوام تلاوة هذه السور القصيرة في ركعات الصلاة، حيث يحفظها أكثر المصلين من العرب والعجم، ولا يحفظون سواها من الآيات الكريمة. وهذه السور القصار هي التي توصف بالمفصل من القرآن كما تقدم، وهي من سورة القتال (محمد) إلى آخر القرآن.

ومن هذه السور سورة التكاثر التي تبين الموقف الحاسم بين الدنيا وأهلها الحريصين على جمع الأموال، والآخرة ذات الذخيرة الكبرى لأهل التقوى والبر والإحسان وشُكْر نعم الله الجليلة التي يسأل كل إنسان عن أحوال النعيم التي تلقاها الإنسان من ربه مدى الحياة، فكانت هذه السورة عظيمة الأثر تعدل ألف آية، أخرج الحاكم والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟». قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية؟ قال: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ: ألهاكم التكاثر؟».

ومن قصار السور الجامعة التي تعدل ربع القرآن سورة الكافرون والتي هي براءة من الشرك، أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي فروة الأشجعي أنه قال للنبي ﷺ: مُرني بشيء أقوله. فقال: «إذا أويت إلى مضجعك فاقرأ قل يا أيها الكافرون إلى خاتمتها، فإنها براءة من الشرك».

وذكر البيهقي في الشعب عن أبي عمرو بن العلاء قال: «قل يا أيها الكافرون تسمى المقشقشة». أي إنها تبرئ من الشرك، ويقال: قشقش البُقَير إذا رمى بِجرَّته، وهي ما يجتره البعير ونحوه من الأنعام.

وفي الشعب للبيهقي أيضاً عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر بـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وذكر البيهقي أيضاً عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين اللتين يُوتر بعدهما بسبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون، وفي الوتر بقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس.

وعن عائشة بنت سعد عن أبيها قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من قرأ قل يا أيها الكافرون كأنما قرأ رُبُع القرآن، ومن قرأ قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن».

ومن السور القصيرة ذات المعنى الغزير سورة النصر، روى مسلم في الصحيح عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه، قالت: قلت: يا رسول الله، إنك تكثر سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه. قال: «خبَّرني ربي في أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها: إذا جاء نصر الله والفتح[1]، ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً».

وفي الشعب للبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قل يا أيها

---

(١) فتح مكة.

الكافرون تعدل رُبُع القرآن، وإذا زلزلت تعدل رُبُع القرآن، وإذا جاء نصر الله والفتح رُبع القرآن».

وتمتاز سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بأنها ترشد إلى جذر الإيمان وهو توحيد الله تعالى، وبيان صفة الرحمن، وهي تعدل ثلث القرآن، أخرج الإمام مالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يقللها، فقال له الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

وفي الشعب للبيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قرأ قل هو الله أحد ثنتي عشرة مرة، فكأنما قرأ القرآن أربع مرات، وكان أفضل أهل الأرض».

وأخرج البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل ليلة ثلث القرآن؟» قالوا: وأينا يطيق ذلك؟ قال: «قل هو الله أحد، الله الصمد ثلث القرآن».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي الدرداء، أن رسول الله ﷺ قال: «أما يستطيع أحدكم أن يقرأ كل ليلة ثلث القرآن؟». قالوا: يا رسول الله، نحن أعجز وأضعف. مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك يرددون عليه مثل ذلك، فقال ﷺ: «إن الله عز وجل جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من القرآن».

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فكان يختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع هذا؟» فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه».

فضائل المعوذتين

المعوِّذَتان قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وقاية وحماية من وساوس الشيطان، ومن عين الجن ومن عين الإنس، ومن السحر، ومن الحسد، ومن خوف الظلام، والريح الشديدة، ومن الأمراض، فهما رُقية من كل داء، وشفاء من كل أذى، لذا يطلب قراءتهما وتلاوتهما في مناسبات كثيرة لنفع الإنسان المؤمن، وقد ورد في فضائلهما أحاديث ثابتة كثيرة، منها ما أخرجه البخاري عن زِر بن حُبيش قال: سألت أبيّ بن كعب عن المعوذتين، قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعوذتين، قال: قيل لي[1]، فقلت: فنحن نقول مثل ما قال رسول الله ﷺ.

وذكر البيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أنزلت علي آيات لم أر أو لم يُرَ مثلُهن». يعني المعوذتين.

وروى البيهقي عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال له: «ألا أعلمك خير سورتين قرئتا؟». فعلَّمه: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من عين الجان ومن عين الإنس، فلما نزلت سورة المعوذتين أخذهما، وترك ما سوى ذلك، لفظهما سواء.

---

(١) (قيل لي) أي قال لي جبريل: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي وأقرأني السورتين. (فقلت) أي فقرأتهما على أصحابي.

وفي الشعب للبيهقي عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أسير مع رسول الله ﷺ فيما بين الجُحْفة والأبواء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بأعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس، ويقول: «يا عقبة تعوَّذ بهما، فما تعوّذ متعوِّذ بمثلهما». وقال: وسمعته يؤمنا بهما في الصلاة. وفي رواية: «يا عقبة قل». فقلت: ما أقول؟ قال: «قل أعوذ برب الناس». فقرأتها حتى جئت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «ما سَأل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما».

وأخبر البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوِّذات في دُبُر كل صلاة».

وفي رواية: قال عقبة: يا رسول الله أقرأ من سورة يوسف وسورة هود، قال: «يا عقبة اقرأ بأعوذ برب الفلق فإنك لن تقرأ بسورة أحب إلى الله وأبلغ عنده منها، فإن استطعت ألا تفوتك فافعل».

وأخرج الحاكم عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبح اسم ربك الأعلى، وفي الثانية بقل يا أيها الكافرون، وفي الثالثة بقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس».

وتكون الرُّقية بالمعوذتين لما روى مسلم في الصحيح عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا مرض قرأ على نفسه المعوذات، ونفث، أي نفخ. وفي رواية عن عائشة أيضاً: أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوِّذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها.

وروى البخاري في الصحيح عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع يديه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم مسح

بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينامن أحدكم حتى يقرأ ثلث القرآن». قالوا: يا رسول الله، وكيف يستطيع أحدنا أن يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «ألا يستطيع أن يقرأ بقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس؟».

ويلاحظ أن أسباب المفاضلة بين السور والآيات هي ما يأتي كما ذكر الحليمي رحمه الله عند الكلام على آية ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ٢/١٠٦]:

أولاً- بيان أوجه المفاضلة بين الآيات، كما يقال: إن آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد خير من آيات القصص، لأن القصص إنما أريد بها تأكيد الأمر والنهي والإنذار والتبشير، ولا غنى بالناس عن هذه الأمور، وقد يستغنون عن القصص بما هو أنفع لهم.

ثانياً - معرفة الآيات المشتملة على تعدادِ أسماء الله جل ثناؤه وبيانِ صفاته، والدلالة على عظمته، وقدسه؛ لأنها أفضل وخير من غيرها.

ثالثاً - العلم بالفائدة المتعجلة في الدنيا، فيقال: سورة خير من سورة، وآية خير من آية، ليتعجل القارئ الفائدة بقراءتها، سوى الثواب الآجل في الآخرة، كقراءة آية الكرسي وسورة الإخلاص والمعوذتين، فإن قارئها يتعجل بقراءتها الاحتراز مما يُخْشى والاعتصام بالله مما يحذر.

رابعاً - تحصيل الثواب بقراءة بعض السور. فيقال: سورة أفضل من سورة، لمعرفة أن الله تعالى رتب لها الثواب ما لم يرتّب لغيرها، كما يقال: إن يوماً أفضل من يوم، وشهراً أفضل من شهر، بمعنى أن العبادة فيه أفضل من العبادة في غيره، والذنب فيه أعظم منه في غيره،

وكما يقال: إن الحرم المكي أفضل من الحل، لأنه يتأدى فيه من المناسك ما لا يتأدى في غيره.

الاستشفاء بالقرآن

القرآن المجيد كله شفاء مادي ومعنوي من الأمراض القلبية والجسدية، لأنه كلام الله تعالى، وكلامه موصول به سبحانه، والله قادر على كل شيء، وهو منبع كل خير، ومصدر كل نعمة، فمن قرأ آيات الله عز وجل سمت روحه، وصفا قلبه، ورقّ طبعه، وشفا نفسه من كل داء.

وفي القرآن الكريم على سبيل التخصيص بعض آيات للشفاء، منها آيات سبع وهي: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٢]. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ١٠/ ٥٧]. ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٤]. ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٩]. ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤]. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٠]. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١١٥-١١٨].

ومثل آيات أواخر سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢١-٢٤] وفي القرآن سور للاستشفاء هي الفاتحة، والإخلاص، والمعوذتان.

والقرآن كله شفاء.

وقد وردت أحاديث صحاح في هذا كله، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال: بعثنا رسول الله ﷺ في غزوة، فأتينا على رجل لديغ في جهينة فداووه، فلم ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم لعل أن يكون عندهم شيء نافع، فقالوا: أيها الرهط، إن سيدنا لديغ، فابتغينا له بكل شيء، فلم ينفعه شيء، فهل عندكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي، والله لقد استضْيفناكم فلم تُضيِّفونا، لا نرقي حتى تجعلوا لنا جُعْلاً، فصالحناكم على قطيع من الغنم، فانطلق فجعل يتفل عليه، ويقرأ: الحمد لله رب العالمين، يعني فاتحة الكتاب حتى برأ، فكأنما نشط من عُقال، قال: فقام يمشي ما به بلية، فأوفوهم جُعْلهم الذي قاطعوهم عليه، فقال بعضهم: اقتسموا، فقال الذي رَقَى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فنذكر الذي كان، فننظر ما يأمرنا به. فغدوا على رسول الله ﷺ، فذكروا ذلك، فضحك رسول الله ﷺ. وقال: «وما يدريك؟ إنها رُقية، وقال: أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم بسهم».

وروى البيهقي في الشُّعَب عن عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يكره الرُّقْي إلا بالمعوِّذات. وقال لعقبة بن عامر: «يا عقبة تعوذْ بهما، فما تعوذ متعوذ بمثلهما». وتعوَّذَ بالمعوذات. وتعوَّذَ بآيات من كتاب الله عز وجل.

وروى البيهقي أيضاً عن ابن حابس الجهني أن رسول الله ﷺ قال له: «يا ابن حابس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ به المتعوّذون؟». قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وهما المعوِّذتان».

وأخبر البيهقي عن علي قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض، فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله،

فقتلها، فلما انصرف قال: «لعن الله العقرب، ما يدع مصلياً ولا غيره، أو نبياً وغيره». ثم دعا بملح وماء، فجعله في إناء، ثم جعل يصبه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها، ويعوِّذها بالمعوذتين. وفي رواية: ثم دعا بماء وملح، وجعل يمسح عليها، ويقرأ: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس.

وفي حديث آخر ذكره البيهقي عن أسماء بنت أبي بكر ﭭ قالت: «من قرأ يوم الجمعة بفاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، سبع مرات، حفظ ما بينه وبين الجمعة الأخرى».

وذكر البيهقي عن طلحة بن مصرف قال: كان يقال: إن المريض إذا قرئ عنده القرآن، وجد له خفة، فدخلت على خيثمة، وهو مريض، فقلت: إني أراك اليوم صالحاً قال: إنه قرئ عندي القرآن.

وفي الشعب للبيهقي أيضاً عن واثلة بن الأسقع أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ وجع حَلْقه، قال: «عليك بقراءة القرآن».

وفي حديث موقوف - على الصحيح - على ابن مسعود قال: «عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل».

وعن أبي مسعود الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه».

وفي حديث عمر بن الخطاب ﭬ: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان» أي للاستشفاء.

الاحتفاء بالقرآن

القرآن المجيد كلام الله عز وجل، وكتاب الكون الأكبر، وكنز الإنسان الأعظم، فتجب العناية المركزة به تلاوة مرتلة، وحفظاً وصوناً، وعملاً وتأدباً، وتخلقاً والتزاماً، لتبرأ ذمة الإنسان من توجيه أمانة الله تعالى وتعلّقها بقلبه ونفسه وعمله وبرمجة حياته في نطاق إرشاداته وتعاليمه، لأن القرآن الكريم إما حجة وشفيع للإنسان إن عمل به، وإما حجة عليه إن أعرض عنه أو تخلى عن شيء من أحكامه وشرائعه.

وهذا يتطلب التأني في قراءته وترك دمج آياته ببعضها أو تركيب جمله، فتقرأ كل آية على حدة، ويكون النطق به آية آية، كما كان الوحي ينزل به، وكما كانت قراءة رسول الله ﷺ، روى البيهقي عن أم سلمة رضي الله عنها حيث ذكرت قراءة رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين» **يقطّع قراءته آية آية**. قال البيهقي رحمه الله: ومتابعة السنة أولى مما ذهب إليه بعض أهل العلم بالقرآن من تتبع الأغراض والمقاصد والوقوف عند انتهائها. وقال ابن أبي الهذيل: إذا قال أحدكم الآية فلا يقطعْها حتى يتمها.

والاحتفاء بالقرآن والفرح به جملة وتفصيلاً هو شأن أهل الإيمان، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/١١٣] وخاطب الله نساء النبي ﷺ بقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٤].

وسمي القرآن نوراً ومباركاً وهدى، فمن أنعم الله به عليه ويسّر عليه

تعلّمه وقراءته، فقد شارك النبي ﷺ في علمه، فكان لا بد من تعظيمه والعناية به أكثر وأكبر من تعظيم الأموال والأولاد، وإلا كان من أجهل الجاهلين.

روى البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة، ومن قرأ ثلثي القرآن أعطي ثلثي النبوة، ومن قرأ القرآن كله أعطي النبوة كلها، ويقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما معه من القرآن، ويقال له: اقبض فيَقبض، فإذا في يده اليمنى الخلد، وفي الأخرى النعيم».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه[1] إلا أنه لا يوحى إليه، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يُحدّ مع من يُحدّ[2]، ولا يجهل مع من يجهل، وفي جوفه كلام الله».

وأخرج الحاكم أيضاً وصححاه عن أُبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت علي سورة، وأمرت أن أقرئكها». قال: قلت: أَسمِّيتُ لك؟ قال: «نعم». قال: قلت لأُبي: أفرحت بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ يقول: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن، أو أنْ جعلكم الله من أهل القرآن. وفسر الآية هلال بن يساف بقوله: بالكتاب الذي علّمكم، وبالإسلام الذي هداكم.

---

(١) أي جمع في صدره ما أنزل على النبي ﷺ، غير أنه لا يوحى إليه فيه.
(٢) أي يغضب مع من يغضب.

وأما رفع الصوت بالقرآن فهو جائز إذا كان القارئ يقرأ وحده، أو استمع إليه غيره، أو لم يتأذ به أصحابه ورفاقه. أخرج البخاري ومسلم أن الأشعريين كانت تعرف أصواتهم بالقرآن في الليل، وتعرف منازلهم بالقرآن من الليل.

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً عن عبيد الله بن يزيد عن أبيه، أن رسول الله ﷺ جاء إلى المسجد، فوجدني على باب المسجد، فإذا رجل يصلي ويدعو، ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. قال: فقام رسول الله ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب». قال: وإذا رجل يقرأ في جانب المسجد، فقال: «لقد أعطي هذا مزماراً من مزامير آل داوود». فقلت: يا رسول الله أخبره؟ قال: «نعم». فأخبرته، قال: فلم يزل لي صديقاً، وإذا هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.

وروى البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها، أن رجلاً قام من الليل يقرأ، فرفع صوته بالقرآن، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله فلاناً كأين من آية أذكرنيها الليلة كنت أسقطتها».

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي من الليل، فيسمع قراءته من وراء الحِجْر، وهو في البيت.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهر به». والتغني الجهر بالقراءة والإتقان.

وفي الشعب للبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة، والمسرّ بالقرآن كالمسر بالصدقة».

وقد قال الله عز وجل: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١] قال البيهقي: وهذا - والله أعلم - لأن إخفاءها يكون أبعد من الرياء، وكذلك قراءة القرآن.

من أحكام قراءة القرآن

تستوجب قراءة القرآن الكريم التقيد بأحكام شرعية لازمة، يقتضيها تعظيم القرآن، لأنه كلام الله عز وجل، والله يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٢] والتعظيم الكامل والشامل إنما يكون لرب العزة وكلامه وتوقيره، وامتثال كل ما جاء عنه سبحانه.

ومن أحكام قراءة أو تلاوة القرآن ترك المباهاة بقراءة القرآن، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استُشهد، فأُتي به فعرَّفه نعمته، فعرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ فقال: قاتلت في سبيلك حتى استشهدتُ. قال: كذبت، إنما أردتَ أن يقال: فلان جريء، فقد قيل. فيؤمر به، فيسحب على وجهه حتى يلقى في النار. ورجل تعلم العلم وقرأ القرآن، فعرّفه نعمته، فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وقرأت القرآن وعلّمته فيك. قال: كذبت وإنما أردت أن يقال: فلان عالم، وفلان قارئ، فقد قيل. فأُمر به، فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل آتاه الله من أنواع المال، فأُتي به، فعرّفه نعمته، فَعَرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من شيء أن تحبَّ أن أنفق إلا أنفقت فيه لك، قال: كذبت، إنما أردت أن يقال: فلان جواد، فقد قيل. فيأمر به، فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار».

دل الحديث على أن المباهاة في الجهاد، وطلب العلم وقراءة القرآن، وإنفاق المال، تستوجب هذه الأحوال الثلاثة دخول النار. قال الحليمي رحمه الله: وأيضاً إن قراءة القرآن عبادة، والمباهاة بها مراءاة، والرياء فيها كالرياء في غيرها من العبادات.

وذكر البيهقي في الشعب عن الحسن البصري قال: إن هذا القرآن قرأه ناس ثلاثة: قوم اتخذوه بضاعة ينقلونه من بلد إلى بلد، لا أكثَرهم الله، وهم كثيرون. وقوم تدانوا من السلطان، وراءوا به في أعمالهم. وقوم وجدوا فيه دواء قلوبهم، فجعلوه على داء قلوبهم، فقاموا به في محاريبهم، وخفوا في برانسهم، فبمثل هؤلاء يُدَل على الأعداء[1]، ويستنزل القطر.

ومن أحكام تلاوة القرآن ترك الاستجداء بقراءته في المساجد والأسواق، فالقرآن أجلّ وأرفع من جعله أداة للتكسب والعطاء، وأخذ المال، وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به». وزاد فيه يحيى بن أبي كثير: «اقرؤوا القرآن واعملوا بما فيه».

وذكر البيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وتلا هذه الآية ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩] فقال النبي ﷺ: «يكون خلف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلْف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير الخولاني: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ فقال: المنافق كافر به، والفاجر يأكل به، والمؤمن يؤمن به.

---

(١) يتفاخر بهم على الأعداء لحسن السيرة والاستقامة.

وذكر البيهقي أيضاً عن الحسن البصري قال: كنت مع عمران بن حصين، إذ مرَّ رجل يقرأ سورة يوسف، فاستمع له، فلما فرغ سأل[1]، فقال عمران بن حصين: إنا لله وإنا إليه راجعون، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآن، سلوا به الله، فإنه سيجيء قوم يقرؤون القرآن يسألون به الناس».

وفي حديث آخر في شعب البيهقي عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تعلموا القرآن، يتعلمه ثلاثة: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرأ لله عز وجل».

قال عبد الله بن مسعود: إنه سيجيء زمان يُسأل فيه بالقرآن، فإذا سألوكم فلا تعطوهم.

وقد كره جماعة من الصحابة بيع المصاحف، تعظيماً للمصحف من أن يجعل متّجراً، ورخص في بيعها جماعة من التابعين، كجابر بن زيد والحسن البصري والشعبي وعكرمة.

وكره جماعة تعليم القرآن بالأجرة، وورد فيه أخبار، ورخص فيه آخرون، لما أخرجه البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله عز وجل». وهو دليل على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

ومن الأحكام ترك قراءة القرآن في الحمام والكنيف[2] والمواضع القذرة تعظيماً للقرآن، فذلك مكروه، لما ذكره البيهقي في الشعب عن مورق العجلي قال: شهدت كتاب عمر إلى أبي موسى رضي الله عنه: أنه بلغني أن أهل الأمصار اتخذوا الحمامات، فلا يدخلن أحد إلا بمئزر، ولا يذكر

---

(١) أي طلب المال.

(٢) الساتر لقضاء الحاجة وغيرها.

فيه اسم الله حتى يخرج منه. ونقل عن عطاء الخراساني جواز القراءة في الحمام. وكان النبي ﷺ لا يرد السلام عليه وهو يبول، فتكون قراءة القرآن حينئذ أولى بالمنع، وأجدر أن يكرَّم القرآن ويعظم. وسئل إبراهيم النخعي عن القراءة في الحمام، قال: ليس لذلك بُني.

من آداب القراءة في القرآن

لقراءة القرآن آداب كثيرة وأحكام عديدة، يقصد بها تمكين القارئ من التدبر في القراءة، والتأمل في المعاني، ليظفر ببركة القرآن، ويجني فوائد التلاوة على الوجه الأكمل.

من هذه الآداب الكثيرة غير ما ذكر سابقاً ترك العجلة أو الإسراع في التلاوة، لما أخرجه البخاري في الصحيح وكذا مسلم عن أبي سعيد الخدري أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرَّمِيَّة[١]، تنظر في النصل، فلا ترى شيئاً، وتنظر في القدح فلا ترى شيئاً، وتنظر في الريش فلا ترى شيئاً، ويتمارى في الفوقة»[٢].

وأخبر البيهقي عن محمد بن المنكدر مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «سيجيء قوم يقرؤون القرآن يقيمونه إقامة القَدَح، يتعجلون أجره، ولا يتأجلونه». أي يستعجلون الثواب من تلاوته، دون تأجيل.

---

(١) أي الصيد، والمراد إطلاق السهم ونحوه.
(٢) أي القراءة السريعة دون انقطاع.

وذكر البيهقي في الشعب أيضاً عن حذيفة بن اليمان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين، فإنه سيجيء من بعدي قوم يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم، وقلوب من يعجبهم شأنهم».

وذكر البيهقي أيضاً عن أبي الدرداء قال: «إياكم والذين يحرِّفون القرآن، وإياكم والهذّاذين بالقرآن الذين يهذّون القرآن[1]، ويسرعون بقراءته، فإنما مثل ذلك كمثل الأكمة، لا أمسكتْ ماءً، ولا أنبتت كلأً».

وقال ابن مسعود: أعربوا القرآن، فإنه عربي، وسيكون بعدكم قوم يُثقِّفونه[2]، وليس بخياركم. أي يسردونه.

وقال الحسن البصري: إن هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لم يأخذوه من أوله، ولا عِلْم لهم بتأويله، إن أحق الناس بهذا القرآن من رُئي في عمله، قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٣٨/٢٩] وإنما تدبُّر آياته إتْباعه بعمله، يقول أحدهم لصاحبه: تعال أقارئك، والله ما كانت القرّاء تفعل هذا، والله ما هم بالقرَّاء ولا الورعة، لا أكْثَر الله في الناس أمثالهم، لا أكثر الله في الناس أمثالهم.

ومن آداب القراءة ترك رفع الصوت أثناء وجود الجماعة القراء، لما أخبر به البيهقي عن أبي حازم التمّار عن البياضي أن رسول الله ﷺ خرج على الناس، وهم يصلُّون، وقد عَلَت أصواتهم بالقرآن، فقال: «إن المصلي يناجي ربه، فلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض

---

(١) هذّ القراءة أو هذرم من الهذْرمة السرعة في القراءة والكلام.
(٢) يخفّون في قراءته.

بالقراءة». قال البيهقي رحمه الله: فإذا كانوا جماعة يقرؤون القرآن، فلا يرفع بعضهم على بعض في القراءة، لما فيه من الأذى على أصحابه.

وأضاف البيهقي قائلاً: أما ما جاء في قراءة الإمام واستماع المأموم لقراءته، واقتصاره على قراءة الفاتحة خلف الإمام في سكتاته، فلقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠٤].

وأما استماع غير القارئ للقارئ في غير الصلاة، فإنه داخل في عموم الآية المذكورة.

ومن آداب القراءة وتعظيم المصحف ألا يُحمل فوقه متاع، ولا ينبذ حيث اتفق في أي مكان، بل يوضع في مكان عالٍ، لا على الأرض، لما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، فإني أخاف أن يناله العدو». قال البيهقي: فإذا كان منهياً أن يعرّضه بنفسه على من يستهينه وينتهك حرمته، كان نهيه عن أن يزدرى به ويستهينه بنفسه أولى، ولأن الله تعالى وصف القرآن بأنه في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون. فإذا كان فوق السماوات مكتوباً محفوظاً، وليس هناك إلا الملائكة المطهرون، فلأن يكون فيما بيننا مكتوباً محفوظاً، والناس مختلفون، والأماكن مختلفة، والأحوال شتى أشبه، أي أولى وألزم. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: لا تكتبوا القرآن حيث يوطأ.

ووجد بِشْر بن الحارث قرطاساً في أتون حمام فيه «بسم الله الرحمن الرحيم» فعظم ذلك عليه، ورفع طَرْفه إلى السماء، وقال: سيدي اسمك ههنا ملقى، فرفعه عن الأرض، ونظفه، ثم أتى عطاراً فاشترى بدرهم غالية[1] لم يكن معه سواه، ولطخ القرطاس بالغالية، فأدخله شق حائط،

---

(١) الغالية المسك.

فرأى له زجّاج رؤيا: رأيت كأن قائلاً يقول في المنام: قل لبِشْر: يرفع اسماً لنا في الأرض إجلالاً أن يداس، لننوهن باسمك في الدنيا والآخرة.

وأوتي منصور بن عامر الحكمة بسبب أنه وجد رقعة في الطريق مكتوباً عليها «بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذها فلم يجد لها موضعاً، فأكلها، فأري فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول: قد فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الرقعة. وكان بعد ذلك يتكلم بالحكمة.

كتابة القرآن وحفظه

على المسلم تفخيم قدر المصحف، وكتابته بخط جميل واضح لتسهل تلاوته ويعم نفعه، ولا سيما على كبار السن وضعفاء البصر، ذكر البيهقي في الشعب عن أبي حكيم العبدي، قال: أتى عليٌّ عليَّ، وأنا كاتب صحفاً، فجعل ينظر إلى كتابي، فقال: أجْلِ قلمك. فقضمت من قلمي قَضْمة، ثم جعلت أكتب، فقال: نعم، نوِّره كما نوَّره الله. وكان علي ﷺ يكره أن يكتب المصحف في الشيء الصغير، وكره مجاهد أن يصغّر المصحف، والمسجد، فيقال: مصيحف ومسيجد. وكان عمر بن عبد العزيز ﷺ ينهى أن يكتب أحد: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يجعل له سينات.

ويطلب إفراد المصحف للقرآن الكريم وتجريده عما سواه من كلام الله عز وجل، لأن النبي ﷺ كان يأمر بإثبات ما ينزل من القرآن، ولم يحفظ عنه أنه أمر بإثبات عدد آيات السور أو العواشر (الأعشار) أو أماكن التوقف. وأمر أبو بكر ﷺ بجمع القرآن ونقله إلى مصحف، ثم اتخذ عثمان من ذلك المصحف مصاحف، وبعث بها إلى الأمصار[1]، ولم يعرف أنه أثبت في

(١) إلى البصرة والكوفة والشام ومصر ومكة والمدينة.

المصحف الأوَّل، ولا فيما نسخ منه شيء سوى القرآن، وذلك ينبغي أن يعمل في كتابة كل مصحف. قال عبد الله بن مسعود: جرِّدوا القرآن. أي عن الإضافات، وكان يكره التعشير في المصحف. وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: جرِّدوا القرآن ولا تخلطوا به ما ليس منه.

وكره النخعي أيضاً نَقْط المصحف. وقال منصور: سألت الحسن (البصري) عن نقْط المصحف، فقال: لا بأس بها ما لم تبغوا. وهو أيضاً رأي ابن سيرين، لأن النقطة ليست بمقروءة، فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء، فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها.

قال البيهقي رحمه الله: من كتب مصحفاً فينبغي له أن يحافظ على الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيها، ولا يُغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي لنا أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم ولا سَقْطاً لهم.

لكن طباعة المصاحف التي عليها الإطارات المزخرفة ووضع أرقام الآيات، وبيان مواضع سجدات التلاوة على الهامش، وعدد الأجزاء والأحزاب والأعشار[1]، لا بأس به لعدم اختلاطه بالمصحف أو النطق به.

والأفضل والأصح للقراءة تنوير أو إضاءة مكان تلاوة القرآن، أخرج البخاري عن أسيد بن حضير، حيث كان يقرأ سورة البقرة في أثناء الليل، فأحاطته مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فسأل رسول الله ﷺ فقال له: «تدري ما ذلك؟». قال: لا يا رسول الله. قال: «تلك الملائكة أتت لصوتك، ولو قرأت لأصبح الناس حتى ينظرون إليها، لا تتوارى منهم».

---

(١) آي القرآن على طريقة الكوفيين عن الإمام علي (٦٢٣٦) آية، وأجزاؤه ثلاثون، وأحزابه ستون، وكل حزب أربعة أعشار.

ويطلب حفظ القرآن على أنه فرض كفاية، فقد أخرج مسلم أن نافع بن عبد الحارث الخزاعي، لقي عمر بن الخطاب ﷺ بعُسفان، وكان استعمله على أهل مكة، فسلَّم على عمر، فقال: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابنَ أبْزى. فقال نافع: مولى من موالينا؟ فقال عمر: فاستخلفت عليهم مولى. قال: يا أمير المؤمنين إنه لقارئ لكتاب الله عز وجل، عالمٌ بالفرائض. فقال عمر: أما إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين».

وقدَّم النبي ﷺ في القبر يوم دفن شهداء أحد حملةَ القرآن قائلاً لمن سأله: فأيهم يُقدَّم في القبر؟ قال: «أكثرهم قرآناً».

وأخرج أبو داوود - وهو حديث حسن - عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحاملِ القرآن غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرامَ ذي السلطان المقسط». وفي رواية عن جابر: «إن من إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، والإمام العادل، وحامل القرآن، لا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى أهلين من الناس»، قيل: يا رسول الله، ومن هم؟ قال: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته».

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: يأتي القرآن شافعاً لمن حمله يقول: يا رب، إن لكل عامل آتيته أجرَه في الدنيا، فأت عاملي اليوم أجر عمله، فيقال له: ابسط يمينك، فيبسطها، فيُملأ له من رضوان الله عز وجل، ثم يقال له: ابسط شمالك، فيُملأ له من رضوان الله تعالى، ثم يكسى حُلّة الكرامة.

وذكر البيهقي عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «من

قرأ القرآن فاستظهره وحفظه، أدخله الله الجنة، وشفَّعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد وجبت لهم النار».

وذكر البيهقي أيضاً عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لحامل القرآن إذا عمل به، فأحل حلاله، وحرم حرامه، يشفع في عشرة من أهل بيته يوم القيامة، كلهم قد وجبت لهم النار».

وأخبر البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم القرآن في شيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلَّمه في كِبَره وهو يتفلت منه، ولا يتركُه، فله أجره مرتين».

وأخبر أيضاً عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان القرآن في إهاب ما مسَّه النار». قال أبو عبد الله: يعني أن من حمل القرآن وقرأه لم تمسّه النار.

وذكر البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن، وأصحابُ الليل». وقال عبد الملك بن عمير: كان يقال: أبقى الناس عقولاً قراء القرآن.

الأصل التاسع عشر من أصول الإيمان

الطهارات وآدابها

الطهارة المادية أو النظافة، والطهارة المعنوية بالتجرد من أمراض القلوب كالكبر والحسد والحقد وسائر أمراض القلب هي من أصول الإسلام التي يتوقف عليها صحة الصلاة، لأن الإعداد الجسدي والروحي محقق للصفاء والاطمئنان وترك الانشغال بهذه المنغصات والشواغل المخلِّة بالخشوع في الصلاة، لذا رغَّب الشرع بالطهارة من الحدث الأكبر (الجنابة) بالغسل، ومن الحدث الأصغر بالوضوء.

ووردت آيات قرآنية تأمر بالطهارة، منها قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤] وامتدح الله أهل قُباء الذين يتطهرون بالماء بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٨].

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة تحث على ملازمة الطهارة، منها ما أخرجه مسلم عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والقرآن حجّة لك أو عليك، والناس يغدون، فبائع نفسه فموبقها، أو مبتاع فمعتقها».

دل الحديث على فضيلة عظيمة للطهارة، حيث قال: «الطهور شطر الإيمان» لأن الله عز وجل سمى الصلاة إيماناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] يعني صلاتكم إلى بيت المقدس، ولا تجوز الصلاة إلا بوضوء، فهما شيئان، كل واحد منهما نصف الآخر، أي إن الصلاة شطر والوضوء شطر.

يؤكده حديث آخر أخرجه مسلم من وراية ابن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبل الله عز وجل صلاة بغير طهور، ولا صدقة من غلول». أي خيانة وسرقة من المغنم الحربي.

وأخرج أحمد والبيهقي عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة، ومفتاح الصلاة الوضوء».

والمحافظة على الوضوء من أمارات الإيمان، أخرج أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن من أفضل أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». وفي رواية: «سدّدوا وقاربوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[١].

ومن فوائد الوضوء وإتباعه بالصلاة أنه طريق إلى الجنة، أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدِّثْني بأرجى عمل عملته عندك منفعةً في الإسلام، فإني سمعت الليلة خشْف[٢] نعليك بين يدي في الجنة». فقال: ما عملت عملاً أرجى عندي منفعة من أني لم أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت لربي عز وجل ما كتب لي أن أصلي.

---

(١) هذا إسناد موصول، والرواية الأولى بإسناد منقطع فإن سالم بن أبي الجعد لم يسمع من ثوبان.

(٢) صوت.

وفي رواية بُريدة قال: أصبح رسول الله ﷺ يوماً، فدعا بلالاً فقال: «يا بلال، بم سبقتني إلى الجنة، فإني دخلت البارحة، فسمعت خَشْخَشَتك أمامي؟». فقال بلال: يا رسول الله، ما أذَّنت قط إلا صليت ركعتين، ولا أصابني حدث قط إلا توضأت عندك. فقال رسول الله ﷺ: «بهذا».

وإسباغ الوضوء أي إتمامه بأركانه وشرائطه وآدابه واجب شرعاً، لما أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: رأى رسول الله ﷺ قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح، فقال: «ويل للأعقاب من النار، أسبغوا الوضوء».

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «إسباغ الوضوء شطر الإيمان». وهذا دليل على فضل الوضوء.

وتكرار غسل أعضاء الوضوء أفضل وأكمل، لما أخرجه البخاري عن حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان يتوضأ، فأفرغ على يديه ثلاثاً، فغسلها، ثم تمضمض، واستنشق، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ كوضوئي هذا، ثم صلى ركعتين، لا يحدث فيهما بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه».

قال الزهري: لو توضأ رجل مرة، فأبلغ في ذلك المرة أجزأه.

ثواب الوضوء

الوضوء الشرعي المعروف بغسل الأعضاء الظاهرة، ومسح الرأس والأذنين، يحقق النظافة المادية والمعنوية، فيزيل كل ما علق على الجسم من أوساخ، ويريح الأعصاب، ويوفر الطمأنينة، والراحة النفسية، ثم إنه

يكون سبباً لثواب الله وفضله، لأنه وإن كان وسيلة للصلاة، فهو عبادة من العبادات، لما ورد في شأنه من أخبار صحيحة ومفيدة أخرج البخاري في الصحيح أن حمران بن أبان قال: أتيت عثمان بطهوره وهو جالس على المقاعد، فتوضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ، وهو في المسجد توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: «من توضأ مثل هذا الوضوء، ثم أتى المسجد، فركع ركعتين، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفي رواية مسلم في الصحيح: «من توضأ هكذا، غفر له ما تقدم من ذنبه، وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة له».

وأخرج مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أتمَّ الوضوء كما أمره الله عز وجل، فالصلوات كفارات لما بينهن». وفي لفظ آخر: «ما من مسلم يتطهر فيتم الطهور الذي كتب الله عليه، فصلى هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارات لما بينهن». وفي رواية لمسلم أيضاً: «من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم خرج يمشي إلى الصلاة المكتوبة، فصلاها مع الإمام، غفر له ذنبه». وفي لفظ: «ما توضأ عبد فأسبغ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فصلاها إلا غفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى».

أرشدت هذه الأحاديث إلى أن الوضوء الذي يعقبه صلاة يكون سبباً للمغفرة ودخول الجنة. قال الإمام مالك: أراه - أي الراوي - يريد هذه الآية ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

واستمداد معاني هذه الأحاديث من القرآن العظيم، قال محمد بن كعب[١]: وكنت إذا سمعت حديثاً من رجل من أصحاب رسول الله ﷺ التمسته في القرآن، فالتمست هذا في القرآن فوجدته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

(١) أخرجه البيهقي في الشعب.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ②﴾ [الفتح: ٤٨/١-٢] فقلت: إن الله لم يتم نعمته على نبيه حتى غفر له ذنوبه. ثم قرأت في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦/٥] فعلمت أن الله لم يتم عليكم النعمة حتى غفر لكم، أي إن الوضوء يجلب المغفرة.

قال أبو بكر البيهقي رحمه الله: وهذه الآية تشتمل على طهارة المحدث والجنُب جميعاً، وعلى التطهر بالماء والتراب عند عدم الماء.

والوضوء بغسل الأعضاء الظاهرة يكون سبباً لغسل الذنوب من كل عضو، لما رواه مالك ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه، خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، أو نحو هذا، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب».

وزيد في رواية مالك: «فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب».

وأخرج مسلم في الصحيح عن عمرو بن عبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث يقول: «إذا توضأ العبد المؤمن، فمضمض واستنشق، تناثرت الخطايا من فيه ومنخره، فإذا غسل وجهه تناثرت الخطايا من أشفار عينيه، فإذا غسل يديه تناثرت الخطايا من أظفاره، فإذا مسح رأسه تناثرت الخطايا من شعر رأسه، فإذا غسل رجليه تناثرت الخطايا من أظفار رجليه، فإذا انتهى عند ذلك، كان ذلك حظَه من وضوئه، فإن قام وصلى ركعتين، يُقْبل بقلبه وطرفه إلى الله، خرج من الذنوب كما ولدته أمه».

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط ثلاث مرات».

وروى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: إني سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجَّلين[١] من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى المقابر، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا». قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم أصحابي وإخواننا لم يأتوا بعد». فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: «أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غُرّ محجلة بين ظهراني خيل دُهْم بهم[٢]، ألا يعرف خيله؟» فقالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم[٣] على الحوض».

مندوبات الوضوء والغسل وفضائلهما

فرائض الوضوء ومندوباته أو مستحباته ذات ميزات كثيرة دينية وصحية ونفسية، فهو مما أحبه الله ورضيه، وأثنى على المتطهرين ثناء جمّاً ودائماً

(١) الغرة بياض في جبهة الفرس فوق الدرهم. والتحجيل بياض في قوائم الفرس أو في ثلاث منها أو في رجليه، قل أو كثر، فوق الرسغ والعرقوبين وتحت الركبة.

(٢) سُود.

(٣) الذي يتقدم الواردة على الماء.

إلى يوم القيامة، وذلك في القرآن والأخبار النبوية الثابتة.

أخبر البيهقي في الشعب عن أبي أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن هذه الآية نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ٩/١٠٨] قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، إن الله قد أثنى عليكم في الطُّهور خيراً، فما طُهوركم هذا؟» قالوا: يا رسول الله، نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: «هو ذاك، فعليكم به».

وأخبر البيهقي أيضاً عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة، وأداء الأمانة كفارة لما بينهن» قلت: وما أداء الأمانة؟ قال: «الغسل من الجنابة» زاد ابن جابر في رواية: «فإن تحت كل شعرة جنابة».

وأخرج مسلم عن عقبة بن عامر قال: كنا خدام أنفسنا نتداول رَعْية الإبل بيننا، فأصابتني رَعْية الإبل، فرُحت بها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ وهو قائم يحدِّث الناس، وأدركت من حديثه وهو يقول: «ما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ الوضوء، فيقوم، فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبتْ له الجنة، وغُفر له» فقلت: ما أجودَ هذا! فقال قائل من بيني يدي: التي قبلها يا عقبة أجود[1]، قال: فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب قال: قلت: وما هي يا أبا حفص؟ قال: إنه قال قبل أن تأتيني: «وما منكم من أحد يتوضأ، فيبلغ الوضوء، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». أي إنه يندب صلاة ركعتين بعد كل وضوء وهي سنة الوضوء، ويندب إعلان الشهادتين بعد الوضوء ليكون ذلك سبباً لدخول الجنة.

---

(١) أي هناك أجود من هذا.

والمضمضة والاستنشاق والسواك من سنن الوضوء المكملة له، والمفيدة في عالم النظافة، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وقص الأظفار، وغسل البراجم[١]، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»[٢]. قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة.

والسواك من أهم سنن الوضوء والصلاة لفوائده الجمة، ومنها تطييب رائحة الفم، وإزالة ما علق بين الأسنان من آثار الطعام التي تنفّر الملائكة. أخرج مالك في الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء». أخبر أبو هريرة عن نفسه: والله لقد استكْت قبل أن آكل، وبعد أن أكلت، وقبل أن أرقد، وحين أستيقظ.

وذكر البيهقي في الشعب عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير السواك سبعين ضعفاً». وهذا ترغيب واضح بالسواك قبل الصلاة، فالصلاة بالسواك أفضل منها بغير السواك سبعين ضعفاً.

وفي حديث آخر عند البيهقي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «الركعتان بعد السواك أحب إلي من سبعين ركعة قبل السواك».

وفي حديث أيضاً عند البيهقي عن ابن عباس لبيان فوائد السواك، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالسواك فإنه مَطْهرة للفم، مَرْضاة للرب، مَفْرحة للملائكة، يزيد في الحسنات، وهو من السنة، ويجلو

---

(١) العقد التي في ظهور الأصابع مفردها بُرْجمة.
(٢) يعني الاستنجاء بالماء.

البصر، ويذهب الجَفْر[١] ويشد اللِّثة، ويُذهب البلغم، ويطيب الفم».

والتطهر مقدمة الصلاة أول ما يحاسب عليه الإنسان، لما ذكره البيهقي عن رفيع أبي العالية قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد طُهوره، فإن حَسُن طُهوره، فصلاته كنحو طهوره، وإن حسنت صلاته، فسائر عمله كنحو صلاته».

وملازمة الوضوء فضيلة، لما ذكره البيهقي عن أنس ﷺ يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إن استطعت أن تكون أبداً على وضوء فافعل، فإن ملك الموت إذا قبض روح العبد وهو على وضوء، كتب له شهادة».

والتوضؤ باليمين لما أخبر به البيهقي في الشعب عن حفصة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه، اضطجع على يده اليمنى، ثم يقول: «رب قني عذابك يوم تبعث عبادك». ثلاث مرات، وكان يجعل يمينه لأكله وشربه ووضوئه وثيابه، ويجعل شماله لما سوى ذلك، وكان يصوم من الشهر ثلاثة أيام: الاثنين والخميس، والاثنين من الجمعة الأخرى.

والإسراف في ماء الوضوء مكروه، لما روى البيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟» قال: وفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار».

---

(١) أي نخر الأسنان.

الأصل العشرون من أصول الإيمان

إقامة الصلاة

أمر الشرع الحنيف بأداء الصلوات الخمس المفروضة، وعظَّم أمرها، وحض عليها، وجعلها في طليعة الأوامر، وقدَّمها على غيرها بعد إيراد أركان الإيمان، في آيات كثيرة، منها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣] ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣] وقرن الصلاة بالإيمان في آية ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣١] أي فلا هو صدق رسول الله ﷺ فآمن به ولا صلى، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٤٨-٤٩] فوبخهم على ترك الصلاة، كما وبخهم على ترك الإيمان. وذكر الله تعالى الصلاة وحدها في سجل الأنبياء والمتقدمين، للدلالة على أنها عماد الدين، فمدح أولئك الأنبياء بأنهم كانوا ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٨] ثم ذكر من خالف مذهبهم، فذمَّهم، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ثم أخبر بما يؤديهم ذلك إليه من سوء العاقبة، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٥٩] أي فلا يَرْشُد أمرهم مع إضاعة الصلاة، وإنما يتخبطون في فساد بعد فساد، مما يدل على عظم قدر الصلاة.

بل سمى الله تعالى الصلاة إيماناً في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] أي إن الصلاة من الإيمان، نزلت هذه الآية

كما أخرج البخاري في شأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس قبل تحول القبلة إلى الكعبة.

وامتدح الله تعالى الذين يهجرون فراش النوم في الصباح، ويبادرون إلى أداء الصلاة، في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٦].

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة تدل على حكم تارك الصلاة، روى مسلم في الصحيح وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

وروى أحمد وأصحاب السنن والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن بُريدة بن الحصيب أن رسول الله ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». والمراد به الكفر الذي يبيح الدم، لا الكفر الذي يرده إلى ما كان عليه في الابتداء. وروي عن النبي ﷺ أنه جعل إقامة الصلاة من أسباب حقن الدم وعصمته. روى أبو داوود وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أتاه مخنّث قد خضب يديه ورجليه بالحناء، فقال النبي ﷺ: «ما بال هذا؟» فقيل: يا رسول الله، يتشبَّه بالنساء. فأمر به، فنفي إلى البقيع، قالوا: يا رسول الله، ألا تقتله؟ قال: «إني نهيت عن قتل المصلين». أي إن الصلاة عاصم من القتل.

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابياً عرض للنبي ﷺ في مسيرة فقال: أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني من النار. قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم». أي إن الصلاة سبب لدخول الجنة.

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة لوقتها».

قلت: ثم أيّ؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وأخرج أحمد وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». وهذا تصريح نبوي بأن الصلاة خير الأعمال.

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي مالك الأشعري قال: قال نبي الله ﷺ: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، ولا إله إلا الله والله أكبر تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجّة لك أو عليك، و كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». دل على أن الصلاة نور المؤمن.

وأخرج أبو داوود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت... ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». فالصلاة من أهم أركان الإسلام، وهي عمود الإسلام.

وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، أي شيء أحب عند الله في الإسلام؟ قال: «الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين».

وأخرج الحاكم أيضاً عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من علم أن الصلاة حق واجب دخل الجنة».

فضل الصلوات في تكفير السيئات

إن أداء الصلوات الخمس المفروضة يحقق للمصلي خيري الدنيا والآخرة، فالصلاة النابعة من الإيمان بالله والخشوع لجلاله وعظمته تطرد الفزع والمخاوف، وتملأ القلب قوة وطمأنينة، وتفرّج الكروب والهموم، وتعصم الإنسان من فواحش الإثم وصغائر الذنوب، لأنها عماد الدين، وهي في الآخرة مع الإيمان الحق سبب لدخول الجنان. قال الله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٥] ووردت أحاديث كثيرة توضح كون الصلوات تغسل الذنوب والسيئات، مثل ماء الغسل الذي ينظف الجسد، ويزيل الأوساخ، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، ما تقولون مبقياً من درنه(١)؟» قالوا: لا يُبقي من درنه شيئاً. قال: «فذلك مِثْل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا».

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤]، فقال الرجل: يا رسول الله إليّ هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي».

وأخرج مسلم في الصحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: جاء رسولَ الله ﷺ عند انصرافه، صلى بنا هذه الصلاة، وأُراها العصر، قال:

---

(١) أي وسخه.

«لا أدري أحدِّثُكم شيئاً أو أدع؟» فقلنا: يا رسول الله، إن كان خيراً، فحدِّثنا، وإن كان غير ذلك، فالله ورسوله أعلم. فقال: «ما من رجل مسلم يتم الطّهور الذي كتب الله عز وجل، ثم يصلي هؤلاء الصلوات الخمس إلا كنَّ كفارات لما بينهن». أي تُذهب أثر الذنوب المرتكبة بين كل صلاتين صلاّهما المسلم.

وإيضاح ذلك في حديث ذكره البيهقي في شعب الإيمان عن الحارث مولى عثمان بن عفان قال: جلس عثمان بن عفان ﷺ، وجلسنا معه، فجاء المؤذن، فدعا عثمانُ بماء أظنه بعد يتوضأ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، ثم قال: «من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام، فصلى صلاة الظهر، غفر له ما بينها وبين صلاة الصبح، ثم صلى العصر، غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب، غفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء، غفر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت ليلته، فإن قام فتوضأ، فصلى الصبح، غفر له ما بينه وبين صلاة العشاء، وهي الحسنات تذهبن السيئات». قال: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: «لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

والسيئات المغفورة ما بين الصلاتين هي الصغائر، أما الكبائر فلا بد لها من توبة خالصة لله عز وجل، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفَّارات لما بينهن، ما لم تغش الكبائر».

وذكر البيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حافظين يَرْفعان إلى الله بصلاة رجل مع صلاة[1]، إلا قال الله تبارك وتعالى: أُشهدُكما أني قد غفرت لعبدي ما بينهما».

(١) أي بعد إنهاء الصلاة.

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات فرضهن الله على عباده، من أتى بهن لم يضيع شيئاً منهن، كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن، فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه، وإن شاء رحمه».

وذكر البيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً، فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف الجمحي». قال البيهقي رحمه الله: وهذا إذا لم يرحمه، أي الله.

وأخرج أحمد عن حنظلة الأسدي، وكان يقال له كاتب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من حافظ على الصلوات الخمس أو الصلاة المكتوبة، على وضوئها وعلى مواقيتها وركوعها وسجودها، يراها حقاً عليه حَرُم على النار».

فضل صلاة الجماعة

إن عناية الإسلام الغالبة هي في رعاية شؤون الجماعة، وتقوية الصلات الاجتماعية، وتنمية العلاقات الوطيدة بين الإنسان وأخيه، سواء في مجال العبادات، أو المعاملات، أو أحكام الأسرة والقرابة والجوار، لأن قوة الجماعة قوة للأفراد، فكلما عني المسلم بشؤون أخيه في السراء والضراء، شاعت السعادة وتوافرت المحبة، والمودة، وأحسَّ الجميع بالبهجة والمتعة في الحياة.

ومن أمثلة العناية بشؤون الجماعة جعلُ صلاة الجماعة في المساجد

من شعائر الإسلام وأحد الفروض الكفائية المهمة جداً، لذا ضوعف ثواب صلاة الجماعة إلى سبع وعشرين درجة.

أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة تفضل على صلاة أحدكم بسبع وعشرين درجة». وفي رواية للبخاري ومسلم: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ(١) بسبع وعشرين درجة». وفي رواية عند الإمام مالك والبخاري عن أبي هريرة عند مالك وأبي سعيد الخدري عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً». لكن رواية السبع والعشرين أشهر وأصح.

وأخرج الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة أفضل من صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين صلاة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة لا يَنْهزه(٢) إلا ذلك، لم يخط خطوة إلا كُتب له حسنة، وحُط عنه بها خطيئة، ولا تزال الملائكة تصلي عليه ما كان في مصلاه: الله اغفر له، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة». وزيد في رواية الصحيحين من حديث معاوية عند قوله: «اللهم ارحمه، اللهم اغفر له ما لم يؤذ فيه».

وأخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفضل صلاة الجماعة صلاة أحدكم بخمس وعشرين جزءاً، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨] أي تشهد صلاة الفجر ملائكة الليل وملائكة النهار تجتمع فيها، وهذا تفسير ثابت في السنة.

---

(١) أي الفرد.
(٢) لا يدفعه أو يحركه.

روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - أي ربهم - وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ قالوا: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون. قال: قال رسول الله ﷺ: الملائكة تصلي(١) على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلّى فيه، وتقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه. ما لم يُحدث» أي ينقض وضوءه.

وذكر البيهقي في الشعب عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال لنا: «إنكم ستعرضون على ربكم فترونه، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون(٢) في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». وفي رواية مسلم في الصحيح: «ألا لا يلجنَّ النارَ رجلٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».

وأخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى البَرْدين دخل الجنة». أي صلى الصبح والعصر، لأنهما في بَرْدي النهار أي طرفيه، والمراد: أداؤهما في وقت الاختيار.

وروى مسلم في الصحيح عن سفيان عن النبي ﷺ قال: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فانظر يا ابن آدم لا يطلبنك الله بشيء من ذمته».

وذكر البيهقي في الشعب عن نوفل بن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ترك الصلاة فكأنما وَتِر أهله وماله». وفي رواية في الصحيحين: «من ترك صلاة العصر...».

---

(١) تقول: اللهم اغفر له وارحمه.

(٢) لا تتضايقون.

وأخبر البيهقي أيضاً عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من صلى في جماعة أربعين يوماً، لا تفوته التكبيرة الأولى، كتب الله له براءة من النار، وبراءة من النفاق».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة، فينادى بها، ثم آمر رجلاً فيؤم بالناس، ثم أخالف إلى رجال، فأحرِّق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم أنه يجد عظماً سميناً أو مِرْماتين[1] حسنتين لشهد العشاء» وهذا التهديد بإحراق البيوت إنذار بالعذاب للمقصرين في أداء صلاة الجماعة.

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة نفر في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية». أي النافرة البعيدة.

فضل المشي إلى المساجد

المساجد بيوت الله تعالى التي تجتمع فيها الملائكة والعبَّاد والنسَّاك والعاكفون والركّع السجود، والقادمون إليها هم في ضيافة الله تعالى، والذين يلازمون صلاة الجماعة هم صفوة المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟

(١) أي ظلفي شاة.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٦-٣٨]. قال سفيان الثوري في تفسير الآية: كانوا يشترون ويبيعون، ولا يَدَعون الصلوات المكتوبات في الجماعات.

وأوضحت السنة النبوية مظاهر هذا الثواب للمصلين جماعة في المساجد.

روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطهّر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئةً، والأخرى ترفع درجة».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «من غدا أو راح إلى المسجد، أعد الله له في الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح».

وروى الطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب - وهو حديث صحيح - عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ أحدكم، فأحسن الوضوء، ثم خرج من بيته إلى المسجد لا ينزِعه[1] إلا الصلاة، لم تَزَل رِجْله اليسرى تمحو عنه سيئة، وتكتب له اليمنى حسنة حتى يدخل المسجد، ولو يعلم الناس ما في العَتَمة[2] والصبح لأتوهما ولو حَبْواً». أي زحفاً.

أما البعيدُ عن المسجد فيكتب له حسنات أكثر مقابل ذهابه للمسجد؛ لأن الثواب على قدر المشقة، ولما أخرجه البخاري عن أنس قال: أراد بنو سلِمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن يعرِّي المدينة[3]، فقال: «يا بني سلِمة ألا تحتسبون آثاركم؟» فأقاموا. وفي لفظ: «يا بني سلمة أما تحبون أن تكتب آثاركم؟».

---

(١) لا يحركه.
(٢) صلاة العشاء.
(٣) يخليها من السكان في نواحيها.

وفي رواية مسلم: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك. قال: فقال: «يا بني سلمة، ديارَكم تُكتب آثارُكم، ديارَكم تُكتب آثاركم».

والحديث المذكور أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ٣٦/ ١٢] فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: «إنه يكتب آثارُكم». ثم قرأ عليهم الآية، فتركوا.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها مشياً، والذي ينتظر الصلاة حتى يصلِّيها مع الإمام في جماعة أعظم أجراً ممن يصليها ثم ينام».

ولو قَدِم المصلي إلى المسجد، فوجد الناس قد صلوا، كتب له من الثواب مثل أجر من صلى الجماعة، لما أخرجه البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم راح، فوجد الناس قد صلوا، أعطاه الله عز وجل مثل أجر من صلاها وحضرها، ولا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخُطَا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».

وفسر أبو سلمة بن عبد الرحمن[1] آية ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾

---

(١) فيما يرويه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

[آل عمران: ٣/ ٢٠٠] بأن الرباط في العهد النبوي هو انتظار الصلاة بعد الصلاة.

وأخرج أبو داوود عن بريدة الأسلمي أن رسول الله ﷺ قال: «بشِّر المشائين في الظُّلَم - أو الظلمة - إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».

وفسر مقاتل بن سليمان آية: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢١] بأنها التكبيرة الأولى.

وفسر ابن عباس آية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥] فقال: أرض الجنة يرثها الذين يصلون الصلوات الخمس في الجماعات .﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٦] أي بشارة لقوم عابدين، أي الذين يصلون الصلوات في الجماعات.

وكذلك فسر ابن عباس آية: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٥] بقوله: أي أتوها وسبحوا، أي فصلُّوا بأمر ربهم، وهم لا يستكبرون عن إتيان الصلوات في الجماعة.

وفسر سعيد بن جبير آية: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤٣] بقوله: الصلوات في الجماعات.

وكذلك آية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٨] فسرها إبراهيم النخعي ومجاهد بقولهما: الصلوات الخمس.

عمارة المساجد

المساجد في الأرض بيوت الله المباركة المخصصة لعبادة الله عز وجل، وجمع شمل المسلمين، وتوحيد عواطفهم وأحاسيسهم المتعلقة بمستقبل الأمة وحاضرها، لذا رغَّب الله تعالى في عمارة المساجد مادياً ببنائها، ومعنوياً بإقامة صلاة الجماعة فيها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٨].

روى الحاكم وصححه[١] عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩/ ١٨]».

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة، صلى إلى الصلاة الأخرى، فإذا فاتته العصر يسبّح إلى المغرب، ولقد فاتته صلاة عشاء الآخرة في جماعة، فصلى حتى طلع الفجر.

وسعيد بن المسيب (سيد التابعين) لم تفته (أي صلاة الجماعة) في جميع أربعين سنة، ولم ينظر في أقفيتهم، ولم يَبْلغوه خارجين من المسجد.

وكذلك سعيد بن ربيعة قال: ما أذّن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد إلا أن أكون مريضاً أو مسافراً.

---

(١) تعقبه الذهبي بأن درّاج (أحد الرواة) كثير المناكير.

وجاء ضمام بن إسماعيل إلى المسجد، وقد صلى الناس، وقد فاتته الصلاة، فجعل على نفسه ألا يخرج من المسجد حتى يلقى الله عز وجل، فجعله بيته حتى مات.

قال الأوزاعي: كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون لهم بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.

وقال أبو الفيض ذو النون بن إبراهيم: ثلاث من علامات السنة: المسح على الخفين، والمحافظة على صلوات الجمع، وحب السلف[١].

وأخرج مسلم في الصحيح قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى لله مسجداً بنى الله له مثله في الجنة».

وروى البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله بيتاً يُعْبَد الله فيه من مال حلال، بنى الله له بيتاً في الجنة من دُرّ وياقوت».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله مسجداً، ولو كَمفْحص قطاة[٢]، بنى الله له بيتاً في الجنة».

دلت هذه الأخبار على أن بناء المسجد أو الإسهام في بنائه يكون سبباً لدخول الجنان.

روى الطبراني في الأوسط وأبو يعلى والبزار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عُمَّار بيوت الله هم أهل الله عز وجل»[٣]. وحقاً إن الملازمين على صلاة الجماعة في المساجد هم ضيوف الله تعالى.

---

(١) الآثار السابقة ذكرها البيهقي في الشعب.

(٢) المفحص حفرة تحفرها القطاة (طائر صغير) في الأرض لتبيض وترقد فيها.

(٣) فيه صالح المري، وهو ضعيف.

روى البيهقي في الشعب عن أبي الدرداء قال: أوصاني أبي: يا بُنيّ، ليكن المسجد بيتك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المساجد بيوت الله، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيته بالرَّوْح[١]، والراحة، والجواز على الصراط إلى الجنة».

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن عبد الله بن سلام قال: «إن للمساجد أوتاداً، وإن لهم جلساء من الملائكة، تفقدهم الملائكة إذا غابوا، فإن كانوا مرضى عادوهم، وإن كانوا في حاجة أعانوهم».

وذكر البيهقي في الشعب عن حسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى الفجر، ثم قعد في مجلسه يذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس، ثم قام فصلى ركعتين، حرَّم الله على النار أن تلفحه أو تَطْعمه».

ويؤكده ما أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي ﷺ إذا صلى - يعني الصبح - جلس في مصلاه، حتى تطلع الشمس».

قال أبو إدريس: المساجد مجالس الكرام.

وأخرج مسلم أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم[٢] ما دام في مصلاه الذي يصلي فيه تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يُحدث». وهذا الدعاء يكون أيضاً لمن جلس ينتظر الصلاة، كما ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وعن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم في أمر دنياهم، فلا تجالسوهم، فليس لله فيهم حاجة».

---

(١) أي استراحة ورحمة ورزق.
(٢) أي تستغفر له.

وأخرج الحاكم ووافقه الذهبي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيهْلِك من أمتي أهل الكتاب وأهل اللبن». قال عقبة: فقلت: ما أهل الكتاب يا رسول الله؟ قال: «قوم يتعلمون كتاب الله يجادلون به الذين آمنوا». قال: فقلت: ما أهل اللبن يا رسول الله؟ قال: «قوم يلزمون الشهوات ويضيِّعون الصلوات».

فضل صلاة الجمعة ويومها

فرضَ الله تعالى على المسلمين صلاة الجمعة، لما فيها من فضائل وميزات، ورفع للدرجات، وتكفير للسيئات، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٦٢/٩] وقال سبحانه: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ [البروج: ٨٥/ ٣]. روى البيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة». وروى البيهقي أيضاً عن قتادة أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ فالسعي أن تسعى يا ابن آدم بقلبك وعملك، وهو المشي إليها.

ويتميز يوم الجمعة بفضائله عن غيره من الأيام، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدنا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد[1]، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق».

(١) أي إن الجمعة مقدمة في الطليعة وغيرها تبع لها.

ويؤيده ما أخرجه البيهقي في الشعب عن محمد بن الأشعث قال: دخلنا على عائشة رضي الله عنها، فحدثتني، فقالت: بينا أنا قاعدة عند النبي ﷺ، إذ جاء نفر من اليهود، فاستأذن أحدهم، فدخل، فقال: السام عليكم[(١)]. فقال رسول الله ﷺ: «وعليك». ثم دخل آخر، فقال: السام عليك، فقال رسول الله ﷺ: «وعليك» فلم أملك نفسي، قلت: بل عليكم السام، وفعل الله بكم وفعل، قالت: فأظن أن رسول الله ﷺ تكلم، فعلمت أنه وَجَد علي[(٢)]، فلما خرجوا قال لي: «ما حملكِ على ما صنعتِ؟» قلت: يا رسول الله، سمعتُ الذي قالوا، فلم أملك نفسي. فقال: «ألم تريني قد رددت عليهم، لم يضِرْنا، ولزمهم إلى يوم القيامة، تدرين علام حسدونا؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنهم حسدونا على القبلة التي هدينا إليها، وضلوا عنها، وعلى الجمعة التي هدينا لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»[(٣)].

ويوم الجمعة أفضل الأيام، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

ويؤيده ما أخرجه البيهقي في الشُّعَب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الأيام يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

---

(١) أي الموت.

(٢) أي غضب.

(٣) وأخرج البيهقي من طريق ابن عدي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطاني ثلاث خصال، لم يعطهن أحد قبلي: الصلاة في الصفوف، والتحية من تحية أهل الجنة، وآمين، إلا أنه أعطى موسى أن يدعو موسى ويؤمن هارون».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه». وأشار رسول الله ﷺ بيده يقلِّلها.

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي لبابة بن عبد المنذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عندي، وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى، وفيه خمس خصال: خلق الله فيه آدم، وفيه أهْبَط الله آدم إلى الأرض، وفيه توفى الله آدم، وفيه ساعة لا يَسْأل العبد فيها شيئاً إلا آتاه؛ ما لم يسأل حراماً، وما من مَلَك مقرَّب، ولا سماء ولا أرض ولا جبل ولا بحر إلا وهم يشفقون من يوم الجمعة أن تقوم فيه الساعة».

وفي رواية في تحديد ساعة الإجابة قال عبد الله بن سلام: هي آخر ساعة في يوم الجمعة. وفي رواية أخرى عند البيهقي عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يوم الجمعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا آتاه إياه، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر». أي عند غروب الشمس. وأصح ما روي في بيان ساعة الجمعة ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر أن أباه قال: «هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة».

وصلاة الجمعة تكفِّر ذنوب الجمعة السابقة، لما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن». وفي رواية أخرى: «إذا اجتنبت الكبائر».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة، فدنا وأنصت واستمع، غفر له من الجمعة إلى الجمعة، وزيادةِ ثلاثة أيام، وإن مسَّ الحصا فقد لغا».

ويؤكده ما أخرجه أبو داوود، والترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه عن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غسّل[1] واغتسل[2] يوم الجمعة، ثم بكّر وابتكر، فدنا، فاستمع، ولم يَلْغُ، كان له بكل خطوة يخطوها عملُ سنة أجر صيامها وقيامها».

آداب الجمعة وحكم تركها

إن فضائل الجمعة الكثيرة تتطلب الاستعداد لها، وممارسة آدابها وسننها، لأن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب ومن صفات أهل الإيمان، فمن آداب الجمعة التطيب والسواك فهو سنة مرغوب فيها، وكذا تخصيص لباس لها، ولا سيما الثياب البيضاء، لما رواه البيهقي في الشعب عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في جمعة من الجمع: «يا معشر المسلمين، ما على أحدكم أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته، ويمس من طيب إن كان لأهله، وعليكم بالسواك».

ومن آداب الجمعة كما تقدم الاغتسال، لما رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من جاء منكم الجمعة فليغتسل».

ويسن التبكير في الذهاب إلى المسجد الجامع، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح فكأنما قرب بَدَنة، ومن راح في الساعة الثانية

(١) أي غسل الرأس.
(٢) أوجب الغسل على امرأته بوطئها، فله أجران: أجر غسله وأجر غسل امرأته.

فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

وأخرج ابن ماجه عن علقمة بن قيس قال: رحت مع عبد الله بن مسعود إلى الجمعة، فوجد ثلاثة سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة ببعيد، ثم قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله[١] على قدر رواحهم إلى الجمعة، الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، وما رابع أربعة ببعيد».

وينبغي الاستماع إلى الخطبة دون أي كلام؛ للحديث المتفق عليه[٢] عن أبي هريرة وابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة: أنصتْ فقد لغوت».

ويحرم تخطي الرقاب بين الصفوف إلا إذا كان هناك فُرْجة أو سعة، لما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخَذ له جسراً إلى جهنم».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب إذ جاء رجل يتخطى رقاب الناس ويؤذيهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «يا فلان، ما منعك أن تجمع معنا؟» قال: يا رسول، لقد حرصت أن أضع نفسي بالمكان الذي رأيتني. قال: «قد رأيتك تتخطى رقاب الناس، وتؤذيهم، من آذى المسلمين، فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله عز وجل».

---

(١) أي من عرش الله أو من كرامة الله، كما قال البيهقي رحمه الله.

(٢) رواه مالك وأحمد والشيخان وأبو داوود والنسائي وابن ماجه.

ويحرم ترك صلاة الجمعة للقادر على الذهاب إلى المسجد، لما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر وأبي هريرة قالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: «لينتهين أقوام عن وَدْعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين». وفي حديث سمرة عند البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإن الرجل ليتخلف عن الجمعة حتى إنه ليتخلف عن الجمعة، وإنه لمن أهلها».

وروى البيهقي في الشعب عن أبي الجعد الضمري قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها، طبع الله على قلبه». والطبع على القلب أو الختم يمنع نفاذ الخير والإيمان له.

ويجوز ترك الجمعة لعذر شرعي مقبول كالمرض والسفر، لما رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو صبي أو مسافر أو مملوك. ومن استغنى عنها بلهو أو تجارة، استغنى الله عنه، والله غني حميد».

وتجب التوبة من ترك الجمعة لما رواه البيهقي من حديث جابر فيه: «.. فمن تركها في حياتي أو بعد موتي، وله إمام عادل أو جائر استخفافاً بها أو جحوداً بها، فلا جمع الله له شمله، ولا بارك له في أمره، ألا ولا صلاة له، ألا ولا زكاة له، ألا ولا صيام له، ألا ولا حج له، إلا أن يتوب، فإن تاب تاب الله عليه. ألا ولا يؤم أعرابي مهاجراً، ألا ولا تؤم امرأة رجلاً، ألا ولا يؤم فاجر مؤمناً إلا أن يخاف سيفه وسوطه».

وروى البيهقي أيضاً عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «من ترك الجمعة من غير عذر فليتصدق بدينار، فإن لم يجد فنصف دينار».

وروى البيهقي أيضاً عن الحسن بن أبي الحسن يقول: بينا رسول الله ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة أقبل شاء[1] وشيء من سمن، فجعل الناس يقومون إليه، حتى لم يبق إلا قليل، فقال رسول الله ﷺ: «لو تتابعتم لتأجج الوادي ناراً». هكذا جاء مرسلاً.

وفي المشي إلى الجمعة ثواب عظيم، فقد ذكر البيهقي عن أبي بكر الصديق ﷺ أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تقول: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». فقال رسول الله ﷺ: «نعم». ثم زاده رسول الله ﷺ فقال: «الغسل يوم الجمعة كفارة، والمشي إلى الجمعة كلُّ قدم منها كعمل عشرين سنة، فإذا فرغ من صلاة الجمعة، أجيز بعمل مئتي سنة».

قراءة سورة الكهف والصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة وليلتها

ليوم الجمعة وليلتها فضيلة متميزة، حيث يغدق الله فيه الثواب لمن عمل عملاً صالحاً من أذكار، وتلاوة القرآن، وصلاة على النبي ﷺ، وغير ذلك من الأعمال الطيبة الصالحة.

أما تلاوة القرآن وبعض الأعمال فتتمثل بقراءة سورة الكهف يوم الجمعة وليلتها، لما رواه البيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، أضاء له من النور

(١) أي شياه من الغنم.

ما بينه وبين البيت العتيق ». وهو دليل على فضل قراءة الكهف في الجمعة.

وعن أبي سعيد الخدري أيضاً عند البيهقي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من وافق صيام يوم الجمعة، وعاد مريضاً، وشهد جنازة، وتصدق، وأعتق رقبة، وجبت له الجنة ذلك اليوم إن شاء الله تعالى».

وأخبر البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال هذه الكلمات سبع مرات في ليلة الجمعة، فمات في تلك الليلة، دخل الجنة، من قال: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وابن أمتك وفي قبضتك، وناصيتي بيدك، أمسيت على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك، وأبوء بذنبي، فاغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». وهو دعاء سيد الاستغفار.

وذكر البيهقي أن ابن عمران قال لحمران: ما بلغك أن رسول الله ﷺ قال: «إن أفضل الصلوات عند الله صلاة الصبح يومَ الجمعة في جماعة».

وأما الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة وليلتها فواضحة الفضيلة في أحاديث كثيرة، منها ما رواه البيهقي عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يومَ الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قُبض، وفِيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ». قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت يقولون: وقد بليت؟ قال: «إن الله عز وجل حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وذكر البيهقي عن أبي مسعود الأنصاري، عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثِر الصلاة علي في يوم الجمعة، فإنه ليس يصلي علي أحد يوم الجمعة

إلا عُرضت علي صلاته». وفي رواية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً».

وفي حديث أبي أمامة عند البيهقي أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة في كل يوم جمعة، فإن صلاة أمتي تعرض عليَّ في كل يوم جمعة، فمن كان أكثرهم عليّ صلاة، كان أقربهم مني منزلة».

وتتعدد فضائل الصلاة على النبي ﷺ في أخبار أخرى، منها ما رواه البيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا علي الصلاة في يوم الجمعة وليلة الجمعة، فمن فعل ذلك كنت له شهيداً وشافعاً يوم القيامة».

وأخرج البيهقي وابن عساكر وابن المنذر في تاريخه عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «إن أقربكم مني يوم القيامة في كل موطن أكثركم علي صلاة في الدنيا، من صلى علي في يوم الجمعة وليلة الجمعة مئة مرة، قضى الله له مئة حاجة، سبعين من حوائج الآخرة، وثلاثين من حوائج الدنيا، ثم يوكل الله بذلك ملَكاً يدخله في قبري، كما يدخل عليكم الهدايا، يخبرني من صلى عليّ باسمه ونسبه إلى عشيرته، فأثبته عندي في صحيفة بيضاء».

وذكر البيهقي في الشُّعَب عن محمد بن عجلان عن أبيه قال: قال عليٌّ: من صلى على النبي ﷺ يوم الجمعة مئة مرة، جاء يوم القيامة، وعلى وجهه من النور نور، يقول الناس: أي شيء كان يعمل هذا؟

وقال جعفر بن محمد - فيما ذكر البيهقي -: «إذا كان يوم الخميس عند العصر أهبط الله ملائكته من السماء إلى الأرض، معها صفائح من قصب بأيديها أقلام من ذهب، تكتب الصلاة على محمد ﷺ في ذلك اليوم، وفي تلك الليلة إلى الغد، إلى غروب الشمس».

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فأدرك الدجال لم يسلط عليه - أو قال: لم يضرّه - ومن قرأ خاتمة سورة الكهف، أضاء له نوراً، من حيث كان، بينه وبين مكة»[١].

فضائل الأذان والإقامة وفضل المؤذنين

النداء إلى الصلاة سواء بالأذان أو الإقامة نداء إلى أحب الأعمال إلى الله تعالى، وهي إعلان الشهادتين وتكبير الله والصلاة، فهي عماد الدين ومنهج الفلاح في الدنيا والآخرة، ولكل من المؤذن ومقيم الصلاة فضل كبير، لقيامهما بمهمة النداء للصلاة، واستجابةُ الناس إلى الصلاة هي بفضل الأذان.

وقد وردت أحاديث صحيحة في فضل الأذان والإقامة، منها ما رواه البخاري في الصحيح ومالك عن أبي هريرة ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة، ولفظ البخاري أن رسول ﷺ قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي النداء أقبل، حتى إذا ثوّب[٢] للصلاة أدبر، حتى إذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه». وهذا دليل واضح على أن الأذان أو الإقامة يطرد الشيطان.

---

(١) قال البيهقي في كتاب فضائل القرآن: وقد روينا هذا من حديث هشيم عن أبي هشيم موقوفاً ومرفوعاً.

(٢) قال البيهقي رحمه الله: المراد بالتثويب ههنا الإقامة.

وروى مسلم عن أبي هريرة يحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نودي بالصلاة ولّى وله حُصَاص» والحُصَاص شدة العَدْو أو الركض.

وفي حديث آخر رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذن المؤذن، هرب الشيطان حتى يكون بالرَّوحاء». وهي من المدينة ثلاثون ميلاً[1].

وحدّث الإمام مالك قال: استعمل زيد بن أسلم عل معدن بني سُليم، وكان معدناً لا يزال يصاب فيه الإنسان من قِبَل الجن، فشكوا ذلك إلى زيد بن أسلم، فأمرهم بالأذان، وأن يرفعوا أصواتهم، فانقطع ذلك عنهم، فهم عليه حتى اليوم. قال مالك: وأعجبني ذلك من مشورة زيد بن أسلم. دل الحديث على أن الأذان يطرد الشيطان من البيت، ويقي من مساوئه وأضراره.

ووردت أحاديث صحاح أخرى في فضل المؤذنين، منها ما أخرجه مسلم في الصحيح عن معاوية بن أبي سفيان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة».

وروى الترمذي أن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي حدَّث عن بلال أنه قال لرسول الله ﷺ: إن الناس يتجرون ويبيعون معايشهم، ويمكثون في بيوتهم، ولا نستطيع أن نفعل ذلك. فقال: «ألا ترضى يا بلال، المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». ورواه أبو بكر بن داوود السجستاني بهذا اللفظ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة». ومعناه أن الناس يعطشون يوم القيامة، فإذا عطِش الإنسان انطوت عنقه، والمؤذنون لا يعطشون، فأعناقهم قائمة.

---

(١) الميل عند المحدثين أربعة آلاف ذراع، والذراع ٢,٦١ سم.

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مالك في فضل الأذان وصلاة الصبح والعشاء والظهر، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا[١] عليه لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير[٢] لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العَتَمة[٣] والصبح لأتوهما ولو حَبْواً».

وروى البخاري في الصحيح من حديث مالك في فضل الأذان، عن أبي سعيد الخدري قال لأبي المازني أحد الرواة: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو في باديتك، فأذَّنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة». قال الخدري: سمعته من رسول الله ﷺ.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: سمعت من في رسول الله ﷺ يقول: «المؤذن يغفر له مدَّ صوت، ويشهد له كل رطب ويابس، وشاهدُ الصلاة يكتب له خمس وعشرون حسنة».

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من أذَّن اثنتي عشرة سنة، وجبت له الجنة، وكتب له بتأذينه كل مرة ستين حسنة، وبكل إقامة ثلاثين حسنة». وفي حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ فيما رواه البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على الأذان سنةً أوجب له الجنة».

وروى البيهقي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة: إمام قوم يبتغي به وجه الله، وهم به راضون، ورجلٌ أذّن خمس ساعات يبتغي به وجه الله، وعبد أدى حق الله وحق مواليه».

---

(١) يقترعوا.
(٢) التهجير المشي في وقت الهاجرة في منتصف النهار في شدة الحر، أي صلاة الظهر.
(٣) صلاة العشاء.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإمام ضامن، والمؤذّن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين».

فضائل السنن

شرع الله تعالى سنن الصلاة القبلية والبعدية والنوافلَ المطلقة غير المفروضة تقرباً إلى الله عز وجل، وتكميلاً للفرائض، وجبراً لما قد تقع فيها من نقص أو خلل بسيط، فالله تعالى يحب من عباده التقرب إليه بالصلوات، فيحبهم ويرضى عنهم، لما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً[(١)] فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه[(٢)]، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه». دلت الأحاديث على أن ثواب الفريضة أفضل من ثواب النافلة بسبعين مرة، ودل هذا الحديث على أن من صلى النوافل مع الفرائض يصير أحب إلى الله، ويكون الله حافظاً لسمعه ولبصره ولبطش يده ورجله من الشيطان. ويكون الله في قلب المصلي عند سمعه وبصره وبطشه، أي يقوي الله حواسه وقدراته وحركاته.

---

(١) المراد بالولي هنا المؤمن، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٧] فمن آذى مؤمناً فقد آذنه الله بالحرب، أي أعلمه الله أنه محارب له، ومن حاربه الله أهلكه.

(٢) المحبة من الله إرادة الخير.

ولكل نافلة أو سنة فضيلة وثواب خاص، أخرج أبو داوود من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين». والعلِّيون كتاب البررة المعلَّم بعلامة.

وفي سنة الصبح روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحافظ على ركعتي الفجر إلا أوَّاب»(١).

وفي سنة المغرب روى البيهقي وابن نصر عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «عجلوا الركعتين بعد المغرب ليرفعا مع العمل». أو «فإنهما ترفعان مع المكتوبة».

وفي سنة الوتر والضحى روى البيهقي عن أبي هريرة يقول: ثلاث أحفظهن من خليلي أبي القاسم نبي التوبة: «الوتر قبل النوم، وصلاة الضحى في السفر والحضر، وصوم ثلاثة أيام من الشهر، وهو صوم الدهر».

وأخرج مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف ألا يستيقظ من آخر الليل، فليوتر قبلُ، من أول الليل ثم يرقد، ومن طمع أن يقوم من آخر الليل فليوتر من آخر الليل، فإن قيام آخر الليل محضور، وذلك أفضل».

وفي سنة الظهر روى البيهقي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أربع ركعات بعد الزوال قبل الظهر يُعدَلن بصلاة السحر». أي قيام الليل. وقال رسول الله ﷺ: «وليس شيء إلا وهو يسبّح الله تلك الساعة».

وفي الصلاة عند الخروج من المنزل والدخول إليه روى أبو إسماعيل الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا خرجت من منزلك إلى

---

(١) لكن فيه عدي بن الفضل ليس بالقوي.

الصلاة فصل ركعتين يمنعانك مخرج السوء. وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين يمنعانك من مدخل السوء».

وفي صلاة التطوع نهاراً قال أنس بن مالك فيما يرويه البيهقي: كان أحب صلاة النهار إليهم تطوعاً قبل الظهر. وكيفيتها ما أرشد إليه الحديث الصحيح: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى».

وأما صلاة قيام الليل فالأخبار فيها كثيرة، أخرج الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/١٧] قال: لا تمر بهم[١] ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها.

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن بلال بن رباح عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين من قبلكم، وقربة إلى الله، وتفكير للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد».

وروى الحاكم أيضاً عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». قال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قانتاً والناس نيام».

وأخرج مسلم في الصحيح، وغيرُه عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أفضل صلاة بعد المفروضة الصلاة جوف الليل، وأفضل الصوم بعد رمضان شهر الله الذي تدْعونه المحرّم».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبّ الصيام إلى الله صيام داوود،

---

(١) أي الصحابة.

وأحب الصلاة إلى الله صلاة داوود، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وكان ينام شطر الليل الأول، ويقوم الثلث، وينام السدس».

ووقت صلاة الليل يتضح فيما رواه أبو داوود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بقي ثلث الليل، قال الله تبارك وتعالى: من ذا الذي يستكشف الضر أكشف عنه؟ من ذا الذي يسترزقني أرزقه؟ من ذا الذي يسألني أعطه؟».

وروى البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار».

وروى البيهقي حديثاً موقوفاً على عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية».

ومن الأمثلة الواقعية ما أخرجه مسلم في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيه: «نِعْمَ الفتى أو نِعْمَ الرجل لو كان يصلي من الليل».

وفي تحية المسجد ورد في الحديث المتفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلّي ركعتين».

تحسين أداء الصلاة

تتطلب الصلاة المقبولة عند الله تعالى تحسين أداء أركانها وشرائطها وسننها أو آدابها، وإتمامَ كل فعل من أفعالها، لتحقيق الخشوع لله، وتمام

الامتثال له، واستقرارِ القلب والأعضاء والحركات، والتأمل في القراءة والتسبيح والتكبير والدعاء، دون عجلة، ولا نقص، ولا دمج بعضها ببعض، حتى تكون الصلاة لائقة بمستوى تقديمها لله عز وجل.

وهذه جملة من الأحاديث النبوية الصحيحة الواردة في تحسين الصلاة وملازمة الهدوء في ممارسة أفعالها من البداية إلى النهاية.

أخرج مسلم في الصحيح عن سعيد بن العاص قال: كنت عند عثمان، فدعا بطَهوره فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن طهورها[1]، وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤتَ كبيرة، وذلك الدهر كله». أرشد الحديث إلى أن الصلاة المتقنة تكفِّر الذنوب السابقة.

وأخرج البخاري عن الزهري قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت: وما يبكيك؟ قال: لا أعرف شيئاً اليوم مما أدركت إلا هذه الصلاة، وقد ضيعتم منها ما قد ضيعتم.

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً، ثم انصرف، فقال: «يا فلان ألا تُحسن صلاتك، ألا تنظر المصلّي إذا صلى، فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأُبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي». ورؤية ما في الخلف من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام.

وروى البيهقي في الشعب عن يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: ذُكرت السرقة عند رسول الله ﷺ فقال: «أي السرقة تعدُّون أقبح؟» فقالوا: الرجل يسرق من أخيه. فقال رسول الله ﷺ: «إن أقبح السرقة الذي يسرق صلاته». قالوا: كيف يسرق أحدنا صلاته؟ قال: «لا يتمُ ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها».

---

(١) أو وضوءها.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «إن أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته».

وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من أحْسَن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها إذا خلا، فتلك استهانة يستهين بها ربه».

وروى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: «نهينا عن الاختصار[١] في الصلاة». وقد فسر محمد بن سيرين الاختصار بقوله: يقول الرجل بيديه أو بإحداهما هكذا، ووضع يده في خصره. وروى ابن خزيمة عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «الاختصار في الصلاة استراحة أهل النار». وكذلك فسرت عائشة رضي الله عنها الاختصار بقولها: يعني وضع اليدين على الخاصرة في الصلاة، وقالت: هذا فعل اليهود.

وجاء في الصحيح عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة، فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». وأخبر البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما التفت عبد قط في صلاته إلا قال له ربه: أين تلتفت يا ابن آدم؟ أنا خير لك مما تلتفت إليه».

وثبت في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما يخاف أحدكم إذا رفع رأسه من السجود قبل الإمام أن يحوِّل الله رأسه رأس حمار».

وأخرج البخاري في الصحيح عن زيد بن وهب قال: دخلت مع حذيفة المسجد، فرأى رجلاً يصلي لا يتم ركوعه ولا سجوده، فقال له

(١) أي وضع اليد على الخصر.

حذيفة: ما صليتَ، ولو قد مِتَّ، متَّ على غير الفطرة التي فطر الله عليها محمداً ﷺ، فإن الرجل قد يخف صلاته، ويتمُّ ركوعها وسجودها. وذكر البيهقي في الشعب عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة حتى يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود».

وقد علَّم النبي ﷺ المسيء صلاته وهو خلاّد بن رافع في حديث رواه البخاري قائلاً له: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء[1]، ثم استقبل القبلة، فكبِّر، ثم اقرأ ما تيسر من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم افعل ذلك في صلاتك»[2]. دل الحديث على وجوب الطمأنينة في أركان الصلاة من ركوع وسجود واعتدال من الركوع وجلوس بين السجدتين، والاطمئنان أن تستقر أعضاء المصلي، وألا يقصد بكل فعل غيره، فلو هوى لسجود التلاوة، فجعله ركوعاً لم يكف.

وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وأخرج أبو داوود والترمذي وقال: صحيح، والنسائي عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي، لم يحمد الله ولم يمجده ولم يصل على النبي ﷺ وانصرف، فقال رسول الله ﷺ: «عَجِل هذا». فدعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله، والثناء عليه، وليصل على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء».

---

(١) إسباغ الوضوء إتمامه.

(٢) ولابن ماجه بإسناد رجال مسلم: «حتى تطمئن قائماً».

الإكثار من الصلاة وإتمام مقوّماتها

الصلاة سبب للمغفرة والرحمة الإلهية، وطريق تفريج الكروب والهموم والأحزان، وأساس النجاة في الآخرة، وتطهير الذنوب والمعاصي، لذا كثرت الأوامر الإلهية بها وأكدتها السنة النبوية، فقال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٣] وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] وقال عز وجل: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٤٥].

ووردت أحاديث نبوية كثيرة ترغّب في الإكثار من الصلاة وأنها طريق الفرج، وذلك فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان من أحاديث، منها ما رواه حمزة بن عبد الله بن سلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل بأهله شدة أو قال: ضيق، أمرهم بالصلاة، وتلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢] الآية.

وروى أبو داوود عن حذيفة بن اليمان قال: «وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». وروى البيهقي عن ثابت: «وكان الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة». وفي حديث آخر عن جعفر بن محمد: «كان داوود نبي الله قد جزّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داوود قائم يصلي، فعمَّهم الله تعالى في هذه الآية ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣]».

ومن روايات البيهقي عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «صلوا من الليل ولو أربعة، ولو ركعتين، ما من أهل بيت تعرف لهم صلاة بالليل إلا ناداهم منادٍ: يا أهل البيت قوموا لصلاتكم».

ومنها ما رواه البيهقي عن أسماء بنت يزيد عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي منادٍ، فيقول: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس بالحساب».

ومنها ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا نؤمر إذا صلينا بالليل أن نستغفر بآخر السحر سبعين مرة».

ومنها في شأن صلاة النفل عن صحابي قال: «فضل صلاة الرجل في بيته على صلاته حيث يراه الناس كفضل الفريضة على التطوع». هذا مع العلم بأن التهجد بالليل مأمور به في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩]. وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل».

وأخرج البخاري عن أبي حميد الساعدي أن أصحاب النبي ﷺ ذكروا صلاة رسول الله ﷺ، فقال أبو حميد: أنا أحفظكم لها، فوصف أنه كان إذا كبَّر رفَع يديه حذو منكبيه، ثم قرأ، ثم ركع، فأمكن يديه من ركبتيه وهصر ظهره[1]، ووصف من سجوده نحواً مَا يصف الناس، فإذا كان في الجلسة الأولى، قعد على قدمه اليسرى، ونصب اليمنى، فإذا كان في الجلسة الأخيرة، قعد على أليته، ونصب رجله اليمنى، فجعل باطن قدمه اليسرى عند باطن فخذه اليمنى.

وقال عبد الله بن مسعود فيما رواه البيهقي في الشعب: أنا رأيت

---

(١) أمال ظهره.

النبي ﷺ يكبِّر في كل رفع وخفض، وقيام وقعود، والسلام عن يمينه، وعن شماله: السلام عليكم ورحمة الله، حتى يبدو بياض خده، ورأيت أبا بكر وعمر يفعلانه.

وفي إتمام مقوِّمات الصلاة أخرج البيهقي من طريق أبي داوود الطيالسي عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأبلغ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة فأتم ركوعها وسجودها والقراءة فيها، قالت: حفظك الله كما حفظتني، ثم أُصعد بها إلى السماء، ولها ضوء ونور، ففتحت لها أبواب السماء حتى تنتهي بها إلى الله، فتشفع لصاحبها، وإذا لم يتم ركوعها ولا سجودها ولا القراءة فيها قالت: ضيَّعك الله كما ضيعتني، ثم أُصعد بها إلى السماء، وعليها ظلمة، فغلِّقت دونها أبواب السماء، ثم تلفّ كما يلفّ الثوب الخَلَق فيضرب بها وجه صاحبها».

وفي محو الذنوب ذكر البيهقي عن عبد الله بن عمر حينما رأى فتى وهو يصلي فأطال، فقال: لو كنت أعرفه لأمرته أن يطيل الركوع والسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد إذا قام يصلي أُتي بذنوبه، فجعلت على رأسه وعاتقه، فكلما ركع أو سجد تساقطت عنه».

وذكر البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة ميزان من أوفى استوفى».

وقال مجاهد فيما ذكره البيهقي في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨] قال: «من القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله عز وجل».

فضل التراويح أو قيام رمضان

رمضان المبارك الذي يفيض بالفيوضات الإلهية والنفحات الربانية والبركات والخيرات الكثيرة، والعطايا المادية والمعنوية المتوالية، يتطلب من الصائمين والصائمات الوفاء ومقابلة النعمة العظيمة بالشكر والامتنان، والإقبال على طاعة الله تعالى المنعم المتفضل بالصلاة وتلاوة القرآن والأذكار والاستغفار والتوبة، ليكون الحصاد المحقق في خاتمة العمر هو المغفرة الإلهية والرضوان، والعتق من النيران، ورفع درجات القائمين بالصيام.

ومن الصلوات المسنونة في رمضان صلاة التراويح أو القيام في الليل بعد صلاة العشاء، ثم التهجد أو القيام في السَّحَر في الثلث الأخير من الليل، روى الإمام مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يرغِّب في قيام شهر رمضان، من غير أن يأمر بعزيمة[1]، إن رسول الله ﷺ يقول: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». قال ابن شهاب الزهري: فتوفي رسول الله ﷺ، والأمر على ذلك. ثم كان الأمر على ذلك خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنهما.

وبدأت مشروعية التراويح جماعةً من فعل الرسول ﷺ، فيما أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) من حديث مالك عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد ذات ليلة، فصلى بصلاته أناس، ثم صلى من القابلة، فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي

(١) أي حكماً دائماً أصلياً مفترضاً.

صنعتم، فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني قد خشيت أن تفرض عليكم». وذلك في رمضان.

واستمر الصحابة الكرام بعدئذ يصلون التراويح فرادى، فجمعهم عمر ﷺ في عهده على إمام واحد، لحديث البخاري في الصحيح عن مالك أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد القارئ قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع[(١)] متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط. فقال عمر بن الخطاب ﷺ: والله إني لأرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد، لكان أمثل، ثم عزم، فجمعهم على أبي بن كعب قال - أي الراوي -: ثم خرجت معه ليلة أخرى، والناس يصلون بصلاة قارئهم، فقال عمر ﷺ: نعمت البدعة هذه، التي ينامون عنها أفضل من التي يقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله.

وروى مالك بن بريد بن رومان أنه قال: وكان الناس يقومون في زمان عمر بن الخطاب ﷺ في رمضان ثلاثاً وعشرين ركعة.

روى مالك رحمه الله عن عبد الله بن هرمز الأعرج: فكان القارئ يقوم في ثماني ركعات، فإذا قام بها في اثنتي عشرة ركعة، رأى الناسُ أنه خفف.

وروى مالك عن عبد الله بن أبي بكر أنه قال: سمعت أبي يقول: كنا ننصرف في رمضان من القيام، فنستعجل الخادم بالطعام، مخافة الفجر.

وروى البيهقي في الشعب عن أبي عبد الله الدينوري عن عرفجة الثقفي قال: كان علي بن أبي طالب ﷺ يأمر الناس بقيام رمضان، ويجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً. قال عرفجة: فكنت إمام النساء.

---

(١) أفراد.

وروى البيهقي عن الدينوري أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال: دعا عمر بن الخطاب ﷺ بثلاثة قراء، فاستقرأهم، فأمر أسرعهم قراءة أن يقرأ للناس[١] في رمضان بثلاثين آية، وأمر أوسطهم أن يقرأ خمساً وعشرين، وأمر أبطأهم أن يقرأ عشرين آية.

وذكر البيهقي عن ضمرة بن ربيعة قال: سألنا الأوزاعي عن الصلاة في شهر رمضان في البيت أو في المسجد، فقال: حيث كان أكثر لصلاته فليلزمه.

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما يحاسب به العبد يحاسب بصلاته، يقول الله عز وجل للملائكة، وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي. فإن وجدوها كاملة كتبوها، وإن وجدوها قد انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع؟ فتكمَّل صلاته من تطوعه له، وتؤخذ الأعمال على قدر ذلك».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن تمت صلاته فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر».

وأخبر البيهقي عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: أرأيت قول الله عز وجل: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٤٤/٢٩] هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس من الخلائق أحد إلا له باب من السماء ينزل منه رزقه، ويصعد منه عمله، فإذا مات المؤمن، بكى عليه بابه من السماء الذي كان يصعد منه عمله، وينزل منه رزقه، وإذا فقده مقعده من الأرض التي كان يصلي فيها،

(١) أي في كل ركعة.

ويذكر الله فيها، بكت عليه. وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، فلم تبكِ عليهم[1].

وقال ابن عباس أيضاً: إذا مات الميت[2] بكت عليه الأرض أربعين صباحاً.

---

(١) وروي ذلك عن علي رضي الله عنه مختصراً.

(٢) أي المؤمن.

الأصل الحادي والعشرون من أصول الإيمان

أداء الزكاة

الزكاة في شريعة الإسلام من أصول الإيمان أو من شعب الإيمان، وهي قرينة للصلاة، لأن الصلاة عبادة بدنية تنهى عن الفحشاء والمنكر وكبائر الإثم والفواحش، والزكاة عبادة مالية اجتماعية تطهر النفس من رذيلة البخل، والمالَ من الشبهات ولوثات الحرام، فكان التكامل والاقتران في شرع الله بين الفريضتين: الصلاة والزكاة واضح المعالم، وأدلة هذا الاقتران كثيرة في القرآن والسنة النبوية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/٥]. وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢/٤٣] وغير ذلك من الآيات التي قرن الله تعالى فيها الزكاة مع الصلاة، دون إدخال فرض ثالث بينهما، فصارت الزكاة بذلك ثالثة الإيمان، والصلاة ثانية الإيمان، فوجب تعظيم الفريضتين والحفاظ على أدائهما مدى العمر.

وأكدت السنة النبوية هذا الاقتران بين الصلاة والزكاة على منهاج القرآن، فقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن

لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وأخرج أحمد وأبو داوود الترمذي والنسائي والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم، وترد في فقرائهم، فإن هم أجابوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، وإياك ودعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس[١] حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك حرمت دماؤهم وأموالهم، وحسابهم على الله».

وأخرج الشيخان أيضاً عن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم». وبايع ابن الخصاصية على أركان الإسلام والجهاد في سبيل الله[٢].

وأخرج أبو داوود والبيهقي عن عبد الله بن معاوية العنبري (أو الغاضري) أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من فعلهن فقد طعِم طَعْم الإيمان: من عبد الله وحده، فإنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه زائدة عليه في كل عام، ولم يعط الهرِمة[٣]، ولا الرديئة،

---

(١) المراد بالناس بالإجماع هم مشركو العرب الوثنيون.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) هي الكبيرة التي أسقطت أسنانها. ومثلها العوراء وكل ذات عيب.

ولا الشَّرَط اللئيمة[١]، ولا المريضة، ولكن من أوسط مالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشرّه، وزكّى عبدٌ نفسَه». فقال رجل: وما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ قال: «يعلم أن الله معه حيث كان». دل الحديث على أن من فعل ثلاث خصال، ذاق طعم الإيمان وهي شهادة التوحيد، وإعطاء الزكاة بطيب نفس، وعدم إعطاء ذوات العيوب، كالشاة الهرمة والرديئة والمريضة وأسوأ المال، وتزكية النفس بأن يعلم الإنسان أن الله معه حيث كان.

وأجمع الصحابة على مشروعية قتال مانعي الزكاة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ، واستُخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله».

فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عِقالاً[٢] (أو عناقاً) يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لقاتلتهم على منعه.

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق. وهذا دليل واضح عملي على أن ترك الزكاة مثل ترك الصلاة.

وروى مسلم في الصحيح عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: دُلني على عمل أعمله يدنيني من الجنة، ويباعدني

---

(١) أو الشرطاء اللئيمة أي أرذل المال، وقيل: صغاره وشراره.
(٢) العقال: الحبل.

من النار. قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتَصِل ذا رحمك». فلما أدبر الرجل، قال رسول الله ﷺ: «إن تَمسَّك بما أُمر به، دخل الجنة».

أرشدت هذه الأحاديث الواردة على منهج الآيات القرآنية على أن الزكاة أحد أركان الإسلام، وأنها تقترن بالصلاة، وتأتي في المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان أو الإسلام، وهذا يبين مكانة الزكاة لعلاج حالات الفقر وتحقيق التكافل الاجتماعي الواجب في الإسلام.

عقوبة مانع الزكاة

الزكاة أحد أركان الإسلام وفرائضه الخمسة، فلا يصح الإسلام إلا بها، وبالمبادرة إلى أدائها على النحو المفروض في القرآن الكريم والسنة النبوية، لما لها من آثار وفوائد اقتصادية واجتماعية من تنمية المال، والحفاظ عليه، والعمل على إنهاء مشكلة الفقر، وإزالة البؤس والحاجة الملحّة إلى الحياة والعيش الكريم.

لذا كان مانع الزكاة مخلًّا إخلالاً واضحاً بمقوّماتها وحكمتها التشريعية، ويستحق العقاب في الدنيا والآخرة. من هذه العقوبات التعرض للعذاب الشديد في نار جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤-٣٥].

ومانع الزكاة عدو لأمته ومجتمعه، وبخيل، وماله شر محض عليه، بل إن غير المزكي مانع لحق الله والمحتاجين في ماله، فليست الزكاة

ملكاً له، بل هي ملك للفقراء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠].

وصفة هذا العذاب لمانع الزكاة مبيَّنة في الأحاديث الصحاح، منها ما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ، له زبيبتان[1]، يُطوِّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه، يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٠] الآية».

وفي حديث آخر رواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله ﵄، جاء فيه: «... ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا يحوَّل يوم القيامة شجاعاً أقرع، يَتْبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفرّ منه، فقال: هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد منه، أدخل يده في فيه فيَقْضمها كما يقضم الفحل».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أبي ذر الغفاري ﵁ ورد فيه: «.. ما من رجل يموت، فيدع إبلاً أو بقراً أو غنماً لم يؤد زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أسمن ما كانت وأعظمه، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأخفافها، حتى يقضى بين الناس، كلما نفدت أخراها، عادت أولاها». دلت الأحاديث على انقلاب الأموال غير المزكاة وحوشاً تفتك بأصحابها، وتدوسهم يوم القيامة حتى يقضى بين الناس إما إلى الجنة وإما إلى النار.

---

(١) الشجاع الحية أو الذكر خاصة، والزبيبتان الزبدتان في الشدقين أو النكتتان السوداوان فوق عينيه.

وروى البيهقي عن ابن عباس حديثاً ورد فيه: قال النبي ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فَرَض المواريث في أموال تبقى بعدكم». فكبّر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرَّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته».

والكنز هو المال الذي لم تؤد زكاته، لما روى البيهقي فيما قرأ القعنبي على مالك عن عبد الله بن دينار أنه قال: سمعت عبد الله بن عمر، وهو يُسأل عن الكنز ما هو؟ فقال: هو المال الذي لا تؤدى زكاته.

وشُبهت الزكاة بالقنطرة، من تجاوزَها نجا وسلم، لما روى البيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «الزكاة قنطرة الإسلام».

ومنع الزكاة له أضرار مادية خطيرة وعامة، منها التعرض للقحط العام والجفاف والفقر ومنع الأمطار، لما رواه الطبراني في الأوسط[١] عن بُريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منع قوم الزكاة، إلا ابتلاهم الله بالسِّنين». أي بالقحط وشدة الأزمة والفقر، ونزع البركة من المال والبنين. وفي حديث رواه الحاكم[٢] والبيهقي: «ولا منع قوم الزكاة إلا حبس عنهم القَطْر». أي المطر.

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقي من حديث ابن عمر، ولفظ البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر المهاجرين، خصال خمس إن ابتليتم بهن، ونزلن بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة[٣] في قوم قط حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم؛ ولم

---

(١) ورواته ثقات.

(٢) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) الزنا وفعل السوء.

ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله(١) إلا سُلِّط عليهم عدو من غيرهم، فيأخذُ بعض ما في أيديهم، وما لم يحكُم أئمتهم(٢) بكتاب الله إلا جُعِل بأسهم بينهم». أي سلط الله عليهم الشقاق أي النزاع، والذلة، والفتن الداخلية، وإثارة الحروب مع بعضهم، والغِيبة، والدسّ والكيد. والبأس الشدة والمكروه، قال تعالى عن اليهود: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٤].

فضائل صدقة التطوع

قد لا تكفي الزكوات المفروضة في إطفاء حالة الفقر وسدّ حاجة المحتاج لأسباب منها بُخل أصحاب الأموال أو تقصيرُهم في أداء الزكاة بنحو كامل، وإنما يزكون جزءاً من أموالهم من غير حساب ولا تقدير صحيح، ويزعمون أنهم يؤدون الزكاة. وحينئذ أو لأسباب طارئة يجب اللجوء إلى صدقات التطوع التي لها فضائل كثيرة، وقد حرَّض عليها الشرع الشريف في القرآن والسنة النبوية.

من ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وفي هذه الآية: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧]

(١) أي توحيد الله وعبادته، والإيمان به وبرسله والاستقامة.
(٢) أي علماؤهم وقضاتهم وحكامهم.

والمراد بإيتاء المال هو صدقة التطوع، لأنه تعالى ذكر الزكاة مع الصلاة في آخر الآية ذاتها. مما دل على أن إيتاء المال غير الزكاة، أي صدقة التطوع.

وقال تعالى مبيناً طريق البر، أي الخير وهو الإنفاق من الطيب لا من الرديء: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢] وقال سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] وفي آية أخرى ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٤] وأوضح القرآن أن الله تعالى يعوّض المنفق كثيراً في قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩]وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠] وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١].

روى البيهقي في حديث عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي». فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] قال رسول الله ﷺ: «زد أمتي» فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠].

وفي السنة النبوية مثلان واقعيان من إقدام الصحابة بسخاء على الصدقة، الأول: ما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله في قصة مجتابي النمار[1] من مضر وهم قوم عراة حيث تتابع الناس في الصدقات، فأشرق وجه رسول الله ﷺ صفاء واستنارة، وقال: «من سن في الإسلام سنة

(١) هم الذين لبسوا ثياباً من صوف مخطط قد خرقوها في رؤوسهم (رياض الصالحين: ص ٩١) ط مصر.

حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». فهذا مثال رائع للسنة الحسنة بالتصدق والسنة السيئة.

والمثل الثاني: قصة الأشعريين في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو[1]، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

والصدقة مقبولة ولو بالشيء القليل كشِق تمرة، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى شيئاً قدَّمه، ثم ينظر تلقاءَ وجهه، فتستقبله النار، فمن استطاع أن يتقي النار، ولو بشق تمرة فليفعل». وفي حديث آخر في الصحيحين عن عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ ذكر النار، فتعوذ منها، وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار، فتعوَّذ منها، وأشاح بوجهه، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة».

وأبواب الخير وأوجه الصدقة كثيرة، لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «كلُّ سلامى من الناس[2] عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها أو ترفعُ له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خَطْوة تمشيها

(١) أي فرغ زادهم أو قارب الفَرَاغ (رياض الصالحين: ص ٢٤٠)
(٢) أي أعضاء الإنسان وهي ثلاث مئة وستون عضواً، على كل عضو منها صدقة كل يوم.

إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة». أرشد الحديث إلى أن الصدقة مطلوبة عن جميع أعضاء الإنسان التي هي ثلاث مئة وستون عضواً، وكل عمل هو برّ وخير، من تسبيح أو تهليل أو تكبير أو خَطْوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، فمن أدى هذه الصدقة في أول يومه فقد أدى زكاة بدنه، فيحفظ الله له بقية يومه. وجاء في الحديث أن ركعتين من الضحى تقوم مقام ذلك، وفي حديث آخر يقول الله تعالى: «يا ابن آدم صلّ لي أربع ركعات في أول اليوم أكفك في أول اليوم، وأكفك آخره».

وفي حديث آخر في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فيعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق». قالوا: فإن لم يستطع إذ لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف». قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيأمر بالخير أو بالمعروف». قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فيمسك عن الشر، فإنه له صدقة». وفي حديث آخر في الصحيحين عن حذيفة: «كل معروف صدقة».

وأخرج الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة[1]، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/١٦-١٧]».

---

(١) أي وقاية.

الترغيب في الصدقة

يحب الله السخاء، ويُبغض البخل والشح، لأن الله تعالى يحب الإيثار والتضحية ليحظى الإنسان بالثواب العظيم، ويكره الله إمساك المال واكتنازه لأنه وبال وضرر على صاحبه، والبخيل مذموم عند الله والملائكة والناس.

لذا رغب الله تعالى في الصدقة لعظم ثوابها، ولما لها من أثر طيب عند المحتاج، علماً بأن كل ما زاد على الحاجة لا خير فيه، لما أخرجه البخاري في الصحيح والنسائي عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه. قال رسول الله ﷺ: «اعلموا أن ليس منكم أحد إلا ومال وارثه أحب إليه من ماله، مالك ما قدَّمت، ومال وارثك ما أخّرت». أي إن المال المدخر ثوابه أفضل من المال المصروف في الحياة.

وأخرج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن الشِّخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١٠٢/١] وهو يقول: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت».

وفي حديث آخر عند مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس».

ومن أولويات إنفاق المال إعطاء حق الخدم والأتباع، وتحريم منع المال عن المحتاجين لما رواه البيهقي من حديث أبي داوود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ثلاثة يدخلون الجنة: الشهيد، ورجل عفيف فقير متعفف وذو عيال، وعبد أحسن عبادة الله وأدى حق مواليه[١]. وأول ثلاثة يدخلون النار: أمير متسلط، وذو ثروة لا يؤدي حقه، وفقير فخور».

ومن أهم أوجه العطاء الضيافة وإطعام المسكين، وإعطاء السائل والبدء بمن يعول، أي من تجب عليه نفقته لما أخرجه ابن عدي عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ في حديث جاء فيه: «إن جبريل قال: مُر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، ويبدأ بمن يعول، فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه».

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك يبلغ به النبي ﷺ قال: «يتبع المؤمنَ بعد موته ثلاث: أهلُه، وماله، وعمله، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

والمال المقبول عند الله والمحفوظ ثوابه لديه يحفظه الله لصاحبه من الحرق والغرق والسرقة وغيرها، لما رواه البيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا استُودع شيئاً حفظه».

ويكرم الله المنفق المتصدق بزيادة الثواب، لما رواه مسلم[٢] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه[٣] يُربِّيها كما يربِّي أحدكم فَلُوَّه أو قلوصه[٤] حتى

---

(١) هم المماليك في الماضي، والخدم اليوم.
(٢) ورواه أيضاً البخاري والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه.
(٣) كناية عن قبول الصدقة.
(٤) الفلو ابن الفرس وهو المُهر، والقلوص ابنة الناقة.

يكون له مثلَ الجبل أو أعظم». وفي رواية أخرى: «ولا يقبل الله إلا الطيب».

والصدقة تخفف عذاب القبر وأهوال القيامة، لما رواه البيهقي عن عقبة بن عامر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة لتطفئ على أهلها حرَّ القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته». وفي رواية أخرى عن عقبة: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضى بين الناس، أو قال: يحكم بين الناس».

والصدقة تمحو الذنب لما ورد في حديث الترمذي الحسن الصحيح عن معاذ الذي جاء فيه أن النبي ﷺ قال له: «ألا أدلك على أبواب الخير؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «الصوم جُنّة (وقاية) والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».

يؤكده حديث آخر رواه الترمذي[1] وابن حبان في صحيحه، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع مِيتةَ السوء». أي إن الإنفاق في الخير والإحسان إلى الفقراء يُبعد سوء الخاتمة، ويرشد إلى المحامد، ويضمن حسن العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢] أي حسن العاقبة لأهل التقوى.

والصدقة تدفع البلاء، لما رواه البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة».

والصدقة تنجي من النار، لما رواه البيهقي أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار».

وروى البيهقي كذلك عن الأعمش قال: سمعت رجلاً أظنه طلحة، يحدث عن امرأة من أزواج النبي ﷺ أنها ذبحتْ شاةً، فقالت:

(١) وقال: حديث حسن غريب.

يا رسول الله، تصدَّقنا بها إلا كتفها. فقال: «هي لكم كلها، إلا كتفها».

وفي حديث آخر ذكره البيهقي والثوري عن عائشة قالت: كانت لنا شاة أرادت أن تموت، فذبحناها، فقسمناها، فجاء النبي ﷺ فقال: يا عائشة، ما فعلت شاتكم؟ قالت: أرادت أن تموت، فذبحناها فقسمناها، ولم يبق عندنا منها إلا كتف. قال: «الشاة كلها لكم إلا الكتف».

إطعام الطعام وسقي الماء

رغَّب الإسلام في الحفاظ على الجسد، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وسقي الماء، وعيادة المريض، وفكاك الأسير من أيدي العدو، والإحسان إلى الآخرين، بالقول والعمل، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣] وقال سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥]. هذا في الجملة، وأما أمثلة الإحسان فكثيرة، قال الله تعالى في توصيف الأبرار المحسنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٨] وهذا ترغيب في الإطعام لكل محتاج.

ووردت أحاديث صحيحة في تعداد هذه النماذج الخيِّرة، روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني». أي الأسير.

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من

ظهورها». فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن قال طيِّب الكلام، وأفشى السلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام».

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن سَلام قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة، انجفل[1] الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ قال[2]: فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يتكلم أن قال: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وروى البيهقي عن الصنانجي أن رجلاً لعن قوم حِمْير، فقال النبي ﷺ: «نِعْم القوم حمير، بأفواههم السلام، وبأيديهم الطعام».

وروى البيهقي أيضاً من حديث طلحة بن عمرو عن قول الله عز وجل: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ٩٠/ ١٤] قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن من موجبات المغفرة إطعامَ المسلم السغبان». أي الجائع. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه فيما يرويه البيهقي: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً».

وذكر البيهقي عن الشعبي قال[3]: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤمن كسا مؤمناً على عُري، كساه الله من خضر الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم».

ومن الحوادث المشهورة سقاية الكلب، روى البخاري ومسلم في الصحيحين من طريق مالك، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، ثم

---

(١) أسرعوا إليه.
(٢) أي الراوي.
(٣) الحديث مرسل، وروي حديثاً صحيحاً عن أبي سعيد الخدري.

خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه، حتى ارتقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، وغفر له». فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر». وذكر البيهقي عن سراقة بن مالك بن جُعْشم حديثاً مشابهاً في سقاية الضالة من الإبل.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي».

وفي رواية أخرى عن أبي ذر عند البيهقي مرفوعاً: «إفراغك في دلو أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرضٍ ضالةٍ، لك صدقة».

وذكر البيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليس صدقة أعظمُ أجراً من ماء».

وروى البيهقي أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله إن أمي ماتت أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم». قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء». أو قال: «اسق الماء، فسقاية أم سعد بالمدينة اليوم».

ومن مرويات البيهقي في الشعب عن أبي موسى قال: سألت ابن عباس: أي الصدقة أفضل؟ قال: سألت رسول الله ﷺ، فقال لي: «اسق الماء، ثم قال: ألم تر إلى أهل النار إن استغاثوا يغاثوا بماء كالمهل[1]، قال: أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله».

---

(١) النحاس المذاب، أو دُرْدي الزيت.

وذكر البيهقي أيضاً عن الحسن بن شقيق قال: سمعت ابن المبارك، وسأله رجل: يا أبا عبد الرحمن، قُرْحة خرجت في ركبتي منذ سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج، وسألت الأطباء، فلم أنتفع به، فقال: اذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس إلى الماء، فاحفر هناك بئراً، فإني أرجو أن تنبع هناك عين، ويُمسَك عنك الدمُ، ففعل الرجل، فبرأ. دل هذا وغيره من الروايات على أن علاج القرحة (الورم) يكون بسقاية الماء.

أنواع الصدقات

كان المفضل في الصدقات في زمن الصحابة الكرام وتابعيهم هو ما يسد الحاجة إلى الطعام والشراب من الأعيان المادية، فضلاً عن النقود، ومن أمثلة ذلك إعارة الشاة أو الناقة ونحوها لآخر للاستفادة من ألبانها وهي المسماة بالمنيحة[1]، وقد رغَّب الإسلام في منحها أو عطيتها.

روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعون خصلة، أعلاهن منيحة العنز، ما يعمل عبد بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديقاً بوعدها، إلا أدخله الله عز وجل بها الجنة». قال حسان بن عطية: فعدَدْنا ما دون منيحة العنز رد السلام، وتشميت العاطس، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه، فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة.

وروى أبو داوود عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «من

(١) وهي الناقة وكل ذات لبن الممنوحة لآخر، لأخذ وبرها ولبنها وولدها، فهي المنحة والمنيحة.

منح منحة ورِق[١]، أو من منح ورِقاً أو أهدى زِقاقاً[٢]، أو سقى لبناً، كان له كعِدْل نسمة أو رقبة». أي كعتق أو إحياء رقبة، أو مقدار ذلك.

ومن نماذج الإحسان المرغَّب فيه التصدق بالزائد على الحاجة، ويكره إمساك الفضل (الزائد)، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي أمامة يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكْه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وفي حديث آخر مشابه أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، إذ جاء رجل على راحلة، فجعل يصرّفها يميناً وشمالاً[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له». وذكر أصناف الأموال، حتى رأينا أنه لا حقّ لأحد منا في فضل عنده.

ومن ألوان الصدقة أو الخير والمعروف ما أخرجه البيهقي في سننه الكبرى عن ركب المصري قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذلَّ في نفسه من غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة. طوبى لمن ذل في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزَل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعمله، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

---

(١) أي فضة.

(٢) مفرده زق وهو السقاء.

(٣) أي يلتمس المعونة أو العطاء.

وللحض على إطعام الجائع أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المؤمن بالذي يشبع، وجاره جائع إلى جنبه».

وأخرج البيهقي في الشُّعب عن قتادة قال: ذُكر لنا أن سليمان بن داوود كان يقول: «اذكر الجائع إذا شبعت، واذكر الفقراء إذا استغنيت».

وذكر البيهقي في شُعبه عن الحسن البصري: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧] قال: أمر أن تقدم الفضل، وأن تمسك ما يغنيك. وعن ابن عباس: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢/٢١٩] قال: ما يفضل من أهلك.

ومن آداب التصدق كراهية رد السائل، أخرج البيهقي من طريق أبي داوود عن حسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس». وفي القرآن الكريم: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩٣/١٠].

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد اشتري نفسك من النار، فإني لا أملك لك من الله شيئاً، يا صفية بنت عبد المطلب، يا صفية عمة رسول الله، اشتري نفسك من النار، فإني لا أملك لك شيئاً، يا عائشة اشتري نفسك من النار، ولو بشق تمرة، يا عائشة لا يرجع مِنْ عندِك سائل ولو بظلف محرَّق».

وقصة الأبرص، والأقرع، والأعمى في الصحيحين عن أبي هريرة مشهورة، حيث منع الأولان حق الله في أموالهما على الرغم من الشفاء من المرض، وبادر الأعمى لتفويض الملَك الذي تمثل بصورة جابي الزكاة أو الصدقة بأن يأخذ من ماله ما يشاء قائلاً له: «قد كنتُ أعمى، فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم

بشيء أخذته منه. فقال له الملَك: أمسك مالك، فإنما ابتليتم[١]، وقد رُضي عنك، وسُخط على صاحبيك».

وقصة أخرى معبِّرة، روى أبو داوود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل بفلاة إذ سمع رعداً في سحاب، فسمع فيه كلاماً: اسق حديقة فلان باسمه، فجاء ذلك السحاب إلى حَرَّة[٢]، فأفرغ ما فيه من الماء، ثم جاء إلى ذئاب شَرْج[٣] فانتهى إلى شرجه، فاستوعبت الماء، ومشى الرجل مع السحاب حتى انتهى إلى رجل قائم في حديقة لم يسقيها. فقال: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: ولم تسأل؟ قال: إني سمعت في سحابٍ هذا ماؤه: اسق حديقة فلان باسمك، فما تصنع إذا صرمتها[٤]؟ قال: أما إذا قلت ذلك، فإني أجعلها على ثلاثة أثلاث: أجعل ثلثاً لي ولأهلي، وأردّ ثلثاً فيها، وأجعل ثلثاً في المساكين والسائلين وابن السبيل».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك».

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

وأخرج البيهقي عن أبي الدرداء قصة الملَكين في ندائهما كل يوم، عن أبي الدرداء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.

---

(١) اختبرتم.
(٢) أرض ذات حجارة.
(٣) فروع مسيل الماء من أعلى إلى أسفل.
(٤) قطعتها.

ضوابط صدقة التطوع

وضع الإسلام الحنيف دينُ اليسر والسماحة عدة ضوابط أو شرائط لأداء صدقة التطوع، تحقيقاً للتوازن والاعتدال، ومراعاةً لمال المتصدق والمتصدق عليه، لأن الإنسان مسؤول عن عياله وأهله، ومطالب عند الاستطاعة بمؤازرة المحتاجين، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] وقوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ٦٤/١٦].

وهذه الشرائط أو الضوابط، منها ما يأتي:

١- أن تكون الصدقة من فضل المال أي الزائد على قدر الحاجة. أما من كان ماله بقدر حاجته أو مستغرقاً لحاجته، فلا يتصدق على غيره ويَحْرِم نفسه وعياله إن كان له عيال.

٢- ولا يتصدق أيضاً بجميع ماله، ويحوج نفسه إلى غيره.

قال الله تعالى بشأن هذين الشرطين: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢/٢١٩].

وروى البيهقي في الشُّعب عن ابن عباس في هذه الآية قال: العفو الفضل عن العيال. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك».

وأخرج مسلم في الصحيح، والترمذي وقال: حسن صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم إنك إن تبذل

الفضل فهو خير لك، وإن تمسكه فهو شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول[١]، واليد العليا خير من اليد السفلى». أي اليد المعطية أو المنفقة خير وأفضل من اليد الآخذة.

وأخرج أبو داوود أيضاً عن جابر بن عبد الله أن رجلاً أتى النبي ﷺ بمثل البيضة من الذهب، فقال: يا رسول الله، هذه صدقة، وما تركت بعدي لأهلي غيرها، فحذفه[٢] رسول الله ﷺ بها، ولو أصابه لأوجعه، ثم قال: «يعمد أحدكم فينخلع من ماله، ثم يصير عيالاً على الناس».

وأخرج مسلم أيضاً عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة، أو خير الصدقة عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول».

يوضحه ما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما أبقت غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، تقول امرأتك: أنفق علي أو طلقني، ويقول خادمك: أنفق علي أو بعني، ويقول ولدك: إلى من تكلني؟».

٣- أن يراعي المتصدق سلَّم الأولويات، فينفق أولاً على نفسه، ثم ولده، ثم زوجته، ثم خادمه، ثم قرابته، ثم الناس. أخرج مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا. يقول: فبين يديك، وعن يمينك وعن شمالك».

وأخرج أبو داوود والنسائي تصنيفاً أوضح عن أبي هريرة قال: أمَر

---

(١) أي بمن تجب عليك نفقته.
(٢) أي رماه.

رسول الله ﷺ بالصدَقة، فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار. قال: «تصدق به على نفسك». قال: عندي آخر. قال: «تصدق به على ولدك». قال: عندي آخر. قال: «تصدق به على خادمك». قال: عندي آخر. قال: «أنت أبصر».

وأخرج مسلم في صحيحه عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «أفضل الدينار دينار ينفقه الرجل على عياله، ثم دينار ينفقه على دابته في سبيل الله عز وجل، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله». قال أبو قلابة: بدأ بالعيال، وأي رجل أعظم أجراً من رجل يسعى على عيال له صغار يُعفّهم أو ينفعهم الله به.

وجاء في حديث مسلم في شأن ذوي الأرحام: «إذا تصدق بدأ بذوي أرحامه، ولا يميز فيها بين الواصل والقاطع، بل يبدأ بذي الرحم الكاشح». أي الذي يضمر لك العداوة.

٤- التصدق من المال الطيب لا من الرديء، وتفضيل الأقارب لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٢]. أخرج مسلم قصة أبي طلحة عن أنس ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، أرى ربنا يسألنا من أموالنا، فإني أشهدك أني قد جعلت أرضي بَيْرُحاء لله عز وجل. فقال رسول الله ﷺ: «اجعلها في قرابتك». فقسمها بين أُبي بن كعب وحسان بن ثابت.

وأخرج مسلم في الصحيح عن ميمونة بنت الحارث أنها أعتقت وليدة[1] في زمان النبي ﷺ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

---

(١) أي جارية.

وهناك قصة أخرى هي قصة أبي الدحداح أخرج البزار[١]، وابن حبان عن أنس بن مالك[٢] أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة، وأنا أقيم حائطي بها، فمُرْه أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: «أعطها إياه بنخلة في الجنة». فأبى، فأتاه أبو الدحداح، فقال: بعني نخلتك بحائطي، قال: ففعل، قال: فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعت النخلة بحائطي، فاجعلها له، فقال النبي ﷺ: «كم من عَذْق[٣] دوَّاح لأبي الدحداح في الجنة». مراراً. فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح اخرجي من الحائط، فإني بعته بنخلة في الجنة، فقالت: قد ربحت، أو كلمة نحوها.

آداب الصدقة

للصدقة المتطوع بها آداب حسنة تجعلها أقرب للقبول والثواب، وهي كثيرة، منها:

١- كون الصدقة أولاً للقرابة والجيران، والمقصود بالقرابة ذووا الأرحام، روى مسلم في الصحيح عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود، سألت هي وامرأة أنصارية النبي ﷺ: أتجزئ الصدقة على الزوج والأيتام في حجورهما؟ فقال: «لهما أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة». وفي الحديث نفسه: «تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن».

---

(١) قال الهيثمي: فيه حميد بن عطاء الأعرج وهو ضعيف، وهو مروي عن عبد الله بن مسعود.

(٢) واللفظ له.

(٣) العَذْق النخلة بحملها.

يؤكده ما أخرجه الحاكم عن سلمان بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقة على المسكين صدقة، وإنها على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة». وللحاكم حديث آخر تقدم عن أم كلثوم بنت عقبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح». أي الذي يضمر العداوة.

وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قَطَعت رحمه، وصلها».

وروى البيهقي في الشُّعَب، عن أبي ذر: «أوصاني خليلي ﷺ بسبع: أمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظرَ إلى هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن أقول الحق، وإن كان مُرّاً، وأمرني ألا تأخذني في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كنز الجنة».

ومن أولويات الصدقة بعد القرابة إعطاؤها للجيران إن فضل شيء عن ذوي القرابة، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن عائشة أم المؤمنين أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسن شاة». أي ظلف شاة.

٢- أولوية العطاء للمتعفف المحتاج الذي لا يسأل الناس، لما رواه البيهقي في الشعب في رواية أخرى عن أبي ذر في الحديث المتقدم: أوصاني رسول الله ﷺ بسبع، ومنها: أنه إن فضل عن ذي قرابته فضل أُثر الجيران، فإن فضل عنهم صرفه إلى المتعففين من المحتاجين وهم الذين

لا يسألون الناس، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦/٤] وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣].

روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذين يتعفف، اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾».

٣- إخفاء الصدقة وعدم التحدث بها لما رواه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «أن يخفي صدقته ما استطاع، ثم لا يتحدث بها، قال الله عز وجل ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١]». وروى الطبراني في الصغير والبيهقي عن الخدري[(١)] عن النبي ﷺ قال: «صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء».

وروى مالك والشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. ومنهم: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه». وذلك لأن إبداء الصدقة يجري فيها الرياء، وإذا أخفيت كانت من الرياء أبعد.

٤- ترك المنّ على السائل وعدم إيذائه بالتعيير لقول الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤]

---

(١) حديث صحيح.

وقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٣] وذلك لأن المنّ والأذى يسوء السائل، ويوقع المعطي في الإثم، وصار كأن لم يعط، وانصرفت العطية عن وجه الله إلى وجه المعطي، وزالت مضاعفة ثواب الصدقة.

أخرج مسلم في الصحيح عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يكلمهم، ولهم عذاب أليم». قلت: يا رسول الله، فمن هؤلاء فقد خابوا وخسروا؟ فقال: «المنّان، والمسبل إزاره[1]، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

٥- كون الصدقة جارية لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

وأخرج مسلم أيضاً عن ابن عمر قال: أصاب عمر أرضاً بخيبر، فأتى النبيَّ ﷺ فاستأمره بها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفسَ عندي منه، فما تأمرني به؟ فقال: «إن شئت حبَّست أصلها وتصدقت بها». فتصدق بها عمر ﷺ أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث، أي صارت وقفاً.

٦- الصدقة مطلوبة من كل مسلم لما رواه البيهقي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «على كل مسلم صدقة»، قالوا: فإن لم يجده؟ قال: «فيعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق».

وروى البيهقي من طريق مالك عن عمرو بن معاذ الأشهلي عن جدته أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا نساء المسلمات لا تحقرن إحداكن أن تهدي لجارتها ولو كُراع شاة محرقاً».

(١) أي بقصد التكبر.

٧- الصدقة بقدر الوسع وبحسب حال الإنسان، لما رواه البيهقي في السنن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقلّ، وابدأ بمن تعول».

٨- كون الصدقة في حال الصحة والغنى، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «اثنان: أن تصدَّق وأنت صحيح، شحيح، تأمل البقاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان».

هذا.. والصدقة إرغام للشيطان، لما أخرج الأصبهاني في الترغيب عن بُريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُخرج الرجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عن لحي سبعين شيطاناً».

الكسب الطيب والإيثار

حذَّر الإسلام من تناول السُّحت أو الحرام، وحض على الكسب الطيب الحلال المبارك فيه، لأن الحرام الذي يبنى به الجسم الإنساني يدمِّر صاحبه، والمأكل الطيب والمشرب الحلال يبارك الله فيه لآكله وشاربه، لذا ذمَّ الله تعالى أَكَلة السحت والربا من اليهود، فقال الله تعالى عنهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٢] ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٢] ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٣] وقال سبحانه في أخذ اليهود الربا (الفوائد المالية): ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٤/ ١٦١].

ووردت أحاديث صحاح في الترغيب بالكسب الطيب، والتحذير من جمع المال الحرام، أخرج الصحيحان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تصدَّق الرجل بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، أخذها الله بيمينه(١)، فيربِّيها لأحدكم كما يربِّي أحدكم فَلُوه أو فصيله(٢)، حتى إن الثمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أُحد». أي جبل أحد. ومعنى «الله طيب» أي منزه عن النقائص. والطيب الطاهر السليم من الخَبَث.

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أدّيت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك فيه، ومن جمع مالاً حراماً، ثم تصدَّق منه، لم يكن فيه أجر، وكان إصره عليه» أي إثمه.

ورغّب الشرع في الإيثار والتضحية في العطاء، روى البخاري قصة طريفة عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أصابني جهد. فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يضيفه هذه الليلة رحمه الله». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيفُ رسول الله، لا تدخريه شيئاً. قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العَشَاء، فنوِّميهم، وتعالي فأطفئي السراج، وتطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله، أو ضحك الله من فلان وفلانة». فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾(٣) [الحشر: ٥٩/٩].

---

(١) كناية عن قبول الصدقة بأخذها في الكف، وعن مضاعفة أجرها بالتربية.

(٢) الفلو المُهْر، والفصيل ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه.

(٣) أي حاجة.

وقال بعضهم في الحديث: ثم قامت كأنها تُصلح سراجها، فأطفأته، وجعلا يُريانه أنهما يأكلان، وباتا طاويين. وقال بعضهم: يعني أبا طلحة وامرأته.

وأخرج أحمد عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لفاطمة: «لا أعطيكم وأدع أهل الصُّفة[1] تطوي بطونهم من الجوع».

وأخرج مالك عن عائشة زوج النبي ﷺ أن مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه. فقالت: ليس لكِ ما تُفطرين عليه. قالت: أعطيه إياه. قال: ففعلتْ، قالت: فما أمسينا حتى أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ممن كان يُهدي لنا شاة وكفَنها[2]، فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا خير من قُرصك.

وذكر البيهقي في الشعب عن عبد الله بن يوسف الأصبهاني عن نافع قال: مرض ابن عمر، فاشتهى عنباً أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية امرأته بدرهم، فاشترت عنقوداً بدرهم، واتبع الرسولَ (أي الوكيل المرسل) سائل، فلما أتى الباب ودخل، قال السائل: السائل. قال ابن عمر: أعطوه إياه، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به عنقوداً، فاتبع الرسولَ السائل[3]، فلما انتهى إلى الباب، ودخل، قال السائل: السائل، قال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل، فقالت: والله لئن عدتَ لا تصيب مني خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر، فاشترت به.

وروى البيهقي عن أبي جهم بن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم

(١) مكان مظلل في مسجد المدينة، يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ وهم أصحاب الصفة.

(٢) أي غطاءها.

(٣) وهو السائل الأول نفسه.

اليرموك أطلب ابن عمي ومعي شَنَّة من ماء[١] وإناء، فقلت: إن كان به رمق، سقيته من الماء أو مسحت به وجهه، فإذا أنا به يَنْشع[٢]، فقلت: أسقيك؟ فأشار: أي نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق به إليه، فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو، فأتيته فقلت: أسقيك؟ فسمع آخر، فقال: آه، فأشار هشام أن انطلق به إليه، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي، فإذا هو قد مات.

وروى البيهقي من طريق أبي داوود الجفري عن عبد الله بن مسعود أن راهباً عبَدَ الله في صومعته ستين سنة، فجاءت امرأة، فنزلت إلى جنبه، فنزل إليها فواقعها ست ليال، ثم سُقط في يده[٣]، فهرب فأتى مسجداً، فأوى فيه ثلاثاً، لا يطعم شيئاً، فأُتي برغيف، فكسره، فأعطى رجلاً عن يمينه نصفَه، وأعطى آخر عن يساره نصفَه، فبعث الله إليه ملَك الموت، فقَبض روحَه، فوُضعت الستون في كفَّة، ووضعت الستة في كفة، فرجحت - الستة - ثم وضع الرغيف، فرجح، يعني رجح على الستة.

الترغيب في العطاء

المجتمع الإسلامي مجتمع متكافل متضامن متعاون، يعاون القوي فيه الضعيف، والغني يساعد الفقير، والصحيح يواسي المريض أو يمده بما يعينه على الشفاء من مرضه، وهذا نابع من خلق الرحمة التي يتحلى بها المسلم، ولأن التفاوت في الأرزاق أمر واقع لحكمة إلهية، وحاجة

---

(١) القرب البالية.
(٢) شهق حتى كاد يموت.
(٣) أي ندم.

يتم بسببها التآزر والتعاون، قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] لكن هذه المفاضلة في الرزق قائمة على جسور من المشاركة والإحسان وإثبات حق للمحتاج في مال الغني، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٧١] أي إن الله تعالى أوجد تفاضلاً في الرزق بين الناس، فمنهم الغني والفقير، والمالك والمملوك، لحكمة بالغة هي تحقيق مصلحة الفرد والمجتمع، فلماذا يقصر الأغنياء في منح شيء من أموالهم للفقراء أو مشاركتهم في أموالهم؟! وعلى القادر المسؤول إن لم يعط السائل شيئاً أن يصرفه بكلمة طيبة لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩٣/ ١٠] أو يعتذر إليه إن لم يكن عنده ما يعطيه، ويكون الاعتذار أو الرد الكريم خيراً ومعروفاً، لما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وما أنفق على نفسه وأهله كتبت له صدقة، وما وقى به عرضه، وما أعطى في الله فهي له صدقة». سأل جابر النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً: ما معنى ما وقى به عرضه؟ قال: «ما أعطى الشاعرَ والمتقيَ لسانه».

وكل أوجه المعروف والخير فيها الصدقة حتى فيما لا يقصده المالك، لما أخرجه مسلم في الصحيح[1] عن جابر عن أم مبشِّر الأنصارية قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا في نخل لي، فقال: «لمن هذا النخل؟» قلت: لي. قال: «من غرسه، مسلم أو كافر؟» قلت: مسلم. قال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكلُ منه إنسان، أو طير، أو سَبُع إلا كان له صدقة».

---

(١) وأخرجه الشيخان (البخاري ومسلم) عن أنس.

وأخرج أحمد عن وهب بن منبِّه عن أبيه، جاء فيه: «من نصب شجرة، فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل».

وأخرج البيهقي في شعبه من حديث جابر بن عبد الله السُّلَمي، جاء فيه أن النبي ﷺ جمع الأنصار في المسجد النبوي بعد صلاة الجمعة، فقال لهم: «معشرَ الأنصار!» قالوا: يا رسول الله، بآبائنا وأمهاتنا أنت. قال: «كنتم في الجاهلية، إذ لا تعبدون الله، تحملون الكلَّ[1] في أموالكم، وتفعلون المعروف وتصِلون، حتى إذا منَّ الله عليكم بالإسلام، وأتاكم بمحمد، إذا أنتم تحصِّنون أموالكم، فيما يأكل ابن آدم أجرٌ، وفيما يأكل الطير أجر، وفيما يأكل السبُع أجر». قال: فانصرف (أي النبي ﷺ) وما بقي أحد إلا هدم في ماله ثلاثين باباً. أي فتح منافذ العطاء كثيراً.

وأخرج البيهقي عن حسان بن عطية قال: شكا أهل دمشق إلى أبي الدرداء أثمارها، قال: إنكم أطلتم حيطانها[2]، وأكثرتم حُرَّاسها، فجاءها الويل من فوقها. وهذا إرشاد إلى أن تمكين الآخرين من الأكل من الثمار يعدّ صدقة، وفيه ثواب، وهو سبب للحفظ الإلهي والبركة والنماء.

وذكر البيهقي في الشعب أيضاً قصة مثيرة وغريبة تدل على أن البخل في الصدقة ومنع العطاء وبال على صاحبه، وهي قصة مروية عن معمر قال: حدثني شيخ لنا أن امرأة جاءت إلى بعض أزواج النبي ﷺ، فقالت لها: ادعي الله أن يطلق يدي. قالت: وما شأن يدك؟ قالت: كان لي أبوان، وكان أبي كثير المال، كثير المعروف، كثير الفضل، أو كثير الصدقة، ولم يكن عند أمي من ذلك شيء، لم أرها تصدقت بشيء قط،

---

(١) أي العاجز صاحب العيال أو اليتيم ونحوهما.

(٢) جدرانها.

غير أنا نحرنا بقرة، فأعطت مسكيناً شحمة في يده، وكسته خرقة، فماتت أمي ومات أبي، فرأيت أبي على نهْر يسقي الناس، فقلت: يا أبتاه: هل رأيت أمي؟ فقال: لا، أوَ ماتت؟ فقلت: نعم، فذهبتُ ألتمسها، فوجدتها قائمة عُريانة، ليس عليها إلا تلك الخرقة[1]، وتلك الشحمة في يدها، وهي تضرب بيدها على يدها الأخرى، ثم تمص أثرها، وتقول: واعطشاه! فقلت لها: يا أمّه ألا أسقيك؟ قالت: بلى، فذهبتُ إلى أبي، فأخذت إناء من عنده، فسقيتها فيه، فتنبَّه بي بعض من كان قائماً، فقال: من سقاها أشل الله يده. قالت: فاستيقظتُ وقد شلت يدي.

هذه القصة الغريبة تعبر عن جدوى الصدقة وأنها في القبر تستر الإنسان وتنجيه، وأن الحرمان من الصدقة يؤدي إلى المآسي والمصاعب والتعرض للعُري في القبر، والاضطراب والقلق والحيرة بسبب البخل ومنع الصدقة.

الاستعفاف عن السؤال وآدابه

المؤمن عزيز الكريم بنص القرآن الكريم، حفاظاً على كرامته وحيائه وماء وجهه، فلا يسأل الناس شيئاً إلا لحاجة شديدة وبنحو مؤقت، دون اتخاذ السؤال صنعة أو حرفة دائمة، قال اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] وقال سبحانه: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣] فالعفة أساس الكرامة، والسؤال مذلة.

وقد وردت أحاديث كثيرة صحيحة في التعفف، منها ما أخرجه

(١) أي التي كست بها مسكيناً.

الشيخان (البخاري ومسلم) في الصحيحين من حديث مالك، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم حتى نفذ ما عنده، قال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبّره الله، وما أعطي أحد من عطاء هو خير وأوسع من الصبر».

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي من طريق مالك، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقة، والتعفف عن المسألة -: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، واليد السفلى السائلة».

وأخرج البخاري في الصحيح عن مالك ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حَبْله، فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً قد أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه».

وأخرج البخاري عن حمزة بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعة لحم». أي أن المسألة المتكررة تسقط المروءة والهيبة والوقار وعزة النفس.

وروى البيهقي عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «تحل الصدقة من ثلاث: من الإمام الجامع، ومن ذي الرحم لرحمه، ومن التاجر المكثر». أي تحل المسألة من ثلاث: السلطان، وذي الرحم، والغني ذي المال الوفير.

يوضح ما سبق حديث رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إن المسكين المتعففُ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٣]».

والترفع عن المسألة من بنود بيعة النبي ﷺ في مبدأ الإسلام، بدليل ما أخرجه مسلم في الصحيح عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية، فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟». فرددها ثلاث مرات، فقدَّمنا أيدينا، فبايعَنا، فقلنا: يا رسول الله، قد بايعناك، فعلام نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس - وأسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فلا يسأل أحداً يناوله إياه.

وفي معناه أخرج النسائي وابن ماجه[١] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من يتقبل لي بواحدة تقبَّلت له بالجنة؟»[٢]. قال ثوبان: أنا يا رسول الله، قال: «لا تسأل الناس شيئاً». قال: وربما كان يسقط سوطه، وهو على البعير، فلا يقول لأحد: ناولنيه حتى ينزل فيأخذه.

والصدقة وباء ومهلكة لغير المحتاج، لما رواه البخاري في التاريخ عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «ما خالطت الصدقة مالاً إلا أهلكته». قال عبد الله بن مسعود: تفسيره أن الرجل يأخذ الصدقة وهي الزكاة، وهو موسر أو غني، وإنما هي للفقراء.

يؤكده ما رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين يوم القيامة قوم ليس على وجوههم لحم، أخلقوها في الدنيا بالمسألة، فمن فتح على نفسه باب مسألة، وهو عنها غني، فتح الله عليه باب فقر». وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الناس في غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم، جاء يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم».

---

(١) وأخرجه أبو داوود من طريق شعبة.

(٢) أي من يتكفل لي بخصلة واحدة كفلت له الجنة.

وأما السؤال بوجه الله أو بأسمائه الحسنى فلا يكون إلا للجنة، لما أخرجه أبو داوود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسألُ بوجه الله شيء إلا الجنة».

وللمسؤول آداب، لما رواه الحاكم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أهدى إليكم فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى ترون أن قد كافأتموه».

ويلتمس الخير عند السمحاء، لما رواه البخاري في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه».

ومن وقائع العفة ما أخرجه البيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي أصابه جوع حتى شدّ على بطنه حجراً، فسمع رسول الله ﷺ يقول: «من يستعف يعفُّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن سألنا فإما أن نبذل له، وإما أن نواسيه، ومن استغنى عنا أحب إلينا ممن سألنا». قال أبو سعيد: فرجعت فما سألت أحداً بعده شيئاً، فجاءت الدنيا، فما من أهل بيت من الأنصار أكثرُ أموالاً منا. دل هذا على أن العفة تولّد الغنى عند الصبر.

المال الطاهر والقرض الحسن

الإسلام دين العفة والطهر، والترغيب الشديد في الكسب الحاصل من الجهد والمعاناة، من غير أن تشوبه شائبة الأخذ حياء أو بالمسألة

(١) لكن فيه سليمان بن معاذ تكلم فيه غير واحد.

والإلحاح، أو الربا والفائدة الحرام بسبب القروض ونحوها من الوسائل المحرمة كضم الموظف شيئاً من العمولة في حال توكيله بالشراء لحساب الحكومة أو المؤسسة أو أي شخص، وكالرشوة وأخذ المقابل على خدمات مفروضة أو واجبة على صاحبها، أو تؤدى بناء على عقد وكالة.

أما المال الحاصل من المسألة فهو مقترن بالمِنَّة والأخذ حياء، فلا بركة ولا خير فيه، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ يقول: كان النبي ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر مني، فقال رسول الله ﷺ: «خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف[1] ولا سائله، فخذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك».

يوضحه حديث آخر رواه البيهقي في الشُّعَب عن عمر أيضاً يقول: أرسل إليّ رسول الله ﷺ بمال، فرددته، فلما جئته قال: «ما حملك على أن تردّ ما أرسلتُ به إليك؟» قال: قلت: يا رسول الله، أليس قلتَ لي: «ألا إنّ خيراً لك ألا تأخذ من الناس شيئاً». قال: «إنما ذلك أن تسأل الناس، وما جاءك من غير مسألة، فإنما هو رزق رزقكه الله تعالى». وهذا المعنى مروي بروايات عن ابن عمر.

وقال أبو هريرة: نحن لا نسأل أحداً شيئاً، فمن أعطانا شيئاً قبلناه.

وأخرج أحمد عن خالد بن عدي الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «من جاءه من أخيه معروف من غير سؤال ولا إشراف نفس، فليقبلْه فإنما هو رزق ساقه الله إليه».

وصرف المال الآتي إما بأن يعطيه لمحتاج أو ينتفع به إن كان فقيراً، لما رواه البيهقي في شعبه عن أم الدرداء تقول: ما بال أحدكم يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن الله لا يمطر عليه من السماء دنانير ودراهم،

---

(١) أي غير متطلع إليه ولا راغب فيه.

وإنما يرزق الله بعضكم من بعض، فمن أعطي شيئاً فليقبله، وإن كان غنياً فليضعه في ذي الحاجة من إخوانه، وإن كان فقيراً فليستعن به على حاجة، ولا يردّ على الله عز وجل رزقَ الله الذي رزقه. وقال أبو هريرة مثل هذا القول.

وروى البيهقي ما يدل على صحة هذا المنهج من حديث عائذ بن عمرو المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «من عُرض عليه شيء من هذا الرزق من غير مسألة، ولا إشراف نفس، فليوسّع به في رزقه، فإن كانت به عنه غنى، فليوجهه إلى من هو أحوج إليه منه».

وأخرج أحمد عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عائشة من أعطاكِ عطاء بغير مسألة، فاقبليه، فإنما هو رزق ساقه الله إليك».

وأما القرض الحسن من غير اشتراط فائدة أو عمل بعرف وعادة فهو مرغوب فيه شرعاً، بل هو أفضل من الصدقة، لما رواه البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقرض ورِقاً[1] مرتين كان كعِدْل صدقة مرة». وقال ابن مسعود: «لأن أقرض مرتين أحب إلي من أن أتصدق به مرة». قال البيهقي: والموقوف أصح.

وأخرج الطبراني في الصغير عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «كل قرض صدقة».

وأخرج البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي مكتوباً على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، قال النبي ﷺ: قلت لجبريل: ما بال القرض أفضلُ من الصدقة؟ قال: إن السائل يسأل، وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة».

---

(١) أي فضة.

يؤكده ما أخبر به أبو داوود عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «انطُلق برجل إلى باب الجنة، فرفع رأسه، فإذا على باب الجنة مكتوب الصدقة بعشر أمثالها، والقرض الواحد بثمانية عشر، لأن صاحب القرض لا يأتيك إلا وهو محتاج، وأن الصدقة ربما وضعت في غنيّ».

إن القرض الحسن عقد إرفاق وتعاون وبر وخير، حث إليه الإسلام، وحرَّم القرض المصحوب بالربا أو الفائدة بسبب التأجيل إلى وقت المستقبل، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ٥٧/١٨] وقوله سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٦٤/١٧].

وندب الله تعالى أهل الإيمان للمبادرة إلى الإقراض لوجه الله، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥]. وقرن الله تعالى بين أداء فريضتي الصلاة والزكاة وبين القرض الحسن في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ﴾ [المزمل: ٧٣/ ٢٠].

الأصل الثاني والعشرون من أصول الإيمان

الصيام

الصيام كالصلاة من أركان الإسلام الخمسة، وأحد أصول أو شعب الإيمان كما هو معروف بين جميع المسلمين، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان». وورد في الحديث الصحيح: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[(1)].

والصيام كالصلاة يغرس في النفس المؤمنة فضيلة التقوى، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٣] الخطاب في مطلع الآية لأهل الإيمان، وفي نهايتها لبيان كون الصيام مؤدياً للتقوى، وحقيقة التقوى فعل المأمور به، والمندوب إليه، واجتناب المنهي عنه، والمكروه والمنزّه عنه، لأن المراد من التقوى وقاية العبد نفسه من النار، والوقاية من النار باتباع الأوامر من صلاة وصيام وحج وزكاة، وابتعاد عن المنهيات

(١) أخرجه مسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة.

والمعاصي، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وكذلك الصيام، لأن المصلي والصائم الحقيقيين ينتهيان عن المنكرات، فالصيام التزام وخشوع، والصوم امتناع عن الشهوة وبواعثها، لأن ملء الطعام والشراب رأس البواعث على الفحشاء والمناكير. وبالصيام يتقي الصائم الكفر والتغافل عن شكر النعمة التي حُرمها نصف اليوم، وبالصوم يتقي الصائم البخل وإهمال المحتاجين والتغافل عنهم، حيث يُحسُّ الغني وقت الحرمان من الطعام والشراب حال الفقراء والضعفاء الذين يتعرضون للحرمان يوماً وليلة أو أكثر.

وعبَّر النبي ﷺ بقوله - فيما يرويه البخاري ومسلم - عن أبي هريرة: «الصيام جُنّة». عن مدى تأثير الصيام وإضعاف الحواس في الوقاية من النار. وفي رواية أخرى عن أبي هريرة من الأحاديث القدسية: «قال ربكم: الصوم جنة يجتن بها عبدي من النار»(١)

وسمي الصيام صبراً وضياءً فيما رواه البيهقي في الشعب من حديثين: الأول عن أبي هريرة: «صوم شهر الصبر، وثلاثة أيام من الشهر صوم الدهر». والثاني عن أبي مالك الأشعري: «الصبر ضياء». أما تسميته صبراً فلأن الصائم يحبس نفسه عن الشهوات، وتسميته ضياء؛ لأن قمع النفس عن الشهوات يضيء القلب ويمحو الظلام.

وسمي الصيام أيضاً نصف الصبر في حديث رواه أحمد عن رجل من بني سليم نصه: «سبحان الله نصف الميزان، والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والوضوء نصف الإيمان، والصيام نصف الصبر». وذلك لأن العبادات هي فعل أشياء وكفّ عن أشياء، والصوم يقمع الشهوات، فيتيسر به الكف عن المحارم، وهو شطر

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

الصبر، وللصبر شطران: صبر عن أشياء، وصبر على أشياء، والصوم يعين على أحد الشطرين.

وفي حديث آخر رواه البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «.. والصيام نصف الصبر، وعلى كل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصيام».

وهناك تشابه بين الصوم والصبر في أن ثواب كل منهما مفتوح غير مقدر بمقدار، وكثير ليس له حساب، متروك لفضل الله وإحسانه، قال عليه الصلاة والسلام عن رمضان: «هو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة»[١] قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوف[٢] فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جُنّة». أي وقاية.

وروى البيهقي من حديث عثمان بن أبي العاص يقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصوم جُنّة من عذاب الله». أي وقاية. قال البيهقي رحمه الله في تفسير «الصوم لي وأنا أجزي به»: معناه والله أعلم أني العالم بجزائي والمالك له، وليس ذلك مما أخبرتكم به من أن الحسنة بعشر أمثالها، وأن مثل النفقة في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل، في سنبلة مئة حبة، لكن جزاء الصوم يجلّ عن هذا كله، وأنا أعلم به وإليّ أمره، وهذا لأن كل عمل يعمله ابن آدم من الطاعات، فإنما هو تبرر

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، وقال: صح الخبر، ورواه أيضاً البيهقي وأبو الشيخ وابن حبان.

(٢) تغير رائحة فمه.

لا تَنْقُص من بدنه شيئاً إلا الصيام، فإنه تعريض من الصائم نفسه للنقصان الذي قد يضعف، وقد يؤدي إلى الهلاك، والصائم بصيامه مؤثر للرجوع إلى ربه، مستسلم لذلك، منشرح الصدر، فكان صومه له عز اسمه، من هذا الوجه.

وقال سفيان بن عيينة في حديث «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»: هذا من أجود الأحاديث وأحكمها، إذا كان يوم القيامة يحاسب الله تعالى عبده، ويؤدي ما عليه من المظالم من سائر عمله، حتى لا يبقى إلا الصوم، فيتحمل الله تعالى ما بقي عليه من المظالم، ويدخله بالصوم الجنة.

وقال أبو عبيد: قد علمنا أن أعمال البر كلها لله تعالى، وهو يجزي، فنرى والله أعلم أنه إنما أخصَّ الصوم بأن يكون هو الذي يتولى جزاءه، لأن الصوم ليس يظهر من ابن آدم بلسان ولا فعل، فيكتبه الحفظة، إنما هو نية القلب، وإمساكٌ عن حركة المطعم والمشرب، يقول: فأنا أتولى جزاءه على ما أحب من التضعيف(١)، وليس على كتاب كتب له، ومما يبيِّن ذلك قوله ﷺ: «ليس في الصوم رياء»(٢).

فضائل الصيام

للصوم الخالص لله عز وجل فضائل كثيرة إذا كان القيام به دون تبرّم ولا تضجر، ويصدر عن إيمان بالله ووعده، واحتساب الأجر عند الله،

(١) أي مضاعفة الثواب.
(٢) رواه البيهقي عن ابن شهاب الزهري مرسلاً، وابن عساكر عن أنس، وهو صحيح كما قال السيوطي.

أي انتظار رضا الله فيه، وطلب ثواب الله وحده وكونه خالصاً لوجهه، ولا يكون الاحتساب إلا في الأعمال الصالحة.

ومن أهم فضائل الصيام ما يأتي:

١- كون ثوابه - كما تقدم - ليس له حساب مقدر أو محدد بقدر معين، يعلم من كثرته، ويفوض تقدير الأجر فيه لكرم الله وسخائه وفضله العظيم، وقد فسر سفيان الثوري كلمة ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ بأنهم الصائمون في آية: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٢] فالصائم بمنزلة السائح.

٢- وفي الجنة باب خاص لا يدخل منه إلا الصائمون، هو باب الرّيان، روى البخاري في الصحيح عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الرّيان لا يدخله إلا الصائمون». وفي لفظ آخر: «إن في الجنة باباً يقال له الرَّيان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أغلق، فلم يدخل منه أحد».

وهذا يفسر لنا مدى هيمنة شهر رمضان المبارك على جميع المسلمين حتى العصاة منهم، لما يتضمنه من روحانية عظيمة، وأسرار عجيبة، وتأثيرات قوية على النفوس، مما يدفع أغلب الناس إلى أداء فريضة الصوم طوعاً وهيبة.

روى البيهقي في شعبه عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله، دلّني على عمل، قال: «عليك بالصوم فإنه لا عِدْل له».

وروى أيضاً عن ابن عمر: «الأعمال عند الله سبعة» وذكر منها: «والصيام لله تعالى لا يعلم ثواب عمله إلا الله تعالى».

٣- وتدعو الملائكة للصائم الذي يفطّر غيره لما رواه الإمام أحمد

رحمه الله عن أم عمارة بنت كعب أن النبي ﷺ دخل عليها، فقرَّبت إليه طعاماً، فقال: «كلي» فقالت: إني صائمة، فقال: «إن الصائم إذا أُكل عنده صلت عليه الملائكة حتى يفرغوا أو يقضوا». أي دعت له الملائكة واستغفرت وطلبت له الرحمة والمغفرة.

وروى البيهقي في شعبه عن بُريدة قال: دخل بلال على رسول الله ﷺ، وهو يتغذّى، فقال رسول الله ﷺ: «الغدا يا بلال». قال: إني صائم يا رسول الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «نأكل رزقنا وفضل رزق بلال في الجنة، أشعرتَ يا بلال؟ قال: إن الصائم تسبِّح عظامه، وتستغفر له الملائكة ما أكل عنده».

وأخرج البيهقي أيضاً من طريق ابن عدي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد أصبح صائماً إلا فتحت له أبواب السماء وسبَّحت أعضاؤه، واستغفر له أهل السماء الدنيا إلى أن يوارى بالحجاب، فإن صلى ركعة أو ركعتين، أضاءت له السماوات نوراً، وقالت أزواجه من الحور العين: اللهم اقبضه إلينا، فقد اشتقنا إلى رؤيته، وإن هلَّل وسبَّح أو كبّر تلقَّاه سبعون ألف ملك، يكتبون ثوابها إلى أن يوارى بالحجاب».

٤- ويبتعد الصائم عن جهنم بسبب صومه لما رواه البيهقي عن سلمة بَن فيض أن رسول الله ﷺ قال: «من صام يوماً ابتغاء وجه الله، بعّده الله من جهنم، كبُعْد غراب طار، وهو فرخ، حتى مات هرماً». وهذا مكمِّل لما سبق من استحقاق الصائم دخول الجنة، وهو يدل على إقصائه وابتعاده عن نار جهنم.

٥- ومن أهم حقائق الصوم أنه صِلَة سرية واضحة بين الصائم وربه، لا يشوبه مباهاة ولا رياء ولا سمعة ولا شهرة. لما رواه البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصيام لا رياء فيه،

قال الله: هو لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي». أي من أجل رضوان الله تعالى.

٦- وللصائم دعوة مستجابة لما رواه البيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات: دعوة الصائم، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم». لذا قرن الله تعالى في كتابه استجابة الدعاء مع آيات الصيام فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦].

٧- والصوم يعين على كبح الشهوة وتخفيف حدة الرغبة الغريزية، روى البيهقي عن عثمان بن مظعون قال: قلت: يا رسول الله، إني رجل يشق عليّ هذه العُزبة في المغازي، أفأختصي؟ قال: «يابن مظعون، عليك بالصوم، فإنه الخِصا».

وروى البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك ﷺ قال: خرج النبي ﷺ إلى المسجد، وفيه فتية من أصحابه، فقال: «من كان عنده طول[1] فلينكح، وإلا فعليه بالصوم، فإنه له وجاء[2] ومحسمة للعِرْق».

فضائل شهر رمضان

لشهر رمضان فضائل عديدة أهمها أنه سيد الشهور الذي أُنزل فيه القرآن المجيد وسائر الكتب السماوية من صحف إبراهيم وتوراة موسى

(١) أي مهر.
(٢) أي خصاء.

وزبور داوود وإنجيل عيسى، وثبت في السنة النبوية فضائل أخرى لرمضان تختص بالصائمين والصائمات، هي:

١- تفتُّح أبواب الجنة، وإغلاق أبواب النار، وتصفيد الشياطين أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل رمضان فتّحت أبواب الرحمة، وغلِّقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين».

وفي رواية أخرى: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفِّدت الشياطين ومَرَدة الجن، وغلِّقت أبواب النار، فلم ينفتح منها باب، وفتِّحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله تعالى عتقاء من النار، وذلك عند كل ليلة».

وفي لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يبشرهم: «قد جاءكم رمضان شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تُفْتح فيه أبواب الجنة، وتُغْلق فيه أبواب الجحيم، وتُغَلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حُرِم».

قال البيهقي: والتصفيد في شهر رمضان مبالغة في الحفظ - والله أعلم - ويحتمل أن يكون المراد به أيامه لا بعده، والمعنى: أن الشياطين لا يخلُصون فيه في إفساد الناس إلى ما يخلصون إليه في غيره، لاشتغال أكثر المسلمين بالصيام الذي فيه قمع الشهوات، وبقراءة القرآن وسائر العبادات، والله أعلم. أي إن نسبة الجرائم تكون قليلة في رمضان.

٢- تميز الأمة الإسلامية في رمضان بخمس خصال، روى البيهقي عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي. أما واحدة: فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، نظر الله عز وجل إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً.

وأما الثانية: فإن خُلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك.

وأما الثالثة: فإن الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة.

وأما الرابعة: فإن الله عز وجل يأمر جنته، فيقول لها: استعدِّي وتزيَّني لعبادي أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي.

وأما الخامسة: فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعاً» فقال رجل من القوم: أهي ليلة القدر؟ فقال: «لا، ألم تر إلى العمال يعملون، فإذا فرغوا من أعمالهم وُفُّوا أجورهم»[1].

٣- الإعتاق من النار، روى البيهقي حديثاً مرسلاً عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى في كل ليلة من رمضان ست مئة ألف عتيق من النار، فإذا كان آخر ليلة أعتق الله بعدد كل من مضى». وهذا تكريم لا مثيل له لأمة الإسلام.

٤- غفران الذنوب، شهر رمضان أوله رحمه، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه».

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وروى البيهقي من طريق أبي داوود: «شهر فرض الله عليكم صيامه، وسَنَنتُ أنا قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً واحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

---

(١) قال الحافظ المنذري: وإسناده مقارب أصلح مما قبله أي حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد والبزار والبيهقي.

دلت الأحاديث أن موجبات أو أسباب المغفرة هي صيام الشهر إيماناً وانتظاراً للأجر العظيم من الله تعالى، وقيام رمضان (التراويح)، وقيام أو إحياء جزء من ليلة القدر.

٥- تكفير الذنوب الصغائر روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفِّرات ما بينها إذا اجتنبت الكبائر». أي مثل الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ونقض العهد، والخروج من الجماعة.

٦- إجابة الدعاء روى البيهقي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن في رمضان ينادي منادٍ بعد ثلث الليل الأول، أو ثلث الليل الآخر: ألا سائل يَسْأل فيُعطى، ألا مستغفر يَسْتغفر فيغفر له، ألا تائب يتوب، فيتوب الله عليه».

٧- أفضلية الصدقة فيه أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام، وكان يلقاه جبريل كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض النبي ﷺ، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. وعن أنس قال: قيل: يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: «صدقة في رمضان».

٨- تميزه عن بقية الشهور روى البيهقي في شعبه عن أبي مسعود الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم، وأَهَلّ رمضان، فقال: «لو يعلم العباد ما رمضان، لتمنت أمتي أن يكون السنة كُلَّها».

وفي حديث موقوف ذكره البيهقي عن ابن مسعود قال: سيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة.

وذكر البيهقي أيضاً عن كعب الأحبار قال: إن الله تعالى اختار

ساعات الليل والنهار، فجعل منهن للصلوات المكتوبة، واختار الأيام فجعل منهن الجمعة، واختار الشهور فجعل منهن شهر رمضان، واختار الليالي فجعل منهن ليلة القدر، واختار البقاع فجعل منهن المساجد.

عفة لسان الصائم
واستغلال ظرف رمضان

إن من أهم مقاصد الشريعة الإلهية تهذيبَ النفس المؤمنة وتعويدها على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ومن أهم أوصاف الأخلاق عفة اللسان، سواء أكان الإنسان صائماً أم غير صائم، للحديث الثابت عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطَّعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي»[١].

ويكون من أوّليات الصيام عفة اللسان عن السب والشتم والإساءة للنفس وللآخرين، لما أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنَّة[٢]، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث[٣] ولا يجهل[٤]، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم». ولفظ رواية مسلم: «إذا أصبح أحدكم صائماً لا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني مسلم».

ورواية حديث البيهقي: «إذا لم يدع الصائم قول الزور والعمل به

(١) أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وابن حبان والحاكم، وهو صحيح.

(٢) أي وقاية من المعاصي.

(٣) لا يُفحش في القول.

(٤) لا يفعل فعل الجاهلين.

والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». ورواية البخاري: «من لم يدع قول الزور». وفي حديث آخر رواه البيهقي عن أبي هريرة أيضاً: «رب قائم حظه من القيام السهر، ورب صائم حظه من الصيام الجوع والعطش».

وذكر البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الخاصة، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك وصومك سوءاً». وقال الإمام علي: «إن الصيام ليس من الطعام والشراب، ولكن من الكذب والباطل واللغو».

وهيبة الصيام ومكانته تمنع من انتهاك حرمته بمختلف النقائص والمفاسد، أخرج البيهقي في الشعب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخَّصها الله، لم يقضه عنه صيام الدهر».

وتشتد رعاية حال الصوم في العشر الأخير منه، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها تقول: «كان النبي ﷺ إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان أحيى الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المئزر». أي امتنع من مخالطة النساء الخاصة.

وروى مسلم عن عائشة أيضاً قالت: «كان النبي ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيرها».

ويشتمل العشر الأخير من رمضان في إحدى لياليه الفردية على ليلة القدر، التي خصص الله لها سورة قرآنية هي: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٩٧/ ١] السورة.

قال الحليمي رحمه الله: ومعنى ليلة القدر التي يقدِّر الله تعالى لملائكته جميع ما ينبغي أن يجري على أيديهم من تدبير بني آدم مَحْياهم ومماتهم إلى

ليلة القدر من السنة القابلة. وكان يدخل في هذه الجملة أيام حياة النبي ﷺ أن يُقدَّر فيها ما هو منزَّل من القرآن إلى مثلها من العام القابل.

وإنما قيل: (ليلة القدْر) بتسكين الدال لأنه لم يُرد به ليلة القضاء، فإنما القضاء سابق، وإنما أريد به تفصيل ما قد جرى به القضاء وتحديده، ليكون ما يلقى إلى الملائكة في السنة مقدراً بمقدار يحصُره علمهم.

ومن أوصاف هذه الليلة ما قال الله عز وجل في وصفها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٤٤/٣] أي يبارك الله فيها لأوليائه. وإنما جعلت خيراً من ألف شهر إذا أحياها الصائمون، وشغلوها بالصلاة وقراءة القرآن والأذكار، دون اللغو واللهو. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤٤/٣-٤] أي يبين فيها كل أمر على السداد والحكمة، والحكيم المحكم. وفي تلك الليلة يفرق أمر الدنيا إلى مثلها من العام القابل، أي عمل السنة إلى السنة، وفيها يغفر الله لمن يشاء، ويفصل فيها أمر السنة كلها من بلاء ورخاء ومعاش إلى مثلها من السنة.

وقد ابتدئ نزول القرآن في ليلة القدر، حيث أنزل الله عز وجل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر في موقع النجوم، ثم ينزله الله على رسوله تباعاً، بعضه إثر بعض.

قال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ١٣/٣٩]: يَنْزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان، فيدبر أمر السنة، فيمحو ما شاء غير الشقاوة والسعادة، والموت والحياة.

وقال مجاهد فيما رواه البيهقي: ذكر النبي ﷺ رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله عز وجل ألف شهر[١]، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله عز وجل هذه السورة.

---

(١) أي ٨٣ سنة وقرابة ثلث سنة.

وأخبر البيهقي عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ أري أعمال الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمال أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

وفضيلة ليلة القدر عظيمة وشاملة، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وتلتمس ليلة القدر في الوتر[١] من العشر الأواخر من شهر رمضان إلى يوم القيامة، لما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» وفي حديث آخر ذكره البيهقي: «إن الله لو شاء لأطلعكم عليها، التمسوها في السبع الأواخر».

معلومات ضرورية عن ليلة القدر

ليلة القدر ليلة الأمن والسلام والاطمئنان، وتنزَّل أفواج الملائكة فيها بأوامر الله المتعلقة بالعباد من التشريعات والأرزاق والآجال وتقادير الله وتنفيذ قضائه للسنة القادمة.

فلا يليق فيها التنازع والتخاصم والاختلاف، الذي كان سبباً في عدم تعيين تلك الليلة بنحو محدد، لما أخرج البخاري في الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج علينا نبي الله ﷺ يخبرنا بليلة القدر،

---

(١) أي الليالي الفردية لا الزوجية.

فتلاحى[١] رجلان من المسلمين، قال: «خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين فلان وفلان، فرُفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»[٢]. أي في ليالي التاسع والعشرين والسابع والعشرين والخامس والعشرين. وسبب إخفائها كما قال أبي بن كعب: ألا يتكل الناس على ليلة معينة.

وليس لليلة القدر علامات مؤكدة مادية واضحة كنور أو غيره، وإنما لها بعض الأمارات والقرائن، منها ما أخرجه مسلم أن العلامة التي قال رسول الله ﷺ: «إنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس ليس لها شعاع».

وأخرج البيهقي في الشُّعَب من طريق الطيالسي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلة سمحة طَلْقة، لا حارّة ولا باردة، تصبح شمسها صبيحتها ضعيفة حمراء».

وأخرج الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ في فضل ليلة القدر، ثم قال: «ومن أمارتها أنها ليلة بَلْجة[٣] صافية ساكنة، لا حارَّة ولا باردة، كأن فيها قمراً، وأن الشمس تطلع في صبيحتها مستوية لا شعاع لها». لكن إسناده ضعيف.

وقد تتغير بعض خواص الأشياء في ليلة القدر فقد ذكر البيهقي عن عبدة بن أبي لبابة قال: ذقت ماء البحر ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان، فإذا هو عذب. وذكر أيضاً عن أيوب بن خالد قال: كنت في البحر، فأحييت ليلة ثلاث وعشرين، فاغتسلت من ماء البحر، فوجدته عذباً فراتاً.

---

(١) تنازع.
(٢) وأخرجه أيضاً مالك، وكذا البيهقي من طريق أبي داوود الطيالسي، وروي معناه عن ابن عباس.
(٣) مضيئة مشرقة.

ويتجلى الله تعالى في ليلة القدر على عباده المؤمنين فيجيب أدعيتهم، لما روى البيهقي في شُعَبه عن ابن عباس في حديث طويل، جاء فيه: «أن الملائكة تؤمِّن على دعاء الداعين حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر ينادي جبريل: معاشر الملائكة، الرحيلَ الرحيلَ. فيقولون: يا جبريل فما صنع الله في حوائج المؤمنين من أمة أحمد ﷺ؟ فيقول جبريل: نظر الله إليهم في هذه الليلة، فعفا عنهم وغفر لهم إلا أربعة». فقلنا: يا رسول الله، من هم؟ قال: «رجل مدمن خمر، وعاقّ لوالديه، وقاطع رحم، ومشاحن». قلنا: ما المشاحن؟ قال: «هو المصارم». أي الذي يقطع العلاقة مع إخوته وأرحامه ويهجرهم.

وروى البيهقي عن علي رضي الله عنه قال: أنا حرَّضت عمر على القيام في شهر رمضان، فقال له عمر: يا أبا الحسن تحرِّض الناس على الصلاة حتى يصيبهم من البركة. فأمر الناس بالقيام، أي قيام رمضان.

وقال علي أيضاً: أخبرته (أخبرت عمر) أن في السماء السابعة حظيرة، يقال لها: حظيرة القدس، وفيها ملائكة يقال لهم الروحانيون، فإذا كان ليلة القدر، استأذنوا الرب عز وجل للنزول إلى الدنيا، فيأذن لهم، فلا يمرُّون بمسجد يصلى فيه، ولا يستقبلون أحداً في طريق إلا دعوا له، فأصابه منهم خير (أو بركة). قال عمر: أفلا تعرِّف الناس بالخير؟ فأمرهم بالقيام. وهذا الحديث يؤكده أخبار أخرى، كما قال الإمام أحمد، وسأذكر قوله.

والدعاء المسنون لليلة القدر هو كما روى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أرأيت إن وافقتُ ليلة القدر، فما أقول؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». قالها ثلاثاً.

وتدرك ليلة القدر بصلاة العشاء، أو المغرب والعشاء في جماعة، لقول سعيد بن المسيب: «من شهد العشاء ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها».

وفيه حديث مرفوع أخرجه ابن خزيمة عن علي ﷺ قال: «من صلى العَتَمة[1] كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ فقد قامه» أظنه أراد بالجماعة.

يؤكده ما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر».

وروى البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك قال: قال النبي الله ﷺ: «من صلى المغرب والعشاء في جماعة حتى ينقضي شهر رمضان، فقد أصاب من ليلة القدر بحظ وافر».

وأخرج البيهقي من طريق ابن عدي عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا سَلِم رمضان سلمت السنة، وإذا سلمت الجمعة سلمت الأيام»[2].

وصرح القرآن الكريم بنزول ملائكة الرحمة في ليلة القدر في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا[3] بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٩٧/ ٤-٥].

قال الإمام أحمد: هذا من حديث المسند، وفيه وفي مثله أخبار عن نزول الملائكة وتسليمهم على المسلمين ليلة القدر ودعائهم لهم، وفي كتاب الله تعالى بيان نزولهم وتسليمهم، جعلنا الله ممن يصيبه بركات هذه الليلة ودعوات هؤلاء الملائكة وتسليمهم بفضله ورحمته.

---

(١) أي العشاء.
(٢) لكنه حديث ضعيف.
(٣) هو جبريل عليه السلام، عطف خاص على عام لبيان منزلته وخصوصيته.

فضائل العيد

شرع العيد شكراً لله عز وجل على ما أنعم به على المؤمنين من التوفيق لأداء الطاعة واجتناب المعصية، وتجديداً لنشاط النفس وإضفاءً للبهجة والمتعة والسرور على الأسرة والأفراد والمجتمع، فكان العيد مشتملاً على العبادة وحب الله تعالى، وتذكيراً بالعهد على دوام الاستقامة والعمل الصالح فيما بعد العيد.

وليس في الإسلام وشرعه إلا عيدان: هما عيد الفطر وعيد الأضحى، وكان كل منهما عقب أداء فريضة، فعيد الفطر بعد أداء فريضة الصيام، وعيد الأضحى بعد أداء فريضة الحج والعمرة. أخرج البيهقي في السنن عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قدمتُ المدينة، ولأهل المدينة يومان يلعبون فيهما في الجاهلية، وإن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يومَ الفطر ويوم النحر».

وأخرج الحاكم عن أنس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أبدلكم يومين هذين خيراً منهما: الفطرَ والأضحى». وزاد الحسن البصري في الرواية فقال: أما يوم الفطر فصلاة وصدقة، يعني الصاع(١)، وأما يوم الأضحى فصلاة ونُسُك، يعني ذبائحكم.

وليلة العيد فيها الخير كيومه، لما رواه ابن ماجه عن أبي أمامة ﷺ،

---

(١) صاع الفطرة من قمح أو شعير أو تمر أو زبيب أو أقِط ونحوها من غالب قوت البلد، والصاع ٢١٧٥غم.

عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلتي العيدين محتسباً[١]، لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[٢]. أي يحيا حياة سعيدة، ويتنعم، ويرزق الخير كله، وتعمه رحمة ربه.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: وبلغنا أنه كان يقال: إن الدعاء يستجاب في خمس ليال: في ليلة الجمعة، وليلة الأضحى، وليلة الفطر، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان[٣]. وأضاف الشافعي أن ابن عمر كان يحيي ليلة العيد (ليلة جَمعْ) وكان مشيخة من خيار أهل المدينة يظهرون على مسجد النبي ﷺ ليلة العيد، فيَدْعون ويذكرون الله حتى يذهب ساعة من الليل.

ويسن لبس أحسن الثياب والتطيب في العيد، لما رواه البيهقي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نلبس أجود ما نجد، وأن نتطيب بأجود ما نجد، وأن نضحي بأسمن ما نجد، والبقرة عن سبعة، والجزور عن سبعة، وأن نُظهر التكبير، وعليه السكينة والوقار.

وتندب الصدقة والدعاء بالمغفرة في العيد، لما رواه البيهقي عن جعفر بن برقان قال: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز: تصدَّقوا قبل الصلاة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٤-١٥] وقولوا كما قال أبوكم (أي آدم): ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٣] وقولوا كما قال نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ٤٧] وقولوا كما قال إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٢] وقولوا كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ

(١) طالباً ثواب الله تعالى وحده.
(٢) رواته ثقات إلا أن بقية مدلس، وقد عنعنه.
(٣) وهذا مروي عن ابن عمر.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ٢٨/١٦] وقولوا كما قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٧] ومن لم يكن عنده ما يتصدق به فليصم بعد العيد.

وروى البيهقي أيضاً عن أدهم مولى عمر بن عبد العزيز قال: كنا نقول لعمر بن عبد العزيز في العيدين: تقبَّل الله منا ومنك يا أمير المؤمنين. فيردُ علينا ولا ينكر ذلك علينا.

ويسن الفطر في عيد الفطر قبل الصلاة وفي الأضحى بعد الصلاة، لما رواه البيهقي عن بُريدة أن النبي ﷺ كان لا يطعم يوم النحر حتى يرجع، من لحم نَسَكه[1]، ولا يخرج يوم الفطر حتى يأكل تمرات. وأخرج البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك يقول: «ما خرج رسول الله ﷺ يوم فطر حتى يأكل تمرات ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً أو أقل من ذلك، أو أكثر من ذلك».

وشكر النعمة يوم العيد مؤكد الطلب، لما رواه البيهقي عن محمد بن يزيد بن خُنيس قال: رأيت وهيب بن الورد صلى ذات يوم العيد، فلما انصرف الناس جعلوا يمرّون به، فينظر إليهم ثم زفَر، ثم قال: لئن كان هؤلاء القوم أصبحوا مستيقنين أنه قد تُقبل منهم شهرهم هذا، لكان ينبغي لهم أن يصبحوا مشاغيل بأداء الشكر، ولئن كانت الأخرى لقد كان ينبغي لهم أن يصبحوا أشغل وأشغل.

ويؤكده ما رواه البيهقي أيضاً عن عبد الله بن قَرَظ الأزدي، وكان من أصحاب النبي ﷺ سمعت النبي ﷺ على المنبر، وهو يقول في يوم أضحى أو فطر، ورأى على الناس ألوان الثياب، فقال: «يا لها من نعمة ما أسبغها، ويا لها من كرامة ما أظهرها، وإنه ما زال عن جادة قوم أشدُّ

---

(١) أي ذبحه.

من نعمة لا يستطيعون ردها، وإنما تثبت النعمة لشكر المنعَم عليه المنعِم».

وذكر البيهقي عن كعب الأحبار قال: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى إني ألهم في رمضان السماوات والأرضَ والجبالَ والطيرَ والدوابَّ والهوامَّ أن يستغفروا لصائمي رمضان... ثم قال: إني أقول لعبادي الذين صاموا رمضان: ارجعوا إلى رحالكم فقد أرضيتموني، وجعلت ثوابكم من صيامكم أن أعتقكم من النار، وأن أحاسبكم حساباً يسيراً، وأن أقيل لكم العثرة. وأن أُخلف لكم النفقة، وأن لا أفضحكم بين أحد، وعزتي لا تسألوني شيئاً بعد صيام رمضان، وموقفِكم هذا من آخرتكم إلا أعطيتكم. ولا تسألوني شيئاً من أمر دنياكم إلا نظرت لكم.

صوم الأشهر الحرم وعشر ذي الحجة

عظّم الله تعالى الأشهر في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦/٩] وعظم سبحانه أيضاً العشرة الأولى من شهر ذي الحجة بنحو خاص وهو من الأشهر الحرم، لذا يسن شرعاً صوم هذه الأيام إظهاراً للطاعة وابتغاء لمرضاة الله عز وجل.

أما صوم الأشهر الحرم، فلما أخرجه البيهقي في شعبه، من طريق أبي داوود السجستاني عن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها أنه أتى رسول الله ﷺ، ثم انطلق، فأتاه بعد سنة، وقد تغيرت حاله وهيئته، فقال رسول الله: «ومن أنت؟» قال: أنا الباهلي الذي جئتك عام الأول. قال: «فما غيَّرك وقد كنت حسن الهيئة؟» قال: ما أكلت طعاماً منذ فارقتك

إلا بليل. فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ عذَّبت نفسك؟ قال: صم شهر الصبر[1]، ويوماً من كل شهر». قال: زدني فإن بي قوة. قال: «صم يومين». قال: زدني فإن بي قوة. قال: «صم ثلاثة أيام». قال: زدني. قال: «صُمْ من الحُرُم واترك، صُمْ من الحُرُم واترك، صُمْ من الحُرُم واترك». وقال: بأصابعه الثلاثة، فضمها ثم أرسلها. وهو دليل على ندب صوم ثلاثة أيام من كل شهر من الأشهر الحرم، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

وأخرج البيهقي أيضاً عن كعب الأحبار قال: اختار الله عز وجل البلاد، فأحب البلدان إلى الله عز وجل البلد الحرام، واختار الله عز وجل الزمان، فأحب الزمان إلى الله الأشهر الحرم، وأحب الأشهر إلى الله ذو الحجة، وأحب ذي الحجة إلى الله تعالى العشر الأول منه، واختار الله الأيام، فأحب الأيام إلى الله يوم الجمعة، واختار الله الليالي فأحب الليالي إلى الله عز وجل ليلة القدر، واختار الله ساعات الليل والنهار، فأحب الساعات إلى الله ساعات الصلوات المكتوبات، واختار الله الكلام، فأحب الكلام إلى الله تعالى لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، من قال: لا إله إلا الله، فهي كلمة الإخلاص، كتب له بها عشرون حسنة، وحُط عنه عشرون سيئة، ومن قال: الله أكبر، فذاك جلال الله، كُتب له بها عشرون حسنة، ومُحي عنه بها عشرون سيئة، ومن قال: سبحان الله، قال الله عز وجل حين خلق خلقه واستوى على عرشه، سبح له عرشه، كتب له بها عشرون حسنة، ومُحي عنه بها عشرون سيئة. ومن قال: الحمد لله، فذاك ثناء الله، كتبَ الله له بها ثلاثين حسنة، ومحا عنه بها ثلاثين سيئة. واختار الشهور، فجعل منهن شهر رمضان، واختار البقاع، فجعل منها المساجد.

---

(١) أي شهر رمضان.

وروى البيهقي عن قيس بن عبّاد قال: الأشهر الحرم في اليوم العاشر من كل شهر منها أمر، فاليوم العاشر من ذي الحجة يوم النحر، واليوم العاشر من المحرم عاشوراء، واليوم العاشر من رجب يمحو الله ما يشاء ويثبت، ونسيت ما قال في ذي القعدة.

وأما عشر ذي الحجة فروى البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٨٩/١-٢] قال: «العشر عشر الأضحى، واليوم يوم عرفة، والشفع يوم النحر».

وفسر ابن عباس ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ قال: فجر النهار، ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: عشر الأضحى، ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ قال: لذي حجى.

وقال مسروق: العشر عشر الأضحى التي وعد الله عز وجل موسى عليه السلام، وأتممناها بعشر.

وروى البخاري والبيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام فيهن العمل أحب إلى الله عز وجل، وأفضل من أيام العشر». قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل جاهد في سبيل الله بماله ونفسه، فلم يرجع من ذلك بشيء».

زاد ابن عباس: فأكثروا فيهن من التهليل، والتحميد، والتكبير، والتسبيح.

وروى البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أفضل عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيها من التهليل، والتكبير، والتحميد».

وروى البيهقي عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان يصوم تسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر أول اثنين من الشهر وخميسين.

وروى البيهقي في شعبه أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الشهور شهر رمضان، وأعظمها حرمة ذو الحجة».

وفي رواية البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام من أيام الدنيا العملُ فيها أحب إلى الله أن يتعبد فيها من أيام العشر، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة، وقيام كل ليلة بقيام ليلة القدر». دل الحديث على أن صيام كل يوم من أيام عشر ذي الحجة يعدل صيام سنة.

وفي رواية أخرى للبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أفضل عند الله، ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل، والتكبير وذكر الله، فإنها أيام التهليل والتكبير وذكر الله، وإن صيام يوم منها يُعْدَل بصيام سنة، والعمل فيهن يضاعف سبع مئة ضعف». دل الحديث على فضيلة سنية صيام عشر ذي الحجة.

صيام يوم عرفة، والمحرَّم وعاشوراء

أكدت السنة النبوية على صيام يوم عرفة (الوقفة) وشهر الله الحرام المحرَّم وعاشوراء، لما فيها من فضائل وميزات. أما صوم يوم عرفة والإشادة به فلقوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣/٨٥] روي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً: أن المشهود يوم عرفة.

وروى البيهقي في شُعبه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الأيام عند الله يوم الجمعة، وهو شاهد، ومشهود يوم عرفة، واليوم الموعود يوم القيامة».

وأخرج مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال «صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله». وفي رواية أخرى يبلُغ به النبي ﷺ: «صوم يوم عرفة كفارة سنة، والتي يليها، وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما من يوم من السنة أصومه أحب إلي من يوم عرفة»(١).

وأخرج البيهقي في الشُّعَب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير».

وأخرج البيهقي في شُعبه أيضاً عن ابن عباس قال: «الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق»(٢).

وأما صوم شهر المحرم فلما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل».

وفي رواية لمسلم في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة: «أفضل صيام بعد شهر رمضان شهر الله الذي تَدْعونه المحرّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة في جوف الليل»(٣).

وأما صوم عاشوراء فلما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: قَدِم النبي ﷺ، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

(٢) وهو مروي أيضاً عن مجاهد.

(٣) وفسر ابن عباس آية: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٨٩/ ١-٢] الفجر: هو المحرم فجر السنة.

يصومونه؟» قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون فيه، فصامه موسى شكراً. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصيامه.

وصوم عاشوراء سُنَّة لا فرض، لما أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي في السنن، قال عبد الله بن عمر - وذُكر يوم عاشوراء عنده -: كان يوماً يصومه أهل الجاهلية، فمن أحب أن يصوم فليصمه، ومن أحب أن يدعه فليدعه.

وأخرج البيهقي في الشُّعب عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «صوم عاشوراء كفارة سنة، وصوم عرفة سنة قبلَه وسنة بعدَه». أي كفارة سنتين.

ويسن أن يكون الصوم في عاشوراء يومين يوماً قبله أو يوماً بعده، لما أخرجه مسلم وأبو داوود والبيهقي في شُعبه عن عبد الله بن عباس يقول: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يعظمه اليهود. فقال رسول الله ﷺ: «إذا كان العام المقبل إن شاء الله، صمنا يوم التاسع». فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ.

وأخرج مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لئن عشت إلى قابل صمت يوم عاشوراء ويوم التاسع». وروى البيهقي عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود. وفي حديث آخر رواه البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لئن بقيت لأمرت بصيام يوم قبله أو بعده يوم عاشوراء».

ويندب للمسلم أن يوسع على أهله يوم عاشوراء، لما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من وسّع على أهله يوم عاشوراء وسّع الله عليه سائر سنته».

وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من وسَّع على عياله وأهله يوم عاشوراء، وسّع الله عليه سائر سنته»[١].

يستفاد من هذه الأحاديث أن صوم يوم عرفة والمحرم والعاشر والتاسع من المحرم له ثواب عظيم، وفيه فائدة للصائم حيث وجد فاصل شهرين فأكثر بين رمضان وهذه الأيام.

والصيام قربة عظيمة إلى الله تعالى، وفيه ثواب كبير، فضلاً عن أن الصوم له فوائد صحية، واجتماعية، وأخلاقية تربوية، في رمضان وغيره، فمن كان قادراً على الصيام صام، والله راض عنه، ومن عجز عن الصيام يسّر الله له مجالات أخرى لكسب الثواب، وتجنب العذاب، لأن الله رحيم بعباده، وهو أدرى بهم، فمن فاتته فرصة طيبة للقرب من الله تعالى، هيّأ الله له فرصاً أخرى.

وقد تبين لنا أن صوم عاشوراء فيه دلالة سامية على تعاضد الأنبياء، وأن كل رسول يكمّل رسالة الرسول الذي سبقه.

وما أحرانا اليوم أن تكون صلتنا وثيقة بجميع الرسل الكرام في دعواتهم المباركة والتعلم منها علوماً ذات فائدة كبرى للإنسان.

الصوم في شهر رجب وشعبان

يسن صوم الأشهر الحرم الأربعة كلها أو بعضها لما لها من فضيلة عظيمة عند الله تعالى، وكانت هذه الأشهر أشهر سلام وأمان واستقرار في

---

(١) قال البيهقي في شعبه ٣/ ٣٦٦: هذه الأسانيد، وإن كانت ضعيفة، فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أخذت قوة، والله أعلم. وورد حديث أبي هريرة من طرق صحح بعضها الحافظ أبو الفضل بن ناصر.

الجاهلية، فلا يكون قتال بينهم، ولا يخاف بعضهم بعضاً، وكان الناس ينامون، وتأمن السبل، ثم أذن الله تعالى في قتال المشركين في جميع الأوقات لرد العدوان، وبقيت حرمة الأشهر الحرم في مضاعفة الأجور والأوزار، حين خص الله تعالى هذه الأشهر بزيادة منع الظلم فيها، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٩/٣٦]. ولذلك جعل الإمام الشافعي رحمه الله دية القتل الخطأ دية مغلظة في هذه الأشهر، وروي ذلك عن ابن عمر وابن عباس ﵄. قال ابن عباس: لا تظلموا أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حُرُماً، وعظم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم.

وعدد هذه الأشهر وتعيينها وارد في حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات. ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقد ثبت في السنة النبوية صوم شهر رجبَ فيما أخرجه مسلم في الصحيح عن عثمان بن حكيم قال: سألت سعيد بن جبير عن صوم رجب كيف ترى فيه؟ قال: حدثني ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم.

وأخرج البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك ﵁ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة نهراً يقال له رجب، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من صام من رجب يوماً، سقاه الله من ذلك النهر».

وقال أبو قلابة: في الجنة قصر لصوام رجب[١]. وقال قيس بن أبي حازم عن شهر رجب: كنا نسميه الأصم في الجاهلية من حرمته وشدة حرمته في أنفسنا.

ويسن صوم النصف الأول من شهر شعبان، ويحرم الصيام في النصف الثاني منه إلا لمعتاد صوم أيام معينة كيومي الاثنين والخميس، لقوله ﷺ: «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا حتى يكون رمضان»[٢]. أي ليتقوى الإنسان ويستعدّ لصيام رمضان.

لكن كان النبي ﷺ بصفة الخصوصية له يصوم أكثر شهر شعبان أو كله، لما أخرجه البخاري ومسلم من حديث مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل شهراً قط إلا رمضان، وما رأيت أكثر صياماً منه في شعبان.

وأخرج البيهقي عن عائشة تقول: أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصوم شعبان ثم يصله برمضان.

وأخرج البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، أي الصوم أفضل؟ قال: «صوم شعبان تعظيماً لرمضان» قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «صدقة في رمضان».

وأخبر البيهقي عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، إني أراك تصوم في شهر ما لا أراك تصوم في شهر ما تصوم فيه. قال: «أي شهر؟» قلت: شعبان. قال: «شعبان بين رجب وشهر رمضان يغفل الناس عنه،

---

(١) قال أحمد: وإن كان موقوفاً على أبي قلابة - وهو من التابعين- فمثله لا يقول ذلك إلا عن بلاغ عمن فوقه ممن يأتيه الوحي.

(٢) اخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

يُرفع فيه أعمال العباد، فأُحب ألا يرفع عملي إلا وأنا صائم». قلت: أراك تصوم يوم الاثنين والخميس فلا تدعهما؟ قال: «إن أعمال العباد ترفع، فأُحب ألا يرفع عملي إلا وأنا صائم».

وأما ليلة النصف من شعبان فلها فضيلة لما رواه ابن ماجه عن علي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها، وصوموا يومها، فإن الله تبارك وتعالى ينزل فيها[1] لغروب الشمس إلى السماء الدنيا، فيقول: ألا من مبتلى فأعافيه؟ ألا كذا، ألا كذا، حتى تطلع الشمس ».

قال الإمام أحمد: وهذا النزول المراد به - والله أعلم - فعلاً، سماه الرسول عليه السلام نزولاً، بلا انتقال ولا زوال، أو أراد به نزول ملَك من ملائكته بأمره.

وروى البيهقي عن أبي بكر الصديق ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا ليلة النصف من شعبان، فيغفر لكل شيء إلا رجل مشرك أو رجل في قلبه شحناء». أي شرير يثير الشقاق بين المتحابين.

ورواه الطبراني وابن حبان في صحيحه عن معاذ بن جبل ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يطّلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشركٍ أو مشاحن».

وروى البيهقي عن عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان، فإذا منادٍ: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ فلا يسأل أحدٌ إلا أعطي إلا زانية بفرجها أو مشرك».

---

(١) أي تتدفق فيها رحماته وبركاته ونعمه، وتفتح فيها أبواب السماء، فيستجاب الدعاء.

صوم بعض الأيام

أفضل الصيام المتطوع به هو صوم ثلاثة أيام من كل شهر، أو صوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صوم يوم وإفطار يوم وهو صيام داوود عليه السلام.

أما صوم ثلاثة أيام من كل شهر فلما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: الوتر قبل النوم، وصوم ثلاثة أيام من الشهر، ومن الضحى ركعتين». أرشد الحديث إلى فضيلة المداومة على صيام ثلاثة أيام شهرياً، وعلى صلاة الوتر والضحى يومياً.

ويؤكده ما روى أبو داوود الطيالسي عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، وصيام عرفة، إني أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصوم عاشوراء، إني أحتسب على الله أن يكفِّر السنة التي قبله». دل الحديث على فضيلة صيام ثلاثة أيام في الشهر، وعلى فضيلة صيام عرفة، وصوم عاشوراء.

وأخرج مسلم في الصحيح في الحديث المتقدم عن أبي قتادة زيادة: قال: يا رسول الله، أرأيت صوم الاثنين والخميس؟ قال: «فيه (أي الاثنين) ولدت، وفيه أنزل علي القرآن».

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وصام داوود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر، وأفطر الدهر».

وفي رواية للبيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثاً من غُرة كل شهر، وقلّ ما يفوته صوم يوم الجمعة.

وروى البيهقي عن أبي ذر قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصيام ثلاثة أيام البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة.

وروى مسلم في الصحيح عن معاذة قالت: قلت لعائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم. قلت: من أي الشهر؟ قالت: ما كان يبالي من أي الشهر كان يصوم.

وصوم الثلاثة أيام يجزئ عن صوم الشهر، لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٠].

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صوم شهر الصبر، وثلاثةِ أيام من كل شهر، حسبته قال: صوم الدهر، ولكن هذا الذي لا شك فيه يذهب مَغِلّة الصدر، قلت: ما مَغِلّة الصدر؟ قال: رجز الشيطان».

وأما صوم يومي الاثنين والخميس فيسن أيضاً لما رواه البيهقي في شُعبه عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ يصوم الاثنين والخميس، فقلت: يا رسول الله، ما شأنك تصوم الاثنين والخميس؟ فقال: «إن أعمال الناس تعرض يوم الاثنين والخميس».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تفتح أبواب السماء في كلِّ اثنين وخميس، فيُغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرؤ بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنْظِر هذين حتى يصطلحا».

وأما صوم يوم الجمعة فيكره إفراده بالصوم، لما رواه البيهقي في كتاب السنن من النهي عن إفراد الجمعة بالصوم حتى يصوم قبله أو بعده

يوماً. ويؤكده ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم».

وفي رواية للبيهقي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن يوم الجمعة يوم عيد وذِكْر، فلا تجعلوا عيدكم يومَ صيام، ولكن اجعلوه يوم الذِّكْر إلا أن تخلطوه بالأيام».

وأما قضية عرض الأعمال على الله يومي الاثنين والخميس فهو عرض صوري، لأن الله غني عن عرض الملائكة وهو أعلم بما يكتبون، وبما عمل العباد. قال الحليمي رحمه الله في شأن عرض الأعمال: يحتمل أن الملائكة الموكلين بأعمال بني آدم يتناوبون، فيقيم معهم فريق من الاثنين إلى الخميس، ثم يعرجُون، وفريق من الخميس إلى الاثنين ثم يعرجُون، وكلما عرج أحد الفريقين، قرأ ما كتب في الموقف الذي له في السماوات، فيكون ذلك عرضاً في الصورة، ويحتسبه الله عبادة للملائكة، ومن العباد. فأما هو في نفسه جل جلاله، فغني عن عرضهم ونسْخهم، وهو أعلم بما كسب العباد منهم.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: وهذا (أي كلام الحليمي) أصح ما قيل في ذلك، والأشبه أن يكون توكيل ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، بأعمال بني آدم، عبادة تعبدوا بها، ويكون المعنى في العرض: خروجهم من عهدة الطاعة، ثم قد يظهر الله تعالى لهم ما يريد أن يفعل بمن عُرِض عمله، فيكون المعنى في غفرانه إظهاره ذلك للملائكة، والله أعلم.

يلاحظ مما تقدم أن الله تعالى رحيم بعباده، فلم يكلفهم شيئاً قد يتعارض مع أعمالهم الدنيوية، وإنما كلفهم ما يطيقون، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر، أو صوم يومي الاثنين والخميس هو عمل يسير يتناسب مع أداء كل إنسان عمله دون مشقة ولا إحراج.

والله عليم تام العلم بكل شيء يقع في الكون، من صغائر الأعمال وكبارها، والجزئيات والكليات، وجميع أعمال العباد، فيكون عرض الأعمال من الملائكة على الله تعالى عملاً صورياً، وإبراء للذمة، وأداء للواجب.

صوم شوال وبعض الأيام

التطوع في الصيام يزيد الإنسان قرباً من الله تعالى، ويظفر بجنان الخلد، لأن الصوم يحقق منافع جسدية وروحية وأدبية، ففي الصوم صحة وعافية، وفي الصوم صفاء وتشبّه بالملائكة الكرام، وفي الصوم كبح الشهوات والأهواء، وضبط اللسان والسلوك، وامتناع عن المعاصي والموبقات.

لذا سنّ النبي ﷺ صيام بعض الأشهر، كالأشهر الحرم وشوال، وصوم بعض الأيام كالأربعاء والخميس والجمعة متتابعة.

أخرج البيهقي من طريق أبي داوود عن مسلم بن عبيد الله القرشي أن أباه أخبره أنه سأل النبي ﷺ عن الصوم، فقال: يا رسول الله، أصوم الدهر كله؟ فسكت عنه، ثم سأله الثانية، ثم سأله الثالثة، فقال: يا نبي الله أصوم الدهر كله؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك: «من السائل عن الصوم؟» فقال: أنا يا نبي الله. فقال: «إن لأهلك عليك حقاً، صم رمضان والذي يليه، وكلَّ أربعاء وخميس، فإذا أنت قد صمت الدهر».

وروى النسائي عن عكرمة بن خالد عن عريف من عرفاء قريش عن

أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من صام رمضان وشوال والأربعاء والخميس دخل الجنة»[١].

وأخرج البيهقي في السنن - وضعَّفه - عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «من صام يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وتصدق بما قل أو كثر، غفر الله له ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وكان عبد الله بن عباس يستحب أن يصوم الأربعاء والخميس والجمعة، ويخبر أن النبي ﷺ كان يأمر بصومهن، وأن يتصدق بما قل أو كثر، فإن فيه الفضل الكثير.

ويندب مطلقاً الصوم في سبيل الله، لما أخرجه أحمد وأصحاب الكتب الستة إلا أبا داوود عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله، باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً». وفي رواية أخرى لمسلم: «ما من عبد صام في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً».

لكن القصد (أو الاعتدال أو التخفيف) في العبادة ومنها الصوم أفضل، لما رواه البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أخبر رسول الله ﷺ: أني أقول[٢]: لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت. فقلت له: قد قلتُ بأبي أنت وأمي. قال: «فإنك لن تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وصل ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر». قال: فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فصم يوماً وأفطر يوماً. وذلك صيام داوود، وهو أعدل

(١) وهذا وما قبله ضعيف.
(٢) أي ابن عمرو.

الصيام». قال: فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك».

وروى البخاري والنسائي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدين يُسْر، ولن يغالب الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة والروحة وشيء من الدلجة». أي الليل.

وروى البيهقي في شعبه عن سهل بن حُنيف أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشددوا على أنفسكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بتشديدهم على أنفسهم، وستجدون بقاياهم في الصوامع والديارات».

وروى البيهقي أيضاً عن أم سلمة قالت: كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ الدائم وإن قل.

وروى أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تكرِّهوا عبادة الله إلى عباده، فإن المنبتّ لا يقطع سفراً، ولا يستبقي ظهراً». والصحيح أن هذا الحديث مرسل عن محمد بن المنكدر، أي ليس عن عائشة.

وأخبر البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغِّض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبتّ لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى، فاعمل عمل امرئ تظن أن لن يموت أبداً، واحذر حذراً تخشى أن تموت غداً».

وذكر البيهقي عن معبد الجهني، عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «العلم أفضل من العمل، وخير الأعمال أوسطها، ودين الله عز وجل بين القاسي والغالي[١]، والحسنة بين السيئتين لا ينالها إلا بالله، وشر السير الحقحقة». أي أرفع السير وأتعبه للظهر.

---

(١) أي بين القليل الجاف الذي فيه تقصير، والمغالى فيه.

وفي حديث مطرف بن عبد الله فيما رواه البيهقي: «العلم أفضل من العمل، والحسنة بين السيئتين، وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقحقة». والمراد كما قال أبو عبيد: أن الغلو في العمل سيئة، والتقصير عنه سيئة، والحسنة بينهما وهو القصد، أي الاعتدال.

وأخرج البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب أن تؤتى رُخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه». وفي رواية أخرى: «إن الله يحب أن تؤتى رُخَصه، كما لا يحب أن تؤتى معصيته».

إدامة الصيام في غير العيدين وسنن الإفطار

لا مانع من مداومة الصيام بشرطين: الأول - ألا يخاف على نفسه ضعفاً، والثاني - أن يفطر أيام العيدين وهي يوم الفطر والأضحى وثلاثة أيام التشريق، لما ورد في فضائل الصوم وميزاته وكثرة ثوابه من أخبار وآثار.

منها ما أخرجه أحمد والبيهقي في سننه وشعبه، وابن خزيمة في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ﵁، عن النبي ﷺ قال: «من صام الدهر ضيقت عليه جهنم». وقبض أصابعه كلها. أي ضيقت عنه جهنم ومنعت منه، حتى لا يدخلها من غير أي استثناء.

وأخرج البيهقي في شعبه أيضاً عن أبي مالك الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدها الله لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وتابع الصيام،

وصلى بالليل والناس نيام». وفي رواية: «طيب الكلام، وإدامة الصيام، والحج كل عام، ولا يقرب منه - أي من الجهاد - شيء بعد».

وأخرج البيهقي في شعبه عن أبي أمامة قال: قلت: يا رسول الله مُرْني بعمل آخذه عنك ينفعني الله به. قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له». فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلْقون إلا صياماً، فإذا رأوا ناراً أو دخاناً من منزلهم، عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف.

وأما النهي عن صوم الدهر أو صوم الوصال فهو نهي للكراهة، لا للتحريم كما قال البيهقي.

وكان رسول الله ﷺ - فيما رواه البيهقي عن أبي هريرة - يواصل من السحر إلى السحر[1]، ففعل ذلك بعض أصحابه، فنهاه. فقال: أنت يا رسول الله تفعل ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «إنكم لستم مثلي، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»، فأُكْلفوا من الأعمال ما يطيقونه.

وهدي النبي ﷺ في الإفطار هو كما روى البيهقي عن سلمان بن عامر الضبي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر، فإن لم يجد فعلى ماء، فإن الماء طهور».

والسنة الإفطار قبل صلاة المغرب، لما رواه البيهقي عن أنس قال: «ما رأيت النبي ﷺ صلى المغرب وهو صائم، حتى يفطر ولو على شَرْبة ماء».

وعن أنس أيضاً: «أن النبي ﷺ كان يفطر قبل أن يصلي على رُطبات، فإن لم يكن فتمرات، فإن لم يكن حثا حَثَيات من ماء».

وأما ما يقوله الصائم عند فطره فهو الدعاء المأثور، فيما رواه البيهقي في شعبه عن معاذ بن جبل قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت، ورزقني فأفطرت». وفي رواية أخرى

---

(١) أي اليوم كله من غير إفطار بعد غروب.

للبيهقي عن معاذ بن زهرة أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا أفطر قال: «اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت». وروى البيهقي عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أفطر قال: «ذهب الظمأ، وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله».

وقال ابن عمر فيما أخرجه ابن عدي: كان يقال: إن لكل مؤمن دعوة مستجابة عند إفطاره إما أن يعجل له في دنياه، أو يدخر له في آخرته. فكان ابن عمر يقول عند إفطاره: يا واسع المغفرة، اغفر لي.

وروى البيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». وكان ابن مسعود يقول عند فطره: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي». أو «تغفر لي ذنوبي». كما أخرجه الحاكم.

وأخرج البيهقي من طريق الطيالسي من ابن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا.

ويسن التسحر لما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السُّحور بركة».

ويندب تعجيل الفطر بعد أذان المغرب، لما رواه البيهقي عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر». وأخرج البيهقي وأبو داوود وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، إن اليهود والنصارى يؤخرون».

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر، ولم يؤخروه تأخير أهل المشرق».

هذه الآداب الشرعية في الترغيب بالصيام، وكيفية الإفطار على تمر وماء، والدعاء بعد الفطر، والتسحر، وتعجيل الفطر بعد الأذان دون تأخير، هي كلها لمصلحة الصائمين، ومن أجلهم، ولتبشيرهم بالظفر برضوان الله تعالى وثوابه، فالصيام جُنة أي وقاية من العذاب، وثواب الصيام عند الله كبير ومفتوح مقداره، متروك لفضل الله وإحسانه وكرمه ورحمته، ولا يقتصر الصيام على شهر رمضان، وإنما هو مندوب خلال العام، سواء في الأشهر الحرم، أم كل شهر ثلاثة أيام، أم صيام يوم وإفطار يوم، أو صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صوم الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر قمري.

مجاهدة النفس في الصيام وثواب من فطر صائماً

الصوم مثل غيره من العبادات المفروضة في الإسلام يشتمل على مشقة لكنها مشقة معتادة مألوفة، تتحملها النفس الإنسانية دون أن تلحق بها ضرراً أو تفسد عليها منفعة. وتحمل هذه المشقة مطلوب حتى يظفر الإنسان بالثواب العظيم، وبرضوان الله عز وجل، وبفضله وإحسانه.

وهذا الفضل واضح المعالم في نصوص الشريعة، مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤] فسر بعضهم ذلك بقوله: الصوم.

وأخرج البيهقي في شعبه عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من منعه الصيام من الطعام أو الشراب يشتهيه، أطعمه الله من ثمار الجنة، وسقاه من شرابها».

وفي الشُّعَب للبيهقي عن ابن مسعود قال لقوم صائمين: لكن أنا لست بصائم، ثم أخذ شراباً وشربه، ثم قال: يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وكان أبو موسى الأشعري - كما ذكر البيهقي أيضاً - لا يلقاه أصحابه إلا صار صائماً في يوم حار. وقال: أفلا أخبركم بقضاءٍ قضاه الله على نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فإن الله قضى على نفسه أيُّما عبد عطّش نفسه لله عز وجل في الدنيا يوماً، فإن حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة.

وقال علي ﷺ - فيما ذكره البيهقي -: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن أخبر قومك: أن ليس عبد يصوم يوماً ابتغاء وجهي إلا أصححت جسده، وأعظمت أجره».

وقال أبو ذر كما عند البيهقي: يا أيها الناس، إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق، صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا في الدنيا لحر يوم النشور، وتصدقوا مخافة يوم عسير، يا أيها الناس إني لكم ناصح، إني عليكم شفيق.

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب، وذنبه مغفور».

وأخبر البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الشتاء ربيع المؤمن، قصر نهاره فصام، وطال ليله فقام». وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصوم في الشتاء الغنيمة الباردة»[1]. ودعا قوم رجلاً إلى طعام، فقال: إني صائم. فقالوا: أفطر اليوم، وصم غداً. فقال: ومن لي بغد؟

---

(١) وهو مروي أيضاً عن أنس وغيره.

ومن فطّر غيره كان له مثل ثوابه، لما رواه البيهقي وغيره عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطر صائماً كان له مثل أجره، من غير أن ينتقص من أجر الصائم شيئاً، ومن جهّز غازياً أو خَلَفه من أهله، كان له مثل أجره، من غير أن ينتقص من أجر الغازي شيئاً». دل على أن الإسهام في فعل الخير يكون ثوابه كالفاعل الأصلي، وينطبق هذا على شخصين: الصائم، وإمداد أهل المجاهد في سبيل الله.

وذكر البيهقي أيضاً عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «من فطّر صائماً في رمضان، من كسب حلال، صلت عليه الملائكة ليالي رمضان كلّها، وصافحه جبريل عليه السلام ليلة الفطر، ومن صافحه جبريل تكثر دموعه، ويرق قلبه». فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: «فلقمةٌ خبزاً أو كِسرة خبز[1]» قال: أفرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: «فقبضة من طعام». قال: أفرأيت إن لم يكن ذلك عنده؟ قال: «فمَذْقة من لبن». قال: أفرأيت من لم يكن ذاك عنده؟ قال: «فشربة من ماء».

وروى البيهقي عن العلاء وأبي الجهم قالا: كان الحسن بن علي جالساً بعد صلاة الصبح في المسجد، فأتاه رجل فدعاه وجلساءه إلى طعام، فأضرب عنه، ثم عاد فدعاه، فقال الحسن لجلسائه: قوموا فما منعني أن أجيبه في المرة الأولى إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى الغداة[2]، ثم ذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين أو أربع ركعات، لم تمس جِلْده النار». وأخذ الحسن بجلده، فمدّه، فإذا الذي دعاهم عبد الله بن الزبير، فلما وضع الطعام، قال

(١) شك من الراوي.
(٢) أي صلاة الصبح.

الحسن: إني صائم. فقال ابن الزبير: أتحفوه بتحفة، فأتي بغالية[1] ومِجْمَر[2]، فطُيِّب وأجمر. أي عطروه بالرائحة الزكية. وهذا إكرام له لصومه.

ذكر البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «تحفة الصائم الدُّهن والمِجْمر». أي الطيب والبخور ونحوهما، فتدهن لحيته وتجمر ثيابه.

إن إكرام الصائم في الدنيا والآخرة مندوب مرغوب فيه، لأن الصائم جاهد نفسه، وتحمل مشاق الصوم، والحرِّ أو البرد، والجوعِ والعطش، فمن أكرم الصائم بالإفطار أو غيرِه، كان له مثل ثوابه.

وعند الله تعالى الثواب الجزيل للصائم، حيث ترك الله تحديد ثوابه بمقدار معين، وجعل الثوابِ متروكاً لكرمه وجوده سبحانه وتعالى.

وهذا يدل على فضيلة الصيام وفائدته، فهو يصحح الجسد، ويزيل الضرر، ويكون مدعاة للثواب الإلهي المفتوح، ولدخول الجنان، والابتعاد عن النيران وألوان العذاب والهلاك.

---

(١) الطيب أو المسك.

(٢) اسم الشيء الذي يجعل فيه البخور أو الطيب، أو الجمر.

الأصل الثالث والعشرون من أصول الإيمان

الاعتكاف في المساجد

يسن الاعتكاف في المساجد ولا سيما في العشر الأواخر من رمضان، فالاعتكاف مشروع، وهو المكث أو اللبث في المسجد بِنِيَّةٍ ولو لفترة قصيرة، ويسن معه الصوم عند الجمهور وأوجبه الحنفية والمالكية، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٥] ومنع الله تعالى في أثناء الاعتكاف الاستمتاع بالنساء، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٧]. وجعل الله تعالى المسجد الحرام مكاناً محايداً يتساوى فيه جميع الناس في العبادة والاعتكاف، لقوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٥].

والاعتكاف بتخصيص الوقت كله للعبادة وتلاوة القرآن والأذكار فيه إشراقة النفس بالإيمان، والتأمل في عظمة الخالق والكون، وتقوية الصلة بالله سبحانه، والتوصل إلى صفاء القلب والعبودية لله عز وجل. لذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يعتكف في مسجده النبوي بالمدينة المنورة وفي المسجد الحرام، وبخاصة في أواخر رمضان، روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يعتكف عشراً في رمضان».

وفي رواية: «يعتكف من كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام المقبل الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً».

وملازمة الاعتكاف في رمضان سنة نبوية، أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده. قال عروة بن الزبير: والسُّنَّة في المعتكف ألا يخرج إلا للحاجة التي لا بد منها، ولا يعود مريضاً، ولا يمس امرأة، ولا يباشرها، ولا اعتكاف إلا في مسجد جماعة. والسنة في المعتكف أن يصوم كما تقدم.

ومن نذر الاعتكاف وجب عليه، ووجب عليه عند الحنفية والمالكية الصيام، أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قال عمر بن الخطاب: نذرت أن أعتكف في المسجد الحرام، فلما أسلمت سألت النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «أوفِ بنذرك».

وللاعتكاف ثواب شامل للحسنات كلها، لأنه هَجْر الذنوب، لحديث رواه البيهقي في شعبه[1] عن ابن عباس أنه قال في المعتكف: إنه معتكف الذنوب، ويجري له من الأجر كأجر عامل الحسنات كلها.

وروى البيهقي أيضاً[2] عن ابن عباس أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ، فأتاه رجل، فسلَّم عليه، ثم جلس، فقال له ابن عباس: يا فلان، أراك مكتئباً حزيناً. قال: نعم يا ابن عم رسول الله لفلان علي حق، وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه. قال ابن عباس: أفلا أكلمه فيك؟ قال: إن أحببت. قال: فانتعل ابن عباس، ثم خرج من المسجد،

---

(١) وقال: وفيه ضعف.

(٢) ورواه أيضاً الطبراني في الأوسط، والحاكم مختصراً وقال: صحيح الإسناد، كذا قال.

فقال له الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ قال: لا، ولكني سمعت صاحب هذا القبر ﷺ، والعهد به قريب، فدمعت عيناه، وهو يقول: «من مشى في حاجة أخيه، وبلغ فيها، كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، أبعد ما بين الخافقين»[(١)].

قال الشيخ مصطفى عمارة رحمه الله: إن من جلس لعبادة الله طول يوم، قاصداً إرضاء الله ورضوانه، أبعد الله المسافة بينه وبين النار بُعْد ما بين المشرق والمغرب، أو بُعْد ما بين الأرض والسماء. وخوافق السماء الجهات التي تخرج منها الرياح الأربع. وفي هذا الحديث بيان فضل قضاء حاجات المسلمين، والشفاعة لهم، والإصلاح بينهم، وعلو المنزلة، وزيادة الدرجات لمن يجيب رجاء الطالبين، وأن الزمن الذي يصرف في ذلك يساوي أضعاف أضعاف غيره من ذكر وصلاة من أنواع العبادة.

وروى البيهقي[(٢)] عن علي بن حسين عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اعتكف عشراً في رمضان كان كحجتين وعمرتين». وضَعْف هذين الحديثين لا يمنع من الأخذ بهما في فضائل الأعمال.

قال عطاء - كما ذكر البيهقي -: إن مثَل المعتكف مثَل المحرم، ألقى نفسه بين يدي الرحمن، فقال: والله لا أبرح حتى ترحمني.

إن الترغيب في الاعتكاف في كتاب الله وسنة نبيه يدل على فضيلة الاعتكاف لتخصيص الإنسان نفسه لطاعة الله تعالى، وفراغها له، مما يحقق للمعتكف التعرض لتجليات الله سبحانه، واستدرار فضله

(١) لكن فيه ضعف.
(٢) وإسناده ضعيف.

وإحسانه، وإصابة رحمته ورضوانه، وما يزال الاعتكاف في المساجد له أهمية في كل عصر وزمان، وبخاصة في المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، حيث تمتلئ الأمكنة والبقاع بالعاكفين والراكعين والساجدين والداعين والمستغفرين والتائبين وقارئي القرآن المجيد والذاكرين الله كثيراً. أما المرأة فلها الاعتكاف في مسجد بيتها، فذلك يحقق لها الثواب نفسه.

الأصل الرابع والعشرون من أصول الإيمان

مناسك الحج

الحج كما هو معروف فرض من فرائض الإسلام وأركانه الخمس التي لا يصح الإسلام من دونها، لقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٢/٢٦-٢٧] وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٣/٩٧].

والعمرة فرض أيضاً كالحج، لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٦] والفارق بين المسلمين والكافرين أن المسلمين يؤمنون بفريضة الحج، وأما الكافرون فلا يؤمنون بذلك، روى البيهقي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: من كفر بالحج فلم يَرَ حجَّه براً، ولا تركه مأثماً.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٣/٨٥]: لما نزلت هذه الآية قال أهل الملل كلهم: نحن مسلمون، فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ يعني على الناس كلهم، فحجَّ المسلمون وترك المشركون، أي فمن ترك الحج من أهل الملل فإن الله غني عنهم.

وكون الحج من أركان الإسلام لما أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان».

وأخرج البخاري ومسلم رحمهما الله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ جاء رجل، فقال: يا محمد، ما الإسلام؟ قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وتتم الوضوء، وتصوم رمضان». قال: فإن فعلتُ هذا فأنا مسلم؟ قال: «نعم». قال: صدقت.

وأخرج الترمذي رحمه الله عن ابن عمر قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: «الزاد والراحلة». وقيل له: ما الحاجّ؟ قال: «الشُّعث الغُبْر التُّفل»[1]. وسئل: أي الحج أفضل؟ قال: «العج والثج». أي رفع الصوت بالتلبية وإراقة دماء الهدْي من شاة وغيره إلى فقراء الحرم.

وأخرج البيهقي رحمه الله عن ابن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني. فقال: «تعبد الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج وتعتمر، وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية وإياك والسر».

وذُكر هذا الحديث موقوفاً على عمر رضي الله عنه، مرسلاً من حديث الحسن البصري[2] قال: جاء أعرابي إلى عمر، فسأله عن الدين، فقال: يا أمير

---

(١) أي الذين تظهر عليهم آثار السفر من الخشونة والغبرة على الرأس وغيره.

(٢) وهذا أصح من رواية ابن عمر المتقدمة، وكونه مرسلاً لأن الحسن لم يدرك عمر.

المؤمنين، علِّمني الدين. قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وعليك بالعلانية، وإياك والسر، وإياك وكل شيء يُسْتحى منه. قال: وإذا لقيت الله قُلْ: أمرني بهذا عمر بن الخطاب.

وروى البيهقي عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة يبلغ به إلى بيت الله، فلم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وذلك أن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾»(١).

ويجوز الحج راكباً وماشياً بحسب السعة المالية والقدرة على المشي، روى البيهقي في شعبه عن ابن عباس قال: عباد الله انتهوا بالتحية إلى ما قال الله عز وجل: ورحمة الله وبركاته. ثم قال ابن عباس: ما آسى على شيء فاتني من الدنيا إلا أني لم أحج ماشياً، حتى أدركني الكبر، أسمعُ الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٢/٢٧] أي ماشين أو راكبين على الخيل أو الإبل وغيرهما.

وذكر البيهقي أيضاً عن زاذان قال: مرض ابن عباس، فدعا ولده، فجمعهم فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حج من مكة ماشياً حتى يرجع إلى مكة، كتب الله عز وجل له بكل خطوة سبع مئة حسنة مثل حسنات الحرم». قيل: وما حسنات الحرم؟ قال: «بكل حسنة مئة ألف حسنة»(٢).

والملحوظ من حال الحجاج والعمار وأعدادهم التي تفوق كل عام الثلاثة ملايين أنهم جميعاً في ضيافة الله مغتبطون مسرورون مستمتعون بأداء الطاعة ومناسك الحج كلها، كما شرعها الإسلام وأوضحها النبي

---

(١) تفرد به هلال أبو هاشم مولى ربيعة بن عمرو عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي.

(٢) تفرد به عيسى بن سوادة عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان.

العدنان صلوات الله وسلامه عليه، ففي الحج صفاء ومتعة لا نظير لها، وفي النظر إلى الكعبة المشرفة والتأمل فيها استضاءة القلب بالإيمان، وفي أعمال الحج وشعائره كلها طاعة للرحمن وحب لله تعالى، بدءاً من الطواف والسعي بين الصفا والمروة، ثم الوقوف بعرفات والمزدلفة والمبيت في منى، ورمي الجمار، وغير ذلك من المشاهد وآثار الوحي الإلهي للنبي ﷺ، كل ذلك إعلان لطاعة الله وعبوديته وحده، وإرغام وإذلال للشيطان، وإحياء لسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

تاريخ الكعبة والمسجد الحرام والحرم كله

الكعبة المشرفة أو البيت الحرام أول مكان وجد للعبادة في التاريخ، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦-٩٧].

يوضحه حديث البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم المسجد الأقصى». قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، فأينما أدركْتَ الصلاة فصل، فهو مسجد».

وأخبر البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: خُلق البيت قبل الأرض بألفي عام، ثم دحيت الأرض منه. وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت، ثم مُدَّت منه الأرض، وإن أول جبل وضعه الله عز وجل على وجه الأرض أبو قبيس، ثم مدت منه الأرض». وروى البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك أن

رسول الله ﷺ قال: «كان موضع البيت في زمن آدم عليه السلام شبراً أو أكثر عَلَماً[١]، فكانت الملائكة تحجّ إليه قبل آدم، ثم حج آدم، فاستقبلته الملائكة. قالوا: يا آدم، من أين جئت؟ قال: حججتُ البيت، فقالوا: قد حجَّته الملائكة قبلك».

وفي إسناد آخر عن عطاء قال: «أُهبط آدم بالهند، فقال: يا رب، ما لي لا أسمع صوت الملائكة، كما كنت أسمعها في الجنة؟ فقال له: بخطيئتك يا آدم، فانطلقْ، فابن لك بيتاً تطوف به، كما رأيتهم يتطوفون، فانطلق حتى أتى مكة، فبنى البيت، فكان موضع قَدَمي آدم قرى وأنهاراً وعمارة، وما بين خطاه مفاوز[٢]، فحج آدم عليه السلام البيت من الهند أربعين سنة».

وفي رواية أخرى عن عطاء عن عمر بن الخطاب ﷺ، سأل كعباً، فقال: أخبرني عن هذا البيت ما كان أمره؟ فقال: إن هذا البيت أنزله الله من السماء ياقوتة مجوّفة مع آدم عليه السلام. فقال: يا آدم إن هذا بيتي، فطف حوله، وصل حوله، كما رأيت ملائكتي تطوف حول عرشي وتصلي، ونزلت معه الملائكة، فرفعوا قواعده من حجارة، ثم وضع البيت على القواعد، فلما غرَّق الله قوم نوح، رفعه الله، وبقيت قواعده.

وذكر البيهقي عن علي بن أبي طالب ﷺ حين سأله سائل عن كيفية بناء البيت الحرام، فقال: إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً، فأرسل الله إليه السكينة، وهي ريح حجوج[٣]، حتى انتهت إلى مكة، وتطوفت موضع البيت، وأُمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. فبنى إبراهيم حيث استقرت السكينة.

---

(١) أي معلماً.

(٢) صحارى.

(٣) موجّهة ذات مقصد.

والبيت المعمور بيت في السماء في موازاة أو حيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، لا يعودون إليه أبداً، كما نقل عن علي رضي الله عنه في الحديث المتقدم.

ومشروعية الحج بالطواف حول الكعبة كان بنداء إبراهيم عليه السلام. روى البيهقي عن ابن عباس قال: لما بنى إبراهيم عليه السلام البيت، أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن أذِّن في الناس بالحج. فقال إبراهيم: ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً، وأمركم أن تحجُّوه، فاستجاب له ما سمعه من حجر أو شجر أو أكمة، أو تراب: لبيك اللهم لبيك.

وروى البيهقي عن مجاهد في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٢/٢٧] قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، فقيل له: نادِ في الناس بالحج، فقال: كيف أقول يا رب؟ قال: قل: أيها الناس استجيبوا لربكم، فقالها: فوقرت في قلب كل مؤمن.

وفي رواية أخرى عن مجاهد قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام، أُمر أن يؤذن في الناس، فقام على المقام، فقال: يا عباد الله أجيبوا، فأجابوه: لبيك اللهم لبيك، فمن حج فهو ممن أجاب دعوة إبراهيم عليه السلام.

وللبيت الحرام حرمة من بدء الخلق، روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح - فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام، حرَّمه إلى يوم القيامة، لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا ينفّر صيدها، ولا يلتقط لقطتها، إلا من عرَّفها». قال العباس: إلا الإذخر[١]، فإنه لقينهم[٢] وبيوتهم، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر».

---

(١) نبات طيب الرائحة.

(٢) القين الحداد.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة فقال: «مرحباً بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك، ولَلمؤمن أعظم عند الله حرمةً منك».

وأخبر البيهقي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٥] قال: من لجأ إلى الحرم ليشرك فيه، عذبه الله. وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ(١) مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦] قال: إن الله بكَّ الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال. ولا يصلح ذلك ببلد غيره.

الإحرام والتلبية والحجر الأسود

الإحرام بالحج أو بالعمرة هو النية بالدخول في أحدهما أو كليهما من مواضع معينة، ومواقيته أربعة معروفة بالسنة النبوية بحسب الجهات لمن قدم إلى مكة من غير أهلها، وهم أهل الآفاق، فلأهل الشام ومصر والمغرب الجُحفة (رابغ)، ولأهل نجد والكويت والإمارات والطائف قَرْن المنازل، ولأهل العراق والمشارقة ذات عِرْق، ولأهل المدينة ذو الحليفة (آبار علي)، ولأهل اليمن وتهامة والهند يَلَمْلَم. وقد استحب العلماء تأخير الميقات إلى هذه الأماكن، خوفاً من التقصير في مراعاة شرائط الإحرام.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من تمام الحج أن تحرم من دويرة أهلك». والمعروف روايته عن علي موقوفاً.

وروى البيهقي أيضاً عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «من أهلَّ بعمرة أو حجة من بيت المقدس غفر الله ما تقدم من ذنبه».

(١) هي مكة، وسميت بذلك لأنها تبُكُّ (تدق وتكسر) أعناق الجبابرة.

وفي رواية: «من أهلَّ بالحج والعمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة».

وللإحرام بالحج أو العمرة ثواب عظيم، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهل مهلّ قط، إلا آبت الشمس بذنوبه».

والتلبية بعد الإحرام سنة وهي «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». ويطلب للرجال رفع الصوت بالتلبية لما رواه البيهقي في الشعب عن زيد بن خالد الجهني قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: مُرْ أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية، فإنها شعار الحج.

وروى البيهقي في السنن أيضاً عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «ما من ملبٍّ إلا لبى عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مَدَر حتى تنقطع الأرض من ها هنا ومن ها هنا».

وأخرج البيهقي في شُعَبه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «العج والثجّ». والعج التلبية، والثج النحر.

قال البيهقي رحمه الله: ومعنى التلبية إذا قال الملبي: «لبيك اللهم لبيك» إنما هو جواب من الملبي لقوله حين نادى إبراهيم عليه السلام بالحج عن أمر الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٢/٢٧]. ويروى أن من حج فهو ممن أجاب إبراهيم عليه السلام في أصلاب الرجال وبطون الأمهات، فأجابوه بـ «لبيك اللهم لبيك» فكانت شعارَ تلك الإجابة من كل حاج ومعتمر، فصارت جواباً. قال ابن عائشة: ومعنى التلبية ها أنا إذ جئتك سريعاً، ها أنذا عندك[1].

(١) رواه مسلم عن أحمد بن حنبل.

أما الحجر الأسود فهو مبارك، روى البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الحجر الأسود من الجنة، وكان أشد بياضاً من الثلج، حتى سوّدته خطايا أهل الشرك».

وعن ابن عباس أيضاً عند البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لهذا الحجر للساناً وشفتين، يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق».

وروى البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن سرجس قال: رأيت الأصيلع، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتهى إلى الحجر الأسود، فقال: إني لأقبّلك، وإني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، وإن الله عز وجل ربّ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبلتك. ومراد عمر بأن الحجر لا يضر ولا ينفع ما كان على هيئته، وأنه إنما يقبله متابعة للسنة.

واعترض علي رضي الله عنه بقوله: بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع. ومراده بذلك أنه إذا خلق الله تعالى فيه حياة، وأذِن له بالشهادة.

ويقال لزاوية الكعبة المشرفة التي فيها الحجر الأسود الركن، روى البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الركن والمقام[(١)] ياقوتتان من يواقيت الجنة، طمس الله نورهما، ولولا ذلك لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب».

وروى أحمد وقال في متنه: «إن الركن والمقام من ياقوت الجنة، ولولا ما مسَّهما من خطايا بني آدم، لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلا شفي».

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمر مرفوعاً قال: «لولا ما مسَّه من أنجاس الجاهلية، ما مسَّه ذو عاهة إلا شفي، وما على الأرض شيء من الجنة غيره».

---

(١) مقام إبراهيم.

وقيل لابن عمر: أراك تزاحم على مسح هذين الركنين فقال: إني أفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن مسحهما يحطان الخطايا». وقال ابن عمر أيضاً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من طاف بالبيت سبعاً يحصيه كتبت له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له به درجة. وكان له عدل رقبة».

الطواف بالبيت الحرام
والسعي بين الصفا والمروة

الطواف بالكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات من أركان الحج وفرائضه، والحكمة من الطواف توحيد أهل الإيمان في شأن عبادة الله تعالى في محور واحد، ومنطلق واحد، لأن البيت الحرام أول موضع وضع للناس لعبادة الله تعالى، والتفاف الناس نحو رب واحد وإله واحد، وذلك في بيت الله عز وجل، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌۢ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٦-٩٧] وقال عز وجل: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٩].

وللطواف ثواب كبير عند الله، وتحية البيت الحرام الطواف لا الصلاة، أي تحية المسجد، وإنما تسن ركعتا الطواف بعده. روى البيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ: «من طاف بالبيت سبعاً، وركع ركعتين كان كعَتَاق رقبة».

ويسن الدعاء بالطواف، روى البيهقي عن عبد الأعلى التيمي مرسلاً، قالت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: يا رسول الله، ما أقول وأنا أطوف

بالبيت؟ قال: «قولي: اللهم اغفر لي ذنوبي وخطاياي وعمدي وإسرافي في أمري، إنك إن لا تغفر لي تُهلكْني». هكذا جاء مرسلاً.

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبي ﷺ يقول بين الركن اليماني والركن الأسود: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار». ويندب تقبيل الحجر الأسود واستلامه في كل مرات الطواف، إن استطاع، وإلا أشار إليه بيده.

وفي رواية البيهقي عن سعيد بن جبير قال: كان ابن عباس يقول: احفظوا هذا الحديث، وكان يرفعه إلى النبي ﷺ، كان يدعو بين الركنين، رب قنِّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير.

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: كلَّ يوم مئة رحمة، ستين منها على الطائفين بالبيت، وعشرين على أهل مكة، وعشرين على سائر الناس».

وأخبر البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «دخول البيت دخول في حسنة، وخروج من سيئة».

وأخبر أيضاً عن ابن عمر قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر، فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً، فالتفت، فإذا عمر يبكي، فقال: «يا عمر ها هنا تسكب العبرات».

ويسن إلصاق البطن والصدر والظهر والخد والوجه والذراعين والكفين بالبيت الحرام عند الملتزم (ما بين الباب والركن الأسود) اتباعاً للنبي عليه الصلاة والسلام.

وأما وجوب السعي بين الصفا والمروة فللأمر به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/١٥٨] ويكون

السعي لإظهار قوة المؤمنين، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: إنما سعى رسول ﷺ بالبيت وبين الصفا والمروة ليُري المشركين قوته.

وروى البيهقي عن ابن عباس أن النبي ﷺ وأصحابه قَدِموا مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبي ﷺ أن يَرْمُلوا(١) ثلاثة أشواط، ليُري المشركين جَلَدهم(٢)، وكان ذلك في عُمرة القضاء.

ويسن أيضاً كشف المنكب الأيمن وهو المعروف بالاضطباع، وستر المنكب الأيسر بلباس الإحرام في الطواف فقط اتباعاً لما كان يصنعه رسول الله ﷺ.

ومن حكمة مشروعية السعي تذكّر حال السيدة سارّة زوجة إبراهيم وأم إسماعيل عليهم السلام، في التردد بين الصفا والمروة للبحث عن الزاد، كما رواه البخاري والبيهقي عن ابن عباس من حديث طويل: أن إبراهيم عليه السلام جاء بأم إسماعيل وابنها إسماعيل عليه السلام، وهي ترضعه، فوضعها عند البيت، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفا منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، وقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! قالت ذلك ثلاث مرات، وجعل لا يلتفت، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: نعم إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت، وانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند البيت استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يده، وقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الآيات [إبراهيم: ١٤/ ٣٧-٤١].

---

(١) الرَّمَل الإسراع في المشي مع تقارب الخطوات من غير ركض ولا وثب.
(٢) أي قوتهم.

فجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب مرة من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجاع، وجعلت تنظر إليه يلتوي[١]، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، وسعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال النبي ﷺ: فذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صَهْ، تريد نفسها، ثم سمعت أيضاً، فسمعت، فقال: قد أسمعت إن كان عندك غَرَث[٢]، فإذا هي بالملَك عند موضع زمزم يبحث بعَقبه أو بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهي تقوم بقدْر ما تغرف.

قال ابن عباس: فقال النبي ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم، أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عيناً معيناً فشربت وأرضعت ولدها. وقال لها الملَك: لا تخافي من الضيعة، فإن ها هنا بيتَ الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

الوقوف بعرفات ورمي الجمار في منى

الوقوف بعرفة أهم أركان الحج حيث يجتمع الناس على صعيد جبل عرفات، متجهين إلى الله تعالى وحده، ويذكّرهم هذا الموقف بموقف يوم القيامة، فتخشع النفوس، ويتجردون عن شهوات الدنيا وزخارفها ومُتَعها،

---

(١) أو قال: يتلبط.
(٢) أي جوع.

ويتجلى الحق تبارك وتعالى على الحجاج ويغفر لهم، وهو موقف في غاية الهيبة والإجلال لله تعالى.

أظهرت الأخبار الثابتة أهمية يوم عرفة، ومنها ما رواه البيهقي عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات، الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جَمْع(١) قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك أيام منى ثلاثة أيام، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن طارق بن شهاب أن رجلاً من اليهود قال لعمر: يا أمير المؤمنين، آية في كتاب الله تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٥/٣] فقال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي أنزلت فيه، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات يوم الجمعة.

وأخرج البيهقي في شُعبه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم عرفة، فإن الله تبارك وتعالى يباهي بهم الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُعْثاً غُبْراً ضاجّين، من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة: إن فيهم فلاناً مرائياً وفلاناً. قال: يقول الله تعالى: قد غفرت لهم» قال رسول الله ﷺ: «فما من يوم أكثرُ عتيقاً من النار من يوم عرفة». وفي لفظ عن عائشة: «ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة».

وروى البيهقي أيضاً عن طلحة بن عبد الله بن كُريز أن رسول الله ﷺ

---

(١) هي ليلة المزدلفة لاجتماع الناس في المزدلفة بعد النفرة من عرفات بعد غروب يوم الوقفة.

قال: «ما رُئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة، وما ذلك إلا مما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب، إلا ما رأى يوم بدر».

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: كان الفضل بن العباس رِدْف(١) النبي ﷺ يوم عرفة، وجعل الفتى يلاحظ النساء، وينظر إليهن، وجعل رسول الله ﷺ يصرف بيده ووجهه خلفه، وجعل الفتى يلاحظهن، فقال النبي ﷺ: «إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له».

وروى مالك مرسلاً، والبيهقي متصلاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل قولي وقول الأنبياء قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير».

وفي حديث آخر رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ عشية عرفة: «اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك ربِّ نداثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللهم إني أسألك من خير ما تجيء به الريح، وأعوذ بك من شر ما تجيء به الريح».

وأما رمي الجمار (الحصى) في منى فهو لتذكر سنة أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام، روى البيهقي عن ابن عباس مرفوعاً قال: لما أتى إبراهيم خليل الرحمن المناسك عرض له الشيطان عند الجمرة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الجمرة

(١) وهو الذي يركب خلف الراكب.

الثالثة، فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: ترجمون، وملة أبيكم تتبعون.

وأخبر البيهقي عن ابن عباس في سبب تسمية التروية وعرفة، قال: إنما سميت تروية وعرفة، لأن إبراهيم عليه السلام أتاه الوحي في منامه أن يذبح ابنه، فروى في نفسه: أمن الله هذا أم من الشيطان؟ فأصبح صائماً، فلما كان ليلة عرفة، أتاه الوحي، فعرف أنه الحق من ربه، فسميت عرفة.

وذكر البيهقي في شعبه عن بكير بن عتيق قال: حججت فتوسمت رجلاً أقتدي به فإذا رجل مصفر لحيته، وإذا هو سالم بن عبد الله، وإذا هو في الموقف يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله إلهاً واحداً، ونحن له مسلمون. لا إله إلا الله ولو كره المشركون. لا إله إلا الله ربُّنا ورب آبائنا الأولين. قال: فلم يزل يقول هذا حتى غربت الشمس. ثم قال حدثني أبي عن أبيه عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله».

وأخرج البخاري والبيهقي عن ابن عمر قال: وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع، فقال: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر. قال: «بأي بلد هذا؟» قالوا: البلد الحرام. قال: «فأي شهر هذا؟» قالوا: الشهر الحرام. قال: «هذا يوم الحج الأكبر، فدماؤكم وأموالكم

وأعراضكم عليكم حرام كحرمة هذا البلد في هذا اليوم، فقال: هل بلّغت؟ قالوا: نعم».

فضل الحج والعمرة
وشروط القبول

للحج والعمرة فضائل كثيرة، تتلخص في صدق الالتجاء إلى الله، وإدراك عذوبة مناجاته والإقبال عليه، وطلب المغفرة من الذنوب، والتخلص من آثار المعاصي والسيئات، وهو موسم العمر كله، كما أن صيام شهر رمضان موسم السنة كلها، وكلاهما مؤد إلى الجنة.

لكن قبول هذه الفريضة منوط بالإخلاص لله تعالى، وعفة النفس وغض البصر، وترك الفسق، وهو كل معصية من ترك أمر من أوامر الله، أو الانغماس في مخالفة نواهي الله، وذلك توصيف الحج المبرور.

وقد ثبت في السنة النبوية أحاديث كثيرة صحاح تبشّر المؤمنين بفضل الله ورحمته، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي أعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

وأمارات الحج المبرور البعد عن المعاصي والتحول إلى ما هو الأفضل، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

وجزاء الحج والعمرة هو دخول الجنة، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفّارة لما بينهما،

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وسئل النبي ﷺ: ما برّ الحج؟ قال: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام».

والمتابعة بين الحج والعمرة مرغوب فيها، لما رواه البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة». وفي رواية أخرى: تابعوا بين الحج والعمرة، فإن متابعة بينهما يزيدان في الأجل، وينفيان الفقر، كما ينفي الكير الخَبَث». أي الشوائب.

ومن مات حاجاً أو معتمراً لم يحاسب، لما رواه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من مات في هذا الوجه حاجاً أو معتمراً، لم يعرض ولم يحاسب، وقيل له: ادخل الجنة» وقالت عائشة: إن الله عز وجل يباهي بالطائفين.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: «من خرج حاجاً أو معتمراً أو غازياً(١)، ثم مات في طريقه، كتب الله له أجر الغازي والحاج والمعتمر إلى يوم القيامة». وقال أبو هريرة مرفوعاً: «وفد الله ثلاثة: الغازي، والحاج، والمعتمر».

وأخبر البيهقي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده(٢) أن رسول الله ﷺ قال: «الحجاج والعمار وفد الله، إن سألوا أُعطوا، وإن دعوا أُجيبوا، وإن أنفقوا أُخْلف لهم، والذي نفس أبي القاسم بيده، ما كبَّر مكبر على نشز(٣)، ولا أهلَّ على شرف من الأشراف إلا أهل ما بين يديه وكُبِّر، حتى ينقطع به منقطع التراب».

---

(١) أي مجاهداً.
(٢) أي عبد الله بن عمرو.
(٣) شيء مترفع.

يؤيده ما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج».

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: سمعت النبي ﷺ يقول ونحن بمنى: «لو يعلم أهل الجَمْع[1] بمن حلوا، لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة».

وتجهيز الحاج يجعل للمجهِّز مثل أجر الحاج، لما رواه البيهقي عن زيد بن خالد الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من جهَّز حاجاً، أو جهَّز غازياً، أو خلفه في أهله، أو فطَّر صائماً، فله مثل أجره، من غير أن ينقص من أجره شيئاً».

وروى البيهقي أيضاً عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ليدخل بالحجة الواحدة ثلاثة نفر الجنة: الميت، والحاج عنه، والمنفذ ذلك». يعني الوصي.

والنفقة في سبيل الحج كنفقة الجهاد لما رواه البيهقي عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله مئة ضعف».

وشرب ماء زمزم يحقق للشارب ما يطلبه أو يدعو به من عافية أو رزق أو علم، لما رواه البيهقي وغيره عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له».

ويندب للقادر تكرار زيارة البيت الحرام، لما رواه سعيد بن منصور والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إن عبداً أصححت له جسمه، وأوسعت له في رزقه لا يفد إلي في كل خمسة أعوام لَعبدٌ محروم». قال العلماء: ويجب على الرجل الموسر الصحيح ألا يترك الحج إلا خمس سنين.

---

(١) أهل المزدلفة.

وثمرة الحج والعمرة تجديد العهد مع الله تعالى على التزام التوبة والاستقامة، وكذلك غفران الذنوب والسيئات، وأيضاً تحقيق تعارف المسلمين مع بعضهم وتعاونهم من أجل خير الأمة وصلاحها وتقدمها ونهضتها، وكذا تعلّق قلب أهل الإيمان بالبيت الحرام ومناسك الحج وشعائره، والتعرف على مواطن الوحي الإلهي على قلب النبي ﷺ.

وكل هذه الأوصاف تقوي عزيمة المؤمن، وتنمي فيه عاطفة الحب لدينه ولنبي الرحمة المهداة، وتدفعه إلى أن يكون صادق اللهجة، صابراً على الطاعة، مبتعداً عن المعصية، حتى يختم له بخاتمة التوفيق والإيمان، ويظفر برضوان الله تبارك وتعالى.

قال خيثمة بن عبد الرحمن - فيما ذكره البيهقي -: «إذا قضيت حجك فسل الله الجنة، فلعله». أي لعل ذلك يحقق الرغبة والمطلوب.

زيارة المسجد النبوي وغيره في المدينة

المدينة المنورة هي «طيبة» مشرق الإسلام العام، ومثوى النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام، فزيارتها سنة مرغوب فيها، من أجل الصلاة في المسجد النبوي ومسجد قباء، وزيارة قبر النبي ﷺ وقبور شهداء أحد، والمساجد السبعة، والاطلاع على الآثار الإسلامية ومنها الخندق.

أما الصلاة في المسجد النبوي فلما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خير أو أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وفي رواية لدى البيهقي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس خمس مئة صلاة».

قال عطاء بن أبي رباح عن رواية «وصلاة في المسجد الحرام تفضل بمئة»: فكأنه مئة ألف، فسأله الراوي: يا أبا محمد، هذا الفضل الذي تذكر في المسجد الحرام وحده أو في الحرم؟ قال: لا بل في الحرم، فإن الحرم كله مسجد.

ويزاد ثواب الصلاة في الروضة الشريفة، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح من حديث عبيد الله بن عمر، وعند البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي». وفي رواية: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

وأما زيارة قبر النبي ﷺ فهو سنة أيضاً، لما أخرجه البيهقي عن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الآمنين».

وروى أبو داوود الطيالسي والبيهقي عن رجل من آل الخطاب، عن النبي ﷺ قال: «من زارني متعمداً كان في جواري يوم القيامة، ومن سكن المدينة وصبر على بلائها، كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة». وروى البيهقي عن جابر عن النبي ﷺ قال: «من مات في أحد الحرمين بعث آمناً».

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسلِّم عليَّ عند قبري إلا وكَّل الله به ملَكاً يبلِّغني، وكفي أمر آخرته ودنياه، وكنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة».

وفي رواية أنس: «من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة». وفي حديث ابن عمر: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلِّم علي إلا ردّ الله علي روحي، حتى أرد عليه السلام». بمعناه والله أعلم.

وفي لفظ آخر: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وذكر البيهقي أيضاً عن ابن أبي فُدَيك قال: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٦] ثم قال: صلى الله عليك يا محمد، حتى يقولها سبعين مرة، فأجابه مَلَك: صلى الله عليك يا فلان، لم يسقط لك حاجة.

ويسلِّم الزائر على النبي ﷺ قائلاً: السلام عليك يا سيدي يا رسول الله، ويضيف ما شاء من الأوصاف الثابتة له، ثم يدعو الله، ويتلو آيـة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٤].

ثم يزور قبر أبي بكر الصديق وقبر عمر بن الخطاب مسلِّماً عليهما، بجوار قبر المصطفى ﷺ.

وأما زيارة مسجد قباء المسنونة فلما أخرجه مسلم في الصحيح والبيهقي عن عبد الله بن دينار قال: لم يكن ابن عمر يصلي الضحى إلا أن يأتي مسجد قباء يصلي فيه، لأن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت. وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن عبيد بن عمر أنه قال: كان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء.

وأخرج البيهقي في شُعبه وفي السنن عن أسيد بن ظهير الأنصاري أنه سمع النبي ﷺ يقول: «صلاة في مسجد قباء كعمرة».

وروى البيهقي عن سهل بن حنيف قال: قال النبي ﷺ: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد - يعني مسجد قباء - فيصلي فيه، كانت كعدل رقبة».

وتسن زيارة قبور شهداء أحد في سفح جبل أحد، فإنهم بذلوا أنفسهم سخية في سبيل الله، وقمع شر المشركين.

ويكثر الزائر من الصلاة في المسجد النبوي ولا سيما في الروضة الشريفة، فإن الصلاة فيه تعدل ألف صلاة فيما سواه، كما يكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ومن تلاوة القرآن الكريم، والأذكار، وإعلان التوبة من الذنوب والسيئات، وتجديد العهد مع الله على ملازمة الاستقامة، والتأدب بآداب الإسلام، والتخلق بأخلاق النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

الأصل الخامس والعشرون من أصول الإيمان

الجهاد

الجهاد شعبة أو أصل من شعاب الإيمان، لأنه طريق توفير العزة والمكانة والاستقلال عن العدو، فلا يمكن الحفاظ على وجود الدين والإيمان والأمة إلا بجهاد الأعداء، فالجهاد في سبيل الله لرد العدوان، وتأديب المعتدين، ودفع شر الظالمين، ولم يؤمر المسلمون بالجهاد بمجرد ظهور الإسلام، وإنما مرّ بخمس مراحل في مواجهة المشركين عبدة الأوثان:

ففي المرحلة الأولى كان النبي ﷺ يوحى إليه بالوحي الإلهي دون إعلان الدعوة.

وفي المرحلة الثانية من الدعوة أمر النبي عليه الصلاة والسلام بتبليغ الدعوة وإعلام مضمون الوحي الإلهي، فقيل له: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٢] فأشفق من ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧]. فلما بلَّغ كذبوه واستهزؤوا به، فأمر بالصبر، وقيل له: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤-٩٥] ثم أمر النبي ﷺ باعتزال المشركين في آية: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٠] وآية:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٦٨].

وفي المرحلة الثالثة أذن للمؤمنين بالهجرة، فهاجروا إلى الحبشة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ﴾(١) [النساء: ٤/ ١٠٠].

ثم أذن الله لرسوله بالهجرة، ونزل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٠] فهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة.

وفي المرحلة الرابعة أذن الله تعالى في قتال من قاتل المؤمنين في آية: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠]. ونزل قوله تعالى مبيناً سبب مشروعية الجهاد في آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩]

وفي المرحلة الخامسة فرض الله الجهاد على المؤمنين فرضاً عاماً في آيات، هي: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٦] وآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٣] وآية: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٤].

وصار قبول الجهاد من الإيمان في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ

---

(١) المراغم المذهب في الأرض والمهرب.

بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ١١١].

فكل من قَتَل أو قُتِل في سبيل الله فله الجنة، ومن قبل مبدأ الفريضة على هذا، كان باذلاً نفسه في سبيل الله، وذلك في صورة المبايعة، فكانوا بائعين، والله جل جلاله مشترياً.

ثم حث الله تعالى على الجهاد وحرَّض عليه مع بيان فضله وضمان الثواب عليه في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ٦١/ ١٠-١٣]. وفي هذه الآية إرشاد لفوائد الجهاد العاجلة والآجلة، أما العاجل منها فهو تحقيق النصر على الأعداء وما يتبعه من آثار طيبة معنوية ومادية، وأما الآجل فهو الظفر بالجنة والنعيم المقيم.

وذلك لقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٧٤] وقوله سبحانه في مدح المجاهدين والثناء عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٤] وقوله أيضاً: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٥-٩٦].

ومسوّغات تفضيل المجاهدين كثيرة، منها ما يبذلونه من جهد، ويتعرضون له من المشاق، ويصبرون على مقارعة الأعداء والنيل منهم، والإنفاق، وقطع المسافات، وتسلّق الجبال، وعبور الوديان، ونحو ذلك، كما وصف الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٠-١٢١].

وقال عليه الصلاة والسلام - فيما يرويه مسلم في الصحيح عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

مرتبة الجهاد بين الأعمال

للجهاد أو مقاومة الأعداء مرتبة رفيعة بين مراتب الأعمال الصالحة، وهو يلي مرتبة الإيمان في الإسلام، لما دلت عليه آي القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية الصحيحة، المرشدة إلى تصنيف أعمال أهل الإيمان.

ففي التوجيهات القرآنية نزلت سورة الصف لبيان مرتبة الجهاد، أخرج البيهقي في شعبه عن عبد الله بن سلام قال: فقدنا نفراً من أصحاب النبي ﷺ فقلنا: لو نعلم أيَّ الأعمال أحب إلى الله عز وجل، فأنزل الله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٦١/ ١-٢] إلى آخر السورة، فقرأها علينا رسول الله ﷺ هكذا.

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان بالله ورسوله». فقيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟: قال: «ثم حج مبرور».

وأخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم، وتكفل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه، فيدخله الجنة، أو يرجعه سالماً بما نال من أجر أو غنيمة»(١). دل الحديث على ثمرة الجهاد العظمى في الدنيا والآخرة، فالمجاهد كالصائم القائم يصلي، وضمن الله له الجنة إن مات، أو السلامة المقرونة بالثواب الأخروي أو الغنيمة الحربية.

وهناك ترتيب آخر في حديث للبخاري عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله». قال: فسكت عني رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني. وهذا الترتيب لا يتعارض مع الترتيب المتقدم، لأن الصلاة عماد الدين، ولأن بر الوالدين واستئذانهما شرط للخروج إلى الجهاد.

وعلى كل مسلم قادرٍ على حمل السلاح أن ينوي المشاركة في الجهاد، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «من مات ولم يَغْزُ، ولم يحدث نفسه بالغزو(٢)، مات على شعبة من النفاق».

---

(١) ولمسلم لفظ آخر للحديث.

(٢) أي الجهاد المشروع.

وفي حديث رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن معاذ بن جبل قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. جاء فيه: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذِروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». دل على أن الإسلام هو الذي لا يصح شيء من العمل إلا به، وإذا فات لم يبق معه عمل، فهو كالرأس من الأعضاء. وأما الصلاة فإنها عمود الأمر، والأمر هو الدين، لأن الإسلام لا ينفع ولا يثبت من غير الصلاة، ولا يغني قبولها عن فعلها. وأما قوله: «ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله». فمعناه أعلى شيء في الإسلام وأشهره هو الجهاد، فهو كذروة السنام في البعير الذي لا شيء من البعير أعلى منه، وعليه يقع البصر من بُعْد.

وأخرج أبو داوود والحاكم والبيهقي في شعبة عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله».

وأخرج البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «إن لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عمران بن حصين ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة رجل ستين سنة». دلت هذه الأحاديث على أن الجهاد هو السياحة في الإسلام، وهو الرهبانية، وهو أفضل من العبادة ستين سنة. وفي حديث آخر عند البيهقي عن عثمان بن عفان ﷺ: «يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه، فلينظر كل امرئ لنفسه». والقصد من هذه الأخبار بيان مضاعفة الثواب على الجهاد، وذلك يختلف باختلاف الناس في نياتهم وإخلاصهم، ويختلف باختلاف الأوقات، وموقع الجهاد في وقته.

وكذلك الحراسة الليلية في سبيل الله أفضل من قيام ألف ليلة وصيام نهارها، لحديث البيهقي عن عثمان: «حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة، يقام ليلها، ويصام نهارها». ويؤكده حديث آخر أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

وفي الختام أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي، وإيمان بي، وتصديقٌ برسولي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً من أجر أو غنيمة. والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم[1] يُكْلَم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم، لونه لون دم، وريحه ريح مسك. والذي نفس محمد بيده، لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكني لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله، فأُقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

وروى مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

وروى البيهقي عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم، في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً».

والجهاد يكون بالمال والنفس واللسان، لما أخرجه أحمد وأبو داوود

---

(١) جرح.

والنسائي وغيرهم عن النبي ﷺ قال: «جاهدوا بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم».

وروى البيهقي عن خُريم بن فاتك الأسدي عن النبي ﷺ قال: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت سبع مئة ضعف».

مكانة الشهداء

الشهيد هو الذي استشهد في سبيل الله مدافعاً عن دينه ووطنه وأمته. وأصل الشهادة التبيين، كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨] أي بيَّن الله لعباده أنه إلههم، ولا إله غيره، بدلائل الخلق والتقدير والتدبير، والإحياء والإماتة، والنعمة والرزق وغير ذلك. وسمي شهيداً لأنه مشهود تشهده ملائكة الرحمة ، أو شاهد يشهد مشاهد الجنة برحمة الله عز وجل، أو لأنه يكون يوم القيامة كالرسل ، فيشهد على غيره بمثل ما يشهد الرسول ، كما قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٩]. والراجح في معنى الشهداء أنهم بينوا بما بذلوا من أنفسهم في سبيل الله إيمانهم وصدقهم وإخلاصهم في طاعة الله.

وللشهيد مكانة عظيمة في الدنيا والآخرة، حيث يكون له مكانة كبيرة في قلوب العباد، ويكون حياً في قبره حياة خاصة برزخية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩-١٧٠].

وموقف المجاهد في المعركة أفضل من العبادة، لما أخرجه الحاكم وصححه الذهبي عن أبي هريرة أن رجلاً من الصحابة أراد المقام في شِعْب فيه عين ماء عذب، ليعتزل الناس والعمل، فقال له النبي ﷺ:

«لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في أهله ستين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم، ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة[1] وجبت له الجنة».

وللشهيد تسع خصال عند الله تعالى، مذكورة في حديث البيهقي عن المقدام بن معدي كَرِب، عن رسول الله ﷺ قال: «إن للشهيد عند الله عز وجل خصالاً، يُغفر له في أول دَفْقة من دمه، ويَرى مقعده من الجنة، ويحلّى عليه حلة الإيمان، ويزوَّج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من يوم الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه».

والشهيد تغفر له ذنوبه كله إلا حقوق الناس المالية، لما أخرجه مسلم وأحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين».

ومرتبة الشهيد في الجنة بعد مرتبة النبوة، لما رواه البيهقي في شعبه عن عتبة بن عبد السُّلَمي، وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «القتلى ثلاثة:

- رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو، وقاتلهم حتى يقتل، فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة.

- ورجل مؤمن فرق[2] على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بماله ونفسه في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو وقاتل حتى يقتل، فتلك مخمصة

---

(١) ما بين الحلبتين من الوقت.

(٢) خاف

تحط من ذنوبه وخطاياه، إن السيف محّاء الخطايا، وأُدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض.

- ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى قتل، فإن ذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق».

والشهيد هو الذي يقاتل بإخلاص في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، كلمة التوحيد والحق والعدل، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذِّكْر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي أعلى، فهو في سبيل الله».

ويؤكده حديث آخر أخرجه البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: يا رسول الله أخبرني عن الجهاد والغزو. فقال: «يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابراً محتسباً[(١)] بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً، بعثك الله مرائياً مكاثراً، يا عبد الله بن عمرو، على أي حال قاتلت أو قُتلت، بعثك الله على ذلك الحال».

وكل من أعان المجاهد له ثواب، لما رواه البيهقي عن سهل بن حُنيف أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً في سريته، أو مكاتباً في رقبته، أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة كلهم حق على الله - يعني عونه -: المجاهد في سبيل الله عز وجل، والناكح المستعف، والمكاتب يريد الأداء». أي أداء ما التزمه من مال لإعتاق نفسه من العبودية.

---

(١) تحتسب وتعدّ أجرك عند الله.

ويتفاوت ثواب الأعمال بحسب أهميتها، فيكون ثواب المنفق في الجهاد سبع مئة ضعف، وثواب المقرض قرضاً حسناً ذو أضعاف كثيرة، وثواب الصبر مفتوح غير محدود، لما رواه البيهقي عن ابن عمر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦١] قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي». قال: فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي». قال: فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠].

الأصل السادس والعشرون من أصول الإيمان

المرابطة في سبيل الله تعالى

المرابطة في سبيل الله عز وجل من أصول الإيمان أو من شُعب الإيمان، ومعناها إعداد النفس لمجاهدة العدو إذ توقع الإنسان عدوانه وشره، والرباط في سبيل الله كالاعتكاف في المساجد (المكث) انتظاراً للصلاة، فإذا دخل الوقت قام إلى الصلاة، ولم يشغله شاغل عن إتيان المساجد، ولا شك أن المرابطة أشق من الاعتكاف، وكلاهما مستحب مندوب.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠] وهذا أمر بالمرابطة، توقياً لخطر الأعداء، فيكون هذا العمل عظيماً وثوابه كبيراً، لأنه يحمي الأمة من العدوان.

روى البخاري في الصحيح عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها».

ورواية مسلم في الصحيح عن سلمان الفارسي: «رباط يوم وليلة

كصيام شهر وقيامه، فإن مات جرى عليه الرباط، ويُؤمن من الفَتّان[١]، ويُقْطع له رزق في الجنة».

ورواية البيهقي عن أبي هريرة: «موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود».

هذه الروايات تدل على فضيلة الرباط وهو الاستعداد لمواجهة العدو الطامع المتدخل في شؤوننا. وفي حديث لمسلم في الصحيح يدل على ممارسة المرابطة، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة[٢] أو فزعة، طار عليه يبغي القتل والموت من مظانه؛ أو رجل في غُنَيمة[٣] في رأس شعبة من هذه الشعاب، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير».

ويبشر النبي ﷺ كل من أسرع إلى ملاقاة العدو أياً كان موقعه، فقد روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة[٤]، إن أُعطي رضي، وإن مُنع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغْبرة قدماه، إن كانت الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة[٥] كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شُفِّع لم يشفع، طوبى له ثم طوبى له».

---

(١) الفتان بفتح الفاء الشيطان، وبالضم جمع، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفَتّان»

(٢) صوت العدو المخيف.

(٣) تصغير غنم.

(٤) الثوب

(٥) مؤخرة الجيش.

ويعد المدافع عن أمته المسلمة خير الناس، لما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وهو مسند ظهره إلى نخلة، فقال: «ألا أخبركم بخير الناس؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «خير الناس رجل يحمل على ظهر فرسه أو ظهر بعيره أو قدميه في سبيل الله حتى يأتيه الموت، وإن شر الناس فاجر جريء يقرأ كتاب الله، ولا يرعوي إلى شيء منه».

بل إن الحراسة الليلية أفضل من مصادفة ليلة القدر، لما رواه البيهقي عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أحرس ثلاث ليالٍ مرابطاً من وراء بيضة المسلمين[1] أحب إلي من أن تصيبني ليلة القدر في أحد المسجدين، المدينة أو بيت المقدس».

ومن مات مرابطاً أمن عذاب القبر، لما رواه البيهقي أيضاً عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات مرابطاً في سبيل الله أمنه الله من فتنة القبر». وفي رواية أخرى: «ما من رجل يغبارّ وجهه في سبيل الله إلا أمَّن الله وجهه يوم القيامة، وما من رجل يغبارّ قدماه في سبيل الله، إلا أمَّن الله قدميه من النار يوم القيامة». وفي لفظ آخر: «إن صلاة المرابط تعدل خمس مئة صلاة، ونفقة الدينار والدرهم منه أفضل من تسع مئة دينار ينفقه في غيره».

وكل من أعان المرابط أو الحارس له ثواب مماثل لثوابه، لما أخرجه أحمد والبيهقي وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن عقبة بن عامر[2] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعَه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهِّز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله». وقال: «ارموا واركبوا، فإن

---

(١) بيضة القوم ساحتهم.

(٢) لكن رمز له السيوطي بالضعف.

ترموا خير من أن تركبوا». وقال: «كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبة أهله، فإنهن من الحق».

ومن بذل شيئاً في سبيل المرابطة أو أعدَّ سلاحاً أو خيلاً وغير ذلك لمواجهة الأعداء، كان ذلك زيادة في صحيفته وحسناته يوم القيامة، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة ﷺ يقول: قال النبي ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن عروة البارقي ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

الأصل السابع والعشرون من أصول الإيمان

الثبات أمام العدو

الثبات أمام العدو أحد أصول أو شعب الإيمان، وهو دليل واضح على صدق الإيمان والإسلام، والتصديق بيوم الآخرة، كما أنه دليل على إعزاز الأمة، وحماية شرف البلاد والأوطان، فكان الأمر به كالأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة واجباً وفرضاً على المقاتلين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤٥] قرن الله تعالى بين الأمر بالثبات أمام العدو وبين ذكر الله، لتقوية المعنويات، وحمل النفس على الصبر والمصابرة، والتحلي بالجرأة والشجاعة، والتفاني في قتال الأعداء.

ويؤكد ذلك قولُه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٥-١٦] حرَّم الله تعالى بهذه الآية الفرار من المعركة لئلا يتضعضع الجيش وتنهار معنوياته، إلا إذا كان الفرار لمصلحة حربية أو مكيدة حربية كالالتفاف حول العدو من جهة أخرى، أو الكرّ عليه، أو الاستنصار بفئة مسلمة مقاتلة أخرى، فيتقووا بهم، ثم يكرّوا على العدو. ومن المعلوم أن أسلوب الحرب في الماضي هو الكرّ والفرّ.

ويوضحه حديث البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

وجعل الفرار من الزحف من كبائر الذنوب، كما ورد في حديث الصحيحين عن أبي هريرة: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات».

وميزان الصمود أو المواجهة أن يثبت المسلم على الأقل أمام اثنين من الأعداء، لقوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٦].

وكان لأبطال المسلمين في التاريخ مواقف ونماذج رائعة في الثبات أمام الأعداء، منها موقف رجل يوم القادسية قال: اللهم زوجني مكان امرأتي من الحور العين، فمرّ الناس عليه، وهو معانق فارساً، وهو يتلو هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣].

ومن هذه المواقف المشرفة ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ سرية قبل نجد، وأنا فيهم، فحاص الناس حيصة[1]، فلما قدمنا المدينة قلنا: نحن الفرارون. فقال النبي ﷺ: «بل أنتم العكّارون[2] في سبيل الله، أنا لكم فئة لترجعوا معي إلى الجهاد في سبيل الله».

---

(١) أي انهزموا من العدو.

(٢) أي الكرارون العاطفون الراجعون إلى الجهاد مرة أخرى.

وروى الشيخان عن البراء بن عازب قال: أتى رسولَ الله ﷺ رجل متقنِّع في الحديد، فقال: يا رسول الله، أقاتل أو أُسلم. فقال: «لا بل أسلم، ثم قاتل». فأسلم، فقاتل ثم قتل، فقال (أي النبي ﷺ): «هذا عمِل قليلاً وأجر كثيراً».

وذكر البيهقي أن عمرو بن أقيش قاتل يوم أحد غضباً لله عز وجل، فمات ودخل الجنة، وما صلى لله صلاة.

وروى البيهقي أيضاً أن رجلاً اشترك في معركة مع النبي ﷺ فاستشهد، فقال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي النجدي، فو الذي نفسي بيده، إنه لمن ملوك الجنة».

ووقائع شهداء المعارك الذين ثبتوا أمام الأعداء كثيرة في التاريخ الإسلامي، وهي تعد من مفاخر الإسلام، ويجد الناس الذين يدفنون أولئك الشهداء عجائب الكرامات والإكرام الإلهي لهم، حتى إنهم يشمون رائحة المسك من التراب الذي ضم رفاتهم، لأنه أغلَوا مكانة الإسلام، وعملوا على جعل كلمة الله هي العليا، باذلين المهج والأرواح في سبيل الله، ومُقْدمين بكل بسالة على قتال الأعداء، لا يتراجعون أو يتقهقرون، ولا يتزحزحون عن مواقعهم الحربية.

إنهم بهذا ضربوا المثل الأعلى لنصرة الدين، وقهروا الأعداء، ووجدوا لذة الموت في نفوسهم من أجل إرضاء الله سبحانه، وفتحت لهم جنان الخلد. أما أولئك الأعداء الذين حاولوا قهر الجيش الإسلامي، فانهزموا وارتدوا خائبين، وخسروا الدنيا والآخرة، وكان مصيرهم إلى النار خالدين فيها أبداً.

علينا في عصرنا الحاضر أن نتحلى بصفات المجد والعزة التي اتصفت بها كوكبة من أسلافنا الأبطال، وحققوا لأمتهم النصر الساحق،

وهزموا أعداءهم بإذن الله وتوفيقه وإعانته، مع أنهم كانوا في أغلب الأحوال هم القلة، وأعداؤهم هم الكثرة، تحقيقاً لقول الله عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩].

إن الصبر والثبات والمرابطة بصدق وخوض المعارك بعزيمة وإيمان وجرأة وشجاعة من أهم عوامل النصر على الأعداء الظالمين المتغطرسين.

أداء خمس الغنائم الحربية إلى المصالح العامة

الأصل التاسع والعشرون من أصول الإيمان أو شعبه أداء خمس الغنائم الحربية إلى الإمام أو عامله (نائبه) ليكون توزيعها للمحتاجين، وذلك في الماضي قبل تكوين الجيوش النظامية، لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] وهذا يقال له خمس المصالح العامة؛ فيصرف الخمس للأصناف الخمسة، بمقتضى الإيمان، للآية: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾.

ويوضح ذلك حديث رواه مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن هذا الحي من ربيعة، وقد حال بيننا وبينك كفار مضر، ولسنا نخلص إليك إلا في شهر حرام، فمُرْنا بشيء نأخذ عنك وندعو إليه مَنْ وراءنا، قال: «آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم. وأنهاكم عن الدُّبّاء

والحنتم والنقير والمزفت». أي خشية تخمر الفاكهة فيها، ثم صار حكم هذه المنهيات منسوخاً.

هذا حكم الخمس من الغنائم، وأما الأربعة الأخماس الباقية فهي حق لجماعة المجاهدين الغانمين، فيكون أخذ شيء من الغنائم حراماً وهو الذي يسمى بالغلول، أي الخيانة من المغنم، لأن مال الغنيمة أصبح حقاً للجماعة.

وتحريم الغلول يدل على تحريم أخذ شيء من الأموال العامة، التي هي حق عام لجميع المواطنين، فيحرم على الفرد مصادرة حق الجماعة تحريماً شديداً أوضَحتْه السنة النبوية الشريفة. أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً، وذكر الغلول (أخذ شيء من الغنائم) فعظمه وعظم أمره وقال: «أيها الناس لا أُلفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلَّغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلَّغتك. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بقرة لها خوار يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغتك. ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقاع، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلَّغتك. ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامتٌ[١] يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلَّغتك. ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلَّغتك».

---

(١) أي ذهب وفضة، يقال: ما له صامت ولا ناطق، أي ليس له ذهب وفضة، ولا إبل وغنم، أي ليس له شيء.

وأشد ترهيباً مما سبق أن آخذ شيء من المال العام من غنيمة ونحوها يعذَّب بعذاب النار يوم القيامة، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما قُتل نفر يوم خيبر، نادى منادٍ من أهل خيبر: قتل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى ذكروا رجلاً فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إني رأيته في النار في عباءة غَلَّها أو بردة غَلَّها»[1]. فقال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون». قال: فذهبت فناديت في الناس.

وسرقة شيء من المال موجب للنار حتى ولو كان قليلاً، لما رواه البيهقي عن زيد بن خالد الجهني أن رجلاً من جهينة توفي بخيبر، فذكروه لرسول الله ﷺ، قال: «صلوا على صاحبكم». فتغيّر وجوه الناس، فلما رأى الذي بهم قال: «إن صاحبكم غلّ[2] في سبيل الله». قال: ففتشنا متاعه فوجدنا خَرَزاً من خرز اليهود، والله ما يساوي درهمين.

يؤكد ذلك ما رواه البيهقي عن أبي رافع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر، ذهب إلى بني عبد الأشهل، فيتحدث عندهم حتى المغرب. قال أبو رافع: فبينا النبي ﷺ يسرع إلى المغرب، إذ مرّ بالبقيع، فقال: «أفّ لك، أفّ لك». فاستأخرت وظننت أنه يريدني. فقال: «ما لك؟ امش». فقلت: أحدثتُ حدثاً أفّفت بي؟ قال: «لا، ولكن هذا فلان بعثتُه ساعياً إلى بني فلان، فغلّ نَمِرة[3]، فدُرِّع[4] الآن مثلَها في النار».

وروى البيهقي عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) أي سرقها من المغنم.
(٢) أخذ شيئاً من الغنيمة.
(٣) بُرْدة من صوف تلبسها الأعراب.
(٤) أي ألبسها.

الحجر ليزن سبع حلقات[١] فيلقى في جهنم، فيهوي فيها سبعين خريفاً، ويؤتى بالغلول[٢]، فيلقى معه، ثم يكلَّف صاحبه أن يأتي به، قال: فهو قول الله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦١]».

والخلاصة: إن جميع الغنائم الحربية بعد وجود نظام الجيوش ذات المرتَّبات الحكومية، أصبحت كلها حقاً للدولة.

---

(١) جمع حلقة وهي الدرع.
(٢) الخيانة.

الأصل التاسع والعشرون من أصول الإيمان

التحرير من العبودية تقرباً إلى الله تعالى

حينما كانت ظاهرة الرق موجودة في العالم، عمل الإسلام جاهداً على تحرير الرقاب والأرقاء، وإعتاق العبيد، وفتحَ عدة منافذ للتخلص من تلك الظاهرة بالإرادة والرضا والاختيار، لأن الأصل في الإنسان الحرية، والرق شيء طارئ، والتحرر سبيل للقضاء عليه، وذلك بقصد التقرب إلى الله عز وجل، مما نبَّه العالم إلى ضرورة تصفية الرق من العالم، وإنهائه حتى تم ذلك في معاهدة ١٩٥٢م.

وهذا مثال عملي من دعوة الإسلام إلى الحرية والتحرر، قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ٩٠/ ١١-١٧] وقوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ كلام وإنكار واستبطاء. والمراد بالعقبة عقبة النار، أي هو عمل كل إنسان ما يسهّل عليه اقتحامها.

ويوضح ذلك الأحاديث الثابتة، منها ما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً

منه من النار، حتى فرجه بفرجه». أي يعتق جميع الأعضاء المذنبة من النار حتى الفرج. ورواية البخاري ومسلم والترمذي: «من أعتق رقبة مؤمنة أو مسلمة، أعتق الله له بكل عضو منها عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه». فالعتق تطهير من النار.

والعتق سبب لدخول الجنة، لما رواه البيهقي عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمني عملاً يدخلني الجنة. قال: «لئن كنتَ أقصرتَ الخطبة، لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة، وفُكَّ الرقبة». قال: أوليستا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفكُّ الرقبة في ثمنها، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلا من خير». هذه صنوف الخير، وعلى كل مسلم أن يتحلى بهذه الخصال الاجتماعية، التي تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي، ونحافظ على حقوق الإنسان، وأعلاها حرية الفرد والأمة والوطن.

وترتيب الأولويات في أعمال الخير مرغوب فيه لما أخرجه البخاري عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله عز وجل، وجهاد في سبيله». قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها». قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق[1]». قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تَصَدّق بها على نفسك». أي تتصدق.

وهناك قصة واقعية ذكرها البيهقي عن شبيب بن شيبة قال: كنا بطريق مكة، وبين أيدينا سُفْرة نتغدى في يوم قائظ، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية زنجية، فقال: يا قوم أفيكم أحد يقرأ كلام الله، حتى يَكْتب إلي

(١) أي تعين الصانع في صنعته، أو تساعد من لم يحسن عمله.

كتاباً. قال: قلنا: أصِبْ من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم، فعجبنا من صومه في تلك البرية، فلما فرغنا من غدائنا دعونا به. فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل، إن الدنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، فإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله، وليوم العقبة، أتدري ما يوم العقبة؟ قوله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فاكتب ما أقول لك، ولا تزيدن علي حرفاً، هذه فلانة خادم فلان، قد أعتقها لوجه الله، وليوم العقبة. قال شبيب: فقدمت البصرة، فأتيت بغداد، فحدَّثت بهذا الحديث المهدي (أي الخليفة) فقال: مئة نسمة تعتق على عهدة الأعرابي. أي تحرر على حسب ما قال الأعرابي، وعلى ذمته ومسؤوليته.

دلت الأحاديث على أن عتق الرقاب من أفضل الصدقات وأكرم ألوان الإحسان، وتطلب الصدقة في حال القوة والشباب لا عند الموت، كما تطلب في أوقات الأزمات والمخاوف، فتكون طريقاً للفرج من الكرب. وهذا ثابت في السنة، لما رواه البيهقي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يُعتق عند الموت مثل الذي يُهدي إذا شبع». أي إن قبول الصدقة حينما يكون المتصدق محتاجاً إليها، لا في وقت الزهد بها والاستغناء عنها.

وأما العتق في وقت الشدة فلما رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: ولقد أمر النبي ﷺ بالعَتَاق في كسوف الشمس. لأنه وقت خوف وهلع، فتكون الصدقة أقرب إلى القبول، وسبباً لتفريج الكروب، وإزالة الهموم، ودفع احتمال الضرر، لأن «الصدقة ترفع البلاء، وتطفئ غضب الرب، وتمنع ميتة السوء»[1] أي عدم الوفاة على الإيمان وسوء الخاتمة.

---

(١) روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة لتطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء».

إن هذه الحملة القوية في شريعة القرآن هي من أجل تحرير الإنسان والإنسانية، لأن الحرية توفر الكرامة والعزة وتنمي الشخصية، وتكتمل فيها الأهلية، فيزداد النشاط الاقتصادي والاجتماعي بل الديني والثقافي.

ومن أجل رفع هذا رفع الإسلام منار الحرية والتحرير عالياً، لأن العبودية ذل ومهانة، وتشيع في أجوائها معاني التخلف والتأخر، وسوء الأخلاق، وإشاعة الفواحش والموبقات.

ومن أسوأ ما تعاني منه الدول الضعيفة المعاصرة استعباد الشعوب واستعمار الأمم، والتسلط على الآخرين، واستنزاف خيراتهم وثرواتهم، وامتصاص الدماء، والاعتداء على الكرامات، وتهديد الوجود، وسلب نعمة الاستقلال وشرفِ الوطن.

الأصل الثلاثون والحادي والثلاثون
من أصول الإيمان

كفارات الجنايات والوفاء بالعقود

الكفارات الواجبة على اقتراف الذنوب أربع: كفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة ملامسة الزوجة في نهار رمضان. والفدية قريبة الشبه من الكفارة، لكن الكفارة لا تجب إلى عن ذنب، والفدية تجب بالذنب، أو بما ليس بذنب. وكل من الفدية والكفارة جبر لنقص، وتقرب إلى الله تعالى بشيء يكون سبباً لمسح أثر الفعل السيئ.

والوفاء بالعقود وبنودها من أصول الإيمان، ومقتضيات الإسلام، وضرورات الحياة الاجتماعية، لتوفير الثقة، وتعميم الاستقرار في المعاملات، والحفاظ على شرف الكلمة وأصول التعامل. وما أكثر التوجيهات الشرعية في هذا، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ٥/ ١] وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩١].

وقال النبي ﷺ: «المسلمون عند شروطهم»[1]. أو «المسلمون على

---

(١) رواه الحاكم عن أنس وعائشة، وهو صحيح.

شروطهم»[١]. دلت الآيات والأحاديث على أن كل من عقد عقداً من العقود المشروعة، وجب عليه الوفاء بشروطها، وعلى أن من نذر نذراً وجب عليه الوفاء بنذره، لقوله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[٢]. فالنذر التزام بين الناذر وربه يجعل المنذور فرضاً واجب الوفاء.

ومن ألزم ما يجب الوفاء به الشروط الزوجية، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن عقبة بن عامر الجُهَني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحق الشروط أن يوفّى به ما استحللتم به فروج النساء».

وناكث العهد أو الوعد أو ناقض العقد يعد فعله من النفاق العملي، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خَلة[٣] من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر».

ومسؤولية ناقض العهد أو الغادر عظيمة جداً يوم القيامة، لحديث الصحيحين عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غُدرة فلان».

بل إن الغدر إخلال بالدين، وتجرد عن الدين وانحلال منه، لما أخرجه أحمد وابن حبان عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[٤].

---

(١) رواه أبو داوود عن أبي هريرة، وهو صحيح.
(٢) أخرجه البخاري في الصحيح.
(٣) الخَلَّة: الخصلة.
(٤) وهو صحيح.

وليس من أصول الأخلاق الإخلاف بالوعد أو العهد، لما رواه البيهقي في الشُّعب، عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «تقبَّلوا[(١)] لي بست أتقبل لكم بالجنة». قالوا: وما هي؟ قال: «إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن، غضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم».

أوضح ابن عباس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ بقوله: يعني بالعهود، ويعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض، وما حدّ في القرآن كله.

ومن أمثلة الوفاء بالعهود ما قال سليم بن عامر: كان بين معاوية وبين الروم عهد، فأراد أن يغزوهم، فتعجل شهراً، قال: فجعل رجل في أرض الروم على برذون يقول: غدر، فإذا هو عمرو بن عنبسة فدعاه معاوية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحل له أن يحل عُقدة حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء».

وفي رواية أخرى كان بين معاوية وبين الروم عهد، فكان يسير حتى يكون قريباً من أرضهم، فإذا انقضت المدة غزاهم، فجاء رجل على فرس له، وهو يقول: الله أكبر، وفاء لا غدر، فإذا رجل من بني سُليم يقال له عمرو بن عنبسة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشدّ عُقدة ولا يُحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء». قال: فرجع معاوية بالجيوش.

والوفاء بالعهد واجب على السواء على المسلم وغير المسلم، ويجب للمسلم وغير المسلم، قال ميمون بن مهران: ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء: من عاهدته وفى بعهده، مسلماً كان أو كافراً، فإنما العهد لله عز

---

(١) تكفلوا.

وجل، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها، مسلماً كان أو كافراً، ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً.

يؤكده ما رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث ليس لأحد من الناس فيهن رخصة: بر الوالدين، مسلماً كان أو كافراً، والوفاء بالعهد لمسلم كان أو كافراً، وأداء الأمانة إلى مسلم كان أو كافراً».

ونقض الوعد أو العهد يتطلب توافر القصد أو العمد في الإخلال بالواجب، لما رواه أبو داوود عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من وعد منكم رجلاً عدة، ومن نيته أن يفي بذلك، فلم يف لموعده، فلا إثم عليه».

الأصل الثاني والثلاثون من أصول الإيمان

التحدث بالنِّعم الإلهية

إن من أهم مقتضيات الإيمان عرفانَ الجميل، وحمد المنعم، وشكر الرازق، وعبادة الخالِق المتفضل على عباده بألوان النعم الكثيرة، ومختلف الآلاء الجميلة، فمن شَكَر النعمة بجميع مشاعره وقلبه ولسانه فقد أدى الواجب، وقدّر عظائم النعم، ونعم الله تعالى يتعذر حصرها، ويصعب الإحاطة بها، لكثرتها وتنوعها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٤]. ومصدر جميع النعم الصغيرة والكبيرة هو الله جل جلاله، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣].

وعبادة الله سبحانه أول أركان شكر المنعم وهو الله تعالى. لذا أمرنا الحق جل جلاله بعبادته، وأبان أسباب هذا الأمر، مما يوجب الإقرار بوحدانيته، وهجر كل ألوان الشرك، وإبطال عبادة الأنداد (النظراء) فقال تعالى مجملاً كل ذاك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١-٢٢].

المنعم هو الله جل جلاله، وأصول النعمة وأسبابها خلق الإنسان، وجعل الأرض صالحة للعيش الكريم له كالفراش، وتكوين السماوات، وجعلها مظلة للأرض، وإنزال المطر، وجعله سبب الحياة لإنبات الزرع، وإخراج الثمر، فهل يليق اتخاذ الشركاء لله من الأنداد المزعوم ألوهيتها؟!

قال الحليمي رحمه الله: اعبدوا الله دون غيره، فإنه خلقكم، وخَلْق من قبلكم إنما كان منه لا من غيره، فلا تجعلوا لله نداً (نظيراً وشريكاً) وأخلصوا العبادة له، ولا تسموا باسمه، فهو وحده الله الذي لا إله غيره. ثم إن الله جل وعز بيَّن مما عدد من نعمه على الناس ما يلزمهم به من تعظيمه أولاً، ثم شكره على ما ابتدأهم منها.

وأول نعم الله على الإنسان هو الخلق من العدم، وهي نعمة الحياة التي بها يتم العمل، ثم نعمة العقل وكونه أداة الفكر، ليعلم الإنسان نفسه ويعلم غيره ويعلم فاعله، ويميز بين الخير والشر، والسيئ وضده، ثم نعمة الحواس الخمس الضرورية لاستكمال مقومات الحياة، والحواس هي السمع الذي يدرك به الأصوات، والبصر الذي يدرك به الألوان، والشم الذي يدرك به الروائح، واللمس الذي يدرك به النعومة والخشونة، والطَّعْم الذي يدرك به مرارة الشيء وحموضته وحلاوته، وهذه الحواس ذكرت في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٣] وذكرت أيضاً في آية أخرى هي ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٨] أي إنما جعل الله هذه المنافع لتشكروه، والشكر استعمال الأعضاء في طاعة الله خاصة، وترك استعمالها في معاصيه. وبالحواس ندرك المراد من وحي الله تعالى، ونذكر الله عز وجل.

ثم إن الله تعالى جعل في كل عضو من أعضاء الإنسان نعمة لا بد من

شكرها، ومن شُكْرها المعرفة بأنها من الله جل ثناؤه، ثم استعمالها في طاعة الله دون معصيته.

ومن نعم الله عز وجل خلق الإنسان معتدلاً، منتصب القامة، شاخص الرأس والوجه، لا منكساً كالبهائم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٩٥/٤].

وكرَّم الله الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/٧٠] ومن تكريم الإنسان أنه يأكل بيده، فلا يتناول الطعام من الأرض بفمه.

ومن نعمه تعالى على الناس أنه منحهم البيان باللسان والقلم، قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٥٥/١-٤] وقال عز وجل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٩٦/٣-٥].

ومن نعم الله على خلقه جمال الهيئة الإنسانية، حيث جرد الناس من الشعر الذي هو سترة لأبدان الحيوانات، ولم يجعل للناس مخالب في أيديهم وأرجلهم.

ومن نعم الله على الإنسان والحيوان هضم الطعام، وإخراج فضلاته وطردها من الجسد، منعاً من سمومها وأضرارها ومضايقتها.

ومن نعم الله خلق السماوات والأرض، ووجود الليل والنهار، والظلمة والنور، والحركة في النهار، والنوم في الليل للاستراحة من أذى الإعياء والتعب، وتطييب النفس، وتجديد النشاط والحيوية، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ٦/١] وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا[١] ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٧٨/٦-١١].

---

(١) أي راحة لأبدانكم، وقطعاً لأعمالكم.

ومن نعمه تعالى نعمة التفكير وما فيها من الإرشاد والتعليم، وتعليم الزراعات والصناعات والحرف، وجعلها مصالح ومكاسب وموزعة بين الناس، فمنهم المزارع، والحرَّاث، والحصَّاد، والغازل والناسج، والتاجر والصائغ، والطبيب والمهندس والعالم والمرشد أو الواعظ وغيرهم لتحقيق التكامل وتوزيع الأشغال بين الأفراد، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢].

ومن نعم الله الجليلة تمام الصحة، وإيجاد منافع الخَلْق العامة والخاصة في السماء والأرض، وإنزال الكتب السماوية، وإرسال الأنبياء والرسل للإرشاد والإنقاذ، والترغيب والترهيب، والتهديد والتذكير، ونحو ذلك، وفي الجملة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣] الآية.

ومن نعم الله تعالى نعمة الإسلام، والصحة والعافية، وتوفير الرزق لصون المعيشة، قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤]. وقال عز وجل: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٦].

والخلاصة: ما جاء في حديث رواه البيهقي في الشعب ونصه: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة، والفرقة عذاب».

شكر النعم الإلهية

إن أولى واجبات الوفاء شكرُ نعم الله عز وجل وإجلالها واحترامها وصونها من الإساءة والاحتقار، فمن عظَّم نعم الله تعالى وصانها وتأدب

في الحفاظ عليه وشكرها، زاده الله نعمة وفضلاً وإحساناً، لذلك علّمنا الله سبحانه ضرورة الإشادة بنعمه الكريمة ومداومة شكرها وحفظها، في آيات كثيرة، منها:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣] والتذكير بالنعمة مطالبة بالشكر والحمد والثناء على المنعم كما قال سبحانه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٢] ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٣] ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٧] ونحو ذلك من الآيات.

وللشكر دلالات معبرة وعظيمة:

منها اعتقاد أن الله قد أنعم فأكثر وأجزل، وكل ما بنا من نعمة فمن الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٣] والنعمة فضل من الله، ومهما بذلنا من جهد لم نؤد شكر النعمة ومعرفة قدرها.

ومنها الثناء على الله عز وجل وحمده أداء لحقوق الله علينا بالاعتقاد واللسان والاعتراف بالنعمة.

ومنها الاجتهاد في طاعة الله فعلاً بما أمر، وكفًّا عما نهى عنه، وهو مقتضى تعظيم الله، ولا تعظيم كالطاعة.

ومنها إشفاق الإنسان وخوفه في كل أحواله من زوال نعم الله تعالى عنه.

ومنها ضرورة إنفاق الإنسان مما آتاه الله في سبيل الله، ومواساة أهل الحاجة، وتعميم جميع أبواب الخير.

ومنها ترك المفاخرة من الإنسان بما آتاه الله على غيره، وتجنب البذخ والصلف والزهو والتكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٨].

والله تعالى يحب الثناء على نعمه وحمدَه في كل حال، لذا علَّمنا في مطلع الفاتحة بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/٢] وجاء في حديث رواه البيهقي: «وما شيء أحبُّ إلى الله من الحمد»[١] والسنة أن يقول المؤمن في الصباح والمساء: «من قال حين يصبح وحين يمسي: اللهم ما أصبح بي من نعمة، أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر، إلا أدى شكر ذلك اليوم»[٢].

وفي حديث آخر رواه البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد من نعمةٍ من أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت». وفي رواية: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضره».

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الدعاء لا إله إلا الله، وأفضل الذكر الحمد لله». وفي رواية: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله».

وحمد الله مطلوب في كل حال وأمر من الأمور، لحديث أبي هريرة عند البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أقطع».

وثمرة الحمد لله تقديم الحامدين في دخول الجنة، لما رواه البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله في السرّاء والضرَّاء». وفي رواية: «الحمّادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء».

وروى البيهقي أيضاً عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان النبي ﷺ إذا

---

(١) لكنه ضعيف السند.

(٢) رواه البيهقي عن عبد الله بن عنبسة عن ابن غنام.

أتاه الأمر يسُرُّه قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال».

وأردف البيهقي ذلك بحديث آخر عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال، وأعوذ بك ربي من حال أهل النار».

ويتكرر الحمد دائماً بعد تناول الطعام والشراب، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قُباء النبيَّ ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعم ولا يُطعَم، منَّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودّع ربي ولا مكافًا، ولا مكفور ولا مستغنى عنه. الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العُري، وهدى من الضلالة، وبصّر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلاً. الحمد لله رب العالمين».

وكذلك الشكر مطلوب على نعمة الإيواء وارتداء الثياب وكل نعمة جديدة أو قديمة، روى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال إذا أوى إلى فراشه: الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منَّ علي فأفضل. فقد حمد الله بجميع محامد الخلق كلهم».

وروى البيهقي أيضاً عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد من نعمة فعلم أن تلك النعمة من الله إلا قبل الله شكره قبل أن يحمده».

وروى عبد الله بن أحمد عن رفاعة بن رافع الأنصاري حين عطس في الصلاة فقال: الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً كما يحب ربنا ويرضى.

فلما صلى رسول الله ﷺ قال: «أين المتكلم في الصلاة؟» فقلت: أنا يا رسول الله، فقال الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعد بها».

وروى البخاري في الصحيح عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا تعارّ[١] من الليل قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

أنواع المحامد وحكم الشكر

حمد الله وشكره واجب على الإنسان في كل الأحوال، وتتعدد ألوان الحمد والشكر حينما نجد أنفسنا مغمورين بنعم الله تعالى وأفضاله وكثرة إحسانه، فكان حرياً بنا مقابلة عظيم النعمة بالشكر، سواء في الأذكار أو الصلوات، أو بعد ألوان الإنعام الإلهي من طعام وشراب ولباس وغيرها، وبسبب التعرض للمصاب والنجاة من المصيبة ودفع الشر، وزوال النقمة، أو لدوام الصحة والعافية، واستقرار الأحوال والعيش في أمان واطمئنان.

ومن المحامد الأذكار من تكبير وتسبيح وتحميد، وذلك فيما أرشدت إليه التوجيهات النبوية مما رواه البيهقي وغيره، مثل المروي عن أبي أمامة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من قال: الحمد لله مئة مرة، كانت له مثلَ مئة فرس ملجومة في سبيل الله». وفي لفظ: «من قال: سبحان الله وبحمده مئة مرة، كانت له مثل مئة بدنة تنحر في مكة». وفي حديث آخر: أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: علِّمني دعاء لعل الله أن ينفعني به. قال: «قل: اللهم لك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله».

---

(١) استيقظ.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من كبَّر واحدة، كتبت له عشرون، ومحيت عنه عشرون، ومن سبح واحدة كتبت له عشرون، ومحيت عنه عشرون، ومن حمد واحدة كتبت له ثلاثون ومحيت عنه ثلاثون». أي إن ثواب الحمد أعظم من ثواب التكبير والتسبيح.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبدٌ لا يحمده».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد من نعمة، فقال: الحمد لله إلا وقد أدى شكرها، فإن قالها الثانية حدد الله له ثوابها، فإن قالها الثالثة: غفر الله له ذنوبه»[1].

ومن بشائر أو ثمرات الحمد ما قال الحسن البصري: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة، فحمد الله عليها، إلا كان حمد الله تعالى أعظم منها كائنة ما كانت».

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أحبك فقل: اللهم أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك».

وجميع المخلوقات من الإنس والجن والحيوان والجماد يحمد الله على ما أنعم، فعن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن على الناس حتى فرغ قال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ الجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأتُ عليهم من مرة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

وشكر القليل مطلوب كالكثير، وكذلك شكر الناس على ما يقدِّمون من معروف، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان. وكذلك ما يأتي بعده من الأحاديث والآثار ما عدا المذكور في صحيح مسلم.

«التحدث بنعم الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير». «ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة برَكة، والفرقة عذاب».

ومن نعم الله تعالى على عباده ما قال أبو أمامة: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك خيرُ ما أكثر الناس».

وحمد الله على الصحة والعافية ولا سيما عند رؤية أهل الابتلاء مطلوب شرعاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم أحداً في بلاء فليقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه، وفضلني على كثير من عباده تفضيلاً». ومن ابتلي فصبر، وأعطي فشكر، وظُلم فغفر، وظَلَم فاستغفر، كثر ماله، وكان في أمان.

ووصف المغيرة بن عامر منزلة الشكر قائلاً: «الشكر نصف الإيمان، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نظر في المرآة قال: «الحمد لله الذي حسَّن خَلْقي وخُلُقي، وزان مني ما شان من غيري».

والحمد لله بعد الطعام والشراب مسنون ومطلوب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للطاعم الشاكر مثل ما للصائم الصابر».

وحدَّثت عائشة عن النبي ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السلام لم يقم على خلاء قط إلا قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى منفعته في جسدي، وأخرج عني أذاه».

وعن أبي جعفر: كان رسول الله ﷺ إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

وروى البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

وروى مسلم في الصحيح عن ابن عمر قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحول عافيتك، ومن فجأة نقمتك، ومن جميع سخطك وغضبك».

وروى مسلم في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عز وجل».

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

فضل نعمة العقل

كلما تأمل الإنسان بعمق وفكر حصيف بتكوين نفسه وعقله، ازداد إيماناً ويقيناً بعظمة الخالق المبدع، فإن كل نفس كيان مستقل متكامل ومزوَّد بطاقات وإمكانات رائعة، متناهية في الدقة والإتقان، والقدرة على متابعة المهام الإنسانية منذ بدء الولادة إلى نهاية العمر الإنساني، وهذا مدعاة للشكر وتقدير هذه النعمة الجسيمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢١] وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٨].

هذه النفس المزدانة بأجهزة مختلفة كالدورة الدموية وجهاز التنفس والهضم وبقية الحواس، يتوّجها العقل الإنساني الذي كرَّم الله عز وجل به

كل إنسان. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠] والتكريم بالعقل.

وقد وردت أحاديث وآثار كثيرة عند البيهقي في شعب الإيمان وغيره من المحدثين تنبّه إلى قيمة العقل وضرورة شكر الواهب المبدع، منها ما يأتي:

في حديث مرسل عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والصوم والزكاة والحج والعمرة، حتى ذكر سهام الخير كلِّها، وما يُجْزى إلا بقدر عقله».

وإشعاعات العقل وفضائله كثيرة، فلا يستغنى عنه في كل لحظة، سواء في الأحوال العادية أو الأحداث الطارئة وحل المشكلات المستعصية والقضايا المفاجئة لمعالجة الحلول الناجعة وتدبير الخطط الناجحة، روى البيهقي وابن ماجه في حديث حسن عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق». والحسب ما يعده الإنسان من المفاخر.

وأخرج الإمام أحمد وغيره(١) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حليم إلا ذو عَثْرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة». أي إن حكمة العقل تستمد من التجارب والخبرات.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٨٩/ ٥] أي لذي عقل، لذي رأي.

وأخرج البخاري عن قرة بن هبيرة من بني قُشَير أنه أتى النبي ﷺ فقال: إنه كان لنا أرباب تعبد من دون الله، فدعوناهن فلم يُجبن،

---

(١) كالترمذي والبيهقي وابن حبان والحاكم، وهو صحيح.

وسألناهن فلم يُعطين، وجئناك فهدانا - أي الله - فقال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من رزق لُبّاً». أي عقلاً ووعياً.

وأخرج أحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحَسَبه خلقه»[1].

والعقل السليم أداة حاسمة وإيجابية في تمييز الحق من الباطل والخير من الشر، فيتّبع الخير ويجتنب الشر، قال سفيان بن عيينة: ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر، إنما العاقل الذي إذا رأى الخير اتّبعه، وإذا رأى الشر اجتنبه.

وقال الإمام جعفر الصادق (جعفر بن محمد): العدل من سلطان العقل، والجور من سلطان الهوى، والنفس بينهما، فمن أطاع عقله سدَّده وأرشده، ومن مال به هواه أضله وأهلكه.

والعقل ميزان العلم والموجّه له لما هو أنفع، قال يزيد بن هارون: من كان علمه أكثر من عقله خَشيتُ عليه، ومن كان عقله أكثر من علمه رجوتُ له. وقال يونس بن عبيد: لا ينفعك القارئ حتى يكون له عقل.

والعقل جوهر الإنسان الذي يرفع قدره، قال الحارث المحاسبي: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل. قيل: وما جوهر العقل؟ قال: الصبر. وكان مالك بن أنس رحمه الله يقول: العاقل من عقل عن الله عز وجل أمرَه، وصبر على بلوى زمانه.

ويحتاج العقل إلى أداة تعبير متحفظة ومتأنية، قال الحسن البصري: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

ومقتضى العقل المجاملة والملاطفة والتحبب إلى الآخرين، قال

---

(١) حديث صحيح.

ميمون بن مهران: التودد إلى الناس نصف العقل، وحسن المسألة نصف الفقه، ورفقك في معيشتك يلقى نصف المؤنة.

والعقل زاجر عما لا ينبغي، قال عامر بن عبد القيس: إذا عقَلَك عملك عما لا ينبغي، فأنت عاقل. أي إذا منعك أو حجزك العمل عن الشائن المعيب فأنت عاقل. وقال الأحنف بن قيس: العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قرين.

ومن أعظم فوائد العقل إدراك الصحيح، والامتناع عن الخطأ، ومعرفة نعم الله تعالى على الإنسان، فبالعقل وبمعرفة نعم الله نستدل على المنعم وعلى قدرته وعلمه، وحكمته ووحدانيته.

والعقل أداة تأمل في الكون الأعظم من السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من منافع للإنسان، وحينئذ يهتدي الإنسان إلى الإيمان بالله عز وجل، وبأنه إله واحد لا شريك له، وأنه وحده لا غيره هو المستحق للعبادة والطاعة والدينونة والخضوع لأمره ونهيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠-١٩١].

نعمة النوم

من عظائم نعم الله جل جلاله على عباده وجودُ الليل والنهار، وجعلُ الليل سبيلاً للراحة وتجديد النشاط والحيوية، وتخصيصُ النهار للعمل والجد والبناء وكسب المعايش، وتبادل الود والمعرفة مع الآخرين من بني

الإنسان، لتستقيم الحياة، ويسهم كل واحد في تقدم البشرية وإثبات الذات الإنسانية، واكتساب الخبرات والتجارب والعلوم والمعارف. وهذا ما صرح به القرآن الكريم في آياته الكبرى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا[1] ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا[2] ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٧٨/٦-١١].

وقد وجَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى آداب النوم، وتعليم الأذكار عند النوم لأنه الموتة الصغرى، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن البراء بن عازب، أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: إني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك، فإنك إن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة». قال: فجعلت أرددهن لأستذكرهن، فقلت: وبرسولك الذي أرسلت، فقال: «ونبيك الذي أرسلت».

وروى الشيخان في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتى أحدكم إلى فراشه، فلينفض فراشه بداخل إزاره، كأنه لا يدري ما خلّفه عليه، ثم يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: باسمك ربّ وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به الصالحين».

وروى البخاري في الصحيح عن حذيفة بن اليمان قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع يده على خده، ثم قال:

(١) وجعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم.
(٢) وجعلنا الليل في ظلمته كاللباس في الستر والتغطية.

«اللهم باسمك أموت وأحيا». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

وإيضاح ذلك فيما رواه البيهقي من طريق أبي داوود في الأدب عن حفصة زوج النبي ﷺ قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد، وضع يده اليمنى تحت خده، ثم يقول: «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك - ثلاث مرات».

وروى البيهقي عن أبي رافع أن خالد بن الوليد جاء إلى النبي ﷺ، فشكا إليه وحشة يجدها. فقال له: «ألا أعلّمك ما علمني الروح الأمين جبريل عليه السلام؟. قال: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فقل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرّ ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها. ومن شر طوارق الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير يا رحمن».

وقال ابن عباس: لا تنامن إلا على وضوء، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

وروى البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يأوي إلى فراشه - وهو طاهر -: الحمد لله الذي بطن فخبر، والحمد لله الذي ملك فقدر، والحمد لله الذي يحيي الموتى، وهو على كل شيء قدير، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً منبطحاً على وجهه فقال: «إن هذه ضجعة ما يحبها الله تعالى» أو «لا يحبها الله عز وجل».

وأخرج البخاري في الصحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «لو تعلمون ما في الوحدة ما سار راكب بليل أبداً». وروى البيهقي عن

عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «الصُّبْحة تمنع الرزق». أي النوم عند الصباح.

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الغفلة في ثلاث: الغفلة عن ذكر الله عز وجل، والغفلة عن صلاة الغداة[١] إلى طلوع الشمس، وغفلة الرجل عن نفسه في الدِّين».

وروى البيهقي عن فاطمة بنت محمد ﷺ قالت: مرَّ بي رسول الله ﷺ وأنا مضطجعة متصبحة، فحركني برجله، ثم قال: «يا بنية قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[٢].

والنوم المسنون في النهار هو في وقت الضحى، لما رواه أبو داوود عن ابن عباس، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «استعينوا بقيلولة النهار على قيام الليل، وبطعام السحر على صيام النهار».

واتخذ أبو الدرداء ظُلَّة يقيل فيها، فقيل له في ذلك، فقال: إن نفسي مطيتي، فإن لم أرفق بها لم تبلِّغني.

وقال عبد الرحمن بن زياد بن أنعُم: كمال المروءة أن تحرز دينك، وتصل رحمك، وتكرم إخوانك، وتصلح مالك، وتقيل في بيتك.

وكثرة النوم مذمومة، فقد روى البيهقي عن جابر قال: سأل رجل رسول الله ﷺ: أيَنام أهل الجنة؟ قال: «النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة».

وقالت أم سليمان بن داوود لابنها: يا بني لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع صاحبه فقيراً يوم القيامة.

---

(١) أي صلاة الصبح.
(٢) إسناده ضعيف.

نعمة الرؤيا الصالحة

أول ما بدئ به النبي ﷺ هو الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الفجر. وأما الرؤيا الصالحة من غير النبي فهي بشارة طيبة وفأل حسن، لقول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٤].

وقد روى البيهقي في الشُّعَب أحاديث ثابتة تقر بمصداقية الرؤيا الحسنة، منها ما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كشف الستارة، والناس صفوف، خلف أبي بكر رضي الله عنه، فقال له: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له».

ومنها عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «لم يبق بعدي من المبشِّرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له».

وعن أبي الدرداء قال: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «البشرى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، وفي الآخرة الجنة». أي لا فرق بين أن يرى المؤمن رؤيا صالحة، أو يراها له غيره، فمدلولها حسن وتبشر بخير.

عن أنس عن النبي ﷺ قال: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1]. وبما أن النبوة ثابتة ومحتواها مؤكد، فالرؤيا الحسنة جزء من النبوة، وتبشر بالخير.

وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) روى ذلك وما قبله البيهقي في شعبه.

«رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

وروى مسلم أيضاً عن أبي قتادة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلماً يكرهه، فليبصق[1] عن يساره ثلاث بصقات، ويستعيذ من الشيطان فإنه لا يضره».

وفي رواية في الصحيحين عن أبي قتادة: «الرؤيا الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، فإذا رأى ما يكره فاستيقظ، فليتفل عن يساره ثلاثاً، ويتعوذ بالله من شرها، ومن الشيطان، ولا يخبر بها أحداً، فإنها لن تضره». وروى مسلم عن جابر ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً».

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اقترب الزمان، لم تكد رؤيا المسلمين تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا بشرى من الله، ورؤيا من الشر يحدّث به الإنسان نفسه، ورؤيا من تحزين الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يذكرنه، وليقم فليصل، وأُحب القيد في النوم، وأكره الغِل[2]، والقيد ثبات في الدين».

وليحذر من رأى رؤيا سيئة أن يحدث بها أحداً من الناس، لما رواه البيهقي عن أبي رَزين قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رِجْل طائر ما لم تعبّر، فإذا عُبِّرت وقعت». وأحسبه قال: «ولا تقصها إلا على وادّ أو ذي رأي». والوادّ الحبيب، كما في رواية أخرى. وروى الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فلا يحدث بها أحداً، وليقم فليصل».

---

(١) وفي رواية: «فلينفث» والنفْث: هو نفخ لطيف لا ريق معه.
(٢) أي الحقد.

ومن رأى رؤيا مكروهة فليقل: أعوذ بالله من شر ما أجد وأحاذر، أو يقول: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله ورسلُه من شر رؤياي الليلة، أن تضرني في ديني أو دنياي يا رحمن. وروى ابن السني: «إذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فليتفل ثلاث مرات، ثم ليقل: اللهم إني أعوذ بك من عمل الشيطان، ومن سيئات الأحلام فإنها لا تكون شيئاً».

وليحذر الإنسان من أن يتقول أو يدعي رؤيا لم يرها، لما رواه البخاري في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من أفرى الفرى أن يُري عينيه في المنام ما لم يَرَ».

ولا يتعجل المؤمن تحقيق رؤياه، لأن ذلك منوط بإرادة الله وحكمته، قال عبد الله بن شداد: وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة، وإليها تنتهي أقصى رؤيا.

وإذا قصَّت الرؤيا على إنسان فليعمل بالحديث الذي رواه ابن السني: أن النبي ﷺ قال لمن قال له: رأيتُ رؤيا قال: «خيراً رأيت، وخيراً يكون». وفي رواية: «خيراً تلقاه، وشراً تَوقّاه، خيراً لنا، وشراً على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين».

ومن فزع في منامه قال كما ورد في السنة، روى أبو داوود والترمذي، وقال: حديث حسن، وابن السني وغيرهم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يعلّمهم من الفزع كلماتٍ: «أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

دلَّت الأحاديث على أن الرؤيا نوعان، ولكل نوع حكم معين، أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها، فإنما هي من الله تعالى، فليحمد الله

تعالى عليها، وليحدِّث بها». وفي رواية: «فلا يحدث بها إلا من يحب، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره».

والاستعاذة من الشيطان كما تقدم، بعد أن ينفث عن شماله ثلاثاً، والنفْث هو نفخ لطيف لا ريق معه.

المحتوى

الأصل الثالث والثلاثون من أصول الإيمان

حفظ اللسان

حِفْظ اللسان أحد أصول الإيمان وشعبه الأساسية في الحياة الاجتماعية والخاصة والعامة، فهو أساس النجاة من المآزق والمعايب والإحراج، والتفريط في الكلام سبب جوهري في التورط بالمشكلات وإثارة الانتقادات، وربما تؤدي الكلمة الشائنة إلى نزاع مستمر، وعداء مستحكم، واقتتال وشرور وضرب موجع.

لذا كان حفظ اللسان من أصول الإيمان والوقاية من المآخذ، وعلى الإنسان أن يعتاد منذ صغره على عفة اللسان عن فاحش الكلام كالسب والتعيير والغيبة والنميمة والنقد الجارح والتعيير والهمز واللمز، فذلك كله خدش للمروءة، وموجب لغضب الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١٠٤/١] أي الهلاك والخزي ووادٍ في جهنم لكل مغتاب طعَّان في أعراض الناس وكراماتهم، والعيَّاب الذي يعيب الآخرين بلسانه أو عينه أو يده أو رأسه تحقيراً لهم.

وحفظ اللسان يتناول شيئين: لزوم الصدق، وتجنب الكذب.

وأول آفات الكذب الكذب على الله عز وجل، ثم على نبيه ﷺ، ثم كذب المرء على عينيه ولسانه وسائر أعضائه، والكذب على الوالدين،

والأقارب، وإلحاق الضرر بالنفس أو المال أو الأهل أو الولد.

والكذب المصحوب باليمين أسوأ الكذب. ومن الكذب التملق والإفراط في مدح الرجل، ولا سيما في وجهه، والخوض فيما لا يعني الإنسان، وكثرة الكلام وإطالته، وتكريره.

وقد امتدح الله الصادقين والصادقات في بيان الأوصاف العشرة المستحقين للمغفرة والأجر العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ ثم قال في الصفة الرابعة: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٥]. وامتاز أهل الإيمان بالصدق في تنفيذ عهد الله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٣]. وأمر الله المؤمنين بملازمة الصدق في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٩].

والرمز الأعلى في الصدق صِدْق الله وصدق رسوله، ففي الإعلام الإلهي: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٥]. والنبي عليه الصلاة والسلام هو الصادق المصدوق، ومرتبة الصدِّيق هي المرتبة الثانية بعد النبوة، وأطلقت على الخليفة الأول أبي بكر الصديق.

وقد حذرنا الله تعالى من استعمال الحواس في غير الصدق، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٦] أي بأن يقول الإنسان: سمعت أو رأيت أو عملت، كاذباً في ذلك، فهو تسرُّع في القول دون حقيقة، وهو حرام ممنوع.

وعدم التطابق بين القول والعمل جناية، وكذلك إخلاف الوعد جناية، ومصادم لما يوجبه الإيمان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٦١/ ٢-٣].

والنفاق الذي هو إعلان الإسلام وإبطان الكفر تصادم بين الظاهر والباطن، لذا ذم الله المنافقين على كذبهم وحلفهم مع ذلك على كذبهم، في قوله سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٤].

وقارن الله تعالى بين فريقين، فمدح الصادق بما أتى والمصدق به، وذم الكاذب ووبخ المكذب بما جاء من عند الله في آيتين متعاقبتين، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٣] وهذا جانب إيجابي في المقارنة، والجانب السلبي في آية قبلها: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣٢].

وأسوأ الكذب وصف أحكام التشريع الإلهي بالحل أو الحرمة دون دليل ولا برهان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٦/ ١١٦-١١٧].

والكذب من صفات الكافرين غير المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٥].

ومن أخطر وقائع الكذب لدى المنافقين مواقفهم في التخلف عن حضور معارك القتال في صدر الإسلام، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان النبي ﷺ إذا خرج من الغزو[1]، تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولا تحسبنهم بمفازة من العذاب.

وعاقبة الصدقة النجاة والوصول إلى الخير، وعاقبة الكذب الخسران

---

(١) جهاد المشركين.

والوقوع في الفسق والعصيان، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور[١]، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وفي رواية أخرى عند البخاري عن ابن مسعود قال[٢]: «أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وإنما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين. ألا عليكم بالصدق، فإنه يقرِّب إلى الجنة، ولا يزال العبد يصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً، ويثبت البر في قلبه، فلا يكون للفجور موضع إبرة فيه. ألا وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور، أو إلى النار، ولا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً، ويثبت الفجور في قلبه، فلا يكون للبر موضع إبرة فيه».

مظاهر الصدق والكذب

للصدق أحوال ومظاهر عديدة، كما أن للكذب أحوالاً وآفات كثيرة، وعلى الإنسان أن يتحرى الصدق في جميع أقواله وأفعاله، مع نفسه ومع غيره، وكل ما يلزم به من وعود، ويبرم من عقود أو عهود، وعليه أن يتجنب الكذب في سره وعلانيته مع نفسه ومع الناس جميعاً، حتى مع زوجته وأولاده، سواء في حال الجِدّ أو الهزل، فلا يعرف الإسلام ما يسمى مثلاً بالكذب الأبيض.

---

(١) الفسوق.
(٢) أي النبي ﷺ.

وتفصيل جميع هذه الأحوال واضح في السنة النبوية، روى البيهقي في شعبه عن ابن مسعود، رفعَ الحديث إلى النبي ﷺ قال: «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يَعِدَ الرجل ابنه، ثم لا يُنجز له، إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، إنه يقال للصادق: صدق وبَرَّ، ويقال للكاذب: كذب وفجر، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وفي لفظ: «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩/٩]» قال ابن مسعود: فهل ترون في الكذب من رخصة؟!.

وأخرج مسلم عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط[١]، وكانت من المهاجرات الأُول، اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس، فيقول خيراً، أو يُنمي خيراً». أي يبلغه على وجه الإصلاح. قال ابن شهاب الزهري: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس كذباً إلا في ثلاثة: الحرب، فإن الحرب خدعة، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها[٢]. كأن يقول الرجل لزوجته ليرضيها: أنت أجمل الناس أو أحب الناس إلي، وكذلك قول المرأة لزوجها.

ولم يُبَح في الإصلاح بين الزوجين صريح الكذب، ولكن يباح التعريض، كالمرأة تشكو أن زوجها يبغضها، ولا يحسن إليها، فيقول لها المصلح: لا تقولي ذلك، فمن له غيرك؟ وإذا لم يحبك فمن يحب؟ وإذا لم يحسن إليك فمن يُحسن إحسانه؟ ونحو ذلك، مما يوهمها أن زوجها

---

(١) أم عبد الرحمن بن عوف.
(٢) رواه مسلم إلا «فإن الحرب خدعة»

بخلاف ما تظنه، وإن كانت صادقة في ظنها، ليصلح ذلك ما بينهما. وهكذا في الإصلاح بين الاثنين.

وأما قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٨٩] فيريد به سأسقم، وقوله لسارّة زوجته: أختي، أراد به أنها أخته في الدين، لا في النسب.

وإذا اضطر الإنسان لأن يبتعد عن الحقيقة، فيُشرع له ما يسمى بالمعاريض في الكلام وهي التورية عن الشيء، وفي المثل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، أي سعة. وقال عمر رضي الله عنه: أما في المعاريض ما يغني الرجل عن الكذب؟[١]. ومن أمثلة المعاريض: أن ترسم دائرة خلف باب الدار، فإذا جاء طارق يطلب الرجل، قالت زوجته: ليس هنا، مشيرة إلى الدائرة، لتتخلص من الشخص غير المرغوب فيه.

وطريق الجنة الحفاظ على ست خصال، منها: الصدق، أخرج أحمد في مسنده[٢] وغيره عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

والكذب من علامات النفاق العملي، لا الاعتقادي، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

وفي حديث موقوف على أبي بكر رضي الله عنه: «الكذب مجانب الإيمان» أو «للإيمان».

---

(١) وهذا ما كان يقوله عمران بن حصين الصحابي الجليل.

(٢) وابن حبان والحاكم والبيهقي، والحديث صحيح.

وشأن المؤمن ألا يخون وألا يكذب، لما أخرجه البيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يُطْبَع المؤمن على كل خلق، ليس الخيانة والكذب»(١).

وروى البيهقي عن صفوان بن سليم أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم». قيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم». فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا».

وروى البيهقي أيضاً عن عائشة قالت: ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ يكذب عنده الكِذْبة، فما يزال في نفسه، حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة(٢).

وعلى المؤمن أن يصدق في حديثه كله، وألا يخدع السامع بأن ما يقوله صدق، وهو كذب، أخرج البخاري في الأدب المفرد وأبو داوود عن سفيان بن أسد، عن النبي ﷺ قال: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب»(٣).

وروى البيهقي عن عبد الله بن ربيعة قال: جاءَ رسولُ الله ﷺ بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت ألعب، فقالت لي أمي: يا عبد الله تعال أعطيك، فقال رسول الله ﷺ: «ما أردتِ أن تعطيه؟». قال: أردت أن أعطيه بسراً، قال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة».

---

(١) وهو حديث حسن.

(٢) قال البخاري: وهو مرسل أي بين إبراهيم بن ميسرة وعائشة.

(٣) قال عنه السيوطي: ضعيف

أحوال الكذب

على الإنسان أن يكون واقعياً في كل أحواله، فلا يتصنع، ولا يتزيف، ولا يتزين بما ليس فيه أو بما لا يملك، أو بأن يوصف بأوصاف غير صحيحة، حتى ولو كان يقصد القربة إلى الله تعالى، أو حمل الناس على الطاعة، وترغيبهم في الاستقامة، وترهيبهم من المعاصي، ففي كل ذلك وأمثاله يجب تحري الصدق واجتناب الكذب.

ومن أخطر أحوال الكذب الكذب على رسول الله ﷺ وادعاء أنه قال كذا، وهو في الواقع لم يقله. ورد في الحديث المتواتر: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»(١).

وأخرج البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تكذبوا عليّ، فإنه من كذب علي يلج النار».

والنوح على الميت من أحوال الكذب، أخرج الشيخان في الصحيحين عن علي بن ربيعة قال: سمعت المغيرة بن شعبة خرج يوماً، فرقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: ما بال هذا النوح في الإسلام؟ وكان مات رجل من الأنصار، فنيح عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نيح عليه يعذَّب بما نيح عليه». أي إذا أوصى بالنواح.

---

(١) أخرجه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس بن مالك. وأخرجه غيرهم عن صحابة آخرين.

والمتظاهر بغير حقيقته أو المتزيف يكون كاذباً، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن عائشة ﵂، أن امرأة جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن لي زوجاً ولي ضَرَّة، وإني أتشبع[1] من زوجي أقول: أعطاني كذا، وكساني كذا، وهو كذب، فقال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يُعْط كلابس ثوبي زور». أي المتصف بشيء لم ينله أو لم يُعْطَه من غيره يكون مزوِّراً. وفي حديث آخر: «المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور». أي المتزين بأكثر مما عنده يتكثر بذلك ويتزين بالباطل. وقال سفيان في بيان الحديث الأول: «يرى الناس عليه ثوبين يظنون أنهما له، وليسا له، وهو متشبع بما ليس له، كذلك المتشبع بما لم ينل». أي بما لم يُعطَه، فهو يتزيا بزيٍّ غير واقعي. وتزوير الكلام والمكتوب والخطوط ومنه تزوير الشهادات والشهود يعد خيانة وكذباً.

والتصوير المجسّد أو المجسّم لكل ذي روح من إنسان أو حيوان يعد كذباً وتزويراً وتصنعاً ومحاكاة للمخلوق بالباطل، روى البخاري في الصحيح عن عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: قال رسول الله ﷺ: «من صوَّر صورة عُذِّب، وكلِّف أن ينفخ فيها[2]، وليس بنافخ، ومن تحلَّم كاذباً عذِّب، وكلِّف أن يعقد بين شعرتين وليس بعاقد، ومن استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون، صبَّ في أذنه الآنك[3] يوم القيامة». فهؤلاء المصوِّر والمتصنع في الحِلْم، والمتنصت لحديث قوم يكرهون فعله هم كاذبون.

وكذلك من يدعي رؤيا منامية، والمنتسب لغير أبيه، والمتقول على النبي ﷺ ما لم يقله هم أيضاً كذبة مزوِّرون، أخرج البخاري عن واثلة أن

---

(١) أي أذكر ما ليس حقيقة.
(٢) أي ينفخ فيها الروح.
(٣) هو الرصاص المذاب.

رسول الله ﷺ قال: «إن من أعظم الفرى أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه، أو أن يُري عينيه ما لم تريا، ويقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل». وفي رواية الإمام أحمد عن ابن عمر: «إن من أفرى الفرى أن يُري الرجل عينه في المنام ما لم تر».

ومن الكذب إضحاك الناس بحديث مفترى، روى البيهقي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للذي يحدِّث فيكذب فيُضحك به الناس، ويل له، ويل له».

يؤكده حديث آخر لدى البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليقول الكلمة، لا يقولها إلا ليضحك بها أهل المجلس يهوي بها أبعد ما بين السماء والأرض، وإن الرجل ليزلّ على لسانه أشد ما يزل على قدميه».

وتذكّر الموت زاجر وواعظ من الهزل والعبث واللعب وغير ذلك، أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذِكْر هاذم اللّذات الموت».

ومن أسوأ حالات الكذب اليمين الكاذبة أو تأكيد المكذب باليمين، لقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١٤] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٧].

وأخرج البخاري في الصحيح عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين كاذباً ليقتطع بها مال امرئ مسلم، أو مال أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان».

وأخرج البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء أعرابي

إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله». قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين». قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس[1]». قلت لعامر: ما اليمين الغموس؟ قال: الذي يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو كاذب.

السكوت عما لا يعني الإنسان

من ألزم آداب الإسلام وأهمها السكوت عن كل ما لا يعني الإنسان، فمن فعل الخير غنم، ومن سكت سَلِم، ومن ترك الشر ربح، والحياة ميزان، والأحوال متقلبة، والسعيد من أبحر فنجا، والشقي من تورط فغرق.

روى مسلم في الصحيح عن أبي شريح الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». أي إن من فضائل الإيمان إكرامَ الضيف، والإحسان إلى الجار، وقول الخير أو السكوت عما لا يعني، لأن من آفات اللسان ومزالقه ما قد يؤدي به إلى المهالك أو المتاعب والمصاعب.

وعفة اللسان أو سلامة الكلام مدخل إلى الجنة، لما رواه البخاري في الصحيح عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أضمن له الجنة؟» أي ضمان ما بين الفكين وهو اللسان، وضمان الفرج من الوقوع في الحرام مؤد إلى الجنة.

---

(١) وهي التي تغمس صاحبها في النار.

يوضحه ما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما يُدخل النار من الناس الأجوفان». قيل: يا رسول الله، وما الأجوفان؟ قال: «الفم والفرج، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس؟ الجنة تقوى الله، وحسن الخلق».

وروى مسلم في الصحيح والبيهقي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بأمر أعتصم به. قال: «قل: آمنت بالله ثم استقم». قال: قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف عليّ؟ قال: فأشار بيده إلى لسان نفسه.

وعند البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على ميقاتها». قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: «ثم بر الوالدين». قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: «أن يَسْلَم الناس من لسانك. ثم سكت». ولو استزدته لزادني.

وأخرج البيهقي عن عقبة بن عامر قال: قلت: يا نبي الله، ما النجاة؟ قال: «املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، ولتبك على خطيئتك».

وذكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود أنه لبى على الصفا، ثم قال: يا لسان قل خيراً تغنم، أو اصمت تسلم من قبل أن تندم. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذا شيء تقوله أو سمعته؟ قال: لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه».

وقال الحسن البصري: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله عبداً تكلم فغنم، أو سكت فسلم».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يسلم فليزم الصمت». وفي رواية: قال رسول الله ﷺ ثلاث مرار: «رحم الله امرأً تكلم فغنم، أو سكت فسلم».

وعند البيهقي عن ركب المصري قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفَقَ من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي ذر الغفاري، قلت: يا رسول الله، أوصني قال: «أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه أزين لأمرك كله». قلت: زدني. قال: «عليك بتلاوة القرآن وذكْرِ الله عز وجل، فإنه ذكر لك في السماء، ونور لك في الأرض». قلت: زدني. قال: «عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك». قلت: زدني. قال: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه». قلت: زدني. قال: «قل الحق وإن كان مُرّاً». قلت: زدني. قال: «لا تخف في الله لومة لائم». قلت: زدني. قال: «ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك».

ولدى البيهقي أيضاً عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله عز وجل، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله عز وجل قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي».

ومن أهم آداب الإسلام ترك الإنسان ما لا يعنيه، روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]. أي ترك كل ما لا يهمه من أمر الدين والدنيا من الأفعال والأقوال.

والإكثار من الكلام غير محمود، أخرج مسلم في الصحيح عن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة، وأقصروا الخطبة، فإن من البيان سحراً». فيا ليت خطباء المنابر يعملون بهذا التوجيه النبوي من إطالة الصلاة، وتقصير الخُطَب.

(١) حديث حسن.

وقد تكون الكلمة الواحدة سبباً لدخول جهنم، روى مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يهوي بها في النار بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب».

يوضح ذلك ما رواه البيهقي عن بلال بن الحارث أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، وما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه».

الترغيب في عفة اللسان

إن من شأن المؤمن الصالح أن يكون قلبه طاهراً صافياً بعيداً عن الغل والحسد، ولسانه عفيفاً متجنباً السب والشتم والفحش والطعن بالآخرين، لا يتكلم إلا بما يرضي الله، ولا يستعمل لسانه إلا في الخير والمعروف والإصلاح بين الناس، والدلالة على الأعمال الحسنة والأفعال الطيبة، عملاً بقول الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٤].

والتزاماً بمقومات أهل النجاة والفلاح الأربعة وهي المذكورة في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١٠٣/ ١-٣] أي إن أركان النجاح عند الله تعالى أربعة وهي: الإيمان بالله واليوم الآخر وبقية الأركان الإيمانية، والعمل الصالح الذي يرضي الله سبحانه، والتواصي

بما هو حق ثابت في شرع الله، وملازمة الصبر على طاعة الله سبحانه وعن المعاصي.

فإذا ارتكب الإنسان خللاً بهذه الأصول خسر الدنيا والآخرة، بدليل ما رواه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن أحدكم يتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات. وإن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله ما يلقي لها بالاً فهو يهوي بها في جهنم».

يؤيده ما رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن معاذ بن جبل ﷺ من حديث طويل جاء فيه: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه، وقال: «كفَّ عليك هذا». قلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك[1]، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟». أي جناياتها على الناس بالوقوع في أعراضهم، والمشي بالنميمة ونحو ذلك. وجنايات اللسان الغيبة والنميمة والكذب، والبهتان، وكلمة الكفر، والسخرية، وخُلْف الوعد، قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٦١/٣]. كما قال الإمام النووي رحمه الله.

وما أشقى المتكلمين بالسوء، لما رواه البيهقي عن أنس ﷺ حدَّث عن رسول الله ﷺ ليلة أسري به قال: «رأيت أقواماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار أو حديد، قال: فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباءُ من أمتك».

---

(١) أي فقدتك، ولم يقصد رسول الله ﷺ حقيقة الدعاء، بل جرى ذلك على عادة العرب في المخاطبات.

وطيب الكلمة وحسن الخلق يقرِّبان في الجنة من منزلة النبي ﷺ، لما رواه البيهقي عن أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مساويكم أخلاقاً، الثرثارون، المتشدِّقون، المتفيهقون».

وروى البيهقي أيضاً عن عمرو بن العاص قال يوماً، وقام رجل فأكثر القول، فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد رأيت أو أُمرت أن أتجوز في القول، فإن الجواز في القول هو خير». أي إن الإيجاز في الكلام خير وأحكم وأفضل من إطالة الكلام.

والله لا يحب المكثار في الكلام، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يحب قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وروى البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا يُصَبن إلا بَعَجَب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع، وذكر الله، وقلة الشيء».

وأخرج الحاكم والبيهقي في شعبه عن أبي ذر الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، وإملاء الخير خير من السكوت، والسكوت خير من إملاء الشر».

ومن الحكم المأثورة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن كثر مزاحه استُخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه».

وقال عمر أيضاً: بحسب المؤمن من الكذب أن يحدِّث بكل ما سمع.

وروى البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب أحدُكم حقيقة الإيمان حتى يخزُن لسانه».

وروى البيهقي في حديث موقوف على ابن مسعود قال: «ما من مسلمَين إلا وبينهما ستر من الله عز وجل، فإذا قال أحدهما لصاحبه كلمة هُجْر[1] خرق ستر الله».

قال الإمام مالك: بلغني أن في حكم آل داوود على العاقل ثلاثاً: يكف لسانه، ويعرف أهل زمانه، ويقبل على شأنه.

وقال الفضيل بن عياض: المؤمن قليل الكلام، كثير العمل، والمنافق كثير الكلام، قليل العمل.

وقال معروف الكرخي: كلام الرجل فيما لا يعنيه مقت من الله عز وجل.

ومن حِكَم محمد بن المنكدر حين سأله عمر بن عبد العزيز: أي الخصال أوضع للمرء؟ قال: كثرة كلامه، وإذاعته أسراره، وثقته بكل أحد.

ما ينبغي حفظ اللسان عنه

لسان المؤمن عَفٌّ طاهر نظيف، لا يتلوث بكلمة نابية أو فاحشة، ولا يخوض في لغو الكلام، لأن الله تعالى وصف المؤمنين بالإعراض عن لغو الحديث وهو كل كلام لا فائدة منه ولا جدوى، قال الله تعالى:

---

(١) الهُجْر القبيح من الكلام.

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-٣].

ويحفظ المؤمن لسانه عن الشعر الذي يكون هجاء أو فحشاً أو كذباً. أما الشعر الذي لا شيء فيه من ذلك، فهو كغيره من الكلام يستحب للمرء ألا يستكثر منه حتى لا يشغله عن قراءة القرآن وذكر الله عز وجل.

روى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوف الرجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً».

وروى البيهقي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «من قال في الإسلام شعراً مُقْذعاً فلسانه هَدَر».

وروى أيضاً عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال: قال النبي ﷺ: «إن أربى الربا شتم الأعراض، وأشد الشتم الهجاء، والراوية أحد الشاتمين».

وروى كذلك عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الناس عند الله فرية: رجل هجا رجلاً، فهجا القبيلة بأسرها، ونفى رجلاً من أبيه ورمى».

وميزان الشعر المقبول ما جاء في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٤-٢٢٧].

وكذلك يحفظ المرء المسلم لسانه عن الغناء الفاحش، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا

هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦/٣١] قال ابن مسعود: والله الغناء.

وروى البيهقي في شعب الإيمان، قال عبد الله بن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب».

ورواه جابر بن عبد الله بلفظ قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء الزرع».

والتغزل بامرأة معينة بذاتها حرام، فإن كان الشعر في غير معين فلا بأس.

وإن كان الغناء كالأهازيج في مناسبات الأعراس والأفراح والأعياد أو كالأشعار الوطنية فلا بأس، لقول النبي ﷺ - فيما يرويه البيهقي - عن عائشة، في يوم عيد: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا».

وأخرج البخاري في الصحيح والإمام أحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي في الشعب عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، ويُضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم قردة وخنازير»[(١)].

ويباح الضرب بالدفوف لمناسبات الزواج والختان والعيد ووداع الحجيج واستقبالهم وركوب المجاهدين ونحو ذلك[(٢)].

وأما التصفيق فمكروه للرجال، لأنه مما خص به النساء، وقد منع الرجال من التشبه بالنساء، كما منعوا من لبس الحرير والمزعفر[(٣)].

وأما الرقص فإن لم يكن فيه تكسر وتخنث فلا بأس به، كما روى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لزيد بن حارثة: «أنت مولانا». فحجل:

---

(١) حديث صحيح.
(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي ٢٨٣/٤
(٣) المرجع السابق.

وهو أن يرفع رجلاً، ويقفز إلى الأخرى من الفرح، أي تحرك على رجل واحدة، وكذلك قال النبي ﷺ لعلي: «أنت مني وأنا منك». فحجِل.

والضرب بالأوتار على الآلات ونحوها حرام.

قال الحليمي رحمه الله: وكل غناء حل أو حرم، فهو باطل، ما لا قربة فيه إلى الله تعالى، ولا يصلح للتوصل به إلى قربة[١].

والحداء نوع من الغناء، لكن لما كانت له فائدة معقولة وهي تنشيط الإبل للسير، زال عنه اسم الباطل، فما يراد به استصلاح نفس الإنسان وفكره أولى أن يزول عنه اسم الباطل. وهذا يشمل حالة الناسكين أثناء وجودهم في أحوالهم كالخوف والرجاء والمحبة والشوق وغير ذلك.

وينبغي حفظ اللسان عن التفاخر بالآباء والأنساب والتعظيم بهم كما كان عليه حال العرب في الجاهلية، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]. فأخبر تعالى أن الجميع واحد، وأنهم إنما يتفاضلون بالتقوى، ليعلم أن لا فخر لبعضهم على بعض. وروى البيهقي وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبَية[٢] الجاهلية، والفخر بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلقه الله من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم بآبائهم في الجاهلية، أو ليكونن أهون على الله من الجُعْلان[٣] التي تدفع النتن».

---

(١) المرجع السابق: ص ٢٨٤

(٢) تصغير عباءة، بمعنى مظلة هنا.

(٣) الجُعَل جمع الجعلان وهو الخنفساء.

التفاخر بالأمجاد الجاهلية

التاريخ الزاهر يعدُّ الانطلاقة الأولى والشعلة المضيئة لنهوض الأمة وبلورة جهودها، كما أن لكل نهضة رموزاً وشخصيات فذة تكون أعمالها خالدة وحافزة للهمم ودافعة للتقدم، ويقتصر الأمر على هذا في الذاكرة، ولا يُحفل بعدئذ بمستوى العامة وحديث بعض المتعصبين أو المشتغلين بعلوم النقل والقصة، كالتفاخر بالأحساب والأمجاد، والآباء والأجداد، وخصوصاً مفاخر الجاهلية العربية وتعظيم رموزها وطقوسها، وتقاليدها وعاداتها، وذلك كله لا يحل في ميزان الإسلام، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] وهو نص إلهي قاطع في تحقيق مساواة البشرية، وانحصار التفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح، ليعلم الناس قاطبة أن لا فخر لبعضهم على بعض، فتتلاشى نزعات وبواعث العنصرية والقومية الضيقة، ومزاعم النازية بتفضيل الجنس الأبيض والدم الأزرق، وأصوات الاستعلاء والاستكبار العالمي المعاصر بقيادة أمريكة وعولمتها وتدخلاتها في أوضاع العالم.

يوضح هذا التوجه في نبذ الكبر الجماعي ما أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: برّ تقي كريم على الله عز وجل، وفاجر شقي

هيِّن على الله عز وجل. الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾».

وأخرج الترمذي وأبو داوود والبيهقي عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجُعْلان[1] الذي يُدَهدِه[2] الخُراءة بأنفه، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي. الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب».

وروى البيهقي عن أبي ريحانة عن النبي ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار، يريد بهم عزاً وشرفاً، فهو عاشرهم في النار».

وفي قصة واقعية في العهد النبوي، روى البيهقي في شعبه عن أبي أمامة قال: عيَّر أبو ذر بلالاً بأمه، فقال: يا ابن السوداء، وإن بلالاً أتى رسول الله ﷺ، فأخبره، فغضب، فجاء أبو ذر، ولم يشعر، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: ما أعرضك عني إلا شيء بلغك يا رسول الله. قال: «أنت الذي تعيِّر بلالاً بأمه؟» قال النبي ﷺ: «والذي أنزل الكتاب على محمد، أو ما شاء الله أن يُحلف به، ما لأحد على أحد فضل إلا بعمل، إن أنتم إلا كطف الصاع».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، فاليوم أرفع نسبي، وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

---

(١) أو الجُعَل ضرب من الخنافس.

(٢) يدحرج.

وروى البيهقي كذلك عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع، فقال: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت؟!» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فليبلغ الشاهد الغائب»[(١)].

وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن أبي يزيد، سمع ابن عباس يقول: «خلال من خلال الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، ونسي الثالثة، قال سفيان الثوري: يقولون: إنها الاستسقاء بالأنواء»[(٢)].

وهذا كان على عادة العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، أو إلى الطالع منها لأنه في سلطانه.

وأخرج مسلم عن أبي سلام قال: قال أبو مالك الأشعري: إن رسول الله ﷺ قال: «إن في أمتي أربعاً من أمر الجاهلية، ليسوا بتاركيهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، كانت النائحة إن لم تتب قبل أن تموت، فإنها تقوم يوم القيامة، عليها سربال أو سراويل من قطران».

وروى البيهقي حديثين في الموضوع، الأول - عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشاً بذياً بخيلاً جباناً»[(٣)].

---

(١) لكن في هذا الإسناد بعض من يجهل.

(٢) النوء سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، ما خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً، وجمعه أنواء.

(٣) وهو حديث صحيح

والحديث الثاني - عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء»[1].

وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينبغي لصدّيق أن يكون لعاناً». ولفظ رواية ابن عمر: «لا ينبغي للمسلم أن يكون لعاناً».

ونهى الإسلام أيضاً عن الحلف بالآباء والأصنام، لقوله ﷺ فيما يرويه البيهقي في السنن: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت، ولا بأمهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون». وأخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال: كانت قريش تحلف بآبائها، فقال رسول الله ﷺ: «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله».

قراءة كتب الضلال

حرص الإسلام على حفظ العقيدة والعبادة والأخلاق، فمنع منعاً شديداً من الاستماع إلى التشكيك في الوحي الإلهي أو الفضائل، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦/٦٨] ونهى الإسلام عن شَغْل الوقت بكتب الضلال والانحراف والفساد التي يكتبها بعض الحاقدين والمعادين والزائغين عن طريق الحق والهدى، وكذلك كتب اللهو واللغو لقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٣١/٦].

---

(١) ورواه أيضاً عن أبي هريرة.

نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، كان يشتري كتباً فيها أخبار الأعاجم، فكان يقول للعرب: محمد يحدثكم عن عاد وثمود، وأنا أحدثكم عن رستم واسفنديار. قال ابن عباس: وهو النضر بن الحارث بن علقمة يشتري أحاديث الأعاجم وصنيعهم في دهرهم، فرواه من حديث الروم وفارس ورستم واسفنديار، والقرون الماضية، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام، ويكذِّب بالقرآن، فأعرض عنه، فلم يؤمن به.

ونهى الإسلام أيضاً عن النظر في الكواكب والنجوم وربط بعض الوقائع بأحوال طلوعها وغروبها، روى البيهقي في الشُّعَب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً من النجوم تعلم شعبة من السحر».

وكان عمرو بن العاص يقول: من أشراط الساعة أن يظهر القول، ويُخزَن الفعل، ومن أشراط الساعة أن ترفع الأشرار، وتوضع الأخيار، وإن من أشراط الساعة أن يقرأ المشاة على رؤوس الملأ، لا يغيَّر. قيل: يا أبا عبد الرحمن، كيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ؟ قال: ما جاءكم عمن تأمنونه على نفسه ودينه، فخذوا به، وعليكم بالقرآن، فإنه عنه تُسألون، وبه تُجزون، وكفى به وعظاً لمن عقل. وقيل: يا أبا عبد الرحمن فما المشاة؟ قال: ما استكتب من غير كتاب الله عز وجل.

وقال أبو عبيد: سألت رجلاً من أهل العلم بالكتب الأولى قد عرفها وقرأها عن المشاة، فقال: إن الأحبار والرهبان من بني إسرائيل من بعد موسى، وضعوا كتاباً فيما بينهم، على ما أرادوا بينهم من غير كتاب الله عز وجل، فسموه المشاة[1] كأنهم يعني أنهم أدخلوا فيه ما شاؤوا، وحرّفوا فيه ما شاؤوا على خلاف كتاب الله تبارك وتعالى.

---

(١) وهو المعروف بالمثنى.

وروى البيهقي عن عبد الله بن الحارث قال: دخل عمر بن الخطاب ﷺ على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه كتب أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضُها عليك. فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً، لم أر مثله قط، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فسُرِّي عن النبي ﷺ فقال النبي: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظي من الأمم».

وفي لفظ آخر، قال عمر عن نفسه: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، ألا ترى وجه رسول الله ﷺ منذ اليوم، وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب؟ فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إنما بعثت فاتحاً وخاتماً، وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه، واختصر لي الحديث اختصاراً، فلا يهلكنكم المتهركون». أي المترددون المتحيرون.

وروى البخاري أيضاً في الصحيح عن عبد الله بن عباس قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله، أحدث الأخبار بالله، تعرفونه محضاً لم تشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيّروا، وكتبوا بأيديهم الكتب، وقالوا: هذا من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلاً منهم قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم».

وروى البيهقي عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كتف[1]، فجعلت تقرأ عليه، والنبي ﷺ يتلوّن وجهه،

---

(١) أي عظم كتف كان يكتب عليه.

فقال: «والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف، وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم».

وروى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون».

أدب الكلام عموماً

على المؤمن أن يتحلى بعفة اللسان، وأدب النطق والكلام، سواء مع نفسه، أو مع الناس، أو مع الله تعالى، لأن الأدب مطلوب في كل كلمة، لأثرها الطيب، وأما الكلمة السيئة فذات أثر ضارّ، وسببٌ للندم ولوم النفس والآخرين، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤-٢٦].

وأدَّبنا الشرع تأديباً شاملاً عند كل كلمة، ومثاله ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: خَبُثت نفسي، وليقل: لَقِست[1] نفسي». أي لا يصف نفسه بالخبث، لأنه صفة ملازمة من شأن الكافر، وإنما يصفها بما يطرأ عليها أحياناً من طارئ أو منازعة أو ضيق.

---

(١) أي غَثَت، واللقس الغثيان.

ويكره وصف بستان العنب بالكَرْم، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم للعنب الكرم إنما الكرم الرجل المسلم». أي لأنه مصدر الخير.

ويكره أيضاً قول الفلاح: زرعت، لما أخرجه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت». لأن الزارع المنشئ هو الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٦٤].

ومن أدب الكلام مع الخادم أن يقول له: فتاي وفتاتي، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولا يقولن المملوك: ربي وربتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله جل ثناؤه».

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل للمنافق: يا سيدي فقد باء بغضب ربه تبارك وتعالى». وذلك لأن المنافق غير مؤمن، فلا يصح وصفه بالسيادة.

وروى البيهقي أيضاً حديثاً نصه: «لا تقولوا: ما شاء الله ويشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان». أي لأن العبارة الأولى تشريك مع الله. وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أن خطيباً خطب عنده فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال: «بئس الخطيب أنت، قل: من يعص الله ورسوله فقد غوى». فهذا يدل على كراهية التعبير الموهم بالخلط.

ويتوافق مع هذا التوجه استنان تغيير الأسماء القبيحة، أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عمر: أن أم عاصم كانت تسمى عاصية، فسماها

النبي ﷺ جميلة. وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في شعبه عن عائشة قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقال له: شهاب، قال: «بل أنت هشام، إن شهاب اسم شيطان».

وأخرج البيهقي عن عائشة أيضاً أن النبي ﷺ مرَّ بأرض تسمى عذِرة، فسماها خضِرة.

وعن بشير بن نُهيك قال: حدثني بشير بن الخصَّاصية سماه رسول الله ﷺ بشيراً، وكان اسمه قبل ذلك زَحْم.

وعن ريطة بنت مسلم عن أبيها قال: شهدت مع رسول الله ﷺ حُنَيناً فقال لي: «ما اسمك؟». قلت: اسمي عَرَاب. قال: «أنت مسلم».

قال البيهقي رحمه الله: الأخبار في تبديل الأسماء القبيحة بالحسنة كثيرة.

ومن أدب المنطق الحفاظ على الأسرار وعلى ما يكون بين الرجل وامرأته، روى مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الأمانة عند الله عز وجل يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم يفشي سرها».

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري أيضاً أن النبي ﷺ قال: «السباع حرام». يعني المفاخرة بالجماع.

أدب الكلام عند هبوب الريح والمزاح

المسلم مطالب بإظهار العبودية والخشوع لله عز وجل عند ظهور أحداث كبرى كالكسوف والخسوف، وعند وجود الأعاصير والزلازل

والبراكين ونحوها، وفي أحوال الجِد والهزل والمزاح، لأن أدب الكلمة يفيد قائلها، ويحقق له الخير، ويمنع عنه السوء والضرر، ويحفظه الله تعالى من الشر والهلاك، أو التعثر والتعرض للمشكلات.

وهذا التأدب من توجيهات السنة النبوية، منها ما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة، وعمر بن الخطاب حاجّ، فاشتدت عليهم، فقال عمر لمن حوله: مِمَّ الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئاً، قال أبو هريرة: فبلغني الذي سأل عمر عنه من ذلك، فاستحثثت راحلتي حتى أدركته، قلت: يا أمير المؤمنين بلغني أنك سألت عن الريح، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح رَوْح من روح الله، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها، وسلوا الله من خيرها، واستعيذوا بالله من شرها».

يوضحه حديث مرفوع عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى[1] قال: هاجت الريح على عهد أخي، فسبَّها، فقال أبي: «لا تسبوا الريح، ولكن قولوا: نسأل الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، ونتعوذ بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».

وفي حديث آخر لدى البيهقي عن عبد الله بن عباس أن رجلاً لعن الريح، فقال له النبي ﷺ: «لا تلعن الريح، فإنها مأمورة، وإن من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه»[2].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً.
(٢) ورواه البيهقي أيضاً من طريق أبي داوود، والترمذي وقال: غريب، عن أبي العالية قال: إن رجلاً نازعته الريح رداءه على عهد رسول الله ﷺ، فلعنها، فذكر الحديث مرسلاً.

هذا في شأن الريح، وكذلك يحرم سب الدهر، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر، قال الله عز وجل: أنا الدهر، الأيام والليالي أجددها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك». أي أنا خالق الدهر.

وأما المزاح فهو غير محمود إلا ما كان صدقاً وحقاً، لما رواه البيهقي في سننه من أحاديث فيه، منها ما قيل للنبي ﷺ: إنك تداعبنا. فقال: «إني لا أقول إلا حقاً».

ومنها ما رواه من مداعبته قوله للصبي: «أبا عمير ما فعل النُّغَير؟» وهو طائر. وقوله لأنس: «يا ذا الأذنين». وقوله للذي استحمله (أي طلب إركابه): «إنا حاملوك على ولد ناقة». فقال: ما أصنع بولد ناقة؟ فقال: «وهل تلد الإبل إلا النوق؟».

ومنها في المزاح الحق ما رواه عن أبي أمامة، أن النبي ﷺ قال: «أنا زعيم[1] ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحاً».

ومنها ما قال علي أو ابن مسعود: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء[2] وهو محق، وحتى يدع الكذب في الممازحة ولو شاء لغلب».

يؤيده ما أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم[3] عن عطية السعدي عن النبي ﷺ قال: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

ومنها قول عمر رضي الله عنه: «من كثر مزاحه استُخف به».

(١) أي كفيل.
(٢) الجدال والمماحكة بغير حق.
(٣) حديث صحيح.

ومنها أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة: انْه من قِبَلك عن المزاح، فإنه يذهب بالمروءة، ويوغر الصدر.

وقال عمر بن عبد العزيز أيضاً: عليكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وإياكم والمزحة، فإنها تجرُّ القبح، وتورث الضغينة، تجالَسوا بالقرآن وتحدثوا به، فإن ثقل عليكم، فحديث من حديث الرجال حسن، سيروا بسم الله.

وقال جعفر بن محمد: إياكم والمزاح، فإنه يُذهب بهاء الرجل ويطفئ نوره.

هذه ألوان من التربية الهادفة في الكلام حفاظاً على مقتضيات العقيدة، ومشتملات الأخلاق والآداب الكريمة، وحملاً لشأن أهل الإيمان على اعتياد فعل الخير وترك الشر، والجدية في الأمور، والتأدب مع الله تعالى.

الأصل الرابع والثلاثون من أصول الإيمان

أداء الأمانات إلى أهلها

المجتمع الإسلامي النقي هو الذي تشيع فيه السكينة والاستقرار والثقة في المعاملات، ليعيش الناس في أمان وسعادة، وعنوان الثقة هو أداء الأمانات إلى أهلها بمجرد المطالبة بها، لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٤/ ٥٨] وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧٢] والسبب في حمل الإنسان الأمانة توافر صفة الحياة والعقل والوعي والعلم ليقدِّر بنفسه عظم المسؤولية، فإن خان الأمانة لمخالفته الأمر الإلهي بأدائها كان جاهلاً ظالماً نفسه، واقعاً فيما نهى الله عنه، وقد حذَّر الله تعالى من خيانة الأمانة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧].

وتواردت الوصايا النبوية بحفظ الأمانة، ووجوب أدائها لأصحابها وتحريم خيانتها، ومنها: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[1].

(١) أخرجه البخاري في تاريخه وأبو داوود والترمذي والحاكم عن أبي هريرة، وغيرهم كثير، وهو حديث صحيح.

وخيانة الأمانة موقعة في النفاق العملي، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة من كن فيه فهو منافق، وإن صام وصلى، وزعم أنه مسلم: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإن ائتمن خان».

بل إن الإخلال بالأمانة طعنة في الإيمان، لقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»(١).

وأداء الأمانة أحد الخصال الست الموجبة لدخول الجنة، لحديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: أدوا إذا ائتمنتم، وأوفوا إذا عاهدتم، واصدقوا إذا حدثتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»(٢).

وحفظ الأمانة أحد صفات أربع هي من مقومات عالم الدنيا، ولا يؤسف لما عداها، لقوله ﷺ: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة مطعم»(٣).

وأداء الأمانة من أمهات المسائل التي يسأل الإنسان عنها في نفسه وفي رعايته لقرابته وولايته على غيره، لما رواه مسلم عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته».

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان عن أنس، وهو صحيح.

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعبه، وهو صحيح.

(٣) أخرجه أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي في شعبه عن ابن عمر، وهو حديث حسن.

ومن أخص الأمانات التي تجب رعايتها وصونها الزوجة، لما رواه البيهقي في شعبه عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ في خطبته بعرفات: «اتقوا الله في النساء، فإنهن عوانٍ[1] عندكم، اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». أي اتخذتموهن على شرط الله، وهو قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩].

وحفظ الأمانة داخل في تقديم النصيحة لكل أخ مسلم، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، عن جرير بن عبد الله يقول: بايعت رسول الله ﷺ، فاشترط علي النصح لكل مسلم.

وأخرج مسلم في الصحيح عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الدين النصيحة، إنما الدين النصيحة، إنما الدين النصيحة» فقيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وروى البيهقي عن ابن مسعود قال: القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدَّدها، وأعظم ذلك الودائع. قيل للبراء بن عازب: ألا ترى ما قال ابن مسعود: قال كذا، قال: صدق، أما سمعت يقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

مظاهر الخيانة

خيانة الأمانة لها مقدمات ومظاهر وإغراءاتٌ كثيرة، على العاقل الفطن والمؤمن الصادق أن يوصد هذه المنافذ، ويجتنب هذه الوسائل

---

(١) أي بمثابة الأسارى.

التي هي من وساوس الشيطان وجرأة النفس الأمّارة بالسوء.

وقد حذّر الشرع من مقدّمات الخيانة كالكذب والمكر والخديعة والغدر وتطفيف الكيل والميزان، أي نقصانهما وبخس الناس حقوقهم عند فعلهما. والخيانة تكون بالقول والعمل، روى أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»[١].

وأخرج البخاري في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء، يقال: هذه غُدرتك». وفي لفظ: «لكل غادر لواء يعرف به».

وأخرج البيهقي في شعبه عن قيس بن سعد قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المكر والخديعة في النار». لكنت أمكر هذه الأمة.

ويتجرأ بعض ضعاف الإيمان على الخيانة لرفعها من القلوب، أخرج الشيخان في الصحيحين عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الرجال، فعلموا من القرآن ومن السنة. إن العبد ينام النومة، فترفع الأمانة من قلبه، ولا يبقى منها إلا مثل الوَكْت[٢]، ثم ينام النومة فترفع الأمانة من قلبه، ولا يبقى منها فيه إلا كالمَحْمِل أو كالمحَلّ». أي ما يحمل فيه.

وفي حديث آخر رواه البيهقي عن أبي هريرة: «إن أول ما يرفع من هذه الأمة الحياء والأمانة، فسلوهما الله عز وجل».

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «لتَنْتقضنَّ عرى

---

(١) هذا ضعيف، لكن ما رواه الطبراني عن سمرة بن جندب صحيح بلفظ: «المستشار مؤتمن، إن شاء أشار، وإن شاء لم يشر».

(٢) الشيء اليسير، أو أثر الشيء كالنقطة.

الإسلام عروة عروة، كلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم[١]، وآخرهن الصلاة[٢]».

والعبرة بالتعامل في الدرهم والدينار، روى البيهقي عن ابن عمر قال: «لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا صيامه، وانظروا إلى صدق حديثه إذا حدَّث، وإلى أمانته إذا ائتمن، وإلى ورعه إذا أشفى». أي أخذ يتعامل بالنقود.

ويؤكده ما قال عمر ﷺ: لا يغرَّنك صلاة رجل ولا صيامه، من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكن لا دين لمن لا أمانة له.

ولا فرق في وجوب أداء الأمانة بين الفاجر والصالح، والكافر والمؤمن، لما رواه البيهقي عن ميمون بن مهران قال: ثلاثة يُؤدَّين إلى البر والفاجر: الرحم توصل كانت بَرَّة أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفى به للبر والفاجر.

ومن أخطر وأضر الخيانات تطفيف الكيل والميزان، قال ابن عباس: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١][٣] فأحْسَنوا الكيل بعد ذلك. وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر التجار، إنكم قد ولِّيتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة: المكيال والميزان».

ويحرم الغش في البيع، لحديث أبي هريرة عند الترمذي: «من غشنا فليس منا». وحديث عقبة بن عامر عند أحمد وغيره: «المسلم أخو المسلم، لا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً، وفيه عيب، إلا بيَّنه له».

---

(١) أي حكم الشورى.
(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعبه.
(٣) أي الهلاك والعذاب للآخذين بالكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً، أي قليلاً، إما بالنقصان إن كالوا أو بالزيادة إن اكتالوا.

وعلاج مظاهر الخيانة وأحوالها يكون بمراقبة الله عز وجل، روى البيهقي عن نافع قال: خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحاب له، ووضعوا سفرة له، فمرّ بهم راعي غنم، فسلّم، فقال ابن عمر: هلمَّ يا راعي هلمَّ، فأصبْ من هذه السفرة. فقال له: إني صائم. فقال ابن عمر: أتصوم في مثل هذا اليوم الحار شديد سمومه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذا الغنم؟ فقال له: أي والله أبادر أيامي الخالية. فقال ابن عمر - وهو يريد أن يختبر ورعه -: فهل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه، فنعطيك ثمنها، ونعطيك من لحمها، فتُفطر عليه؟ فقال: إنها ليست لي بغنم، إنها غنم سيدي. فقال له ابن عمر: فما عسى سيدك فاعلاً إذا فقدها، فقُلْتَ: أكلها الذئب؟ فولى الراعي عنه، وهو رافع أصبعه إلى السماء، وهو يقول: أين الله؟! قال: فجعل ابن عمر يردد قول الراعي وهو يقول: قال الراعي: فأين الله؟ قال: فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه، فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي، ووهب منه الغنم.

ومن الخيانة ترك الإتقان، لما رواه البيهقي وغيره عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[1].

(١) قال البيهقي: روايته عن غير طريق مالك بن أنس أصح.

الأصل الخامس والثلاثون من أصول الإيمان

تحريم الجناية على النفوس

الحفاظ على حرمة النفوس وتحريم الجناية عليها من مقاصد الشريعة وأصول الإيمان، تعظيماً لحق الحياة، لأن النفس البشرية من صنع الله وخلقه، لذا حرم الله تعالى القتل في الإسلام وغيره تحريماً شديداً، فقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٩٣]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٩] أي ولا يقتل بعضكم بعضاً، ومنْعكم من ذلك رحمة من الله لكم، لاستبقائكم وتنعمكم بالحياة الدنيا، وتمكينكم من اكتساب الخيرات فيها، وإيصالكم إلى النعيم المقيم في الآخرة.

وقرن القرآن الكريم قتل النفس المحرّمة بالشرك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨-٧٠].

وكذلك حرَّم الله القتل وسماه ظلماً، والظلم قبيح حرام، في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٣].

وأكّدت السنة النبوية على تحريم القتل في أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاري ومسلم عن عمرو بن شرحبيل قال: قال عبد الله بن مسعود: قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعوَ له نِدّاً وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يُطْعَم معك». ثم قال: «أن تزاني بحليلة جارك». فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٨].

وفي حديث أنس عند البيهقي في شعبه، عن النبي ﷺ أنه سئل عن الكبائر، فقال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وقول الزور».

وأخرج مسلم في الصحيح وغيره عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس[1] حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل». أي إن عصمة الدماء والأموال هي الأصل العام، ولا تستباح الدماء إلا بحق شرعي.

ومن أعظم جرائم القتل قتل من أسلم بغير حق، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرُقات، فنزلوا بها فهُزموا (أي الأعداء)، فأدركنا رجلاً منهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، فضربتُه بالسيف حتى قتلته، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، فقال: «من لك بلا إله إلا الله؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها تعوّذاً من القتل. قال: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» فما زال يقولها حتى وَدِدت أي كنت أسلمت يومئذ».

---

(١) ليس المراد بالناس جميع الناس، وإنما المراد مشركو العرب الوثنيون.

وورد في حديث خالد الأحمر عن الأعمش: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم قالها أم لا؟» يؤيده ما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أيُّ شهر تعلمونه أعظم حرمة؟» قالوا: ألا شهرنا هذا. قال: «ألا أيُّ بلد تعلمون أعظم حرمة؟» قالوا: ألا بلدنا هذا. قال: «ألا أيُّ يوم تعلمونه أعظم حرمة؟» قالوا: ألا يومنا هذا. قال: «فإن الله عز وجل قد حرم عليكم أموالكم وأعراضكم إلا بحقها، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلَّغت ثلاثاً؟» كل ذلك يجيبونه: ألا نعم. قال: «ويحكم أو ويلكم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «قتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق».

قال الأوزاعي: من قُتل مظلوماً كفر الله عنه كل ذنب، وذلك في القرآن: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢٩].

وخطورة سفك الدماء مقررة معروفة في الدنيا والآخرة، أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء - يعني يوم القيامة».

ومن المعروف أيضاً أن الدافع إلى القتل ظلماً هو أن تكون العزة للقاتل أو لغيره، فيبوء بإثمه، كما ورد في السنة.

ومن نبوءات النبي ﷺ الإخبار عما يحدث بين العرب من اقتتال وسفك دماء، أخبر البيهقي في شعبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كفَّ يده، اقتربوا يا بني فرّوخ إلى الذكر، والله إن منكم لرجالاً لو أن العلم كان معلَّقاً بالثريا لتناولوه».

أخطار الاعتداء على النفوس الآمنة

لا يحل شرعاً رفع السلاح على الآخرين سواء في حال الجد أو الهزل إلا بحق ثابت مشروع، فمن صان نفسه من ذلك دخل الجنة، ومن آذى غيره دخل النار، وليس على ملة الإسلام.

أما مشروعية القصاص أو القتل بحق فمحصورة في ثلاثة أمور، حددها الحديث الثابت فيما أخرجه البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وأما استحقاق دخول الجنة لمن سالم غيره فلما رواه البيهقي في شُعبه عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يلقى الله لا يشرك به شيئاً، لم يتندّ[1] بدم حرام إلا أُدخل الجنة، من أي أبواب الجنة شاء». يوضحه ما أخرجه البخاري في الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً».

ويحرم رفع السلاح في مواجهة الآخر ولو مزاحاً، لأن السلاح خطير ومزلقة أو غير منضبط لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار».

---

(١) أي لم يصبه دم حرام

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

وأخرج الشيخان في الصحيح في شأن حامل السلاح في السوق عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إذا مرّ أحدكم في مسجدنا أو سوقنا بنبل، فليمسك عن أنصالها، لا يصيب أحداً من المسلمين بأذى».

في لفظ عند الشيخين أيضاً عن أبي موسى: «من حمل السلاح علينا فليس منا». ولا فرق في هذا الحكم الشرعي وتجنب استعمال السلاح بين المسلم والمعاهد، لما رواه البيهقي عن قُرة بن دُعموص قال: ألفينا النبي ﷺ في حجة الوداع، فقلنا: يا رسول الله، ما تعهد إلينا؟ قال: «أعهد إليكم أن تقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، وتحجوا البيت الحرام، وتصوموا رمضان، فإن فيه ليلة خير من ألف شهر، وتحرِّموا دم المسلم وماله، والمعاهد، إلا بحقه، وتعتصموا بالله والطاعة».

ونظراً لخطورة الدماء كانت في مقدمة قضايا الحساب في الآخرة، لما رواه البخاري في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء». ولفظ رواية مسلم: «أول ما يحكم بين الناس في الدماء».

بل إن سفك الدم الحرام أعظم من زوال الدنيا، لما رواه البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا».

وحديث البراء بن عازب عند البيهقي من طريق ابن عدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله عز وجل من سفك دم بغير حق».

والفاعل والشريك والمحرِّض والمعين في جريمة القتل عقابهم

واحد، لما رواه البيهقي في شُعبه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله».

وفي حديث آخر عند البيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل رجل مؤمن، لكبَّهم الله في النار».

وأخرج مسلم في الصحيح عن هشام بن حكيم بن حزام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الذي يعذِّب الناس في الدنيا يعذبه الله في الآخرة».

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، على رؤوسهن كأمثال أسنمة البخت، ورجال معهم أسياط كأذناب البقر يضربون الناس بها».

وروى البيهقي في حكم الانتحار عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يخنق نفسه يخنق نفسه في النار، والذي يقتحم يقتحم في النار، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار».

وفي شأن الفتنة أو الحرب الأهلية ولا سيما في عصرنا الحاضر روى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا، وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عز وجل له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٢٠/ ٤٠]».

الأصل السادس والثلاثون من أصول الإيمان

تحريم الفواحش

أحل الله تعالى الزواج وحرم السفاح، لأن الزواج بناء واستقرار وسلامة وأمان، والسفاح دمار وخراب واعتداء ومخاطر، قال الله تعالى عن الزواج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥-٦]. وروى البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم نظر إلى محاسن امرأة، ثم صرف بصره، إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه».

والابتعاد عن التورط في الفاحشة أساس العفة والصون، وأول ذرائع الشيطان خيانة النظر، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٩] أخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلن رجل على مغيبة إلا ومعه غيره». وأخرج الشيخان في الصحيح عن ابن عباس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافر امرأة إلا ومعها ذو محرم».

ثم إن التبرج فتنة، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٣].

والاتصال بالمثل حرام كالزنا، لحديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً في

رواية البيهقي: «سحاق النساء زنا بينهن». وحديث أنس بن مالك عند البيهقي عن النبي ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين، يُدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا، إلا أن يتوبوا، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، والمدمن بالخمر، والضارب أبويه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره».

والفتنة قائمة بين الجنسين على الدوام، لما رواه مسلم في الصحيح عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن ذاك يرد ما في نفسه». وفي حديث ابن مسعود عند البيهقي: «أيما رجل رأى امرأة فأعجبته، فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها».

وروى البخاري ومسلم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدخول على النساء». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحَمْو[1]؟ قال: «الحمو الموت».

وغض البصر يشمل الرجل والمرأة، لقول الله عز وجل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١].

ومخاطر الفاحشة والاقتراب منها كثيرة ولا سيما في التعرض للأمراض المستعصية لذا نهى الشرع عنها، وحذّر منها تحذيراً شديداً، في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٢]. ومن صفات عباد الرحمن أنهم: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨].

---

(١) أقارب الرجل أو أقارب المرأة.

ولا يكون ارتكاب الفاحشة إلا في حال غيبة الإيمان، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني وهو حين يزني مؤمن، ولا يسرق السارق وهو حين يسرق مؤمن، ولا يشرب الخمر وهو حين يشربها مؤمن، ولا ينتهب نُهبة ذات شرف، يرفع المؤمنون إليه فيها أبصارهم، وهو حين ينتهبها مؤمن».

يوضحه ما رواه البيهقي عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان، فكان عليه كالظلمة، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان».

ومن أخطر الفواحش الاعتداء على نساء الجيران، لما رواه البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك». قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يُطْعَم معك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

ومن أسوأ ما نسمع اليوم زواج المثل بين رجل ورجل، أو بين امرأة وامرأة، وهو سبب دمار قوم لوط بالحاصب حجارة حامية من السماء، كما وصف الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٣-٣٤]. وكان لوط عليه السلام قد وبخ قومه من تلك الفاحشة الخطيرة في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٨-٢٩].

واللعنة الإلهية تنزل بأصحاب هذه الفعلة الشنيعة وأمثالها، روى البيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من تولى غير

مواليه[١]، ولعن الله من غيَّر تخوم الأرض، ولعن الله من كمه أعمى عن السبيل، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من وقع على بهيمة، ولعن الله من عمِل عمل قوم لوط، ثلاث مرات».

وذلك يشتمل إتيان الزوجة في دبرها فإن الفاعل ملعون، لقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٣] أي كيف شئتم من الهيئات والأوضاع من قيام أو قعود أو على جنب، وذلك في موضع الإنجاب، وفسر النبي ﷺ الآية بقوله: «صماماً واحداً»[٢]. و«ملعون من يأتي النساء في محاشهن». أي أدبارهن. وروى البيهقي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال فيمن عمل عَمَل قوم لوط: «يقتل الفاعل والمفعول به».

الترغيب في الزواج

رغّب الإسلام في الزواج ولا سيما الزواج المبكّر، لإعفاف الشباب والفتيات، والتمكن من تربية الأولاد في عهد الشباب، بالإضافة إلى تحقيق منافع أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ[٣] مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٢].

أما غير القادرين على الزواج فعليهم التحصن بالعفة والصبر والصوم حتى تتهيأ لهم فرصة الزواج، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٣].

---

(١) من اعتز بغير آبائه أو أسياده

(٢) رواه البيهقي في شعبه.

(٣) اللواتي لا أزواج لهن.

وجمع الحديث النبوي بين الترغيب في الزواج، وبين ملازمة العفة، فيما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود، قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء». أي قاطع للشهوة.

ونهى النبي ﷺ عن التبتل والرهبانية فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك يقول: جاء ثلاثة رَهْط إلى أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروهم، فكأنهم تقالّوها[٢]، قالوا: أين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهما: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: إني أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟! أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»

وفي لفظ آخر: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي النكاح».

وحديث عكّاف متداول، رواه البيهقي وغيره[٣] عن عطية بن بشر المازني قال: جاء عَكّاف بن وَدَاعة الهلالي إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: « يا عكّاف ألك زوجة؟» قال: لا. قال: «ولا جارية؟» قال: لا. قال: «وأنت صحيح موسر؟» قال: نعم والحمد لله. قال: «فأنت إذاً من الشياطين، إما أن تكون من رهبانية النصارى، فأنت منهم، وإما أن تكون منا فتصنع كما نصنع، فإن من سنتنا النكاح، شراركم عُزّابكم،

---

(١) أي مؤن الزواج ونفقاته أو القدرة على الجماع لقدرته على مؤنة الزوج.

(٢) وجدوها قليلة.

(٣) رواه أيضاً أبو يعلى والطبراني عن أبي ذر، وفيه ضعف.

وأراذل موتاكم عزابكم، أيا لشياطين يحرسون؟! ما لهم في أنفسهم سلاح أبلغ في الصالحين من الرجال والنساء إلا المتزوجون، أولئك المطهرون المبرؤون من الخنا[١]. ويحك يا عكاف تزوج، إنهن صواحب داوود، وصواحب أيوب، وصواحب يوسف، وصواحب كرسف». فقال عطية: ومن كُرْسف يا رسول الله؟ فقال: «رجل من بني إسرائيل على ساحل من سواحل البحر، يصوم النهار، يقوم الليل، لا يفتر من صلاة ولا صيام، ثم كفر بعد ذلك بالله العظيم في سبب امرأة عشقها، فترك ما كان عليه من عبادة ربه عز وجل، فتداركه الله بما سلف منه - يعني: فتاب الله عليه - ويحك تزوج، فإنك من المذنبين». قال عكّاف: لا أتزوج يا رسول الله حتى تزوجني من شئت. فقال: «زوجتك على اسم الله والبركة كريمة بنت كلثوم الحميري».

ومن الأحاديث المرغبة أيضاً في الزواج ما رواه البيهقي عن أبي نجيح[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان موسراً فلم ينكح فليس مني».

وفي لفظ آخر عن أبي نُجيح: «مسكين مسكين رجل ليست له امرأة». قيل: يا رسول الله، وإن كان غنياً ذا مال؟ قال: «وإن كان غنياً من المال». قال: «ومسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج». قيل: يا رسول الله، وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: «وإن كانت».

ونهى الإسلام عن التبتل[٣] والرهبانية، فقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص يقول: لقد رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له فيه لاختصينا.

---

(١) الزنا أو الفحش.

(٢) اسمه يسار، وهو من التابعين، والحديث مرسل.

(٣) الانقطاع للعبادة.

وأخرج أبو داوود والنسائي عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم». ورواه البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالباءة[1] وينهانا عن التبتل نهياً شديداً، ويقول: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة».

وروى البيهقي أيضاً عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج العبد فقد كمّل نصف الدين، فليتق الله في النصف الآخر».

وفي رواية أخرى: «من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الآخر».

(١) أي القدرة على الجماع لقدرته على مؤنة الزواج.

الأصل السابع والثلاثون من أصول الإيمان

كف اليد عن الأموال المحرّمة

نهى الشرع الإسلامي عن أكل الحرام، وأمر بكف اليد عن الأموال المحرَّمة، لأنها حقوق الآخرين، وآخذها يكون جانياً أو معتدياً عليها، ولا يبارك الله له في أخذها، وهذا النهي أو الأمر بالكف ثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٨] فحرّم دفع المال إلى الحاكم ليأخذ بحكمه ما لا يستحقه.

وقال تعالى في ذم اليهود: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٦١].

وحرّم القرآن تطفيف الكيل والميزان نقصاً أو زيادة، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٣].

وقال تعالى في تحريم القمار: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٣].

وقال سبحانه في تحريم السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: ٥/ ٣٨].

وقال عز وجل في جزاء المحاربة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٥/ ٣٣].

وأكدت السنة النبوية تحريم الاعتداء على أموال الآخرين، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي بكرة في خطبة حجة الوداع التي جاء فيها: «إن دماءكم وأموالكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم..».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ في حكم حلب ماشية الآخرين أنه قال: «لا يحلبنَّ أحد ماشية امرئ بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربتُه بغير إذنه، فيُكْسَرَ باب خزانته، فيُنتلَ طعامه، فإنما يَخزِن لهم ضروعُ مواشيهم طعامَ أحدكم، أفلا، فلا يحتلبن ماشية امرئ بغير إذنه».

والمبدأ الشرعي العام هو المقرر في حديث نبوي موجز أخرجه أبو داوود والبيهقي عن خيفة الرقَّاشي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه». ومن أمثلة ذلك ما رواه البيهقي عن أبي حميد الساعدي، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرئ أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه، وذلك لشدة ما حرَّم الله عز وجل مال المسلم على المسلم». وروى البيهقي أيضاً من حديث عبد الله بن السائب: «لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لاعباً ولا جاداً، فإذا أخذ أحدكم عصا صاحبه فليردها إليه».

وحكم القاضي لا يحل الحرام، لأنه يحكم بالظاهر، لما رواه مسلم في الصحيح عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي،

ولعل بعضكم أن يكون ألحن[١] بحجته من بعض، فأقضي له على نحوِ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار».

وارتكاب المعاصي يكون في حالة البعد عن الإيمان، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسرق سارق وهو حين يسرق مؤمن، ولا يزني وهو حين يزني مؤمن، ولا يشرب الحدود، يعني الخمر، وهو حين يشربها مؤمن، والذي نفس محمد بيده لا ينتهب أحدكم نهبة ذات شرف يرفع المؤمنون أعينهم فيها، وهو حين ينتهبها مؤمن، ولا يَغُل[٢] أحدكم حين يغُل، وهو مؤمن، فإياكم وإياكم».

والفقر أو الحاجة لا يجيزان أخذ المال من غير حله، لما رواه البيهقي في شُعبه عن أبي سعيد الخدري قال: أيها الناس لا تحملنكم العسرة على طلب الرزق من غير حله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً، واحشرني في زمرة المساكين، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة».

وشراء المال المسروق حرام أيضاً، ويشترك الشاري مع السارق في العار والإثم، لما رواه البيهقي في الشُّعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من اشترى سرقة، وهو يعلم أنها سرقة، فقد اشترك في عارها وإثمها».

وضم شبر من أرض الآخرين إلى أرضه غصب وحرام، لحديث الصحيحين عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرق شبراً من أرض، طُوِّقه من سبع أرضين من نار جهنم». وهذا تصوير شدة العذاب.

---

(١) أي أفطن بها.

(٢) يسرق من الغنيمة الحربية.

والرشوة أخذاً وعطاءً حرام، لما رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم[١]».

ورواية أحمد عن ثوبان: «لعن الله الراشي والمرتشي والرايش الذي يمشي بينهما».

ورواية البيهقي عن ثوبان قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش - قال: الذي يعمل بينهما - وإن هذا الفيء لا يحل منه خيط ولا مِخْيط، لا آخذٌ ولا معطي، إن المختلعات هن المنافقات، وما من امرأة تسأل زوجها الطلاق من غير بأس، فتجد ريح أو رائحة الجنة».

بعض أنواع المال الحرام

للمال الحرام أمثلة ومنافذ كثيرة لا تنتهي، بسبب تفنن الناس وابتكار أنواع النصب والاحتيال، والغش واقتراف ألوال المعاصي والمنكرات، وكل ذلك سحت حرام، ذمَّه القرآن بالنسبة لليهود وأمثالهم حين وصفهم بقوله تعالى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٢].

وفي قمة المال الحرام آكل الربا أو الفوائد المصرفية، لقوله ﷺ من حديث ابن مسعود: «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه»[٢].

(١) ورواية البيهقي عن ابن عمرو قال: «لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي».
(٢) أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجه، وهو حديث صحيح.

وحديث الإمام علي ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه ومانع الصدقة»[١].

وروى البيهقي عن سمرة بن جندب قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً يَسْبح في نهر، يلقَم الحجارة، فسألت: من هذا؟ فقيل: هذا آكل الربا».

ووصف الله تعالى آكل الربا حين يقوم من قبره بأنه فاقد التوازن والعقل، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥].

وثبت في السنة لدى البيهقي في مجموعة أحاديث: «درهم ربا يأكله أحد من الناس في بطنه، وهو يعلمه، أعزُّ عليه في الإثم عند الله عز وجل يوم القيامة من ست وثلاثين زنية». وروي عن ابن عباس: «من نبت لحمه من السحت فالنار أولى به».

وروى البيهقي في شعبه عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، فإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّين إلا من يحب، فمن أعطاه الله الدِّين، فقد أحبّه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قيل: وما بوائقه؟ قال: «غش وظلم». وأضاف النبي قائلاً: «لا يكتسب عبد مالَ حرام، فيتصدق، فينفق فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركُ خلف ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إن الله تبارك وتعالى لا يمحو السيئ بالسيئ، ويمحو السيئ بالحَسَن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي، وهو صحيح أيضاً.

خضرة حلوة، من اكتسب فيها مالاً من حله، وأنفقه في حقه، أثابه الله عليه، وأورده جنته، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حله، وأنفقه في غير حقه، أحله الله دار الهوان، ورب متخوض في مال الله ورسوله، له النار يوم القيامة، يقول الله: كلما خبت زدناهم سعيراً».

وأورد البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع حق على الله ألا يُدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيماً: مدمن خمر، وآكل ربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاقّ لوالديه». وعن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يشتري الثمرة حتى تطعم، وقال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»[1].

ومن الحرام الفاحش السرقة والغش في المعاملات والغصب، فكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وكل ما أخذ بغير حق أو بالباطل هو سحت لا يبارك الله فيه، ويكون وبالاً على صاحبه وأسرته وعافيته، ويستحق المعتدي نار جهنم، جاء في الحديث المتفق عليه عن سعيد بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً، طَوَّقه الله يوم القيامة إياه من سبع أرضين».

وأخرج البخاري والترمذي عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين[2] مع خادم لها بقصعة فيها طعام، فضربت بيدها[3] فكسرت القصعة، فضمها (أي النبي ﷺ) وجعل فيها الطعام، وقال: «كلوا». ودفع القصعة الصحيحة للرسول (أي الخادم المرسل) وحبس المكسورة، وقال النبي ﷺ: «طعام بطعام، وإناء بإناء».

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم.
(٢) هي زينب بنت جحش رضي الله عنها.
(٣) الضاربة هي عائشة رضي الله عنها.

وروى أحمد وأصحاب السنن الأربعة إلا النسائي[١] عن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: «من زرع في أرض قوم بغير إذنهم، فليس له من الزرع شيء، وله نفقته».

وروى أبو داوود، وإسناده حسن عن عروة بن الزبير قال: قال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: إن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ في أرض غرس أحدهما فيها نخلاً، والأرض للآخر، فقضى رسول الله ﷺ بالأرض لصاحبها، وأمر صاحب النخل أن يخرج نخله، وقال: «ليس لعرقٍ ظالم حق».

وفاء الديون

إن من أبسط واجبات المدين أو آخذ الدين أن يبادر إلى وفائه وسداده للدائن الذي أحسن إليه، وأنقذه من ورطته، وأمده بالمال، فواجب الآخذ الوفاء بالمعروف، وإلا تعرض للسَّحْق والدمار، والمسؤولية الجسيمة يوم القيامة، لا فرق في ذلك بين الدين الخاص للأسرة والناس، والدين العام للأمة أو الدولة.

أخرج مسلم في الصحيح عن عبد الله بن أبي قتادة، يحدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قام فيهم، فذكر لهم الجهاد في سبيل الله والإيمانَ بالله أفضلَ الأعمال، فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إن قتلت في سبيل الله أتكفّر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «كيف قلت؟» فقال: أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله أتكفَّر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم وأنت صابرٌ محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن، فإن جبريل قال لي ذلك».

---

(١) وحسنه الترمذي.

وروى البيهقي في شعبه أحاديث، منها حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو بريء من ثلاث: من الكبر، والغلول[١]، والدَّين دخل الجنة».

ومنها حديث أبي بريدة بن أبي موسى الأشعري يحدِّث عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أعظم الذنوب عند الله أن يَلْقى بها بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاءه».

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نفس المؤمن معلَّقة بدَينه حتى يقضى عنه».

وروى البيهقي أيضاً عن صهيب بن سنان قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل أصدق امرأة صداقاً - والله يعلم - لا يريد أداءه، فغرّها بالله، واستحل فرجها بالباطل لقي الله يوم يلقاه وهو زانٍ، وأيما رجل أدان من رجل ديناً - والله يعلم - أنه لا يريد أداءه إلى صاحبه، فغرَّه بالله، واستحل ماله بالباطل، لقي الله يوم القيامة وهو سارق».

وأخرج البخاري حديثاً يوضح ما سبق عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأخذ أحد أموال الناس، ثم يريد أداءها، إلا أدى الله عنه، ولا يأخذها أحد يريد إتلافها، إلا أتلفه الله عز وجل».

وإذا مات المدين عاجزاً عن أداء دينه، وجب على الدولة الوفاء به، لما رواه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من حمل من أمتي ديناً، ثم جهد في قضائه، فمات قبل أن يقضيه، فأنا أولى به». وورد في بعض الأحاديث أن الله يقضي عن الميت المسلم دينه يوم القيامة[٢].

---

(١) السرقة من المغنم.

(٢) رواه البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ولكن حذَّر النبي ﷺ من الدَّين بقدر الإمكان، فيما رواه البيهقي عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والدَّين، فإنه همّ بالليل، ومذلة بالنهار».

وعلى المؤمن العاقل أن يبذل أقصى جهده لادخار المال الذي يتمكن به من قضاء دينه، أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة يحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يسرّني أن لي مثل أحد ذهباً أموت، وعندي منه دينار، إلا شيئاً أرصده لغريم». أي لمدين.

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان يتعوّذ من المأثم والمغرم، قالت عائشة: يا رسول الله، ما أكثر ما تتعوذ من المغرم؟ قال: «إن من غرِم وَعَدَ فأخلف، وحدث فكذب».

ومن المؤسف في زماننا كثرة الديون وكثرة تضييعها واستباحة أموال الناس بالباطل من دون وفاء، ولا وعد بالوفاء، بل ولا توجد كلمة طيبة من المدين يرضي بها صاحب الدين، وعلى العكس قد يبادر المدين إلى سبّ الدائن وشتمه والإساءة إليه، لمجرد أنه يطالبه بحقه، وتقع حينئذ عداوات، وقطيعة وهجران بسبب الدين، أخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي أحدهم بما أخذ من المال، بحلال أم بحرام».

وليت المدين يحس بخطورة المسؤولية عن حقوق الناس المالية، فيبذل أقصى جهده في تدبير أموره، ثم يبادر إلى أداء ديونه قبل أن يفجأه الموت، أو يقع الندم أو الإفلاس واللجوء إلى المحاكم للمقاضاة.

تحريم بعض المطاعم والمشارب

حرّم الإسلام بعض المطاعم والمشارب إما لضررها المادي الذي يضر الجسد الإنساني، وإما لضررها المعنوي الذي يمس العقيدة، ويوجّه الإنسان إلى تعظيم بعض المخلوقات أو الأصنام والأوثان. وهذا التحريم قاطع ومؤكد في شريعتنا، لما دل عليه القرآن والسنة النبوية الصحيحة.

فمن آي القرآن الكريم في تحريم بعض المآكل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٥/ ٣].

وفي آية أخرى مؤكدة: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٥].

وتحريم بعض المشارب والمطاعم ورد في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠] والأمر بالاجتناب يفيد التحريم وزيادة وهو التنفير، ومع ذلك ورد لفظ تحريم الخمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣]. فحُرِّم الإثم، وهو من أسماء الخمر، بدليل ما ورد في بيت شعر جاهلي قديم:

شربت الإثم حتى ضل عقلي كذاك الإثم يذهب بالعقول

والمراد بالإثم في الآية هو الخمر، وإلا فالآية عامة لكل إثم.

وشرب الخمر وارتكاب المعاصي يكون في حالة غياب الإيمان بتأثير نزوة الشيطان ووسوسته، لما أخرجه البخاري في الصحيح ومسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد».

واجتناب الخمر يرشد إليه مدلول الفطرة الإنسانية والعقل الصحيح، لما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة يقول: «أُتي رسول الله ﷺ ليلة أسري به بإيلياء بقدحين: خمر ولبن، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذتَ الخمر لغَوَت أمتك».

وكان إعلان تحريم الخمر عقب نزول آية الخمر وهي: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ صريحاً واضحاً وحاسماً في السنة النبوية أيضاً، لما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ، فقال: «يا أهل المدينة، إن الله قد أنزل إليّ تحريم الخمر، فمن كتب منكم هذه الآية، وعنده شيء منها فلا يشربها».

لكن كان تحريم الخمر في القرآن على مراحل أربع متدرجة في البيان، فأول ما نزل في الخمر التعريض به في آية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٧] فوصف تناول العنب والتمر بصفة طبيعية بالحسن، ولم يوصف السَّكر بذلك.

ثم نزلت آية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٩] وما غلب إثمه وضرره وشره وجب تركه، وأما منافعه هنا فهي تجارية فقط.

ثم حرم الله الخمر أثناء الصلاة، وذلك يشمل جميع أوقات النهار في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤/ ٤٣].

وفي ختام التشريع نزلت آية التحريم الشاملة العامة القاطعة وهي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٠]. فقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمت الخمر».

روى البيهقي في شعبه عن ابن عمر أنه قال: وقدِّمت لرجل راوية من الشام أو روايا، فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر، ولا أعلم عثمان إلا معهم، فانتهوا إلى الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عنا نشقها». فقال: يا رسول الله، أفلا نبيعها؟ فقال رسول الله رسول الله ﷺ: «إن الله لعن الخمر، ولعن غارسها، ولعن شاربها، ولعن عاصرها، ولعن موكليها، ولعن مديرها، ولعن ساقيها، ولعن حاملها، ولعن آكل ثمنها، ولعن بائعها».

وروى مسلم في الصحيح وكذا البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة إلا أن يتوب».

تحريم شرب المسكرات كلها والانتفاع بها

حرَّم الإسلام الخمر وجميع المسكرات كما تقدم، وكذلك مختلف أنواع المخدرات تحريماً قاطعاً لما فيها من أضرار كثيرة في الجسم

والعقل والاعتبار والكرامة، وأوجب عقاب متعاطيها بحد السكر، وكذا متعاطي المخدرات، وإن جعل بعضهم عقاب المخدرات هو العقوبة التعزيرية المتروكة لتقدير القاضي، يحكم بما يراه محققاً للزجر.

والعقاب واجب في الدنيا وكذا في الآخرة إن لم يتب العاصي، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، إلا أن يتوب». وفي رواية: «وإن أدخل الجنة».

وكل ما يسكر حرام، لما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو مدمنها، ولم يتب، لم يشربها في الآخرة».

وأخرج البخاري ومسلم من طريق مالك عن عائشة زوج النبي ﷺ تقول: سئل النبي ﷺ عن البِتْع[1]، فقال: «كل شراب أسكر فهو حرام»

وروى مسلم أيضاً والدارقطني عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام». وفي حديث جابر: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[2]. وفي حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «كل مسكر حرام، فما أسكر منه الفَرْق[3] فملء الكف منه حرام»[4].

وروى مسلم عن جابر أن النبي ﷺ قال: «كل مسكر حرام، إن الله عهد لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال». قالوا: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «عَرَق أهل النار أو عصارة أهل النار».

---

(١) هو نبيذ العسل.

(٢) رواه أحمد وأبو داوود وابن حبان. ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو.

(٣) هو مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً، والرطل البغدادي ٤٠٨ غم.

(٤) رواه أحمد والبيهقي.

وروى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن من العنب خمراً، وإن من العسل خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن الحنطة خمراً، ومن التمر خمراً، وأنا أنهاكم عن كل مسكر».

وأكد ذلك أحاديث ثابتة أخرى، منها ما رواه البزار عن ابن عمرو مرفوعاً: «شارب الخمر كعابد الوثن». وفي رواية: «مدمن الخمر كعابد وثن».

وأضرار الخمر كثيرة وسبب لمفاسد أكثر، لما رواه النسائي عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: «الخمر أم الخبائث».

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب الخمر شربة لم تقبل صلاته أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم تقبل توبته أربعين صباحاً - فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: - فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة». وفي لفظ: «من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «عصارة أهل النار».

وجميع أنواع الانتفاع بالخمر حرام إلا إذا صارت خلاً، لما رواه أبو داوود وابن ماجه وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها». وأخرج مسلم في الصحيح عن علقمة بن وائل عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: إنا نصنع الخمر لأنها دواء. فقال: «إنها ليست الدواء، ولكنها الداء».

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «إن الذي حرَّم شُربها حرَّم بيعها».

وذكر البيهقي في شعبه عن عثمان بن عفان موقوفاً ومرفوعاً في خطبة له، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اجتنبوا أم الخبائث، فإنه كان رجل فيمن كان قبلكم يتعبد ويعتزل النساء، فلقيته امرأة غاوية، فأرسلت إليه خادمها، فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل، فطفقت، كلما دخل عليها باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام وباطية[1] فيها خمر، فقالت: أنا لم أدعك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقع علي، أو تشرب كأساً من هذا الخمر، فإن أبيت صحت وفضحتك، فلما رأى أنه لا بد من ذلك قال: اسقني كأساً من هذا الخمر، فسقته كأساً من الخمر، ثم قال: زيديني، فلم يُرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبداً، ليوشكن أحدُهما أن يُخرج صاحبه».

وروى البيهقي أيضاً عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «ثلاث لا تقبل لهم صلاة، ولا يرفع لهم إلى السماء عمل: العبد الآبق من مواليه حتى يرجع، فيضع يده في أيديهم، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى، والسكران حتى يصحو».

وكذلك روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلن الجنة منّان، ولا عاقّ، ولا مدمن خمر». وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من شرب شراباً يذهب بعقله فقد أتى باباً من أبواب الكبائر».

والخلاصة: أن تحريم الخمر مقطوع به في الإسلام، وأن شربه من الكبائر، وأن الخمر أم الخبائث.

---

(١) إناء.

ما يحرم أكله وما يباح

أحل الله تعالى لنا الطيبات النافعة وحرم علينا الخبائث الضارة، لما فيها من أذى جسدي أو معنوي عَقَدي، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧] وإباحة الطيبات من أجل سلامة الأجساد، وتحريم الخبائث من أجل إزالة المضار.

ومعيار التفرقة بين الطيب المباح والخبيث الضار هو أن كل ما استطابه العرب أو ألفه الذوق العربي الرفيع في الأحوال العادية غير حال الضرورة، فهو حلال ما لم يرد في تحريمه نص، فقد ثبت في الشرع إباحة لحوم الأغنام والأبقار والإبل، والخيل من غير كراهية. ونص القرآن الكريم على تحريم سبعة أشياء في سورة المائدة [آية: ٣] وهي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ(١) وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ(٢) وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ(٣) وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ(٤) وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟(٥) بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾، وقد جمع الله تعالى كل ما تقدم، فحرمه بهذه الكلمة.

(١) وهو ما ذكر اسم غير الله عليه أثناء الذبح.
(٢) أي الميتة خنقاً، أو ضرباً بشيء ثقيل كالعصا والحجر.
(٣) الساقطة من مكان عال إلى أسفل، فماتت.
(٤) ما ذبح على الأصنام حول الكعبة تعظيماً من المشركين لها، حيث كان المشركون يذبحون على الحجارة لآلهتهم.
(٥) المذبوحة بعد المقامرة عليها لمعرفة الحظ في زواج أو سفر مثلاً وجميع أمورهم زاعمين أن ركوبها معصية للرب تعالى.

ومن الحيوانات المحرم أكلها ما ورد تحريمه في حديث مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير». أي أكل الحيوانات المتوحشة الضارية ذات الأنياب، والطيور ذوات المخالب. وكذلك ما رواه البيهقي في السنن «من نهي النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية». والنهي عن لحوم الجلّالة وهي الدجاجة وغيرها التي تأكل القاذورات وظهر ريح القذر في لحمها. وكذلك النهي عن أكل النملة والصُّرّد (الخنافس والصراصير) والهدهد، والضفدع، والخُطّاف. وتحريم أكل الغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب أو السبع العادي، وكل ذلك لا يحل أكله.

ويحل أكل جميع الأنعام إلا ما حرمه الشرع وهو المذكور في الآية المتقدمة من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل (ذبح) لغير الله به، فهذا كان حراماً منذ خَلْق السماوات والأرض، وكذلك المنخنقة (الشاة أو غيرها التي أميتت خنقاً) قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٥/١].

وأما ما أكل السبع بعضه بعد أن ضربه كالذئب فلا يؤكل إلا إذا ذبح، وفيه روح أو حياة مستقرة فيؤكل، فهو ذبيح.

واستثنى الله المضطر من تحريم الميتة إذا تعرض لخطر الموت جوعاً، فله أن يأكل بقدر الضرورة، لآيات في ذلك منها: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/٣] وفي آية أخرى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٥] قال مجاهد: غير قاطع السبيل ولا مفارق الأئمة، ولا خارج في معصية الله عز وجل، أي غير العاصي بسفره، وقال آخرون: غير قاصد أكل الحرام من دون ضرورة، ولا متجاوز حدود الضرورة.

وثبت في السنة النبوية أنه عليه الصلاة والسلام استثنى من كل من الميتة والدم شيئين، فقال فيما رواه البيهقي والحاكم عن ابن عمر: «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال». أما الميتتان فلا دم لهما سائلاً، وأما الكبد والطحال فهما دمان جامدان تغير وصفهما وحالتهما بخلق الله تعالى.

وتؤكل ذبيحة المسلم، والكتابي (اليهودي والنصراني) والأنثى، والصبي المميز والبصير والأعمى، ولو أكرهوا على الذبح، وكذا العدل والفاسق، والسارق والغاصب، لعموم الأدلة الدالة على الإباحة وعدم المخصص، لكن على السارق والغاصب ضمان القيمة، ولا يصح ذبح المشرك والوثني، والمجوس وصيدُهم، ولا ذبيحة المجنون والسكران في رأي جمهور العلماء غير الشافعي، ولا ذبيحة المرتد، لإنكاره وحدانية الله تعالى أو وجوده.

ويكره ذبح الحيوان من القفا أو من صفحة العنق، لما في ذلك من تعذيب الحيوان، وقرر المالكية أنه لا يؤكل ما ذبح من القفا، أو صفحة العنق، لأن السكين لا تصل إلى الحلقوم والأوداج إلا بعد قطع النخاع الشوكي، وهو مقتل من المقاتل، فيحصل الذبح لحيوان قد أصيب مقتله.

وأجاز أغلب العلماء غير الحنفية أكل جميع أنواع الحيوان المائي، وهو الذي لا يعيش إلا في الماء، للحديث المتقدم في إباحة السمك والجراد، ولقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٩٦/٥] ولإباحة النبي ﷺ دابة العنبر وهو الحوت الذي وجد طافياً على سطح ماء البحر، ولأنه لا دم لحيوان الماء.

كثرة الأكل

الطعام والشراب وسيلتان للحياة، لا غاية مقصودة في العيش، لأن الشرع أحل لنا الطيبات للتقوّي بها على ممارسة الأعمال وأدائها بنحو سليم، وبقدر لا بد منه، ولأن الطعام والشراب يساعدان على أداء العبادات وممارسة الطاعات المرضية لله رب العالمين، فليكن الغرض من الأكل الاشتغال بالعبادة والتقوي عليها.

لكن تناول الطعام أو الأكل يكون بقدر معتاد، لا يؤدي إلى التخمة الضارة المرهقة للأعضاء وجهاز الهضم وجهاز التنفس والدورة الدموية.

أما كثرة الأكل فتؤدي إلى كثرة النوم والمنع من العبادة وإرهاق الجسد كله، والشأن في المؤمن التوسط والاتزان والاعتدال، وشأن غير المؤمن انتهاب اللذات والإغراق في الأهواء والشهوات، روى مسلم في الصحيح وعبد الرزاق في مصنّفه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يأكل في معىً واحد، وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء».

وروى البخاري ومسلم عن نافع قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يؤتى بمسكين فيأكلُ معه، فأدخلتُ عليه يوماً رجلاً، فأكل أكلاً كثيراً، فقال لي ابن عمر: يا نافع لا تُدْخل علي هذا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء».

وروى البيهقي في شعبه عن أبي هريرة أن رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً، فأسلم، فكان يأكل بعد ذلك أكلاً قليلاً، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمسلم في معىً واحد».

وأفضل الطعام الطعام الجماعي الذي تمتد إليه الأيدي، ويبارك الله في هذا الطعام عادة، لما أخرجه الشيخان في الصحيح عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية».

وتميّز بيت النبوة بالاعتدال والزهد في الأكل، لما رواه الشيخان والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خُبز البُرّ ثلاثاً حتى مضى لسبيله». وفي رواية: «أن رسول الله ﷺ لم يشبع شبعتين في يوم حتى مات».

وروى البخاري في الصحيح عن قتادة قال: كنا نأتي أنساً وخبّازه قائم، فيقول: كلوا، فما أكل رسول الله ﷺ رغيفاً مرققاً، ولا شاة سميطاً[1] حتى لحق بالله عز وجل.

وهذا يرشدنا إلى أن من شأن المسلم الاعتدال في طعامه وشرابه، لما رواه البيهقي في شعبه عن أبي جحيفة قال له رسول الله ﷺ: «يا أبا جحيفة أقصر عنا من جُشائك، فإن أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة».

وفي حديث سلمان الفارسي: «إن أكثر الناس شبعاً أطولهم جوعاً في الآخرة» «يا سلمان، الدنيا سجن المؤمن وجَنّة الكافر».

وأبانت السنة النبوية طريقة الاعتدال في الطعام والشراب، روى البيهقي في الشُّعب والحاكم، عن المقدام بن معد يكري الكندي عن النبي ﷺ قال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، حَسْب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلثٌ طعامه، وثلثٌ شرابه، وثلثٌ لنَفَسه». وفي لفظ: «فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسه».

---

(١) أي مشوية.

وفي حديث ثوبان عند البيهقي في السنن: «يا ثوبان إني لا أريد أن يأكل أهلي طيباتهم في حياتهم الدنيا».

والشعور أو الإحساس بحاجة الآخرين وآلامهم من شأن المؤمن الصادق، لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالذي يشبع، وجاره جائع إلى جنبه»(١).

وروى البيهقي في شعبه عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب، فلا يزن عند الله عز وجل جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٥]».

وفي حديث مرسل موصول ذكره البيهقي أن عمر رضي الله عنه رأى جابر بن عبد الله قد اشترى بدرهم لحماً، فقال عمر: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنَه لجاره وابن عمه؟ فأين يذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٠].

وروى البيهقي في شعبه عن الحسن البصري قال: قيل ليوسف عليه السلام: تجوع وخزائن الأرض بيدك؟ قال: إني أخاف أن أشبع فأنسى الجياع.

وقال السُّري بن المُغْلِس - وقد ذكر أهل الحقائق من العباد - فقال: أكلهم أكل المرضى، ونومهم نوم الغرقى.

وقال علي بن المديني: والله إن أبغض ساعاتي إلي الساعة التي آكل فيها.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني والحاكم والبيهقي في شعبه.

طيب المطعم والملبس

على المسلم التقي أن يحرص على كون طعامه ولباسه طيِّباً حلالاً، حتى يبارك الله له في جسده ونفسه وأهله وذرّيته، فلا يأكل حراماً، ولا يتناول مشتبهاً فيه، ولا يأخذ مال أخيه إلا بطيب نفس منه، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، لقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٩].

وهذا هو منهاج الرسل والأنبياء الكرام والصالحين المؤمنين، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب[1] لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥١] وقال: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٢٠/ ٨١]. ثم ذكر الرجلَ يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربُّ يا ربُّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له». دل على أن الله قدوس طهور لا يقبل إلا الحلال، وأمر الله به جميع الرسل، وجميع المؤمنين، وأن من يتناول الحرام لا تستجاب دعوته.

كذلك يجب على المؤمن اجتناب المشتبه فيه المتردد بين الحل والحرمة، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن النعمان بن بشير قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن،

(١) أي المنزه عن النقائص والخبائث، فهو بمعنى القدوس.

وبينهما مشتبهات، فذكره، وقال: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

وفي رواية أخرى للحديث عند البخاري في الصحيح: «حلال بيِّن، وحرام بيِّن، وشبُهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم، كان لما استبان له أترك، ومن اجترأ على ما شك فيه أوْشك أن يُوقَع في الحرام[١]، وإن لكل ملك حمى، وحمى الله في الأرض معاصيه».

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ وجد تَمْرةً، فقال: «لولا أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها».

وطريقة الابتعاد عن الشبهات هي الامتناع عن فعل الشيء إذا تردد بين الفعل والترك، لما رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدي - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس».

وفي رواية مسلم أن رسول الله ﷺ سأله رجل، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك، فأنت مؤمن». قال: يا رسول الله، ما الإثم؟ قال: «إذا حاك في صدرك شيء فدعه».

وروى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والنَّسائي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

وذكر البيهقي في شعبه عن أبي قتادة وأبي الدهماء قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فجعل يعلِّمني مما علَّمه الله، فكان مما حفظت عنه أن قال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله إلا أعطاك الله خيراً منه».

(١) وفي لفظ: «وقع في الحرام».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، كن ورِعاً تكن أعبد الناس، وكن قَنِعاً تكن أشكر الناس، وأحبّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن إلى مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقلّ الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب».

وأورد البيهقي عن عائشة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل أوحى إليّ أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سَهَّلت له طريق الجنة، ومن سَلَبتُ كريمتيه أثبتُهُ عليهما الجنة، وقَصْد في علم خير من فضل عبادة، وملاك الدين الورع».

ولدى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: «من أكل طيباً وعمل في سُنّة، وأمن الناس بوائقه[1]، كان في الجنة». قال رجل: يا رسول الله، إن هذا اليوم في الناس لكثير. قال: «وسيكون في قرون بعدي». وهذا دليل واضح على استمرار الأطماع والتورط في الشبهات.

وأخرج البخاري في الصحيح عن جندب بن جنادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سمَّع سمَّع الله به يوم القيامة، ومن يشْقُق يشقّ الله عليه يوم القيامة». فقالوا له: أوصنا، فقال: «إن أول ما يُنْتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع منكم ألا يأكل إلا طيباً، فليفعل، ومن استطاع منكم ألا يحال بينه وبين الجنة على كف من دم أهراقه فليفعل». أي ألا يتورط في ارتكاب قتل أو سفك دم حرام.

---

(١) شروره وآثامه.

اجتناب الحرام واتقاء الشبهات

حرص الإسلام على نظافة الظاهر والباطن، وعلى كون الجسم ينبت من حلال، لا من حرام، وعلى اتقاء المحارم والامتناع عن الشبهات، لأن حرمة المال تعكِّر صفو النفس الإنسانية، وتسيء إلى تكوين الجسم والعقل، وينتقل ذلك إلى الذرية والأولاد، وقد ذمَّ الله تعالى اليهود الذين يأكلون السُّحت (المال الحرام) فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٢] وقال أيضاً: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٢] وفي آية أخرى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٣]. وما تزال هذه الطبائع هي المشاهدة فيهم في كل وقت.

لذا حذَّر النبي ﷺ من تناول أي حرام في وصايا نبوية كثيرة، منها ما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة، قال: «تقوى الله وحسن الخلق». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، قال: «الأجوفان: الفرج والفم».

ومنها ما رواه عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَدْخل الجنة لحمٌ ودم نبتا من بخس» أي نقص في الكيل والميزان وغيرهما.

وروى أيضاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل جسد نبت من سحت، فالنار أولى به». وفي رواية: «أيما لحم من سحت فالنار أولى به». أو «أيما لحم نبت من حرام فالنار أولى به».

وروى كذلك عن كعب بن عُجْرة قال: قال نبي الله ﷺ: «يا كعب، كيف بك إذا كان عليك أمراء، فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولا أنا منه، ولا يرد علي حوضي.

يا كعب، إنه لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبتا من سحت، كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به.

يا كعب، الناس رجلان غاديان ورائحان: غادٍ في فكاك رقبته، فمعتقها، وغادٍ فموبقها.

يا كعب، الصلاة برهان، والصوم جُنَّة، والصدقة تُذْهب الخطيئة، كما تَذْهب الجامدة على الصفا».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجعل أحدكم في فيه تراباً خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عز وجل».

وكان عشرة من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد، لا يُدخلون في بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال، وإلا استفوا التراب[(١)]. وهذا نموذج عملي.

وذكر البيهقي أيضاً عن عبد الله بن عمرو يقول عن النبي ﷺ قال: «مثلّ المؤمنين مثَل النحلة، إن أكلت أكلت طيباً، وإن وضعت وضعت طيباً، وإن وقعت على عود شجر لم تكسره، ومثل المؤمن كمثل سبيكة الذهب، إن نَفَخَت عليها احمّرت، وإن وُزنت لم تنقص».

وأمر النبي ﷺ بإطعام الشاة المغصوبة المشوية للأُسارى.

وفي قصة ذكرها البيهقي عن ثابت وعبد الوهاب بن أبي حفص قال: أمسى داوود عليه السلام صائماً، فلما كان عند إفطاره أُتي بشَرْبة لبن،

---

(١) انظر أسماءهم في شعب الإيمان للبيهقي ٥/٥٨

فقال: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: من شاتنا، قال: ومن أين ثمنها؟ قالوا: يا نبي الله، من أين تسأل؟ قال: إنا معشر الرسل أمرنا أن نأكل من الطيبات[1] ونعمل صالحاً.

وفي قصة أخرى ذكرها البخاري في الصحيح عن عائشة ﵂، قالت: كان لأبي بكر ﵁ غلام يُخرج له الخراج[2]، فكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسِن الكِهانة، إلا أني خدعته. فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلتَ منه، قال: فأدخل أبو بكر يده، فقاء كل شيء في بطنه.

وكذلك فعل عمر ﵁ حيث استقاء حين علم أن اللبن الذي سقاه ساقٍ هو لبن من نَعَم الصدقة.

وشيّع الربيع بن خيثم صاحباً له، فقال له صاحبه عند الوداع: أوصني. فقال له الربيع: أوصيك أن تعمل صالحاً وتأكل طيباً.

وكان سفيان الثوري يقول: انظر كِسْرتك التي تأكلها من أين تأكلها، وقم في الصف الأخير. انظر درهمك من أين هو، وصلّ في الصف الأخير.

وكان سهل بن عبد الله يقول: أصولنا خمسة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق.

وأخرج البخاري عن خالد بن معدان بن المقدام بن معدي كرب أنه قال: عن النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده».

(١) أي من المباحات.

(٢) ما يخرج من غلة الأرض والمال.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم».

وروى أيضاً عن أبي هريرة أيضاً قال النبي ﷺ: «إذا دخل أحدكم على أخيه المسلم فليأكل من طعامه، ولا يسأل، ويشرب من شرابه ولا يسأل».

آداب الأكل والشرب
(آداب المائدة)

يسن لكل مسلم ومسلمة التزام آداب معينة قبل الطعام والشراب، حتى يبارك الله له فيه، وهي آداب ثابتة في السنة النبوية الشريفة وهي ما يأتي:

غسل اليدين قبل الطعام وبعده، ففي ذلك الخير للآكل ليحمي نفسه من تناول ما يضره، روى أبو داوود والبيهقي عن سلمان الفارسي قال: قرأت في التوراة: إن بركة الطعام الوضوء قبله، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إن بركة الطعام الوضوء قبله، والوضوء بعده». والمراد بالوضوء حينئذ غسل اليدين. أما الوضوء العادي المعروف فهو بدعة وليس سنة قبل الطعام. روى مسلم عن ابن عباس في الإنكار على من قال له قبل الطعام: ألا تتوضأ؟ قال: لم أصل فأتوضأ. وروى مسلم أيضاً عن سعيد بن الحويرث أنه قال: ما أردت الصلاة فأتوضأ. وكذلك قال عمر: أما غسل اليد فبعد الطعام.

وروى البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: شرب رسول الله ﷺ لبناً ثم دعا بماء فتمضمض، ثم قال: «إن له دَسَماً».

وغسل اليدين قبل الطعام وبعده على سبيل الاستحباب، والدليل على جواز الترك أن النبي ﷺ - فيما رواه البيهقي عن ابن عباس - أكل كَتِف شاة، ثم صلى، ولم يتوضأ ولم يتمضمض. وفي حديث آخر أنه عليه الصلاة والسلام اكتفى بمسح يديه بعد الطعام.

التسمية قبل الطعام، يسن للآكل والشارب البدء بالبسملة قبل الطعام قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم» لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله، سمع النبي ﷺ يقول: «إذا دخل الرجل البيت، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء».

وروى الإمام البخاري وأحمد والبيهقي عن عمر بن أبي سلمة قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يأكل فقال: «اجلس يا بني، وسمِّ الله عز وجل، وكل بيمينك وكل مما يليك».

الاجتماع على الطعام، يستحب الاجتماع على الطعام وترك الانفراد فيه، لما رواه البيهقي عن وحشي بن حرب قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع. قال: «لعلكم تتفرقون». قلنا: نعم، قال: «اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عز وجل يبارك لكم فيه».

الأكل والشرب باليمين، يسن الأكل والشرب باليمين، لما رواه مسلم في الصحيح عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله».

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً عن سلمة بن الأكوع، عن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله، فقال له: «كل بيمينك». قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعت». قال: فما رفعها إلى فيه بعد ذلك.

وروى البيهقي عن عائشة ﵂ قالت: «كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لطُهوره ولطعامه، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان من أذى».

الأكل مما يليه، يسن الأكل مما يلي الإنسان، لا من الوسط، لما أخرجه البخاري في الصحيح عن مالك مرسلاً، وأخرجه الشيخان أيضاً عن عمر بن أبي سلمة أن رسول الله ﷺ قال له: «سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك».

وفي رواية عنه أنه قال: أكلت مع النبي ﷺ يوماً، فجعلت آخذ اللحم من حول الصَّفْحة، فقال رسول الله ﷺ: «كل مما يليك».

الأكل من جوانب الإناء دون وسطها، يكره الأكل من وسط الإناء، لما رواه البيهقي أن النبي ﷺ جثى مع الناس على طعام في قصعة، فقال أعرابي: ما هذه الجِلْسة؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً». ثم قال: «كلوا من جوانبها، وذروا ذروتها يبارك فيها». ثم قال: «كلوا فوالذي نفسي بيده ليُفْتَحن عليكم أرض فارس والروم حتى يكثر الطعام، فلا يذكر اسم الله عليه».

الأكل بثلاثة أصابع، روى مسلم عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يأكل بثلاثة أصابع ولا يمسح يده حتى يلعقها.

أخذ اللقمة إذا سقطت: روى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان يحضر أحدَكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضرَه عند طعامه، فإذا أسقطت من أحدكم اللقمة، فليمط ما كان بها من أذى، ثم يأكلها، ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه، فإنه لا يدري في أي طعامه تكون البركة».

الدعوة إلى الطعام مقصورة على المدعو، ليس من الأدب أن يدعى أحد إلى طعام، فيناول منه غيره، لما ثبت عن سلمان الفارسي والضحاك: إذا كنت على طعام غيرك، فجاء سائل فلا تناوله منه شيئاً.

إدناء أو تقريب الطعام للجالس على المائدة هذا شيء مشروع، لما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرَّب إلي رسول الله ﷺ خبز شعير ومرقاً فيه دُبّاء (قرع) وقديداً (لحماً مجففاً).

وروى البيهقي في شعبه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضعت المائدة، فليأكل الرجل مما يليه، ولا يأكل مما بين يدي جليسه، ولا من ذِرْوة القصعة، فإنما تأتيه البركة من أعلاها، ولا يقوم رجل حتى ترفع المائدة، ولا يرفع يده وإن شبع حتى يرفع القوم، وليعذُرْ، فإن ذلك يُخجل جليسه، فيقبضُ يده، وعسى أن تكون في الطعام حاجة».

ما يندب أكله وما لا يندب

أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام بآداب في تناول بعض المطعومات والمشروبات، وحذَّرنا مما لا يحسن تناوله، منها:

ترك تعييب الطعام المقدم للآكل، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ عاب طعاماً قط، كان إذا اشتهاه أكله، وإذا لم يشتهه سكت».

وروى البيهقي في شعبه عن عائشة ﵂، أن النبي ﷺ قال: «أكرموا الخبز، ومن كرامته ألا يُنتظر الأُدم».

وروى أيضاً عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «نعم الإدام الخل، وكفى بالمرء شراً أن يتسخط ما قُرِّب إليه».

اكل التمر، أخرج البخاري ومسلم عن جبلة بن سحيم قال: أصابنا عام سنة مع ابن الزبير، فرزقنا تمراً، وكان عبد الله بن عمر يمر بنا، ونحن نأكل، فيقول: لا تقارنوا، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الإقران، إلا أن يستأذن الرجل أخاه.

وأخرج مسلم عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل سبع تمرات ما بين لابتيها[١] حين يصبح، لم يضره سم حتى يمسي». وأخرج البيهقي من طريق الطيالسي عن ابن بُريدة عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «خير تمركم البُرني، يُذهب الداء ولا داء فيه».

وأخرج مسلم عن عبد الله بن بِشْر السلمي أن أمه قدّمت للنبي ﷺ في زيارته لها تمراً، فجعل يأكل ويرمي بالنوى بأصبعيه السبابة والوسطى، ثم دعا بشراب فشرب، ثم سقى الذي عن يمينه، فقالت أمي: يا رسول الله، ادع لنا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم بارك فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم».

وأخرج مسلم في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «بيت ليس فيه تمر جياعٌ أهله».

وروى البيهقي حديثين: الأول عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يشق التمرة عما فيها. أي إذا كان التمر جديداً. والثاني عن أنس بن مالك قال: أتي النبي ﷺ بتمر عتيق، فجعل يفتشه يخرج السوس منه[٢]. أي إذا كان التمر قديماً.

---

(١) أي حَرّتي المدينة المنورة.

(٢) وهذا مع إرساله أصح من الحديث الأول.

وروى البخاري عن ابن عمر قال: دخلت على رسول الله ﷺ يوماً في بيته، فرأيته يأكل جُمَّار نخل. أي شحمه الذي يكون في أعلى جذع النخل.

أكل اللحم والثريد، أورد البيهقي في شعب الإيمان أحاديث، منها ما رواه عن عبد الله بن جعفر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أطيب اللحم لحم الظهر».

ومنها ما رواه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الإدام اللحم وهو سيد الإدام».

ومنها ما رواه عن أنس بن مالك وأبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

ومنها ما رواه في كتاب السنن أن أسماء بنت أبي بكر كانت إذا صنعت الثريد من الخبز ونحوه غطته شيئاً حتى يذهب فوره أو بخاره، ثم تقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه أعظم للبركة». ومنها ما رواه عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «أثردوا ولو بالماء». ومنها ما رواه عن عائشة قالت: أحب الشراب إلى رسول الله ﷺ الحلو البارد.

تناول العَسَل والزيت والخل والدُّبَّاء، روى البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء أبداً».

وروى أبو داوود عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»[1]. وروى ابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه طيب مبارك»[2]. وروى ابن

---

(١) ضعيف.

(٢) صحيح.

ماجه والحاكم عن ابن عمر: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة»(١).

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الخل نعم الأدم هو».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك، أن رجلاً خياطاً دعا رسول الله ﷺ فقرب له ثريداً قد صبَّ عليه دُبّاء (قرعاً) فأخذ رسول الله ﷺ الدُّبّاء فأكله، قال: وكان يحب الدُّباء، وقال أنس: فما صُنع لي طعام أقدر أن يُصنع فيه دُبّاء إلا صُنع.

الدعاء بعد الأكل والشرب، روى البيهقي في شعبه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأبدلنا خيراً منه. وإذا شرب لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجري مجرى الطعام والشراب إلا اللبن».

أكل الثوم والبصل، روى الشيخان عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا، وليقعد في بيته».

وروى البيهقي عن معاوية بن قُرّة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين، فلا يقربن مسجدنا هذا، فإن كنتم لا بد آكليهما فأميتوهما طبخاً».

---

(١) صحيح.

حالات الأكل والشرب من قيام وجلوس وغيرهما

أوصت السنة النبوية بالمحافظة على المشروع النافع في تناول الأكل والشرب من اتكاء وقعود وقيام وتنفس في الإناء ونحو ذلك، كما يتبين فيما رواه البيهقي في شعبه وغيره.

الأكل متكئاً، يكره الأكل متكئاً لغير ضرورة أو حاجة، لما رواه البخاري عن أبي جحيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا آكل متكئاً».

وروى البيهقي عن ابن عباس أن الله عز وجل أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً فخيَّره بين أن يكون عبداً نبياً، وبين أن يكون مِلكاً نبياً، فأشار إليه أن تواضع، فقال: «بل أكون عبداً نبياً». فما أكل بعد تلك الحكمةِ طعاماً متكئاً حتى لقي ربه عز وجل.

وترْك النبي ﷺ الأكل متكئاً من خصائصه ﷺ، ويندب لغيره أن يترك ذلك، لأنه من فعل المتعظمين.

وكان النبي ﷺ يأكل جالساً، لما أخرجه مسلم عن أنس يقول: أهدي للنبي ﷺ تمر، فأخذ يُهديه، فرأيت رسول الله ﷺ يأكل تمراً مُقْعياً[١] من الجوع. وقال عليه السلام: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد».

الأكل والشرب قائماً، يُكره أيضاً الأكل والشرب قائماً، لما رواه البيهقي عن أنس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الشرب قائماً، قلت:

(١) الإقعاء في اللغة أن يلصق الرجل أليته بالأرض وينصب ساقيه، ويتساند إلى ظهره.

والأكل؟ قال: ذاك أشَرّ». وفي حديث أبي هريرة عند البيهقي يقول: رأى رسول الله ﷺ رجلاً يشرب قائماً، فقال: «أيسرُّك أن يشرب معك الهر؟» قال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «قد شرب معك الشيطان فيما شربت».

لكن أخرج البخاري عن النزَّال بن سَبْرة قال: إن ناساً يكرهون أن يشربوا وهم قيام، ورأيت رسول الله ﷺ فعل مثل الذي فعلت.

وأكد ذلك ما رواه البيهقي أن علياً ﷺ شرب قائماً، وقال: إن أشرب قائماً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً، وإن أشرب جالساً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب جالساً. وهذا دليل على جواز الأمرين، لكن الأفضل كما تقدم الأكل والشرب جالساً، لا قائماً.

وروى البيهقي أيضاً أن ابن عباس شرب من زمزم وهو قائم. وروى أيضاً عن عائشة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يصلي حافياً ومنتعلاً، ويشرب قائماً وقاعداً، وينصرف عن يمينه وعن شماله، لا يبالي أي ذلك كان.

وقال ابن عمر: كنا نشرب ونحن قيام، ونأكل ونحن نسعى على عهد رسول الله ﷺ.

الأكل منبطحاً على بطنه، روى البيهقي عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ عن مطعمين: الجلوس على مائدة يُشْرب عليها الخمر، وأن يأكل الرجل وهو منبطح على بطنه. وهذا النهي للتحريم.

الجمع بين لونين من الطعام، يستحب الاقتصار على لون واحد من الطعام لما فيه من راحة المعدة، إلا إذا كان ذلك في الفاكهة والخضار، لما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن جعفر قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل القثّاء بالرُّطَب.

وروى البيهقي عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان يجمع بين البطيخ

والرطب. وقالت أيضاً: «كلوا البلح بالتمر، فإن الشيطان يقول: عاش ابن آدم حتى أكل الجديد بالخلق». أي الرطب الجديد بالقديم. وكان عليه السلام فيما رواه البيهقي يجمع بين الزبد والتمر.

كراهية التنفس في الإناء والنفخ فيه، يكره تحريماً التنفس في الإناء والنفخ فيه، لما أخرجه الشيخان عن أبي قتادة قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء. وروى البيهقي في شعبه عن ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه. وسبب النهي تلويث الطعام أو الشراب بثاني أكسيد الفحم الذي يخرج مع الزفير، واختلاط ذلك برائحة المعدة أو الجوف، فيضر الماء، أو يفسد السؤر (الماء الباقي) على غير الشارب، لأنه قد يتقذر إذا علم به فلا يشرب. وكان علي فيما روى البيهقي في شعبه ينهى القصَّابين عن النفخ في اللحم، وهو نظير النفخ في الطعام والشراب الذي جاء النهي عنه.

وروى البيهقي أيضاً عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشموا الطعام كما يشمه السباع، ولا تقطعوا الخبز بالسكين كما تقطعه الأعاجم».

الشرب بثلاثة أنفاس، يسن الشرب بأنفاس ثلاثة لما فيه من الهناءة ونزول الماء سائغاً مَرِيّاً، لما رواه البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ إذا شرب تنفَّس ثلاثاً، ويقول: «إنه أمرأ وأهنأ وأبرأ».

وروى أيضاً عن أنس عن النبي ﷺ قال عن الماء: «مصُّوه مصاً، ولا تغبُّوه غباً». وفي رواية: «إذا شرب أحدكم فليمصّ الماء مصاً، ولا يغب غباً، فإن الكباد من الغب». أي داء الكبد من غب الماء. وفي رواية عن عكرمة: «لا تشربوا نفَساً واحداً فإنه شراب الشيطان». وعن ابن عباس فيما رواه البيهقي: «لا تشربوا واحدة كالبعير، واشربوا مثنى وثلاث، وسموا إذا شربتم، واحمدوا إذا فرغتم».

النهي عن الشرب من أفواه الآنية، لما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه نهى عن اختنات[1] الأسقية وأن يشرب من أفواها.

وفي رواية أحمد عن النبي ﷺ أنه نهى أن يشرب من في السقاء، وشرب رجل من فم السقاء فخرجت حية. لكن ثبت أن النبي ﷺ شرب من فم قربة معلّقة، وهو قائم. وهذا يدل على الجواز، وخبر النهي يدل على الاستحباب تنحية للأذى عن الشارب.

توجيهات نبوية في الشرب وتناول الطعام

١- الكرع من الماء، يسن الشرب من النهر باليد، ويكره الكرع أو الغب خشية دخول شيء ضار أو غريب، لما رواه البيهقي عن ابن عمر قال: مرّ النبي ﷺ بغدير، فقال: «اشربوا ولا تكرعوا، ليَغْسل أحدكم يديه، ثم ليشرب، أيّ إناء أنقى من يده إذا غسلها؟».

وفي رواية أخرى عن ابن عمر: مررنا مع النبي ﷺ بِرَك ماء، فجعلنا نكرع فيها، فقال: «لا تكرعوا فيها، ولكن اغسلوا أيديكم واشربوا منها، فليس من إناء أطيب من اليد».

قال الإمام أحمد: ويحتمل أن يكون النهي لتنحية الأذى عن الشارب، ولئلا يرسل الشارب نفسه فيه، إن كان الماء في حوض صغير أو مستنقع، فيمتنع غيره من الشرب منه تقذراً، والكرع جائز في الجملة، بدليل حديث جابر بن عبد الله الذي أخرجه البخاري في الصحيح أن

---

(١) أي عطف السقاء فينعطف.

رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأنصار، ومعه صاحب له، فسلَّم رسول الله ﷺ وصاحبُه، فرد الرجل، قال: وهي ساعة حارَّة وهو يحوِّل الماء في حائطه[1]، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان عندك ماء بات هذه الليلة في شَنّ[2]، وإلا كرعنا». والرجل يحوِّل الماء في حائطه. وهو دليل واضح على مشروعية الكرع.

٢- استعذاب الماء، تقتضي القواعد الصحية أن يكون الماء عذباً خالياً من الملح والتراب ونحوهما من الملوثات، لما رواه البيهقي عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يُسْتعذَب له الماء من السقاء عند حمام عند طرف الحرة[3].

٣- مناولة الشارب مَنْ على يمينه، يبدأ الشُّرب من وجيه القوم، ثم مَنْ على يمينه، لما رواه مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: قدم النبي ﷺ المدينة، وأنا ابن عشر، ومات وأنا ابن عشرين، وأمهاتي كنّ يحثّثنني على خدمته، فدخل علينا دارنا، فحلبنا له من شاة داجن، وشيب له من بئر في الدار، فشرب رسول الله ﷺ، وأبو بكر عن يساره، وأعرابي عن يمينه، وعمر ناحية، فقال عمر: ناول أبا بكر، فناول الأعرابي، وقال: «الأيمن فالأيمن».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن سهل بن سعد الساعدي، أن رسول الله ﷺ أُتي بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟» فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً، فتلّه في يده رسول الله ﷺ.

(١) بستانه.
(٢) القربة الخَلَق (البالية).
(٣) أرض ذات حجارة سود في المدينة المنورة.

٤- ساقي القوم آخرهم، ثبت مخرَّجاً في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ في سفر، فأصاب الناسَ عطش، فنزل منزلاً، فجعل أصحاب النبي ﷺ يقولون: يا رسول الله، اشرب، فيقول: «ساقي القوم آخرهم، ساقي القوم آخرهم».

وأخرج البيهقي عن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل مع قوم كان آخرهم أكلاً. أي قياماً عن مجلس الطعام.

٥- ما يقول الآكل بعد الفراغ من الطعام، يستحب حمد الله تعالى بعد كل طعام وشراب، فقد روى البخاري في الصحيح عن أبي أمامة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أكل وشرب قال: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفور ولا مودّع[1]، ولا مستغنىً عنه ربنا. وفي رواية: كان رسول الله ﷺ إذا رُفعت المائدة قال: «وغير مكفي». أي غير محتاج إلى الطعام، فيُكْفَى لكنه يُطْعِم ويَكْفي.

وفي رواية عن رجل من بني سليم وكانت له صحبة قال: «اللهم لك الحمد أطعمت وسقيت وأشبعت وأرويت فلك الحمد، غير مكفور ولا مستغنى عنه ربنا».

وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من طعامه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا مسلمين».

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا شرب لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس يجزي من الطعام والشراب غيرُ اللبن».

وفي رواية عند البيهقي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا

(١) أي غير مستغنى عنه ولا متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده.

أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا».

وروى مسلم في الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشَّرْبة فيحمده عليها».

٦- الدعاء لصاحب الطعام، روى البيهقي عن أنس أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة، فجاء بخبز وزيت، فأكل، ثم قال النبي ﷺ: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة».

الطعام الصحي والوقاية من الضرر

يكون الطعام صحياً سليماً إذا ناسب الآكل وكان خفيفاً لا تخمة فيه، ولا شوائب عليه. ولا تعرُّض لما يقع فيه من المؤذيات والمضارّ، فهذا مما حرص عليه الشرع، وأكّدته القواعد والآداب الصحية المفيدة للإنسان، ورأسها النظافة.

وهذه قواعد من الوقاية التي ينبغي على الأسرة والأفراد التزامها. ومنها:

تنظيف الأسنان واستعمال الفرشاة أو السواك بعود الأراك بعد كل طعام قبل مضي حوالي ربع ساعة بعد الأكل، وقبل حدوث التخمرات أو التعرض لتسوس الأسنان، ولا مانع من استعمال الخلال والتخلل بالأعواد الرفيعة وهي الخلة المعروفة، روى البيهقي في شعبه بعض هذه الوسائل، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أكل طعاماً، فما تخلل، فليلفظ، وما لاك بلسانه فليبلع، من فَعَل فقد أحسن، ومن لا فلا حرج». وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله المتخللين

والمتخللات». ونهى كلٌّ من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز عن التخلل بعود القصب والآس، أي بسبب قساوتهما.

ومن القواعد الصحية وقاية الطعام من المضار، فيسنّ تخمير (تغطية) الإناء وإيكاء الأسقية. أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضجّ الليل أو أمسيتم، فكفُّوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من الليل، فخلوهم وأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً، وأوكوا قِربكم، واذكروا اسم الله، وخمّروا آنيتكم، واذكروا اسم الله[1]، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً، وأطفئوا مصابيحكم». هذه وصايا نبوية حكيمة وذات أثر صحي عظيم تشمل إغلاق أبواب الدار خشية اللصوص، وذكر اسم الله على الأبواب، وعند تغطية الآنية، والقيام بالتغطية، وإطفاء المصابيح، ويلاحظ أن تكرار ذكر اسم الله في الحديث ثلاث مرات: عند الإغلاق، وربط القِرب، وتغطية الأواني ولو بعود فوقه، دليل على الرغبة في مداومة ذلك، والحرص عليه.

وأخرج مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غطّوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء لم يغط ولا سقاء لم يوك[2] إلا وقع فيه».

وأخرج مسلم أيضاً عن جابر بن عبد الله يقول: أخبرني أبو حميد أنه أتى النبي ﷺ بقدح لبن من البقيع ليس بمخمّر[3]، فقال له النبي ﷺ: «ألا خمّرته ولو أن تعرض عليه عوداً». وقال أبو حميد: إنما أمر النبي ﷺ بالأسقية أن توكأ ليلاً، وبالأبواب تغلق ليلاً.

---

(١) أي غطوها وسموا الله عليها.

(٢) لم يربط عنقه.

(٣) ليس بمغطى.

وأخرج مسلم كذلك عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «غطُّوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح، فإن الشيطان لا يُحل سقاء، ولا يكشف إناء، ولا يفتح باباً، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على آنيته عوداً ويذكر اسم الله عليه فليفعل، وإن الفويسقة[١] تُضرم على أهل البيت بيتهم».

ورواية البخاري في الصحيح عن جابر بن عبد الله رفعه، قال: «خمِّروا الآنية، وأوكوا الأسقية، وأجيفوا الأبواب[٢]، وكفوا صبيانكم عند المساء، فإن للجن انتشاراً وخَطْفة، وأطفئوا المصابيح عند الرقاد، فإن الفُويسقة ربما أخذت الفتيلة فأحرقت أهل البيت».

وأخرج الشيخان في الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدَعوا النار في بيوتكم حين تنامون». وأخرجا أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال: احترق بيت في المدينة على أهله بالليل، فحدَّث النبي ﷺ بشأنهم، فقال: «إن هذه النار إنما هي عدوكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم».

ومن أدب الإجابة للدعوة، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دعي أحدكم إلى الطعام يلبي، فإن كان مفطراً فليَطْعم، وإن كان صائماً فليصلِّ». أي فليَدْعُ بالدعاء لأهل الوليمة.

ومن السُّنة ما رواه البيهقي عن ابن عباس: نهى رسول الله ﷺ عن طعام المتبارين، أي المتعارضين بالضيافة فخراً أو رياءً.

ويسن لمن دعي ألا يرد طعاماً طيباً، وروى مسلم عن أبي هريرة عن

(١) أي الفأرة.
(٢) أغلقوها.

النبي ﷺ أنه قال: «من عُرض عليه طيب فلا يرده، فإنه خفيف الحَمْل، طيب الرائحة». وزيدَ في رواية: «إذا عُرض على أحدكم الحلواء فلا يردها حتى يُصيب منها». وقال أبو هريرة: وكان النبي ﷺ يعجبه الطيب والحلواء.

الأصل التاسع والثلاثون من أصول الإيمان

تحريم الحرير والذهب على الرجال

حرَّم الإسلام على الرجال ما لا يتفق مع الرجولة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى الكبر، وكسر قلوب الفقراء والمساكين، ألا وهو الذهب والحرير، لأحاديث كثيرة، منها ما أخرجه أبو داوود عن علي بن أبي طالب ﷺ يقول: إن النبي ﷺ أخذ حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً، فجعله في شماله، ثم قال: «إن هذين حرام على ذكور أمتي». وفي حديث آخر رواه البيهقي عن أبي موسى الأشعري وعقبة بن عامر وغيرهما عن النبي ﷺ اشتمل على زيادة صحيحة: «حل لإناثهم». وهذا متفق مع قوله تعالى عن النساء: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨/٤٣].

وفي حديث عبد الله بن عمرو عند البيهقي أن رسول الله ﷺ خرج ومعه حرير وذهب، وقال: «هذان محرمان على ذكور أمتي حلال لإناثها».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أخبرَ نافعاً أن عمر بن الخطاب رأى حلة سِيَراء[1] من حرير، فقال لرسول الله: لو ابتعت هذه الحلة،

---

(١) برود يخالطها حرير أو مخططة.

فلبستها للوفد وليوم الجمعة، فقال: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة». وأن النبي ﷺ بعث بعد ذلك إلى عمر بحلة سِيَراء من حرير كساه إياها، فقال عمر لرسول الله ﷺ: كسوتينها وقد سمعتك تقول فيها ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما بَعثْتُ بها إليك لتبيعها أو لتكسوها بعض نسائك».

يؤكده ما أخرجه مسلم عن علي قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة سيراء، فأرسلها إلي، فلبستُها فعرفت الغضب في وجهه، فقال: «إني لم أعطكها لتلبسها». فأمر بها فأطرتها بين نسائي[1].

وأخرج البخاري ومسلم فيما رواه شعبة عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير - يعني في الدنيا - فلن يلبسه في الآخرة».

ويؤكده حديث حذيفة بن اليمان، قال رسول الله ﷺ: «الحرير والديباج وآنية الفضة والذهب لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

وفي رواية لهذا الحديث عند البخاري وأصحاب السنن عن حذيفة قال: إن رسول الله ﷺ نهانا أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل منها، وعن لبس الحرير والديباج وأن نجلس عليه، وقال: «هو لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

والتزم الصحابة الكرام في آثار كثيرة بهذا التوجيه النبوي.

ويستثنى من ذلك الحرير القليل في أسفل الثوب أو على الكمين قدر أصبعين أو ثلاث أو أربع أصابع، لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً ومرفوعاً قال: «البسوا من الحرير قدر أصبعين أو ثلاثاً أو أربعاً».

---

(١) جعلتها بينهن.

أما الموقوف عن عمر فرواه البيهقي عن سويد بن غفلة قال: أقبلنا من الشام، وقد فتح الله لنا فتوحاً، وعمر بن الخطاب قاعد بظهر المدينة يتلقانا، ولبسنا الحرير والديباج وثياب العجم، فلما رآنا جعل يرمينا، فرجعنا، فلبسنا بروداً يمانية، فلما انتهينا إليه، قال: مرحباً بالمهاجرين، إن الحرير لم يرضه الله لمن كان قبلكم، فيرضاه لكم، إن الحرير لا يصلح منه إلا هكذا وهكذا- يعني أصبعاً وأصبعين وثلاثاً وأربعاً.

وأما الحديث المرفوع فأخرجه مسلم عن سويد بن غفلة أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية[1]، فقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير إلا موضع إصبع أو إصبعين أو ثلاث أو أربع، وأشار بكفه وعقد خمسين.

وكذلك روى البخاري هذا الحديث عن أبي عثمان فيما كتب عمر إلى الصحابة في أذربيجان مع عتبة بن فرقد وفيه: «.. وعليكم بالعربية، وإياكم والتنعم، وزي أهل الشرك ولبوس الحرير، فإن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير إلا هكذا». ووضع إصبعيه السبابة والوسطى وضمها.

وروى مسلم في الصحيح هذا الحديث ذاته عن أبي عثمان أن عمر كان ينهى عن الحرير والديباج إلا ما كان هكذا، ثم أشار بإصبعه ثم الثانية، ثم الثالثة ثم الرابعة، قال: وكان رسول الله ﷺ ينهانا عنه.

ولا فرق في كون الحرير القليل في السَّدَى من الثواب (وهو ما مُدَّ من خيوطه وهو خلاف اللحمة) واللُّحْمة (وهو ما نسج عرضاً وهو خلاف سداه) واللحمة تكون أكثر، والسَّدى يكون أقل.

وروى الحاكم عن ابن عباس قال: إنما نهى النبي ﷺ عن المُصْمَت[2] إذا كان حريراً.

---

(١) حي في دمشق ما يزال معروفاً إلى الآن.

(١) أي عن الثوب الذي لا يخالط لونه لوناً آخر.

وروى مسلم في الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر قالت: هذه جبة رسول الله ﷺ. فأخرجت إلى عمر جبة طيالسة، لها لبنة ديباج، وفرجيها مكفوفين بالديباج. وهذه كانت عند عائشة حتى قبضت. وكان النبي ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها.

المباهاة في الثياب

الملابس زينة للإنسان وستر له بحسب الأعراف السائدة، وقد أمر الله تعالى بها في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١] أي عند كل صلاة أي وغيرها. وهذا يتطلب شكر النعمة على توافر اللباس الساتر، وذلك يتنافى مع المباهاة وجرّ الثوب تكبراً وخيلاء. فذلك حرام ومعصية كبيرة، بدليل ما ثبت في السنة النبوية الصحيحة.

قال النبي ﷺ - فيما أخرجه الجماعة[1] عن ابن عمر - يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من جرّ إزاره من الخيلاء لم ينظر الله إليه». وأخرج البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء». أي لا يرحمه.

وفي رواية الشيخين: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً».

والسنة أن يكون الثوب قصيراً ويكره إطالته تحت العقب، والدليل على منع الإطالة ما رواه البيهقي وغيره أن ابن عمر كان يحدّث أن النبي ﷺ رآه، وعليه إزار يتقعقع - يعني جديداً- فقال: «من هذا؟» قلت: أنا عبد الله. قال: «إن كنت عبد الله فارفع إزارك». قال: فرفعته، قال:

(١) أحمد وأصحاب الكتب الستة.

«زد». فرفعته حتى بلغ نصف الساق، ثم التفت إلى أبي بكر، فقال: «من جرّ ثوبه من الخيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة. فقال أبو بكر: إن إزاري يسترخي أحياناً، فقال النبي ﷺ: «لست منهم يا أبا بكر». أي لست من الذين يتخايلون في لباسهم، بدليل رواية أخرى: «لست أو إنك لست ممن يصنعه خيلاء».

فإن كان القصد من إطالة الثوب هو التكبر حرم ذلك، وإلا لم تكن الإطالة حراماً، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى المسبل يوم القيامة إزاره». وقال الرسول أيضاً: «بينما رجل يتبختر في بُرْدين، وقد أعجبته نفسه، خُسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

وفي لفظ آخر للشيخين: «بينما رجل يمشي في حُلَّة تعجبه نفسه، مرجّل جُمته[1] إذ خسف الله به، فهو يتجلجل[2] في الأرض إلى يوم القيامة».

يؤيده ما أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم». قلت: من هم يا رسول الله؟ فقد خابوا وخسروا، فأعادها ثلاثاً، قلت: من هم يا رسول الله؟ قد خابوا وخسروا، فقال: «المسبل - يعني إزاره - والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب أو الفاجر».

وأخرج البيهقي في الشُّعَب عن أبي هريرة قال: بينما رجل يصلي مسبل إزاره، فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب فتوضأ». ثم جاء، فقال: «اذهب فتوضأ». فقال له رجل: يا رسول الله، ما لك أمرته أن يتوضأ، ثم

---

(١) الجمُة مجتمع الرأس. والترجيل للشعر التسريح.
(٢) تجلجل في الأرض ساخ فيها ودخل.

سكت عنه، قال: «إنه كان يصلي، وهو مسبل إزاره، فإن الله جل ثناؤه لا يقبل صلاة رجل مُسْبل».

وأخرج البيهقي أيضاً عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «الإسبال في القميص والإزار والعمامة، من جرَّها خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

وأخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان أسفل من الكعبين من الإزار في النار».

وفي حديث أنس بن مالك لدى البيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «الإزار إلى نصف الساق، فشّق ذلك على الناس، أو الكعبين، ولا خير فيما جاوز الكعبين».

أما الألبسة الحالية ومنها البنطال فتكون خالية من التحريم إذا لم يقصد بها التكبر أو الخيلاء.

وجمع كل ما مر وصية نبوية عند البيهقي عن رجل من بلهجيم قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: أنت رسول الله؟ قال: «نعم». قلت: إلام تدعو؟ قال: «أدعوك إلى الله عز وجل وحده، الذي إذا مسَّك ضر، فدعوته، كشف عنك، والذي إذا أصابتك السَّنَة[1] أنبت لك، والذي إذا كنت بأرض قفر فأضللت - يعني راحلتك - فدعوته، رد عليك». قلت: أوصني، قال: «لا تسبّن أحداً أو قال: شيئاً». فما سببتُ بعد قول رسول الله ﷺ شيئاً، شاة ولا بعيراً، «تزهدنَ في شيء من المعروف، ولو أن تكلم أخاك، ووجهك منبسط إليه، ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستسقي، اتزر على نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعب، وإياك وجرّ الإزار، فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة».

---

(١) الجدب.

التواضع في اللباس

الإسلام دين الاعتدال والاقتصاد في المعيشة واللباس والطعام والشراب والمركب والسَكَن والزينة، على أن يكون كل ذلك من الحلال الطيب، والبعيد عن الحرام الخبيث، والقصد من التزام ظاهرة التواضع هو سد باب الكبر والعُجْب والخيلاء، وعدم كسر قلوب الفقراء.

وقد وردت وصايا نبوية في شأن التواضع في اللباس، منها ما أخرجه البيهقي في شُعَب الإيمان.

عن معاذ بن أنس الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك اللباس وهو يقدر عليه تواضعاً لله، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيّر من حُلَل الإيمان، يلبَس من أيّها شاء».

وفي رواية: «من ترك اللباس تواضعاً، وهو يقدر على إنفاذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيخيره في حُلَل الإيمان، يلبس أيَّها شاء. ومن كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيخيره في حور العين، زوّجه منها أيها شاء».

عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بلباس الصوف، تجدون حلاوة الإيمان في قلوبكم». والمراد لبس الصوف على وضعه الطبيعي غير المتطور ولا المنسوج بالطريقة الحديثة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «براءة من الكبر لَبُوس[1]

---

(١) ما يلبس.

الصوف، ومجالسة فقراء المؤمنين، وركوب الحمار، واعتقال العنز، أو البعير». أي ربطها بالعقال أو الحبل.

وفي رواية: «من لبس الصوف، وحلَب الشاة، وركِب الأتان، فليس في جوفه شيء من الكبر».

وروى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي بُرْدة قال: أخرجت إلينا عائشة كساءً ملبداً، وإزاراً غليظاً، فقالت: قُبض رسول الله ﷺ في هذين.

وروى البيهقي عن أنس قال: كان قميص رسول الله ﷺ إلى رُسْغه. وفي لفظ عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يلبَس قميصاً، قصير الكمين والطول.

وروى البيهقي عن عبد الله بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البذاذة من الإيمان». والبذاذة رثاثة الثياب في الملبس والمفترش، وهي ملابس أهل الزهد في الدنيا، ترفعاً وتواضعاً عن رفيع الثياب وثمين الملابس والفرش. والبذاذة خلاف البذاء الذي هو طول اللسان في الفواحش والبهتان، يقال فلان بذيء اللسان إذا كان فحاشاً، وللناس مغتاباً، ورد في حديث ثابت: «البَذَاء من الجفاء، والجفاء في النار».

وروى البيهقي أيضاً عن معاذ بن جبل قال: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «يا معاذ إياك والتنعم، عباد الله ليسوا بالمتنعمين».

وعن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء فضل عن ظل بيت، وكِسْر خبز، وثوب يواري عورة ابن آدم، فليس لابن آدم فيه حق».

وذكر البيهقي عن عثمان النهدي، قال: أتانا كتاب عمر بن الخطاب، ونحن بأذربيجان مع عتبة بن فرقد، أما بعد: فاتزروا وارتدوا وانتعلوا، وارموا بالخفاف، وألقوا السراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل،

وإياكم والتنعم وزي العجم، وعليكم بالشمس فإنها حمّام العرب، وتمعددوا[١] واخشوشنوا، واخلولقوا[٢]، واقطعوا الركب، وارموا الأعراض[٣]، وابذوا[٤]، فإن رسول الله ﷺ نهى عن الحرير، إلا هكذا. وأشار شعبة الراوي بإصبعه الوسطى والسبابة، فما علمنا إلا أنها أعلام. أي حواشي الثوب.

وروى البيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً، عليه إهاب[٥] كبش قد تنطق به، فقال النبي ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب. ولقد رأيت عليه حُلّة شراها أو شريت بمئتي درهم، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون».

التجمل في الثياب

إذا كان التواضع في اللباس مندوباً إليه في الإسلام بنحو عام، فلا يعني ذلك عدم مشروعية التوسع أو التجمل في الملابس إذا كان الإنسان مستطيعاً أو موسراً، ليرى أثر نعمة الله عليه، فإن التحدث بالنعمة مطلوب لشكر الله عز وجل فيما أنعم الله على عباده. ومسوغات ذلك وإثباتاته واردة في السنة النبوية.

(١) اجعلوا المعدة تبرأ.
(٢) البسوا الخَلَق (البالي) من الثياب.
(٣) تخلصوا من العوارض الطارئة والزوائد عن الحاجة.
(٤) البسوا الثياب الرثة.
(٥) جلد.

منها ما أخرجه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان». فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر من بَطَر الحق، وغمِص الناس». أي أنكر الحق تكبراً، واحتقر الناس وازدراهم. وفي رواية: «ولكن الكبر من بطر الحق وغمِط الناس».

وروى البيهقي في شعبه من طريق أبي داوود عن قتادة أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني لأحب الجمال، حتى إني لأحبه في شراك نعلي أوشِسْع نعلي[1]، وعِلاقة سوطي[2]، فهل تخشى علي الكبر؟ فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: عارفاً للحق مطمئناً إليه، فقال النبي ﷺ: «ليس الكبر هنالك، ولكن الكبر أن تغمط الناس وتبطر الحق».

وروى البيهقي أيضاً من طريق أبو داوود الطيالسي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدّقوا في غير مَخْيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وأورد البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس، ويبغض السائل الملحف، ويحب الحيي العفيف المتعفف».

وقال أبو الدرداء وهو في دمشق في كلام ينفع ولا يضر، قال رسول الله ﷺ: «إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا نعالكم، أو

(١) أي رباطه.
(٢) علاّقته، فهي عِلاقة السوط والقوس وغيرهما.

رحالكم، وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله عز وجل لا يحب الفحش ولا التفحش»[١].

وقال وهب بن كيسان: رأيت ستة من أصحاب النبي ﷺ يلبسون الَخز[٢]: سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وأنس[٣]. لكن قال ابن سيرين: كانوا يلبسون الخز ويكرهونه ويرجون رحمة الله عز وجل.

وذكر ابن عمر عن أبيه: كانت الحُلّة تستنسج لأصحاب رسول الله ﷺ تبلغ الحلة ألف درهم وأكثر. وقال القعنبي: رأيت على مالك قلنسوة خز خضراء. وكان ابن عباس يلبس الخز، وقال: إنما يكره المُصْمَت حريراً، أي يحرم المصنوع من الحرير الخالص، وقال الإمام مالك بن أنس: ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان.

ويطلب شرعاً تنظيف الثياب وإزالة الوسخ منها، لما رواه البيهقي في شعبه عن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله ﷺ زائراً في منزلنا، فرأى رجلاً شَعِثاً، فقال: «أما كان هذا يجد ما يسكّن به رأسه؟» فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثيابه؟».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ وسخاً قط، كان يحب الدُّهن غباً[٤]، ويرجِّل رأسه[٥]، وكان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يبغض الوسخ والشَّعِث»[٦].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، كسابقه.
(٢) الخز من الثياب ما نسج من صوف وحرير، وليس حريراً خالصاً.
(٣) رواه البيهقي في الشعب.
(٤) أي التطيب مرة بعد أخرى.
(٥) يسرّحه ويمشطه.
(٦) هو المغبّر الرأس.

ويكره لبس الثياب بقصد الشهرة والتفاخر، لما رواه البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة».

وروى البيهقي حديثاً مرسلا، قال عمر: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «أمراً بين أمرين، وخير الأمور أوسطها». أي التوسط بين النفاسة والخساسة.

وروى البيهقي أيضاً عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه حتى يضعه».

وأما ما كان النبي عليه الصلاة والسلام يلبسه من الثياب فهو البُرود اليمانية، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس قال: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ أن يلبسها الحِبَرة[1]، أي البرد اليماني.

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْد غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ رداءه.

ولَبِس النبي ﷺ الحلة الحمراء، لحديث أبي جحيفة أن رسول الله ﷺ خرج في حلة حمراء شهراً. وحديث البراء بن عازب: رأيت رسول الله ﷺ في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن منه. والحلة ثوبان: إزار ورداء، ولا يكون فيها قز، أي حرير.

وروى البيهقي في كتاب السنن وغيره عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ فرأيت عليه بُرْدين أخضرين.

وروى البيهقي في شعبه عن عائشة أنها قالت: صنعت للنبي ﷺ بردة سوداء، فلبسها، فلما عرق فيها وجد ريح الصوف، فقذفها، وكان يعجبه الريح الطيبة.

---

(١) حبرة على وزن عِنَبة.

وأورد البيهقي عن عبد الله بن بُريدة قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: ما كان شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من القميص. وفي حديث آخر رواه البيهقي فيه عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، إنك لتلبس السراويل، قال: «نعم بالليل والنهار، وفي السفر والحضر».

أنواع الملابس والنعال

لم يصلِّ النبي ﷺ إلا بعمامة، ولم يمش في الشارع إلا بعمامة، فمن لبس العمامة ناوياً بها اتباع النبي عليه الصلاة والسلام كان مثاباً على فعله.

وتعمم الرسول ﷺ بعمائم ذات ألوان مختلفة، منها الأسود، روى مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ دخل مكة يوم فتح مكة، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه. وكذلك يوم الخندق.

وكان جماعة من الصحابة يفعلون ذلك يُرْخون عمائمهم على ظهورهم بمقدار أربع أصابع ونحو ذلك، منهم عبد الرحمن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وأبو أسامة، وغيرهم.

وروى البيهقي عن علي بن رُكانة عن أبيه أن رُكانة صارع النبي ﷺ، فصرعه النبي ﷺ، قال رُكانة: وسمعت النبي ﷺ يقول: «فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس».

قال الزهري: العمائم تيجان العرب، والحبوة حيطان العرب، والاضطجاع في المساجد رباط المؤمنين.

وقال طاووس في الذي يلوي العمامة على رأسه، ولا يجعلها تحت ذقنه، فإن تلك عِمة الشيطان.

ويستحب الانتعال لما رواه مسلم في الصحيح عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول في غزوة غزاها: «استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما انتعل». أي كأن المنتعل راكب يحمي نفسه من الأذى والضرر.

وأخرج البخاري في الصحيح عن أنس قال: كان لنعلي رسول الله ﷺ قِبَالان. يعني زمامين. وفي رواية ابن عباس: كان لنعل النبي ﷺ قِبَالان مثنية الشِراك.

وروى البيهقي عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن ينتعل الرجل قائماً. والحكمة ألا يزل قدمه من خلال اللبس، فيسقط.

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين، وإذا نزع فليبدأ بالشمال، وليكن اليمين أوّلهما تنعل، وأخراها تنزع». وسبب التفرقة أن اليمين أكرم من اليسرى، فيبدأ باليمين في اللبس لتكون الكرامة لها أدوم وحظها منها أكثر.

وروى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعاً، أو ليخلعهما جميعاً».

ورواية مسلم عن أبي هريرة: «إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمين، وإذا خلع فليبدأ باليسرى، وليخلعهما أو لينتعلهما جميعاً».

والبدء باليمين في كل شيء هو الأفضل والسنة، لما جاء في الحديث الثابت عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يعجبه التيمن ما استطاع، في وضوئه إذا توضأ، وفي ترجله إذا ترجل، وفي انتعاله إذا انتعل.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب التيمن في شأنه كله طهوره وترجله وتنعله.

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لبستم وإذا توضأتم فابدؤوا بميامنكم». وروى أيضاً عن ابن عمر أنه قال: وأما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر، ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها.

وأما الصلاة في النعال فهي جائزة كما أخرجه البخاري ومسلم عن سعيد بن يزيد قال: سألت أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم. أي يجوز ذلك لا أن يتخذ فعلاً دائماً ولا سيما في المساجد.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: من السنة إذا جلس الرجل أن يخلع نعليه، فيضعهما بجنبه.

ويسن الدعاء عند لبس الثوب الجديد لما أخرجه البيهقي من طريق أبي داوود عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غُفر له ما تقدم من ذنبه. ومن لبس ثوباً، فقال: الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سماه باسمه إما قميصاً أو عمامة، ثم يقول: «اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له». قال أبو نُضرة: وكان أصحاب النبي ﷺ إذا لبس أحدهم ثوباً جديداً قيل: يَبْلى ويخلف الله.

هذه الأدعية تعبر عن شكر الله عز وجل على نعمه، فهو المنعم المتفضل الرازق، وبالشكر تزيد النعم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٧].

مظاهر الترف في الثياب والبيوت

يحرص بعض الناس على التظاهر في المنازل بمظهر الترف والبذخ وينفق الكثير من المال على تلك المظاهر، وهذا مدعاة للعجب والتكبر والتفاخر على الآخرين، لذا حرم الإسلام كل أحوال الترف والإسراف، ورغّب الناس في الاعتدال والامتناع عما يؤدي للكبرياء، فقال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١/١١٦] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/١٦]. وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٦-٢٧].

ومن مظاهر الترف في الحياة لبس الرجال الحرير والتختم بالذهب، لذا نهى الإسلام عنهما، روى مسلم في الصحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن لبس القَسي[1] والمعصفر، وعن تختم الذهب، وعن القراءة في الركوع». وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: «نهى رسول الله ﷺ عن التزعفر للرجال» لأنه لا يليق بالرجال، ولا بأس بها للنساء.

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: رآني النبي ﷺ، وعلي ثوب معصفر، فقال: «ألقها فإنها ثياب الكفار».

أما الثياب البيض فمستحب لبسها وبخاصة في الجُمَع والأعياد، لحديث سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا الثياب

---

(١) القسي ثياب يؤتى بها من مصر فيها حرير.

البيض، فإنها أطهر وأطيب، وكفِّنوا فيها موتاكم»[١]. وروى البيهقي عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «البسوا من ثيابكم البياض، وكفِّنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر».

وكان أحب الألوان إلى النبي ﷺ الخضرة، كما قال أنس. وأما الأحمر فمكروه، لما رواه البيهقي عن رافع بن يزيد الثقفي، عن النبي ﷺ: «إن الشيطان يحب الحُمْرة، فإياكم والحمرة، وكلَّ ثوب ذي شهرة». وأخرج أبو داوود عن عمرو بن العاص قال: مرَّ على النبي ﷺ، وعليه ثوبان أحمران، فسلَّم على النبي ﷺ، فلم يرد النبي ﷺ.

وأما مفروشات المنازل فينبغي فيها الاعتدال، لما رواه البخاري في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما كان فراش رسول الله ﷺ من أَدَم[٢]، حشوه ليف». وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي على حصير.

وتكون الفرش والوسائد بمقدار الحاجة، لما رواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: «تقدم الآن على أهلك، فتجدهم قد ستروا كذا وكذا». حتى ذكر رسول الله ﷺ الفرش، فقال: «فراش للرجال، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان».

وروى البيهقي عن جابر بن سمرة قال: «دخلت على النبي ﷺ في بيته، فرأيته متكئاً إلى وسادة على يساره».

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي والحاكم، وهو صحيح حسن.

(٢) الأدم جمع أديم وهو الجلد.

لكن من تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه لم يكن يجلس على الوسائد، لما رواه البيهقي عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ دخل على قوم، فطرحوا له وسادة، فلم يجلس عليها، ولم يجلس عليها أحد.

وأما زينة البيوت فلا تكون شرعاً بالتماثيل أو بالصور الجسيمة، لما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي طلحة الأنصاري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل».

وروى مسلم في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ خرج في غزاته، فأخذتُ غطاة فسترته على الباب، فلما قدم فرأى النمط، عرفت الكراهية في وجهه، فجذّبه حتى هتكه أو قطعه، وقال: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين».

وتصوير التماثيل حرام قطعاً في الإسلام، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وقد استترتُ بقِرَام[1] فيه تماثيل، فلما رآه تلون وجهه وهتكه بيده، وقال: «أشد الناس يوم القيامة عذاباً الذين يشبِّهون بخلق الله». أو «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله». قالت عائشة: فقطعناه فجعلنا منه وسادتين.

والتماثيل الممنوعة في الإسلام هي كل ما فيه تشخيص لذي روح من إنسان أو حيوان، أما ما ليس فيه روح كالشجر والزرع والنبات ومناظر الطبيعة، فلا مانع منه، لما رواه البخاري ومسلم عن سعيد بن أبي الحسن قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل، فقال: إنما معيشتي من صنعة يدي، وإني أصنع هذه التصاوير، قال: لا أحدثك إلا ما سمعته من

(١) القِرَام ستر فيه رقم ونقوش.

رسول الله ﷺ يقول: «من صوَّر صورة، فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها». فربَا له الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه، فقال: ويحك، فإن أبيت إلا تصنع، فعليك بهذا الشجر، وكلِّ شيء ليس فيه الروح.

تحلي الرجال بالذهب والفضة

وجّه الإسلام الحنيف الجنسين إلى وظائف ومهامَّ يتحقق بها التكامل والتوافق، فجعل مهمة أو وظيفة الرجال بحسب ما يتفق مع تكوينهم إلى العمل البنّاء الصعب وتحمل المخاطر الجسام، وجعل وظيفة أو مهمة النساء في ميادين عديدة من وراء الرجال في الأسرة والمجتمع وإعداد الرجال.

ويكون التحلي بالذهب والفضة وارتداء الحرير من خصائص النساء، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/١٨]. وذلك يمنع منه الرجال إلا لضرورة أو حاجة كصناعة الأسنان أو اتخاذ أنف من ذهب، أما السلاسل والأساور التي لا حاجة مناسبة فيها للرجال فهي عليهم حرام.

وكذلك التختم بالذهب لا يجوز للرجال أبداً، لما أخرجه الشيخان في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى عن خاتم الذهب. وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نهاني رسول الله ﷺ عن التختم بالذهب.

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه، فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم

إلى جمرة من نار، فيجعلها في يده». فقيل للرجل، بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، فقال: والله لا آخذه أبداً، وقد طرحه رسول الله ﷺ. وأهدى النجاشي للنبي حلة فيها خاتم من ذهب، فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام لأمامة بنت العاص ابنة ابنته قائلاً: «تحلي هذا يا بنية[1]».

أما استعمال الرجال الذهب للحاجة بنحو قليل فيجوز، لما رواه أبو داوود الطيالسي عن عبد الرحمن بن طرفة أن جده عرفجة بن أسعد قُطع أنفه يوم الكُلاب، فاتخذ أنفاً من وَرِق (فضة) فأنتن عليه، فأمره النبي ﷺ، فاتخذ أنفاً من ذهب. وروى البيهقي عن أنس بن مالك أنه شد أسنانه بذهب. ولم ير إبراهيم النخعي به بأساً. وفعله الحسن البصري وموسى بن طلحة وإسماعيل بن زيد بن ثابت.

أما التختم بالفضة فإنه جائز، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل: إنهم لن يقرؤوا كتابك إذا لم يكن مختوماً، فاتَخَذ خاتماً من فضة ونقشه: محمد رسول الله، قال أنس: فكأنما أنظر إلى بياضه في يده.

وروى الشيخان أيضاً عن أنس، أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من فضة، ونقش فيه محمد رسول الله، فلا ينقش أحد على نقشه.

فيسن التختم بخاتم الفضة للرجل على أن يكون أقل من مثقال (أقل ثلاثة غرامات).

قال البيهقي: الروايات الدالة على أن النبي ﷺ طرح الخاتم الذي اتخذه، فهو الخاتم الذي اتخذه من ذهب، وليس الخاتم الذي اتخذه من فضة، لما رواه البخاري في الصحيح عن نافع عن ابن عمر قال: اتخذ

---

(١) أخرجه أصحاب السنن.

النبي ﷺ خاتماً من ذهب، ثم ألقاه، فاتخذ خاتماً من ورِق (فضة) ونقش فيه: محمد رسول الله، وقال: «لا ينقش أحد على خاتمي هذا». وكان إذا لبسه، جعل فصه في بطن كفه، فهذا الذي سقط من «معيقب» في بئر أريس[١]. وكان المعيقب هو الموكل بخاتم النبي ﷺ.

وقد نبذ الرسول ﷺ خاتم الذهب، وقال: «لا ألبسه أبداً». فنبذ الناس خواتيمهم.

فكان خاتم النبي ﷺ وفصه ونقشه من فضة، كما رواه البخاري في الصحيح. وكان أبو سليمان الخطابي رحمه الله يكره لبس الخواتيم في اليدين، ولبس خاتمين في يد واحدة، وزعم أنه مستهجن في حميد العادات ورضي الشمائل، وليس من لباس العِلْية من الناس، ولم يستحسن أن يتختم الرجل إلا بخاتم واحد منقوش.

وأخرج البيهقي عن عائشة قال رسول الله ﷺ: «تختموا بالعقيق فإنه مبارك».

وأما التختم بخاتم الحديد فهو جائز للحديث الثابت عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال للذي أراد أن يزوجه: «التمس ولو خاتماً من حديد».

لكن يكره التختم بخاتم الحديد وخاتم النحاس، من أجل رائحة الحديد، ولأن الأصنام كانت تتخذ من النحاس.

والأصبع التي يجعل فيها الخاتم الفضي هي خنصر اليد اليسرى، لما رواه البخاري في الصحيح عن أنس قال: اصطنع النبي ﷺ خاتماً ونقش فيه نقشاً، وقال: «إني اتخذت خاتماً، فلا ينقش أحد عليه» فكأني أنظر إلى بريقه في خنصره.

---

(١) شعب الإيمان ٥/١٩٧-١٩٨.

وأخرج مسلم في الصحيح من حديث أبي بُرْيدة أن علياً ﷺ قال: فنهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في الوسطى والتي تليها، أي الوسطى والمسبِّحة.

وكان الخاتم الذي اتخذه النبي ﷺ من ذهب في مبدأ الأمر جعله في يده اليمنى، ثم نزعه، وكان الخاتم الذي اتخذه من الفضة في نهاية الأمر في يساره.

وكان ابن عمر وأبو بكر وعمر وعلي والحسن والحسين ﷺ يتختمون في يسارهم، وقد روى مسلم عن أنس قال: كان خاتم النبي ﷺ في خنصره من يده اليسرى.

تحريم الانتفاع بآنية الذهب والفضة وكراهية بعض الأعمال

حرَّم الإسلام أوجه الانتفاع بآنية الذهب والفضة على جميع المسلمين، رجالاً ونساء، لعموم الخبر الوارد في ذلك، ولأن الاستعمال أمارة على التكبر والإسراف والبذخ، أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن أبي ليلى قال: كان حذيفة بن اليمان بالمدائن، فاستسقى، فأتاه دِهْقَان[1] بقدح من فضة، فرماه به، وقال: إني لم أرمه به، إلا أني قد نَهيته فلم ينته، إن رسول الله ﷺ نهانا عن لبس الحرير والديباج، والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال: «هي لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة».

---

(١) عظيم أو رئيس إقليم.

وفي رواية أخرى للبخاري أن رسول الله ﷺ نهانا عن أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليه. وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أم سلمة ﵂ زوج النبي ﷺ قال: «إن الذي يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم».

ويشمل التحريم أيضاً الإناء المضبب بالفضة إذا كان كثيراً، كما رواه البيهقي في السنن الكبرى عن عائشة وابن عمر وأنس بن مالك.

أما المفضض فيكره الانتفاع به، لما روى البيهقي عن عائشة: أنها كرهت الشراب في الإناء المفضض. وروى ذلك أيضاً عن الحسن البصري، قال قتادة: كان يكره المفضض، فإن سقي فيه شرب.

ويكره نتف الشيب لما أخرجه أبو داوود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تنتفوا الشيب، ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام، إلا كانت له نوراً يوم القيامة». أو «إلا كُتب له بها حسنة، وحُطَّ عنه بها خطيئة». وفي رواية: نهى رسول الله ﷺ عن نتف الشيب وقال: «إنه نور الإسلام».

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيب نور المؤمن، لا يشيب رجل في الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة، ورُفع بها درجة».

وذكر البيهقي في شعبه عن سعيد بن المسيب يقول: كان إبراهيم النبيُّ ﷺ أول الناس أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه، وأول الناس رأى الشيب، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله تبارك وتعالى: «وقاراً يا إبراهيم». قال: «يا رب زدني وقاراً».

وأما خضاب الشيب فيجوز بجميع الألوان كالأحمر والأصفر وغيره،

ما عدا السواد، لما رواه مسلم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم». وفي رواية: «غيِّروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود والنصارى».

وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن أبا بكر وعمر اختضب كل منهما بالحناء.

وأخرج البخاري عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: دخلت على أم سلمة، فأخرجت إلي شعراً من شعر رسول الله ﷺ مخضوباً بالحناء والكتَم[١].

وروى البيهقي في شعبه عن أبي رَمْثة قال: أتيت النبي ﷺ فقال لرجل: «من هذا؟» قال: أبي، قال: «أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه». قال: فرأيته لطَّخ لحيته بالحناء. وروى أيضاً أن عبد الله بن بشر وأبا أمامة وغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ يصبغون لحاهم.

أما السواد فروى مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: أُتي بأبي قُحافة يوم فتح مكة، ورأسه ولحيته كالثَّغَامة[٢] بياضاً، قال رسول الله ﷺ: «غيِّروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد».

وأخرج أبو داوود عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «يكون قوم يخضبون بالسواد في آخر الزمان كحواصل الحمام لا يَريحون رائحة الجنة».

وأما الصفار ففعله عمرو بن الجموح الأنصاري، صبغ لحيته بالصفرة. لكن روى البيهقي عن أبي الوليد قال: رأيت أنس بن مالك مصبوغاً شعره الحناء. وقال البيهقي: حديث أنس في نهي الرجل عن التزعفر مطلقاً أصح من حديث تصفير اللحية بالزعفران.

---

(١) نبت يخلط بالوَسمة (العِظْل) يختضب به.

(٢) شجرة بيضاء الزهر، ج ثَغَام.

وأما خضاب النساء بالحناء فهو جائز، لما روى البيهقي عن عائشة أنها سئلت عن خضاب الحناء، فقالت: لا بأس به، ولكني أكرهه، كان حبي رسول الله ﷺ يكره ريحه.

وروى البيهقي أيضاً عن مكحول أن أزواج النبي ﷺ كن يختضبن. وعن ابن عباس: أن أزواج النبي ﷺ كن يختضبن بعد صلاة العشاء الآخرة.

عادات التجميل للرجال

التجمل أو التجميل مشروع في الإسلام ضمن ضوابط شرعية لا يترتب عليها ضرر اجتماعي، ومنه التطيب، والكحل، وإعفاء اللحية، وحفّ الشارب، وإكرام الشعر وإصلاحه.

أما التطيب فهو سنة مستحبة مرغوب فيها للإنسان، لما فيه من نشر الرائحة الطيبة، وعدم تأذي الآخرين بالروائح الكريهة، روى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن أنس، أن أنساً كان لا يرد الطيب، وزعم أن رسول الله ﷺ كان لا يرد الطيب.

وروى البيهقي في شعبه عن عثمان بن عبيد الله مولى سعد بن أبي وقاص قال: رأيت أبا هريرة، وأبا قتادة، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبا أسيد الساعدي يمرون علينا، ونحن في الكتّاب، فنجد منهم ريح العنبر.

وأما الكحل فهو أيضاً مسنون، لما رواه البيهقي عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «عليكم بالإثمد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». وزعم أن رسول الله ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة، ثلاثاً في هذه، وثلاثاً في هذه.

وفي حديث محمد بن سيرين قال: سألت أنساً عن كحل رسول الله ﷺ قال: كان يكتحل في اليمين ثنتين وفي اليسرى ثنتين، وواحدة بينهما، أي يقسم بينهما واحدة.

وأما إعفاء اللحية وحف الشارب فهو أيضاً سنة، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «أعفوا اللحى، وأحفوا الشوارب». وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «جُزُّوا الشوارب، وأرخوا اللحى، وخالفوا المجوس».

وعفو اللحية له حد، وهو ما جاء عن الصحابة في ذلك، فروي عن ابن عمر أنه كان يقبض على لحيته، فما فضل عن كفه، أمر بأخذه، وكان الذي يحلق رأسه يفعل ذلك بأمره، ويأخذ عارضيه، ويسوي أطراف لحيته. وكان أبو هريرة يأخذ بلحيته، ثم يأخذ ما جاوز القبضة.

وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن من الفطرة قصَّ الشارب والظفر، وحلق العانة».

وروى البخاري في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الفطرة خمس: الختان، والاستحداد[1]، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

وأما إكرام الشعر وتدهينه وإصلاحه فهو مسنون ومطلوب شرعاً، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له شعر فليكرمه». وحديث عائشة: «إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه». وقال النبي ﷺ لأبي قتادة: «إن اتخذت شعراً فأكرمه». فكان أبو قتادة يرجّله (يسرّحه) كل يوم مرتين.

---

(١) استحد احتلق بآلة حادة.

وعن عطاء بن يسار قال: كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اخْرُجْ فأصلح رأسك ولحيتك، ففعل، ثم رجع، فقال رسول الله ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يُلْقى أحدكم ثائر الرأس، كأنه شيطان؟».

وكان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه، ويسرِّح لحيته بالماء.

ويكره الإفراط في التنعم والتدهين والترجيل لما رواه أبو داوود عن عبد الله بن معقل قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الترجل إلا غباً». أي مرة بعد أخرى بينهما تباين، والمعنى أن الرفاهية (أو الترفه) مطلوبة، ويكره الإفراط في التنعم. وأمر النبي ﷺ بالقصد والاعتدال.

ولا مانع من تطويل الجُمّة (مجتمع شعر الرأس)[١] أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين، كان شعره يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئاً أحسن منه. لكن الذي استقرت عليه السنة ولا سيما في عصرنا الحاضر هو حلق الرأس، لأن تحت كل شعرة جنابة، كما ورد فيما أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن تحت كل شعرة جنابة، فاغسلوا الشعر، وأنقوا البشرة»[٢].

وروى البخاري ومسلم في الصحيح في فَرْق الشعر، عن ابن عباس قال: كان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان رسول الله ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه، فسدل رسول الله ﷺ ناصيته، ثم فرق بعد ذلك.

والأفضل حلق جميع الرأس وحظر القَزَع (حلق وسط الرأس) لما رواه

---

(١) أي إرخاء الشعر وتطويله.

(٢) لكن أشار إليه السيوطي برمز الضعيف، والله أعلم.

البخاري في الصحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى عن القَزَع. وروى مسلم في الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ رأى غلاماً قد حلق بعض رأسه، وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك، وقال: «إما أن تحلقوا كله، وإما أن تتركوا كله».

ويسن دفن ما يزيله الإنسان عن نفسه من شعر وظفر ودم، لما رواه البيهقي عن ميل بنت مسرج الأشعرية أن أباها مسرج، وكان من أصحاب النبي ﷺ قص أظفاره، فجمعها ثم دفنها، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ فعله.

وروى أيضاً عن يزيد بن عمر بن سُفينة عن أبيه عن جده قال: احتجم رسول الله ﷺ، فقال لي: «هذا الدم، فادفنه من الدواب والطير والناس».

الأصل الأربعون من أصول الإيمان

تحريم الملاهي الضارة

الإسلام دين الجدية والعزيمة والإنجاز الحضاري والمدني الذي يبقى أثره النافع على مر الأيام، فيرفض اللهو الذي يصرف الإنسان عن العبادة المفروضة، والعمل الصالح، وكان توجيه المسلمين نحو النافع الباقي منذ عهد النبوة حيث ترك المصلون نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام يخطب خطبة الجمعة في مسجد المدينة المنورة، وهرعوا إلى استقبال القافلة التجارية المحملة بالمؤن من الشام.

أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله قال: أقبلت عير(١) بتجارة يوم جمعة، ورسول الله ﷺ يخطب، فانصرف الناس، ينظرون ورسول الله ﷺ في اثني عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١١].

لقد كانت التجارة لرجل تاجر هو دِحْية الكلبي، وكان قبل أن يسلم إذا أقبل بتجارته إلى المدينة، خرج الناس ينظرون إلى ما جاء به، فيشترون منه، فقدم ذات يوم المدينة، في يوم جمعة، والناس عند

---

(١) العِير الإبل التي تحمل الميرة.

رسول الله ﷺ في المسجد، وهو قائم يخطب، فاستقبل أهل دحية العير القادمة بالطبل واللهو، وخرج عامة الناس إلى دحية ينظرون إلى تجارته وإلى اللهو، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً، ليس معه كثيرون، وفعلوا ذلك ثلاث مرات من قدوم العير من الشام للتجارة، والعدد الذي بقي في المسجد مع النبي ﷺ اثنا عشر رجلاً، فقال النبي ﷺ: «لولا هؤلاء (أي الذين بقوا في المسجد) لقصدت إليهم الحجارة من السماء».

قال الحليمي رحمه الله: فكان خروجهم إلى العير ونظرهم إليها لهواً لا فائدة فيه، وإن كان لا مأثم فيه في غير هذه الحالة أثناء صلاة الجمعة، لكنه صار الفعل كبيراً ومؤثِّماً بسبب الإعراض عن رسول الله ﷺ والانفضاض عن حضرته.

وضابط التفرقة بين اللهو الحلال واللهو الحرام ما ورد في الحديث الذي رواه الخمسة[1] عن عقبة بن عامر، قال: قال النبي ﷺ: «ارموا[2] واركبوا[3] فإن ترموا خير لكم من أن تركبوا». وقال: «كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رَمْيَة عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، فإنهن من الحق». فيه تصريح بأن الرمي بالسهام أفضل من ركوب الخيل.

وكل لهو باطل إلا ثلاثة أمور، فهي طاعات مقربة إلى الله عز وجل، وفيها نفع ديني أو دنيوي وهو التدرب على الجهاد، والرمي بالأقواس، وتأديب أو ترويض الفرس، وإيناس الأهل (الزوجة) وملاعبة الأهل المؤدية إلى إنجاب الأولاد الذين يوحدون الله تعالى ويعبدونه. وقد فتح الصحابة ﷺ أراضي الروم والفرس وغيرهما، ومعظم سلاحهم تلك السهام والرماح.

---

(١) أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وكذا البيهقي.
(٢) الرمي المناضلة أو المسابقة بالسهام.
(٣) أي ركوب الخيل.

ومن اللهو المحرم اللعب بالنرد والشطرنج، لورود أخبار وآثار فيها.

والحكم الإجمالي فيهما أن اللعب بهما على شرط المال (القمار) حرام بالاتفاق، واللعب بهما على غير شرط المال مختلف فيه، والتحريم أقرب للصواب.

ومن أدلة التحريم للنرد حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنردشير، فكأنما غمس يده في لحم الخنزير ودمه». أي كمن هو غمس يده في لحم الخنزير بهيئته في أكل الخنزير، فاللعب بالنرد كأكل لحم الخنزير.

وأخرج أحمد وأبو داوود وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله». وفي رواية أخرى: «لا يقلِّب كعباتها أحد ينتظر ما يأتي به إلا عصى الله ورسوله».

وأخرج البيهقي عن عبد الرحمن الخطمي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل الذي يلعب بالنرد، ثم يقوم فيصلي، مَثَل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير، ثم يقوم فيصلي، يقول الله: تُقْبل صلاته؟ يعني لا تقبل صلاته».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم وهاتين الكعبتين الموسومتين اللتين تُزجران زجراً، فإنهما من الميسر». أو «من ميسر العجم».

وأخرج البيهقي كذلك عن يحيى بن أبي كثير قال: مر رسول الله ﷺ بقوم يلعبون بالنرد، فقال: «قلوب لاهية، وأيد عاملة، وألسنة لاغية».

وأما لعب الشطرنج فسئل عنه الزهري فقال: هي من الباطل، ولا يحب الله الباطل. وقال سعيد بن المسيب مثل ذلك. وقال الإمام مالك: الشطرنج من النرد.

وقيل للقاسم بن محمد من فقهاء المدينة السبعة: هذه النرد تكرهونها، فما بال الشطرنج؟ قال: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر.

وقال عمرو بن عبيدة القاضي: النرد والشطرنج سواء.

والخلاصة: قال البيهقي: ما لا خلاف في تحريمه وهو النرد فإنا نرد شهادة من لعب به، وما اختلفوا في تحريمه وهو الشطرنج، فإنا لا نرد شهادة من لعب به، على الاستحلال له، إذا لم يقامر عليه، ولم يغفل عن الصلاة. وأما كراهية اللعب به فقد نص الشافعي عليها.

وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «بعثني الله رحمة وهدى للعالمين، وبعثني لمحق المعازف، والمزامير، وأمر الجاهلية».

الأصل الحادي والأربعون من أصول الإيمان

الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل

أوجب الإسلام كسب المال من الحلال، وحرم أكل المال بالباطل كالسرقة والغصب والغش والغبن الفاحش والتحايل ونحوها، وألزم الاقتصاد في النفقة.

أما تحريم أكل المال بالباطل فهو من أصول الإسلام المالية، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٨]. وقال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٢٩].

قال ابن عباس في هذه الآية: الرجل يشتري المتاع فيرده ويرد معه دراهم، أي إنه الربا، وكل هذا ممنوع، وهذا هو الموجب للحجر، وكذلك الإنفاق في الملاهي والشهوات المحرمة من التبذير الموجب للحجر، فأما إذا اشترى طعاماً أكثر من حاجته أو لباساً أو خادماً أكثر من حاجته، فهو وإن كان سرفاً، فليس من السرف الموجب للحجر، لأنه يستبدل بالملك ملكاً يوازنه، وإنما يقع الإسراف منه في الانتفاع بما ملكه.

وحرم الإسلام الإسراف والتبذير والبذخ، لآيات كثيرة، منها: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١]. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٩]. ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٦-٢٧] وقال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٧].

تدل هذه الآيات على تحريم الإسراف في الأكل والشرب وسائر وجوه الإنفاق في المسكن والملبس والمركب والخدم، لأن الإنسان يصرف المال في أكثر مما يحتاج إليه. وحد السرف في الأكل أن يجاوز الشبع، ويثقل البدن حتى لا يمكن معه أداء واجب، ولا قضاء حق إلا على حساب البدن. ومن السرف إضاعة المال.

أما الإنفاق فيما يبقى وينمو فليس بسرف، كشراء الضياع والمواشي للنتاج، وللنسل، لأن هذه تغل وتنمو، فيزداد المال أضعافاً.

وإضاعة المال حرام، سواء بإنفاقه في حرام، أو بإتلافه، أو صرفه مباهاة ورياء، أخرج الشيخان في الصحيح عن المغيرة بن شعبة قال: «إن الله تعالى حرَّم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات ومنع أو هات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال». قيل لابن مسعود: ما التبذير؟ قال: إنفاق المال في غير حقه. وكذلك قال ابن عباس في آية: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: هم الذين ينفقون المال في غير حقه.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٣٩] قال فيه سعيد بن جبير: في غير إسراف ولا تقتير.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾: نهى عن السرف والبخل.

وأما الاقتصاد في المعيشة فمن صفات النبوة، أخرج البيهقي عن ابن عباس، عن نبي الله ﷺ قال: «الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة».

وروى البيهقي عن عائشة وابن عمر قال كل منهما: قال رسول الله ﷺ: «ما رزق أهل بيت الرفق إلا نفعهم، ولا صرف عنهم إلا ضرهم».

وروى أيضاً عن عائشة، قال النبي ﷺ: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة».

وروى كذلك عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد». وعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «كل واشرب والبس وتصدق في غير سرف ولا مخيلة».

ومن السرف ستر الجدران بالسجاد وغيره، قال الحليمي: نهى رسول الله ﷺ أن تستر الجُدر.

والاقتصاد في المحبة والبغض مطلوب أيضاً، قال علي رضي الله عنه: أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.

وكان من عادة العلماء والسلف الصالح التوسط في الإنفاق، قال إبراهيم النخعي: كان لا يعجبهم كثرة الأثاث في بيوتهم، وكان يعجبهم ما وسَّعوا به على عيالهم.

وقال ذو النون المصري المتصوف: حسن التدبير مع الكفاف أكف من الكثير مع الإسراف.

وأخرج مسلم في الصحيح - كما تقدم - في مفروشات البيت، عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان».

الأصل الثاني والأربعون من أصول الإيمان

ترك الغل (الحقد) والحسد

من آفات القلوب وأمراضها الغل والحسد والبغضاء والكيد، والغل إضمار السوء وإرادة الشر به، من غير أن يكون مظلوماً. والحسد الاغتمام بالنعمة الحاصلة للأخ المسلم، والتمني لزوالها. والغبطة تمني مثل تلك النعمة دون إرادة إزالتها.

وكل من الغل والحسد سيئ ومرض مذموم، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يعوذ به من شر الحساد، فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١١٣/٥] وذم الله اليهود على حسدهم النبي ﷺ، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٤/ ٥٤] مما يدل على أن الحسد مذموم شرعاً وعقلاً وعرفاً.

والحاسد غير الغابط، لأن الحاسد من لا يحب الخير لغيره، ويتمنى زواله عنه. والغابط من يتمنى أن يكون له من الخير مثل ما لغيره.

والحاسد يعتبر إحسان الله تعالى إلى أخيه المسلم إساءة إليه، وهذا جهل واضح، لأن ذلك الإحسان لا يضره شيئاً، فإن ما عند الله واسع.

وقد يكون الحاسد متسخطاً لقضاء الله، وذلك يدنيه من الكفر.

والحسد المراد به الغبطة محمود في حالتين: حالة تمني العلم

ونشره، وحالة وجود المال وإنفاقه أو وجود الحكمة والقضاء بها، لما أخرجه أحمد والشيخان وابن ماجه والدارمي وغيرهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله علماً، فهو يعلِّمه الناس، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل والنهار».

وأخرج مسلم في تحريم الحسد والنهي عنه عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وبشَّر النبي ﷺ بالجنة رجلاً من الأنصار لصفاء نفسه وبعده عن الحسد ثلاث مرات، فيما رواه البيهقي وغيره بقوله: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فسأله عبد الله بن عمرو عن سبب هذه البشارة، ولم يجد منه كثير عمل كقيام الليل وصوم النهار، فأجابه: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: فهذه التي بلَغَت بك وهي التي لا تطاق.

وكذلك روى أبو داوود في النهي عن الحسد، عن أبي هريرة، قال النبي ﷺ: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». أو «العشب».

والحسد يتنافى مع الإيمان ويتعارض مع اليقين، لما أخرجه النسائي والحاكم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد مؤمن الإيمان والحسد».

والحسد يقضي على الحسنات، لما رواه البيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة نور، والصيام جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة

كما يطفئ الماء النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[١].

وللحسد تأثير في إيقاع الشر ولكن بإرادة الله، لما رواه البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر».

والحسد يحلق الدين، لما أخرجه أحمد والترمذي عن الزبير بن العوام أن رسول الله ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا بي حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

وترك الحسد والحقد سبب للظفر بمغفرة الله تعالى، لما رواه البيهقي عن ابن عباس قال: «ثلاث من لم يكنَّ فيه، فإن الله عز وجل يغفر بعد ذلك لمن يشاء: من مات لا يشرك بالله شيئاً، ومن لم يكن ساحراً يتبع السحر، ومن لم يحقد على أخيه».

وقد يؤدي الحسد إلى هجر المسلم أخاه، والهجر بعد ثلاث ليال حرام، لما أخرجه البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان، يصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». ورواية مسلم: «لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله

---

(١) ورواه الترمذي عن معاذ بلفظ: «الصوم جُنّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار».

إخواناً، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وفي رواية أخرى للبخاري: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

والهجر يحول من دخول الجنة، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس، فيغفر لكل عبد مسلم لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا».

ومنشأ الحسد وجود النعمة، لما رواه البيهقي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان لها، فإن كل ذي نعمة محسود».

الأصل الثالث والأربعون من أصول الإيمان

تحريم أعراض الناس وحفظ كراماتهم

التورط في الغيبة أو الطعن في الكرامات والأعراض من الكبائر والذنوب العظائم، وقد شرع الله تعالى لقذف الأبرياء واتهامهم بالفاحشة عقوبة القذف وهي ثمانون جلدة، وإسقاط العدالة أو عدم قبول الشهادة.

وجاء في تحريم القذف وحب إشاعة الفاحشة آيات كريمات هي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٤/١٩].

وقال سبحانه مبيناً استحقاق القاذفين للعنة الله تعالى والطرد من رحمته: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٣].

وقال عز وجل في بيان حد القذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٤-٥].

وشرع الله تعالى اللعان (الأيمان الخمسة) في حال اتهام الزوج زوجته بالزنا، كما وصف الله، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن

لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٢٤/٦-٩].

تبين من هذه الآيات التوعد الشديد على قذف المحصنات، والحكم على القاذف بالتفسيق، وبرد الشهادة على التأبيد إلا أن يتوب، وبالجلد ثمانين جلدة، تشديداً عليه لما كان منه، ولم يجعل للزوج مخرجاً من عذاب القذف إلا بإيجاب اللعن على نفسه إن كان كاذباً في قوله، وإيجاب الغضب على الزوج إن كان صادقاً في قوله. وذلك كله دليل على عظم ذنب القاذف، ووجوب التورع عنه، والاحتراز من تبعاته.

وجعل النبي صلوات الله وسلامه عليه القذف من السبع الكبائر الموبقات المهلكات، أخرج الشيخان في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف الغافلات المؤمنات».

وكما لا يحل لأحد أن يقذف المحصنة (العفيفة) البريئة فكذلك لا ينبغي له أن يقذف غير البريئة، فإن ذلك يؤذيها ويسيء إلى سمعتها.

والأدب والتزام الستر أحوط للإنسان من الكشف والإعلان، لما رواه البيهقي من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من ستر على مسلم ستره الله يوم القيامة». وروى أيضاً عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «من رأى عورة فسترها، كان كمن أحيا موءودة».

ويحرم بصفة عامة الإساءة لعرض الأخ المسلم بسب أو غيره، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحاسدوا،

ولا تباغضوا، ولا تناجشوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذُله، ولا يحقره، التقوى ها هنا - يشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه».

ويؤكده تحريم من اقترض أو اقتطع من عرض أخيه المسلم، لما أخرجه البيهقي عن أسامة بن شُريك يقول: شهدتُ الأعراب يسألون النبي ﷺ: هل علينا جناح في كذا؟ فقال: «عباد الله، وضع الله الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئاً، فذلك الذي حرج». قالوا: يا رسول الله، ما خير ما يعطى العبد؟ قال: «خلق حسن».

وسب المسلم حرام وكبيرة، لما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر».

وأخرج البخاري ومسلم في شأن الاتهام والرمي بالكفر عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يرمي رجل رجلاً بالفسق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه».

وأخرج مسلم عن ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرئ قال لأخيه: كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه».

قال الحليمي رحمه الله: يحتمل أن يكون معنى ذلك أنه إن ما وصف ما عليه أخوه المسلم بأنه كفر، فقد كفر بنفسه، ولم يكن على أخيه منه شيء، فإن كان المقول له ذلك يبطن الكفر، ويظهر الإسلام، فقد صدق الله، وليس على القائل شيء.

أدب الخطاب مع الآخرين

علّم الإسلام أتباعه بأن يكونوا على غاية من الأدب الرفيع في الخطاب مع الآخرين، دون سب ولا شتم، ولا تعيير ولا بغي، ولا طعن في الأنساب، ولا سب للأموات، ولا يمدح الإنسان نفسه، ولا يتهجم على الآخرين ناعياً عليهم الوقوع في المهالك، ولا يزعم شيئاً من خصائص علم الله وفعله وقدرته، وليس لأحد ادعاء شيء من علم الله عز وجل، وإلا كان ذلك عوناً للشيطان ووساوسه وتحريضه.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣] يعني الناس كلهم.

أما السب والتعيير فهو مذموم أدباً، فلا يحل لأحد أن يعيِّر أحداً بذنب كان منه، كالفاحشة ونحوها من الإخلال بالآداب، ولا أن يعيره بحسب مذموم (تفاخر بالآباء) ولا حرفة دنيئة، ولا بشيء يثقل عليه، فإن إيذاء المؤمن في الجملة حرام، قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٨] أي بغير ذنب اكتسبوه في مكان المؤذي أو غيره.

ومن بادل غيره التعيير أو السب، صار مثله وأصغى للشيطان، بدليل قصة أبي بكر مع من سبَّه وتطاول عليه، روى البيهقي عن سعيد بن المسيب أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس، ومعه أصحابه، فوقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه، فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر، فقال أبو بكر: أوجِدت علي يا رسول الله؟ فقال

رسول الله ﷺ: «نزل ملَك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان».

وأما البغي أو الظلم فهو من الكبائر، لما رواه أبو داوود عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ذنب أجدر أن يُعجَّل لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».

وروى البيهقي عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تكن باغياً، فإن الله عز وجل قال: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٣]».

وروى أبو داوود عن عياض بن حمار أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد». قال محمد بن إسحاق: لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً.

وأما الطعن في النسب فحرام حرمة شديدة، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان هما في النار: كفْرٌ نياحة على ميت، وطعن في النسب».

وروى البيهقي عن رجاء بن حَيْوة أنه سمع قاصّاً في مسجد منى يقول: ثلاث خلال هن على من عمل بهن: البغي والمكر والنكث، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٣]. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ٤٨/ ١٠].

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء»(١).

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في الأدب وابن حبان والحاكم. وأخرجه البيهقي عن عبد الله بن عمرو.

وأما سبّ الأموات فليس من الأدب ولا اللياقة ولا الفائدة في شيء، لما أخرجه البخاري في الصحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا».

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساويهم»[1].

وأما اتهام الناس بالسوء والإنذار بالهلاك دون نفسه فهو ضلال وبهتان وظلم، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم». أي أرذلهم، فهو يقول: هلك الناس معجَباً بنفسه وأنه لم يبق مثلُه. يوضحه قول عمران القصير: كان يقال: إن خير خصلة أو أفضل خصلة تكون في الإنسان أن يكون أشد الناس خوفاً على نفسه، وأرجاه لكل مسلم. وكان محمد بن سيرين من أرجى الناس لهذه الأمة وأشدهم إزراء على نفسه. وهذا خلق رفيع ونظرة حب وشفقة ورحمة على الآخرين، لم نجده في فلسفة أو نظرية أخرى.

وأما الزعم بأن الله لا يغفر لإنسان فهو افتراء وتألّ على الله[2]، روى مسلم في الصحيح عن جندب بن جنادة، أن رسول الله ﷺ حدَّث «أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. وقال الله: من ذا الذي يتألى عليَّ أني لا أغفر لفلان؟ فإني غفرت لفلان وأحبطت عملك». أو كما قال. فليس لأحد أن يقول: لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة أبداً.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: إذا رأيتم أخاكم زلّ زلة، فقوّموه

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي والحاكم والبيهقي.
(٢) أي الحكم عليه والحلف به خطأ، جاء في الحديث: «من يتأل على الله يكذبه». أي من حكم عليه وحلف، كقولك: والله ليُدخلن الله فلاناً النار. وهو من الأليّة اليمين.

وسددوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ويراجع به إلى التوبة، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.

وقال ابن مسعود: إذا رأيتم أخاكم قارفاً ذنباً، فلا تكونوا أعواناً للشيطان عليه تقولون: اللهم اخزه، اللهم العنه، ولكن سلوا الله العافية، فإنا أصحابَ محمد ﷺ كنا لا نقول في أحد شيئاً حتى نعلم نهايته، فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيراً، وإن ختم له بشر خفنا عليه عمله.

حالات الإساءة البالغة للآخرين

على الإنسان أن يكون في حالة طيبة مع نفسه ومع الآخرين، فلا يظن بنفسه الخير، وبغيره الشر والسوء، فيكون متهماً في حكمه، كاذباً مفترياً في ظنه وقوله. وما أجمل موقف معروف الكرخي حيث كان مع جماعة على نهر دجلة، فمرّ به أقوام أحداث في زورق يغنّون ويضربون بالدُّف، فقال له صحبه: يا أبا محفوظ، أما ترى هؤلاء في هذا البحر يعصون الله عز وجل؟، ادع الله عليهم، قال الرواي: فرفع يديه إلى السماء، فقال: إلهي وسيدي، اللهم إني أسألك أن تفرِّحهم في الآخرة كما فرَّحتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنا سألناك أن تدعو عليهم، ولم نسألك أن تدعو لهم، فقال: إذا فرَّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم شيء.

وهذه نظرية حب سامية للآخرين، منبعها القلب الكبير والشفقة على الناس. وقال أبو سليمان الداراني: إنما الغضب على أهل المعاصي لجراءتهم عليها، فإذا تذكرت ما يصيرون إليه من عقوبة الآخرة دخلت القلوب الرحمة لهم.

ومن أسوأ المواقف الاجتماعية أن يتورط إنسان في السخرية

بالآخرين، فذلك موقف متجرد من الاحترام للآخرين، لذلك شدد القرآن الكريم على تحريم السخرية، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ[1] وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١١-١٢].

اشتملت الآية الأولى على تحريم الاستهزاء والسخرية، وتحريم اللمز وهو الغيبة والوقيعة، وتحريم التنابز بالألقاب وهو أن يترك اسمه، ويلقبه بلقب يسيء به إليه، ويكون فعل هذه المحظورات فسوقاً بعد الإيمان، ولا يليق بالإيمان هذه الأخلاق المرذولة.

واشتملت الآية الثانية على تحريم سوء الظن بالآخرين، فإن ظن القبيح بالمسلم كهمزه ولمزه والسخرية والهزء به، وكل ذلك إثم ومنهي عنه، كما أن الله تعالى نهى عن التجسس، وهو تتبع أحوال الآخرين في خلواتهم وجوف دارهم والتعرف عليها وذلك يسيء للآخر، ويؤذيه بما لا موجب له ولا مقتضى ولا مرخص فيه. ثم نهى الله عن الغيبة، وشَبَّه الاغتياب بأكل لحم الميت، لأن الميت لا يشعر بأكل لحمه، كما لا يشعر الغائب بسلب عرضه، وليس للمسلم أن يسيء لأخيه ولا أن يبهته.

يؤكد مدلولَ الآية حديثٌ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً». والتجسس تفحص الأخبار سراً ثم يأتي بها. والتحسس تتبع الأخبار وجمعها، وكلاهما تتبع العورات.

---

(١) أي لا يطعن بعضكم على بعض.

وروى البيهقي وغيره عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنه من يتّبع عورات المسلمين، يتّبع الله عورته، ومن يتّبع الله عورته، يُفْضح وهو في بيته».

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فقال: «ما أعظم حرمتك، أو مرحباً بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حرمتك، ولَمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، إن الله حرَّم منك واحدة، وحرم من المؤمن ثلاثاً: دمه، وماله، وأن يظن به ظن السوء».

وروى البخاري في التاريخ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أخبروني ما أربى الربا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أربى الربا عند الله عز وجل استحلال عرض المسلم». ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٨].

وروى أبو داوود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عَرَج بي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم. أي يغتابونهم».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: حكيت لرسول الله ﷺ رجلاً، فقال: «ما يسرني أن حكيت رجلاً، وإن لي كذا وكذا». قلت: إن صفية امرأة،

وأشارت إلى أنملة يعني قصيرة، فقال: «لقد مُزجت بكلمة إن مزج بها البحر مزجت».

وروى البيهقي أيضاً عن معاذ بن جبل قال: ذكر رجل عند النبي ﷺ، فقالوا: ما أعجزه؟! فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتم الرجل». قالوا: يا رسول الله، ما قلنا إلا ما فيه؟ قال: «لو قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه».

وذكر البيهقي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الغيبة أشد من الزنا، فإن صاحب الزنا يتوب، وصاحب الغيبة ليس له توبة». أي حتى يغفرها له صاحبه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله فيمن أمره النبي ﷺ بإعادة الوضوء والصلاة (أي والإفطار من الصيام) بسبب الغيبة أو أذى المسلمين، إنما هو بالتكفير لما مضى من الذنب.

لكن يستثنى من حكم الغيبة ثلاثة، قال ابن عيينة: ثلاثة ليست لهم غيبة: الإمام الجائر، والفاسق المعلن بفسقه، والمبتدع الذي يدعو الناس إلى بدعته.

والنميمة وهي السعاية بين الناس بالإفساد حرام أيضاً، لما رواه البيهقي عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خياركم الذين إذا رُؤوا ذُكر الله بهم، وإن شراركم المشاؤون بالنميمة بين الأحبة، الباغون للبراة العنت». أي المشقة والحرج.

إساءات اللسان وبقية الحواس

حرم الله تبارك وتعالى كل إساءة للآخرين باللسان أو السمع أو البصر وغير ذلك، لما فيها من ظلم أو بغي، وزرع فتنة، وتجاوز أدب، وإثارة منازعات ومشكلات.

ومنها التنابز بالألقاب، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١١].

ومنها الهمز واللمز، أي التعيير والطعن في الأعراض والكرامات، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ أي لا يطعن بعضكم ببعض، وقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ(١)﴾ [الهمزة: ١٠٤/ ١].

ومنها الإعانة على الخصومة والنزاع، روى البيهقي في شعبه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله، فإن العبد إذا قال: سبحان الله وبحمده، كتب الله له بها عشراً، ومن عشر إلى مئة، ومن مئة إلى ألف، ومن زاد زاده الله، ومن استغفر غفر الله له، ومن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حادّ الله في أمره، ومن أعان على خصومة بغير علم(٢) فقد باء بسخط من الله، ومن قذف مؤمناً أو مؤمنة حبسه الله في رَدْغة الخبال(٣) حتى يأتي بالمخرج، ومن مات وعليه دين اقتص من حسناته ليس ثَمَّ دينار ولا درهم».

وارتكاب الفواحش من أعظم الإساءات والمؤذيات، روى البيهقي موصولاً ومرسلاً عن راشد بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت برجال تقطع جلودهم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قال: الذين يتزينون للزينة، ثم مررت بجُب منتن الريح، فسمعت أصواتاً شديدة، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: نساء كن يتزين للزينة ويفعلن ما لا يحل لهن، ثم مررت على نساء معلَّقين بثديهن، فقلت: من هؤلاء

---

(١) الهمزة الذي يعيبك في وجهك، واللمزة الذي يعيبك بالغيب. وقال مجاهد: الهمزة الطعان، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس.

(٢) بغير دليل ولا بينة.

(٣) عصارة أهل النار.

يا جبريل؟ قال: هؤلاء الغمازات النمازات، وذلك قوله الله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾».

وتذكّر عيوب الآخرين ونسيان عيب النفس ظلم، قال ابن عباس: ذكروا رجلاً، فقال: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك، فاذكر عيوبك.

وقال إبراهيم النخعي: إني لأرى الشيء أكرهه، فما يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن ابتلى بمثله. وقال يحيى بن جابر: ما عاب رجل قط بعيب إلا ابتلاه الله بمثل ذلك العيب.

والشماتة حرام، لما روى البيهقي عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك».

وروى أيضاً عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من عيَّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يفعله».

وكان مالك بن دينار يقول: كفى بالمرء شراً ألا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين.

والاشتغال بمساوئ الناس من أكبر الآثام، رُئي أبو حفص في المنام، فقيل: أي عملك وجدت أفضل؟ قال: ترك الاشتغال بمساوئ الناس.

وسبيل التخلص من الآثام هو الاستغفار وطلب السماح من الآخرين، قال أبو هريرة - فيما رواه البيهقي - عن النبي ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليستحله منها». أو «فليتحلله منها».

وروى البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: كان في لساني ذَرَب[1] على أهلي، لم يَعْدهم إلى غيرهم، فسألت النبي ﷺ، فقال: «أين أنت من الاستغفار يا حذيفة؟ إني لأستغفر الله كل يوم مئة مرة». قال الإمام أحمد:

---

(١) سلاطة وحدة لسان.

أمره النبي ﷺ بالاستغفار رجاء أن يُرضي الله خصمه يوم القيامة ببركة استغفاره.

والوقاية من الغيبة تكون بترك الظنون فهو سبيل التخلص منها، قال سهل بن عبد الله: من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن، سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان.

وقال سهل بن عبد الله أيضاً: من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله، لا صادقين ولا كاذبين، ولا يغتابون ولا يُغتاب عنهم، ولا يُشبعون في بطونهم، وإذا وعدوا لم يُخلفوا، ولا تكلموا إلا في الاستثناء في كلامهم[1]، ولا يمرحون أصلاً.

لكن طلب الاستغفار من رجل صالح جائز، فقد وفد أهل الكوفة على عمر بن الخطاب، فوفد رجل منهم ممن كان يسخر به أي بأويس القرني، فقال عمر: ما ها هنا أحد من القرنيين؟ قال: فجاء ذلك الرجل، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً يأتيكم، يقال له أويس القرني، لا يدع باليمن غير أم له، وقد كان به بياض، فدعا الله عز وجل، فأذهبه عنه، إلا مثل موضع الدينار أو الدرهم، فمن لقيه منكم فأمروه أن يستغفر لكم». قال عمر: فقدم أويس من اليمن، فقال له: استغفر الله لي، قال: أويستغفر مثلي لمثلك يا أمير المؤمنين؟ قال: فاستغفر لي.

وعلى المؤمن الابتعاد عن مواطن الشبه والتهمة لما رواه مسلم في الصحيح عن أنس أن النبي ﷺ كان مع امرأة من نسائه، فمر برجل، فقال: «يا فلان هذه امرأتي فلانة». قال: يا رسول الله، من كنت أظن به، فإني لم أكن أظن بك، فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».

---

(١) أي لازموا الصمت إلا استثناء.

الأصل الرابع والأربعون من أصول الإيمان

إخلاص العمل لله وترك الرياء

ربّى الإسلام أهل الإيمان على قاعدة صلبة من الإخلاص في العمل لله عز وجل وترك الرياء، وأذكر هنا ما يتعلق بالإخلاص في القرآن والسنة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٩٨/ ٥].

وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٠].

ووردت أحاديث ووقائع في السنة النبوية ترشد إلى التحلي بالإخلاص، ففي إخلاص الجهاد والعلم والمال أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة رجل استشهد فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فعَرَفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت في سبيلك حتى استشهدت، قال: كذبتَ، إنما أردتَ أن يقال: فلان جريء، فقد قيل، فأُمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلَّم العلم وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه، فعَرفَها فقال: ما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وقرأت القرآن وعلّمته فيك، قال:

كذبت وإنما أردت أن يقال: فلان عالم، وفلان قارئ، فقد قيل، فأُمر به، فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل آتاه الله من أنواع المال، فأُتي به، فعرَّفه نعمه، فَعَرفها، فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من شيء أن تحبَّ أن أنفق إلا أنفقت فيه لك، قال: كذبت، إنما أردتَ أن يقال: فلان جواد، فقد قيل، فأُمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

فهذه أمثلة ونماذج ثلاثة لاختبار الإيمان في أهم الأحوال، وهي الجهاد في سبيل الله، وتعلم العلم وتعليمه، وإنفاق المال، وقد أوضحت الأمثلة مدى الكذب في ادعاء الإخلاص في هذه الأمور.

وفي إخلاص العبادة روى البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله عز وجل خالصاً، وفرقة يعبدون الله عز وجل رياء، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا، قال:

فيقول للذي كان يعبد الله عز وجل للدنيا: بعزتي وجلالي، ما أردتَ بعبادتي؟ فيقول: الدنيا، ويقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذي يعبد الله عز وجل رياء: بعزتي وجلالي، ما أردتَ بعبادتي؟ قال: الرياء، فيقول: إنما كانت عبادتك التي كنت ترائي بها لا يصعد إلي منها شيء، ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذي كان يعبد الله عز وجل خالصاً: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول: بعزتك وجلالك، لأنت أعلم به مني، كنت أعبدك لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنة».

وفي صدق الكلام ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ

قال: «أصدق بيت قالته العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وكل نعيم لا محالة زائل. فقال النبي ﷺ: إلا نعيم الجنة».

ميزان الإخلاص هو النية، أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

الجزاء على العمل الخالص وغيره كما روى البيهقي عن أبي العالية قال: كنا نحدِّث منذ خمسين سنة أن الأعمال تعرض على الله عز وجل، فما كان منها له قال: هذا لي وأنا أجزي به، وما كان لغيره قال: اطلبوا ثواب هذا ممن عملتموه له، وكنا نحدث منذ خمسين سنة أن الرجل إذا حُبس بمرض قال الله عز وجل: اكتبوا لعبدي مثل ما كان يعمل في صحته، حتى أقبضه أو أخلِّي سبيله. وكنا نحدث منذ خمسين سنة أن من مرض مرضاً أشرف فيه على نفسه، كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

الجمع بين القصدين - حسن الظن وحسن العمل - حدد القرآن الكريم والسنة طريق العمل المقبول، فقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠]. وروى البيهقي وغيره عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يجاهد في سبيل الله، وهو يبغي من عرض الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له». فأعظم الناس ذلك، فعاد الرجل، فقال: «لا أجر له».

قال الحليمي رحمه الله: فثبت بالقرآن والسنة أن كل عمل أمكن أن يراد به وجه الله إذا لم يعمل لمجرد التقرب به إليه، وابتغاء رضوانه، حُبط ولم يستوجب له ثواباً.

عاقبة الرياء

الرياء خصلة ذميمة وحقيرة تدل على قصور في العقل، وضعة في النفس، واستخفاف في القيم، وخداع ومكر، وطعن في الدين والإيمان، وخسارة محققة في العمل.

روى البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سبحانه يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي عمله». وفي لفظ: «قال الله عز وجل: فمن عمل فيّ عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، هو للذي أشرك».

وفي حديث آخر عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري - وكان من الصحابة - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل لله أحداً، فليطالب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك».

وروى البخاري ومسلم عن جُنْدب بن جُنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يسمِّع يسمِّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به». أي من يسمِّع الناس بعمله، يسمِّع الله بعمله الكاذب مخلوقاته.

والرياء أحد نوعي الشرك، لأن الشرك نوعان: ظاهر أو أكبر، وخفي أو أصغر، روى البيهقي عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قال: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، إن الله يقول يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء أو خيراً».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصرة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب». أي إن العمل للآخرة ينبغي أن يكون مقصوداً لذاته ولإرضاء الله وحده، لا من أجل نفع دنيوي. ومن عَبَد الله تعالى ليحرز ثناء الناس عليه ومدحهم إياه في الدنيا بما فعل، أحبط الله أجره، ولم يحصل على شيء من ثمرة عمله.

فإن شرط قبول الله للعمل أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، لما رواه البيهقي عن الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكاً، فهو لشريكي، يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله عز وجل، فإن الله عز وجل لا يقبل إلا ما أخلص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم، فإنها للرحم، فليس لله عز وجل منها شيء، ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، ليس لله منها شيء».

أوضح أبو العالية هذا التصور وحكمه بقوله:

كنا نحدَّث منذ خمسين سنة أن الأعمال تعرض على الله عز وجل، فما كان منها له قال: هذا لي وأنا أجزي به، وما كان لغيره قال: اطلبوا ثواب هذا ممن عملتموه له.

وكنا نحدَّث منذ خمسين سنة أن الرجل إذا حُبس بمرض قال الله عز وجل: اكتبوا لعبدي مثل ما كان يعمل في صحته، حتى أقبضه أو أُخلِّي سبيله.

وكنا نحدَّث منذ خمسين سنة أن من مرض مرضاً أشرف فيه على نفسه، كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وروى البيهقي عن يزيد بن هارون، وتلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠] ثم قال: عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يجاهد في سبيل الله، وهو

يبغي من عرض الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له». فأعظم الناس ذلك.

ومن الأمثلة التطبيقية ما رواه البيهقي عن شداد بن أوس، سمع النبي ﷺ يقول: «من صام يرائي فقد أشرك، ومن صلى يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك».

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠] قال: هم المراؤون.

وعن شهر بن حوشب في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠] قال: العمل الصالح يرفع الكلام الطيب. ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال: الذين يراؤون.

وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فارقها والله عنه راض، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلّغوه عن ربهم، من قبل مرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل».

قال ذو النون المصري: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم يغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم، قال الله عز وجل: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٨].

وقال الحسن البصري: في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ١١/ ٧٥] كان إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوى نوى لله.

وقال أبو حازم: اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك.

وقال الفضيل بن عياض: ويل لمن ليس لله.

الأصل الخامس والأربعون من أصول الإيمان

السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة

المؤمن الواعي الذي يقدِّر أحوال المستقبل ويدرك عواقب الأمور هو الذي يُسَرُّ بما قدَّمه لنفسه ولأمته من أعمال الخير، ويتكدر ويتضايق بما قد يرتكبه من أعمال الشر، لأن العمل الصالح سبيل الخلود وتحقيق السمعة الطيبة، والعمل السيئ سبب للوقوع في مضايقات نفسية وكروب قلبية، ولإساءة السمعة وتلويث الصيت، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠].

وفي القرآن مقارنات وموازنات كثيرة بين ثمرة العمل الصالح وثمرة العمل الفاسد، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٨] أي إن النتيجة الطيبة هي لأهل التقوى الذين يعملون الصالحات، وقال سبحانه بعد بيان عقاب المفسدين أو المكذبين أو الضالين: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٧] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٠٣] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٣٩] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٧٣].

وفي السنة النبوية أخبار ثابتة في بيان عاقبة الحسنة وعاقبة السيئة، روى البيهقي عن أبي أمامة أن رجلاً سأل النبي ﷺ: ما الإيمان؟ قال: «إذا ساءتك سيئاتك، وسرتك حسناتك، فأنت مؤمن». قال: فما الإثم؟ قال: «إذا حل في صدرك شيء فدعه». وروى أبو داوود الطيالسي عن جابر بن سمرة قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية (في دمشق) فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم، فقال: «ومن سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»(١).

وروى البيهقي من طريق الطيالسي أيضاً عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا». قال الإمام أحمد رحمه الله: جاء في التفسير مرفوعاً بلفظ موجز: «إن المؤمن إذا عمل حسنة رجا ثوابها، وإذا عمل سيئة خاف عقابها».

وأوضح الحليمي رحمه الله قول عائشة قائلاً: ومعنى هذا - والله أعلم - أن من عمل حسنة، فسرَّه أن وفقه الله تعالى لها ويسَّرها له، حتى حصلت في ميزانه، فجلس كما يجلس المهنَّأ فرحاً مسروراً بما يرجوه من رحمة الله وفضله. أو عمل سيئة فساءته أن خلا بالله تعالى ونفسه، حتى عمل بما سوَّله له الشيطان، وجلس كما يجلس المصاب مهموماً كئيباً حزيناً حياء من الله تعالى، وخوفاً من مؤاخذته، فذلك دليل على صدق إيمانه وخلوص اعتقاده، فإن الثقة بالوعد والوعيد لا يكون إلا من قوة التصديق بالله ورسوله.

إن تحقيق الأعمال الطيبة يسعد الإنسان ويريح باله ويجعله هانئاً معافىً في بدنه وعقله وقلبه وأهله وذريته، ويظفر بمحبة الناس له وثنائهم

---

(١) وتكرر هذا في أحاديث كثيرة أخرى كما في حديث أبي موسى الأشعري: «من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»

عليه، روى مسلم في الصحيح عن أبي ذرّ الغفاري قال: يا رسول الله، أرأيت الرجل يعمل لله العمل يحبه الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

وفي رواية أخرى عن أبي ذر: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل الصالح، والناس يحمدونه على ذلك؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن في الدنيا».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل يسره، وإذا طُلِع عليه سره ذلك وأعجبه، فقال رسول الله ﷺ: «له أجران: أجر العلانية، وأجر السر». والمعنى أن الناس إذا اطلعوا على العمل الطيب الذي فعله المحسن، كان ذلك سبباً لسرور العامل، ليُقتدى به، ويُعْمَل مثل عمله، فهو كقوله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها». فليس السرور أن يذكر الإنسان ويثنى عليه، وإنما السرور في فتح باب حسن يشجع غيره على الاقتداء به والعمل مثل عمله، فالعمل الطيب هو أن يكون العمل لله تعالى، لا من أجل أن يُحمَد الإنسان عليه أو يشكروه على فعله.

يوضحه ما رواه البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل السر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء به».

قال أبو إسحاق: يا معشر الشباب، اغتنموا، قلما تمر بي ليلة إلا وأقرأ فيها ألف آية، وإني لأقرأ البقرة في ركعة، وإني لأصوم الأشهر الحرم، وثلاثة أيام من كل شهر، والاثنين والخميس، ثم تلا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩٣/ ١١].

وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة من ملأ أذنيه من خير سمعه، وأهل النار من ملأ أذنيه من شر سمعه».

التوبة من الذنوب

أكرم الله تعالى عباده بتنزيل رحماته المتعاقبة، وغفرانه سيئات المذنبين، وهو من مظاهر اللطف الإلهي بعباده وخلقه، لذا ندبنا الله سبحانه إلى الاستغفار والتوبة المتكررة من الذنوب، فإن الله تواب رحيم، أي كثير القبول للتوبة، وواسع الرحمة بالعصاة، قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٨]. وقال عز من قائل: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٤].

إن التوبة اعتراف بالذنب، وإقرار صادق بالمعصية، وطلب خالص من الله تعالى أن يعفو ويقبل التوبة عن التائب.

ومنهاج الإسلام في التوبة ذو طابع شخصي، فلا تقبل توبة إنسان عن غيره، ويسأل كل إنسان عن عمله، ولا يسأل عنه أبوه ولا أمه، ولا أولاده، وبنود هذا المنهاج العملي واضح في السنة والسيرة النبوية، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤]:

- «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً.
- يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً.
- يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً.
- يا صفيةُ عمةُ رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً.
- يا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً».

والمثل الأعلى للأمة هو رسولها صلوات الله وسلامه عليه حيث كان يكرر التوبة في اليوم مئة مرة، وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، روى مسلم في الصحيح وأبو داوود عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة».

وروى مسلم في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى مسلم أيضاً عن الأغر المزني - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة» والغين معناه أن يغشى قلبه شيء، ويغطيه بعض التغطية، ويحجبه عما يشاهده، وهو كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء، فلا يكاد يحجب عين الشمس ولا يمنع ضوءها.

وذكر البيهقي في شعبه عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «إن كنتِ ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار».

وفي حادثة الإفك والافتراء على عائشة رضي الله عنها والذي كان من ورائها زعيم المنافقين عبد الله بن أبي، وأنزل الله براءتها في آيات عشر في سورة النور، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وكان ينفق على مِسْطَح بن أُثاثة، لقرابته منه -: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، قالت عائشة: فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ﴾ [النور: ٢٤/٢٢]. فعاد أبو بكر رضي الله عنه إلى الإنفاق عليه، وهذا تعليم واقعي للترغيب في العفو والصفح عن المسيء، مهما كانت إساءته.

وورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الندم توبة، الندم توبة»[١]. وفي رواية أخرى عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنباً، ثم ندم، فهو كفارته».

وأخرج البيهقي عن النعمان بن بشير، سمعت عمر رضي الله عنه يقول: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ قال: هو الرجل يعمل الذنب، ثم يتوب، ولا يريد أن يعمل به ولا يعود. وكذلك قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب ألا يعود إليه أبداً»[٢].

وفي حديث آخر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة الذنب الندم»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وابن ماجه والحاكم.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

فضل الله تعالى في قبول التوبة

الذنوب أو المعاصي في منهاج الإسلام نوعان: كبائر وصغائر، أما الكبائر فهي كل ما ورد فيه عقاب أو حد في الدنيا أو تهديد في الآخرة كالشرك بالله وعقوق الوالدين والسحر، وقتل النفس عمداً بغير حق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي أو الهرب يوم الزحف (حال احتدام المعركة مع العدو) وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات (أي اتهامهن بالفاحشة من غير دليل).

والذنوب الصغائر كل معصية لم يرد فيها حد أو عقاب دنيوي، كالنظر إلى المرأة غير المحرم، والتقبيل والمفاخذة، وبطش اليد والرجل، ما لم ينضم إلى ذلك فعل الفرج.

وكل ذنب كبير أو صغير تجب التوبة منه، حتى لا يتعرض صاحبه إلى العقاب أو المساءلة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١] ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٣] أي المعاصي الكبيرة السرية والعلنية.

والصغائر هي المعبَّر عنها في القرآن الكريم باللمم، وفسر ابن عباس اللمم فقال: هو الرجل يصيب الفاحشة يلمّ بها ثم يتوب منها. وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن تغفر تغفر جماً، وأي عبد لك لا ألمّا»(١).

وروى البيهقي عن الحسن أو عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال: «اللَّمة من الزنا أن يتوب فلا يعود، واللَّمة من

---

(١) رواه ابن عباس موقوفاً كما ذكر البيهقي في الشعب.

السرقة أن يتوب فلا يعود، واللَّمة من شرب الخمر أن يتوب فلا يعود». فقال الحسن البصري: فذلك الإلمام.

والتوبة التي وعد الله قبولها هي التي تحدث عقب الذنب مباشرة، أو قبل سكرات الموت، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٤/١٧].

يوضحه الحديث الذي روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١).

والتوبة تسقط أثر الذنب، لحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٢).

وفَضْل الله تعالى على عباده كبير في أن ثواب الحسنة يضاعف، والسيئة تكتب واحدة، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها، إلى سبع مئة وسبعة وسبعين، أو ما شاء الله. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة».

ورغَّب الله سبحانه عباده بالتوبة كل يوم وليلة، روى مسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن علي رضي الله عنه يقول: كنت إذا سمعت من

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي في شعبه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه البيهقي عن عائشة ولكنه ضعيف.

رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله تباك وتعالى بما شاء أن ينفعني، قال علي: وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يتوضأ، ويصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر له. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٥] والآية الأخرى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠]».

ومن وقائع التوبة ما رواه البيهقي عن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أخذت امرأة فصنعت بها كل شيء إلا الجماع، فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤].

ورواه مسلم في الصحيح براوية أخرى عن عبد الله بن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها. فأنا هذا، فاقضِ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل، فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلاً، ودعاه، فتلا هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] فقال رجل من القوم: هذا له خاصة؟ قال: «بل للناس كافة».

ترك اليأس من قبول التوبة

من أسماء الله الحسنى اللطيف والرحمن والرحيم، والسميع والمجيب، فلا يصح في منهج القرآن الكريم اليأس من قبول التوبة، أو

ملازمة المعصية للإنسان، فإن طرق التخلص من المعاصي كثيرة في ميزان الإسلام ولطف الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/١١٦].

وقال سبحانه في آية أخرى هي في غاية اللطف والأمل والرحمة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

وفي السنة النبوية أحاديث تؤيد هذا الاتجاه، منها ما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ: «إن عبداً أصاب ذنباً فقال: يا رب، إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: يا رب، إني أذنبت ذنباً فاغفر لي، قال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له. ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر، وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء».

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً حديثاً قدسياً شاملاً لألوان العطاء الإلهي، عن أبي ذر الغفاري، عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل عليه السلام، عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

- «يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا.
- يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم.

- يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أُطْعِمْكم.
- يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكْسُكم.
- يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، لم يزد ذلك من مُلكي شيئاً.
- يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك في ملكي شيئاً.
- يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان منكم ما سأل، لم ينقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر.
- يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه».

وأخرج البيهقي عن النعمان بن بشير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥] قال: يقول: إذا أذنب أحدكم، فلا يُلقين بيده إلى التهلكة، ولا يقولن: لا توبة لي، ولكن ليستغفر الله، وليتب إليه، فإن الله غفور رحيم.

ومن أروع الأحاديث النبوية أيضاً ما رواه مسلم في الصحيح عن أبي أيوب الأنصاري: أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم».

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء الله بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم».

وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ يقول: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله بأرض فلاة».

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، كنا إذا كنا عندك رقَّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإنا إذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، فقال: «لو تكونون - أو لو أنكم تكونون - على كل حال على الحال التي أنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة بأكفكم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون، فيغفر لهم». قال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعّم ولا يبؤس، ويخلَّد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين».

ترغيب الله تعالى في التوبة

يحتاج كل إنسان مخطئ إلى تطهير نفسه من الذنب أو الخطأ، وذلك بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى، والندم الشديد على المعصية، فالله جواد كريم غفار للذنوب، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٤٠/٣] والله سبحانه وتعالى يلهم عبده المخطئ بأن يتوب، كما فعل مع آدم عليه السلام بعد أن عصى ربه، فأكل من الشجرة التي منعه الله سبحانه من الأكل منها، فألهمه الله التوبة، كما قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٢/٣٧] وتلك الكلمات هي كما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٣] وقال آدم أيضاً: «سبحانك اللهم وبحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فاغفر لي إنك خير الغافرين. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فارحمني، إنك أنت أرحم الراحمين. لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءاً، وظلمت نفسي، فتب علي إنك أنت التواب الرحيم[1]».

إن إلهام الله تعالى لعبده التوبة مصدره الرحمة الإلهية الواسعة بعباده، أخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قدم على رسول الله ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» فقلنا: لا والله، وهي تقدر على ألا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «الله تعالى أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها».

ومن تاب من ذنبه أو عوقب في الدنيا على الذنب، لم يتكرر العقاب عليه في الآخرة، لما رواه البيهقي عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصاب في الدنيا ذنباً فعوقب به، فالله أعدل أن يثنِّي عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا، فستره الله عليه، وعفا عنه، فالله أكرم أن يعود في شيء عفا عنه».

وروى البيهقي أيضاً عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣]» فقال رجل: يا رسول الله،

---

(١) رواه البيهقي في شعبه (٥/ ٤٣٤).

ومن أشرك؟ فسكت النبي ﷺ، ثم قال: «إلا ومن أشرك، إلا ومن أشرك، إلا ومن أشرك».

وأخرج الشيخان عن ابن عباس أن أناساً من أهل الشرك قَتَلوا فأكثروا، ثم زنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أنْ لما عملناه كفارة، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٨]. ونزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣].

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٤/ ٢٦] ثلاثاً متتابعات. والرابعة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٣١]. والخامسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٤٠]. والسادسة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٠]. والسابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤/ ١١٦]. والثامنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١٥٢].

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟ ألا إن داءكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار».

وقال شمّر بن عطية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤]: غفر لهم الذنوب التي عملوها، وشكر لهم الخير الذي دلّهم عليه، فعملوا به، فأثابهم عليه.

والتوبة تزيل الذنب وتجعله كأن لم يكن، لما رواه ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(١).

وروى البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل»(٢).

وقال الشعبي: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٢] أي من الذنوب.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٢] حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها. وقال في قوله سبحانه: ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٥] أي للتوابين، وقال الضحاك: أي للراجعين من الذنب.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدع مخالطة من كان يخالط، وإلا لم ينل ما يريد.

وسئل ذو النون المصري عن الاستغفار، فقال: الاستغفار اسم جامع لمعان ستة: أولهن: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنوب أبداً. والثالث: إذا كان فرض ضيعته فيما بينك وبين الله عز وجل. والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم، ويصالحهم عليها. والخامس: إذابة كل لحم ودم نبت من الحرام. والسادس: إذاقة البدن ألم الطاعات كما ذاق حلاوة المعصية.

---

(١) حديث حسن.

(٢) حديث ضعيف.

الأثر الخطير للذنوب

الذنوب أو المعاصي معكّرات للإنسان. قلبَه ونفسَه ومشاعرَه وإحساساته، وأعظم هذه المعكّرات أن الذنوب تسدّ ألوان الخير على القلب، وتدمغه وتلصق عليه مثل الطابع الذي يلصق على الرسائل، وهذا الطابع هو المسمى في القرآن الكريم بالرَّان، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤] يوضحه الحديث الذي رواه البيهقي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقل منها قلبه، وإن زاد زادت حتى يَغْلق بها قلبه». أي فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي إن الذنب بعد الذنب يتراكم حتى يسوّد القلب، فلا تنفذ إليه المواعظ، فإن تاب إلى الله قبله الله، وانجلى عن قلبه كجلي المرآة.

يؤكده ما قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليذنب فيُنكَت في قلبه نكتة سوداء، ثم يذنب الذنب، فيُنكت نكتة أخرى، حتى يصير لون قلبه لون الشاة الربداء، يعني السوداء.

وقال حذيفة أيضاً: إن الرجل ليذنب، فيُنقَط على قلبه نقطة سوداء، ثم يذنب، فينقَط على قلبه نقطة سوداء، حتى يصير كالشامة.

إن تأثير الذنوب على القلب خطير جداً، حيث يغلّف بالرين، والرين هو الطبع كما في رواية عند الأكثرين، وفي رواية أخرى قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك.

قال الإمام أحمد: قال أصحابنا: والختم على القلب والطبع بمعنى

واحد، ومن طُبع على قلبه في ذنب لم يتب منه أبداً. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٦] فأيّس الله نبيه ﷺ من إيمانهم، وأشار إلى سبب ذلك وعلته، فقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٢/ ٧].

إن التورط بالسيئات يضر الإنسان نفسه، ويضر المجتمع فيه، فإذا شاعت السيئات تضر الجميع، ولم يكن في هذا المجتمع خير، أخرج البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجُرَ السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تُقْبل التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طُبع على كل قلب بما فيه، وكُفي الناس العمل». أي إن هجر السوء دائم، ومجاهدة النفس وترك المعاصي مستمران.

وما أبدع التعبير النبوي في تصنيف الناس في المجتمع إلى ثلاثة أصناف: صنف طائع مستقيم، وصنف عاص منحرف، وصنف متردد بينهما، أخرج الترمذي والبيهقي عن النوَّاس بن سَمْعان الأنصاري وأحمد والبزار بإسناد حسن عن ابن مسعود «أن رسول الله ﷺ ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتَّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعند رأس الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تتعوَّجوا - أو تتعرجوا - وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحْه، فإنك إن فتحته تلجْه، والصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله عز وجل، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله عز وجل، والداعي من فوقه - أي فوق الصراط - واعظُ الله في قلب كل مؤمن أو مسلم». أي إن أبواب المعاصي مفتوحة، وفتح باب منها مؤدٍّ

للهلاك، والرقيب في رأس الطريق القرآن، والداعي من فوق الطريق رقابة الله في كل قلب مؤمن، يدعوه إلى التزام الطاعة.

وإن لكل من الحسنة والسيئة تأثيراً في القلب، لما رواه البيهقي عن الحسن البصري قال: «من عمل حسنة وإن صغرت أورثته نوراً في قلبه، وقوة في عمله، وإن عمل سيئة وإن صغرت، فاحتقرها أورثته ظلماً في قلبه، وضعفاً في عمله».

وقسوة القلب أو جفاف الدمع بسبب الذنوب، ورقّة القلب بسبب الطاعات، قال يحيى بن معاذ: ما جفّت الدموع إلا لقساوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، وما كثرت الذنوب إلا من كثرة العيوب.

وكان الحسن البصري يقول: تفقدوا الحلاوة في ثلاث: الصلاة، والقرآن، والدعاء، فإن وجدتموها فاحفظوا واحمدوا الله على ذلك، وإن لم تجدوها، فاعلموا أن أبواب الخير عليكم مغلقة.

وقال عمر بن ذر: يا أهل المعاصي لا تغتروا بطول حلم الله عنكم، واحذروا أسفه، فإنه تعالى ذكره قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٥٥] وقال أيضاً: يا أيها الناس أجْلوا مقام الله عز وجل بالتنزه عما لا يحل، فإن الله تعالى لا يؤمن مكره إذا عصي.

وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٥] يقول: لا يتوبون. وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى حجز التوبة عن كل صاحب بدعة». أي بدعة منكرة.

وروى البيهقي أيضاً عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائش ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٩]

هم أصحاب البدع، وأهل الأهواء، وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، يا عائشة: ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني برآء».

وقال ابن عباس - فيما رواه البيهقي والأصبهاني - قال رسول الله ﷺ: «النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر من الله المقت». أي الغضب.

وقال يحيى بن معاذ: أفضل الناس من ترك الذنوب ظرفاً، لا خوفاً.

محقَّرات الذنوب

يستهين بعض الناس في الوقوع في صغائر الذنوب، غير مقدِّر عواقبها وآثارَها الوخيمة على النفس والقلب، وهذه هي محقّرات الذنوب التي حذر منها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة منها:

ما رواه البيهقي في شعبه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إياك ومحقّراتِ الذنوب، فإن لها من الله طالباً». وأمثلتها النظرة المسمومة، والكذبة العارضة، ونحوها مما يقترفه الإنسان مستسهلاً شأنها، وهي إذا جمعت تكون سبباً لأن يكبَّه الله في نار جهنم.

وروى البيهقي أيضاً عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن تُعبد الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقَّرات، وهي الموبقات[1] يوم القيامة، فاتقوا المظالم ما استطعتم، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة، وهو يرى أن ستنجيه، فما زال عبد يقوم يقول: يا رب ظلمني عبدك فلان بمظلمة،

---

(١) المهلكات.

فيقول: امحوا من حسناته، فيقول: ما زال كذلك حتى لا يبقى معه حسنة من الذنوب، وإن مثل ذلك كسَفْر[1] نزلوا بفلاة من الأرض، ليس معهم حطب، فتفرق القوم، ليحتطبوا، فلم يلبثوا أن احتطبوا وأنضجوا ما أرادوا، قال: وكذلك الذنوب». أي إن الذنوب المرتكبة واحداً بعد الآخر، كمثل ما يحتطبه القوم المسافرون، ثم تُهلك أصحابها.

بدليل حديث آخر عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثَل محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضج خبزَهم، وإن محقَّرات الذنوب متى يأخذها صاحبها تهلكه».

وسبب خطورة هذه الذنوب تكرارها والإصرار عليها، كما قال ابن عباس: لا كبيرة بكبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة بصغيرة مع الإصرار.

وميزان معرفة الذنب التردد في فعله وتركه، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن يونس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وخشيت أن يطلع عليه الناس».

وقال سلمان الفارسي: اذكر ربك عند همّك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: من خان الله في السر، هتك سره في العلانية.

وقال ابن عباس: في قول الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٤] قال: بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ قال: بالتوبة ﴿وَغَرَّتْكُمُ

(١) مسافرين مثل صاحب وصحب.

ٱلْأَمَانِيُّ﴾ قال: التسويف بالأعمال الصالحة ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال: الشيطان.

وأخرج أبو عيسى الترمذي عن أنس بن مالك، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عُمل على ظهرها» وقرأ رسول الله ﷺ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ١-٤].

وجاء في رواية أبي هريرة عند البيهقي، قال: «أتدرون ما أخبارها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول: عُمل كذا وكذا، في يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها».

وما أجمل ما قال الشاعر ابن المعتز:

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها، ذاك التقى
واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

وقال رجل من تميم:

أنوح على نفسي وأبكي خطيئة تقود خطايا أثقلت منيَ الظهرا
فيا لذةً كانت قليلاً بقاؤها ويا حسرةً دامت ولم تبق لي عذرا

وأخرج البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من سرَّه أن يَسْبِق الدائب المجتهد، فليكف عن الذنوب».

وكان الفضيل بن عياض شاطراً[١] يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ١٦] فلما سمعها قال: بلى، يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، وإذا فيها سابلة[٢]، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

---

(١) الذي أعيا أهله خُبثاً.

(٢) أبناء السبيل المختلفة في الطرقات.

الأصل السابع والأربعون من أصول الإيمان

تقديم القرابين

القرابين لله تعالى تشمل العقيقة التي هي من حقوق الأولاد على الآباء بعد الولادة بأسبوع أو ثلاثة أسابيع، توسعةً على أهل البيت وشكراً للنعمة، وصلة للأرحام والأقارب والجيران والأصدقاء، وهي شاة تذبح ويوزع لحمها، أو تطبخ ويدعى إليها القرابة. وتشمل أيضاً الهدي (وهو الشاة المذبوحة في حرم مكة تكريماً لأهلها وتقرباً إلى الله بتوزيعها بين الناس) وكذلك الأضحية التي هي شاة ونحوها من الأنعام تذبح في عيد الأضحى.

وأدلة الترغيب في الأضاحي والهدايا آيات كريمات من القرآن الكريم مثل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١٠٨/ ٢] ومثل: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٦-٣٧] وفي آية أخرى ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٨] وآية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٢]. وآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٤] وآيات في المائدة (٢) و (٩٧).

وأكدت السنة النبوية على ذبح الهدي المقدم عند زيارة البيت الحرام، عن المسور بن مَخْرمة: «أن رسول الله ﷺ خرج عام الحديبية في بضعة عشر ومئة من أصحابه، فلما كان بذي الحُليفة، قلَّد الهدي، وأشعره[١]، وأحرم منها».

قال الزهري فيما أخرجه أحمد: إن النبي ﷺ ساق معه الهدي سبعين بَدَنة[٢] عام الحديبية.

وأخرج مسلم في صحيحه أن جابراً قال: نحر رسول الله ﷺ في حجته ثلاثاً وستين، وأعطى علياً، فنحر ما بقي، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بَدَنة بَبَضْعة، فجُعل في قِدْر، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

ومن مميزات الحج كثرة الذبائح، لما رواه جماعة[٣] عن أبي بكر الصدّيق، عن النبي ﷺ قال: «أفضل الحج العجّ والثجّ». أي ارتفاع الأصوات بالتلبية، وصبّ، أي إهراق الدم.

وأخرج السبعة[٤] والدارمي وابن خزيمة والبيهقي عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يضحّي بكبشين أقرنين أملحين[٥]، فلقد رأيته يضع رجله على صفاحهما، ويسمي ويكبّر. وصفحة كل شيء وجهه وجانبه. والكبش الثني إذا خرجت رباعيته، والأقرن ذو القرنين.

وأخرج أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبش أقرن، فجعل يأكل في سواد،

(١) أي وضع القلادة في عنق الهدي، وأعلمه بعلامة تميزه عن غيره.
(٢) ناقة أو بقرة.
(٣) هم الترمذي وابن ماجه والدارمي والحاكم وابن خزيمة.
(٤) أحمد وأصحاب الكتب الستة.
(٥) أبيضين خالصين.

ويمشي في سواد، وينظر في سواد. ومعناه أن قوائمه وبطنه وما حول عينيه أسود.

وكان دعاء رسول الله ﷺ حين ذبح الأضاحي بما أخرجه البيهقي وأبو داوود وابن ماجه عن جابر قال: ذبح رسول الله ﷺ كبشين يوم العيد، فقال حين وجّههما (أي إلى القبلة): «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين». أصله من سورة ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦١-١٦٣].

وأخرج الحاكم وقال: صحيح الإسناد[١] عن علي بن الحسين في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٧] قال: حدثني أبو رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحّى، اشترى كبشين سمينين أملحين أقرنين، فإذا خطب وصلى، ذبح أحد الكبشين بالمُدْية، ثم يقول: «اللهم هذا عن أمتي جميعاً، من شهد لك بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ». ثم أتى بالآخر، فذبحه، ثم قال: «اللهم هذا عن محمد وآل محمد». ثم يطعمهما المساكين، وأكل هو وأهله منهما، ومكثنا سنين قد كفانا الله العزم والمؤونة، ليس أحد من بني هاشم يضحي.

وفي حديث لمسلم عن عائشة رضي الله عنها: أمر بكبش أقرن يطأ في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد، فأتى به ليضحي به، فقال لها: «يا عائشة، هلمي المُدْية[٢]». ثم قال: «اشحذيها بحَجَر». ففعلت، ثم أخذها

(١) وتعقبه بقوله: زهير ذو مناكير، وابن عقيل ليس بالقوي.
(٢) السكين.

(المُدْية) وأخذ (الكبش) فأضجعه، ثم ذبحه، ثم قال: «بسم الله، اللهم تقبّلْ من محمد وآل محمد، ومن أمة محمد». ثم ضحى به.

وأخرج الأصبهاني أن النبي ﷺ قال: «وأنا أول المسلمين، بسم الله والله أكبر، اللهم منك، ولك، عن محمد وأمته[(١)]».

وأخرج مسلم والبخاري عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ في يوم نحر، فقال: «إن أول ما نبدأ به يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع، فننحر، فمن فعل ذلك، فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل أن يصلِّي، فإنما هو لحم عجَّله لأهله، وليس من النُّسُك في شيء». أي ليس من شعائر العيد.

وتستبعد الضحية ذات العيوب لما أخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة فقال: «أربع لا تجوز في الضحايا: العوراء البيِّن عورُها، والمريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البيِّن ضِلَعها[(٢)]، والكبيرة التي لا تنقي[(٣)]». فهذه العيوب الأربعة مانعة من صحة التضحية، وهي العوراء، والمريضة، والعرجاء، والمجنونة.

(١) وأخرجه ابن ماجه، ولم يقل: بسم الله، الله أكبر، وإسناده حسن بما ذكر قبله عن جابر.
(٢) أي اعوجاجها.
(٣) أي التي لا مخ لها.

الأصل الثامن والأربعون من أصول الإيمان

طاعة أولي الأمر وبيعتهم وأوصافهم

إن وجود أولي الأمر وطاعتهم فريضة من فرائض الشرع، حفظاً للنظام، ومنعاً للفوضى، وإحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، وفصلاً للخصومات والمنازعات الناشبة بين الناس، ولتطبيق شريعة الله وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٤/٥٩] فجعل طاعتهم بالحق والمعروف والعدل مساوية لطاعة الله والرسول.

وألو الأمر في السياسة والحكم هم في عصرنا الحاضر رؤساء الدول وأمراء الجند والسرايا وقادة الجيوش ونحوهم، لأنهم يديرون الأمور، وينظرون إلى ما يحقق الخير والمصلحة العامة لأمتهم.

وأكدت السنة النبوية وجوب الطاعة المفروضة في القرآن الكريم، في أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأمير فقد عصاني».

وفي حديث آخر أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما عن أنس بن مالك

قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم حبشي كأن رأسه زبيبة».

وحيث لم يكن نص شرعي في تولية خليفة بعد رسول الله ﷺ لترك الأمر لاختيار الأمة وبيعتهم، استدل الصحابة الثقات العدول الكرام بأمر النبي ﷺ أبا بكر بالصلاة بالمسلمين في مرضه، على إمامته، مع علمهم بكفايته وتوافر شرائط الإمامة.

وأما عمر ﷺ، فقد أخرج البخاري[1] عن ابن عمر ﷺ قال: قيل لعمر: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف، فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ، فأثنوا عليه، فقال راغباً وراهباً: وددت أني نجوت منها كفافاً لا لي ولا عليّ، لا أتحملها حيّاً وميّتاً.

وكانت الخلافة في الماضي في قريش لقوتهم وقيادتهم، لما أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عبد الله بن عمر، قال رسول الله ﷺ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان».

وفي لفظ آخر في حديث لأبي هريرة: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن - يعني الإمارة - مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».

ولا يشترط توافر الإجماع على شخص الخليفة أو الإمامة الكبرى، لأن الصحابة لم يعتبروا فيها الإجماع عند الاختيار والمبايعة، وإنما اعتبروا وجود المبايعة، كما ذكر أبو الحسن الأشعري. ومقتضى الإمامة ألا يُبَايَع إمامان في وقت واحد، في عصر واحد، لأن ذلك يؤدي إلى التفرق.

وللإمام أو الحاكم العادل ميزة كبيرة في الإسلام، لما أخرجه

(١) ورواه أيضاً أحمد ومسلم وأبو داوود والترمذي.

الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا، ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة أخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وأخرج أحمد ومسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن نبي الله ﷺ قال في خطبته: «.. أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم بكل ذي قربى وغيرهم، وعفيف متعفف..».

وأداء الحاكم مسؤوليته الكبرى عن رعيته واجب أصيل لما رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راعٍ على الناس، وهو مسؤول، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول، فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته».

والشأن في الإمام الحاكم الأمانة والنصح وترك الغش والخيانة، لما أخرجه البخاري ومسلم عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت حين يموت، وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة».

وأخرج أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة أو أقربهم مني مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر».

الإمام العادل ونصيحته

لقد فرغ العلماء والحكماء والساسة من تقرير وجوب اختيار الحاكم أو رئيس الدولة، منعاً من حدوث الفوضى، وحفظاً للنظام، وإحقاقاً للحق، ومقاومة للشر والباطل، وفصلاً للخصومات بين الناس على أساس العدل الشامل.

قال الأحنف بن قيس: لا ينبغي للعاقل أن ينزل بلداً ليس فيها خمس خصال: سلطان قاهر، وقاضٍ عادل، وسوق قائمة، ونهر جارٍ، وطبيب عالم. وهذه نظرة اجتماعية حكيمة، لأن هذه الخصائص من ضرورات الحياة الآمنة، والمعيشة المستقرة، والعمل على تقدم الأمة.

وفي بعض الآثار المروية عن ابن عباس مرفوعاً قال: «يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة، وإقامة حد في أرض أزكى لها وأنفع لها من مطر أربعين صباحاً»(١).

وفي أثر آخر أن أبا السماح الأزدي عن ابن عم له من الصحابة أتى معاوية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي من أمر الناس شيئاً، ثم أغلق بابه دون المسكين، أو المظلوم، أو ذوي الحاجة، أغلق الله دونه أبواب رحمته عند حاجته وفقره أفقر ما يكون إليه»(٢).

يؤكده حديث أبي مريم بن الأسد، الذي قدم على معاوية، فقال معاوية: ما أقدمك؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، فلما رأيت

(١) أخرجه البيهقي والطبراني في الكبير، ولكنه ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى، قال في مجمع الزوائد: وأبو السماح لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

موقفك جئت أخبرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاه الله من أمر الناس شيئاً، فاحتجب عن حاجتهم وخَلّتهم وفاقتهم، احتجب الله يوم القيامة عن حاجته وخَلّته وفاقته»(١).

وهذا المعنى أو الإرشاد متفق عليه بين الأنبياء، أخرج العجلوني في كشف الخفاء عن الحسن البصري أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام قالوا: سل لنا ربك يبين لنا عَلَم رضاه عنا وعَلَم سخطه، فسأله فقال: «يا موسى أبلغهم أن رضاي عنهم أن أستعمل عليهم خيارهم، وأن سخطي عليهم أن أستعمل عليهم شرارهم».

وقال عمر بن الخطاب: حُدِّثت أن موسى أو عيسى عليهما السلام قال: «يا رب، ما علامة رضاك عن خلقك؟ فقال عز وجل: أن أنزل عليهم الغيث إبّان زرعهم، وأحبسه إبّان حصادهم، وأجعل أمورهم إلى حلمائهم، وفيئهم في أيدي سمحائهم. قال: يا رب فما علامة السخط؟ قال: أن أنزل عليهم الغيث إبان حصادهم، وأحبسَه إبان زرعهم، وأجعل أمورهم إلى سفهائهم، وفيئهم في أيدي بخلائهم». والفيء الخراج والغنيمة الحربية.

وكلّم كعب الأحبار عمر بن الخطاب، فقال: ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء. فقال عمر: إلا من حاسب نفسه، فقال: ما بينهما آية في كتاب الله عز وجل.

وأما نصيحة الإمام فمطلوبة في شرعة الإسلام، لما أخرجه مسلم وغيره(٢) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يرضى

---

(١) أخرجه البيهقي والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وإسناده شامي صحيح، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي والتبريزي في المشكاة.

(٢) رواه أيضاً مالك وأحمد والبيهقي وابن حبان.

لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله عز وجل أمركم، ويسخط لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

والنصيحة مطلوبة لله بالعمل بأوامره، وللقرآن بتلاوته والتزام ما فيه، وللرسول بطاعته، وللأئمة الحكام بما يحقق المصلحة العامة، ولجماعة المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبإصلاح أخلاقهم، أخرج مسلم في الصحيح عن تميم الداري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين النصيحة» ثلاث مرات، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم». قال أبو عثمان: فانصح للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد بالقول والعمل والحكم، فإنهم إذا صلحوا صلح العباد بصلاحهم، وإياك أن تدعو عليهم باللعنة، فيزدادوا شراً، ويزداد البلاء على المسلمين، ولكن ادع لهم بالتوبة، فيتركوا الشر، فيرتفع البلاء عن المؤمنين.

وإصلاح الإمام يتطلب إصلاح الحاشية والوزراء، لما رواه أحمد والنسائي وأبو داوود وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً، وهو حديث صحيح، تقول: قال رسول الله ﷺ: «من ولي منكم عملاً، فأراد الله به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه».

وأخرج أحمد والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما من وال يلي إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقي شرها فقد وقي، وهو من الذي يغلب عليه منهما».

وأخرج البيهقي أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سَخْلة على شاطئ الفرات ضيعةً، لخفت أن أسأل عنها.

وأخرج البيهقي[١] أيضاً عن محمد بن المنكدر قال: قال العباس ﷺ: يا رسول الله أمِّرني على بعض ما ولاّك الله، فقال له النبي ﷺ: «يا عباس، يا عمّ النبي نفسٌ تنجِّيها خير من إمارة لا تحصيها». نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وإنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أوحي إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «يا عباس، يا عم النبي، يا صفية عمة النبي، ويا فاطمة بنت محمد، إني لست أغني عنكم من الله شيئاً، لي عملي ولكم عملكم»[٢].

كراهية طلب الإمارة
وتحريم الظلم

الوظائف العامة، سواء رئاسة الدولة أو الوزارة أو بقية الوظائف يجب أن يتمتع القائمون بها بكفاءات متميزة، وقدرة وافية، وعلم ووعي وحُنكة وحكمة، أما ذوو الإمكانات الضعيفة، فعليهم أن ينمّوا إمكاناتهم ومعارفهم وتكوين شخصياتهم، وإلا لم يكونوا أهلاً للعمل العام، فالأهلية والجدارة شرط أساسي في شاغل الوظيفة العامة.

قال الله تعالى في هذه المناسبة: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢/١٩] ووصف الله تعالى خمسة من الرسل الكرام وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام) بأنهم أولو العزم، وأمر الله نبيه محمداً ﷺ بأن يصبر ويكافح ويناضل في سبيل

(١) هذا هو المحفوظ مرسل.

(٢) أخرجه البخاري والنسائي والدارمي وابن حبان والبيهقي بلفظ: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً».

نشر دعوة الله - دعوة التوحيد والحق والقوة كما صبر أولو العزم السابقون، فقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥].

ولم يجامل النبي ﷺ أحداً من أقاربه كالعباس بن عبد المطلب عمه، أو أصحابه مثل أبي ذر وغيره من طالبي الإمارة، فقال - فيما رواه مسلم في الصحيح - عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرن على اثنين، ولا تَولينَّ مال يتيم..».

وروى مسلم والبيهقي في السنن الكبرى عن أبي ذر هذا الحديث بلفظ آخر هو: قلت: يا سول الله، استعملني، قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها».

دل هذا الحديث على كراهية طلب الإمارة لمن كان ضعيفاً، يخاف ألا يؤدي فيها الأمانة، وهو منهاج حصيف وسديد، لأن الوظيفة العامة أو الإمارة فيها مسؤولية كبيرة، وتحتاج لصبر وجلد وكفاءة ومقدرة.

ومن أهم مقومات الإمامة أو الإمارة العمل بالعدل، واجتناب الظلم، وقد شدَّد الإسلام تشديداً كبيراً في منع الظلم وتحريمه.

أخرج البخاري عن ابن عمر، ومسلم من حديث شبَّانة، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والبيهقي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

ويؤيده ما أخرجه أحمد والبيهقي(١) وغيرهما عن عبد الله بن عمرو،

---

(١) والطيالسي والحاكم وابن حبان، وأخرجه أحمد ومسلم دون قوله: «وإياكم والتفحش».

عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح، فإنما أهلك ما كان قبلكم الشح، أمرهم بالكذب، فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة». فقام رجل، فقال: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك». قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: «أن يهراق دمك ويعقر جوادك». قال: فأيُّ الهجرة أفضل؟ قال: «تهجر ما كره ربك، وهما هجرتان: هجرة للبادي وهجرة للحاضر(١)، فأما هجرة البادي، فإذا دُعي أجاب، وإذا أمر أطاع. وأما هجرة الحاضر فأشدهما بلية، وأعظمهما أجراً».

والظلم أنواع، وأخطره الظلم الاجتماعي، ظلم الفقير والضعيف، وظلم اليتيم، وظلم المرأة، بدليل ما أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي في الفردوس وأبو يعلى عن أنس والبزار من حديث حذيفة، وأنس(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للمالك من المملوك، وويل للمملوك من المالك، ويل للغني من الفقير، ويل للفقير من الغني، ويل للشديد من الضعيف، ويل للضعيف من القوي». وهذا يدل على وجوب الاتزان والعدل وأداء الأمانة، والعذاب أو وادٍ في جهنم وهو معنى الويل لمن ظلم غيره وأخل بواجبه، ولم يحفظ الأمانة، سواء السيد والخادم، والغني والفقير، والشديد والضعيف، أحدهما مع الآخر.

وأخرج أحمد وابن ماجه، وإسناده حسن، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول على المنبر: «أحرِّم عليكم مال الضعيفين: اليتيم والمرأة».

---

(١) البادي ساكن البادية، والحاضر، ساكن الحاضرة أي المدينة.

(٢) لكن في إسناد البزار من لم يعرفه الهيثمي، والأعمش لم يسمع من أنس.

وأخرج البخاري في الأدب وأحمد، وأبو داوود وغيرهم[١]- وهو حديث حسن - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابة: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر».

وأخرج البيهقي والدارقطني وغيرهما: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما[٢] عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/١٠٢].

وأخرج أحمد والبيهقي عن خالد بن الوليد، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة».

وروى البخاري وأحمد وغيرهما[٣] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة من أخيه من عرضه أو ماله، فليتحللها من صاحبه، من قبل أن يؤخذ منه حين لا يكون دينار ولا درهم، فإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له أخذ من سيئات صاحبه، فحملت عليه».

وصدق الله حين قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢/٤٢].

---

(١) وهم الترمذي وابن ماجه والطيالسي وابن حبان والديلمي في الفردوس.

(٢) وهم الترمذي وابن ماجه والبيهقي وابن حبان والديلمي في الفردوس.

(٣) وهم الطيالسي والبيهقي وابن حبان والديلمي في الفردوس.

الأصل التاسع والأربعون من أصول الإيمان

العمل بما عليه الجماعة

الإسلام على عكس ما عليه حال المسلمين اليوم من إيثار العزلة والفردية، فهو دين حضاري جماعي ذو نزعة جماعية، يوجب الانضمام والتمسك بما عليه الجماعة، لأن الرأي الجماعي أقرب إلى الصواب من الرأي الخاص أو الفردي، لذا أمر الله تعالى بالحرص على وحدة التجمع ومسلك الجماعة، فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣].

وأكدت الوصايا والتوجيهات النبوية على المسيرة الجماعية، في أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه مسلم في الصحيح ومالك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، رضي لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا[1]، وأن تُناصِحوا من ولَّاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال». أي مَنَعكم من لغو الكلام، والإكثار من الأسئلة عن أمور لم تقع أو لم ينزل فيها وحي إلهي، وتضييع المال وإتلافه.

---

(١) ليس في رواية مالك: «ولا تفرقوا».

ويؤيده ما أخرجه أحمد والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، عن الحارث الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس أمرني الله تعالى بهن: الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فمن فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، أو الإيمان من رأسه، إلا أن يراجع. ومن دعا دعوى جاهلية فهو من جثا جهنم». قيل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلى، تداعَوْا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله». أي إن الشذوذ، ومفارقة الجماعة خروج عن الإسلام.

ومن مات مفارقاً الجماعة، مات ميتة جاهلية، لما أخرجه مسلم وأحمد والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات على ذلك، فهي ميتة الجاهلية. ومن خرج من أمتي يظلم بَرّها وفاجرها لا يحتشم - أو قال: لا يتحاشى - من مؤمنها، ولا يفي لذي عهدها فلبس مني. ومن قُتل تحت راية عِمِّية[1]، يغضب للعصبية، وينصر للعصبية، ويدعو للعصبية، فقِتْلته جاهلية، أو قال: ميتته جاهلية».

يوضحه ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما[2] عن ابن عباس يرويه عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه، فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً، فيموت إلا مات ميتة جاهلية».

وفي حديث حسن عن المقدام حدَّث أن رسول الله ﷺ قال: «أطيعوا أمراءكم، فإن أمروكم بما جئتكم به، فإنهم يؤجرون عليه، ويؤجرون بطاعتهم، وإن أمروكم بشيء مما لم آتكم به فهو عليهم، وأنتم برآء من

(١) من العماء الضلالة، كالقتال في العصبية والأهواء. والمِيتة العِمية، ميتة الفتنة والجهالة.
(٢) وهم أحمد والدارمي والبيهقي، وابن أبي عاصم مختصراً.

ذلك إذا لقيتم الله، قلتم: ربنا لا ظلم، فيقولون: ربنا لا ظلم، أرسلت إلينا رسولاً فأطعناه - يعني بإذنك - واستخلفت علينا خَلَفاً، فأطعناهم بإذنك، وأمَّرت علينا أمراء فأطعناهم بإذنك، فيقول: صدقتم، هو عليهم، وأنتم منه برآء». أي إن الطاعة بحق يؤجر عليها الطائعون، والأمر بغير حق وزره على الآمر.

وأخرج مسلم في الصحيح والبيهقي عن علقمة بن وائل عن أبيه قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألوننا حقهم، ويمنعوننا حقنا فما تأمرنا؟ قال: فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس، فقال النبي ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليه ما حُمِّل، وعليكم ما حملتم». أي إن الطاعة واجبة ولو مع وجود ظلم بمنع حق الرعية.

يوضحه حديثان الأول: ما أخرجه مسلم من حديث حذيفة بن اليمان، عن النبي ﷺ في إخباره عن أئمة لا يهتدون بهديه، ولا يستنّون بسنته، قال: «تسمع وتطيع للأمير، فإن ضَرَب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع».

والثاني: ما أخرجه مسلم وأبو داوود والترمذي وأحمد عن أم سلمة مرفوعاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سيعمل عليكم أمراء بعدي تعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا، ما صلوا».

وأخرج البيهقي عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة: ألا تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ قال: إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر لحسن، ولكن ليس من السنة أن ترفع السلاح على إمامك.

قال الحليمي رحمه الله: فالإمام العادل طاعته واجبة، ومخالفته حرام، والثبات على عهده وعقده فرض، وأما الجائر فمن قال وهم

الجمهور: إن الفسق لا يناقض الإمامة، احتج بظاهر هذه الأخبار، وقال: إنها نطقت بإيجاب الطاعة للعادل والجائر. ومن قال وهم نفر يسير: إن الفسق يناقض الإمامة قال: إن ذُكر الإمام الجائر منفرداً عن الإمام العادل ليس إلا أن الجائر إمام في صورة أمره وظاهر حاله، دون إثبات أن يكون إماماً بالإطلاق كالعادل، وعرفنا أن مفارقته ونبذ طاعته إذا كانت لا تكون إلا بنقض الجماعة، وجبت مفارقته.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بالسمع والطاعة في منشطك ومكرهك وعسرك ويسرك وأثرة عليك».

فضل الجماعة والألفة ونبذ الاختلاف والفرقة

العمل الجماعي خير وبركة وعون على الرشد والسداد والانتصار، والاختلاف والفرقة دمار وهلاك ووبال، فمن أراد العزة والغلبة فليعمل مع الجماعة، ومن انحرف ورضي بالذل والمهانة سلك طريق الفرقة والمخالفة.

ولم نجد في الإسلام دعوة صريحة إلى قتل أحد إلا المفرِّق الأمة، لما رواه عرفجة بن شريح الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون هنات وهنات[١]، فمن رأيتموه يفرق أمة محمد وهم جميع، فاقتلوه، كائناً من كان من الناس»[٢].

---

(١) أي خصلات شر.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داوود وأحمد والطيالسي والبيهقي وابن حبان والديلمي في الفردوس، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وفي لفظ آخر: «ستكون بعدي هنات وهنات، فمن رأيتموه فارق الجماعة، فكأنما فارق بين أمتي، فاقتلوه كائناً من كان، فإن يد الله مع الجماعة، وإن الشيطان مع مفارقة الجماعة يركض، وقال مرة: على الجماعة».

والإيمان الصحيح لا يلتقي مع مسلك تفريق الجماعة، لما رواه أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لا يُغِل[1] عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[2].

والسمع والطاعة لولي الأمر واجب حفاظاً على وحدة الجماعة، لحديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذَرَفت منها العيون ووجِلت منها القلوب، قال قائل: كأن هذه موعظة مودِّع فما تأمرنا؟ قال: «عليكم بالسمع والطاعة لمن ولَّاه الله أمركم، وإن كان عبداً حبشياً، ألا، وسيرى من بقي منكم بعدي اختلافاً كثيراً، فمن أدرك ذاك منكم، فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، إياكم ومحدَثات الأمور، فإنها ضلالة»[3].

وفي لفظ آخر: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

وقال ابن مسعود جواباً لمن سأله بقوله: أوصنا: «عليكم بالجماعة،

---

(١) لا يدخله غلول وهو الخيانة، أي فمن تمسك بهذه الخصال الثلاث طهر قلبه من الخيانة والحقد والشر.

(٢) أخرجه ابن ماجه والدارمي وأحمد، وإسناده حسن.

(٣) أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه والدارمي وأحمد.

فإن الله لن يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، حتى يستريح بَرّ أو يستراح من فاجر».

وأخبر النبي ﷺ عن أمور في المستقبل كالأثرة (الأنانية) ونحوها، في حديث رواه عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إنكم سترون بعدي أثرة، وأموراً تنكرونها». قلنا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «أعطهم حقهم الذي جعل الله لهم، وسلوا الله حقكم»(١).

وأمر الإسلام بإكرام السلطان وتوقيره، حفاظاً على الجماعة، لما رواه أنس بن مالك قال: نهانا كبراؤنا من أصحاب محمد ﷺ قال: «لا تسبوا أمراءكم، ولا تغشّوهم، ولا تعصوهم، واتقوا الله واصبروا، فإن الأمر إلى قريب».

وأنذر النبي عليه الصلاة والسلام أمته من العمل على نقض أركان الحكم، فروى أبو أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «ليُنقَضَن عُرا الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبَّث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة»(٢).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قد علمت وربِّ الكعبة متى يهلكُ العرب، مراراً يقولهن: حين يسوس أمورهم من لم يصحب الرسول، ولم يعالج أمر الجاهلية.

إن هذه الوصايا النبوية الرشيدة تدل على عدة أمور، وهي علاج لأوضاعنا الحالية، وهي وجوب مؤازرة الجماعة والعمل الجماعي، والتفاني في تلافي الأخطار من طريق النصح والحوار ومذاكرة المخاطر، والعمل على تجاوز كل ثغرات الفرقة والاختلاف، والحفاظ على وحدة

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد والطيالسي.

(٢) أخرجه أحمد بإسناد حسن.

الأمة، لتفادي المخاطر، وتدارك المحاذير، وعدم الوقوع في الضعف والمذلة والهوان، فإن كل فُرْقة تؤدي إلى الكراهية وزرع الأحقاد والضغائن والتشتت، وانهيار بناء الأمة والجماعة أمام أعدائها الذين يتربصون بأمتنا السوء والدمار والهزيمة والانحلال.

إن القوة الصلبة هي بقوة الأمة ووحدتِها وعلاج جراحها والعملِ على الوقوف أمام الأعداء صفاً واحداً، وكتلة متراصة، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣].

الأصل الخمسون من أصول الإيمان

الحكم بالعدل بين الناس

الحكم بالعدل بين الناس أساس جوهري وقاعدة أو مبدأ لا بد منه ومن خصائص الحكم الإسلامي، لأن القضاء بين المتنازعين يعتمد في الدرجة الأولى على الإنصاف والقسط دون ميل أو تحيز أو مجاملة لأحد الخصمين على حساب الآخر، فهو طبيعة الحكم، وإلا لم يكن وسيلة لحل المنازعات، قال الله تعالى فيما حكاه خطاباً لداوود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٣٨/٢٦].

وأكد القرآن الكريم ذلك الخطاب بخطاب مماثل للنبي ﷺ فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٠٥]. وقال الله تعالى في حق نفسه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٣/١٨].

ثم أوجب القرآن بنحو عام الحكم بالعدل أو القسط في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم

بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٨] وفي آية أخرى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ٩] وغير ذلك من الآيات الآمرة بالعدل في الحكم، والكيل والميزان، والشهادة، مما يؤكد وجوب التزام العدل في معاملات الناس مع بعضهم، وهذا دليل قاطع على أن العدل بين الناس في الأحكام وعامة المعاملات من فرائض الدين.

وكذلك كل ما يتعلق بغير الحكم والقضاء، يجب على الناس كلهم أن ينصف بعضهم بعضاً، فينصف الإنسان نفسه وأسرته وجيرانه وأصدقاءه وزملاءه في العمل وفي الشارع وجميع الأمور المشتركة، العامة منها والخاصة، لأن كل إنسان مؤتمن على حكم الله تعالى، يطبِّقه على نفسه وغيره على السواء، وإلا كان الحكم ظلماً وخيانة وكذباً وإخلالاً بمقتضى الأمانة والتجرد والحياد والموضوعية. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢] وقال عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥].

فمن لم يستطع الحكم بالعدل والإنصاف، فعليه الامتناع عن الحكم، ومن استطاع ذلك فعليه مشاورة أهل العلم والأمانة، ليتوصل إلى الحق والعدل.

لهذا كان الحكم بالعدل نعمة كبيرة على الحاكم يغبط عليها، وعلى غيره فيستريح، أخرج الشيخان في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها».

وعلى الحاكم أو القاضي الاجتهاد وبذل أقصى الجهد لتحري العدل

والصواب، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»[١].

وصنَّف النبي عليه الصلاة والسلام القضاة ثلاثة أصناف، فقال: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة، قاضٍ قضى بغير الحق وهو يعلم فذلك في النار، وقاضي قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذلك في النار، وقاضٍ قضى بالحق، فذلك في الجنة»[٢].

والصنفان اللذان في النار هما المذبوحان بغير سكين، روى البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الذي يتولى القضاء فيما بين الناس هو المذبوح بغير سكين». قال الإمام أحمد: وهذا يرجع إلى اللذين أشار إليهما في الخبر الأول، وأوعدهما بالنار، وفي أمثالهما ورد أيضاً ما رواه البيهقي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من حاكم يحكم بين الناس إلا حشر يوم القيامة، وملَك آخذ بقفاه حتى يقف على جهنم، ثم يُرجع رأسه إلى الله عز وجل، فإذا قال: ألقه، ألقاه، فأهوى أربعين خريفاً». أي سنة في النار.

والحريص على الحق والعدل يوفقه الله تعالى إلى أرشد الأمور، لما رواه البيهقي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «من أراد أمراً، فشاور فيه، وقضى لله، هدي لأرشد الأمور».

وقال داوود لابنه سليمان عليهما السلام: يا بني لا تقطع أمراً حتى تؤامر مرشداً، فإنك إن فعلت ذلك لم تحزن عليه.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ

---

(١) رواه أصحاب الكتب الستة عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عن بريدة الأسلمي أبو داوود وابن ماجه والحاكم والطبراني في الكبير، وهو حديث صحيح.

﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٥٩] الآية، قال رسول الله ﷺ: «أما إن الله ورسوله غنيان عنهما، ولكن جعلها الله رحمة لأمتي، فمن شاور منهم لم يَعْدِم رشداً، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم عناء».

وكان النضر بن شميل يقول: ما سعد أحد باستغناء رأي، ولا هلك امرؤ دعا مشورة.

والخلاصة: ليست مهمة القضاة سهلة، وإنما هي صعبة جداً، لأن التوصل إلى الحق أمام كتمان الناس وتحايلهم وكذبهم ليس أمراً سهلاً، فاحتاج كل قاض إلى المشورة وإمعان النظر والتأمل، وتقصي الحقائق، وكشف بواطن الأمور، ليجد الطريق إلى الحق والعدل، والله يوفق أهل طاعته، ويعينهم على إنجاز مهامهم، وإرساء معالم الحكم بالعدل فيما بين الناس.

الأصل الحادي والخمسون من أصول الإيمان

الدعوة إلى الفضيلة
أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من أهم أصول الإسلام الأساسية الإصلاح ومحاربة الفساد، والدعوة إلى الفضيلة، ومقاومة الرذيلة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٤]. وجعل الله تعالى أساسين لوصف الأمة بالخيرية وهما الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠] ووصف الله سبحانه المؤمنين بصفة تميزهم بقوله: ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٢] وفي مقابل ذلك وصف الله سبحانه بني إسرائيل بأنهم يقرون المنكر ويرضون به، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٩] أي لم يكن ينهى بعضهم بعضاً عن المنكرات، ويؤكده حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما وقع النقص في بني إسرائيل، كان الرجل يرى أخاه على الذنب، فينهاه، ثم لا يمنعه منه من الغد أن يكون خليطه وشريبه، فضرب الله بقلوب بعضهم على بعض، وأنزل فيهم القرآن ﴿لُعِنَ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٨-٧٩]»[١].

وفي رواية أخرى تتمة لهذا عند أبي داوود: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطُرُنه على الحق أطْراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم يلعنكم كما لعن من قبلكم».

وأخرج أبو يعلى والبيهقي عن بريدة عن النبي ﷺ قال: «كيف يقدِّس الله أمة، لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها، وهو غير مُتَعْتَع»[٢].

وفي رواية ابن ماجه عن جابر بن عبد الله: «لا قدست أمة لا تأخذ لضعيفها حقه من قويها غير متعتع»[٣].

وخطب أبو بكر الصديق ﷺ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من يوم يعمل فيه بالمعاصي تقدرون على أن تغيِّروا، ثم لا تغيِّرون إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»[٤].

وفي رواية عند غير أحمد: «إن الناس إذا رأوا الظالم لم يأخذوا على يديه، أوشكوا أن يعمهم الله بعقاب»[٥].

---

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي وأحمد مسنداً عن ابن مسعود، وإسناده حسن، وأخرجه ابن ماجه مرسلاً.

(٢) التعتعة التردد في الكلام عن حصر أو عي.

(٣) لكن ليس في رواية ابن ماجه «من قويها» قال الهيثمي: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٤) أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وأحمد، قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٥) في رواية أحمد: «إذا رأوا المنكر» قال الترمذي عنه: هذا حديث حسن صحيح.

وفي رواية أخرى: «إذا عمل قوم بالمعاصي بين ظهراني قوم، هم أعزُّ منهم، فلم يغيِّروا عليهم، أنزل الله عليهم البلاء، ثم لم ينزعه منهم».

وأخرج أبو داوود والترمذي[1] وابن ماجه عن أبي أمية الشعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ كيف نصنع فيها؟ فقال أبو ثعلبة: والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ رسول الله ﷺ قال: «ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متَّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به، فعليك بالخواص. وإياك والعوام، فإن من ورائكم أياماً الصبرُ فيهن مثلُ القبض على الجمر، وللعامل فيهن أجر خمسين رجلاً، يعملون بمثل عمله».

وأخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرُن بالمعروف، ولتنهوُن عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

قال الإمام أحمد رحمه الله: فثبت بالكتاب والسنة وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم إن الله تعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فَرْقَ ما بين المؤمنين والمؤمنات، والمنافقين والمنافقات، لأنه قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٧] وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٩/ ٧١].

فثبت بذلك أن أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من الفروض التي ينبغي أن يقوم بها سلطان المسلمين وولاته في كل

(١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

إقليم، وكذلك علماء المسلمين الذين يجمعون بين فضل العلم وصلاح العمل.

ومراتب تغيير المنكرات ثلاث، لما أخرجه مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

ويبدأ كل إنسان بنفسه ثم بغيره، وبأسلوب يتميز بالرفق وبما يليق بكل مخاطب، من غير محاباة ولا رهان، وكذلك من غير يأس ولا انقطاع حتى تعم الفضيلة، وتندحر الرذيلة. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٤]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدكم مهابة أن يتكلم بحق إذا علمه»[١].

التعاون على الإصلاح وترك الفساد

على الأمة مجتمعة في رئاستها ومؤسساتها وجماعاتها أن تتعاون فيما بينها على الإصلاح، ومنع الفساد، حتى تكون أمة متحضرة وقوية، لأن الصلاح قوة، والفساد ضعف، وهو كالسرطان ينخر في جميع أعضاء الجسد.

وقد ثبت في السنة النبوية تقرير مبدأ التكافل أو التضامن الاجتماعي الإسلامي في محاربة الفساد، في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثلَ القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد، وقال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.

على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فيؤذونهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما يريدون غرقوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً»(١).

ومثال آخر ذكره بشير بن الخصَّاصية أنه سأل رسول الله ﷺ عن صوم الجمعة، وألا يكلم في ذلك اليوم أحداً، فقال له: «لا تصم يوم الجمعة إلا في أيام كنت تصومها أو في شهر، وألا تكلَّم أحداً، فلعمري لأن تكلّم (تتكلم) فتأمر بالمعروف أو تنهى عن منكر خير من أن تسكت»(٢).

ومثال ثالث في حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لامرئ يشهد مقاماً فيه مقال حق، إلا تكلّم فيه، فإنه لن يُقدِّم أجله، ولن يحرمه رزقاً هو له».

ومثال رابع في حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل النبي ﷺ ثلاث مرات عند الجمرات الأولى والوسطى والكبرى (العقبة): أي الجهاد أفضل؟ فأعرض عنه في المرتين، ثم قال في المرة الثالثة: «أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر»(٣). وهو مرسل جيد.

ومن الوصايا النبوية لأبي ذر الغفاري قال: أوصاني رسول الله ﷺ «أن أنظر إلى من دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأوصاني بحب المساكين، والدنو منهم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني ألا أخاف في الله لومة

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي وأحمد.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي والطبراني في الكبير، ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم والحميدي، وهو صحيح بمجموع طرقه.

لائم، وأوصاني ألا أسأل الناس شيئاً، وأوصاني أن أستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها من كنوز الجنة»[١].

وفي المجال العملي الواقعي بين الناس أمثلة أخرى:

أخرج البيهقي عن حذيفة بن اليمان قال: «الإسلام ثمانية أسهم: فالإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وصوم رمضان سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له».

ومن الأمثلة العملية ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال: «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون».

وقد تفيد سنة التدافع، فيدفع المحسن عن المسيء أحياناً، أخرج البيهقي عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] قال: يدفع الله بمن يصلي عمن لا يصلي، وبمن يحج عمن لا يحج، وبمن يزكي عمن لا يزكي.

وقد لا تنفع سنة التدافع إذا كثر الخبث أو الشر، ثبت في الصحيحين وغيرهما عن زينب زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نوم مُحْمَراً وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله - ثلاث مرات - ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه». وحلَّق حَلْقة بأصبعه. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[٢].

---

(١) رواه الطبراني، وفيه أبو الجوزي لم يعرفه الهيثمي، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد.

وفي واقعة مشابهة، أخرج البيهقي عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن الله سبحانه يُنزل سطواته بأهل الأرض، ومنهم الصالحون، فيَهْلكون بهلاكهم، فقال: «يا عائشة، إن الله سبحانه إذا أنزل سطوته على أهل نقمته، فوافت ذلك آجال قوم صالحين، فأُهلكوا بهلاكم، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله عز وجل بأهل الأرض بأسه». قلت: يا رسول الله، وفيهم أهل طاعته؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله».

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن أبي معمر، أنه قام إلى الحجَّاج، فقال: لا تسرف في القتل إنه كان منصوراً. فقال الحجاج: أمكن الله من دمك. فقال: إن مَنْ في بطنها أكثرُ ممن على ظهرها.

هذه التحذيرات النبوية وما في معناها لدى السلف الصالح تجعلنا نحذر من الفساد وانتشاره، ومن عموم الموبقات وشرورها، والحذر وإن كان لا يمنع القدر، لكنه يؤخر البلاء ويدفع السوء بملازمة الصلاح قدر الإمكان.

الأصل الثاني والخمسون من أصول الإيمان

التعاون على البر والتقوى

مظاهر التعاون

ليس في أي دين أو نظام تأسيس مثل هذه القاعدة الاجتماعية الرصينة والصلبة ألا وهي قاعدة التعاون على البر والتقوى، في قول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٥/ ٢] فالتعاون على البر بر، أي خير، فإذا وجدت الحاجة الاجتماعية إليه وجد البر، وإذا عُدمت لم يوجد البر، وهذا البر العام أفضل وأرسخ وأجدى من البر الذي ينفرد به الواحد.

ومن أهم مظاهر التعاون ردع الظالم عن ظلمه، ومؤازرة المظلوم، كما ورد في البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم فذلك نصره».

والظالم يظلم نفسه أولاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ٤/ ١١٠] وردعه عن ظلمه فيه مصلحة له، لأن مقتضى الإخاء نصيحة الظالم، وإعانته وإصلاحه على التخلص من ظلمه، لقوله

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

يؤكد هذا المنطلق أو الدافع الباعث على إيقاف الظلم ما أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما المؤمنون مَثَلَ رجل أو كرجل واحد، إذا اشتكى عيناه، اشتكى كله، وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله».

وفي معناه ما أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثَل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتواصلهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، وشبَّك بين أصابعه».

وأخرج السبعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) إلا النَّسائي، وأخرجه أيضاً الحميدي والبيهقي والقضاعي في مسند الشهاب، من حديث أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل قال: «اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء»[١].

وأشد حالات التعاون تفريج الكرب والهم أو الأزمة الخانقة، والترفع عن ظلم الأخ أو تسليمه للعدو، وقضاء الحاجة، وستر المؤمن، لما أخرجه البخاري ومسلم[٢] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كُربة، فرَّج الله عنه بها كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر على مسلم ستره الله يوم القيامة».

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داوود والترمذي وابن حبان والبيهقي.

وأخرج الشيخان أيضاً[١] في بيان أمثلة التعاون عن سعيد بن أبي بُردة عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم في كل يوم صدقة». قيل: فإن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق». قيل: فإن لم يستطع أو لم يجد؟ قال: «يأمر بالمعروف أو بالخير». قيل: فإن لم يستطع أو فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة والملهوف». قيل: فإن لم يستطع؟ قال: «يكف عن الشر، فإنها صدقة».

ومن أمثلة التعاون الضرورية ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذرّ الغفاري، أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من نفسٍ من بني آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس» قيل: وما هي يا رسول الله؟ ومن أين لنا صدقةٍ نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتميط الأذى عن الطريق، وتُسمع الأصم، وتَهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك».

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى الناس عن الأفنية والصُّعُدات[٢] أن يجلسوا بها، فقالوا: يا رسول الله، لا نستطيع ذلك ولا نطيقه. قال: «فإما لا فأدوا حقها». قالوا: وما حقها يا رسول الله؟ قال: «رد التحية، وتشميت العاطس إذا حمد الله، وغض البصر، وإرشاد السبيل».

وأخرج أبو يعلى في مسنده[٣] وغيره عن عبد الله بن عمر قال: قال

---

(١) وأحمد والنسائي والدارمي.

(٢) الطرق.

(٣) والطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي، وقال السيوطي: حديث حسن.

رسول الله ﷺ: «من قاد أعمى أربعين خُطْوة[1] وجبت له الجنة». وهذا لون رفيع من التعاون.

والحماية من أذى الآخرين تعاون، لما رواه أبو داوود في السنن عن معاذ بن أنس عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد به شينه به حبس يوم القيامة على جسر من جسور جهنم، حتى يخرج مما قال».

إن نصرة الأخ المسلم محقق نصر الله، وخذلان المسلم مؤدٍ إلى خذلان الله، لما رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاريين يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يخذل مسلماً في موطن يُنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته. وما من امرئ ينصر مسلماً في موطن يُنتقص فيه من عرضه، وتنتهك فيه حرمته إلا نصره الله عز وجل في موطن يحب فيه نصرته».

وأخرج البيهقي في السنن وقال: حديث حسن عن ابن أبي الدرداء عن أبيه قال: نال رجل من رجل عند رسول الله ﷺ ورد عليه رجل، فقال رسول الله ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه كان له حجاباً من نار»[2].

وفي رواية: ثم تلا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١].

---

(١) الخطوة ما بين القدمين، وجمع القلة خُطُوات، والكثير خُطى.

(٢) قال السيوطي: حديث حسن.

مواقف خالدة من التعاون

لقد رغّب الإسلام ترغيباً شديداً في التعاون الإنساني المخلص، سواء في القضايا المعنوية أو الأدبية، أم في القضايا المادية، القولية أم الفعلية، حفاظاً على روح الإخاء الإنساني، واعتباراً لكرامة الإنسان الغالية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٠].

والتعاون ضروري جداً في الأحوال السلبية أو الإيجابية، أي في حال ردّ الأذى الأدبي، أو المادي، أخرج الإمام أحمد وقال: حديث حسن، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أُذِل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصره، فلم ينصره، أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ومن أَكَل بمؤمن أكلة[١]، أطعمه الله مثلها من طعام أهل النار، ومن لبس بمؤمن لبسة[٢] ألبسه الله مثلها من لباس أهل النار».

والنصرة تكون أشد حاجة في غيبة الإنسان منه في حال حضوره، أخرج البيهقي في السنن الكبرى والضياء عن أنس أن النبي ﷺ قال: «من نصر أخاه بالغيب نصره الله في الدنيا والآخرة»[٣]. وأخرج أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ذبَّ عن لحم أخيه بالمغيب كان حقاً على الله أن يُعتقه»[٤].

ومن أدب المصطفى عليه الصلاة والسلام أنه ما كان يفضح إنساناً

(١) أي لقمة واحدة.
(٢) أي ما يلبس مرة واحدة.
(٣) قال السيوطي: حديث صحيح.
(٤) أي ينجيه من النار، قال السيوطي: حديث حسن.

أمام غيره، لما هو معروف من أدبه وخلقه الرفيع، قال البيهقي: روينا عن النبي ﷺ أنه كان ما يواجه رجلاً بشيء يكرهه، ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.

وأخرج البيهقي في الشعب عن المُطّلب بن عبد الله بن حَنْطب قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن، حيث يغيب يحفظه من ورائه، ويكفّ عنه ضيعته[1]، والمؤمن مرآة المؤمن».

وما أعظم وصف أهل الإيمان وأضدادهم أهل الفجور، أخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحة وادّون، وإن افترقت منازلهم وأبدانهم، والفجرة بعضهم لبعض غششة، فيتجادلون، وإن اجتمعت منازلهم وأبدانهم»[2].

ومن أحوال التعاون الحيوية قضاء الحاجات، فمن قضى حاجة أخيه المسلم قضى الله حاجته، وتقبَّل طاعته، ورضي عنه، ومنها الدلالة أو الإرشاد إلى الخير والمعروف، لما أخرجه مسلم وأحمد عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله».

وأخرج أحمد وغيره[3] عن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال: «الدال على خير كفاعله». وأخرج البيهقي في شعبه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة، والدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان».

---

(١) قال الأزهري: الضيعة عند الحاضرة النخل والكَرْم والأرض. والعرب لا تعرف الضيعة إلا الحِرفة والصناعة.

(٢) في هذا الإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه أيضاً الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحيلة والقضاعي في مسند الشهاب والبزار في كشف الأستار.

ومن فضائل هذا الدين في الأخلاق تليين الطباع، ونشر الأُلفة والمودة بين الناس، لما أخرجه البيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «المؤمن مألوف، ولا خير فيمن لا يألف، ولا يؤلف، وخير الناس من نفع الناس».

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خُلُقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة. وأما اللذان يبغضهما الله: فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس».

وأخرج كذلك عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فأسبغها عليه إلا جعل إليه شيئاً من حوائج الناس، فإن تبرَّم بهم، فقد عرَّض تلك النعمة للزوال».

وروى أبو نعيم في الحلية والطبراني في الكبير عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها عنهم، وحوَّلها إلى غيرهم»[١].

ومن مظاهر التعاون على الإثم والعدوان الحيلولة دون تطبيق حدود الله تعالى، روى أبو داوود وأحمد[٢] عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضادَّ الله في أمره، ومن مات وعليه دين، فليس بالدينار والدرهم، ولكنها الحسنات والسيئات، ومن خاصم في باطل، وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله رَدْغة الخبال[٣]، حتى يخرج مما قال».

---

(١) وقال السيوطي: حديث حسن.
(٢) وهو حديث حسن.
(٣) عصارة أهل النار.

ومن التعاون على المعصية شهادة الزور، والإعانة على الخصومة بغير علم، وقتال المؤمن وسبابه، أخرج البيهقي والديلمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع قوم يرى منهم أنه شاهد، وليس بشاهد، فهو شاهد زور؛ ومن أعان على خصومة بغير علم كان في سخط الله حتى ينزع، وقتال المؤمن كفر، وسبابه فسوق».

ومن روائع الأمثلة في التعاون إدخال السرور على الأخ المسلم، أو قضاء دين عنه، أو إطعامه الخبز، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «أن تدخل على أخيك المسلم سروراً، أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه خبزاً».

والخلاصة فيما أخرجه البيهقي أيضاً عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الخير كثير، ومن يعمل به قليل».

الأصل الثالث والخمسون من أصول الإيمان

خلق الحياء

يتصف أهل الإيمان بفضيلة متميزة تجعلهم عفيفي اللسان، ممتنعين عن كل شين أو عيب أو نقص، أما غير المؤمنين وبخاصة فيما نشاهده من صنيع الغربيين والشرقيين أنهم لا حياء عندهم في الغالب، فيُقدمون على تصرفات نابية، ويرتكبون فواحش مذهلة لعدم وجود فضيلة الحياء عندهم، مما يجعلنا نحن المؤمنين نحمد الله تعالى على أن ميزان الأخلاق والإيمان هو الحياء.

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر عن أبيه ﭬ، قال: مرَّ رسول الله ﷺ على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول: إنك تستحي حتى كأنه قد أضر بك، قال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان».

وأخرج البخاري ومسلم عن عمران بن حصين ﭬ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الحياء لا يأتي إلا بخير». وفي لفظ لديهما: «الحياء كله خير، والحياء لا يأتي إلا بخير» وهو دليل على أن الحياء ميزان الأخلاق، وهو يرشد إلى جميع أعمال الخير، بسبب فرط الحساسية والشفافية، والشعور بمشاعر الآخرين. قال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

والحياء هو الحد الفاصل بين الإيمان والنفاق، وبين الإيمان والجفاء أو الغلظة والقسوة، أخرج الترمذي وأحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «الحياء والعَيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان[١] شعبتان من النفاق»[٢].

وأخرج الترمذي وأحمد أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار»[٣].

بل إن الحياء هو الدين كله كما قال عمر بن عبد العزيز، وأخرج البيهقي عن إياس بن معاوية بن قرة قال: حدثني أبي عن جدي قال: كنا عند النبي ﷺ، فذُكر عنده الحياء، فقالوا: يا رسول الله، الحياء من الدين؟ فقال: «بل هو الدين كله». ثم قال: «إن الحياء والعفاف والعَي عن اللسان، لا عن القلب، والعمل من الإيمان، وإنهن يزدن في الآخرة، وينقصن من الدنيا، وما يزدن في الآخرة أكثر مما ينقصن من الدنيا، وإن الشح والفحش والبذاء من النفاق، وإنهن يزدن في الدنيا، وينقصن من الآخرة، وما ينقصن من الآخرة أكثر مما يزدن في الدنيا». أي إن الحياء والعفاف وعفة اللسان من مجامع الخير، وإن الشح وفحش العمل والقول وبذاءة اللسان من مجامع الشر ورمز النفاق.

وتميز الحياء في الإسلام بميزة عظيمة وهي أنه في قمة أخلاق الإسلام، أخرج مالك وابن ماجه والبيهقي[٤] عن طلحة بن رُكانة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء».

---

(١) أي كثرة الكلام والهراء.

(٢) إسناده صحيح.

(٣) إسناده صحيح، وهو مروي أيضاً عن أبي بكرة وعمران بن حصين رضي الله عنهما.

(٤) إسناده حسن، وهو مروي أيضاً عن أنس بن مالك.

والحياء والإيمان متلازمان، إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر، لما أخرجه الحاكم والبيهقي[١] عن ابن عمر، أن النبي ﷺ قال: «إن الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

ومن الرجال الأصحاب الذي اتصفوا بخلق الحياء والحلم الأشجّ بن عبد القيس، أخرج أحمد وابن ماجه عن الحسن البصري[٢] أن النبي ﷺ قال لعابد بن المنذر، وهو الأشجّ: «إن فيك خَلّتين يحبهما الله عز وجل». قال: ما هما؟ قال: «الحلم والحياء». قال: يا نبي الله، استفدتُه من الإسلام أم شيء جبلت عليه؟ قال: «بل جبلتَ عليه». قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب.

وأخرج مسلم وابن ماجه هذا الحديث بلفظ آخر عن ابن عباس، ولفظ مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأشج بن عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحياء والأناة». ولفظ ابن ماجه: «الحلم والتؤدة».

قال الحليمي رحمه الله: والحياء اسم جامع، يدخل فيه الاستحياء من الله عز وجل؛ لأن ذمه فوق كل ذم، ومدحَه فوق كل مدح، والمذموم بالحقيقة من ذمَّه ربه، والمحمود من حمده ربه.

ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قالوا: إنا نستحي من الله يا رسول الله، والحمد لله. قال: «ليس ذاك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحى من الله حق الحياء».

---

(١) إسناده حسن.

(٢) إسناده صحيح.

والنموذج الأمثل للحياء هو النبي عليه الصلاة والسلام، أخرج البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه».

وكذلك الأنبياء السابقون كانوا رموزاً عالية للحياء، أخرج البخاري وغيره[١] عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى[٢]، إذا لم تستح فاصنع ما شئت[٣]». ومعناه أن عدم الحياء يدعو إلى الذم والاسترسال في القبائح والمعايب، وفيه دليل على أن ترك الاستحياء يؤدي إلى الضرر الشديد، كما أن ترك الحياء مجلبة لكل شر، فمن لم يستح لا حرج عليه بعد ذلك أن يصنع ما يشاء من أعمال الفجور والفسوق، وفي هذا وعيد، فإن من صنع ما يشاء يجازيه الله على كل فعل. ومثله في التهديد قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

ستر العورات والحمامات

ستر العورات من مظاهر التمدن والرقي، ومن جملة الحياء من الله عز وجل، ومن أهم حالات الستر الواجبة الستر في الصلاة، لقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١] أي عند كل صلاة، فلا تصح الصلاة مع كشف العورة، سواء الرجال أم النساء.

---

(١) أخرجه أيضاً أبو داوود وابن ماجه ومالك في الموطأ وأحمد.

(٢) ومعناه أن الحياء ممدوح على ألسن الأنبياء والمرسلين قاطبة، فالأولون والآخرون على منهاج واحد.

(٣) هذا أمر ومعناه الخبر.

ويجب ستر العورة أيضاً بالنسبة للنظر أمام جميع الناس ما عدا الزوجة، لحديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده[١] قال، قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك». قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إن استطعت ألا يرينها أحد فلا يرينها». قلت: يا رسول الله، إذا كان أحدنا خالياً؟ قال: «فالله أحق أن يستحى منه من الناس». قال: ووضع رسول الله ﷺ يده على فرجه. وفي لفظ: «فالله سبحانه أحق أن يستحيا منه..».

والمشي عراة أشد المنكرات، ولو في المسابح، لما أخرجه مسلم وأبو داوود عن المِسْور بن مَخْرمة قال: أقبلتُ بحجر أحمله ثقيلاً، وعلي إزاري، ومعي الحجر، ولم أستطع أن أضعه حتى بلغت به موضعه، فقال رسول الله ﷺ: «ارجع إلى ثوبك فخذه، ولا تمشوا عراة».

وحرَّم الإسلام النظر إلى العورات عورة الرجل أو عورة المرأة، بدليل ما أخرجه مسلم عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب».

وأخرج أحمد والترمذي[٢] عن محمد بن جحش قال: مرَّ النبي ﷺ وأنا معه على معمر، وفخذاه مكشوفتان، فقال: «يا معمر غطّ فخذك، فإن الفخذ عورة».

وأخرج أبو داوود وابن ماجه وأحمد والحاكم[٣] عن علي بن

(١) أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وقال: حديث حسن، وابن ماجه.
(٢) وإسناده حسن.
(٣) إسناده حسن.

أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُبرز فخذيك، ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت».

وشرط اللباس أن يكون ساتراً للعورة كلها، والكمال أن يستر جميع الجسد، لما أخرجه البخاري ومسلم والدرامي، أن أبا سعيد الخدري قال: نهى رسول الله ﷺ عن لبستين وبَيْعتين: نهى عن الملامسة والمنابذة في البيع[١]، واللبْستين: اشتمال الصماء واللبسة الأخرى[٢].

وأخرج أحمد[٣] عن عبد الله بن الحارث عن جرير الزبيدي أنه سمع رسول الله ﷺ قال عن فتية من قريش عراة لم يستحوا من الله ولا من رسوله: «سبحان الله، لا من الله استَحْيوا، ولا من رسوله استتروا».

ومن أخطر الأماكن التي يتساهل فيها في كشف العورات الحمامات، لذا أخرج الحاكم والطبراني في الكبير[٤] عن عبد الله بن طاووس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهاكم عن بيت يقال له الحمام».

وروى الحاكم[٥] عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً

---

(١) الملامسة مسّ الرجل ثوب الآخر بيده بالليل والنهار، ولا يقلبه إلا بذلك. والمنابذة أن ينبذ الرجل إلى الرجل ثوبه، وينبذ الآخر ثوبه، ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تواطؤ (توافق).

(٢) والصماء أن يجعل ثوبه على أحد عاتقيه، فيبدو أحد شقيه ليس عليه ثوب. واللبسة الأخرى احتباؤه بثوب، وهو جالس، ليس على فرجه منه شيء، واللِّبسة الهيئة والحالة.

(٣) إسناده صحيح.

(٤) إسناده حسن، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) ورواه مختصراً، من دون الجملة الرابعة البخاري ومسلم والترمذي ومالك وأحمد.

أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر من نسائكم فلا يدخلن الحمام».

ويؤكده ما أخرجه الحاكم بإسناد حسن عن عمر بن الخطاب أنه قال: أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بإزار، ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدخل الحمام».

ومن أخطر حالات التهتك ألا تستتر المرأة في غير بيتها، لما أخرجه جماعة[1] بإسناد صحيح عن عائشة قالت: أتت عائشة نساء من أهل الشام، فقالت: لعلكن من الكورة التي يدخل نساؤها الحمامات؟ قلن: نعم، قالت: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيتها، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل».

والمنع من كشف العورة عام في الحمامات وغيرها، لما أخرجه أحمد وأبو داوود والنسائي بإسناد صحيح عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيي ستِّير، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل، فليتوار بشيء».

حجاب النساء وسترهن

أوجب الإسلام على النساء الحجاب التام ما عدا الوجه والكفين، لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٣] وقوله

(١) أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجه والدارمي.

سبحانه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٢٤/ ٣١] والخمار غطاء الرأس. وقوله جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٩].

وبعد أن نزلت آية ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ قال أنس بن مالك: «فضُرب الحجاب، وقام القوم»(١) أي القوم الذين صنع لهم النبي ﷺ طعاماً في منزله.

وأخرج أبو داوود(٢) عن عائشة قالت: دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله ﷺ، وعليها ثياب شامية رقاق، فأعرض عنها، ثم قال: «ما هذا يا أسماء؟ إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه».

وأخرج البخاري(٣) وغيره عن ابن عباس قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال».

وأخرج مسلم ومالك عن أبي هريرة: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البُخت، لا يدخلْن الجنة، ولا يجدن ريحها، وريحها توجد من مسيرة خمس مئة عام». لكن عبارة مسلم: «وريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

ويؤكده حديث رواه البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم: العاقّ بوالديه، ومدمن خمر، ومنّان، وثلاثة

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح.

(٢) وإسناده ضعيف، وهو مرسل منقطع.

(٣) وأبو داوود والترمذي وابن ماجه وأحمد، ورواه البيهقي عن أبي هريرة قال: «لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل».

لا يدخلون الجنة: الرجل لبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لِبْسة الرجل، والدُّيوث».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: رأى النبي ﷺ امرأة عليها نَعْل، فلعن الرَّجُلة من النساء، أي المترجلة، والنعل للرجل.

وفي حديث عند البيهقي عن أبي هريرة قال: بينما النبي ﷺ جالس على باب من أبواب المسجد، مرَّت امرأة على دابة، فلما حاذت النبي ﷺ عَثَرْت بها[١]، فأعرض النبي ﷺ وتكشّفت، فقيل: يا رسول الله، إن عليها سراويل، فقال: «رحم الله المتسرولات».

وأما الطيب ففرق بين طيب الرجل وطيب المرأة، لما أخرجه جماعة[٢] عن أنس بن مالك قال: أتى رسول الله ﷺ قوماً يبايعونه، وفيهم رجل بيده خَلُوق (طيب) فجعل يبايعهم، ويؤخره حتى جعله آخرهم، وقال ﷺ: «إن طيب الرجال ما خفي لونه وظهر ريحه، وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه». وأخرج مسلم عن زينب الثقفية امرأة ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال لها: «إذا خرجت إلى العشاء الآخرة فلا تمسي طيباً»[٣].

وأخرج أبو داوود وغيره[٤] عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية وكل عين زانية».

وفي قضايا التجميل أخرج البخاري ومسلم وغيرهما[٥] عن ابن عمر

---

(١) أي عثرت الدابة بالمرأة، فأوقعتها.
(٢) هم أحمد وأبو داوود والترمذي والنَّسائي.
(٣) وأخرجه أيضاً النسائي ومالك وأحمد.
(٤) وهم الترمذي والنسائي والدارمي وأحمد، وأوقفه الدارمي .
(٥) وهم أبو داوود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، وأحمد.

أن النبي ﷺ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة». أي فاعلة وصل الشعر والوشم المعروف. وهو أيضاً عن أبي هريرة عند البخاري.

وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم وغيرهما[1] عن ابن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيِّرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أَسَد يقال لها: أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديث بلغني عنك أنك لعنتَ الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيِّرات خلق الله؟ فقال عبد الله بن مسعود: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهي في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأتُ ما بين لوحي المصحف، فما وجدتُه، فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٥٩/٧]. قالت المرأة: ولكني أرى شيئاً على امرأتك الآن. قال: اذهبي فانظري، قال: فذهبت فنظرت، فلم تر شيئاً قالت: ما رأيت شيئاً، فقال عبد الله: أما لو كان ذلك لم نجامعها.

وحذر النبي ﷺ من فتنة الدنيا والنساء، روى أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً بعد العصر، فقال في خطبته: «ألا إن الدنيا خضِرة حلوة، وإن الله عز وجل مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة كانت في بني إسرائيل من قِبَل النساء، حتى إن المرأة القصيرة كانت تتخذ الخفين من الخشب، فتحاذي المرأة الطويلة، وحتى إن المرأة كانت تحشو خاتمها من أطيب المسك، فإذا مرَّتْ بنادي القوم حركت خاتمها، فإذا وجد ريحها سألوا عنها».

---

(١) وهم أبو داوود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد وابن حبان.

وفي حديث مرسل رواه البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لأن تصلي المرأة في بيتها خير من أن تصلي في حجرتها، ولأن تصلي في حجرتها خير من أن تصلي في الدار، وأن تصلي في الدار خير من أن تصلي في المسجد»[1].

(١) إسناده ضعيف.

الأصل الرابع والخمسون من أصول الإيمان

بر الوالدين

أراد الإسلام وتشريعه جعل الأسرة المسلمة متينة صلبة، نسيجها الود والاحترام والرحمة والتعاون، ولحمتها وأساسها بر الوالدين في الصغر والكبر، وذلك في نصوص تشريعية آمرة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فمن آي القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ٦/١٥١] وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣] الآيتان. وقوله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨/٢٩] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ٤٦/١٥].

ورد في السنة النبوية الثابتة ما يؤيد ذلك منها ما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «الصلاة لوقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وأخرج مسلم عن عبد الله بن عمر قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أريد الجهاد، فقال: «أحيٌّ والدك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد».

وفي رواية أخرى لمسلم:... قال: «تبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وأخرج أحمد وأبو داوود وغيرهما[١] عن عبد الله بن عمرو، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئت أبايعك، وتركت أبواي يبكيان. قال: «ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما».

فالإحسان إلى الوالدين فريضة، وحسن الصحبة واجب، وإدخال السرور على قلبيهما لازم، وإرضاؤهما سبب لرضا الله تعالى، لما أخرجه البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «رضا الله من رضا الوالدين وسخط الله من سخط الوالدين».

وترتيب الأولوية في البر بين الأبوين بتقديم الأم ثم الأب، أخرج مسلم والبخاري وغيرهما[٢] عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أي الناس أحق مني بحسن الصحبة؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك».

وترتيب البر بين الأقارب واضح فيما أخرجه أحمد، والنسائي مختصراً، عن أبي رمثة التيمي قال: أتيت النبي ﷺ وهو يخطب، وهو يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك». ثم جاء ناس من بني يُرْبوع حتى دخلوا المسجد، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، مولاة يربوع قتلتْ فلاناً. فقال: «لا تجني نفس على أخرى».

يؤيده ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد وغيره[٣] عن المقدام بن

---

(١) وهما النسائي وأحمد.

(٢) وهما أحمد وابن ماجه.

(٣) أي وابن ماجه والحاكم والطبراني في الكبير وأحمد، قال السيوطي: حديث حسن.

معدي كَرِب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب».

ومقام الوالد عظيم، أبانه ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يجزي الولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه». وأخرج أحمد في مسنده والترمذي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد باب من أبواب الجنة، أو أوسط أبواب الجنة، احفظ ذلك أو ضيِّعْه».

وإذا كان أمر الوالد بطلاق زوجة الابن حقاً وصحيحاً وجب الامتثال له، لما أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن عن حمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: كانت لي امرأة كنت أحبها، وكان أبي يكرهها، فقال لي: طلقها، فأتيت بأبي رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له، فقال: «طلِّقها». فطلَّقها.

ويكون بر الوالدين سبباً لتفريج الكرب، كما ورد فيما أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في قصة الثلاثة الذين باتوا في غار في جبل بسبب المطر، فبينما هم فيه حطت صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله سبحانه بصالح أعمالهم، وكان أحدهم مكث على باب الوالدين ليلاً ينتظر يقظتهما دون إزعاج لهما من نومهما حتى أضاء الفجر، فقال: «اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، ففرَّج لهم فُرجة فرأوا السماء...» الحديث.

وأخبر النبي ﷺ فيما أخرجه البيهقي عن ابن عمر أن السعي من أجل الوالدين في سبيل الله. وأخرج البيهقي[1] أيضاً عن أنس بن مالك قال:

(١) وابن ماجه والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي، وقال السيوطي: حديث صحيح.

قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يُمد الله في عمره، ويزيد في رزقه، فليبر والديه، وليصل رحمه».

عقوق الوالدين

إن أعظم إساءة لأحد الوالدين أو لكليهما هو العقوق والتجهم في الوجه، وقبح القول وسوء الفعل، سواء أكان القول بسيطاً مثل كلمة «أف» التي تعني التضجر فهي مفتاح التعابير السيئة والتي قد لا يتنبه لها الولد، ولكن تدل على ما في نفسه من ضجر ومضايقة بوجود الوالد أو الوالدة، وتدل أيضاً على المتابعة والإصرار في عصيانهما والتفريط بما ينبغي لهما من الاحترام والإكبار، والتواضع والأدب، والإنفاق والإحسان، لذا بدأ القرآن الكريم بتحريم هذه اللفظة التي تستتبع جنايات أخرى، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٣-٢٤].

ويعد عقوق الوالدين في شريعة الإسلام الخلقية من الكبائر والموبقات، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور». فما زال يقولها، حتى قلنا: لا يسكت[1].

---

(١) ومثله ما أخرجه السبعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) إلا أبا داوود، وأخرجه البيهقي عن أنس بن مالك.

وأشد من هذا ما أخرجه مسلم والنسائي وأحمد عن أبي الطفيل قال: سئل علي رضي الله عنه: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: ما خصنا بشيء لم يعم به الناس كافة إلا ما كان في قراب سيفي هذا، وأخرج صحيفة، فإذا فيها مكتوب: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض[1]، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى مُحْدِثاً». أي مبتدعاً.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما[2] ما يؤيد هذا عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه». قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وخص النبي ﷺ الحديث عن عقوق الأمهات لاستضعافهن، فيما أخرجه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة فيما كتب لمعاوية، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى حرَّم ثلاثة، ونهى عن ثلاثة: عقوق الأمهات، ووأد البنات، ولا وهات، ونهى عن ثلاثة: قيل وقال، وإضاعة المال، وإلحاف السؤال»[3].

ويترتب على جناية عقوق الوالدين الحرمان من دخول الجنة، لما أخرجه النسائي والدارمي وأحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا منّان».

يؤكده ما أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كلاهما، فلم يدخل الجنة».

---

(١) أي علامتها الدالة على ملكيتها بإحياء الموات ونحوها.
(٢) هذا لفظ البخاري، وأخرجه أيضاً أبو داوود والترمذي وأحمد.
(٣) وهذا لفظ مسلم، لكن في رواية البخاري: ومنع وهات.

ودعاء الوالد على ولده مستجاب وكذلك الدعاء له، لما أخرجه البخاري في الأدب المفرد وغيره[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات: دعاء الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر».

ومن الآداب مع الوالد ما أخرجه البيهقي عن طاووس قال: إن من السنة أن يوقر أربعة: العالم، وذا الشيبة، والسلطان، والوالد. وأخرج أيضاً أن أبا هريرة رأى رجلاً يمشي بين يدي أبيه، قال: «ما هذا منك؟» قال: أبي، قال: «فلا تمش بين يديه، ولا تجلس حتى يجلس، ولا تدْعُه باسمه، ولا تنتسب له». أي انتسب منه حقيقة لا في الظاهر.

وقصة جريج مشهورة حيث تكلم بطلب منه صبي في المهد، كما تكلم عيسى بن مريم عليه السلام، وتكلم في المهد أيضاً صبي وهو يرضع من ثدي، أما قصة جريج العابد فرواها مسلم للدلالة على فضل برّ الأم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«كان جريج يتعبد في صومعته، فجاءته أمه، فقالت: يا جريج، أنا أمك كلمني. قال أبو هريرة: جعل رسول الله ﷺ يصف لنا صفتها، حتى قالت هكذا، ووضع يده اليمنى على جبينه هكذا. وقال الراوي موسى بن إسماعيل في حديثه: ووضع سليمان بن المغيرة (أحد الرواة) يده اليمنى على حاجبه الأيمن، وأما شيبان، فقال في حديثه: ووصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة، يصف رسول الله ﷺ أنه حيث دعته، كيف جعلت كفَّها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها تدعوه. فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني، فصادفته يصلي، قال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، فرجعت، ثم أتته الثانية فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني. قال: فصادفته

---

(١) وهم أبو داوود والترمذي وابن ماجه وأحمد، لكن إسناده ضعيف، وهو حديث منقطع في أحد رواياته، ومتصل في رواية أخرى.

يصلي، قال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته، ثم أتته الثالثة، فقالت: يا جريج أنا أمك كلمني، فصادفته يصلي، قال: اللهم أمي وصلاتي، فاختار صلاته.

فقالت: اللهم إن هذا جريج، وإنه ابني، وإني قد كلَّمته، فأبى أن يكلمني. اللهم فلا تمته حتى تريه الموسمات. قال: ولو دعت عليه أن يفتن لفُتن.

قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية، فوقع عليها، فحملت، فولدت غلاماً. فقيل لها: ممن هذا؟ قالت: من صاحب هذه الصومعة.

وقال موسى بن إسماعيل: من صاحب هذا الدير؟ فأقبلوا عليه، قال: فجاءوا بفؤوسهم ومساحيهم، فنادوه وصادفوه يصلي، فلم يكلِّمهم فأخذوا يهدمون ديره، فلما رأى ذلك نزل إليهم، فقالوا له: سل هذه، فمسح رأس الصبي، أو فتبسم ثم مسح رأس الصبي، وقال: من أبوك؟ قال: أبي راعي الضأن، فلما سمعوا ذلك منه، ورأوا ما رأوا، قالوا: نحن نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة، قال: لا، ولكن أعيدوه تراباً كما كان. ثم علاه».

بر الأبوين بعد الموت

ليس من البر الإحسان إلى الأبوين في حال الحياة فقط، ونسيانُهما بعد وفاتهما، وعدم ذكرهما والدعاءِ لهما والتصدقِ من أجلهما، لما لهما من منزلة عظيمة على الإنسان في الإنجاب والتربية والإنفاق سنوات حتى الكِبر والاستغناء بالكسب الخاص، لذا سُنَّ في

الإسلام تكرار الدعاء لهما في الصلاة وغيرها بالقول: «رب اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربَّياني صغيراً».

وصريح المطالبة بالبر بعد موت الأبوين ما أخرجه أبو داوود عن أبي أُسيد الساعدي مالك بن ربيعة، وكان بدرياً ﷺ قال: بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سَلِمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بِرّ أبوي شيء أبرّهما به بعد موتهما؟ فقال: «نعم، الصلاة عليهما[١]، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما».[٢]

ومن ألوان البر وأمثلته الرائعة صلة أصدقاء الوالدين بعد الوفاة، كما تقدم، وكما في حديث ابن عمر ﷺ الذي أخرجه مسلم وغيره[٣] أنه (ابن عمر) كان في سفر، فمر به أعرابي، فقال: ألست فلان بن فلان؟ قال: بلى، فأعطاه حماراً، كان إذا ملَّ راحلته يتروح بركوبه، وعمامتَه، وكان يشدُّ بها رأسه، فلما أدبر الأعرابي، قال له بعض أصحابه: إن هذا كان يرضى بدرهم أو درهمين، فأعطيته حمارك الذي كنت تروح عليه إذا مللَت راحلَتك، وعمامتَك التي كنت تشدّ بها رأسك، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أبر الصلة صلة الرجل أهل ودّ أبيه بعدما تولى».

وروى البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الأوسط[٤] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «احفظ ود أبيك، ولا تقطعه فيطفئ الله نورك».

والصدقة تنفع الميت من الأبوين وغيرهما، لما أخرجه البخاري

(١) أي الدعاء لهما.

(٢) رياض الصالحين ص: ١٥٥.

(٣) وهم أبو داوود والترمذي وأحمد.

(٤) وإسناده حسن.

وأبو داوود والنسائي عن ابن عباس، أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمه توفيت، أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وعن ابن عباس أيضاً فيما رواه البيهقي قال: قال النبي ﷺ: «ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوث[١]، ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق، فإذا لحقته كانت أحبَّ إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله عز وجل ليُدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم»[٢].

وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: «من سرَّه أن ينظر وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمة أمره، فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥١-١٥٣]».

ومن الأمثلة النادرة لبر الأم أن رجلاً من أهل اليمن حمل أمه على عنقه، وهو يطوف بها حول البيت، وهو يقول:

إني لها بعيرُها المدلَّلُ   إذا الركابُ ذُعِرت لا أُذْعَرُ

وما حملتني وأرضعتني أكثر

(١) المتحير.

(٢) قال أبو علي الحافظ: وهذا حديث غريب من حديث عبد الله بن المبارك.

ثم قال: أتراني جزيتها؟ قال ابن عمر: لا ولا بزفرة.

ومن مقتضيات بر الأبوين بر الأخ الأكبر، روى البيهقي والطبراني في الكبير عن كثيِّر بن كليب الجهني عن أبيه عن جده - وله صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «الأكبر من الإخوة بمنزلة الأب»(١).

وروى البيهقي عن جرير بن حازم قال: رأيت في المنام كأن رأسي في يدي، فسألت ابن سيرين، فقال: أحدٌ من والديك حي؟ قلت: لا، قال: ألك أخ أكبر منك؟ قلت: نعم، قال: اتق الله وبره ولا تقطعه.

وفي بعض الأخبار المروية: «حق كبير الإخوة على صغيرهم حق الوالد على ولده»(٢).

والأبوان أصل لصة الرحم، وإن كانت غير مسلمة، بما ليس فيه معصية، لما رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سألت رسول الله ﷺ فقلت: أتتني أمي، وهي راغبة أفأعطيها؟ قال: «نعم صليها بكذا». وكانت أمها مشركة، وفيها نزلت: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨].

وروى البيهقي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت فيّ أربع آيات فذكرهن، قال: وقالت أم سعد بن أبي وقاص: أليس قد أمر الله ببر الوالدة، والله لا أطْعَمَ طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر بالله، فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها أو يسقوها، يسجُروا فاها بالعصا، وأدخلوا الطعام والشراب، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٨] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ٣١/ ١٥].

---

(١) لكن فيه الواقدي وهو ضعيف.

(٢) لكنه حديث ضعيف.

الأصل الخامس والخمسون من أصول الإيمان

صلة الرحم

شدَّد الإسلام بالنكير على من قطع الرحم، ولم يقم بالإحسان إليهم، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٢٢-٢٣] أي إنه تعالى جعل قطع الأرحام من الإفساد في الأرض، وفاعل ذلك يستحق لعنة الله، وسلب الانتفاع بسمعه وبصره، فهو كالبهيمة أو أسوأ حالاً منها يسمع دعوة الله ويبصر آياته وبيناته، فلا يجيب الدعوة ولا ينقاد للحق، كأنه لم يسمع النداء.

وقال الله سبحانه مقارناً بين جزاء واصل الرحم والقاطع: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ١٣/١٩-٢٣]. هذه الآيات تحدد جزاء واصلي الرحم وهو الظفر بالجنة.

ثم ذكر الله تعالى جزاء قاطع الرحم وهو اللعنة وجهنم: ﴿وَالَّذِينَ

يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٥].

وتوالت الأحاديث النبوية الصحيحة في الحث على صلة الرحم وتحريم القطيعة.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرحم، فأخذت بحَقْو الرحمن، فقال: مَهْ، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضَيْ أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك، ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤٧/ ٢٢-٢٤]».

وعبارة «فأخذت بحَقْو الرحمن» معناها استجارت بالله، واعتصمت به، كما تقول العرب: تعلقت بظل جناحه، أي اعتصمت به، فهو تعبير مجازي.

وأخرج مسلم في الصحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلَّقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله». وتعلق الرحم بالعرش هو أيضاً مجاز، معناه الاعتصام بالله تعالى.

يؤكده أيضاً ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً، وأحمد والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «الرحم شِجْنةٌ من الرحمن، من وصلها وصله، ومن قطعها قطعه». أي مشتقة من الرحمن، والمعنى أنها قرابة من الله تعالى مشتبكة كاشتباك العروق.

وفي لفظ آخر: «قال الله عز وجل: أنا الرحمن، أنا خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته» أي قطعته.

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري أن أعرابياً عرض للرسول ﷺ في سير له، فأخذ بخُطام الناقة أو زمامها، فقال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يقرِّبني من الجنة، ويباعدني من النار؟ قال: «تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم».

وروى الحاكم[١] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لا قُرب بالرحم إذا قُطعت، وإن كانت قريبة، ولا بُعْد بها إذا وصلت وإن كانت بعيدة».

وصلة الرحم تزيد في العمر والرزق، لما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يُبسط عليه في رزقه، وأن ينسأ له في أجله فليصل رحمه»[٢]. وقوله: «أن ينسأ» معناه التوفيق لطول العمر، لا الزيادة في الأجل.

وقطع الرحم يؤدي إلى الحرمان من دخول الجنة، لما رواه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «لا دخل الجنة قاطع». يعني قاطع الرحم.

وصلة الرحم لا تعني مجرد المكافأة فيها، ولكنها تعني الصلة إذا قطعها الآخرون، لما أخرجه أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلَّقة بالعرش، وليس الواصل المكافي، إن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها»[٣].

---

(١) وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه، ووافقه الذهبي.

(٢) ورواه البخاري ومسلم (الشيخان) أيضاً عن أنس بن مالك.

(٣) وروى الشطر الثاني منه البخاري وأبو داوود والترمذي وأحمد.

يؤكده ما رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأُحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال النبي ﷺ: «إن كان كما تقول، فكأنما تسفّهم المَلّ[1] ولا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك».

وقطع الرحم تُعجّل عقوبته في الدنيا، لما روى البيهقي عن أبي بكرة الثقفي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عز وجل لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من قطيعة الرحم».

وأشد من ذلك رفض قبول عمل قاطع الرحم، لما رواه أحمد ورجاله ثقات عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم».

وكذلك حرمان قاطع الميراث من الجنة لما روى البيهقي عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله، قطع الله به ميراثاً من الجنة». وهذا توجيه رائع في كل زمان حيث يقدم بعض المورثين إلى حرمان بعض الورثة ولا سيما البنات من حقوقهم في التركة، وهؤلاء من صلب ذوي الأرحام.

---

(١) المَلّ الرماد الحارّ، وتسفهم تصيبهم.

الأصل السادس والخمسون من أصول الإيمان

حسن الخلق

حسن الخلق- كما قال الإمام أحمد - معناه سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال.

والخلق في الواقع وعاء الدين كما ورد، وأصل أساسي من أصول الإسلام، وأنه يكاد يذهب بخيري الدنيا والآخرة. وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بصفة متميزة بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/ ٤]. وكادت رسالة النبي عليه الصلاة والسلام تقتصر على إتمام مكارم الأخلاق، لما أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم[١] عن أبي هريرة مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم الأخلاق». أو «مكارم الأخلاق» في رواية أخرى.

وكانت النخبة العالية من المؤمنين هم أحاسن الناس أخلاقاً، لما أخرجه أبو داوود وأحمد والدارمي والبزار عن أبي هريرة قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٢]. وفي رواية: «إن أكمل المؤمنين إيماناً

---

(١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وإسناده حسن.

(٢) وفي رواية لأحمد عن عائشة: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله». وهو حديث صحيح.

أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

ورواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون، وليس منا من لم يألف ولم يأتلف».

وأخرجه البخاري ومسلم وغيرهما(١) عن ابن عمر بلفظ: «خياركم أحسنكم أخلاقاً». وفي رواية ابن وهب: «إن من أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقاً».

وأخرجه البيهقي في شعبة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، وإن شراركم الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»(٢).

وأخرجه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، والطبراني عن ابن ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة أساوئكم أخلاقاً».

وأخرج الحميدي وابن ماجه(٣) من حديث أسامة بن شريك: قيل: يا رسول الله، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «خلق حسن».

وروى البيهقي عن المزني أو الجهني قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ما خير ما أعطي المسلم؟ قال: «خلق حسن». قال: فما شر ما أعطي؟ قال: «قلب أسود وصورة حسنة، وكلما نظر إلى نفسه أعجبته، فانظر ما تحب أن يذكر منك في نادي القوم، فافعله إذا خلوت».

---

(١) وهم الترمذي وأحمد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) قال السيوطي: حديث حسن.
(٣) إسناده صحيح، رجاله ثقات.

وأخرجه البزار عن عبد الله بن عمر، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً، أولئك الأكياس». أي الظرفاء العقلاء.

وأخرج مسلم في الصحيح عن النَّواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البِر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

وذكر البيهقي روايات عن عائشة وأبي سعيد الخدري يؤيد بعضها بعضاً هي: «إن العبد ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القانت الذي يصوم النهار، ويقوم الليل».

ومما يدل على مزيد الثواب على الخلق الحسن ما رواه أبو داوود وأحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق».

ومن أمثلة حسن الخلق ما رواه أبو يعلى[1] والطبراني عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟» قلت: بلى. قال: «طول الصمت، وحسن الخلق، فوالذي نفسي بيده، ما عمل الخلائق بمثلهما».

وأخرج البخاري في الأدب، وأحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال: سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يلج به الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرج». وسئل عن أكثر ما يلج به الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله، وحسن الخلق».

---

(١) ورجاله ثقات.

والتنافس والغبطة تكون في تطبيق ما جاء في القرآن، والتخلق بأربع خصال، لما رواه ابن عساكر عن ابن عمر، وقال السيوطي: حديث حسن عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: «الحسد في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فقام به، وأحل حلاله، وحرَّم حرامه، ورجل آتاه الله مالاً، فوصل به أقرباءه ورحمه، وعمل بطاعة الله، فأتمنى أن يكون مثلهما. ومن يكن فيه أربع، فلا يضره ما زوي عنه من الدنيا: حسن خليقة، وعفاف، وصدق حديث، وحفظ أمانة».

والكلمة الجامعة في بيان حسن الخلق ما جاء فيما أخرجه الحاكم(١) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الكرم ومعالي الأخلاق، ويبغض سفسافها». وفي رواية: «إن الله عز وجل يحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها».

وذكر البيهقي في دلائل النبوة ما قاله النبي ﷺ في ابنة حاتم الطائي: «خلو عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق».

وسوء الخلق يتصادم مع كل ما ذكر، لما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا يكونان في المؤمن؛ سوء الخلق والبخل».

طلاقة الوجه

من أهم واجهات الأخلاق الحسنة البشاشة، وحسن البِشْر، وطلاقة الوجه إذا كانت بصدق، لا بنفاق ودهاء، وخبث ومكر، فإن الصدق

(١) والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في الحلية، وقال السيوطي: حديث صحيح.

والإخلاص هما قاعدتا الأخلاق الكريمة، والكذب والرياء هما منبت الأخلاق السيئة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٥/٤٣].

وتعد طلاقة الوجه في أثناء اللقاء مع الآخرين عنوان الأمل والبهجة والتقدير، أخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جرير بن عبد الله قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك». وفي رواية: «إلا تبسَّم في وجهي». فكانت البشاشة ملازمة للنبي ﷺ في جميع لقاءاته.

وفي حديث أخر عند مسلم عن جرير: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل، فضرب يده في صدري، وقال: «اللهم ثبِّته واجعله هادياً مهدياً».

و أخرج الترمذي وأحمد عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: «ما رأيت أحدا أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ»(١).

ومفتاح اللقاء في أدب الإسلام التبسم وانبساط الوجه لا العبوس والتجهم، لما أخرجه مسلم وأحمد عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط». أو «بوجه طلْق». وفي رواية: «ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإذا طبخت قِدْراً فأكثر من مَرَقها، واغرف لجيرانك منها».

وأخرج مسلم وغيره(٢) عن أبي جري الهجيمي قال: أتيت النبي ﷺ على قَعود لي شددته بالمسجد ودخلت، فإذا رسول الله ﷺ في بُرْدتين له،

(١) لكن في إسناده ابن لهيعة ضعيف.

(٢) وهما الدارمي وأحمد، وبنحوه رواه البخاري والنسائي وأحمد.

فقلت: عليك السلام، فقال: «عليك السلام تحية الموتى». فقلت: إنا قوم من أهل البدو، وفينا جفاء، لتعلِّمني مما علَّمك الله، قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغ من دَلْوك في إناء المستسقي ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط». أو قال: «ولا تسبن شيئاً». قال أبو جري: فوالذي ذهب بنفس محمد ﷺ، ما سببتُ بعده شيئاً، ولا بعيراً، ولا غلاماً «وإياك والإسبال[1]، فإنها من الخيلاء، وإن الله لا يحب الخيلاء». وحدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل ممن كان قبلكم، عليه بُرْدان له، يتبختر فيهما، إذ نظر إلى عِطْفيه فأعجب بنفسه، فخُسف به، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

يؤكد ما سبق ما رواه أحمد[2] عن أبي هريرة، أنه أتى نبي الله ﷺ فقال: يا نبي الله، إذا رأيتك طابت نفسي، وقرّت عيني، فأنبئني عن كل شيء خَلَق الله؟ قال: «خلق الله كل شيء من الماء». قال: فأنبئني بعمل إنْ أحدِّث به دخلت الجنة؟ قال: «أفشِ السلام، وأطب الكلام، وصلِ الأرحام، وصلِّ بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام».

ونظام اللقاء في آداب الإسلام يبتدئ بالسلام والمصافحة، وفي ذلك ثواب للطرفين، لما رواه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان، فسلَّم كل منهما على صاحِبه، وتصافَحَا، كان أحبهما إلى الله تعالى أحسنهما بشراً لصاحبه، ونزلت بينهما مئة رحمة، للبادي تسعون، وللمصافح عشر».

وفي حديث مرسل عن الحسن البصري، أن رسول الله ﷺ قال: «من الصدقة أن تسلِّم على الناس، وأنت طلْق الوجه».

---

(١) إطالة الثوب أسفل من الكعبين.
(٢) ورجاله رجال الصحيح خلا أبي ميمونة وهو ثقة.
(٣) وهو حديث حسن.

ومن جوامع الكلم ما رواه البيهقي عن حُميد الطويل، قال ابن عمر: «البر شيء هيِّن، وجه طليق وكلام ليّن».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التوددُ إلى الناس، وأهل التودد في الدنيا لهم درجة في الجنة، ومن كانت له في الجنة درجة فهو في الجنة، ونصف العلم حسن المسألة، والاقتصاد في المعيشة نصف العيش، تكفي نصف النفقة، وركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلِّط (أي فاسد العقل)، وما تم دين مسلم قط حتى يتم عقله. والدعاء يردّ الأمر، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصدقة العلانية تقي ميتة السوء، وصنائع المعروف إلى الناس تقي مصارع السوء الآفات والمهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، والمعروف ينقطع فيما بين الناس، ولا ينقطع فيما بين الله وبين من افتعله»[١].

وروى البيهقي عن جماعة من التابعين[٢]، فقال بعضهم لبعض: أليس معنى حديث النبي ﷺ: «إن حَسَن الخلق ليبلغ درجة الصائم القائم، فاتفقوا على ثلاث: بسط الوجه، وكف الأذى، وبذل المعروف».

وأخرج البيهقي عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر».

التجاوز والعفو عن المسيء

إن التجاوز عن المسيء والعفو عنه من أعظم خصال البر والإحسان، لما يدل عليه من ترفع العافي وسموه، وتحكّمه في مشاعره ومنع نفسه من

---

(١) قال البيهقي: هذا إسناد حسن ضعيف. فيستفاد منه أنه من الحِكَم العربية.
(٢) وهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة وفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك.

الغضب، ولعل العفو يكون طريقاً لانزجار أهل السوء عن سيئاتهم وزلاتهم، وقد رغَّب القرآن الكريم في العفو في آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٩] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩] ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤].

والأخلاق النبوية الكريمة ترشد إلى الصفح والعفو والأخذ باليسر وترك الانتقام، أخرج البخاري ومسلم عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «ما خيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله بها».

وأخرج مسلم عن عائشة أيضاً قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً قط، ولا امرأة، ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله عز وجل».

يؤكده الواقع أيضاً، أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفّ قط، ولا قال لشيء مما يصنعه الخادم: لِمَ فعلت كذا وكذا، وهلا فعلت كذا وكذا»(١).

ومزية العفو كبيرة، فهي تغرس في النفس صفة العز، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه».

وتخلَّق الصحابة الكرام بهذه الصفة، أخرج مسلم عن أبي هريرة(٢) قال: استطال رجل على أبي بكر الصديق، ورسول الله ﷺ جالس،

---

(١) ورواه أبو داوود وابن ماجه والدارمي وأحمد مطولاً ومختصراً.
(٢) قال البخاري: وهو مرسل، وهو أصح.

وأبو بكر ساكت، فلما انتصر أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ، فاتبعه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، استطال علي وأنت ساكت، فلما انتصرتُ قمت، فقال: «يا أبا بكر، إنك ما سكَت كان الملَك يرد عليه، فلما انتصرتَ ارتفع الملَك وحضر الشيطان، فلم أكن لأجالس الشيطان. يا أبا بكر، ثلاث أعلم أنهن حق: ما عفا امرؤ عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً، وما فتح رجل على نفسه باب مسألة يبتغي بها كثرة إلا زاده الله بها فقراً، وما فتح رجل على نفسه باب صدقة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله كثرة».

وأخرج البيهقي عن جابر بن سليم، عن النبي ﷺ - في حديث ذكره- قال: «وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تعيّره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه».

وعند البيهقي أيضاً عن أبي الأحوص عن أبيه، سأل النبي ﷺ فقال: إن رجلا مرَّ بي فأقريته، فمررتُ فلم يقرني، أفأقريه؟ قال: «نعم».

والتسامح في المعاملات شيء مطلوب في الإسلام، ومنه فسخ البيع، روى البيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقال مسلماً - أو نادماً - عثرته، أقاله الله عز وجل يوم القيامة».[1] والإقالة فسخ البيع ونقضه.

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى عن علي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك»[2].

وروى البيهقي في شعبه عن عقبة بن عامر الجُهني قال: كنت أمشي ذات يوم مع رسول الله ﷺ، فقال: «يا عقبة بن عامر، صل من قطعك،

(١) وهو حديث صحيح.
(٢) وهو مروي أيضاً عن عائشة وأبي هريرة

وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك». ثم قال لي رسول الله ﷺ: «يا عقبة بن عامر، أمسك لسانك، وابك على خطيئتك، وليسعْك بيتك».

وسئل الأمام أحمد: ما حسن الخلق؟ قال: هو أن تحتمل ما يكون من الناس.

وكان بعض الصحابة يسمح دائماً عمن خدش عرضه وأساء إليه، أخرج مسلم وغيره عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَمْضَم؟» قالوا: وما أبو ضمضم يا رسول الله؟ قال: «كان أبو ضمضم رجل فيمن كان قبلنا إذا أصبح قال: اللهم إني أتصدق اليوم بعرضي على من ظلمني».

وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحسن خلقه، ولا يشفي غيظه، وأن يود للناس ما يود لنفسه، لقد دخل الجنة رجال بغير أعمال؟» قيل: بمَ دخلوها يا رسول الله؟ قال: «بالنصيحة لأهل الإسلام وسماحة الصدر».

وقال عمر بن عبد أوس: المخبتون[1] الذين لا يَظْلِمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وقال عمر بن عبد العزيز: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع كل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

وقال فضيل بن عياض: إذا أراد الله عز وجل أن يحب العبد، سلَّط عليه من يظلمه.

---

(١) الخاشعون لله تعالى، يقال: أخبت لله تعالى.

حسن العشرة أو المعاملة

الحياة الدنيا قاسية ومريرة في الغالب بسبب قساوة الناس وظلمهم وسوء معاملتهم، ولن تحلو الدنيا ويسعد البشر إلا بحسن المعاملة، ولطف الكلام، والإحسان في القول والفعل، وجاءت رسالات الرسل عليهم السلام من أجل تقويم اعوجاج الطباع، وتليين المواقف، وحسن العشرة للناس جميعاً، لأن الإحسان يبقى أثره، وتكون عاقبته خيراً.

وبرهان هذا التوجه هو ما نجده في السنة النبوية من توصيات وتوجيهات عملية عميمة الخير، نافذة الأثر، خالدة على مدى الدهر.

من تلك التوصيات الخالدة ما أخرجه الترمذي وغيره[1] عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يعاشر الناس، ولا يصبر على أذاهم».

ومداراة الناس ولاسيما ذوي الأخلاق السيئة صدقة، واتقاء لشرورهم، لما أخرجه البيهقي عن أبي الدرداء قال: «إنا لنبشّ في وجوه قوم ونضحك إليهم، وإن قلوبنا تلعنهم».

وأخرج الشيخان عن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فقال: «ائذنوا له فبئس رجل العشيرة أو بئس ابن العشيرة». فلما دخل ألان له القول، فلما خرج، قلت: يا رسول الله قلتَ: بئس ابن العشيرة، فلما دخل ألنت له القول؟ قال: «يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من وَدَعه الناس أو تركه اتقاء فحشه».

---

(١) رواه أيضاً أحمد والبخاري في الأدب وابن ماجه.

وأخرج البيهقي عن أبي فاطمة الأيادي قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف، مَنْ لا يجد من معاشرته بُداً، حتى جعل الله له من ذلك مخرجاً». لكن هذا معروف عن محمد بن الحنفية.

وسأل أبو الحسين الورّاق أبا عثمان عن الصحبة، فقال: الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة، والصحبة مع رسول الله ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والحرمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البِشْر والانبساط ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال بالدعاء لهم، والرحمة عليهم، ورؤية نعمة الله عليك أنه لم يبتلك بما أبلاهم به.

ومن أهم العوامل المساعدة أو الدوافع المفيدة على حسن العشرة لين الجانب وسلامة الصدر، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية، والخيلاء والكبرياء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أصحاب الشاة».

ومن أمثلة حسن المعاملة التسامح في البيع في بعض الثمن، وإمهال المعسر، لما أخرجه البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مات رجل، فقيل له: ما عملت؟ قال: كنت أبايع الناس، وأتجاوز في السِّكَّة أو في النقد، وأنظر المعسر[1]، فدخل الجنة».

يؤكده ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله عبداً سَمْحاً إذا باع، سَمْحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى».

ومن آداب النبي عليه الصلاة والسلام في المعاملة ما رواه البيهقي عن

(١) أي أمهله في الوفاء بالثمن إلى أجل.

عبد الله بن أبي أوفى يقول: كان رسول الله ﷺ يُكثر الذكر، ويُقلّ اللغو، ويطيل الصلاة، ويُقْصر الخطبة، ، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين، فيقضي حاجته.

وهناك فرق كبير بين المؤمن فهو طيب واضح سمح، والفاسق فهو خبيث لئيم، لما رواه أبو داوود والترمذي والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن غِرّ كريم، والفاجر خَبّ لئيم».

وخيار الناس وأكملهم إيماناً أحسنهم أخلاقاً، لما رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون».

وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد، والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف». وروى الدارقطني عن جابر: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس».

وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود[1] أن رسول الله ﷺ قال: «من كان هيناً ليناً سهلاً قريباً، حرَّمه الله على النار».

وجاء في حديث مرسل صحيح عن مكحول - فيما رواه البيهقي - قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون هيِّنون ليِّنون كالجمل الأنِف[2]، إن قيد انقاد، وإن أنيخ استناخ على صخرة».

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «المؤمن ليِّن، حتى يقال من لينه أحمق».

---

(١) وهو مروي أيضاً عن أبي هريرة بلفظ: «من كان هيناً ليناً قريباً حرمه الله على النار».
(٢) أنف على وزن فعِل وهو الذي عقره الخِطام (الزمام) بخشاش أو بُرّة (حلقة)، فهو لا يمتنع على قائده.

التواضع والكبرياء

الإنسان العاقل أو الواعي هو الذي يدرك حقيقة الوجود الإنساني أمام الله تعالى، ويعلم أوضاع الماضي والحاضر والمستقبل، ويحسّ من قرارة نفسه أنه جزء صغير من العالم، فيتواضع ويترك كل مظاهر العُجْب والتكبر والخيلاء، فذلك أمر مستقبح ومنبوذ في أنظار الآخرين والواقع. قال تعالى محذرًا وحاظراً في معرض بيان وصايا لقمان الحكيم لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ٣١/١٨-١٩].

وأوضح الحق سبحانه أن المتكبرين أغبياء معزولون عن المجتمع وعن إدراك معطيات الدين إدراكاً صحيحاً، فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

وأكدت السنة النبوية هذا التوجه الحميد، بالأمر بالتواضع، والنهي عن الخيلاء والتكبر، روى مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم خطيباً، فقال: «إن الله عز وجل أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد».

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، ولا عفا رجل من مظلمة إلا زاده الله عز وجل بها عزاً، ولا تواضع عبد لله إلا رفعه الله».

وروى البيهقي عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «البَذَاذة من الإيمان». أي التقشف من أصول الإيمان وقواعده ومظاهره.

وروى البيهقي أن عمر رضي الله عنه قال وهو على المنبر: أيها الناس تواضعوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضَعه الله، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلب أو خنزير».

وأخرج البيهقي أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من آدمي إلا في رأسه سلسلتان: سلسلة في السماء، وسلسلة في الأرض، فإذا تواضع العبد رفعه الملَك الذي بيده سلسلة من السماء، وإذا تجبر جذبته السلسْلة التي في الأرض».

وذكر البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكبر تعظماً وضعه الله، ومن تواضع لله تخشعاً رفعه الله». فهذا دليل عاقبة التكبر وعاقبة التواضع.

وأخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود في بيان الفرق بين التكبر وحب المظهر الحسن اللائق بين الناس، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، ولا يدخل النار من بقي في قلبه ذرة من إيمان». فقال رجل: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر من بطر الحق وغمط الناس». وبطر الحق التكبر عن قبول الحق، وغمط الناس احتقارهم.

وفي رواية أخرى عند البيهقي: «لا يدخل شيء من الكِبر الجنة». بل ويدخل المتكبر نار جهنم، لما رواه البيهقي عن عبد الله بن عمرو أنه

سمع رسول الله ﷺ يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، كبَّه الله عز وجل على وجهه في النار».

وأخرج مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر». أي صاحب عيال يترفع على الناس.

وأخرج مسلم حديثاً قدسياً عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني منهما شيئاً عذبته». وفي لفظ: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار». وهذا تعبير مجازي معناه أن الكبرياء والعظمة لله وحده، فالمتكبر من الناس ناقص العقل والوعي والإيمان، ومحروم من دخول الجنان، فإنه تبارك وتعالى يقول: «لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة»[١].

ومن علائم التكبر حب الإنسان أن يقوم الناس له تعظيماً، لما رواه البيهقي عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَّره أن يتمثل عباد الله له قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

وأخرج مسلم عن ابن عمر في بيان علامة أخرى للتكبر ألا وهي جرّ الثياب تكبراً، عن النبي ﷺ قال: «من جرَّ ثيابه من المخيلة، فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة ». أي نظرة الرحمة.

---

(١) رواه البيهقي عن أبي هريرة.

عاقبة المتكبرين

المتكبر مهما ظن أنه قوي أو ذو جاه وعزة وسلطان، فهو غبي قاصر النظر، فاقد الوعي، لأنه لا يقدِّر مفاجآت المستقبل، ولا يتعظ بمن قبله من العتاة المتجبرين، فيؤول أمره إلى النكسات والانهيار المادي والمعنوي.

فمن النكسات التي يتعرض لها صرفه عن إدراك الحق والسداد ونشوة الإيمان ونعمته، قال محمد بن أبي الورد: دون الفهم أغطية على القلوب، قد حَجَبَت الفهمَ الذنوبُ والتكبرُ على المؤمنين، قال الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٦].

ومن أعظم العبر للمتجبرين قصة قارون، حيث استعلى في الأرض بثروته وغناه وادعائه أنه أوتي الثراء بدهائه وذكائه وعلمه، فكان عاقبته كما قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨١].

ومصير المتكبر إلى الدمار، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا رجل يتبختر يمشي في بُرْدة قد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة».

ويُحرم المتكبر من رحمة الله ونظره إليه في الآخرة، روى البخاري في الصحيح عن عقبة بن سالم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من جرَّ ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة». قال أبو بكر: يا رسول الله، إن إزاري ليسترخي إلا أن أتعاهده. قال: «لست ممن يفعل ذلك خيلاء».

ويتلقى المتكبر الغضب من الله تعالى، لما رواه البيهقي أن عكرمة بن خالد بن سعيد بن العاص المخزومي لقي عبد الله بن عمر، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، إنا بنو المغيرة قوم فينا نخوة[١]، فهل سمعت رسول الله ﷺ يقول في ذلك شيئاً؟ فقال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يتعاظم في نفسه ولا اختال في مشيه إلا لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان».

والمتكبر من أهل النار، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن حارثة بن وهب يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُل جواظ[٢] مستكبر».

يؤكده ما أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ قال: «المتكبرون يحشرون يوم القيامة أشباه الذّر، في صور الناس، يعلوهم كل صغَار، ثم يؤمر بهم إلى قَصْر في جهنم يقال له بولس، فيسحبون فيه، ويسقون من طينة الخبال، من عصارة أهل النار».

وطريق التخلص من الكبر هو التسويةُ بين الغني والفقير في نظرة الإنسان، ومؤانسةُ الضعفاء، والعطفُ على المحتاجين، وعدم الترفع من ركوب الدواب، روى البيهقي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار رَدْفاً، وكان يوم خيبر على حمار، ويوم قريظة على حمار مخطوم بحبل ليف، تحته إكاف[٣] من ليف.

---

(١) النخوة الكبر والعظمة.

(٢) العُتل الجاف الغليظ، والجواظ: الغليظ الفظ. وفي رواية أبي داود (كل جعظري) وهو الفظ الغليظ.

(٣) الإكاف البرذعة وهي ما يوضع على الحمار أو البغل ليركب عليه، كالسرج للفرس.

ومن شمائل النبي عليه الصلاة والسلام الإسهام في عمل البيت، روى البيهقي عن عروة بن الزبير قال: سألت عائشة: هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: نعم،كان رسول الله ﷺ يَرْفَأ ثوبه، ويخصف نعله[١]، ويعمل في بيته، كما يعمل أحدكم في بيته.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة[٢]، ويجيب دعوة المملوك[٣].

وتأسّى الصحابة الكرام بآداب نبيهم عليه الصلاة والسلام، فكانوا يفعلون مثل فعله المتقدم، من حلب الشاة، وركوب الحمار، ولبس الشملة وهو كساء يشتمل به. ومن أمثلة ذلك تواضع عمر رضي الله عنه، قال طارق بن شهاب: لما قدم عمر بن الخطاب، عرضت له مَخَاضة[٤]، فنزل عن بعيره، ونزع موقيه[٥]، فأمسكهما بيده، فخاض في الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره، وقال: أوّه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[٦].

ومن أمثلة ذلك أن عبد الله بن حنظلة بن راهب رأى عبد الله بن سلام في السوق على رأسه حُزْمة من الحطب، فقال له: أليس قد أوسع الله

---

(١) أي يصلح ثوبه، ويخرز نعله.
(٢) يربطها بعقلها أي حبلها.
(٣) رواه البيهقي.
(٤) أي مخاضة ماء.
(٥) الموق الذي يُلبس فوق الخف.
(٦) رواه البيهقي.

عليك؟ قال: بلى، ولكن أردت أن أرفع الكبر، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر».

وكان حاتم الأصم يقول: أصل الطاعة ثلاثة أشياء: الحزن والرضا والحب، وأصل المعصية ثلاثة أشياء: الكِبْر والحرص والحسد.

ومعالجة الكبر بالتواضع، روى أبو نعيم في الحيلة عن أبي هريرة - وهو حديث حسن - عن النبي ﷺ قال: «من تواضع لله رفعه الله». أي من تذلل بالمسكنة والفقر إلى الله رفعه الله يعني بالانقطاع إليه.

وقيل لعبد الملك بن مروان: من أفضل الناس؟ قال: من تواضع عن رفعة، وزهِد عن قدرة، وأنْصَف عن قوة. وكان الشافعي يقول: أرفع الناس قدراً من لا يُرى قدره، وأكبر الناس فضلاً من لا يرى فضله.

ترك الغضب وكظم الغيظ

ما من إنسان في الغالب إلا ويعتريه الغضب، فإن كان ضيق الأفق استشاط في غضبه، وإن كان قوي الشخصية مترفعاً عن صغائر النفوس كظم غيظه، وهدَّأ نفسه، وتسامى عن الأحداث، قال الله تعالى مادحاً تاركي الغضب ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤].

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ليس الشديد بالصُّرَعة».(١) قالوا: فمن الشديد يا رسول الله؟ قال: «الذي يملك نفسه عند الغضب». وفي رواية الإمام مالك: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

---

(١) أي الذي يصرع غيره في المصارعة.

وأخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: مُرْني ولا تُكثر فلعلي أعقله. قال: «لا تغضب، فأعاد عليه، فقال: لا تغضب». أي لا تتعاط أسباب الغضب أو لا تسترسل في الغضب.

وأخرج البخاري ومسلم الحاكم في مستدركه في علاج الغضب عن سليمان بن صرد قال: استبَّ رجلان قرب النبي ﷺ، فاشتد غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقال الرجل: أمجنون تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٤١/٣٦].

فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تطرد الشيطان من ساحة الغضب.

وكذلك تغيير هيئة القعود والقيام، فإنها مُذْهبة للغيظ وكاتمة للغضب، لما رواه البيهقي من طريق أحمد بن حنبل وأبي داوود عن أبي ذر قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم، وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع».

وفي رواية أخرى عند البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وإذا أُغضب أحدكم فليجلس».

وفي رواية أيضاً: «علِّموا ويسروا ولا تعسروا، ثلاث مرات، وإذا غضبت فاسكت، وإذا أُغضبت فاسكت مرتين».

وفي خطبة ذكرها البيهقي من طريق الأصبهاني عن أبي سعيد الخدري جاء فيها: «ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الفيء، وشر الرجال من كان بطيء الفيء سريع الغضب، فإذا كان الرجل سريع الغضب سريع الفيء، فإنها بها، وإذا كان بطيء الغضب بطيء الفيء، فإنها بها».

وروى البيهقي حديثاً مرسلاً عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحُمْرة عينيه؟ فمن حسَّ من ذلك شيئاً، فإن كان قائماً فليقعد، وإن كان قاعداً فليضطجع». وفي لفظ (فليتكىء) مكان (فليضطجع).

وأخرج أبو داوود عن عطية السعدي أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، والنار تطفأ بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

وقال عكرمة من التابعين في قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٤] قال: إذا غضبت.

وروى البيهقي عن أبي عبد الله الجدلي قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ، قالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخّاباً في الأسواق، ولا يَجْزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وفي حديث مرسل حسن عن ابن أبي الحسين قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

وفائدة كظم الغيظ كبيرة، وسبب لدخول الجنة، أخرج أبو داوود عن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن يُنفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّره من أي الحور شاء». وفي لفظ: «ملأه الله أمناً وإيماناً».

وأخرج ابن ماجه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جَرَع عبد جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله عز وجل».

ومن أمثلة التسامح إقالة (فسخ) البيع عند الندم وتجاوز العثرات،

روى أبو داوود والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة»[١].

والخلاصة: يحتاج الغضب إلى علاج منعاً من تتابع آثاره، والعلاج في الإسلام كظم الغيظ، وترك الغضب وأسبابه ومضاعفاته، والاستعاذة بالله من الشيطان، والسكوت، والوضوء، والعفو والتسامح، وتغيير هيئة الجلوس والقيام، وذلك كله ثواب ورضا من الله تعالى.

العفو عند المقدرة

يُعرف الرجال بمواقفهم الجريئة والحكيمة، فإذا ما تعرض الرجل لإساءة أو أذى أو سب أو جرح كرامة أو عاطفة واعتبار، ثم كظم غيظه وسكت، وعفا عن المسيء، كان عظيم الأخلاق ومن الرجال الأشداء والحكماء، وهذا هو خلق الأنبياء والمرسلين الذين يقابلون الإساءة بالإحسان، والتنكر للجميل بالمعروف.

وهذا أيضاً من أخلاق الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٢]. ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٩] ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٩] ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

ووردت أحاديث كثيرة في فضيلة العفو عند القدرة على مقابلة الأذى بمثله، منها ما رواه البيهقي عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) وهو حديث صحيح.

«من خَزَن لسانه، ستر الله عورته، ومن كفَّ غضبه كف الله عنه عذاب يوم القيامة، ومن اعتذر إلى الله عز وجل قبل عذره». أي تاب وأناب.

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «ينادي منادٍ: من كان أجره على الله، فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه، قال لله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠]».

ومن مواقف الصحابة الكرام موقف لعمر رضي الله عنه، أن الحُر بن قيس بن حصن استأذن على عمر فأذن له، فلما دخل عليه قال: هِي، يا ابن الخطاب، ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال الحُر: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، قال: فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان عمر وقَّافاً عند كتاب الله عز وجل(١).

ومن تلك المواقف المتميزة ما روى البيهقي عن عبد الله بن محمد قال: سمعت عبد الرزاق يقول: جَعَلَتْ جارية لعلي بن الحسين تسكب عليه الماء، فتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه، فشجه، فرفع علي بن الحسين رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال لها: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة.

وفي حادثة أخرى ذكرها البيهقي أن علي بن الحسين دعا مملوكه مرتين، فلم يجبه، ثم أجابه في الثالثة، فقال له: يا بني، أما سمعت صوتي؟ قال: بلى، قال: فما لك لم تجبني؟ قال: أمنتك، قال: الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح.

وذكر البيهقي عن سعيد بن مسعود يقول: كنا في المسجد الحرام ننتظر عبد الله بن يزيد المَقرِّي، فخرج، وبيدي قلم أصلحه، فأخذ في القراءة، ووقفت أنظر في الكتاب، فانحل السكين من يدي، فأصاب رأس الشيخ، فانهار الدم، قال: فما زاد أن رفع رأسه إلي، وقال: يا بني إن أردت قتلي فأخرجني من الحرم.

وذكر البيهقي أيضاً عن محمد بن حميد ونوح بن حبيب يقولان: كنا عند عبد الله بن المبارك، فألحوا عليه، فقال: هاتوا كتبكم حتى أقرأ، فجعلوا يرمون إليه الكتب من قريب ومن بعيد، وكان رجل من أهل الرِّي يسمع كتاب الاستئذان، فرمى بكتابه، فأصاب صَلعة ابن المبارك حرفُ كتابه، فانشق وسال الدم، فجعل ابن المبارك يعالج الدم حتى سكن، ثم قال: سبحان الله، كان أن يكون قتَّالاً، ثم بدأ بكتاب الرجل فقرأه.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن من أحبِّ الأعمال إلى الله عز وجل العفو عند القدرة، وتسكين الغضب عند الحِدّة، والرفق بعباد الله. وقال عمر أيضاً: لا عفو لمن لم يقدر، ولا فضل لمن لم يقدر.

وكان عبيد بن عمير يقول في قصصه: كان يقال: من حق الجار عليك أن تعرف معروفك، وتكف عنه أذاك، ومن حق القرابة أن تصله إذا قطعك، وتعطيه إذا حرمك، وإن أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وإن أنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه[١].

---

(١) راجع شعب الإيمان للبيهقي في هذه الآثار الثلاثة ٦/ ٣١٨.

الصفح الجميل

كان النبي المصطفى ﷺ هو القمة العليا في الصفح الجميل، عملاً بقول الله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٥] قال ابن عباس في تفسير هذا الصفح: بأنه الرضا بغير عتاب.

وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلى رفعه الله»[١].

وقال السَّرِيُّ السَّقَطي: «ثلاثة من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يَخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا قدر لم يتناول ما ليس فيه»[٢].

وروي في العفو عن الخطأ عن جودان وجابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من اعتذر إلى أخيه بمعذرة فلم يقبلها منه، كان عليه مثل خطيئة صاحب المكس».[٣] أي العاشر بغير حق.

وللحاكم العفو عن أخطاء التعازير، لما روته عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أقيلوا الكرامَ عثراتِهم».[٤]وفي لفظ أخر: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود»[٥].

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي.
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان.
(٣) أخرجه أبو داوود في المراسيل، وابن ماجه في الأدب.
(٤) رواه البيهقي.
(٥) رواه أحمد والبخاري في الأدب وأبو داوود، وهو حديث حسن.

وكان الحسن البصري يقول: قال أبو الدرداء: من يُتْبِع نفسه كل ما يرى في الناس، يطُل حُزْنه، ولم يُشفَ غيظُه.

وكان محمد بن سيرين يقول: إذا بلغك عن أخيك شيء، فالتمس له عذراً، فإن لم تجد له عذراً، فقل: له عذر. وقال هشام الكلبي: قال جعفر بن محمد: إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره، فالتمس له عذراً واحداً، إلى سبعين عذراً، فإن أصبته، وإلا قل: لعل له عذراً لا أعرفه[١].

وقال وكيع بن الجراح: اعتل سفيان الثوري، فتأخرت عن عيادته، ثم عُدْته، فاعتذرت إليه، فقال لي: يا أخي، لا تعتذر، فقلَّ من اعتذر إلا كذب، واعلم أن الصديق لا يُحَاسب على شيء، والعدو لا يحسب له شيء[٢].

قال أبو الحسن الورّاق: الكرم في العفو ألا تذكر خيانة صاحبك بعد أن عفوت عنه. وقال أيضاً: اللئيم لا يوفق للعفو من ضيق صدره.

وقال ذو النون المصري: ثلاث خصال من الكرم: حسن النظر، واحتمال الزلّة، وقلة الملامة.

وكان الأصمعي يقول: سمعت أعرابياً يقول: الطمع عبد، والغنى وطن، والفقر غربة، وقد وجدنا من لذة العفو ما لم نجد من لذة العقوبة.

وقال حفص بن حميد: إذا عرفت الرجل بالمودة فسيئاته كلها مغفورة، وإذا عرفته بالعداوة فحسناته كلها مردودة عليه[٣].

دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحِكَم المنقولة عن الحكماء على أن العفو عن الإساءة جرأة، وقوة شخصية، ونفاذ بصيرة إلى

---

(١) راجع شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٢٣ في الأثرين المذكورين.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٢٤.

(٣) راجع الآثار الأربعة في شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٢٥.

المستقبل، أما مقابلة السيئة بمثلها فيحسنه كل الناس، وأثر العفو أخلد، ومجاراة المسيء بإساءته تورط وندم وقصور نظر.

قال عطاء الخرساني: ما استقصى حكيم قط، ألم تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٣].

وحفظاً للوداد بين الناس تكرر الزيارة وقتاً بعد وقت، لقوله ﷺ: «يا أبا ذر، زُرْ غباً، تزدد حباً»[١].

وقال علي بن عبيدة: الإعراض عن الصديق أبقى على المودة.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل.

وكان يقال: احتمل لمن ذل عليك، واقبل ممن اعتذر إليك.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الكيِّس العاقل هو الفطن المتغافل.

وكان ذو النون المصري يقول: ما بَعُد طريق أدى إلى صديق، ولا ضاق مكان من صديق حبيب.

وقال أعرابي: من جمع لك مع المودة الصافية رأياً حازماً، فاجمع له مع المودة الخالصة طاعة لازمة[٢].

وروى البيهقي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد القوم في السفر خادمهم، فمن سبقهم بخدمة لم يسبقوه بعمل إلا الشهادة».

---

(١) رواه البزار عن أبي ذر والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعبه عن أبي هريرة، ورواه آخرون عن ابن عمرو، وحبيب بن مسلمة الفهري، وابن عمر وعائشة، وهو حسن، وفي رواية ابن عدي في الكامل ضعيف.

(٢) راجع هذه الآثار في شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٢٧-٣٣٢.

الحلم والتؤدة

الحلم والتحلُّم، والعقل والتعقل، والتأني والتؤدة هي زينة الإنسان، ومن أعظم محاسن الأخلاق، قال الله تعالى مادحاً سيدنا إبراهيم الخليل أبا الأنبياء عليهم السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ١١/ ٧٥] والحليم من صفات الله الحسنى، قال تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٩] ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٧] ووصف الله تعالى إسماعيل الذبيح عليه السلام بالحليم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠١].

ووصف النبي عليه الصلاة والسلام الأشج بن عبد القيس بالحلم والأناة، وروى مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، أن وفد عبد القيس قالوا: يا رسول الله. وذكر الحديث، ثم قال: ولقي النبي ﷺ أشج عبد القيس، فقال: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» والأناة الحلم.

ورواية أبي داوود في السنن قال للأشج: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله عز وجل ورسوله». قال: وما هما؟ قال: «الحلم والأناة». قال: أشيء استفدتُه أم شيء جُبلتُ عليه؟ قال: «بل شيء جبلتَ عليه». فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما أحَبّ.

قال الأعمش: ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال: «التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة»[1].

(١) رواه البيهقي.

وروى الإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها قال الراوي شريح بن هانئ: ركبت عائشة بعيراً فيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال رسول الله ﷺ: «عليك الرفق، فإنه لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينتزع من شيء إلا شانه».

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، ولا يعطي على ما سواه»(١).

وروى البيهقي عن جرير بن عبد الله، أن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير». ورواه مسلم بلفظ «من يحرم الرفق يحرم الخير، أو من يحرم الرفق حرم الخير».

وروى البيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: «الرفق يُمْن، والخرق شؤم، وإذا أراد الله بأهل بيت خيراً، أدخل عليهم باب الرفق، وإن الرفق لم يكن في شيء قط إلى زانه، وإن الخَرق(٢) لم يكن في شيء قط إلا شانه، وإن الحياء من الإيمان، وإن الإيمان في الجنة، ولو كان الحياء رجلاً لكان رجلاً صالحاً، وإن الفحش من الفجور، وإن الفجور في النار، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءاً، إن الله لم يخلقني فاحشاً». وفي رواية: «والله عز وجل لم يخلقني فاحشاً».

وأخرج البيهقي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إن الهدى الصالح، والسمت(٣) الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة».

---

(١) ورواه أيضاً علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) الخَرق مصدر الأخرق وهو ضد الرفيق.
(٣) السمت هيئة أهل الخير، وهو أيضاً الطريق.

هذه كلها دلائل واضحة على حسن الحلم والأناة والترفق في الأمور كلها، وعلى قباحة أضدادها من النزاقة والتهور، والعنف أو الخَرَق أو الجهل.

ويتوِّج هذه الأخلاق ويعبر عنها الكلمة الطيبة، أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن عدي بن حاتم قال: ذكر رسول الله ﷺ النار فتعوَّذ منها، وأشاح بوجهه ثلاثاً، ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة».

وروى البيهقي حديثاً مرسلاً عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث خلال، من لم يكن فيه واحدة منهن كان الكلب خيراً منه: ورع يحجزه عن محارم الله، أو حِلْم يرد به جهل جاهل، أو حسن خلق يعيش به في الناس».

وأخرج البيهقي عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصِم». ورواية الشيخين: «إن الله يبغض الألدّ الخصم».

وروى البيهقي عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «لا تمار[1] أخاك، ولا تمازحه، ولا تواعده موعداً تخلفه».

وقال سليمان بن داوود عليهما السلام لابنه: يا بني إياك والمراء، فإن نفعه قليل، وهو يهيِّج العداوة بين الإخوان[2].

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى، إلا أوتوا الجدل». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٨].

---

(١) المراء الجدال.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٤١.

الموازنة بين فضيلة الحلم وضده

الحلم والتؤدة مصدر خير بعيد المدى للحليم المتئد في الحاضر والمستقبل، لأنه يمنع النزاع والجدل بالباطل، ولا يثير الشحناء والبغضاء، ويطفئ نار العداوة والحقد، ويريح النفس من العصبيات الضارَّة بالمشاعر والقلب، ويملأ القلب راحة وهدوءاً. أما العنف والخرق أو الحماقة والجهل فهي مجلبة للشيطان وأهوائه، وتحجب الإنسان عن الفكر الصحيح والقول السديد، والحكم الرشيد، وتفتح باب الخلافات الحادّة والتشنجات الضارة، وما يتبع ذلك من قدح وسب وضرب.

لذا وردت عدة أخبار نبوية تربي في الإنسان فضيلة الحلم وتنميها، وتحذِّر من المشارَّة، أخرج البيهقي في شعبه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مداراة الناس صدقة». وأخرج أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومشارَّة الناس فإنها تدفن الغرَّة، وتظهر العَرَّة». والغرة حسن الرجل، والعَرة العيب والخلة القبيحة.

والحلماء هم من عباد الرحمن، قال الحسن البصري في هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٣]: قال: حلماء لا يجهلون على أحد، وإن جُهل عليهم حلمُوا[1]. والهون الوقار والسكينة، وسلاماً قالوا سداداً.

وقال ذو النون المصري: العز الذي لا ذل فيه سكوتك عن السفيه، عَطَبُ السفيه بيده.

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٤٥.

وقال الأعمش: السكوت جواب، والتغافل يطفئ شراً كثيراً، ورضا المتجني غاية لا تُدرك، واستعطاف المحب عون للظفر، ومن غضب على من لا يقدر عليه، طال حزنه.

وقال الأحنف بن قيس: ثلاثة لا يتنصف بعضهم من بعض: حليم من أحمق، وشريف من دني، وبَرّ من فاجر.

وقال سفيان بن عينية: مرّ عمر بن ذر يوماً برجل يقع فيه، فقال له: يا هذا، لا تغرق في شتمنا، ودع للصلح موضعاً، فإنا لا نجد مكافأة من عصى الله فينا بمثل أن أطيع الله فيه(١).

ومن الأمثلة الرائعة موقف النبي عليه الصلاة والسلام مع بعض المسيئين، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يجلس معنا في المجلس يحدثنا، فإذا قام قمنا حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه، فحدَّثنا يوماً، فقمنا حين قام، فنظر إلى أعرابي قد أدركه، فجبذ بردائه، فحمَّر رقبته، قال أبو هريرة: وكان رداءً خشناً فالتفت، فقال له الأعرابي: احملني على بعيريّ هذين، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي ﷺ: «لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا أحملك حتى تفتدي من جَبْذَتي التي جبذتني». وكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أفتديكها، فذكر الحديث، ثم دعا رجلاً، فقال له: «احمل له بعيريه هذين على بعير شعيراً، وعلى الآخر تمراً». ثم التفت إلينا، فقال: «انصرفوا على بركة الله».

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لما نزلت سورة براءة: «بعثت بمداراة الناس»(٢).

---

(١) المرجع السابق في الآثار الأربعة ٦/٣٤٦ - ٣٤٨.

(٢) حديث غريب بهذا الإسناد، وهو ضعيف.

قال سهل بن عبد الله التُّسري: فمن خالطهم داراهم ولم يمارهم، فإن مداراتهم صدقة، ومداراة الوالد فريضة، ومداراة ذوي الأرحام سنة، ومداراة أهل البدع مداهنة، ومداراة الأحمق شرف، والشرف التغافل، والسلامة للجميع التقرب لله عز وجل.

وكان ابن مسعود يقول: ارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، واجتنب المحارم تكن من أورع الناس، وأدّ ما فرض الله عليك تكن من أعبد الناس[(١)].

وكان سليم بن زياد يقول: مكتوب في التوراة: من سالم الناس لم يسلم، ومن شتم الناس شتم، ومن طلب الفضل من غير أهله ندم. وقال عمرو بن العلاء: ما تشاتم رجلان قط إلا غلب ألأمهما.

وقال الربيع بن خيثم: الناس رجلان: مؤمن وجاهل، أما المؤمن فلا تؤذه، وأما الجاهل فلا تحاوره[(٢)].

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة بن اليمان[(٣)] أن رسول الله ﷺ قال: «فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع».

وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان من دعاء النبي ﷺ يقول: «اللهم كما حسَّنت خَلقي فأحسن خُلُقي».

---

(١) شعب الإيمان في هذا وما قبله ٦/ ٣٥١.
(٢) المرجع السابق ٦/ ٣٥٢ - ٣٥٣.
(٣) وأخرجه الحاكم عن سعد بن أبي وقاص.

الاحسان إلى الخَدَم
(أو المماليك في الماضي)

الإسلام دين الرفق والرحمة العامة الشاملة بالإنسان والحيوان والنبات، وبما أن الخدم في منزلة أدنى في عرف الناس وعاداتهم من الأسياد، أوجب الدين الحنيف الإحسان الواضح إليهم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٤/٣٦].

ومما يدل على أهمية هذه الفئة من الناس إيصاء النبي ﷺ بهم في مرضه الأخير، روى البيهقي عن أنس بن مالك قال: «كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه».

وأخرج مسلم في الصحيح حديث الجار الواجب الإحسان إليه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه يورثه، وما زال يوصيني بالمملوك حتى ظننت أنه يضرب له أجلاً أو وقتاً إذا بلغه، أُعتق».

ويؤكده ما أخرجه أبو داوود عن علي ﷺ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

قال الحليمي رحمه الله: فأوصى الله تبارك وتعالى، ثم الرسول صلوات الله عليه أمته بالمماليك كالإيصاء بالوالدين والجيران، وكالإيصاء بالصلاة، فدل ذلك على وجوب الإحسان إليهم، وترك التحامل بالجَوْر عليهم، فأول ذلك ألا يقول الواحد للذكر منهم: عبدي، بل يقول: فتاي، ولا يقول للأنثى: أمتي، بل يقول: فتاتي، وبذلك جاء الخبر نصاً عن النبي ﷺ.

جاء في صحيح مسلم والسنن الكبرى للبيهقي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، فكلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاتي وفتاي».

ويستتبع هذا ألا يكلفه ما لا يطيق، ولا يجوّعه، ولا يعرّيه، ولا يعذبه من شديد بما يشق عليه، ولا من الضرب بما ينهكه.

وفي السنن الكبرى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق».

وفي حادثة خطيرة هي ما رواه البخاري ومسلم عن المعرور بن سويد يقول: رأيت أبا ذر الغفاري وعليه حُلَّة وعلى غلامه حُلَّة، فسألناه عن ذلك فقال: إني سابيت رجلاً، فشكاني إلى رسول الله ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «أعيرتَه بأمه؟». ثم قال: «إن إخوانكم خولكم[1]، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم عليه».

---

(١) الخول الحَشَم والمملوكون.

ومن بدائع الأعمال ما رواه البيهقي في شعبه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاء الصانع بطعام قد أغنى عنكم صِرّه وذَمَاءه[1]، فليأكل معكم، وإلا فألقموه في يده، أو لتناولوه في يده».

وفي رواية البخاري: «إذا جاء خادم أحدكم بطعام فليجلسه معه، فإن لم يفعل، فليناوله أكلة أو أكلتين، أو قال: لقمة أو لقمتين، فإنه ولي حَرّه وعلاجه».

وفي قصة أخرى مثيرة ما رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: إني لأضرب غلاماً لي، إذ سمعت صوتاً خلفي: «اعلم أبا مسعود». فلم ألتفت إليه من الغضب، فلما غشيني إذا هو رسول الله ﷺ، فسقط من يدي السوط من هيبته، فقال رسول الله ﷺ: «للهُ أقدرُ عليك منك على هذا». فقلت: يا رسول الله، والله لا أضرب غلاماً لي أبداً. وفي رواية: فقلت: هو حر لوجه الله تعالى، فقال النبي ﷺ: «أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار، أو قال: لمستك النار».

وأخرج مسلم أيضاً عن سويد بن مقرِّن المزني قال: ورأى رجلاً لطم غلاماً، فقال: أما علمت أن الصورة محرّمة، لقد رأيتني وأنا سابع سبعة أخوة على عهد رسول ﷺ، وما لنا إلا خادم واحد، فلطَمه أحدُنا، فأمره رسول الله ﷺ أن يُعتقه.

وأخرج مسلم أيضاً عن زاد أن أبا عمر قال: أتيت ابن عمر، وقد أعتق مملوكاً له، فأخذ عوداً، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يساوي هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه حداً لم يأته فكفارته أن يُعتقه».

---

(١) الصِر البرد، والذَّماء الرائحة الكريهة.

الأصل الثامن والخمسون من أصول الإيمان

حق السادة على الخَدَم

على الخادم ملازمة مخدومه، وطاعته فيما يطيقه، فإذا تمرد الخادم على سيده عصى الله تعالى، لأنه تابع لسيده، وسيده حاكم عليه، وهو أمين على مال سيده، وعلى عرضه، وهو مسؤول أمام الله تعالى عن أداء أمانته. فلا يقصّر في الخدمة، ولا يهرب من أداء عمله وتنفيذ واجباته، فهذه كلها حقوق مشتركة بين السادة والخدم.

وروى مسلم في الصحيح عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما عبدٍ أبق (هرب) فقد برئت منه الذمة». وقال أيضاً: «إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة». والعبد في عصرنا هو الخادم.

وحددت الأخبار النبوية المساءلة المشتركة بين السيد وخادمه، روى مسلم وغيره عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها - زوجها - وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنهم، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

وفرار الخادم من بيت سيده موجب لغضب الله عليه، روى البيهقي في شعبه عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «ثلاثة لا تقبل لهم

صلاة، ولا ترتفع لهم إلى السماء حسنة: العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه - أسياده - والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى، والسكران حتى يصحو».

والخادم الأمين الناصح القائم بواجباته يضاعف له الثواب، لما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة الله، فله أجره مرتين».

وروى مسلم عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «نعماً للعبد أن يتوفاه الله بحسن عبادة ربه وطاعة سيده، نعماً له، نعماً له».

وتنظيم العلاقة بين الخادم والمخدوم وكذا بين الشركاء مثلاً من أصول الإسلام القائمة على رعاية الحقوق وأداء الواجبات، روى البخاري في الصحيح عن أبي أموسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «المملوك الذي يحسن عبادة ربه، ويؤدي إلى سيده الذي عليه من الحق، والنصيحة، والطاعة، له أجران: أجر ما أحسن عبادة ربه، وأجر ما أدى على مليكه الذي عليه من الحق».

وتربية الخادم أو الخادمة يطالب بها السيد أو السيدة في البيت، لما رواه البخاري عن أبي موسى أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت له جارية فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران، وأيما عبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران».

والمحسن عمله من العمال والخدم ثوابه الجنة، روى أبو داوود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار. فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد أدى حق الله ونصح لسيده، وفقير متعفف ذو عيال.

وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فسلطان مسلَّط، وذو ثروة من المال، لم يُعطِ حق ماله، وفقير فخور».

وأدب الخطاب مطلوب بين السيد وخادمه، لما أخرجه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك[١]، اسق ربك، اقض ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاتي، وفتاي، وغلامي».

وروى البيهقي عن أبي رافع قال: مرَّ بي عمر بن الخطاب، وأنا أصوع[٢] وأقرأ القرآن، قال: «يا أبا رافع لأنت خير من عمر، تؤدي حق الله وحق مواليك».

ومن عجائب مراقبة العامل لله تعالى ما رواه البيهقي عن زيد بن أسلم قال: مرَّ عبد الله بن عمر براعٍ، فقال: يا راعي الغنم، هل من شاة؟ قال الراعي: ليس ها هنا ربها، فقال له ابن عمر: تقول له: إنه أكلها الذئب، قال: فرفع الراعي رأسه إلى السماء، ثم قال: فأين الله؟ قال ابن عمر: فأنا والله أحق أن أقول: فأين الله؟ فاشترى ابن عمر الراعي، واشترى الغنم فأعتقه، وأعطاه الغنم.

---

(١) أي سيدك.
(٢) أكيل بالصاع (٢١٧٦ غم).

الأصل التاسع والخمسون من أصول الإيمان

أداء حقوق الأولاد والأهل

هذا أصل اجتماعي متين، وذو أهمية كبيرة، لأن الأهل (الزوجة) والأولاد هم قاعدة الأسرة، والمطلوب شرعاً من الرجل في بيته أن يحسن إلى أهله وأولاده، فيقوم بواجب التربية والتهذيب والتعليم والتأديب والتشغيل، لأن الولد في الأصل نعمة من الله تعالى وموهبة وكرامة، والأهل (الزوجة) عون على شؤون الحياة، وسبب السعادة، وموئل الأنس، وسبيل المودة والإحسان، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ١٦/ ٧٢]. وقال سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٩] وهذا امتنان من الله على عباده أن يهبهم الأولاد، سواء من الإناث أو الذكور، فكل من الأنثى والذكر هبة وعطية من الله تعالى، وذمَّ الله تعالى قوماً من عرب الجاهلية تسوؤهم البنات، فيتوارون من القوم لئلا يذكروهن لهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٥٨-٥٩] فكل من ولد له مولود فعليه بحمد الله تعالى على ولد ينسب إليه، ويعبد الله، ويكثر به أهل الطاعة.

وأمرنا الله تعالى بعدة أشياء للمولود:

أولها: أن يؤذَّن في أذنه اليمنى، وتقام الصلاة في أذنه اليسرى بمجرد الولادة، ليكون أول ما يسمع المولود ذكر الله تعالى وتوحيده، والإقرار برسالة رسوله، ولطرد الشيطان عنه، لما روى أبو رافع أن النبي ﷺ أذَّن في أُذُن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة[١]. ولخبر ابن السني عن الحسن بن علي مرفوعاً: «من ولد له مولود، فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، لم تضره أم الصبيان»[٢]. أي التابعة من شياطين الجن.

الأمر الثاني: أن يحنَّك المولود بتمر، فإن لم يوجد فبأي شيء حلو، يفعل ذلك من يرجى خيره وبركته، لما أخرجه الشيخان في الصحيح من حديث أبي موسى قال: ولد لي غلام، فأتيت به النبي ﷺ، فسماه إبراهيم، وحنَّكه بتمرة.

الأمر الثالث: العقيقة، وهي الذبيحة التي تذبح عن المولود، وهي في رأي المالكية شاة عن الذكر أو الأنثى، لحديث ابن عباس: أن النبي ﷺ عقَّ عن الحسن والحسين ﵄ كبشاً كبشاً[٣]. وفي رأي الشافعية والحنابلة شاتان عن الغلام، لحديث عائشة ﵂: «عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة»[٤]. وروى البيهقي في شعبه عن سمرة بن جندب أن نبي الله ﷺ قال: «كل غلام رهينة بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه ويسمى».

ويندب للوالد اختيار الاسم الحسن للمولود، لما روى أبو داوود عن

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي وصححاه.

(٢) لكنه ضعيف، ويعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، وروي مثله عند البيهقي عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو داوود، ورواية النسائي، (بكبشين كبشين).

(٤) رواه أحمد والترمذي وصححه، ورويا أيضاً مثله عن أم كرز الكعبية.

أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم».

وأفضل الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، لما رواه مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب أسمائكم إلى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن». والنهي عن التكني بأبي القاسم ثابت، ويحتمل أن يكون النهي عنه راجعاً إلى من أراد الجمع بينه وبين اسم النبي عليه الصلاة والسلام.

ويسن ختان الولد في اليوم السابع بعد الولادة، لما رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وقص الشارب، وتقليم الأظافر».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم أول من أضاف الضيف، وأول من قص الشارب، وأول من رأى الشيب، وأول من قص الأظافر، وأول من اختتن بقَدُومه ابنَ عشرين ومئة سنة»(١).

قال البيهقي: والقدوم اسم موضع.

وبعد بلوغ الولد سن التمييز وهو السابعة من العمر يسن للوالد أن ينشّىء الولد على أخلاق الصلحاء المسلمين، ويصونه عن مخالطة المفسدين.

وأن يعلّمه القرآن ولسان الأدب، ويُسمعه السنن، وأقاويل السلف، ويعلّمه من أحكام الدين ما لا غنى به عنه.

وأن يرشّده إلى ما يحمد من المكاسب التي ترد عليه كفايته.

وإذا بلغ الولد عرّفه الوالد بالدلائل التي توصله إلى معرفة الباري عز

(١) ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة، أي أنه عاش مئتي سنة.

وجل، بادئاً بالأقرب الأجلى من الدلائل، ثم إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ، ويؤمر الولد بالصلاة لسبع سنين، لحديث عبد الله بن عمرو: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع».

وتعليم الآداب الحسنة أمر مطلوب لأن الأخلاق الحسنة زينة الإنسان، روى الترمذي والحاكم عن المقدام بن معد يكَرِب أن النبي ﷺ قال: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن».

ويطلب الإحسان التام في تربية البنات، لقوله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن، واتقى الله فيهن، فله الجنة»(١).

وفي رواية محمد بن يونس عن أبي هريرة: فقال رجل: يا رسول الله، واثنتين؟ قال: «واثنتين». قال: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: «وواحدة».

والعدل في المعاملة بين الأولاد مطلوب شرعاً، لما رواه الطبراني عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في النحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف»(٢).

حقوق الزوجات (الأهل)

أوجب الإسلام في مصادره المختلفة الإحسان للأهل أو الزوجة ومعاملتها معاملة كريمة متميزة، قائمة على المودة والرحمة والتعاون

(١) أخرجه أبو داوود والترمذي عن أبي سعيد الخدري، وهو صحيح.
(٢) حديث حسن، والنحل الأعطيات.

والعشرة بالمعروف، وتحقيق التكامل المعيشي والديني والثقافي، فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١]. فهذه الآية تعبر عن مقومات نسيج العلاقة بين الزوجين، قوامها الود والرحمة والسكن والألفة والأنس. ويضاف إلى ذلك وجوب الإحسان والمعاملة الكريمة في آية أخرى هي: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٩].

ويؤكد ذلك ضرورة العيش المشترك في مظلة الخيرية المحضة، كما ورد في الحديث الحسن الذي أخرجه الطبراني عن أبي كبشة أن النبي ﷺ قال: «خياركم خيركم لأهله». وفي رواية عن عائشة عند البيهقي: «خيركم خيركم لأهله، وإني خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه، يعني لا تقعوا فيه».

وفي ضوء هذه التوجيهات كانت النساء الصحابيات مثلاً أعلى للقيم الواجب التزامها بين الزوجين، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده».

وروى البيهقي عن أبي أمامة، أن مِسْكينة جاءت معها صبيان لها، فأعطيت ثلاث تمرات، فأعطت كل واحد منهما تمرة تمرة، فبكى الصبيان فأخذت التمرة، فشقتها نصفين، فأعطت كل واحد منهما نصف تمرة، فقال رسول الله ﷺ: «حاملات والدات، رحيمات بأولادهن لو ما يعصين أزواجهن، دخلن الجنة»[١].

وعلى الزوج أن يعلّم أهله (زوجته) أحكام العشرة الحسنة، فإن

---

(١) لكن لم يسمعه سالم بن أبي الجعد عن أبي أمامة.

قصرت نبَّهها، وبصَّرها على ما تجهله، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦٦/٦] قال الحسن البصري في تفسير الآية: يأمرهم بطاعة الله، ويعلّمهم الخير. وقال علي ﷺ: علموهم وأدبوهم، أو علموا أنفسكم وأهلكم الخير.

وحذر الإسلام من التقصير أو التفريط في تقديم ما تحتاجه المرأة، لحديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»[١].

والمسؤولية عن التناصح والمحافظة على المصالح مشتركة بين الزوجين، لما رواه البخاري في الصحيح وغيره عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير راعٍ على الناس، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته».

ومن النماذج الكريمة في الإحسان إلى الأولاد وكذا الأهل ما قاله أبو الأسود الدؤلي لبنيه: أحسنتُ إليكم كباراً وصغاراً، وقبل أن تكونوا. قالوا: أحسنتَ إلينا كباراً وصغاراً، كيف أحسنتَ إلينا قبل أن نكون؟ قال: لم أضعكم موضعاً تستحيون منه. وهذه شفافية عالية، ونظرة بعيدة لمستقبل الأطفال حيث يبعدهم والدهم عن العيوب والنقائص.

والسعي على العيال أو الأهل لحفظ كرامتهم يعد لوناً من ألوان الجهاد في سبيل الله، وروى البيهقي عن ابن عمر قال: مرَّ بهم رجل، فعجبوا من جَلَده (قوته ونشاطه) فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله عز

(١) أخرج أحمد وأبو داوود والحاكم والبيهقي، وهو حديث صحيح.

وجل، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال: «إن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على ولده وصبيته، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه ليعفّها فهو في سبيل الله عز وجل». وفي رواية أخرى عن أبي هريرة: «.. ومن سعى على عياله ففي سبيل الله».

بل يعدّ أي مال أنفق على الزوجة أعظم الصدقات، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أعطيته في سبيل الله، ودينار أعطيته مسكيناً، ودينار أنفقته على أهلك، قال: الدينار الذي تنفقه على أهلك أعظمها أجراً».

والإحسان للزوجة أو الأهل من مكارم الأخلاق، لما رواه البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله». وفي حديث آخر عند البيهقي عن أبي هريرة: «خيركم خيركم لنسائه وبناته».

وتعد طاعة المرأة لزوجها في المعروف لا في المعصية سبيلاً لدوام الوفاق والألفة واستمرار العشرة، لحديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض، دخلت الجنة»[1].

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

الأصل الستون من أصول الإيمان

مودة الأتقياء وإفشاء السلام

رغَّب الإسلام ترغيباً شديداً في تعميم المحبة والمودة والسلام بين الإخوة وصفوة المؤمنين المتقين، من أجل تقوية الصلات الاجتماعية بين الناس، وزرع الثقة والأخوة والتضامن في صفوفهم، حتى يكونوا مجتمعاً قوياً متعاوناً متراحماً في السراء والضراء، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٥/ ٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٥٨]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤].

وأوضحت السنة النبوية طريق نشر المحبة بين المؤمنين، وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

وإذا فُقدت المحبة ظهرت بوادر الحسد والبغضاء مما يضعف المجتمع ويدمِّر الأمة، وروى الإمام أحمد والترمذي والضياء في المختارة عن الزبير بن العوام، أن النبي ﷺ قال: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم،

الحسد والبغضاء، هي الحالقة[١] حالقة الدين، لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أفلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». فهذه مقارنة أو موازنة بين إشاعة المحبة والمودة والقوة الاجتماعية بين المؤمنين، وبين ظهور مرض الحسد والكراهية بين الناس، مما يضعفهم ويجعلهم متخلفين.

ومن وسائل نشر المحبة غير السلام صلة الأرحام، وإطعام الطعام، والصلاة في الليل، لتصفية النفس ونقاء القلب، روى البيهقي عن عبد الله بن سلام قال: لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة أجفل[٢] الناس قِبَله، فقالوا: قَدِم رسول الله ﷺ فجئت في الناس أنظر، فلما تبيّنتُ وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فتكلم، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وصِلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتفشي السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حق المؤمن على المؤمن ست خصال: أن يسلِّم عليه إذا لقيه، ويشِّمته إذا عطس[٣]، وإذا دعاه أن يجيبه، وإذا مرض أن يعوده، وإذا مات أن يَشْهَده، وإذا غاب أن ينصحه».

ويؤكد ذلك ما رواه الشيخان في الصحيحين والبيهقي عن البراء بن عازب قال: أمرنا النبي ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: «أمرنا بعيادة

---

(١) أي المبيدة المفسدة.

(٢) بادروا مسرعين.

(٣) بأن يقول له إذا حمد الله: رحمك الله.

المريض، واتّباع الجنائز، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي، وتشميت العاطس، ونصر المظلوم، وإبرار القسم، ونهانا عن الشرب في الفضة، فإنه من يشرب فيها في الدنيا لا يشرب فيها في الآخرة، وعن التختم بالذهب، وعن ركوب المياثِر[١]، ولباس القَسِيّ[٢] والحرير والديباج والإستبرق[٣]».

وفي حديث من جوامع الكلم: «أفشوا السلام تسلموا»[٤].

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ: «يا أنسُ، إذا دخلت بيتك فسلِّم على أهلك يكثر خير بيتك، وإذا توضأت فأسبغ وضوءك يطل عمرك، ومن لقيت من أمتي فسلم عليهم تكثر حسناتك، ولا تبيتن إلا على وضوء تراك الحفظة (أي الملائكة) وأنت طاهر، وصلّ بالليل والنهار، وصلّ الضحى فإنها صلاة الأوابين، ووقّر الكبير، وارحم الصغير».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعجز الناس من عجز في الدعاء، وإن أبخل الناس من بخل بالسلام».

وأسند البخاري في التاريخ عن عثمان بن طلحة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث يَصْفين لك وُدّ أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسّع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه».

---

(١) جمع ميثَرة، وهي الحُمر التي جاء فيها النهي، فإنها كانت من مراكب الأعاجم من ديباج أو حرير.

(٢) المزين بالدراهم الزائفة أو الخشن من الثياب.

(٣) الديباج والإستبرق الحرير الكثيف أو الغليظ.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة وهو صحيح.

وروى البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «إن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضَعه بينكم فأفشوه، فإذا سلَّم الرجل على القوم كان له عليهم فضل درجة، لأنه ذكّرهم السلام، فإن هُم ردوا عليه، وإلا ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب».

وفي حديث آخر عند البيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «البادئ بالسلام بريء من الكِبْر».

وقال ابن عمر: إني لأغدو إلى السوق وما بي حاجة إلا أن أسلِّم، ويُسلَّم علي.

آداب الدخول إلى البيوت

شرع الإسلام آداباً رفيعة عند الدخول إلى المنازل، تعد في قمة التحضر والأدب واللطف، وتجنب المضايقة والأذى والمساس بالكرامة، وإيذاء الأعراض، من هذه الآداب الإنسانية العالية التي اشتملت عليها سورة النور:

- السلام على الأهل، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٤/٢٧] وتستأنسوا أي تستأذنوا، وقيل: تستبصروا، أي يكون دخولكم على بصيرة، فلا يوافق دخولكم الدار ما يكره صاحبها أن تطلعوا عليها. وفي الآية تقديم وتأخير، والمعنى حتى تسلِّموا وتستأذنوا، تقولوا: السلام عليك أأدخل؟

- تكرار الاستئذان ثلاث مرات لقول النبي ﷺ: «الاستئذان ثلاث،

فإن أذن لك وإلا فارجع»[1]. قال قتادة: كان يقال: الاستئذان ثلاث، فمن لم يؤذن له فليرجع، أما الأولى فيُسمع، وأما الثانية فيأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا.

- قرع الباب عند الاستئذان روى البيهقي عن أنس بن مالك: أن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافر.

- كيفية الوقوف على باب الدار عند الاستئذان، يندب ألا يستقبل الضيف الباب بوجهه، ولكن بجانبه، ثم يسلِّم، روى البيهقي عن عبد الله بن بُسْر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب بتلقاء وجهه، ولكن عن ركنه الأيمن أو الأيسر، يقول: السلام عليكم، وذلك أن الدور لم يكن يومئذ عليها ستور.

وروى البيهقي أيضاً عن هزيل بن شرحبيل، أن سعد بن مالك استأذن على رسول الله ﷺ، وهو في بيته، واستقبل سعد بوجهه البيت، فقال النبي ﷺ: «هكذا يا سعد؟! وإنما الاستئذان من النظر». وفي رواية: «فإنما الاستئذان من أجل البصر».

- من جاء بعدما أرسل إليه، روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه» وفي رواية: «إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فذلك إذن». أي إن الشخص المرسل إليه أو المطلوب لا يحتاج إلى إذن. لكن قال الحليمي رحمه الله: والاستئذان مع هذا، لأن الأحوال قد تتغير.

- السلام على أهل البيت أو البيت الفارغ، يندب السلام على أهل

(١) رواه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه البخاري ومسلم عن بُسر بن سعيد.

الإنسان في بيته، لحديث أنس عند البيهقي مرفوعاً: «إذا دخلت بيتك، فسلِّم على أهلك يكثر خير بيتك».

وفي حديث أبي هريرة عند البيهقي أيضاً، أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل بيته يقول: «السلام علينا من ربنا، التحيات الطيبات المباركات لله، سلام عليكم». وفي رواية: «إذا دخلت المسجد أو بيتاً ليس فيه أحد فلتقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». أو «السلام علينا من ربنا، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وأورد البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتسليمك على أهلك، فمن انتقص شيئاً منهن فهو سهم في الإسلام يَدَعُه، ومن تركهن كلَّهن فقد ولّى الإسلام ظهره».

- سلام من خرج من بيته، جاء في حديث مرسل عن قتادة قال: قال النبي ﷺ: «إذا دخلتم بيتاً فسلِّموا على أهله، فإذا خرجتم فأودعوا أهله بسلام».

- السلام عند دخول المجلس وعند القيام منه، روى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاء أحدكم إلى المسجد، وفيه القوم، فليسلِّم إذا جلس، فإذا قام فليسلِّم، ما عَملُ الأولى أولى من الآخرة».

- السلام على أهل الخيام والحوانيت (الدكاكين)، كان ابن عمر لا يدخل الحوانيت حتى يستأذن. وكذلك كان يفعل مع أهل الخيام.

- تكرار السلام على قرب العهد، روى البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من لقي أخاه فليسلِّم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو حائط أو حجر، ثم لقيه، فليسلِّم عليه».

أحكام تحية السلام

نظَّم الإسلام كيفية تحية السلام بين الناس ، حتى يكون كل إنسان على بيِّنة من أمره وسلوكه في قضايا اللقاء والفراق، وتبادل السلام، فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٤/٨٦].

وهذه تفاصيل نظام التحية في الإسلام.

- من الأولى ببدء السلام؟ أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «يسلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». وفي رواية: «يسلِّم الصغير على الكبير، والمارّ على القاعد، والقليل على الكثير».

- كيفية السلام والرد، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، في خَلْق آدم عليه السلام قال: «فلما خلقه الله، قال: اذهب فسلِّم على أولئك النفر، وهم نفر الملائكة جلوسٌ، فاستمعْ ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال: فذهب، فقال السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله».

وفي كل جملة من جمل السلام عشر حسنات، لما أخرجه أبو داوود في السنن بإسناد حسن، عن عمران بن حصين، قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فجاء رجل، فقال: السلام عليكم، فرد عليه رسول الله ﷺ وقال: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه النبي ﷺ، وقال: «عشرون». ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم

ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ، وقال: «ثلاثون». أي عشر أو عشرون أو ثلاثون حسنة. وقال ابن عباس: إن لكل شيء منتهى، وإن منتهى السلام: وبركاته.

- كراهية من قال ابتداءً: عليك السلام، روى البيهقي في شعبه حديثاً مرسلاً عن أبي تميمة الهَجْمي قال: سلَّم أبو جزي على النبي ﷺ، فقال: عليكم السلام، فقال النبي ﷺ: «عليكم السلام تحية الموتى، ولكن قل: سلام عليكم».

- الترحيب والتلبية ونحوهما، يطلب من المسلَّم عليه الترحيب بالقادم، وتقديم الضيافة له، ولا مانع أن يقول القادم: أنا فداؤك، لما رواه البيهقي عن أم هانئ قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة تستره بثوب، قالت: فسلَّمتُ، فقال: «من هذا؟» قالت: أنا أم هانئ، قال: «مرحباً بأم هانئ». وعن أبي ذرّ قال: قال النبي ﷺ: «يا أبا ذر». فقلت: لبيّك وسعديك يا رسول الله، وأنا فداؤك.

- السلام على الصبيان، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أنه مرَّ على صبيان، فسلَّم عليهم. ثم حدثنا أن رسول الله ﷺ مرّ على صبيان فسلَّم عليهم.

- السلام على النساء، يسلّم الرجل على العجائز من النساء، لا على الشواب، لما رواه البيهقي عن مبارك بن فضالة قال: سئل الحسن البصري عن السلام على النساء، قال: لم يكن الرجال يسلّمون على النساء، ولكن النساء هن يسلِّمن على الرجال. لكن لم يكن النبي ﷺ يخشى الفتنة، فلذلك كان يسلِّم على النساء، وهذا ينطبق على من وثق من نفسه بالتماسك، فليسلِّم، ومن لم يأمن نفسه فلا يسلّم، وروى أبو داوود عن أسماء بن يزيد قالت: مرَّ بنا النبي ﷺ ونحن في نسوة، فسلَّم علينا.

- ولا مانع من السلام على أهل الشر والمنافقين لإطفاء شِرتهم، قال أنس بن مالك - فيما رواه البيهقي - قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم بأهل الشِّرَّة فسلِّموا عليهم تطفأ عنكم شِرّتهم وثائرتهم»(١).

وفي حديث آخر فيه متروك حين سئل النبي ﷺ عن السلام على المنافقين، فقال: «اتقوهم بسهام الله». قالوا: وما سهام الله؟ قال: «السلام».

- السلام على أهل الذمة، يسلّم المُسْلِم على أهل الذمة بتحيتهم مثل: صباح الخير، وسعيدة، ونهاركم سعيد، لا بلفظ السلام، لما رواه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه»(٢). وفي رواية: «فإن سلّموا عليكم، فقولوا: وعليكم».

وقال قتادة: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتّبع الهدى. وعلى كل حال السلام على الكتابيين مكروه بلفظ السلام. وإذا وجد جمع مختلط من المسلمين وغيرهم في المجلس، جاز السلام على الكل، لما أخرجه الشيخان في الصحيحين أن النبي ﷺ مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود والمشركين عبدة الأوثان، فسلَّم عليهم أجمعين.

- الرد على من قال: فلان يقرأ عليك السلام، أخرج البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها: «إن جبريل يقرأ عليكِ السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله.

- سلام الواحد أو ردّ الواحد عن الجماعة، يكفي أن يسلّم أو يردّ أحد الجماعة، لما رواه البيهقي في السنن الكبرى عن علي مرفوعاً: «يجزئ

---

(١) الشِّرَّة مصدر كالشر، والثائر الهائج.

(٢) فسره بعض المعاصرين بأن ذلك لظروف أمنية معينة.

عن الجماعة إذا مروا أن يسلّم أحدهم، ويجزئ عن الجلوس أن يرد أحدهم». وفي حديث أخر رواه البيهقي في شعبه عن زيد بن أسلم يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «يسلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وإذا مرَّ القوم فسلَّم واحد منهم أجزأ عنهم، وإذا ردّ عن الآخرين واحد، أجزأ عنهم».

القيام للقادم والمصافحة والمعانقة على وجه الإكرام

لا مانع شرعاً من القيام للقادم على وجه الإكرام والبر، وقد أرشدت السنة النبوية إلى هذا في أحاديث، منها ما رواه البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ، فجاء وقال: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم». فقعد عند رسول الله ﷺ، فقال: «إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك». قال: فإني أحكم أن يُقتل مقاتلتهم. ورواه مسلم في الصحيح: فلما كان قريباً من المسجد، قال للأنصار: «قوموا إلى سيدكم».

وروى البيهقي في كتاب الفضائل عن عائشة، عن النبي ﷺ، أن فاطمة كانت إذا دخلت عليه قام إليها، فأخذ بيدها، فقبّلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل إليها قامت إليه، فأخذت بيده، فقبّلتها، وأجلسته في مجلسها. وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يدخل بيتاً قمنا له. وروى البيهقي كذلك عن واثلة بن الخطّاب القرشي قال: دخل رجل المسجد، والنبي ﷺ وحده، فتحرك له النبي ﷺ، فقيل له: يا رسول الله، المكان واسع، فقال: «إن للمؤمن

حقاً». وفي لفظ: «إن للمسلم حقاً إذا رآه أخوه أن يتزحزح له». وروى أيضاً عن جابر قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، ورجل عنده، فقام حتى قعدت، فقال النبي ﷺ: «أمك هي؟» قال: لا، قال: «أختك هي؟» قال: لا، قال: «تعرفها؟» قال: لا، قال: «رَحِمْتَها رحمك الله».

ويكره القيام للقادم تورعاً إذا كره ذلك، مخافة الكِبْر، لما رواه البيهقي عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصى، فقمت إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظّم بعضهم بعض». قال: وكأنا اشتهينا أن يدعو لنا، فقال: «اللهم اغفر لنا وارحمنا، وارض عنا، وتقبّل منا، وأدخلنا الجنة، ونجنا من النار، وأصلح لنا شأننا كله».

وروى البيهقي عن معاوية أن النبي ﷺ قال: «من أحب أن يَمثُل له الرجال قياماً(١)، فليتبوأ مقعده من النار».

وأوضح أبو سليمان الخطابي رحمه الله المعنى بقوله: هو أن يأمرهم بذلك، ويلزمهم إياه على مذهب الكبر والنخوة. وأضاف الخطابي قائلاً: وفي حديث سعد بن معاذ دلالة على أن قيام المرء بين يدي الرئيس الفاضل، والوالي العادل، وقيام المتعلم للعالم مستحب غير مكروه. قال البيهقي: وهذا القيام يكون عل وجه البر والإكرام، كما كان قيام الأنصار لسعد، وقيام طلحة بن عبيد الله لكعب بن مالك، ولا ينبغي للذي يقام له أن يريد ذلك من صاحبه، حتى إن لم يفعل حنق عليه أو شكاه أو عاتبه.

أما المصافحة للإكرام فمباحة، لما رواه البخاري في الصحيح أن أنس بن مالك كان يصافح، وكان الحسن البصري يصافح. قال قتادة: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم.

---

(١) أي يقوم وينتصب من بين يديه.

وأخرج ابن عدي في مصنفه عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «ما من عبدين متحابين في الله يستقبل أحدُهما صاحبه، فيتصافحان ويصليان على النبي ﷺ إلا لم يتفرقا حتى تغفر ذنوبهما ما تقدم منها وما تأخر». وفي رواية: «ما من متحابين تلاقيا فتصافحا إلا تحاتّت ذنوبهما كما يتحاتّ ورق الشجر».

وفي حديث آخر عن البيهقي عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان فتصافحا، فحمدا الله، واستغفراه غفر لهما».

وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان، فتصافحا، نزلت عليهما مئة رحمة، للبادئ منهما تسعون، وللمصافح عشرة».

وروى أبو داوود عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا».

أما المعانقة فمكروهة، لما رواه الترمذي وقال: حديث حسن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه، أينحني له؟ قال: «لا». قال: أفيلتزمه ويقبّله؟ قال: «لا». قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم».

وأما تقبيل اليد فمشروع، لما رواه أبو داوود عن ابن عمر رضي الله عنهما في قصة قال فيها: فدنونا من النبي ﷺ فقبّلنا يده. وروى البيهقي عن عمر أنه كلما قدم الشام، استقبله أبو عبيدة بن الجراح، فقبّل يده.

وروى البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة، استقبله النبي ﷺ، فقبّله بين عينيه.

وإكرام الضيف مشروع ومندوب، لما للضيافة في التحاب والتآلف من

أثر عظيم، وورد في ذلك أخبار صحيحة، ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمُت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه». وروى البيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وكونوا إخواناً كما أمركم الله عز وجل».

العلاقات الودية بين المؤمنين

أكد الإسلام على تقوية العلاقات الودية وتنميتها بين أهل الإيمان، ليتحقق بينهم وحدة الانتماء والإخاء، وليكونوا صفاً واحداً أمام الأعداء، ووسائل إيجاد المودة والتضامن كثيرة مادية ومعنوية.

فمن الوسائل المادية لزرع المحبة إطعام الطعام، وتبادل الهدايا، وتقديم الإحسان، وكثرة أعمال البر والخير، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠] وأخرج الإمام أحمد، ومسلم في الصحيح عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم مَثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وفي حديث آخر متفق عليه بين الشيخين، وكذا الترمذي والنسائي عن النبي ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن أمثلة التوادد إطعام الطعام بحسب اليسر والحال، لما أخرجه ابن ماجه في الأدب عن حمزة بن صهيب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيركم من أطعم الطعام».

وأخرج البيهقي في شعبه عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: «من أطعم مؤمناً حتى يُشبعه، أدخله الله من باب من أبواب الجنة، لا يدخله إلا من كان مثلَه».

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في السنن وابن عدي عن أبي هريرة قال: «تهادوا تحابوا». وأخرج البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الملأ، تهادوا فإن الهدية تذهب بالسخيمة[١]، ولو دعيت إلى كُراع[٢] أو ذراع[٣] لأجبتُ، ولو أهدي إلي كراع أو ذراع لقبلت».

والإحسان العام والخاص يجتذب الأصدقاء، لما رواه ابن عدي عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، وبُغْض من أساء إليها».

والتوادد يتطلب الترفع عن الحسد والبغضاء المنهي عنهما في السنة النبوية، لما أخرجه مسلم في الأدب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».

والغاية من المحبة الأخوية إرضاء الله تعالى، لا لمنفعة مادية أو معنوية، روى مسلم في الصحيح والبيهقي في شعبه حديثاً قدسياً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي».

وروى البيهقي أيضاً في شعبه عن معاذ بن جبل قال: سمعت

(١) الضغينة.
(٢) ظلف الشاة.
(٣) شك من الراوي: عائذ بن شريح.

رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ، والمشاورين فيّ».

وروى البيهقي في الأسماء والشعب عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وذكر منهم: ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه». وفي رواية: «من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله عز وجل». وأخرج الطبري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: إن من عبادي لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس». ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٦٢].

وأخرج الشيخان في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يقذف في النار أحبُّ إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ،وأن يحب الرجل العبد لا يحبه إلا لله».

وروى البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «أن رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصد الله على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي من هذه القرية، فقال له: هل عليك من نعمة تربُّها[1]؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله عز وجل قد أحبك كما أحببته فيه».

وإعلام المحبوب بحبه مطلوب في الإسلام، لما أخرجه البيهقي في

---

(١) أي تحفظها وتراعيها وتربِّيها كما تربي ولد الفرس.

شعبه عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه، فإنه يجد له مثلَ الذي عنده».

ومن ثمرات المحبة الخالصة لله ما رواه البيهقي أيضاً عن عائشة أن رسول لله ﷺ قال: «ثلاث أحلف عليهن: لا يجعل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له، وسهام الإسلام الصوم، والصلاة، والصدقة، ولا يتولى الله عبداً فيوليّه غيره يوم القيامة، ولا يحب رجل قوماً إلا جاء معهم، والرابعة إن حلفت عليها رجوت ألا آثم: ما لا يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله عليه في الآخرة». فقال عمر بن عبد العزيز: إذا سمعتم مثل هذا الحديث يُحدَّث به عن عروة عن عائشة فاحفظوه.

الخصال الثلاث: سهام الإسلام، وعدم تنكر العبد لسيده، والحشر يكون مع الأحبة، والرابعة: الستر على المسلم في الدنيا.

صفاء المحبة بين المؤمنين

تفرَّد الإسلام في تعاليمه القلبية بجعل المحبة بين الأصدقاء والإخوة قائمة على الصفاء والنقاء، والترفع عن المنفعة، وذلك بأن يكون الحب بين الأخوين لله عز وجل ما دامت في طاعة الله ورسوله، وأن يكون البغض منفراً بسبب الفسق والمعصية والانحراف، فهذا أنموذج فريد بين الناس، قرره الإسلام ورعاه، بدليل ما يأتي مضافاً إلى ما سبق.

أخرج أبو داوود والضياء في المختارة عن أبي أمامة الباهلي، عن النبي ﷺ قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى له، ومنع له، فقد استكمل الإيمان، وإن من أقاربكم إلي أحاسنَكم أخلاقاً».

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عاد الرجل أخاه أو زاره في الله، قال الله: طبت وطاب ممشاك، وتبوأت منزلاً في الجنة».

وقال عبد الله بن مسعود: إن من الإيمان أن يحب الرجل أخاه لا يحبه إلا لله. وأضاف قائلاً: إن هذه الآية نزلت في المتحابين في الله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٣].

ومن عجائب التأليف بين القلوب أن الله تعالى يقذف في قلوب المتحابين في عالم الأرواح شعاع المحبة، فيكون التلاقي سريعاً، أخرج البخاري عن عائشة، ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». دلّ الحديث على سرعة التلاقي بين الأرواح الصافية، والاختلاف والتدابر بين الأرواح المتناكرة أو المتغايرة.

وكان الحسن البصري يقول: ربَّ أخ لك لم تلده أمك.

وقال ابن مسعود: لا تسأل الرجل عما في قلبه لك، ولكن انظر ما في قلبك له، فإن لك في قلبه مثلَ ذلك.

ومن المؤسف أنه كثر في زماننا وجود التناقض والتغاير بين الظاهر والباطن أو بين السر والعلانية، روى البيهقي عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان قوم إخوان العلانية أعداء السريرة». قيل: يا رسول الله، وكيف يكون ذلك؟ قال: «أن يرغب بعضهم إلى بعض، ويرهب بعضهم من بعض».

وأورد البيهقي حديثاً مرسلاً وموصولاً عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحابَّ اثنان إلا كان أعظمُهما أجراً أشدَّهما حباً لصاحبه».

وقد يرفع الله العذاب عن أهل الأرض بسبب وجود ثلاثة هم كما روى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سبحانه يقول: إني لأُهمُّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتي، والمتحابين فيَّ، والمستغفرين بالأسحار صرفتُ عنهم».

وفي لفظ آخر: «يقول الله تبارك وتعالى: إن أحب عبادي إلي الذين يتحابون فيَّ، والذين يَعْمُرون مساجدي، والذين يستغفرون بالأسحار، أولئك الذين إذا أردتُ بخَلْقي عذاباً ذكرتهم، فصرفت عذابي عن خلقي».

ومن أمارات المحبة الخالصة بين الأخوين أو الصديقين الدعاء في ظهر الغيب، أخرج مسلم في الصحيح عن صفوان بن عبد الله، قال: أتيت الشام، فأتيت أبا الدرداء، فلم ألقه، فلقيت أم الدرداء، فقالت: تريد الحج العام؟ قلت: نعم، قالت: فادع لنا بخير، فإن النبي ﷺ يقول: «دعاء المسلم يستجاب لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه ملَك موكل، ما دعا لأخيه بخير إلا قال: آمين، ولك بمثل ذلك». قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثلَ ذلك.

ومن حِكَم الصالحين ما قال لقمان: يا بُنَيّ جالس الصالحين من عباد الله، فإنك ستصيب بمجالستهم خيراً، ولعله أن يكون في آخر ذلك أن تنزل الرحمة عليهم، وأنت فيهم، فتصيبَك معهم.

وقال أبو الدرداء: لن تزالوا بخير ما أحببتم خياركم، وما قيل فيكم بالحق فعرفتموه، فإن عارف الحق كعامله.

وكان الحسن البصري يقول: لا تشترين صداقة ألفٍ بعداوة واحد.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: ليس سرور يعدل صحبة الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم.

وقال سعيد بن إسماعيل الواعظ: ثلاثة أشياء من علامة الحب في الله عز وجل: بذل الشيء لصفاء المودة، وتعطيل الإرادة لإرادة الأخ للسخاء بالنفس، والمشاركة له في محبوبه ومكروهه لصحة العقد.

وروى البيهقي عن مجاهد قال: صاحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة، فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث: «إن مثل المؤمن كمثل النخلة، إن صاحبته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شأنه منافع، وكذلك النخلة كل شأنها منافع».

وكان بلال بن سعد يقول: أخ لك كلما لقيك ذكَّرك بحظك من الله، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في يدك ديناراً.

الأصل الحادي والستون من أصول الإيمان

رد السلام

إلقاء السلام سنة مندوب إليها، أما رد السلام فهو فرض على الشخص المفرد، ويكفي عن الجماعة واحد بالرد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٤/٨٦] أمر الله تعالى أن يعامل من أدى التحية بأحسن من تحيته، أو يرد تحيته عليه. ومعنى الرد: أن يدعو بمثل ما دعا، فيقول: «وعليكم السلام» أو يزيد فيقول: «ورحمة الله» أو يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». وبه ينتهي السلام. ومعنى قول القائل «السلام عليكم»: قضى الله عليكم بالسلامة مما تكرهون.

والسبب في أن رد السلام فرض، وإن كان الابتداء به تحية وبراً هو أن التسليم أمان ودعاء لآخر بالسلامة، وأنه لا يريد به شراً ولا إهانة، فيكون المسلَّم عليه (المُحيَّى) آمناً من المسلِّم، فواجب أن يكون الآخر آمناً منه، وعليه، فلا يجوز إذا سلَّم واحد على آخر أن يسكت عنه، فيكون قد أخافه وأوهمه الشر من نفسه، فلذلك وجب عليه الرد.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام برد السلام، روى البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والجلوس على الطرقات، وإن كنتم لا بد فاعلين فاهدوا السبيل، وأعينوا المظلوم، وردوا السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وأخرجه مسلم بلفظ: «إياكم والجلوس بالطرقات». قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدّ نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكفّ الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وأخرج مسلم حديثاً آخر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس تجب للمسلم على أخيه: ردّ السلام، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوات».

وأما الرد على أهل الكتاب فقال ابن عباس: إني لأرى جواب الكتاب، كما أرى حق السلام.

لكن إن قصد الكتابي بسلامه سوءاً يكتفى بالقول: وعليكم، فقد روى مسلم في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أناس من اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السام عليكم(١)، فيقول: «وعليكم». ففطنت بهم عائشة، فسَّبتهم، فقال: «مَهْ يا عائشة، إن الله عز وجل لا يحب الفحش ولا التفحش». قالت: يا رسول الله، إنهم يقولون كذا كذا، قال: «أليس قد رددتُ عليهم». فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٥٨/٨].

وفي لفظ عند الشيخين قالوا: السام عليك يا أبا القاسم، قال: «وعليكم». فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله». فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ إنما قالوا: السام عليك، قال: «قد قلت: وعليكم».

ردّ المصلي على السلام، روى البيهقي عن زيد بن أسلم بمنى، قال

---

(١) أي الموت.

عبد الله بن عمر: ذهب رسول الله ﷺ إلى مسجد بني عمرو بن عوف بقُباء ليصلي فيه، فدخلتْ عليه رجال من الأنصار يسلّمون عليه، فسألت صهيباً، وكان معه: كيف كان رسول الله ﷺ يرد عليهم حين كانوا يسلّمون عليه وهو يصلي؟ فقال صهيب: كان يشير إليهم بيده.

وعليه، كان ابن عمر في رد السلام في الصلاة يومئ برأسه، أو يشير بأصبعه.

ورد السلام لون من ألوان مكافأة المعروف، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦٠] والآية تشمل البر والفاجر، والمسلم والكافر.

روى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أولي معروفاً فليكافئه، فإن لم يقدر فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن تشبع بما لم ينل، فهو كلابس ثوبي زور». أي من لم يفعل الخير وادعى فعله فهو مزوِّر.

وروى البيهقي أيضاً عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، وإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم كافأتموه، ومن استجاركم بالله فأجيروه».

وأخرج البيهقي(١) عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا يشكرُ الله من لا يشكر الناس». وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ: «أشكر الناس لله أشكرهم للناس». وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر، والجماعة رحمة».

---

(١) هذه الأحاديث المتوالية.

وعن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من صُنع إليه معروف، فقال لصاحبه: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء».

وعن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام برسالة من الله عز وجل، فقال: يا محمد من فُعل به خير أو معروف، فإن لم يجد إلا الثناء فليثن فإن من أثنى كمن كافأ».

الأصل الثاني والستون من أصول الإيمان

عيادة المريض

شرع الإسلام بعض الأحكام الاستثنائية للضعفاء والمستضعفين، تخفيفاً عنهم، مثل الإعفاء من الجهاد في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٦١].

ومثل عيادة المريض فهي سنة مطلوبة، إيناساً له، ومجاملة، وإشعاراً له بمكانته، وتذكيراً له بربه ودعاءً له بالشفاء من المرض، فقد وردت أخبار ثابتة كثيرة في السنة النبوية في هذه المسألة، منها ما أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكُّوا العاني». أي الأسير.

وأخرج مسلم في الصحيح عن البراء بن عازب قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع، أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وردّ السلام، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، ونهانا عن حلقة الذهب أو خاتم الذهب، وآنية الذهب والفضة، والمَيْثرة[1] والقَسي[2]، والإستبرق، والحرير والديباج». أي

(١) هي المصبوغ بالحُمْرة من مراكب الأعاجم من ديباج وحرير.

(٢) المزين بالدرهم الرديء.

السميك أو الكثيف من الحرير، والإستبرق الحرير الأخضر الرقيق والثخين.

وأخرج مسلم في بيان حق المسلم على أخيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست». قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصحه، وإذا عطس فحمد الله فشمّته[1]، وإذا مرض فعُدْه، وإذا مات فاتبعه».

وأخرج مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «عائد المريض في مَخْرفة الجنة». أي في طريقها أو النخلة التي يجتنى منها. وفي رواية أخرى عن ثوبان: «إذا عاد الرجل أخاه المسلم فإنه في خُرافة الجنة حتى يرجع» أي اجتناء ثمر الجنة.

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في عيادة المريض: «إذا خرج الرجل إلى أخيه يعوده، لم يزل يخوض الرحمة، حتى إذا جلس عنده غمرته». فهذا دليل واضح على أن عائد المريض تعمُّه رحمة الله تعالى. بل تغفر له ذنوبه، لما رواه البيهقي في الشُّعَب والضياء في المختارة عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيما رجل عاد مريضاً، فإنما يخوض في الرحمة، فإذا قعد عند المريض، غمرته الرحمة». قيل: فهذا للصحيح، فما للمريض؟ قال: «تُحط عنه ذنوبه».

وعيادة المريض ترقق القلب، وتذكّر بالآخرة، لما رواه البيهقي أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «عودوا المريض، واتبعوا الجنازة، تذكركم بالآخرة».

---

(١) أي قل له: يرحمك الله.

وفي حديث قدسي أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة:

يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعُدْني. قال: أي ربّ، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض، فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عُدْته وجدتني عنده؟

ويقول: يا ابن آدم، استطعتمك فلم تطعمني. فيقول: أي ربّ، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: يقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاء يستطعمك فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته وجدت ذلك عندي؟

ويقول: يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال: فيقول: أي ربّ، وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً جاء فاستسقاك، فلم تسقه؟ أما علمت لو سقيته وجدت ذلك عندي؟».

ومن وقائع الزيارة النبوية وأصحاب النبي للمريض ما رواه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل من الأنصار، فسلَّم عليه، وأدبر الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ: «كيف أخي سعد بن عبادة؟» فقيل: هالك، فقال رسول الله ﷺ: «من يعوده منكم؟» فقام وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه، فاستأخر قوم من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه(١).

وروى البخاري في الصحيح عن جابر قال: جاء النبي ﷺ ليعودني ليس براكبِ بغل ولا برذون.

وروى البخاري عن زيد بن أرقم قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع

(١) روى البخاري في حديث أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ ركب حماراً يعود سعد بن عبادة.

كان بعيني. وروى البيهقي عن عائشة، أن سعد بن معاذ لما أصيب يوم الخندق ضرب عليه ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب.

وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم صائماً؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن أطعَم اليوم منكم مسكيناً؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة».

آداب عيادة المريض

المريض في حلة ضعف وألم وضيق ومشقة، يرجو من الله تعالى الشفاء العاجل، وينتظر من عوّاده أن يدعوا له بالشفاء العاجل وطول العمر، وزوال ما ألم به من بأس، وأن يجددوا فيه الأمل والرجاء وحسن الظن بالله تعالى، ويشدوا من عزيمته وتقوية إرادته ومعنوياته على تحمل الألم والمرض، حتى يأذن الله له بالبرء.

وهذه مجموعة آداب وتوجيهات نبوية شريفة، لها أثرها البالغ في تفريج كرب المكروب، والاتجاه نحو الشفاء، وملازمة الصبر، وحسن التوكل على الله تعالى.

وأول هذه الآداب الدعاء للمريض، أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان إذا عاد مريضاً مسح على وجهه وصدره بيده وقال: «أذهب البأس ربَّ الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقماً». قالت: فلما مرض مَرْضته التي توفي فيها جعلت آخذ بيده، فأضعها على صدره وأقول الذي كان يقوله، قالت: فانتزع يده مني، وقال: «اللهم أدخلني في الرفيق الأعلى».

وفي حادثة أخرى روى البخاري في الصحيح عن عائشة بنت سعد أن أباها قال: اشتكيت بمكة، فجاء رسول الله ﷺ يعودني، ووضع يده على جبهتي، ثم مسح صدري وبطني، ثم قال: «اللهم اشف سعداً، وأتمم له هجرته».

ويَسأَل العائد المريض عن حاله، لما رواه البيهقي عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «من تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته أو يده، فيسأله كيف هو؟ وتمام تحياتكم بينكم المصافحة».

وفي رواية أخرى: «عائد المريض يخوض في الرحمة، وإن من تمام العيادة أن يمدَّ يده إلى المريض». وفي رواية: «من تمام عيادة أحدكم أخاه أن يضع يده عليه، فيسأله كيف أصبح، كيف أمسى».

والترويح عن المريض أدب عالٍ وفيه جدوى كبيرة إن كان في الأجل بقية، لما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلتم على المريض، فنفِّسوا له في أجله، فإن ذلك لا يرد شيئاً، وهو يطيِّب نفس المريض»[(١)].

وتكون عيادة المريض بعد ثلاثة أيام من بدء مرضه، لأن النبي ﷺ ـ فيما رواه البيهقي ـ كان لا يعود مريضاً إلا بعد ثلاث.

وتتكرر عيادة المريض على فترات زمنية، وتكون خفيفة، لما رواه البيهقي عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «أعظم العيادة أجراً أخفها، والتعزية مرة». وعن سعيد بن المسيب قال: إن أعظم العيادة أجراً أخفها قياماً. وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «العيادة فُوَاق ناقة». أي بمقدار ما تحلب ويشرب لبنها.

---

(١) حديث ضعيف.

ويترك المريض على حاله دون إكراهه على الطعام والشراب، لما رواه البيهقي عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن الله يطعمهم ويسقيهم».

وتتفق النظرية الطبية الحديثة بعدم الحمية مع قول عائشة: «لا تحموا المريض شيئاً».

وتقرأ سورة يس على المحتضر، لما رواه البيهقي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوها عند موتكم». يعني سورة يس.

ويلقَّن الشهادتين من غير إلحاح عليه بها، ولكنها تذكر عنده لعله يتلقنها.

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لقّنوا موتاكم لا إله إلى الله».

وروى البيهقي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، وجبت له الجنة». أو «دخل الجنة».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «حضرَ مَلك الموت رجلاً يموت، فشق أعضاءه، فلم يجده عمل خيراً، ثم شق قلبه، فلم يجد فيه خيراً، ثم قدَّ لَحْييه، فوجد طرف لسانه لاصقاً بحنكه يقول: لا إله إلا الله، قال النبي ﷺ: فغُفر له بكلمة الإخلاص». قال: وقال رسول الله ﷺ: «أمر الله بعبد إلى النار، فلما وقف على شفيرها، التفت، فقال: أما والله إن كان ظني بك لحسن، فقال الله: ردّوه فأنا عند حسن ظن عبدي بي».

ويكره للمريض الشكوى إلى غير الله، وروى البيهقي في باب الصبر مرفوعاً: قال الله تبارك وتعالى: «إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يشكني إلى عوّاده، أطلقته من إساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل».

الأصل الثالث والستون من أصول الإيمان

الصلاة على الميت المسلم

للميت المسلم حقوق على الأحياء من تكفين وتجهيز، وغسل، وصلاة وتشييع، ودفن وتعزية.

أما التكفين والتجهيز ففرض للميت، والسنة تكفينه بثلاثة أثواب بيض إن كان رجلاً، وبخمسة إن كانت امرأة بزيادة خمار الرأس وخرقة لربط الثديين.

وكذلك غسل الميت غير الشهيد فرض(١)، ولمن يغسله ثواب عظيم، لما رواه البيهقي عن أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «من غسَّل ميْتاً فكتم عليه، غفر له أربعين مرة، ومن كفّن ميتاً كساه الله من سُندس وإستبرق الجنة، ومن حفَر لميت فأجنَّه فيه، أجري من الأجر كأجر مسكن أُسكنه إلى يوم القيامة».

ويتولى دفنه أقرب الناس للميت، لما رواه ابن عدي عن عائشة رضي الله عنها: «من غسَّل ميتاً فأدى فيه الأمانة، كان من ذنوبه وخطاياه كيوم ولدته أمه. وليَلِه أقرب الناس منه إن كان يعلم، فإن كان لا يعلم فرجل ممن يرون أن عنده ورعاً وأمانة».

---

(١) يرى الجمهور غير الحنفية أنه لا يغسل الشهيد ولا يكفّن ولا يصلى عليه. وقال الحنفية: يكفّن الشهيد بثيابه ويصلى عليه، ولا يغسل إذا كان مكلفاً طاهراً.

وأما الصلاة على الميت من أهل القبلة ففرض كذلك وفيها ثواب كبير، لحديث البخاري ومسلم المتقدم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، وتشميت العاطس، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة».

وأخرج مسلم في الصحيح عن ثوبان أن النبي ﷺ قال: «من صلى على جنازة، فله قيراط، ومن شهد دفنها فله قيراطان مثل أُحُد». وسئل ابن عباس: وما القيراط؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ: «..والقيراط مثل أُحُد في ميزانه يوم القيامة».

وروى البيهقي عن سهل بن حُنيف قال: كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم.

والصلاة على الميت المسلم شفاعة له، لما رواه مسلم في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من ميت يموت، يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة، كلهم يشفعون له، إلا شُفِّعوا فيه».

وفي حديث آخر عند البيهقي عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفَّعهم الله فيه». ولا تعارض بين الحديثين في العدد، حيث لا يراد به القصر على عدد معين، فمرة أربعون ومرة مئة، بدليل حديث ميمونة فيما رواه البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يصلي عليه أمة يَشْفعون فيه إلا شُفِّعوا، قال: والأمة من أربعين إلى مئة فصاعداً».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من صلى عليه مئة من المسلمين، غفر له» أي للميت.

وكذلك يُغْفَر لمشيِّعي الجنازة، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن أول كرامة المؤمن على الله عز وجل أن يغفر لمشيعيه»(١).

وحال الميت إما مستريح أو مستراح منه، لما أخرجه الشيخان في الصحيحين عن أبي قتادة الأنصاري قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ مُرَّ عليه بجنازة فقال: «مستريح أو مستراح منه». قالوا: يا رسول الله، وما مستريح ومستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نَصَب(٢) الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الكافر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب».

وللتعزية ثواب، وفائدتها مواساة أهل الميت، لما رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من عزَّى مصاباً فله مثل أجره»(٣). وروى البيهقي والترمذي عن أبي بَرْزة قال: قال رسول الله ﷺ: «من عزّى ثَكلى كُسي بُرْداً من برود الجنة»(٤).

وأصح شيء في المعنى حديث عمرو بن حزم أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «من عاد مريضاً فلا يزال في الرحمة، حتى إذا قَعَد عنده استنقع فيها، ثم إذا قام من عنده فلا يزال فيها حتى يرجع من حيث خرج هو، ومن عزّى أخاه المؤمن بمصيبة كساه الله حُلَل الكرامة يوم القيامة».

إن أحكام الجنائز في الإسلام دليل واضح على وجود ظاهرة التكافل الاجتماعي بين المسلمين، سواء بين الأحياء أو الأموات، وذلك لأن رابطة الأخوة الإيمانية لا تنقطع بالموت، مما يحفّز المؤمن أن يدعو بالخير دائماً للمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات.

---

(١) لكنه بإسناد ضعيف.

(٢) أي تعبها.

(٣) حديث ضعيف.

(٤) هو كسابقه حديث ضعيف.

الحكمة من زيارة القبور

يتردد الناس عادة لزيارة قبور موتاهم، ولاسيما في العيدين، مع أنها غير مستحبة فيهما، لشعور الزائر بتقديم ما يدل على الوفاء والإحسان للوالدين وغيرهما، فما الغاية من هذه الزيارة؟ وهل هي مشروعة؟

يمنع بعض أتباع الفرق الإسلامية زيارة القبور، ويصفونها بالشرك، أي عبادة غير الله تعالى، وهذا خطأ محض، فإن كل مسلم لا يتجه في أي عمل يصدر منه من عبادة أو غيرها إلا لله عز وجل، فهو الرب الإله المقصود وحده في الحوائج، وليس لمسلم على الإطلاق أن يقصد في عمله غير الله تعالى، ولا أن يطلب حاجة إلا من الله تعالى.

أما زيارة القبور فلا تعني بالحقيقة طلب الحاجة من صاحب القبر، وإنما تذكّر بالآخرة وتربط القلوب بمحبة من أحسن إليها في حال الحياة. وتعدّ زيارة القبور مشروعة لثبوت مشروعيتها في السنة النبوية التي ورد فيها عدة أحاديث، منها ما رواه مسلم في الصحيح عن بُرَيدة أن النبي ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور[1]، فزوروها، فإن في زيارتها تذكرة».

وروى البيهقي في حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «ألا فزوروا القبور، فإنها تزهّد في الدنيا، وتذكّر الآخرة».

وروى البيهقي في حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ: «وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بدا لي فزوروها، فإنها تُرق القلب، وتُدمع العين، وتذكّر الآخرة، فزوروا، ولا تقولوا هُجْراً». أي فاحشاً من القول.

---

(١) كان هذا في بدء الإسلام تجنباً للوثنية.

وروى البيهقي عن بُريدة، أن النبي ﷺ زار قبر أمه، في ألف مُقَنَّع يوم الفتح، فما رؤي باكياً أكثر من ذلك اليوم.

وروى البيهقي أيضاً عن عبد الله بن عياش قال: قال النبي ﷺ: «ما الميت في القبر إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم، أو أخ، أو صديق، فإذا لحقته كان أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله عز وجل ليُدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم».

وبما أن الميت يعيش في عالم البرزخ وهو عالم يختلف عن عالمنا الدنيوي، فإن الميت يرد السلام على من سلَّم عليه، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: « إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه فسلَّم عليه، رد عليه السلام وعرفه، وإذا مرَّ بقبر لا يعرفه فسلَّم عليه، رد عليه السلام».

ويعلم الموتى بزوّارهم يوم الجمعة ويوماً قبله، ويوماً بعده، قال الضحاك بن مزاحم: من زارا قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس، علم الميت بزيارته، قيل له: وما ذاك؟ قال: لمكان يوم الجمعة.

وزيارة القبور فيها عبرة وعظة وتذكّر وتأمل في مصير الإنسان بعد وفاته، قيل لبعض حكماء العرب: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى مَحِلّة الأموات. وكان يقال: مشاهدة القبور مواعظ الأمم السالفة.

والأحياء شهداء على بعضهم، فهم إن أثنوا خيراً كان الميت من أهل الخير، وإن أثنوا شراً، كان الميت من أهل الشر.

وروى الحاكم وغيره عن النضر بن أنس عن أنس بن مالك قال: كنت قاعداً مع نبي الله ﷺ، فمرت جنازة، فقال: «ما هذه الجنازة؟» قالوا: جنازة فلان الفلاني، كان يحب الله ورسوله، ويعمل بطاعة الله ويسعى فيها، فقال: «وجبت، وجبت، وجبت». ومرَّت أخرى، فقال: «ما هذه؟».

قالوا: جنازة فلان الفلاني، كان يُبغض الله ورسوله، ويعمل بمعصية الله ويسعى فيها، فقال: «وجبت، وجبت، وجبت».

فقالوا: يا نبي الله قولك في الجنازة والثناء عليها، أثني على الأول خير، وأثني على الآخر شر، وقولك فيها: وجبت؟ قال: «نعم يا أبا بكر، إن لله ملائكة في الأرض تنطق على ألسنة بني آدم في المرء من الخير والشر».

وفي حديث آخر: «الثناء على الجنازة الأولى أوجب لها الجنة، وذمُّ الجنازة الثانية أوجب لها النار، والناس شهداء الله على خلقه». وهذه هي ميزة الثناء على الميت يكون سبباً في دخوله الجنة، وذم ميت آخر يوجب له دخول النار.

الأصل الرابع والستون من أصول الإيمان

تشميت العاطس

من الآداب الاجتماعية الدالة على المحبة والإخاء تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى، بأن يقول له جاره أو جليسه: يرحمك الله، فيجيب العاطس: يهدينا ويهديكم الله، أو يهديكم الله ويصلح بالكم، أو يغفر الله لكم. وهذه سنة نبوية رشيدة، لما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله[1]، فإن حقاً على من سمعه أن يقول: يرحمك الله، وإذا تثاءب ضحك الشيطان، فليُخفه ما استطاع».

والسبب في تشميت العاطس أن الله يرحمه إذا حمد الله، لأنه معرَّض لخروج روحه، فإبقاؤها يقتضي الحمد لله، وتهنئة السامع له بالسلامة.

وتاريخ هذا الفعل، كما روى البيهقي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم عطس، فألهمه ربه أن قال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله ربُّك، فلذلك سبقت رحمته غضبه. ثم إن الله قال لآدم:

---

(١) أو يقول: الحمد لله على كل حال، أو الحمد لله رب العالمين.

ائت الملائكة، فسلِّم عليهم، فأتاهم، فقال: السلام عليكم، قالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: رحمة الله».

فإذا لم يحمد الله العاطسُ لم يسنّ تشميته، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أنس بن مالك يقول: عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمَّتَ أحدهما، ولم يشمِّت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله، شمّتَّ هذا ولم تشمّتني؟ فقال: «لأن هذا حمد الله، وأنت لم تحمد الله».

يؤكده ما رواه البيهقي عن أبي موسى الأشعري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا عطس أحدكم، فحمد الله، فشمِّتوه، وإذا لم يحمد الله فلا تشمِّتوه».

وجواب العاطس كما رواه البخاري في الصحيح عن عبد العزيز بن أبي سلمة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، فإذا قال: الحمد لله، فليقل له أخوه: يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم». أو يقول العاطس: يغفر الله لي ولكم، أو يغفر الله لكم، كما جاء في روايات أخرى. وكان ابن عمر إذا عطس فقيل له: يرحمك الله، قال: يرحمنا الله وإياكم، وغفر لنا ولكم.

وأما الذمي المعاهد إذا حمد الله، فكان النبي ﷺ يقول له: «يهديكم الله ويصلح بالكم».

ومن الأدب الضروري خفض الصوت بالعطاس، لما أخرجه الحاكم[1] عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليضع كفه على وجهه، ويُخفض صوته».

وأخرج أبو داوود والترمذي في الأدب وقال: حسن صحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا عطس غضّ صوته، واستتر

---

(١) وصححه ووافقه الذهبي.

بثوبه أو يده. وأخرج ابن عدي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يكره العطسة الشديدة في المسجد.

وإذا تكرر العطاس ثلاثاً لا أكثر شمته السامع، فإن زاد على ثلاث تخير السامع بين أن يشمته ولا بأس بذلك، وبين أن يتركه، أخرج مسلم في الصحيح عن إياس بن سلمة، حدثني أبي قال: كنت قاعداً عند النبي ﷺ، فعطس رجل، فقال النبي ﷺ: «يرحمك الله». ثم عطس أخرى، فقال النبي ﷺ: الرجل مزكوم»[(١)].

وأخرج أبو داوود عن أبي هريرة قال: «شمِّتْ أخاك ثلاثاً، فما زاد فهو زكام». وقال النبي عليه الصلاة والسلام في الزيادة على ثلاث: «فإن شئت فشمِّته، وإن شئت فاتركه».

والعُطاس من الرحمن، أما التثاؤب فمن الشيطان، ولم يكن الأنبياء يتثاءبون، ومن تذكر ذلك عن الأنبياء، زال تثاؤبه. أخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يحب العطاس، ويكره التثاؤب، وإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، فإنه إذا فتح فاه فقال: آه آه، ضحك منه الشيطان».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع».

وأخرج مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تثاءب أحدكم فليمسك على فيه فإن الشيطان يدخل».

---

(١) روى البيهقي في شعبه عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لا تكرهوا أربعة فإنها لأربعة: لا تكرهوا الرمد فإنه يقطع عروق العمى، ولا تكرهوا الزكام فإنه يقطع عروق الجذام، ولا تكرهوا السعال فإنه يقطع عروق الفالج، ولا تكرهوا الدماميل فإنه يقطع عروق البرص». (شعب الإيمان ٦/ ٥٤١).

هذه بعض الآداب الاجتماعية الإسلامية النبوية التي تنم عن الشفقة والمحبة والاحترام والحرص على سلامة الإخوة والدعاء لهم بالخير والعافية، وأثرها واضح حيث يكون المتثائب والعاطس في طمأنينة وراحة نفسية، لعناية إخوانه به.

الأصل الخامس والستون من أصول الإيمان

مباعدة الأعداء والمفسدين والظلمة والفسقة

إن صون الأمة والأوطان واجب كل مؤمن شريف غيور على مصالح بلاده وأمته، سواء في وقت السلم أو الحرب، لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ٦٠/١] أي لا تتخذوهم أنصاراً وحلفاء. وفي هذا المعنى آيات كثيرة، ومنها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/٢٣]، ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ [آل عمران: ٣/٢٨]، فإن حاربنا الأعداء واعتدوا علينا، وجب الجهاد لمقاومتهم ورد اعتدائهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [التحريم: ٦٦/٩].

إن الموالاة لأي إنسان تعتمد على الثقة والطمأنينة، وهي غالباً وبالتجربة مفقودة في نظرة غير المسلمين إلى المسلمين، فلا يكون من المصلحة موادة أهل العداوة، وإن كانوا من الآباء والأبناء والإخوة، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا

يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٨].

كما أنه ليس من الحكمة والمصلحة عقد الصلات الودية مع الظلمة والمفسدين لأنه تعالى لا يحب الظلم والفساد، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥].

وأكدت السنة النبوية هذا التوجيه القرآني، روى البيهقي عن جرير بن عبد الله البَجَلي، أن رسول الله ﷺ قال: «من أقام مع المشركين فقد برئت منه الذمة». وروى أيضاً عن جرير: «أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، ولِمَ؟ قال: «لا ترايا ناراهما».

والواجب الاعتماد على أهل الثقة والإيمان الحق، لما أخرجه أبو داوود في الأدب، والترمذي في الزهد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تصحب - أو لا تصاحب - إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي».

ومجانبة الظلمة أيضاً مطلوبة شرعاً، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١/ ١١٣].

وقال مالك بن دينار: كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة.

وقال الوضين بن عطاء: أوحى الله عز وجل إلى يوشع بن نون: إني مهلك من قومك مئة ألف، أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم، قال: يا رب، تهلك أشرارهم، فما بال خيارهم؟ قال: إنهم يدخلون على الأشرار فيؤاكلونهم، ويشاربونهم، ولا يغضبون بغضبي.

وقال الحسن البصري: من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله عز وجل.

وتجنب الفسقة (العصاة) ومن لا يعينك على طاعة الله ضروري في دين الله تعالى، لما رواه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «إنما مثل جليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، حامل المسك إما أن يُحذيك[1]، وإما أن تبتاع منه، وأما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة».

وروى الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل».

ومن المأثور عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: لا تَعْرض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحتفظ من خليلك على الأمين، وإن الأمين ليس من القوم أحد يعدله، ولا أمين إلا من خشي الله عز وجل، ولا تصحب الفاجر كي يحملك على الفجور، ولا تفشِ إليه سرك، وشاور في أمرك الذين يخشون الله عز وجل.

وقال علي بن أبي طالب ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٧] قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فمات أحد المؤمِنَين، فبُشر بالجنة فذكره خليله، فقال: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أني ملاقيك. اللهم فلا تضلّه بعدي حتى تريه كما أريتني، وترضى عنه كما رضيت عني. ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نِعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل.

---

(١) أي يعطيك.

وإذا مات أحد الكافرين بشّر بالنار، فذكر خليله، فيقول: اللهم إن خليلي كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، وينبئني أني غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدي. حتى تريه كما أريتني، وتسخط عليه كما سخطت علي، ثم يموت الآخر، فيجمع بين أرواحهما، فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، ثم قرأ علي: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

وقال ابن مسعود: أكثروا ذكر الله عز وجل، ولا عليك ألا تصحب أحداً إلا من أعانك على ذكر الله عز وجل. وقال ابن عباس: قيل: يا رسول الله، أي جلسائنا خير؟ قال: «من يذكّركم الله رؤيته، وزاد في عملكم منطقه، وذكّركم الآخرة عمله».

وأهل البدعة فسقة، فلا تقبل توبتهم، لما رواه البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن صاحب كل بدعة».

وروى البيهقي أيضاً عن إبراهيم بن مَيْسرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

وقال ابن المبارك: يكون مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة.

الأصل السادس والستون من أصول الإيمان

إكرام الجار والرفيق

شددّ الإسلام على توافر وشائج الود والإحسان بين الجيران، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، ليتحقق التعاون المطلوب في مصالحهم، ويحل الوئام محل الخصام، والإيجابيات مكان السلبيات، فيكون النفع وعائد الصلة الطيبة شاملاً لهم جميعاً، وهذا أول مظاهر التقدم والتحضر والعمل الجماعي المشترك في السراء والضراء.

لذا أمر القرآن الكريم بالإحسان إلى الجار، سواء أكان ملاصقاً أم بعيداً غير ملاصق، أم رفيقاً في السفر وفي التنقلات الداخلية، وفي أثناء ممارسة العمل الوظيفي، فقال الله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ [النساء: ٤/٣٦] والجار ذو القربى هو الجار الملاصق في المسكن والمتجر والمزرع وغير ذلك أو هو القريب، والجار الجنُب البعيد غير الملاصق أو غير القريب، والصاحب بالجنب الرفيق في السفر والحضر ونحوهما.

وأما الأحاديث النبوية الآمرة بالإحسان إلى الجيران فكثيرة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثه». أو «سيورثه» في رواية مسلم.

وأخرج مسلم في الصحيح أيضاً عن أبي شريح الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». هذه هي أصول العلاقة الاجتماعية بين الجيران وغيرهم، والتي يشع منها الخير والتعاون، ويبقى أثرها خالداً، لأن المعروف لا ينسى، والإكرام صفة إنسانية عالية.

وفي رواية للبخاري في الصحيح عن شريح العدوي أنه قال: سمعته أذناي وأبصرته عيناي حين تكلم رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة إلى ثلاث، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليك، ولا يثوى[1] عنده حتى يحرجه».

وإذا كان إكرام الجار فضيلة وأدباً اجتماعياً رفيعاً، فإن عدم إضراره أو إيذائه أرفع وأوجب وألزم، لأن دفع الضرر عن كل الناس واجب شرعاً، ولا سيما الجار، روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه». أي شروره وآثامه.

والإحساس بحاجة الجار والمشاركة له في همومه ومعاناته واجب شرعي أيضاً، لما رواه البيهقي وغيره[2] عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه».

والإهداء على الجار يقوي الصلة، ويزرع المحبة والمودة، ويمنع الأذى، أخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن

---

(١) يقيم.
(٢) رواه أيضاً البخاري في الأدب المفرد، والطبراني والحاكم.

رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرسن شاة». أي ظلفها.

وروى مسلم في الصحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقةً، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك». وفي لفظ آخر: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيت من جيرانك فاغرف لهم منها».

وخيار الجيران يذكرهم الناس عادة في المجتمعات وكل مجلس بخير ومديح، وروى البيهقي عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

وفي الإشادة بخيرية الجار روى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ هؤلاء الكلمات، فيعمل بهن، أو يعلِّمهن من يعمل بهن؟» قال أبو هريرة: أنا، فأخذ رسول الله ﷺ يدي، فعقد فيها خمساً[1]: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

وإيذاء الجار يستوجب دخول النار، روى البيهقي عن أبي يحيى مولى جعدة قال: سمعت أبا هريرة قال: قيل للنبي ﷺ: إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتفعل وتَصدَّق، وتؤذي جيرانها بلسانها. فقال رسول الله ﷺ: «لا خير فيها هي من أهل النار». قيل: وفلانة تصلي المكتوبة، وتصدق بالأثوار[2] (أي من الأقط كما في رواية أخرى)

---

(١) أي عدد خمس خصال بعدد الأصابع.
(٢) أي بالكثرة.

ولا تؤذي أحداً؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة».

ومن الحكمة النبوية في علاج أذى الجار ما رواه البيهقي عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يشكو جاره، فقال له النبي ﷺ: «اصبر». ثم أتاه الثانية يشكو، فقال له النبي ﷺ: «اصبر». ثم أتاه يشكو، فقال له: «اصبر». ثم أتاه الرابعة يشكوه، فقال: «اذهب فأخرج متاعك فضعه على ظهر الطريق». فجعل لا يمر به أحد إلا قال له: شكوت جاري إلى رسول الله ﷺ فقال: اذهب فأخرج متاعك فضعه على ظهر الطريق، فجعل لا يمر به أحد إلا قال: اللهم العنه، اللهم اخزه، قال: فأتاه فقال: يا فلان ارجع إلى منزلك، فوالله لا أؤذيك أبداً.

وأخرج الحاكم عن نافع بن عبد الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من سعادة المسلم المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء».

وأما مراعاة حق الرفيق فهي الإحسان له، جاء رجل إلى الضحاك بن مزاحم بخراسان فسأله عن قول الله عز وجل ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٦] ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان - يعني في السجن - وسع عليه، وإذا احتاج جمع له.

الأصل السابع والستون من أصول الإيمان

إكرام الضيف

إكرام الضيف[1] والضيافة السخية من خصائص العرب وسجاياهم قديماً، وقد أقرها الإسلام وجعلها من شُعَب الإيمان، لما فيها من ميزات وفضائل حميدة، وما زال العرب والمسلمون حريصين على حق الضيافة وإكرام الضيوف، وقد اشتهر سيدنا إبراهيم عليه السلام بإكرام الضيف، كما نص عليه القرآن المجيد: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ١١/٦٩] أي مشوي على الحجارة المحماة، وفي آية أخرى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٥١/٢٦].

وورد في السنة النبوية أخبار وتوجيهات كثيرة في إكرام الضيف، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت». وفي لفظ: «فلا يؤذي جاره». وفي لفظ: «أو ليصمت».

وأخرج الشيخان أيضاً في الصحيحين عن أبي شُريح العدوي أنه

(١) الضيف واحد وجمع.

قال: سمعتْ أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم رسول الله ﷺ، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته». قالوا: وما جائزته؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه». وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

وفي رواية مسلم: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما أطعمه سوى ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحل لأحدكم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه». قالوا: وما يؤثمه؟ قال: «يقيم عنده ولا يجد ما يَقْريه».

وفي رواية البخاري: «ولا يحل له أن يثوى[1] عنده حتى يحرجه».

والضيافة حق مقرر شرعاً للضيف، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا، فننزل بقوم، فلا يَقْروننا، فما نرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيافة الذي ينبغي لهم». أي يجب عليهم.

وأخرج البيهقي عن أبي كريمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة الضيف حق على كل مسلم، فإن أصبح فهو عليه دين، فإن شاء اقتضى، وإن شاء ترك». وفي رواية أبي الحسين بن الفضل القطان: «فإن شاء اقتضاه، وإن شاء تركه».

وأخرج البيهقي أيضاً عن سلمة بن الأكوع قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال: «يذهب كل رجل بطائفة». فيذهب الرجل بالرجلين والثلاثة، ويذهب رسول الله ﷺ بما بقي.

ومن الآثار عن الصحابة أن ابن عباس أتاه الأعراب، فقالوا: إنا نقيم

---

(١) أي يقيم عنده.

الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونحج البيت، ونصوم رمضان، وإن أناساً من المهاجرين يقولون: إنا لسنا على شيء. فقال ابن عباس: من أقام الصلاة، وآتى الزكاة، وحج البيت، وصام رمضان، وقرى الضيف، دخل الجنة.

وأخرج البيهقي عن حبيب بن شهاب العنبري قال: سمعت أبي يحدث عن ابن عباس عن خطبة رسول الله ﷺ يوم تبوك قال: «يوشك أن يكون خير الناس رجل آخذ بعِنَان[١] فرسه يجاهد في سبيل الله، ويعتزل شرور الناس، ورجل بادي في نَعَم له يؤدي حقها ويَقْري الضيف».

والسنة عدم التكلف للضيف، وإنما يقدّم له ما تيسر دون إحراج، لما رواه البيهقي عن سلمان الفارسي يقول: نهانا رسول الله ﷺ أن نتكلف للضيف. وفي رواية أخرى: «لا يتكلّفن أحد للضيف ما لا يقدر عليه».

وقال الأحنف بن قيس: ثلاث ليس فيهن انتظار: الجنازة إذا وجَدت من يحملها، والأيم[٢] إذا أصيبت لها كفؤاً، والضيف إذا نزل به، لم ينتظر به الكلفة.

وروى البيهقي عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: نزل بجابر ضيف، فجاءهم بخبز وخل، فقال: كلوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم الإدام الخل، هلاك بالقوم أن يحتقر ما قدم إليهم، وهلاك بالرجل أن يحتقر ما في بيته، يقدمه إلى أصحابه».

وعن ابن عون قال: ربما دخلنا على الحسن البصري، فقدَّم إلينا مَرقاً، وليس فيه لحم.

---

(١) العِنَان سَيْر اللجام الذي تمسك به الدابة.

(٢) أي التي لا زوج لها.

تكلف الموسر للضيف

جميع تكاليف الشريعة الإسلامية الدينية والدنيوية مرتبطة بالقدرة أو الاستطاعة، منعاً من الحرج والمشقة، وتمكيناً لجميع المكلّفين على مختلف مستوياتهم من أداء المطلوب، لذا حمد النبي ﷺ أكل الخل عند الفقير، وذم ذلك عند الغني، وكذلك نهى عن التكلف في الضيافة للعاجز، وأباح للغني أو الموسر أن يتكلف لإخوانه بقدر استطاعته، لأنه لا يتضرر، والله تعالى يحب أن يرى أثر النعمة على عبده.

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الطعام إلى الله عز وجل ما كثرت عليه الأيدي».

وأخرج مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، وفراش للضيف، والرابع للشيطان». أي إن كل ما لا ينتفع به يكون ترفاً وسرفاً ولا فائدة فيه.

وكان سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام هو القمة في الضيافة، روى البيهقي عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «كان أول من ضيف الضيف إبراهيم عليه السلام». قال عكرمة: كان إبراهيم يكنى أبا الضيفان، وكان لقَصْره أربعة أبواب. وقال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «يا جبريل، لِمَ اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟» قال: لإطعامه الطعام يا محمّد.

وهناك آثار(١) أوردها البيهقي في شعبه، منها ما رواه عن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الملائكة لا تزال تصلي على أحدكم ما دامت

---

(١) فيها ضعف، فيعمل بها في الفضائل.

مائدته موضوعة». ومنها ما رواه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «الخير أسرع إلى البيت الذي يُغْشَى من الشَّفْرة إلى سنام البعير». وقال أنس: إن زكاة الرجل في داره أن يَجْعَل فيها بيتاً للضيافة.

ومنها عن بُدَيل قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أطعم أخاً في الله لقمةً أحب إلي من أن أتصدق بدرهم، ولأن أعطي أخاً في الله درهماً أحب إلي من أن أتصدق بعشرة دراهم، ولأن أعطي أخاً في الله عشرة دراهم أحب إلي من أن أُعتق رقبة».

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان النبي ﷺ إذا أكل مع قوم، كان آخرهم أكلاً[1]. وفي معناه حديث ثابت عن النبي ﷺ: «ساقي القوم آخرهم».

وقال خيثمة: كان عيسى عليه السلام إذا دعا أصحابه قام عليهم، ثم قال: هكذا اصنعوا بالقراء.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس من مروءة الرجل أن يستخدم ضيفه. وقام عمر بن عبد العزيز نفسه بإصلاح سراجه، وصبَّ فيه الزيت، ثم رجع وقال لرجاء بن حَيْوة: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

وقيل لعبد الملك بن مروان: بأي شيء سُدْت الناس؟ قال: هو مَنْ غيري، أحسن منه مني، وما تقدمت جليساً إلى مركب لي قط، ولا سألني أحد قط حاجة إلا رأيت له الفضل علي بمسألته إياي، ولا دعوت أحداً قط إلى طعام إلا رأيت له بذلك الفضل علي.

وقال الأوزاعي: كرامة الضيف طلاقة الوجه.

وروى البخاري عن الأعمش قال: جاء رجل من الأنصار يكنى

---

(١) حديث مرسل.

أبا شعيب، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فعرفنا في وجهه الجوع، فأتيت غلاماً لي قصاباً، فأمرته أن يجعل لنا طعاماً لخمسة رجال، ثم دعوت رسول الله ﷺ، فجاء خامس، وتبعهم رجل، فلما بلغ رسولُ الله ﷺ الباب، قال: «إن هذا قد اتبعنا، فإن شئت فأذن له وإلا رجع». فأذن له.

وإجابة الضيف دعوة المضيف واجبة ما لم يكن عذر، لما رواه البيهقي عن جماعة عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من دُعي فلم يجب، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقاً، وخرج مغيراً».

وتشييع الضيف بعد إكرامه مطلوب أيضاً لأثر[١] رواه البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من السنة أن تشيِّع الضيف إلى باب الدار».

إن هذه الأخبار في إكرام الضيف والابتهاج به سنة نبوية ذات أثر اجتماعي كبير، ففي ذلك تقوية الصلات الاجتماعية، وغرس المحبة بين الناس، وتقوية عواطف المودة والإخاء، وذلك أيضاً سبيل لاقتلاع الكراهية والضغينة والقطيعة والأحقاد، فما أجمل هذه السنة وما أعظمها مغزى، فضلاً عما يترتب على الضيافة من ثواب كثواب الصدقة تماماً، وتستوجب المغفرة لأهل الدار، ويزيدهم الله بركة وسروراً، وتكون الضيافة أيضاً سبباً لزيادة الرزق وإذهاب المعاصي والسيئات التي ترتحل برحيل الضيف.

---

(١) وهو ضعيف.

الأصل الثامن والستون من أصول الإيمان

الستر على أصحاب الهفوات

المتورطون في الأخطاء والذنوب نوعان: فريق يرتكب الخطأ أو بعض الهفوات أحياناً دون تكرار ولا مجاهرة، وفريق يقدم على الخطأ أو المعصية بجرأة وانعدام حياء، أو بتكرار.

أما الفريق الأول وهم المخطئون أحياناً أو للمرة الأولى، وقلّما أن نجد إنساناً خالياً من الخطأ الطارئ، فكل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون، فهؤلاء يطلب شرعاً الستر عليهم وترك افتضاح أمرهم، لتترك الفرصة لهم بإصلاح نفوسهم، وحتى لا يعودوا لاقتحام الخطأ مرة أخرى، وبالتالي إشاعة السوء أو الخطأ عنهم. وهذا متفق مع توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا يكون دائماً التستر على الخطأ خطأ، وإنما وسيلة للإصلاح.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩/٢٤].

وأخرج الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة، فرّج الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

يؤيده أخبار ثابتة صحيحة أخرى، منها ما رواه الطبراني والضياء في المختارة عن شهاب، أن رسول الله ﷺ قال: «من ستر على مسلم عورة، فكأنما أحيا مَيْتاً»[(١)]. ومنها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر أخاه المسلم في الدنيا، فلم يفضحه، ستره الله يوم القيامة»[(٢)]. والحديثان يشملان ستر العيوب وستر الأخطاء أو الهفوات.

ومن وقائع الستر المشهورة مطالبة هزَّال بضرورة الستر على ماعز بن مالك الأسلمي الذي ارتكب فاحشة الزنا خلافاً لفعل هزَّال الذي أشار على ماعز بالإقرار بالزنا حتى رُجم، وروى البيهقي عن يزيد بن نُعيم عن جده (هزال) أن النبي ﷺ قال لِهَزَّال: «لو سترت كان خيراً لك».

وفي رواية أخرى: «ويحك يا هَزَّال، ألا كنت رحمته، ويحك يا هَزَّال ألا كنت رحمته، ويحك يا هَزَّال ألا كنت رحمته!!».

إن الله تعالى يحب الستر على عباده غير المجاهرين أو المكررين للخطأ، والمؤمن مطالب بالامتناع عن التشهير بالقبيح، لما رواه البيهقي في شعبه عن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «من أشاد على مسلم عورة يَشينه بها بغير حق، شانه الله بها في الحق يوم القيامة». قال أبو عبيد: قوله «أشاد» يعني رفع ذكره بها، ونوَّه به، وشهَّره بالقبيح.

إن التشهير بالعيوب والأخطاء يؤدي غالباً للفساد أو الإفساد، والضرر العام والخاص، فيكون ذلك ممنوعاً مذموماً غير مرغوب فيه شرعاً،

---

(١) وهو صحيح.

(٢) وهو صحيح أيضاً، وهناك في شعب الإيمان للبيهقي حديثان آخران في معنى الحديثين المتقدمين عن عقبة بن عامر وعن أبي هريرة، وفي كليهما أن ستر المؤمن كإحياء موؤدة.

لما رواه جماعة[1] عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتّبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم».

ومعنى الحديث أن الحاكم أو غيره إن أدخل الأوهام والظنون السيئة على بعض القوم، جرَّأهم على الفسوق والعصيان، وفتح لهم باب إشعال نار الفتنة والإجرام، وهو دليل على ضرورة الاجتهاد في ستر الذنوب وتحسين الظن بالناس، وترك تتبع السقطات والمآخذ.

وحذر النبي ﷺ بخطاب جماعي كل الأمة من التلصص أو تتبع عورات الناس، أخرج أبو داوود عن أبي بُرْدة الأسلمي، والبيهقي عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في الخُدُر[2]، ينادي بأعلى صوته: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلُص الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع عورته يفضحه في جوف بيته».

وأما المجاهرون بالفسق والمعصية فهؤلاء يجب الحد من طغيانهم والإبلاغ عنهم ليرتدعوا ويكفوا عن تحديهم مشاعر الأمة، فلا غيبة لفاسق، ويذكر الفاجر المعلن فجوره بما فيه كي يعرفه الناس ويحذروه، كما ورد في بعض الأخبار، وروى جماعة[3] عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «أترعُونَ عن ذكر الفاجر، متى يعرفه الناس، اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس»[4].

---

(١) وهم أبو داوود وابن حبان والبيهقي، وهو حديث صحيح.
(٢) النساء المتحجبات في بيوتهن.
(٣) وهم ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب والخطيب البغدادي.
(٤) سكت السيوطي في الجامع الصغير عنه.

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمُتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل الرجل في الليل عملاً، ثم يصبح، وقد ستره ربه، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، يبيت في ستر ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه». وهذا الحديث دليل واضح على أن المخطئ عليه أن يستر نفسه، وكذلك من اطلع على خطئه، إلا عند التكرار والمجاهرة، فيكون القمع أو الردع أو العقاب مطلوباً لأنه نهي عن المنكر.

وأخرج البيهقي في شعبه عن زيد بن أسلم، أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا، على عهد رسول الله ﷺ، فذكر الحديث في جلده، ثم قال: «أيها الناس، ما آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله؟! فمن أصاب من هذه القاذورة شيئاً، فليستتر بستر الله، فإنه من يُبدي لنا صفحته، نقم عليه كتاب الله عز وجل».

الأصل التاسع والستون من أصول الإيمان

فضيلة الصبر

ورد في الحديث الذي رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعبه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»[1].

وورد أيضاً الدين نصفان: نصفه صبر ونصفه شكر[2]، فكما يجب الشكر على النعمة الإلهية، يجب الصبر على المشاق والتكاليف والطاعات، والصبر على الشهوات واللذائذ، والصبر على المصائب، فهذه من شؤون الحياة التي تتطلب جهاد النفس، وقوة العزيمة، وصلابة الإرادة، والاستعانة بالله.

فيكون الصبر ثلاثة أنواع: الصبر على التكاليف الشرعية، والصبر على المكاره وما يؤلم النفوس من مصائب، وصبر الإنسان عما يحب.

أما الصبر على الطاعات من صيام وصلاة وحج وزكاة ونحوها فهو أساس الالتزام بالطاعات التي كلّفنا الشرع الإلهي بها، وألزمنا الرضا بها،

---

(١) لكنه حديث ضعيف كما ذكر السيوطي في جامعه.

(٢) روى البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان نصف في الصبر، ونصف في الشكر».

وعلّمنا ضرورة انشراح الصدر بنحو دائم عليها، حتى تبرأ الذمة، وتسعد النفس، ويطمئن القلب، وتتحقق الراحة النفسية بأداء الطاعة، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥] أي على المؤمن اللجوء إلى فضيلة الصبر والصلاة، ومثل الصلاة الصوم، حتى قيل في الحديث عن شهر رمضان: «شهر الصبر» وإن كل واحدة من هاتين الخصلتين الصبر والصلاة لكبيرة، أي خصلة شاقة إلا على الخاشعين الذين يعتقدون أو يظنون أنهم ملاقو ربهم في وقت القيامة.

والأشبه أن يراد بالصبر في آية أخرى هي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٣]، الصبر على المصيبة الشديدة وهي الموت، لأنه تعالى مدح الصابرين بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥٤-١٥٧] أخبر الله تعالى أن المؤمن إذا سلّم لأمر الله، ورجع واسترجع عند المصيبة، كتب الله له ثلاث خصال من الخير: الصلاة من الله (أي المغفرة)، والرحمة، وتحقيق سبيل الهدى.

قال رسول الله ﷺ - فيما رواه البيهقي في شعبه -: «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»

وعن الضحاك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ قال: هي لمن أخذ بالتقوى وأدى الفرائض.

وأوضح عبد الله بن عمرو معنى الاسترجاع بقوله: أربع من كن فيه بنى الله له بيتاً في الجنة: من كان عصمة أمره لا إله إلا الله، وإذا

أصابته مصيبة قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا أُعطي شيئاً قال: الحمد لله، وإذا أذنب ذنباً قال: أستغفر الله.

والاسترجاع إلى الله يكون ولو في أقل أو أبسط الوقائع مثل انقطاع شسع النعل (رباط النعل) ونحوه، روى البزار وابن عدي والبيهقي عن أبي هريرة يحدِّث قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع، فإنه من المصائب»[1].

وثواب الاسترجاع (وهو قول: إنا لله وإنا إليه راجعون) كبير، ويعوِّض الله القائل خيراً، لما رواه مسلم عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها». قالت أم سلمة: فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟ قالت: ثم عزم الله لي فقلتها: اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ.

ومن أرفع الثواب على الاسترجاع بناء بيت في الجنة، لما رواه أبو داوود عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبض الله ابن العبد قال لملائكته: ما قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً، وسموه بيت الحمد».

والصبر يكون عند أول أو مبدأ الصدمة، لما رواه البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الصبر عند أول صدمة».

ويتعلم الإنسان الصبر من سيرة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام حيث تعرضوا للمصائب والمشاق الكثيرة في هداية أقوامهم،

(١) لكنه حديث ضعيف كما قال السيوطي في الجامع الصغير.

فقال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٥].

وعلَّم الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام كيف يصبر حينما قتل عمه حمزة بن عبد المطلب في موقعة أحد، فلما قال: «أما والله على ذلك لأمثّلن بسبعين منهم مكانك». فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، وهو واقف، بخواتيم سورة النحل الآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ١٢٦] فصبر النبي ﷺ وكفَّر عن يمينه، وأمسك عما أراد.

الصبر على المصائب والمحرّمات

ما من أحد من المخلوقات نبياً كان أو رسولاً أو بشراً عادياً إلا تعرَّض لما يؤلم من المصائب والوقائع، وهذا اختبار لكل مؤمن، ليُعرَف هل صبر على ما أصابه، أو جزع وسخط وتمرد؟ قال عبد الله بن مسعود كما تقدم: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله».

وهذا مما بنيت عليه أحوال الدنيا، وسبق تسجيله في سجل القضاء والقدر، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٢] سئل الحسن البصري عن هذه الآية، فقال: سبحان الله، من يشك في هذا، كل مصيبة بين السماء والأرض، ففي كتاب من قبل أن يبرأ الله النسمة. وقال ابن عباس عن الآية التي بعدها: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٣]: ليس أحد إلا يفرح ويحزن، ولكن إذا أصابته مصيبة جعلها صبراً، وإن أصابه خير جعله شكراً.

والصبر مفتاح الفرج، فمن صبر أعانه الله على صبره، وحماه من زيغ الفكر والعقيدة، روى البخاري ومسلم والبيهقي عن الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي، أن أبا سعيد الخدري أخبره أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ولم يسأله أحد إلى أعطاه حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «ما يكون عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يصبر يصبّره الله، ولم تُعْطَوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر».

قال الحسن البصري: الإيمان الصبر، والسماحة الصبر عن محارم الله، وأداء فرائض الله. وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قيل: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة».

وما يصبر عليه الإنسان متعدد الأنحاء، ويجمعها البلاء والشدة في الفتنة والرزق والأولاد والمرض وغير ذلك، ولكن عزاء الإنسان المؤمن في إيمانه وصبره وتعويد نفسه على تحمل المكاره، حتى يفرّج الله الكرب عنه، ويكون للصابر الثواب العظيم.

روى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يصبر أحد على لأوائها وشدتها[1]، إلا كانت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة».

أما الصبر على الرزق فهو محك الإيمان، روى البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وصبر على ذلك».

والصبر على المكروه أو المشقة كالجهاد في سبيل الله والمرض ونحوهما أفضل من العبادة، روى البيهقي عن عسعس بن سلامة أن

---

(١) أي شدة الدنيا ومصابها.

رسول الله ﷺ فقد رجلاً، فسأل عنه، فجاء، فقال: يا رسول الله، إني أردت أن آتي هذا الجبل، فأخلو فيه وأتعبد، فقال رسول الله ﷺ: «الصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته خالياً أربعين سنة». وفي رواية: «أفضل من عبادة الرجل وحده ستين سنة».

وهذا دليل على أن الاختلاط وتحمل أذى الناس أفضل من العزلة، لما رواه الترمذي وغيره عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إن المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم».

وأحداث الدهر كثيرة، روى البيهقي وغيره عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة، كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٥] فقال: أما والله سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحاً مطاعاً، وهوى متعباً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك، ودع أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله». قالوا: يا رسول الله، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم».

يؤيده ما رواه البخاري عن الزبير بن عدي قال: دخلنا على أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من أمر الدنيا، فقال: «اصبروا وأحسنوا فيما بينكم وبين ربكم، فإنه لن يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم». سمعت من نبيكم ﷺ.

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أسيد بن حُضير أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: «إنكم سترون بعدي أثرة». قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض».

وقد يكون غالب أو أكثر المصائب هو الإنسان نفسه، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠] أخبر الله أن ما يصيب الناس من زوال نعمة عليهم، فإنما سببه حادث وقع منهم، إما ترك الشكر، وإما ارتكاب المعصية.

وفقد الأولاد من المصائب التي تتطلب الصبر، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصيب له ولدان أو ثلاثة لم يبلغوا الحنث، فاحتسبهم كانوا له ستراً من النار».

أشد الناس بلاءً

الدنيا دار ابتلاء واختبار، وتكون شدة البلاء دليلاً على محبة الله لعبده، أو إرادة الخير له، إذا صبر الإنسان على البلاء واحتسب الأجر والثواب على المصاب، ويكون البلاء سبباً في زيادة الدرجات أو الحط من السيئات. وهذا كله ثابت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣١]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨].

وورد في الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: دخلت على رسول الله ﷺ، وهو يوعك، فوضعت يدي عليه، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكاً شديداً، فقال: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم». قال: قلت: ذلك بأن لك أجرين؟ قال: «أجل وما من مسلم يصيبه أذى من مرض، فما سواه، إلا حط الله عنه من سيئاته، كما تَحُط الشجرة ورقها».

والأنبياء أشد الناس بلاءً، ثم الصالحون، روى البيهقي في شعبه عن عطاء بن يسار أن أبا سعيد الخدري دخل على رسول الله ﷺ، وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة، فقال أبو سعيد الخدري: ما أشد حر حُمَّاك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «إنا كذلك يشدد علينا البلاء، ويُضاعف لنا الأجر». فقال: يا رسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء». قال: ثم من؟ قال: «ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يتحريها، فيلبسها، ويبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدكم بالعطاء».

ورواه أبو داوود الطيالسي والحاكم بلفظ: أي الناس أشد البلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حتى يبتلى الرجل على قدر دينه..» الحديث.

ويظل البلاء يتردد على المؤمن، خلافاً للكافر والمنافق حتى يستأصلا، وروى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيّئه[1]، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا يهتز حتى يستحصد».

والتعرض للبلاء ظاهرة خير للمؤمن، لا ظاهرة شر، حتى يثيبه الله تعالى عليها، لما رواه البخاري عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب منه». والمعنى أن من أراد الله به خيراً ابتلاه بالمصائب ليثيبه عليها.

يؤيده ما أخرجه الترمذي[2] وابن ماجه عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، والصبر عند الصدمة

(١) جعلته يفيء.
(٢) وقال: حسن غريب.

الأولى، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

وفي معناه أيضاً ما رواه البيهقي في شعبه عن محمد بن لَبيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع». وفي رواية أنس بن مالك: «إذا أراد الله بقوم خيراً ابتلاهم».

وفي رواية ابن مسعود: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فمن حبه إياه يمسه البلاء، حتى يدعوَه، فيسمع دعاءه».

ومما لا شك فيه أن لكل شيء ثمناً، وثمن الجنة التعرض للمصائب أو المكاره، أخرج مسلم في الصحيح عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات». أي فيكون التعرض للبلاء سبباً لدخول الجنة.

ويتطلب البلاء الصبر والمصابرة ومقاومة الأهواء، أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن، وجَنَّة الكافر».

فالمؤمن يتعرض للفتنة والمشقة والبلاء، فعليه أن يحتسب الأجر على البلاء عند الله تعالى.

أخرج الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي عن عبد الله بن يزيد الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عذاب هذه الأمة جعل في دنياها».

وروى البيهقي في الشُّعب عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي أمة مرحومة، ليس عليها في الآخرة عذاب، وإنما عذابها في الدنيا الزلازل، والقتل، والبلاء».

يتبين من هذه الأخبار النبوية أن المؤمن يتعرض غالباً في الدنيا لأنواع من البلاء، ليكون ذلك العذاب سبباً في دخول الجنة، ولأن الله تعالى يثيب الصابرين على البلايا، وثواب الصبر كبير ومفتوح ومتروك لكرم الله وفضله وإحسانه، فعلى المؤمن ألا يضجر ولا يتضايق مما يصيبه، فالمصيبة رحمة، والعذاب يكون للمؤمن في الدنيا، لينجو من عذاب الآخرة. وقد يكون غير المؤمن في دنياه أقل تعرضاً للبلاء والعذاب، فلا يعترض أحد على هذا، وإلا وقع في المعصية والضلال.

كفارات الذنوب بسبب الأوجاع والأمراض

إن من لطف الله تعالى ورحمته أنه يجعل الأمراض والأوجاع والمصائب سبباً لتكفير الذنوب والسيئات من حيث لا يشعر الإنسان، وهذا من فضائل الإسلام، ثبت هذا في كثير من الأخبار الصحيحة والبشائر النبوية.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤/١٢٣] شقّت على المسلمين، فسألوا النبي ﷺ، فقال: «قاربوا وسدِّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، أو النكبة يُنكَبُها». أي إن الله تعالى يجزي المؤمن في الدنيا على السوء، بسبب مصيبة في جسده أو ماله، وفيما يؤذيه، يوضحه ما رواه الإمام أحمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما أصاب المسلمَ شَيء إلا كان له كفارة».

وهذا في ميزان العدل الإلهي، أما في ميزان الفضل والإحسان فالله يكرم بعض عباده من غير مصاب، قال الحسن البصري عن آية ﴿مَن يَعْمَلْ

سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ﴾: إنما ذاك إنْ ما أراد الله عز وجل هوانه، فأما من أراد الله عز وجل كرامته، فإنه يتجاوز عن سيئاته وعد الصدق الذين كانوا يوعدون.

وأضاف الحسن البصري أيضاً: أن عمران بن حصين ابتلي في جسده، فقال: ما أراه إلى بذنب، وما يعفو الله أكثر، وتلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠] ثم قال تعالى في الآية ذاتها: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾. قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب ابنَ آدم خدشُ عود، ولا عَثْرة قدم، ولا اختلاج عِرْق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر».

يؤكده ما رواه البخاري في الصحيح عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[1] ولا حَزَن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها عنه من خطاياه». وفي رواية مسلم في الصحيح «حتى الهم يُهمُّه».

ومن أمثلة المرض المكفّر للذنب الحُمَّى، وروى مسلم في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب أو أم المسيب[2]، وهي تزفزف، فقال: «ما لكِ تزفزفين؟». قالت: الحمى لا بارك الله فيها. قال: «لا تسبي الحُمَّى فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكير خبث الحديد».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «الحُمَّى كير من جهنم، فما أصاب المؤمن منها، كان حظَّه من النار».

وأبان ابن مسعود فائدة المرض، قائلاً: «إن الوجع لا يُكتب به الأجر، إنما الأجر في العمل، ولكن يكفّر الله عز وجل به الخطايا».

---

(١) النصب التعب، والوصب المرض.
(٢) شك من الراوي.

ويتميز أثر المرض من ناحيتين: إيجابية وسلبية، وروى البيهقي في شعبه عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ضُرِب من مؤمن عرق إلا حطَّ الله عنه به خطيئة، وكتب له بها حسنة، ورُفع له بها درجة».

ومن أمثلة المصائب موت الأحبّة، روى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: ما لعبدي إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، فصبر واحتسب جزاءٌ إلا الجنة».

ومن الأمثلة الصداع أو الشوكة أو أي شيء مؤذٍ، روى البيهقي عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده إلا كفّر الله به عنه من سيئاته». وروى البيهقي أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «صُداع المؤمن، أو شوكة يشاكها، أو شيء يؤذيه، يرفعه الله بها يوم القيامة درجة، ويكفّر بها عنه ذنوبَه».

وقد يرقى المصاب في الثواب إلى درجة الشهيد، وأخرج البخاري ومسلم من طريق مالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء خمسة: المطعون بالبطن، والغرِق[1]، وصاحب الهَدْم، والشهيد في سبيل الله».

وأخرج البيهقي عن عبادة بن الصامت قال: عاد النبي ﷺ ابن رواحة، فقال رسول الله ﷺ: «ما تعدّون شهداء أمتي؟» فقالوا: من قتل في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «إن شهداء أمتي إذاً لقليل، القتل شهادة، والبطن شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جَمعاء[2] شهادة».

وفي حديث آخر رواه الحاكم: «وما تعدُّون الشهادة؟» قالوا: القتل

---

(١) يقال: غرِق وغارق وغريق.
(٢) أي نفساء.

في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجَنْب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجُمع[١] شهيد».

ومن أعظم المصائب الموت وهو أيضاً كفارة، لما روى البيهقي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الموت كفارة كل مؤمن». وفي لفظ أخر: «الموت كفارة لكل مسلم». وفي لفظ: «تحفة المؤمن الموت».

ميزات المرض الدينية والنفسية

المرض الذي يتعرض له الإنسان له فوائد نفسية ودينية، منها ترقيق المشاعر وتحقيق الشفافية، وتليين الطبع، والزهد في الدنيا، والبعد عن الغطرسة، والإشعار بالضعف، والتزام التواضع، والإحساس بآلام الآخرين، ثم العودة إلى القوة والشفاء، وتجديد الجسد لحمه ودمه، بالإضافة لتزويد المريض بالثواب والرضا الإلهي والظفر بالجنة، وتكفير الذنوب والسيئات، والتذكير بأداء الواجبات الدينية، وتحقيق الخيرية والتفاؤل بالصلاح، فلا خير في جسم لا يمرض.

قال سعد بن وهب: دخلت مع سليمان على صديق له نعوده، فقال سليمان: إن الله عز وجل إذا ابتلى عبده المؤمن بشيء من البلاء، ثم عافاه، كان كفارة لما مضى، ومستعتباً فيما بقي، وإن الفاجر إذا أصابه الله

(١) أي تموت وفي بطنها ولد.

عز وجل بشيء من البلاء، ثم عافاه كان كالبعير عَقَله أهله ثم أطلقوه، لا يدري فيما عَقَلوه، ولا فيما أطلقوه.

وقال قيس بن حازم: طلَّق خالد بن الوليد امرأته، ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان، لأي شيء طلقتَها؟ قال: ما طلقتُها لأمر رابني منها ولا ساءني، ولكن لم يصبها عندي بلاء.

وقال الحسن البصري: كان الرجل منهم (أو من المسلمين) إذا مرَّ به عام لم يُصَب في نفسه ولا ماله، قال: ما لنا أتودع الله منا[1]؟!

ودخل النبي ﷺ على رجل من أصحابه، وهو مريض، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أجدني راغباً وراهباً، قال: «والذي نفسي بيده لا يجتمعان لأحد عند هذه الحال إلا أعطاه الله ما رجا، وأمَّنه مما يخاف».

ويكره للمريض تمني الموت، وإنما عليه أن يتفاءل برحمة الله وفضله، أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدُكم الموت من ضُر نزل به، فإن كنتم لا بد فاعلين، فليقل: اللهم أحينا ما كانت الحياة خيراً لنا، وتوفنا إذا كانت الوفاة خيراً لنا».

والمرض يطهِّر صاحبه من الذنوب، لما روى البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي إذا قيدتُ عبدي بقيد من قيودي، فإن أقبضْه أغفرْ له، وإن أعافه فجسد مغفور لا ذنب له».

روى البيهقي أيضاً عن أبي أيوب الأنصاري قال: عاد رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار، فأكبّ عليه فسأله، فقال: يا نبي الله، ما غمِضتُ منذ سبع ليال، ولا أحد يحضرني، فقال رسول الله: «أي أخي اصبر، أي

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ١٧٨-١٧٩.

أخي اصبر، حتى تخرج من ذنوبك كما دخلت فيها، ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا».

وروى البيهقي من طريق ابن عدي في المصنف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليبتلي عبده بالبلاء والهم، حتى يتركه من ذنبه كالفضة المصفاة».

ومن فضل الله تعالى أنه لا ينقص أجر المريض والمسافر عن حال الصحة والإقامة، أخرج أحمد والبخاري عن أبي سعيد الخدري والبيهقي عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً».

وروى البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «ما من أحد من المسلمين يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله عز وجل الحفظة الذين يحفظونه، أن اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة مثل ما كان يعمل من خير ما دام محبوساً في وثاقي».

وأخرج أبو داوود الطيالسي عن أبي مسعود قال: كنا عند النبي ﷺ فتبسم قال: فقلنا: يا رسول الله، تبسمتَ؟ قال: «عجبتُ للمؤمن وجزعه من السَّقَم، ولو يعلم ما في السقم أحبَّ أن يكون سقيماً حتى يلقى الله عز وجل».

وأخرج الإمام مالك عن عطاء بن يسار قال رسول الله ﷺ: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملَكين، فيقول: انظرا ما يقول لعوّاده. فإن هو إذ جاؤوه حمد الله وأثنى عليه، رفعا ذلك إلى الله عز وجل وهو أعلم، فيقول: لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته».

لكن دخول المريض الجنة مشروط بعدم الشكوى إلى زوّاره، لما رواه البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: إذا ابتليتُ عبدي المؤمن، ولم يشتك إلى عوّاده، أطلقتُه من إساري، ثم أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل».

هذه الميزات للمريض تختص بالمؤمن، لما أخرجه مسلم في الصحيح عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبتُ من قضاء الله لعبده المؤمن، كل له فيه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابه سراء فشكر، له أجران، وإن أصابه ضراء فصبر، فله أجر، وكل قضاء الله للمسلم خير».

الألطاف الإلهية بالمريض

الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى، وهي نعمة إلهية عظيمة لتمكين الإنسان من ممارسة قدراته وأداء واجباته الدينية والدنيوية، لكن المرض الذي لا يخلو منه إنسان أحياناً هو نعمة وفيه حكمة ربانية، لما فيه من ضعف يكون سبيلاً إلى استعادة القوة وتخليص الجسد من ضرر أعظم، والله تعالى قد يبتلي المرضى ليسمع دعاءهم وتضرعهم لكشف ما بهم من ضر، وهو سبحانه رحيم بعباده يمدهم بالعون، ويعجل لهم الشفاء، ولكن لا بد للمريض من الصبر على بلائه، لأن المرض يزول ببطء لا بسرعة عادة.

أخرج البيهقي في شعبه عن أبي الدرداء يقول: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «إن الله تبارك وتعالى قال: يا عيسى، إني باعث من بعدك أمة إذا أصابهم ما يحبون يحمدون الله، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا

وصبروا، ولا حلم ولا علم[1]. فقال: يا رب، كيف يكون هذا لهم ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيهم من حلمي ومن علمي».

وأخرج العقيلي وابن عدي في الكامل عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل الله المعونة على قدر المؤونة، وأنزل الصبر عند البلاء».

وأخرج البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه[2] ثم صبر، عوضته بهما الجنة». أي إن فقد البصر جزاؤه الجنة بشرط توافر الصبر.

وينبغي أن يعلم كل إنسان أن المصيبة بالمرض وغيره هي من عند الله لحكمة لا نعلمها غالباً، لقول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١١] قال علقمة بن قيس: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم.

وقال ذو النون المصري: ثلاثة من أعلام الهدى: الاسترجاع عند المصيبة، والاستكانة عند النعمة، ونفي الامتنان عند العطية.

وقال إبراهيم المقري، وقد رَفَسْته بغلته، فكسرت رجله: لولا مصائب الدنيا قَدِمنا على الله مفاليس.

وقال الحسن البصري: دخلنا على عمران بن حصين في وجعه الشديد، فقال له رجل: يا أبا نجيد، والله إني لأيأس من بعض ما أراك، قال: لا تفعل، فإن أحبَّه إليّ أحبه إلى الله، قال الله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠] هذا ما كسبت يداي، ويأتي عفو ربي فيما يبقى.

---

(١) أي عندهم.

(٢) أي بعينيه.

إن عمران بن حصين الصحابي الجليل لم يتبرم من وجعه الشديد، والتزم الأدب مع الله ربه، فنسب سبب مرضه لنفسه، وفوَّض الأمر فيه لربه، ووثق بعفو خالقه.

وعلى المريض أن يدرك أنه في مرضه تغمره رحمة الله وألطافه، لأن رحمة الله شاملة لكل مخلوق في العسر واليسر، والشدة والفرج، والضعف والقوة، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٦] وقال عز وجل: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢].

وأدب المريض مع ربه وإيمانه بخالقه يوجب عليه تفويض الأمر بالشفاء إلى الله العلي القدير، الرحيم الحكيم، ويكون ترقبه لنزول رحمة الله عبادة وخضوعاً، روى البيهقي عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «انتظار الفرج بالصبر عبادة». وروى أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «أفضل العبادة توقع الفرج».

والتجارب الإيمانية ترشد في كل وقت إلى أن اللطف الإلهي قريب دائماً من الإنسان، روى الحاكم عن طه ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين». أي مع كل عسر يسران يحيطان به، وهو مأخوذ من قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٩٤/ ٥-٦]. ويقول الله عز وجل معلِّماً الإنسان بألا يتعجل النتائج في تحقيق الشفاء من المرض: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٠٠] أي إن كل شدة تتطلب ثلاثة أمور: الصبر على المشقة، ومغالبة النفس على الشدة، وملازمة التقوى لله في السر والعلن، للفوز برضوان الله ورحمته وجنته.

وثواب الصبر مفتوح متروك لكرم الله وفيوضاته الواسعة، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٠] وقال عز

وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٤] أي إن السلام الإلهي والطمأنينة كانا بسبب الصبر على المرض وغيره، وترك اليأس والضجر والتبرم، إنه سلام شامل بما احتملتم أيها الناس من المكاره، وصبرتم عن اللذات في الدنيا.

ومن إكرام الله للمريض أن دعاءه لا يرد، لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٢] وأخرج البيهقي في شعبه والحافظ المنذري في الترغيب، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ».

الأدب عند المصائب

المصائب كثيرة في هذا العالم، ومن أخطرها الزلازل والفيضانات والسيول والصواعق، وآفات المزارع من صقيع ورياح وشدة حر تحرق الأخضر كله، وتسلّط بعض الحيوانات كالجراد وأمراض النبات، والحيات والعقارب، والوحوش الضارية، والحروب والاعتداءات البشرية الظالمة من المستكبرين والطغاة والعابثين بأمن البشرية جمعاء، واغتصاب الثروات والبلاد، وقتل الأنفس، وإثارة النُّعرات الطائفية، والتورط في القتل الجماعي، والنزاعات الداخلية والخارجية، وإهدار كرامة الإنسان، وسفك الدماء العزيزة في كل مكان، ولا سيما في الأرض الإسلامية والعربية.

ويعجب الإنسان كل العجب مما يشاهد حوله من بِرَك الدماء، وساحات أشلاء الأجسام، وتفحم الجثث بالحرائق والسيارات المفخخة ونحوها من استعمال وسائل الدمار والإبادة الجماعية، بسبب عدوان المستعمرين وبغي الظالمين، وتجبر الطغاة، وفساد المجرمين.

فكيف تكون النجاة من المصائب والدواهي العامة والخاصة؟ العلاج سهل وبسيط يكمن في كفّ المعتدين وانسحاب المحتلين المستعمرين الجدد، وإيقاف ظلم الصهاينة الأشرار مفجري الأحداث والحروب في كل مكان.

ثم بعدئذ على الناس العودة إلى تحكيم شرع الله وقرآنه، وإيقاف سفك الدماء، ورقابة الله في السر والعلن، ولا بد من إلجام ألسنة طغاة التعصب الطائفي، وبتر عوامل الحقد والتعصب والكراهية من أناس يزعمون أنهم مصلحون وهم مفسدون، مثل أعمال طغاة العراق ممن أكل الحقد الطائفي قلوبهم، وألهب نفوسهم ظلماً وعتواً للثأر التاريخي والبغي وممارسة العدوان على إخوانهم في الدين والوطن والإنسانية.

وعلى أهل المصيبة التزام الأدب الديني عند الصدمة الأولى، فإن الصبر عند المصائب ضرورة حتمية، ومن ضرورات الصبر ألا يشق المصابُ ثوبه، ولا يلطم وجهه، ولا يخدش بشرته، ولا تفعل المصابة شيئاً كذلك، ولا تقطع شعرها، ولا ترفع صوتها بالبكاء، ولا تنوح على الدوام أو عقب الصدمة.

وروى البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وروى مسلم في الصحيح عن أبي بُرْدة عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني بريء ممن حلق، وسلق وخرق». أي بريء ممن حلق الشعر ورفع صوته عند المصيبة، وخرق الثوب وشق الجيب (قطع أعلى القميص فوق الصدر).

روى البيهقي في شعبه عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة، عليها سربال من قَطِران،

ودرع من جَرَب». وعن أبي سعيد الخدري قال: «لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة».

أما البكاء المجرد من غير نُواح فمباح، لما رواه البيهقي أيضاً عن جبر بن عَتيك عن عمه أنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على أهل البيت من الأنصار، فوجدهم يبكون على ميت لهم، فقيل لهم: تبكون، وهذا رسول الله ﷺ؟! فقال النبي ﷺ: «دعهن يبكين ما كان عندهن، فإذا وجب[1] فلا يبكين باكية».

ومن أدب المصاب الاسترجاع أي قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٦-١٥٧].

أي أن الله تعالى وعد على الاسترجاع ثلاث خصال: هي المغفرة، والرحمة، والهداية. قال مطرِّف: كل واحدة من هذه الخصال أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وموت القريب وغيره إنذار بموت كل حي، لقوله تعالى مخاطباً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٠] فهذا إخبار من الله عز وجل أنا سنموت.

وكتب الإمام الشافعي محمد بن إدريس رحمه الله إلى عبد الرحمن بن المهدي الذي جزع جزعاً شديداً على موت ابن له: أما بعد فعزِّ نفسك بما تعزي غيرك، ولتستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن أمضى المصائب فقد سرور، مع حرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا على اكتساب وزر، وأقول:

---

(١) أي إذا أدخل القبر.

إني معزّيك، لا إني على طمع من الخلود، ولكن سنة الدين

فما المعزى بباق بعد صاحبه ولا المعزي، ولو عاشا على حين

وروى البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن ليشدد عليه، وليس من مؤمن يصيبه نكبة أو وجع إلا حَطَّ الله عنه خطيئة، ورفع له بها درجة».

وقال ابن مسعود فيما رواه البيهقي: إن النبي ﷺ إذا نزل به كرب، قال: «يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث».

وأخرج الترمذي والحاكم عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر».

ورواية البيهقي عن ثوبان، قال النبي ﷺ: «لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

الأصل السبعون من أصول الإيمان

الزهد وقصر الأمل

إن الإسلام دين الاعتدال والقناعة والتوسط في التنعم، أما الإغراق في النعم، والترف، والإسراف، والتهور في طلب متاع الدنيا وزينتها فهو مذموم، لا يأتي بخير، قال الله تعالى ناعياً الدنيا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠].

والإنسان في الدنيا مطالب بالاستعداد لحياة الآخرة والخلود، فلا يكتفي بإغراءات المال والجاه والثياب والطعام والشراب، وهو مقيد بقيدين: قصر العمر وطول الأمل.

وليست الدنيا دار خلود، والقيامة قريبة الحصول والحدوث، قال الله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ٤٧/ ١٨] أي اقترب تحقيق علاماتها. وقال النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(١). أي السبَّابة والوسطى، وأشار النبي ﷺ إليهما.

---

(١) أخرجه أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) والترمذي عن أنس بن مالك، ورواه أيضاً أحمد والشيخان عن سهل بن سعد.

دلت الآية والحديث على أن أجل الدنيا قريب، فيقبح من الواحد أن يطيل أمله. روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة إلى مغيربان الشمس وقال: «ألا إن ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه».

وروى البخاري في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».

وكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك، وخذ من حياتك لموتك»(١).

وإذا كان العمر قصيراً، والساعة قريبة، فعلى كل إنسان اغتنام فرصة الحياة، روى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شَغْلك، وحياتك قبل موتك».

ومما يساعد الإنسان على العمل الصالح في حياته ما قال رسول الله ﷺ فيما يرويه البخاري في الصحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

وعمر الإنسان يتراوح فيما بين الستين والسبعين، بدليل ما استشهد به البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه في العمر». وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادٍ يوم القيامة: أين أبناء الستين؟ وهو

---

(١) ورواه البخاري في الصحيح بلفظ: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من حسناتك لمساوئك».

العمر الذي قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٧]».

والإنسان بطبيعته يحب الحياة، لما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم، ويبقى اثنتان: الحرص والأمل». وفي رواية لمسلم في الصحيح: «يهرم ابن آدم، ويشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر». وأخرج الترمذي[(١)] والنسائي عن ابن كعب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأشد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

ويحرص المرء على جلب المال وجمعه، ثم لا يأخذ معه شيئاً في قبره، روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن الزبير يقول في خطبته: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قال: «لو أن ابن آدم أعطي وادياً مليئاً ذهباً أحب إليه ثانياً، ولو أعطي ثانياً أحبَّ إليه ثالثاً، وأنه لا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «منهومان لا يشبعان: منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها».

وليس للإنسان من ماله إلا ما أكل أو لبس أو أعطى، لما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول العبد: مالي مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتارك للناس».

وما أجدر الانتباه لوصية الإسلام في النظر إلى الناس، كما روى مسلم في الصحيح والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) وقال: حسن صحيح.

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم».

والتحذير من الانجراف في زخارف الدنيا من أصول الإسلام، أخرج البخاري في الصحيح عن خولة بنت قيس أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الدنيا خضرة حلوة وإن رجالاً سيخوضون في مال الله بغير حق، لهم النار يوم القيامة».

نظرات في الزهد ومعايير الحياة

إن الشطط في كل شيء قبيحٌ لا يؤدي إلى ثمرة نافعة، وإن الغلو والإسراف في الأشياء يعقبه الندم، والسعيد التقي من وفِّق إلى الخير وفعله، وابتعد عن الشر وأهله، ولم يجعل للشيطان على نفسه سبيلاً، ولم يكن منقاداً للأهواء والشهوات، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٥].

ومن ألوان الزهو والغرور ثلاثة، روى البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد ما أتخوف على أمتي ثلاثاً: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم، فاتهموها على أنفسكم».

وروى البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمد».

ومن الأمثلة المشرفة في تاريخ الصحابة الكرام عن القناعة والزهد ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: لقد كان أصحاب الصُفّة سبعين رجلاً ما لهم أردية. وروى البيهقي عن واثلة بن الأسقع قال: كنت من

فقراء المصلين من أهل الصُّفة، فأتانا النبي ﷺ ذات يوم، فقال: «كيف أنتم بعدي إذا شبعتم من خبز البُرّ والزيت، وأكلتم ألوان الطعام، ولبستم أنواع الثياب، فأنتم اليوم خير أم ذاك؟» قلنا: أو ذاك، قال: «بل أنتم اليوم خير». قال واثلة: فما ذهبتْ بنا الأيام حتى شبعنا من خبز البر والزيت، وأكلنا ألوان الطعام، ولبسنا ألوان الثياب، وركبنا المراكب.

وأوضح النبي عليه الصلاة والسلام سبب خيرية الصحابة مع الحاجة والفقر بقوله: «بل أنتم اليوم متحابّون، وأنتم يومئذ متباغضون، يضرب بعضكم رقاب بعض». وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أيُّ قوم أنتم؟» قال عبد الرحمن[1]: نقول كما أمرنا الله عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟ تتنافسون ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكن المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض».

وأخرج البيهقي[2] خمسة أحاديث: الأول عن عروة بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون من الدنيا ما أعلم لاستراحت أنفسكم منها».

والثاني عن علي قال: ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم، إن أدناهم منزلة يشرب من ماء الفرات، ويجلس في الظل، ويأكل من البُرّ، وإنما أنزلت هذه الآية في أهل الصُّفّة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٧] وذلك لأنهم قالوا: لو أن لنا، فتمنوا الدنيا.

والحديث الثالث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أي ابن عوف.
(٢) شعب الإيمان ٧/ ٢٨٦.

«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

والحديث الرابع عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همته، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة همته، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له أمره، وأتته الدنيا راغمة». وهذا موافق للحديث المتقدم، لأنه إذا أحب الآخرة لم يبالغ في طلب الدنيا، وهذا إضرار بها، ثم يأتيه منها ما كتب له منها بمشيئة الله عز وجل.

والحديث الخامس عن أبي هريرة قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٠] ثم قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً، وأسد فقرك، وإلا تفعل، ملأتُ صدرك شغلاً، ولم أسدّ فقرك».

والقناعة في طلب المال ثروة وكنز لا يفنى، لما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة المال والعرض، ولكن الغنى غنى النفس». ولفظ الأكثر من دون لفظ «المال».

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه».

وروى البيهقي عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧] قال: القنوع، وكان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم أقنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير».

ومن العجيب الدعاء النبوي فيما رواه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً».

والعفة أساس عزة النفس، أخرج البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه عن عبيد الله بن محصن قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

خير الرزق وطريق كسبه وإنفاقه

ضمن الله تعالى الرزق لمخلوقاته بشرط السعي والكسب والجهد والمنافسة الشريفة، ليكون هناك تمييز بين العاملين والمهملين المقصرين، فقال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٢-٢٣] وطلب السعي لقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥].

وعلى المؤمن أن يكون رزقه حلالاً طيباً، لا حراماً ولا مشبوهاً فيه، وأفضل الرزق وخيرُه الكفاية، كما قال النبي ﷺ - فيما رواه أحمد - عن سعد بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي». ومعناه ثابت في الحديث الصحيح.

ويَجْمعُ بين الحل والخيرية حديث رواه مسلم في الصحيح عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي». أي المؤدي واجباته، والمجتنب نواهيه، وغني النفس، والمستور غير المباهي.

والمؤمن يؤثر الآخرة على الدنيا لقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٦-١٧] ولما رواه الطيالسي عن ثوبان

مولى النبي ﷺ قال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم على قصعتهم» قيل: من قلة؟ قال: «لا، ولكنه غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم بحبكم الدنيا وكراهية الموت»(١).

والله يبارك للمنفق، ويتلف مال البخيل الممسك وأخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طلعت شمس قط، إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان، إنهما يُسمعان مَنْ على الأرض غيرَ الثقلين: يا أيها الناس، هلمّوا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً».

والمفاخرة بالمال تغضب الله تعالى، أخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «من طلب الدنيا حلالاً مفاخراً مكاثراً، لقي الله وهو عليه غضبان، ومن طلب الدنيا حلالاً استعفافاً عن المسألة، وسعياً على عياله، وتعطفاً على جاره، لقي الله يوم القيامة، ووجهه كالقمر ليلة البدر».

والرزق مضمون ويأتي إلى صاحبه ولو على ضعفه، أخرج ابن أبي شيبة والبغوي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس شيء يقربكم من الجنة، ويباعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في رُوعي(٢) أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يُدْرَك ما عند الله إلا بطاعته».

---

(١) بهذا الإسناد روي موقوفاً. ورواه البيهقي من وجه آخر عن ثوبان عن النبي ﷺ مرفوعاً، وله لفظ آخر مشهور.

(٢) أي نفخ في قلبي.

والسعي على النفس والوالدين جهاد في سبيل الله، أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية[1]، فلما رأيناه بأبصارنا قلنا: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله عز وجل! فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال: «وما سبيل الله إلا من قُتل؟! من سعى على والديه فهو في سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان».

والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء، روى البيهقي عن سالم بن عبد الله عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً». قالوا: من هم يا رسول الله؟ صفهم لنا، قال: «هم الشَّعَثة رؤوسهم، الدنِسة ثيابهم، الذين لا يؤذن لهم على السُّدَّات (أي الدور) ولا ينكحون المتنعمات من كل مشارق الأرض ومغاربها، يُعْطون كل الذي عليهم، ولا يُعْطَون كل الذي لهم». وفي حديث عن أبي هريرة: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مئة عام، نصف يوم».

والفقراء أكثر أهل الجنة، أخرج البخاري في الصحيح عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء». ولفظ رواية مسلم عن ابن عباس: «اطلعت في الجنة فإذا عامة أهلها الفقراء والمساكين، واطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء».

وعابد المال تعيس، روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «تعس عبد الدينار، وعبد الخميصة[2]، وعبد الدرهم، إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

---

(١) طريق العقبة.

(٢) الخميصة مؤنث الخميص، ثوب أسود مربع.

جزاء الزاهدين

إذا توافرت صفة الزهد في بعض الناس، وهم قلائل جداً، كان الزاهد أقرب الناس مجلساً من النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، لما أخرجه أبو نعيم في الحيلة عن عراك بن مالك قال: سمعت أبا ذر يقول: إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، وذاك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أقربكم مني مجلساً مَنْ خرج من الدنيا كهيئته كما تركته فيها». وأنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبَّث منها بشيء.

ومن خوارم الزهد مثلاً اتخاذ الخادم، لرسالة سلمان إلى أبي الدرداء وفيها: وإنه بلغني أنك جَعَلت طبيباً، فإن كنت تبرأ فنعم مالك، وبلغني أنك اتخذت خادماً، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد لا يزال من الله، والله منه، ما لم يُخْدَم، فإذا خُدِم، وجب عليه الحساب».

وسيد الزُّهاد هو رسول الله ﷺ، لما أخرجه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «عَرَض علي ربي عز وجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا، يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جُعْت تضرعت إليك ودعوتك». هذا موقف فذّ، وموقف آخر. وهو ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن عبد الله بن عباس، يحدِّث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء رسولَ الله ﷺ، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أَدَم[١]، حشوها ليف، وعند رجليه قَرَظ[٢] مصبوغ، وعند رأسه

(١) جِلْد.
(٢) هو قشر البلوط، أو ورق السُّلَم يدبغ به.

أَهَب[١] معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنب رسول الله ﷺ. فبكيت، فقال: «ما يبكيك؟» قلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر على ما هما، وإنك يا رسول الله على ما أنت عليه، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة؟».

وأخرج البخاري في الأدب عن ابن عباس عن عمر في الحديث المتقدم قال: قلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسِّع على أمتك، فقد وَسَّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً، وقال: «في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا».

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يمكث الليالي المتتابعات طاوياً، وأهله لا يجدون عَشَاء، وكان خبزهم خبز شعير أو عامة خبزهم خبز شعير.

وعن عائشة، ودعي لها بطعام، قالت: قلَّ ما أشبع من طعام، فأشاء أن أبكي إلا بكيت، ثم قالت: أذكرُ الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، فو الله ما شبع من خبز البُرّ مرتين في اليوم، حتى لحق بالله عز وجل. وقالت أيضاً: أن كان ليمر الشهر على ذَنَبه، وما نرى في بيت رسول الله ﷺ بصيص نار لمصباح ولا لغيره. أو: كان يأتي على آل رسول الله ﷺ شهر ما لهم سراج توقد، ولو كان. وفي رواية: كان يمر بنا هلال وهلال وهلال[٢] ما يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ من نار، فقال ابن أختها عروة بن الزبير: يا خالة، على أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء.

---

(١) جمع إهاب وهو الجلد مالم يدبغ.
(٢) أي مدة ثلاثة أشهر.

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان لي مثل أحد ذهباً، لسرني ألا يمر علي ثلاث ليالٍ، وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدَين».

وأخرج البخاري أيضاً عن عقبة بن حارث، أن النبي ﷺ صلى العصر، ثم خرج مسرعاً، فقيل له: يا رسول الله، خرجتَ مسرعاً؟ قال: «كان عندي تبر(١)، وكرهت أن يبيت عندي، فأمرت بقسمته».(٢)

وأخرج مسلم عن عائشة قالت: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء.

هذا الصبر والتقشف الشديد من النبي عليه الصلاة والسلام وآل بيته، ليضرب المثل للجائعين والمحرومين في العالم.

وكذلك كان بعض الصحابة في تقشف وجوع وفقر، وأخرج الترمذي وقال: صحيح، عن فضالة بن عبيد قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس، فيخرُّ رجال من قامتهم في الصلاة مما بهم من الخصاصة(٣)، وهم من أصحاب الصُّفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء لمجانين، فإذا قضى رسول الله ﷺ الصلاة، انصرف إليهم، فقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله عز وجل لأحببتم لو أنكم تزدادون فاقة وحاجة». فقال فضالة: وأنا مع رسول الله ﷺ يومئذ.

وروى البخاري عن أبي هريرة: ولقد رأيتني وإني لأخِرّ من منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة، مغشياً علي، فيجيء الجائي، فيضع رجله على عنقي يرى أني مجنون، وما بي من جنون، وما بي إلا الجوع.

---

(١) أي ذهب.

(٢) الجملة الأخيرة من رواية غير البخاري.

(٣) الحاجة الشديدة.

وروى الترمذي[١] عن قتادة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحب الله عز وجل عبداً، حماه الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الماء والطعام». وفي لفظ «كما يحمي أحدكم سقيمه الماء».

حال الدنيا والآخرة

وردت كلمة الدنيا في القرآن الكريم (١١٣) مرة، أغلبها في معرض الذم، وأنها مؤقتة، وأنها متاع الغرور (المغترين) وأن الناس ينخدعون بالدنيا وهي إلى فناء وزوال، قال الله تعالى في تشبيه مركّب: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤]. هذا مصير الدنيا لكل من يتأمل فيها.

ووردت أحاديث كثيرة في ذم الدنيا وانخداع المنحرفين بها، منها بعبارة موجزة ما أخرجه البخاري عن فضيل بن عياض في معنى قوله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر»[٢]، قال: هي سجن من ترك لذاتها وشهواتها، فأما الذي لا يترك لذاتها ولا شهواتها فأي سجن هي عليه؟.

ومنها ما رواه البيهقي عن المستورد، قال: كنت عند النبي ﷺ، فتذاكروا الآخرة، فقال بعضهم: أما الدنيا بلاغ إلى الآخرة، فيها العمل، وفيها الصلاة، وفيها الزكاة، وقالت طائفة منهم: الآخرة منتهى الجنة، وقالوا ما شاء الله، فقال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة،

---

(١) وقال: حسن غريب.

(٢) الذي رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي عن أبي هريرة.

إلا كما يمشي أحدكم إلى اليم، فأدخل أصبعه فيها، فما أخرج منها فهي الدنيا». أي إن الدنيا بالنسبة للآخرة كقطرة أو مقدار ما يصيب الإصبع من الماء.

وما أجمل التوجيه النبوي حين يرى الإنسان شيئاً جميلاً في الدنيا، فيقول، كما روى البخاري عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة».

وأخرج ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: مرَّ رسول الله ﷺ بذي الحُلَيفة، فرأى شاة شائلة برجلها، فقال: «أترون هذه الشاة هينةً على صاحبها؟» قالوا: نعم، قال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله عز وجل من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سُقي كافر منها شربة».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتين الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن جناح بعوضة، ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٥]». هذه موازين الدنيا والآخرة عند الله تعالى.

ومن الموازين الإلهية تفضيل من لا يؤبه له في الدنيا، أخرج مسلم في الصحيح عن سويد بن مسعود، والبيهقي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ربَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». وحديث أنس بن مالك عند مسلم: «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين[1] لو أقسم على الله لأبره».

---

(١) الطِّمْر الثوب الخَلَق (البالي).

وتفضيل الفقراء أيضاً لما أخرجه البيهقي عن ثوبان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حوضي من عدن أبين إلى عمَّان البلقاء، أكوازه مثل عدد نجوم السماء، ماؤه أحلى من العسل، أشد بياضاً من اللبن، من شرِب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً، أول من يرد على حوضي فقراء أمتي».

وميزان التفاضل عند مشركي قريش، ومثلهم كل غني مترفع هو المال والثراء، لما أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم ابن مسعود، قال ناس من قريش: هؤلاء السفلة هم الذين يلونك، فوقع في نفس النبي ﷺ، فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢-٥٣].

وبشَّر الله الضعفاء بدخول الجنة قبل الأغنياء، روى أبو داوود عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة، تدخلون الجنة قبل أغنياء المؤمنين بنصف يوم مقداره خمس مئة عام».

وأخرج البيهقي عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ما تنصرون ولا ترزقون إلا بالضعفاء».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن أسامة بن زيد، أن النبي ﷺ قال: «قمت على أبواب الجنة، فإذا عامة من يدخلها المساكين، وقمت على باب النار فإذا عامة من يدخلها النساء».

وأخرج البيهقي عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة».

الاستعداد للآخرة

التدين في شرعة الإسلام قائم على أصلين: كون الدنيا مزرعة للآخرة، والإيمان بالقيامة وما فيها من جنة ونار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: ١٠/ ٩-١٠].

أما الدنيا فتتطلب ثلاثة أمور، كما ثبت في السنة النبوية فيما يرويه البيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيه ثلاث خلال: فقهَّه في الدين، وزهَّده في الدنيا، وبصّره عيوبه». وهو حديث مرسل. وروى ابن عدي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن». وهو حديث مرسل أيضاً.

لذا يطلب الاستعداد للموت، وتغليب الحسنات على السيئات، روى البيهقي خمسة أحاديث، الأول عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أكيس المؤمنين ذكراً أحسنهم للموت استعداداً أولئك الأكياس». أي الفطنون الحلماء غير الحمقى.

والثاني عن ابن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٥] فقال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح». فقيل: يا رسول الله، هل لذلك من عَلَم

يعرف؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

والثالث: عن عثمان بن عفان ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده شر منه، ثم قال: ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه».

والرابع: عن عمار بن ياسر قال: كان النبي ﷺ يقول: «كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شُغْلاً».

والخامس: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذِكْر هاذم اللذات، فإنه لا يكون في كثير إلا قلّله، ولا في قليل إلا أجزاه».

وأخرج جماعة[(١)] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قلنا: إنا نستحي من الله والحمد لله، قال رسول الله ﷺ: «من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

يؤكده حديث آخر في معناه رواه البيهقي عن أم المنذر قالت: اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس، فقال: «أيها الناس، أما تستحيون الله؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تعمرون».

وعلى كل عاقل المبادرة إلى العمل الصالح في الدنيا قبل أن يفجأه الموت، فيندم، ولات ساعة مندم، أي فلا ينفعه الندم، أخرج الترمذي والحاكم[(٢)] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «بادروا بالأعمال سبعاً،

---

(١) هم الإمام أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي في شعبه.

(٢) والبيهقي.

ما تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب منتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمر».

وفي حديث مرسل رواه البيهقي عن زرعة بن عبد الله البياض، أن النبي ﷺ قال: «يحب الإنسان الحياة، والموت خير لنفسه، ويحب الإنسان كثرة المال، وقلة المال أقل لحسابه». وهذا كلام واضح للتخفيف من المسؤولية.

والإنذارات كثيرة، يختمها الموت لكل ظالم أو فاجر أو فاسق أو كافر، روى البيهقي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا وإن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

وفي إعلان مشابه لأقارب النبي ﷺ ذكره البيهقي أيضاً عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا بني قُصي، أنا النذير، والموت مغير، والساعة الموعد».

وفي بيان يشمل مختلف فئات المؤمنين، ذكره البيهقي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء قادة، والفقهاء سادة، ومجالستهم زيادة، وأنتم في ممر الليل والنهار على آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتيكم بغتة، فمن يزرع خيراً يحصد رغبة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة».

وهذه قصة في الحارث بن مالك[١]، روى البيهقي في شعبه وغيره أن الحارث بن مالك مرَّ برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول، إن لكل حق حقيقية،

---

(١) وإن ضعف سندها، فيعمل بها في فضائل الأعمال.

فما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاعون فيها[1]، قال: «يا حارثة عرفت فالزم، قالها ثلاثاً».

مواقف عملية للصحابة من الزهد

تربىّ الصحابة الكرام في مدرسة النبوة، فكانوا خير مثال للأجيال في الالتزام بتوجيهات نبيهم عليه الصلاة والسلام، وتمثلوا الهدي النبوي في سيرتهم وأعمالهم، وكانوا عناوين بارزة خالدة، وأسوة فريدة في العمل واليقين، ذكر هذه الأمثلة الإمام البيهقي في شعب الإيمان[2]:

من هذه الأمثلة في السيرة أبي بكر الصديق ﷺ، حيث قال في خطبة له: «أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة والرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسلمين، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

ثم اعلموا عباد الله أنكم تَغْدُون وتروحون في أمل قد غيِّب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا تنقضي آجالكم إلا وأنتم في عمل الله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله عز وجل، فسارعوا في مهل، إياكم قبل أن تنقضي آجالكم، فتردكم إلى أسوء أعمالكم، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم، فأنهاكم أن تكونوا أمناً لهم، الوَحَا الوَحَا[3]، ثم النجا النجا،

(١) أي يضجون ويتصايحون.
(٢) ٧/ ٣٦٣-٣٨٨.
(٣) يعني البدار البدار، أي السرعة السرعة.

فإن من ورائكم طالباً حثيثاً مرُّه سريع». يعني الموت. إن هذه الخطبة تعد درساً بليغاً وعظة نافذة تقرر مصير الأحياء حتماً.

وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى بعض عماله، فكان في آخر كتابه: «أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل الشدة، عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشُغْله بهواه، عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به، لكي تنتهي عما يُنتهى عنه». هذه نظرة مستقبلية واعية وواعدة وصادقة.

وقالت حفصة بنت عمر لعمر أمير المؤمنين: لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك، فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير. قال: سأخاصمك إلى نفسِك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش؟! فما زال يكررها حتى أبكاها، فقال لها: إني قد قلت لك: إني والله لئن استطعتُ لأشاركهما بمثل عيشهما الشديد،لعلي أدرك عيشهما الرضي. هذا هو الصدق والإخلاص والتأسي.

وكان آخر خطبة خطبها عثمان ﷺ في جماعة: «إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، لم يُعطكموها لتركنوا إليها، إنما الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، لا تُبطركم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، آثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله عز وجل، اتقوا الله، فإن تقواه جُنّةٌ من بأسه، ووسيلة من عنده، واحذروا من الله العبر، والزموا جماعتكم، ولا تصيروا أحزاباً ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٣-١٠٤]». إنها خطبة البصير بأحوال الدنيا المؤقتة، وأحوال الآخرة الباقية الخالدة.

وقال علي رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فإنه يصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة». هذه عظة بليغة تحذر من اتباع الأهواء والشهوات، ومن الاسترسال في طول الأمل.

وهي خطبة شبيهة بما رواه جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أتخوف على أمتي الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة، وهذه الآخرة مرحلة قادمة، ولكل واحدة منهما بنون، فإن استطعتم ألا تكونوا من بني الدنيا فافعلوا، فإنكم اليوم في دار العمل ولا حساب، وأنتم غداً في دار الحساب ولا عمل».

وروى علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النار لَهَا عن الشهوات، ومن ترقب الموت، هانت عليه اللذات، ومن تزهد في الدنيا هانت عليه المصيبات».

وقالوا لعلي بن أبي طالب: يا أبا حسن، صف لنا الدنيا، قال: أُطيلُ أم أُقصر؟ قالوا: بل أقصر، قال: «حلالها حساب، وحرامها النار».

ويجمع هذه الوصايا كلها ما أخرجه أحمد والبيهقي في شعبه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

وقال عبد الله بن مسعود: ما أصبح منكم أحد إلا وهو ضيف، وماله عاريّة، والضيف مرتحل، والعاريّة مؤداة إلى أهلها.

قال عرفجة: استقرأتُ ابن مسعود ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فلما بلغ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة، لأنا رأينا سقياها، وزينتها طعامها وشرابها، فزُويت عنا الآخرة، فاخترنا العاجل على الآجل.

التفاخر في المباني والدور

إذا كان البناء لحاجة عامة أو خاصة، فيباح لتحقيق المأوى، سواء أكان عالياً أم وطيئاً، وأما إن كان البناء للمباهاة والتطاول والمفاخرة فهو قبيح لا يصح فعله، حتى يوجّه المال إلى استغلاله فيما ينفع الأمة والمجتمع، وهذا يدل على وسطية الإسلام واعتداله في الإنفاق، وشأن الإسلام في كل شيء هو التوسط دون غلو ولا تطرف، ولا إسراف ولا تبذير، بل ولا بخل ولا تقصير. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٢٩].

سئل محمد بن سيرين من التابعين عن بناء بناه صاحبه، فزخرفه، فقال: ما أعلم على رجل بأساً أن يبني بناء يلتمس جماله. وهذا في دائرة الإباحة.

وروى البيهقي عن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من بنى بنياناً في غير ظلم ولا اعتداء، كان أجره جارياً عليه بما انتفَع به أحد خَلْق الرحمن». وفيه دلالة على أن تحقيق الانتفاع من البناء محقِّق للغاية ولا بأس به، بقصد الإيواء والتخلص من البرد والحر ونحوهما.

أما البناء الذي يراد به الزينة فقط، أو التفاخر والتطاول أو المباهاة بإشادة القصور دون تحقيق نفع مقصود شرعاً، فهذا مذموم شرعاً، ويعد من أمارات أو علامات اقتراب الساعة، أي القيامة.

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان». وروى أحمد وابن حبان عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد».

وروى البخاري أيضاً عن سعيد بن العاص قال: مررت مع ابن عمر برجل يبني بيتاً له، فنظرته، فقال: ابنَ أخي لقد رأيتني بنيت على عهد رسول الله ﷺ بيتاً بيدي، يُكِنُّني من المطر، ويُظِلُّني من الشمس، ما أعانني عليه أحد من خلق الله عز وجل.

وروى البيهقي عن ابن مسعود قال: نفقة الرجل على نفسه وأهله وصديقه وبهيمته له فيها أجر إلا نفقة في بناء، إلا أن يكون مسجداً، فقيل له: فإن كان بناء كفاف[1]؟ قال: فذلك الذي لا له ولا عليه، فقيل له: فإن كان فوق الكفاف؟ قال: عليه وزره ولا أجر له فيه. يوضحه ما رواه البيهقي أيضاً عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى بناء أكثر مما يحتاج إليه كان عليه وبالاً يوم القيامة». وروى كذلك عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «كل ما أنفق العبد من نفقة، فعلى الله خَلَفُها ضامناً إلا نفقة في بنيان أو معصية».

وروى البخاري في الصحيح عن خباب بن الأرتّ مرفوعاً قال: «إن المسلم يؤجر في كل شيء ينفقه إلا شيء يجعله في التراب، ولولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به».

وروى البيهقي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده هواناً أنفق ماله في البنيان أو الماء والطين». وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الحرام في البنيان فإنه أساس الخراب».

وعن أبي حكيم مولى الزبير عن النبي ﷺ قال: «ما من صباح يصبحه العباد إلا وصارخ يصرخ: يا أيها الناس، لدوا للتراب، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب».

قال مالك بن دينار: قالوا لعيسى ابن مريم: يا روح الله، ألا نبني لك

---

(١) أي الحاجة.

بيتاً؟ قال: بلى، ابنوه على ساحل البحر، قالوا: إذاً يجيء الماء، فيذهب به؟ قال: أين تريدون تبنون لي على القنطرة؟!

وقال ميسرة: ما بنى عيسى عليه السلام بيتاً، فقيل له: ألا تبني؟ قال: لا أترك شيئاً من الدنيا أذكر به. وليس هذا بغريب فإن سيرة الأنبياء والمرسلين ألا يورثوا من بعدهم درهماً ولا ديناراً ولا شيئاً من الأموال الأخرى العقارية والمنقولة.

وكان صفوة من أهل الإيمان لا يتركون شيئاً من المال يورث عنهم، مثل أبي ذر الغفاري الصحابي الجليل، وقال سفيان الثوري: ما أنفقت درهماً في البناء قط. وقال عباد بن راشد: خرجنا مع الحسن (البصري) فنظر إلى بعض بناء المهالبة (قوم المهلب بن أبي صفرة) فقال: يا سبحان الله، رفعوا الطين، ووضعوا الدِّين، ركبوا البراذين[1]، واتخذوا البساتين، وتشبهوا بالدهاقين[2] فذرهم فسوف يعلمون.

إن نظرة الزهّاد للدنيا سامية، لأنهم يتطلعون إلى الآخرة ونعيمها، ولئلا يحاسبوا على ما تركوا، ولأن الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً، ولكون المال بأنواعه يورِّث شيئاً من العُجب والتكبر، ويصرف الإنسان غالباً عن شؤون العبادة والأذكار، والقرآن، وتدبر العبر والمواعظ، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٠٥-٢٠٧].

---

(١) البرذون الدابة.

(٢) جمع دِهقان وهو أحد رؤساء الفرس أو أصحاب المال والعقار.

معنى الزهد

التعلق الشديد بالدنيا وزينتها وزخارفها، وتركُ الاستعداد للآخرة مذموم وضار، لأنه يفتقد النظرة إلى المستقبل البعيد، ويقصر الهمة على جانب واحد من الحياة، فالدنيا دار زوال، والآخرة دار قرار وخلود، والحياة الدنيوية من أجل الاختبار ومعرفة الصالح من المفسد، والمحسن من المسيء، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢]. قال السُّدِّي: المعنى أيكم أكثر للموت ذِكْراً، وله أحسن استعداداً، ومنه أشد خوفاً وحذراً.

وليس معنى الزهد التخلي عن إصلاح الدنيا، والعناية بها، وإهمالها، فإن حفظ الكرامة مطلوب شرعاً، حتى لا يحتاج الإنسان لأحد، فيعيش عزيزاً كريماً، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧].

فالدنيا مخلوقة لبني آدم، وعمارة الدنيا وتقدُّمها من مقاصد الخلق الإلهي، ولا يكون الاستمتاع بطيبات الدنيا ومباحاتها محظوراً، ما لم يكن حب الدنيا آسراً القلب وقاصراً الجهد من أجلها وحدها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢].

روى ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، دُلَّني

على عمل إذا عملتهُ أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبَّك الناس»(١).

قال يونس بن ميسرة الجيلاني: ليس الزَّهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزَّهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله عز وجل أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالُك في المصيبة، وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون مادحك وذامّك في الحق سواء(٢).

وفسر النووي رحمه الله الزهد بقوله: ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا، وإن كان حلالاً، والاقتصار على الكفاية، والورع ترك الشبهات. قالوا: وأعقل الناس الزّهاد لأنهم أحبوا ما أحب الله، وكرهوا ما كره الله من جمْع الدنيا، واستعملوا الراحة لأنفسهم(٣).

والدنيا المذمومة طلب الزائد على الكفاية، أما طلب الكفاية فواجب(٤). والدليل على أن الزائد على الكفاية مذموم قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤]. فمن فرح بالدنيا لأجل المباهاة والتفاخر والتطاول على الناس فهو مذموم، ومن فرح بها لكونه من فضل الله فهو محمود.

والاقتصاد في المعيشة معناه الرضا والكفاية. قال بعض الصالحين: من اكتسب طيباً، وأنفق قصداً(٥)، قدم فضلاً.

---

(١) حديث حسن.
(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ٤٠٥.
(٣) شرح الأربعين النووية: ص٧٢.
(٤) المرجع السابق: ص٧٣.
(٥) أي مقتصداً، قال عليه الصلاة والسلام: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد».

ويتطلب الزهد الصبر عن الحرام، والشكر على الحلال، والاعتراف لله عز وجل بالفضل، واستعمال النعمة في الطاعة.

قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثة أصناف: زهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فالزهد الفرض: الزهد في الحرام، والزهد الفضل الزهد في الحلال، والزهد السلامة الزهد في الشبهات.

والزهد في الحرام فريضة، وفي المباح فضيلة، وفي الحلال قربة.

سئل الإمام مالك: أي شيء الزهد في الدنيا؟ قال: طيب الكسب وقصر الأمل.

وقال الفضيل بن عياض: إن الشقاء طول الأمل، وإن السعادة قصر الأمل.

وقال محمد بن واسع: أربع من عَلَم الشقاء: طول الأمل، وقسوة القلب، وجمود العين، والبخل. وقال الحسن البصري: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.

وكان الحسن البصري يقول في موعظته: المبادرةَ - عبادَ الله - المبادرةَ، فإنما هي الأنفس لو قد حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تَقَرّبون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرأً نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه، ثم يقرأ هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٨٤].

إن هذه الموعظة وأمثالها ترقق القلب، وتحفِز الهم، وتوجِّه الإنسان إلى الاستزادة من الطاعة، والبعد عن المعصية، وتدفعه إلى التخلق بالخلق الحسن، والالتزام بالسلوك الطيب. ومن هذه المواعظ ما قال خُليد العصري: كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعداً، وكلنا قد أيقن بالجنة وما نرى لها عاملاً، وكلنا قد أيقن بالنار وما نرى لها خائفاً،

فعلام تعرِّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت فهو أول وارد عليكم من الله بخير أو شر، فيا إخوتاه، سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً.

وقال الجنيد: قال بعض شيوخنا: لا تكون لله عبداً حقاً، وأنت بما يكرهه مسترقاً.

الأصل الحادي والسبعون من أصول الإيمان

الغيرة والمذاء

الغيرة على الدين أو العِرْض من أصول الإسلام وطبع المسلمين، فمن سمع مخالفاً في الدين يطعن في دين الإسلام وجب إسكاته، ومن عادى المسلمين واعتدى على حرماتهم وجب جهاده لإعلاء كلمة الله والحق، دفعاً للأعداء عن حرمات الإسلام، وإشفاقاً من تسلطهم على ديار الإسلام وأوطان المسلمين، ومن شاهد معصية يرتكبها فاجر، وجبت مقاومته عند الاستطاعة، منعاً من تفشي المعاصي .

ويجب الدفاع عن الأعراض، عرض الإنسان نفسه أو عرض غيره.

وجَعْل الغيرة من أصول الدين لما أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرَّم الله عز وجل عليه». أي اقتراف المنكر وجميع المعاصي.

وروى البيهقي حديثاً مرسلاً عن زيد بن أسلم قال: قال النبي ﷺ: «إن الغيرة من الإيمان، والمَذَاء من النفاق، والمذَّاء الديوث» قال الحليمي رحمه الله: المَذَاء أن يجمع الرجال والنساء، ثم يخليهم، يماذي بعضهم بعضاً، وأخذ من المذي[1]. قال الله عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ

---

(١) وهو سائل لزج شفاف يخرج عند ثورة الشهوة.

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَـرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٢٤/ ٣١] وقال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦٦/ ٦] فدخل في جملة ذلك أن يحمي الرجل امرأته وبنته مخالطة الرجال ومحادثتهم والخلوة بهم.

وعقاب المفرِّط في عرضه الحرمان من الجنة، أخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقّ لوالديه، والدُّيوث، ورَجِلة النساء»(١). أي المترجلة.

ورواه الطبراني والبيهقي عن عمار بن ياسر، عن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة أبداً: الدُّيوث من الرجال، والرَّجلة من النساء، ومدمن الخمر».

قال الإمام أحمد: الغيرة إنما تكون محمودة إذا وقعت في موقع الريبة، فأما إذا لم تطب نفس الرجال بأن تخلو ابنته بابنه، أو أخته بأخيها، فليس ذلك بمحمود.

ولكن مع هذا يجب الاحتياط في الملابس وتجنب الخلوات الطويلة.

ويوضِّح نوعي الغيرة ما رواه البيهقي في شعبه، عن ابن جابر بن عَتيك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الغيرة ما يحبه الله عز وجل، ومنها ما يُبغض الله، فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريبة. وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير ريبة. وأما الخيلاء التي يحبها الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال، أو اختياله في الصدقة. والخيلاء التي يُبغض الله فاختيال الرجل بنفسه في الفخر والخيلاء».

(١) حديث حسن. والرجلة هي التي تتشبه بالرجال. والديوث الذي لا يبالي من دخل على أهله.

إن نقاء البيئة الأسرية ونظافتها فيه الخير الكبير لكل من الرجل والمرأة، ولجميع الأسرة، ففي ذلك صون العفة وطهارة العرض، وإن تلوث البيئة الأسرية فيه دمار الأسرة وتخريب نظام العائلة، وتشرد الأولاد، وتحطيم مستقبل كل من الرجل والمرأة، ومن أجل هذه المخاطر حال الفساد، ونقاء العرض حال الصلاح، شرع الله تعالى أن يبحث كل إنسان عن أمثاله، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٢٦].

وأوجب الإسلام غض البصر عن المحرَّمات الأجنبيات غير القريبات ذوات الرحم المحرم، لأن إرسال البصر مدعاة للتورط في الموبقات، وسدُّ الذرائع واجب، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٢٤/٣١].

وهذه آية جامعة للأقارب المحارم من جهة النسب أو من جهة المصاهرة، لرفع الحرج في الحياة المعيشية المشتركة في مظلة الأسرة الواحدة. وعلى الرغم من وجود التيسير في هذا يجب الاحتياط وستر كل ما يثير أو يضر، أو يكون مدعاة للفتنة والشبهات.

الأصل الثاني والسبعون من أصول الإيمان

الإعراض عن اللغو

اللغو (الكلام غير المفيد) مذموم باطل لأنه يضر ولا فائدة له، واللغو الباطل هو الذي لا ينطلق من أصل صحيح، وليس لقائله فائدة، وربما يكون وبالاً على صاحبه، وله أمثلة وأقسام، منها أن يتكلم الإنسان بما لا يعنيه من أمور الناس، فيفشي سرهم، ويَهْتك سترهم، ويذكر أموالهم وأحوالهم من غير حاجة به إلى شيء.

ومنها الخوض فيما لا يحل من ذكر الفُجَّار والفجور والملاهي.

ومثل الافتخار بالآباء الجاهلين، والتمدح بهم، وخوص المبطلين في قصائد عنهم، وتفضيلهم على غيرهم بالدعاوى والمقالات من غير حجة ولا برهان، وإنشاد الأشعار المقولة في الأكاذيب. ودراسة فصول الحساب في المثلثات والمربعات والمخمسات فيما لا يجدي نفعاً في العاجل والآجل.

لذا استقبح الشرع الإسلامي اللغو، فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-٣] وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٢] وقال عز وجل في وصف المؤمنين:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥].

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».[(١)] أي ترك ما لا يهم من أمر الدين والدنيا من الأفعال والأقوال.

وجاء في وصايا النبي ﷺ لأبي ذر: «بحسب امرئ من الشر ما يجهل من نفسه، ويتكلف ما لا يعنيه. يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكلف، ولا حسن كحسن الخلق»[(٢)].

يؤيد ما سبق وصايا الحكماء والصالحين التي أوردها البيهقي[(٣)]، قال ابن مسعود: إن أكثر الناس ذنباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل.

وقيل للقمان: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما قد كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني.

وقال قتادة بن النعمان: كان يقال: لا يُرى المسلم إلا في ثلاث: في مسجد يعمره، أو بيت يكنّه، أو ابتغاء رزق من فضل ربه.

وقال أبو طالب القاضي: كان يقال: جوامع البر في طول الفكرة، والصمت سلامة، والخوض في الباطل حسرة وندامة، وإنما يدعو بالويل والثبور غداً في القيامة من جعل الآخرة وراء ظهره، ونصب الدنيا أمامه.

وكان سهل بن عبد الله يقول: من بَطَر اليقين حرم الإيمان، ومن تكلم بما لا يعنيه، حرم الصدق، ومن شَغَل جوارحه في غير طاعة الله، حُرِم الورع، فإذا حُرم العبد هذه الثلاثة أشياء هلك، وهو مُثْبت في ديوان الأعداء.

---

(١) حديث حسن.
(٢) في شرح الأربعين النووية للنووي: ص٣٧-٣٨.
(٣) شعب الإيمان ٧/ ٤١٦-٤١٩.

وقال أبو هريرة في مسجد رسول الله ﷺ: «المجالس ثلاثة، فمنهم الغانم، ومنهم السالم، ومنهم الشاحب، فأما الغانم فعبد ذكر الله فذكره الله، وأما السالم فعبد لم يُمْلِ على كاتبه خيراً ولا شراً، وأما الشاحب فهو الذي يأخذ الباطل، فيشحب نفسه». وفي عبارة مشابهة لقتادة: «كان يقال: المجالس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب، فالغانم الذي يذكر الله، والسالم الساكت، والشاحب الذي يخوض في الباطل».

وقال الأحنف بن قيس: ثلاث فيّ ما أقولهن إلا ليعتبر معتبر: ما أتيت باب هؤلاء - يعني السلطان - إلا أن أدعى إليه، ولا دخلت بين اثنين حتى يكونا هما يدخلاني، ولا ذكرتُ أحداً بعد أن يقوم من عندي إلا بخير.

وسأل معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس: بِمَ سُدْت قومك وأنت لست بأنقبهم ولا أشرفهم؟ قال: إني لا أتناول أو لا أتكلف ما كفيت، ولا أضيع من وُليت.

وكان ذو النون المصري يقول: من صحح استراح، ومن تقرب قَرُب، ومن صلى صفا، ومن توكّل وثِق، ومن تكلّف ما لا يعنيه ضيَّع ما يعنيه.

وأضاف ذو النون قائلاً أيضاً: من نظر في عيوب الناس عمي عن عيوب نفسه، ومن عني بالنار والفردوس شُغِل عن القال والقيل، ومن هرب من الناس سلم من شرورهم، ومن شكر زيد.

وقال الحسن البصري: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه». قال: كيف يُذلُّ نفسه؟ قال: «يتعرض للبلاء لما لا يقوم له».[1] وفي لفظ: «أن يتعرض للبلاء لما لا يطيق».

وهذه وقائع وحكم فريدة في تعويد الناس الاشتغال بما ينفعهم، واجتناب كل ما يضرهم، والإحسان فيما يستطيعون، وترك الشر والهوى فيما يجهلون، وصون النفس عن كل المآخذ والعيوب.

---

(١) حديث مرسل.

الجود و السخاء

من أصول الإيمان أو شعبه التحلي بصفة الجود والسخاء والإنفاق فيما يرضي الله تعالى، فيكون ذلك مرغوباً فيه محبوباً في الإسلام، وضده وهو البخل والشح مذموماً قبيحاً.

أما الجود فهو من مكارم الأخلاق، والبخل من أراذلها، والجواد من يعطي في موضع العطاء، والبخيل من يمنع في موضع العطاء.

رغَّب الله في الجود والإنفاق في آيات قرآنية منها: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢-٣] ومنها: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣-١٣٤].

ووازن الله تعالى بين جزاء الجواد وجزاء البخيل بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٩٢/ ٥-١٠] أي من أعطى من ماله، واتقى ربه، وصدق بالله ورسله ووعْدِ الله بالثواب على الطاعة، فيوفقه الله للخير والطاعة، ومن بخل بماله، واستغنى عن ربَه، وكذب بوعد الله بالثواب، فيوجهه الله للشر والمعصية.

وما أدق وأوقع تلك المقارنة في الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري ومسلم بين المنفق الذي يوسّع الله عليه كلابس الدرع الواسع، والبخيل الذي يضيّق الله عليه كلابس الدرع الضيق، عن أبي هريرة يبلغ به عن النبي ﷺ قال: «مَثَل المنفق والبخيل كمثل رجل عليه جُبَّتان أو جُنَّتان من حديد، من لدن ثديهما إلى تراقيهما، فإذا أراد المنفق أن ينفق سبغت عليه الدرع أو مرت حتى تُحسر ثيابه ويقفو أثره، وإذا أراد البخيل أن ينفق قلصت عنه - يعني الدرع - ولزمت كلُّ حلقة موضعها، حتى أخذت بعنقه أو بترقوته، فهو يوسّعها ولا تتسع».

والمنفق يخلفه الله ما أعطى، والبخيل الممسك مهدد بالإتلاف، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال الرسول ﷺ: «ما من يوم أصبح العباد فيه إلا ملَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

وفي موازنة أخرى بين السماحة والبخل، روى البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خُلقان يحبهما الله، وخُلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة، وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل، فإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس».

وأفضل خصال الإيمان الصبر والسماحة، روى البيهقي حديثاً مرسلاً عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الإيمان الصبر والسماحة».

وظواهر السخاء والإحسان أداء الحقوق الواجبة عليه، روى البيهقي عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «برئ من الشح من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة».

والسخي محبوب، والبخيل مبغوض، روى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ قال: «السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل»[١]. فالسخي أفضل من العابد.

قال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة، من سيّدكم اليوم؟» قالوا: الجد بن قيس، ولكنا نبخّله، قال: «أي داء أدوى من البخل؟ ولكن سيدكم عمرو بن الجموح».

والسخاء شجرة في الجنة، روى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السخاء شجرة في الجنة، فمن كان سخياً أخذ بغصن منها، فلم يتركه الغصن حتى يدخله الجنة، والشح شجرة في النار، فمن كان شحيحاً أَخَذ بغصن منها، فلم يتركه الغصن حتى يدخله النار».

والسخاء يدخل صاحبه الجنة، روى البيهقي عن لحسن البصري مرسلاً، أن رسول الله ﷺ قال: «إن بدلاء أمتي[٢] لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاتهم ولا صيامهم، ولكن دخلوها بسلامة صدورهم، وسخاوة أنفسهم».

وقال الإمام الأوزاعي: ثلاث من كنّ فيه فقد برئ من الشح: من أدى زكاة ماله، وقرى الضيف، وأعطى في النوائب.

والسخاء هو الذي يكون من غير امتنان ولا رغبة في العطاء، قال يوسف بن الحسين: سمعت ذا النون المصري يقول: ليس بكريم من يطلب

---

(١) حديث ضعيف، ورواه الترمذي عن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط عن عائشة.

(٢) جمع بديل وهو ولي من العبّاد انقطع إلى الله تعالى.

الثناء مع العطاء. وهذا مستمد من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٢] ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤].

عاقبة البخل والشح

البخل منع ما يجب عطاؤه، والشح البخل مع الحرص، وكل منهما يستحق ذماً أو عقاباً أو لوماً عند الله تعالى وعند الناس، لما فيهما من تقصير في أداء الواجب أو الحق، قال الله سبحانه في ذم البخلاء والأشحاء: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٤/ ٣٧] وقال عز وجل: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ [محمد: ٤٧/ ٣٨].

والتخلص من البخل يحتاج لترويض ومجاهدة وحمل النفس على التخلص من هذا الداء، وأساس كل ذلك الاستعانة بالله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٦].

والشح أو البخل يقترن غالباً بالغنى والأغنياء، أما الفقراء فهم غالباً أكثر جوداً وسخاء، والسبب في هذا أن الفقير أصفى إيماناً، والغني أكثر تعقيداً وبعداً عن الإيمان، روى البيهقي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان نار جهنم في جوف عبد، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد». وفي لفظ: «ولا يجتمع شح وإيمان في قلب عبد أبداً». وفي حديث رواه البخاري في الأدب والترمذي عن أبي سعيد الخدري: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق».

وأخرج مسلم عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن يسفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

وروى البيهقي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد والتقوى، وهلاك آخرها بالبخل والفجور».

وروى البيهقي عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خَب(١) ولا خائن ولا سيءُ الملكة، وأول من يقرع باب الجنة المملوكون إذا حسَّنوا فيما بينهم وبين الله عز وجل، وبينهم وبين مواليهم».

وفي حديث حسن عن ابن عمر (٢) قال: أتى علينا زمان، وما نرى أحدنا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة(٣)، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أدخل الله تعالى عليهم ذلاً لا يرفعه عنهم، حتى يراجعوا دينهم».

وعن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥]. قال: هو البخل. وقال أيضاً: أهل السوق لا خير فيهم، بلغني أن أحدهم يرد أخاه من أجل درهم.

وسئل الأوزاعي عن البخيل: من هو؟ قال: الذي يضيع الصدقة والحقوق.

---

(١) الخَب بالفتح والكسر الرجل الخدَّاع.
(٢) أخرجه ابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان.
(٣) اتخاذ البيع صورة لإخفاء الربا.

وقال بشر بن الحارث الحافي: البخيل لا غيبة له، قال النبي ﷺ: «إنك لبخيل». ومُدحت امرأة عند النبي ﷺ، فقالوا: صوامّة قوّامة، إلا أن فيها بخلاً، قال: «فما خيرها إذاً؟». قال بشر: ليس فيها خير. وأضاف قائلاً: ليس شيء من أعمال البر أحبَّ إلي من السخاء، ولا أبغض إلي من الضيق وسوء الخلق.

وعن ابن عباس قال: كان العباس بن عبد المطلب كثيراً ما يقول: ما رأيت أحداً أحسنت إليه إلا أضاء ما بيني وبينه، وما رأيت أحداً أسأت إليه إلا أظلم ما بيني وبينه، فعليك بالإحسان واصطناع المعروف، فإن ذلك يقي مصارع السوء.

والفارق بين البخيل والجواد ليس بالأمر الصعب، وإنما هو يسير حدَّده العلماء، قال الإمام الأوزاعي: ثلاث من كن فيه فقد برئ من الشح: من أدى زكاة ماله، وقَرَى الضيف، وأعطى في النوائب.

وأُتي يزيد بن مروان بمال من غَلّة له، فجعل يَصُرّه صراً، ويبعث به إلى إخوانه، ويقول: إني لأستحيي من الله عز وجل أن أسأل الجنة لأخ من إخواني، ثم أبخل عليه بالدينار والدرهم.

وعوتب عبد الله بن جعفر على السخاء، فقال: يا هؤلاء، إني عوَّدتُ الله عادة، وعوَّدني عادة، وإني أخاف إن قطعتها قطعني.

وسئل عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ٦٤/١٦] فقال: إني امرؤ ما قَدَرتُ أن يخرج من يدي شيء، وقد خشيت أن يكون أصابتني هذه الآية، فقال ابن مسعود: ذكرت البخل وبئس الشيء البخل، وأما ذكر الله في القرآن فليس كما قلت، ذاك أن تعمد إلى مال غيرك، أو مال أخيك فتأكله. أي هذه حالة من حالات البخل.

والخلاصة: إن البخل داء يجب تطويع النفس على ضده تدريجاً، وليكن شعار المؤمن: «لا تكن بخيلاً» أي لا تبخل على أهلك وأسرتك وقرابتك وجيرانك، ولا تبخل على الفقراء والمحتاجين، وواسهم ولو بالقليل، وكن سخياً بقدر الإمكان، لأن السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس.

الأصل الرابع والسبعون من أصول الإيمان

رحمة الصغير وتوقير الكبير

شرع الله تعالى للأمة الإسلامية مبدأً عظيماً وهو مبدأ التكافل والتراحم وتبادل الاحترام، ومن المعلوم أن من أعظم أسماء الله الحسنى وصفاته العلا صفتين هما: «الرحمن الرحيم» ولا بد من معاملة كل أحد بحسب سنه وقدر قوته، وبما يليق بمنزلته، فالذي يقتضيه حال الصغير أن يُرْحَم ليشب وينمو ويقوى، والذي يقتضيه حال الكبير أن يوقر ويحترم، لتكون كلمته مسموعة نافذة وتربيته فعّالة، ووفاء له بقدره.

وجاءت الآيات القرآنية تعلّمنا الرحمة والشفقة على كل شيء من إنسان وجماد وحيوان، مثل قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٦]. وأيدتها التوجيهات النبوية، مثل حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى تَرْفَع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه».

وأخرج أحمد والترمذي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينه عن

المنكر». وأخرج الترمذي أيضاً عن أنس: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا». وفي لفظ[١]: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا». وفي لفظ آخر عن جابر[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويعرف حق صغيرنا». وأضاف: «إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم».

وعن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من إجلال الله تعالى على العباد إكرامَ ذي الشيبة المسلم، ورعاية القرآن من استرعاه الله إياه، وطاعة الإمام - يعني المقسط»[٣]. وحديث أبي موسى الأشعري بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[٤]

قال ذو النون المصري: ثلاثة من أعلام الوقار: تعظيم الكبير، والترحم على الصغير، والتحلم على الوضيع.

وروى البيهقي عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ: «لا يوسَّع المجلس إلا لثلاثة: لذي سن لسنه، وذي علم لعلمه، وذي سلطان لسلطانه».

وإكرام الكبير فيه معاملة بالمثل، أخرج الترمذي[٥] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أكرم شاب شيخاً لسنه، إلا قيَّض الله له عند سنه من يكرمه».

وروى البيهقي في حديث القَسَامة أن النبي ﷺ قال: «كبِّر كبِّر». أي ليتكلم الأكابر منكم في السن. وفي حديث الإمامة في الصلاة: «فإذا

---

(١) لأحمد والترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو.
(٢) رواه البيهقي.
(٣) رواه البيهقي أيضاً.
(٤) الراوي نفسه.
(٥) وقال: حسن غريب.

حضرت الصلاة فليؤذّن لكم أحدكم، وليؤمّكم أكبركم». وعن أنس في إكرام جرير بن عبد الله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر - ثلاثاً - فإذا أتاه كريم قوم فليكرمه». وفي حديث مرسل عن عائشة، كما قال الإمام أحمد، قال عمر بن مِخْراق: مر على عائشة رجل ذو هيئة، فدعته يقعد معها، ومرّ آخر فأعطته كسرة، فقيل لها، فقالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البركة مع أكابركم».

وفي العطف على الصغار عملياً أخرج مسلم عن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليُدَخَّن، وكان ظئره قيناً(١) فيأخذه فيقبله، ثم يرجع، قال عمرو بن سعيد (الراوي عن أنس): فلما توفي إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي، وإن له لظئرين يكملان رضاعه في الجنة».

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تقبّلون الصبيان، فما نقبّلهم، فقال النبي ﷺ: «أوَ أملك لك أن الله عز وجل نزع من قلبك الرحمة؟». وروى الشيخان أيضاً عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي».

وروى البيهقي أن النبي ﷺ لما رأى الحسن والحسين وهو يخطب، نزل إليهما، ثم حملهما وصعد المنبر، وقال: «صدق الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٥]»(٢).

---

(١) الظئر الذي يرضع من الأم مع ولدها. والقين العبد ويطلق أيضاً على الحداد.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ٤٦٦-٤٦٧

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قدم على رسول الله ﷺ سبي، فإذا امرأة قد تحلب ثديها تسعى، إذ وجدت صبياً في السبي أخذته فألزقته ببطنها، فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها».

وفي شأن تربية البنات روى البخاري ومسلم عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن ستراً له من النار».

وروى البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد من أمتي يعول ثلاث بنات أخوات فيحسن إليهن إلا كن له ستراً من النار».

وفي حديث عن ابن عباس عند البيهقي: «ما من مسلم يدرك، له ابنتان، فيحسن إليهما ما صحبهما أو صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة». وفي حديث عن جابر بن عبد الله إضافة: فقال رجل من بعض القوم: وابنتان يا رسول الله؟ قال: «وابنتان».

وأخرج مسلم عن عائشة أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكل بينهما، فأعجبتني، فذكرتُ الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار».

كفالة الأيتام والرفق بالحيوان

كانت وما زالت رسالة الإسلام وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام رحمة عامة بكل شيء، وإنقاذاً لكل إنسان، ورفقاً وإحساناً بالنبات والحيوان والأشياء الجامدة، وكل مقوّمات الحضارة والمدنية، قال الله

تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]. وامتدت مظلة هذه الرحمة إلى كل ضعيف أو صغير، ومنهم الأيتام، فتجب كفالتهم والعناية بهم ومعاملتهم بالرحمة واللطف حتى يكبروا ويتقوّوا كغيرهم من البشر. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

وكان من إكرام اليتامى وإعلاء منزلتهم أن جُعل كفلاؤهم في أعلى الجنان، أخرج البخاري في شأن تربية اليتيم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة». وأشار هكذا بالسبابة والوسطى. وفي لفظ: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين إذا اتقى». ورواية مسلم في الصحيح: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة».

وأخرج البخاري أيضاً في شأن الساعي على اليتيم عن صفوان بن سُلَيم مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرامل والمساكين كالذي يجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل».

وأخرج البيهقي عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من مسح رأس يتيم، فإن له بكل شعرة مرَّت يداه عليه حسنة، ومن أحسن إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ غيره، كنت أنا وهو كهاتين في الجنة، وفرَّق بين أصبعيه».

وأخرج البيهقي أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب بيوتكم إلى الله عز وجل بيتٌ فيه يتيم مكرم».

قال عبد الرحمن بن أبزى: كان داوود عليه السلام يقول: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد، وإن المرأة الصالحة لبعلها[1] كالملِك المتوَّج بالتاج المحوَّط بالذهب، واعلم أن المرأة السوء

(١) زوجها.

لبعلها كالحمل الثقيل على ظهر الشيخ الضعيف، واعلم أن خُطبة الأحمق في نادي القوم كالمغنِّي عند رأس الميت، وتعوَّذ بالله من صاحب إذا ذكرت لم يُعنك، وإذا نسيت لم يذكّرك، وما أقبح الفقر بعد الغنى، وأقبحُ من ذلك الضلالة بعد الهدى.

والرحمة مطلوبة مع كل إنسان، سواء القريب والبعيد، والفقير والمسكين والمسلم وغير المسلم، أخرج مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار، أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط، ومتصدق موفّق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى، ومسلم، وفقير عفيف متصدق».

وأخرج مسلم أيضاً عن جرير بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء».

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ الصادق المصدوق صاحب هذه الحُجْرة يقول: «لا تُنزع الرحمة إلا من قلب شقي».

وأخرج كذلك عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ حيث حضرته الوفاة، فقال لنا: «اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة - ثلاثاً - اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم، اتقوا الله في الضعيفين: المرأة الأرملة والصبي اليتيم، اتقوا الله في الصلاة».

ومن رحمة النبي ﷺ الرحمة بالصبي في أثناء الصلاة، أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأدخل

في الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء صبي فأتخفف مما أعلم من شدة وَجْد أمه».

وكانت نساء قريش المؤمنات مثلاً عالياً في الحنو على الولد الصغير، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة منكم إلا رحيم». قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: «ليس رحمة أحدكم نفسه وأهل بيته، حتى يرحم الناس». وروى أيضاً عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ريح الولد من ريح الجنة».

وأخرج مسلم عن عائشة أنها كانت على جمل، فجعلت تَضْرِبه، فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، عليكِ بالرفق، فإنه لم يكن في شيء إلا زانه، ولم ينزع من شيء إلا شانه».

والرفق بالحيوان من أسس أخلاق الإسلام، أخرج مسلم عن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحد أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته».

وروى أحمد والبيهقي عن عمرو بن الشريد قال: سمعت الشريد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل عصفوراً عبثاً، عجّ إلى الله عز وجل يوم القيامة منه قال: يا رب، إن هذا قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة». وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من قتل عصفوراً بغير حقه، سأله الله عنه يوم القيامة».

وروى البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فرّق بين الولد وأمه، فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة».

وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله عز وجل إنما سخَّرها لكم لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم». قال الإمام أحمد: وهذا فيمن ركبها من غير حاجة إلى سير أو إعلام الناس من كلامه ما يُحتاج إلى إعلامه، ولم يكن هناك منبر يَصْعدُه.

الأصل الخامس والسبعون من أصول الإيمان

الاصلاح بين الناس

رغَّب الإسلام الحنيف في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في الصلح بين المؤمنين وإصلاح ما قد يثور بينهم من منازعات ومخاصمات تفضي عادة إلى القطيعة والهجران، والعداوة والبغضاء، وتوتّر الأحوال والتهديدات المتبادلة، والوعيد والانتقام، وذلك إما بسبب سفك دم إنسان، أو إتلاف مال، أو مُلَاسنة وسبّ وشتم، أو ضرب أو إهانة كرامة، أو إذلال وإلحاق ظلم ونحو ذلك مما يؤدي إلى إفساد صفاء الأخوة، أو قطع المودة والمحبة، ولو عادوا إلى ما يؤمنون به من أوامر الله ورسوله، التي هي مصدر التنظيم والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها لما وقعوا في الفتنة وإلحاق الضرر، لأن الأمة واحدة، المصالح واحدة، ولأن الخصومات لا تأتي إلا بالشر والفساد وتعكير صفو الحياة.

والترغيب في الصلح منهج القرآن المجيد في مختلف الأحوال، قال الله تعالى مبيناً ضرورة المحافظة على الإخاء والمودة في العلاقات العامة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠] والمعنى وجوب الإصلاح بين جماعات المؤمنين إذا توترت الأوضاع وساءت العلاقات، سواء بين الأفراد، أو بين الجيران، أو بين القرابات أو الأباعد.

وفي العلاقات الخاصة ومنها العلاقات الأسرية أو الزوجية يلجأ شرعاً إلى الصلح أو التحكيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٨] أي إن اللجوء إلى الصلح بنحو عام هو الوسيلة الفضلى لحل النزاع بين الزوجين مباشرة، أو يلجأ إلى التحكيم فيما إذا ساءت الحال وتعذر الصلح بين الزوجين. فقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٤/ ٣٥].

ووسيط الصلح يؤدي مهمة دينية وأخوية وإنسانية كبيرة، فله ثواب عظيم، وفضل كبير، بل إن الصلح في قمة أعمال الخير، ويشترك في مثلث قرآني اجتماعي ضروري وذي جدوى مهمة جداً، وهذا المثلث تقديم الصدقة، وتقديم المعروف، وتحقيق الإصلاح، قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ٤/ ١١٤].

وعلى وسيط الصلح أن يكون حكيماً حازماً عازماً بجدية وعادلاً على إجراء الصلح، ويخشى الله ويتقيه.

روى البيهقي عن ابن عباس في قول الله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ١] قال: هذا مُخَرَّج من الله عز وجل، على المؤمنين أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم.

وروى البيهقي أيضاً عن السائب بن مهجان من أهل الشام من أهل إيلياء، وكان قد أدرك أصحاب الرسول ﷺ في حديث ذكره قال: لما دخل عمر رضي الله عنه الشام حمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قام فينا خطيباً كقيامي فيكم، فأمر بتقوى الله، وصلة الرحم، وصلاح ذات البين، وقال:

«عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، لا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساءته سيئته، وسرته حسنته، فهو أمارة المسلم المؤمن، وأمارة المنافق الذي لا تسوؤه سيئته، ولا تسره حسنته، إن عمل خيراً لم يرج الله في ذلك ثواباً، وإن عمل شراً لم يخف من الله في ذلك الشر عقوبة، وأجملوا في طلب الدنيا، فإن الله قد تكفّل بأرزاقكم، وكلٌّ ميسر له عمله الذي كان عاملاً، استعينوا بالله على أعمالكم فإنه يمحو ما يشاء و يثبت، وعنده أم الكتاب». صلى الله على نبينا محمد وآله وعليه السلام ورحمة الله، السلام عليكم. هذه خطبة عمر بن الخطاب على أهل الشام، أثَرها عن رسول الله ﷺ.

وأخرج البخاري و مسلم في بيان فضيلة الإصلاح بين الناس، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل سُلامى[(١)] من الناس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين اثنين صدقة، وتُعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خَطْوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة».

وأخرج أبو داوود والترمذي[(٢)] وابن حبان في صحيحه عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البَيْن[(٣)] فإن فساد ذات البين هي الحالقة». أي المصيبة القاتلة المسببة كل الآلام،

---

(١) السلامى أعضاء الإنسان وهي ثلاث مئة وستون عضواً، على كل عضو منها صدقة كل يوم.

(٢) وقال: حديث صحيح.

(٣) البين البعد والفرق، إي إصلاح كل متخاصمين بينهما تنابذ.

والباعثة على التنافر والقتال. وروي: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعْر، ولكن تحلق الدين».

وروى الطبراني والبزار عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة إصلاح ذات البين».

وأجيز الكذب بالثناء الحسن من أجل الإصلاح، أخرج مسلم وأبو داوود عن أم كُلثوم بنت عقبة أن النبي ﷺ قال: «ليس الكاذب من أصلح بين اثنين، فقال خيراً أو نمى خيراً»[١].

وأخرج البيهقي عن النَّواس بن سَمعْان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الكذب لا يصلح إلا في ثلاث: الحرب فإنها خدعة، والرجل يرضي امرأته، والرجل يصلح بين اثنين».

اجتناب الإفساد بين الناس

الصلاح بين الناس واجب ديني واجتماعي وإنساني، فيكون الإصلاح بينهم باجتناب النميمة، واتقاء الضرب، ويكون اجتناب التحرش فيما بينهم أوجب وألزم، لذا ذم الله تعالى السحرة الذين يفرّقون بين الزوجين، بقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٠٢].

وحرَّم الإسلام السعاية (الوشاية) والنميمة، وجعلها من الكبائر، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذَّبان، وما يعذّبان في كبير[٢]،

(١) نميت الحديث إذا بلَّغته على وجه الإصلاح.
(٢) أي في شيء عظيم لا يمكن تجنبه، فلا يقصد به تصغير الذنب، وإنما يقصد به تسهيل الأمر في توقيهما.

أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول»[١]. فدعا بعسيب رطب، فشقه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا».

وروى مسلم في الصحيح عن حذيفة بن اليمان أنه بلغه أن رجلاً يُنم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمَّام». وفي لفظ آخر: «لا يدخل الجنة قتّات». والقتات النمام.

وروى مسلم أيضاً عن ابن مسعود أن محمداً ﷺ قال: «ألا أنبئكم ما العِضَة [٢]؟ هي النميمة القالة بين الناس».

وقال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية: العضة السحر، وإن العِضة اليوم فيكم القالة، قيل من قال وقال، وحَسْب الرجل من الكذب أن كل ما يسمعه يحِّدث .

وروى البيهقي عن أبي أيوب الأنصاري قال: «هل تدرون ما العِضةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «نقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض، يُفسد بينهم».

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غَنْم يبلُغ به النبي ﷺ: «خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا[٣] ذُكر الله، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة، الباغون[٤] للبُرَاء العيب».

وأخرج أبو داوود والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال

---

(١) أي لا يتوقاه.

(٢) أي الكذب والبهتان، وجمعه عضُون، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١/١٥] أي فرقوا أقاويلهم.

(٣) رآهم الناس.

(٤) الطالبون العيوب بالقبيح للشرفاء.

رسول الله ﷺ: «لا يبلّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خبَّب[1] خادماً أهله، فليس منا، ومن أفسد امرأة على زوجها فليس منا». أي إن إفساد العلاقة بين متفاهمين زوجين أو غيرهما حرام شرعاً.

وكذلك ترويع الآخرين فرداً أو جماعة أو إرهابهم ظلم وإفساد، لما روى البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من روَّع مؤمناً لم يروِّع الله روعته يوم القيامة، ومن سعى بمؤمن أقامه الله مقام خزي وذل يوم القيامة».

ومن مظاهر الإفساد الغيبة والنميمة وأكل أموال الأيتام والوشاية بالباطل لولاة الأمور، للآيات القرآنية الدالة بصراحة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٢] فهذه الآية الكريمة تحرِّم تحريماً صريحاً سوء الظن، والتجسس على الآخرين بغير وجه مشروع، والغيبة والنميمة، وكأن المغتاب يأكل لحم أخيه الإنسان.

يؤكد ذلك الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٧/٥٦] وآية أخرى في معناها تختص بالمفسدين المنافقين وهي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٢/١١-١٢]. وكل ذلك من كبائر الإثم والفواحش.

أما أكل أموال الأيتام فهو أيضاً من الكبائر والمظالم الجثام لقوله

---

(١) خدعه وأفسده.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

قال أسقفّ من أهل نجران يكلّم عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين احذر قاتل الثلاثة، فقال عمر: ويلك وما قاتل الثلاثة؟ قال: الرجل يأتي الإمام بالكذب، فيقتل الإمام ذلك الرجل بحديث هذا الكذاب، فيكون قد قتل نفسه، وصاحبه، وإمامه [١].

إن واجب كل مؤمن صادق أن يكون حريصاً على إشاعة الخير، ومقالة الإصلاح، وزرع المحبة والمودة والتعاون بين الناس، لا أن يكون أداة هدم وتخريب وإفساد، فالله تعالى يحب المصلحين، ويسخط على المفسدين، فالإصلاح أساس تقدُّم المجتمعات، والإفساد أداة التخريب والضلال والهدم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ٤٩٧.

أن يحب الإنسان لغيره ما يحب لنفسه

إن إشعاع الإيمان على الحياة الإنسانية إشعاع قوي، يملؤها سعادة، ويصحح مسيرتها، ويُشعر أبناءها بأنهم إخوة في أسرة كبرى، قوامها المحبة للآخرين كالمحبة للنفس، ونسيجها التعاون، وغايتها التقدم والازدهار والتحضر والعمران. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣] ويزداد التلاحم قوة إذا انضم إلى الإخاء الإنساني أُخوة الإيمان، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٠].

والإخاء الإيماني والإنساني يتطلب سلامة الآخرين من أذى اليد واللسان وغيرهما. روى البخاري وأبو داوود والنسائي في الصحيح عن عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه». وروى مسلم الشطر الأول منه.

وروى البيهقي عن فَضَالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم،

والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

وأخرج البخاري ومسلم في الصحيح عن جرير بن عبد الله قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم.

ومن أرفع وأسمى ما جاء به الإسلام محبة الخير للآخرين، روى البخاري في الصحيح عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وروى مسلم في الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يُزَحزَح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا هريرة، كن ورعاً تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحِبّ للمسلمين المؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك تكن مؤمناً، وجاور من جاورت من الناس بإحسان تكن مسلماً، وإياك وكثرة الضحك، فإن في كثرة الضحك فساد القلب».

هذا التكامل بين الإيجابية والسلبية من أرفع خصال الإيمان، ومنها المحبة للآخرين مثل المحبة للنفس، والكراهية للآخرين كالكراهية للنفس، وهذا توازن رفيع المستوى.

ومن الموازنات الدالة على السمو ما رواه البيهقي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم

القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكمهم للناس كحكمهم لأنفسهم وأهليهم».

ومن الأصول الإيجابية في بناء بنية المجتمع تضامن الأمة وتكافلها أمام أعدائها وفي حل مشكلاتها المختلفة، فهي أمة واحدة كالجسد الواحد، أخرج أحمد ومسلم عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «مَثَل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

هذا بالنسبة للأمة، وكذلك الشأن بالنسبة للفرد نفسه، أخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

هذا في مجال التعاون وكذلك في مجال الحماية والدفاع، لما أخرجه البخاري في الأدب وأبو داوود عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكفُّ عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه». وفي لفظ أخرجه البيهقي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن من المؤمن بمنزلة الرأس من الجسد، يألم الرأس ما يصيب الجسد، كذلك المؤمن يألم بما يصيب المؤمن».

قال الحليمي رحمه الله: وكذلك ينبغي أن يكونوا، وكما لا يحب أحد لإحدى يديه إلا ما يحب للأخرى، ولا لإحدى عينيه أو رِجْليه أو أذنيه إلا ما يحب للأخرى، فكذلك ينبغي له ألا يحب لأخيه المسلم إلا ما يحب لنفسه.

وأشد ما يجب الهرع للتعاون فيه حالة البلاء والمحنة والنكبات، لما رواه البيهقي عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يرى رجلاً به بلاء، فقال: الحمد لله الذي

عافاني مما ابتلاه به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، إلا لم يصبه ذلك البلاء كائناً ما كان». وفي رواية يقول: «اللهم عافه واعف عنه».

وتفريج الكربات والإسهام في الإنقاذ وإزالة الحاجة مظهر سام كريم، أخرج البخاري ومسلم عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله بها عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

ومن أجلِّ تحقيق المحبة الصادقة البعد عن منازعات المعاملات، وعن التحاسد والتباغض والتقاطع والتدابر، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبع أحدكم على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أيضاً، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن أخو المؤمن، لا يخذله ولا يظلمه، لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه، لا يخطب امرأة على خطبة، ولا يبع على بيع أخيه، وإن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، التقوى ها هنا، وأشار إلى صدره».

اجتناب كل ما يخل بمحبة الآخرين

الحفاظ على مبدأ أو أصول محبة الأخ لأخيه يكون من جانبين: إيجابي وسلبي، أما الموقف الإيجابي فيكون مثلاً بالحرص على الكرامة والاحترام، والتعاون، وبذل الخير والمعروف، وأما الموقف السلبي

فيتمثل بالامتناع عن كل ما يؤجج نار الخصام والنزاع، والغمز واللمز، وترك الاعتداء على الحقوق والأموال والأعراض.

وقد رغَّب الإسلام الحنيف بكلا الموقفين، ففي الأحوال الإيجابية يطلب تقديم الصدقة عن كل عضو من أعضاء الجسد البالغة ثلاث مئة وستون عضواً، روى البيهقي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «للإنسان ثلاث مئة وستون عظماً، وستة وثلاثون سلامى[١]، في كل عظم، في كل يوم صدقة». قالوا: يا رسول الله فمن لم يجد؟ قال: «ليأمر بمعروف، أو لينْه عن منكر». قال: فمن لم يستطع؟ قال: «فليهد سبيلاً». قال: فمن لم يستطع؟ قال: «فليرفع عظماً من الطريق». قال: فمن لم يستطع ذلك؟ قال: «فليُعن ضعيفاً». قال: فمن لم يستطع ذلك؟ قال: «فليَدَع الناس من شره». وفي لفظ: «في الإنسان ثلاث مئة وستون مفصلاً، على كل مفصل منها صدقة».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصنَ شوك على الطريق، فأخّره، فشكر الله له، فغفر له».

وأخرج مسلم أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق تؤذي الناس».

وروى البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل مسلم في كل يوم صدقة». قالوا: يا رسول الله، ومن يُطيق هذا؟ قال: «إن تسليمك على الرجل صدقة، وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة، وعيادتك المريض صدقة، وإغاثتك الملهوف صدقة، وكل معروف صدقة».

---

(١) السلامى أعضاء الإنسان.

وروى أبو داوود الطيالسي عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرضت علي أعمال أمتي حسنَها وسيئها، فرأيت من أحسن أعمالهم الأذى يماط عن الطريق، ورأيت من سيئ أعمالهم النُّخامة في المسجد لا تُدفن».

وروى البيهقي عن أبي شيبة قال: كان معاذ يمشي ورجل معه، فرفع حجراً من الطريق فقال: ما هذا؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رفع حجراً من الطريق كتبت له حسنة، ومن كتبت له حسنة دخل الجنة». هذه الوصايا النبوية الكريمة تركز على ضرورة حماية البيئة، وفعل الخير، وبذل المعروف. روى البيهقي عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة».

ومنع الأذى ورفع الضرر والإمساك عن الشر وغير ذلك من المواقف السلبية، ثوابُها ثوابُ فاعل الخير تماماً، لأن كل شيء يحتاج إلى إزالة المعوقات، كما يحتاج إلى الإقدام على سلوك الخير وفعل المعروف.

يرشد إلى هذا وصايا نبوية كريمة أخرى، منها موقف الصراحة وترك التلون وإتيان الناس بوجهين، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من أسوأ الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه. وإياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً». والفرق بين التحسس والتجسس أن التجسس التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، والجاسوس صاحب سر الشر فهو البحث عن العورات والأسرار. وأما التحسس فهو الاستماع إلى حديث القوم مما يكرهون إذاعته. وقيل: معناهما واحد وهو تطلب معرفة الأخبار.

ومن الأعمال السلبية منع أكل أموال الناس بغير إذنهم أو بالباطل وهو الغصب، روى أحمد وأبو داوود والترمذي عن السائب بن يزيد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يأخذن أحدكم متاع أخيه جاداً، ولا لاعباً، وإذا أخذ أحدكم عصا أخيه فليردّها عليه».

وروى البيهقي والحاكم وابن حبان من حديث أبي حميد الساعدي بلفظ: «لا يحل لامرئ أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه» وهو أصح ما في الموضوع.

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال النبي ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً». وروى مالك والبيهقي عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يحتلبن أحد ماشية رجل بغير إذنه، أيحب أن تؤتى مشربتُه فيكسر خزانته، فينتشل طعامه؟ فإنما يخزِن لهم ضروعُ مواشيهم أطعمتهم، فلا يحتلبن أحد ماشية امرئ إلا بإذنه». دلت الأحاديث على تحريم مال المسلم إلا بطيبة من نفسه، وإن قل المال.

ويمنع تناجي اثنين (حديث السر) دون إسماع الآخر، لما رواه مسلم في الصحيح عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يُحزنه».

والبزاق في الصلاة أو في المسجد مؤذٍ للآخرين، روى البيهقي عن طارق بن عبد الله المحاربي عن النبي ﷺ قال: «لا تبزق بين يديك في الصلاة، ولا عن يمينك، ولكن عن يسارك إن كان فارغاً، وإلا تحت قدمك، ثم ادلكه - يعني بالأرض».

وكذلك الإيذاء للآخرين في المساجد بسبب أكل الثوم والبصل وغيرهما، لما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «من أكل من هذه الشجرة الثوم والبصل والكُرَّاث، فلا يقربنّا في مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى الإنسان».

وروى البيهقي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: «أربع خصال واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي، فأما التي لي فاعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فما عملت من خير يجزئك، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك».

حفظ الأسرار وترك تتبع العورات، والامتناع عن الاحتكار

على المسلم أو المؤمن أن يكون أميناً على الحديث والأسرار وما قد يطلع عليه من أخطاء أو عيوب الآخرين، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٤٨] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/١٩].

وما أسعد الذين يحافظون على أمانة الكلام في المجالس، لما أخرج أبو داوود والبيهقي عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق». ويؤكده حديث مرسل جيد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره».

فهذا يدل على ضرورة حفظ المسلم سّر أخيه، حتى في النظرة، لحديث جابر أيضاً عند البيهقي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حدَّث

الإنسان حديثاً فرأى المحدِّثُ المحدثَ يلتفت حوله، فهي أمانة».

وقال الخليل بن أحمد: «من نمَّ إليك نمّ عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك، أخبر غيرك بخبرك»

وعلى المسلم أيضاً ألا يتتبع سقطات أو عيوب أو عورات غيره من المسلمين، روى البيهقي عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق(١) في بيوتها - أو في خدورها - ثم قال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه، ولو في جوف بيته».

قال محمد بن منازل: المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثرات إخوانه.

وقال حمدون القصار: اقبلوا إخوانكم بالإيمان، وردّوهم بالكفر، فإن الله عز وجل أوقع ما بين هذين في مشيئته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨، ١١٦].

وقال ذو النون المصري: ثلاثة من أعلام أعمال الكياسة: ترك المراء والجدال في الدين، والإقبال على العمل بيسير العلم، والاشتغال بإصلاح عيوب النفس غافلاً عن عيوب الناس. وقال أيضاً: ثلاثة من أعلام الإسلام: النظر لأهل الملة، وكف الأذى عنهم، والعفو عند المقدرة عن مسيئهم.

ويجب على المسلم المخلص الصادق ترك الاحتكار لما يحتاج الناس إليه، من أقوات وغيرها لما أخرجه مسلم في الصحيح عن مَعْمَر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحتكر إلا خاطئ». أي آثم.

---

(١) كرائم النساء وخيارهن.

وروى البيهقي[(١)] أحاديث في تحريم الاحتكار لما فيه من الضرر بالآخرين، منها ما روي عن أبي أمامة قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يُحتَكر الطعام». وروي عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون». وعن معقل بن يسار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من دخل في شيء من أسعار المسلمين يُغْلي عليهم كان حقاً على الله أن يقذفه في جهنم». وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس العبد المحتكر، إذا رخّص الله الأسعار حزِن، وإذا غلا فرح».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم، ابتلاه الله بالجُذام أو الإفلاس».

وعن علي رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الحكرة بالبلدة». وقال الحسن البصري: «كفى غشاً للمسلمين أن يتمنى غلاء سعرهم».

وقال سفيان الثوري: المحتكر عندنا الذي يشتري من سوق المسلمين ليغليه، والجالب ليس بمحتكر، وإذا باع في السوق فلم يغيِّر سعره فلا بأس به.

وعن ابن عمر أنه طلب رجلاً، فسأل عنه، فقال: ذهب ليشتري طعاماً، فقال: للبيت أو للبيع؟ فقالوا: للبيع، فقال: أخبروه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٥] أي ومن يرد فيه الميل عن جادة الحق والصواب والاستقامة ظلماً بغير وجه مشروع، نذقه بعض العذاب المؤلم، فالإلحاد الميل عن طريق الحق.

(١) شعب الإيمان ٧/ ٥٢٤-٥٢٧.

هذه الآداب الاجتماعية من حفظ سر الأخ، والترفع عن الإساءة إليه، وترك تتبع سقطاته أو عوراته ومثالبه أو عيوبه، وإلحاق الظلم به بمنع الأقوات التي يحتاج إليها إخوانه، كلها تربِّي شخصية المؤمن على درء الفتنة، ومنع الظلم، واجتناب الإساءة والأذى، وإلا وقع في العذاب المهين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨/٣٣].

الإحسان إلى الآخرين

المؤمن مطالب بأن يحسن إلى غيره بقدر استطاعته، وأن يمتنع عن كل ما يلحق به أذى في نفسه أو ماله أو عرضه وكرامته، قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٢/ ٨٣] وقال عز وجل: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥].

وليس أشدَّ إيذاءً للمؤمن من الحسد والبغضاء وضيق النفس مما يجد فيه أو يرى لدى غيره من خير أو عافية أو رزق، أو يتسبب فيما هو معروف من إصابة العين التي يصدر منها شيء كشرارة النار فتحرق الزرع، وتلحق الضرر، وتخرِّب العمران، وتوقع المرض، وتسلب العافية، وقد توصل إلى الموت الزؤام، أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «العين حق، ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين، وإذا استُغْسلتم فاغسلوا». أي إذا طلب منكم الغسل لإزالة سواد القلب، وشرر العين فاغتسلوا، بأن يطلب من أصابته العين أن يغتسل الذي أصابَه بعينه، فليُجبه، فقد كان من عادتهم صب الماء المستعمل في الغسل الذي يقوم

به صائب العين على رأس المصاب بالعين من خَلْفه صبةً واحدة، فيبرأ بإذن الله تعالى[١]. وهذا ثابت بالسنة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان العائن يؤمر أن يتوضأ، فيغتسل به المعين. وإذا أحسّ الإنسان بأن غيره عائن، ردد هذه الآية فيه حتى يخرج منه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٣٩].

ومن حالات الإحسان إحسان قضاء الدين إذا حل أجل الوفاء، لما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يقتضيه أو يتقاضاه[٢]، فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعلوا، فإن لصاحب الحق مقالاً». ثم قال: «أعطوه سناً مثل سِنّه».[٣] فقالوا: يا رسول الله، ما نجد إلا ما هو أجود من سِنّه، فقال: «أعطوه، فإن خيركم أحسنكم قضاء».

ومن الوقائع في وفاء الدين في السيرة النبوية ما رواه البيهقي عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن أبيه عن جده قال: استقرض مني رسول الله ﷺ أربعين ألفاً، فأُتي رسول الله ﷺ بمال، فقال: «ادعوا لي ابن أبي ربيعة». فقال: «هذا مالك، فبارك الله لك في مالك، إنما جزاء السَّلف الوفاء والحمد».

وفي حديث مرسل رواه البيهقي عن ابن الحارث بن عبد المطلب قال: جاء يهودي يتقاضى النبيَّ ﷺ، فأغلظ للنبي ﷺ، فهمَّ به أصحابه، فقال رسول الله ﷺ: «ما قدَّس الله أمةً - أو ما يرحم الله أمةً - لا يأخذون للضعيف منهم حقه غير مُتَعْتَع». ثم أرسل إلى خولة بنت حكيم،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٣٦٨، شعب الإيمان للبيهقي ٧/ ٥٢٨

(٢) أي يطالبه في وفاء دين.

(٣) أي مثل سن جَمَله.

فاستقرضها تمراً، فقضاه، ثم قال النبي ﷺ: «كذلك يفعل عباد الله المؤمنون، أما إنه قد كان عندنا تمر، ولكنه قد كان غبراً». أي تغبر لقدمه أو قال: «خبزاً». أي صار يابساً كالخبز.

وفي لفظ آخر: «لا قدّس الله أمة - أو كيف يقدس الله أمة - لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها، وهو مُتَعْتع(١)».

وروى البيهقي عن سعيد بن جبير قال: سمعت ابن عباس يقول: قال رسول الله ﷺ: «من مشى إلى غريمه بحقه، صلّت عليه دواب الأرض ونون الماء(٢)، وكتب الله تبارك وتعالى له بكل خَطْوة شجرة تغرس في الجنة وذنب يغفر».

ومن أمثلة الإحسان للآخرين إنظار (إمهال) المعسر والتجاوز عنه، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٠].

ويؤكد ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن عائشة تقول: سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب، عاليةً أصواتهم، فإذا أحدهما مستوضِع الآخر، ويَسْترفِقُه في شيء، وهو يقول: والله لا أجعل، فخرج رسول الله ﷺ عليهما، فقال: «أين المتألي على الله، لا يفعل المعروف». فقال: أنا يا رسول الله، أيُّ ذلك أَحَبُّ.

وروى البخاري ومسلم واقعة أخرى، عن كعب بن مالك، أنه كان له مال على ابن أبي حَدْرد الأسلمي، فلقيه فلزمه، فتكلما حتى ارتفعت الأصوات، فمرّ بهما رسول الله ﷺ، فأشار بيده، كأنه يقول: النصف، فأخذ نصفاً مما عليه وترك نصفاً.

(١) أخرجه البزار والخطيب البغدادي. والمتعتع المتردد في الكلام من حَصَر أو عَيّ.
(٢) أي الحوت.

وأخرج مسلم عن أبي معاوية[١] قال: «حوسب رجل، فلم يوجد له خير، وكان ذا مال، فكان يداين الناس، وكان يقول لغلمانه: من وجدتموه غنياً فخذوا منه، ومن وجدتموه معسراً فتجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عني، فقال الله تعالى: أنا أحق أن أتجاوز عنه».

وفي لفظ آخر ذكره البيهقي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان رجلاً موسراً يخالط الناس، فيقول لغلمانه: تجاوزوا عن المعسر، فقال الله لملائكته: فنحن أحق بذلك، فتجاوزوا عنه».

وأخرج مسلم في الصحيح عن أبي اليسر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله يوم لا ظل إلا ظله».

وأخرج مسلم أيضاً في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يحرم على النار كل هيِّن ليِّن قريب سهل».

وأخرج البيهقي أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الله عبداً سمحاً إذا باع، وسمحاً إذا اشترى، وسمحاً إذا قضى، وسمحاً إذا اقتضى». ورواه البخاري عن جابر بن عبد الله بلفظ: «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، وسمحاً إذا اقتضى، وسمحاً إذا اشترى».

---

(١) ورواه الثوري موقوفاً على أبي مسعود البدري.

وروى البيهقي حديثين آخرين: الأول عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «الخير كثير، ومن يعمل به قليل».

والحديث الثاني عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟» قلنا: بلى، قال: «من يرجى خيره، ويؤمن شره، ألا أخبركم بشراركم؟» قلنا: بلى، قال: «من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره».

هذه كلها ترغيبات طيبة في فعل الخير وترك الشر، والإحسان إلى الآخرين.

في رحاب الجنة

١

أوصاف أهل الجنة

الجنة دار النعيم، والنار دار الجحيم، ولكل من الجنة والنار أهلها بحسب العقيدة والعمل والسلوك، والجنة منازل ودرجات بحسب التفاوت في العمل الصالح، والنار دركات ومهابط حسبما يكون أصحابها من رفض العقيدة الإسلامية، وسوء العمل، وميزان التفرقة أو الرفض هو ما أوضحته سابقاً من أصول الإيمان السبعة والسبعين.

أما مستحقو الجنة وأوصافُهم الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية فهم كثيرون بحسب علم الله تعالى، حيث لا يمكن لأحد أن يقطع أو يجزم بأن فلاناً من أهل الجنة، لأن الاستحقاق متروك لعلم الله تعالى على وفق الإيمان وصحته، وبمقتضى رحمة الله تعالى، ولهم أمارات حددها القرآن المجيد.

وفي طليعتهم الذين آمنوا بالله رباً واحداً لا شريك له، وآمنوا بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وخاتم النبيين، وبسائر الأنبياء والرسل عليهم

الصلاة والسلام، وصدقوا بوجود الملائكة الكرام البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وصدّقوا بالكتب السماوية الكبرى وهي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وبالصحف الإلهية كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وآمنوا بالقدر خيره وشره.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥].

ووصف النبي ﷺ الإيمان بقوله: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»[١].

ومنهم المجاهدون في سبيل الله، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٠].

ومنهم القائمون بأداء الصلاة والزكاة والصيام والحج، وعفّوا عن المحرَّمات والمنكرات، كما قال الله تعالى في مطلع سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١-٦].

ومن أهل الجنة المخلصون الصادقون من المؤمنين في طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله سبيل الحق والتوحيد والقيم العليا، والعمل البنّاء لإحياء تعاليم الإسلام على جميع الأصعدة في داخل الأمة وخارجها، وتقديم الإسلام على أنه رسالة حق وحضارة، وبناء وأخلاق وإسعاد للبشرية، ولكل إنسان، فهذا هو سبيل أهل الجنة،

(١) أخرجه مسلم عن عمر في حديث جبريل عليه السلام.

وليس سبيلُها المواقف السلبية والانهزامية، أو انتظارَ الإنقاذ والنجاة من الآخرين.

ومن سبل الجنة العمل على استرداد الأرض المحتلة في فلسطين والعراق والبلقان وغيرها من الأرض الإسلامية الواحدة، وجعل المسلمين كلهم مسؤولين عن استنقاذ المستضعفين والمعذبين في أراضيهم وأوطانهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٤/٦٩]. وقوله عز وجل: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ٢٤].

ومن أهل الجنة المتقون، وهم من التزم طريق الاستقامة، وآمن بجميع القرآن، لا أن يؤمن ببعض ويهجر بعضاً آخر بحسب هواه وشهوته، فهذا محض الازدواجية، والتردد والنفاق، والبعد عن الإسلام، والغربة عن شريعة الله تعالى، لأن الإسلام كل لا يتجزأ ووحدة لا تقبل الانقسام ولا التمزق والتشتت، فوحدة الإسلام هو منهج أهل الصدق والإيمان الحق في كل زمان ومكان، ولا يختلف حاضر الإسلام ومستقبله عن ماضيه، ولا يقبل قول بعض الناس بأن الإسلام ـ والعياذ بالله تعالى ـ أدى دوره وانتهى، لأن الإسلام خاتم الأديان، وشريعة الخلود إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٤/ ١٥٠-١٥١].

٢

صفات أهل الجنة

إن الذين يلتزمون أصول الإيمان التي أوضحتها أو شعب الإيمان في اصطلاح السنة النبوية هم الذين يتبوؤون الجنة، ويستمتعون بخيراتها وألوان النعم الإلهية فيها، والاستظلال برضوان الله عز وجل والتمتع برؤيته.

هذه الجنة هي التي وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٣] وفي قوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

ووردت أحاديث كثيرة في توصيف الجنة، منها قوله عليه الصلاة والسلام حينما سأله الصحابة الكرام: «لَبِنة من ذهب، ولَبِنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها يَنْعَم ولا يبأس، ويخلّد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»[(١)].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة في حديث قدسي، قال رسول الله ﷺ فيما يحدّث عن ربه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٧]».

---

(١) أخرجه أحمد والترمزي والدارمي.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرَف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدُّري الغابر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضُل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض».

أما النعم المادية في الجنة فكثيرة، منها ما أخبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥] وهذه آية كريمة من سورة مدنية.

ومنها ما ذكر في السور المكية في قول الله عز وجل: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤٦-٦٠].

إن إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة في توصيف الجنة وبيان نعمها التي تُدهش الرائي، ولا يجد مثيلها في الدنيا، ليزرع في قلب المؤمن السامع عن بصيرة الإيمانَ الراسخَ كالجبال الثوابت، وهذا ما أريد الوصول إليه من أحاديثي وكلماتي وعظاتي النابعة من قلبي

المخلص، لأنقلها بكل شفافية وحساسية ومصداقية وإخلاص لكل أخ مؤمن أو غير مؤمن، ليتحقق التفاعل بين قلب المتحدث وقلب السامع الواعي، فينبعث النور في القلب ليذكّره بما يجب عليه من الإعداد للآخرة، والعودة إلى تفادي أوجه التقصير والإهمال لواجبات الإنسان نحو ربه تبارك وتعالى، قال الله سبحانه مبيناً ضرورة الاتعاظ والاعتبار بأحداث القرون الأولى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/ ٣٦-٣٧].

٣

الخلود في الجنة

الفارق الأساسي بين الدنيا والآخرة أن الدنيا فانية زائلة، والآخرة باقية خالدة، وكل زائل لا يصح لعاقل الاعتماد عليه، وكل خالد باقٍ هو الذي يتمسك به العقلاء الذين ينظرون بعين البصيرة إلى المستقبل الواعد المنتظر، وهذا يقتضي العمل الدؤوب والاستعداد لعالم الآخرة دون إهمال متطلبات الدنيا، لأن الوسائل والغايات تتطلب تهيئة كل أسباب الاستمرار في العيش، ليحسن الإعداد للآخرة.

قال الله تعالى مبيناً الفارق بين عالم الدنيا والآخرة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٠]. وقال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٤-١٧].

الآخرة وعدٌ حق، أقسم الله تعالى بحدوثه، فقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٦٤/٧].

أما البقاء الدائم والمكث المستمر في الآخرة فهو الثابت بما أخبر الله تعالى به في آيات كثيرة من تقرير الخلود لأهل الجنة ولأهل النار، فقال سبحانه في حق أهل الجنة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٩/ ٧٢].

وقال عز وجل في حق أهل النار: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [التوبة: ٩/٦٨].

يتبين من منطوق الآيتين أن كلاً من فريقي الجنة والنار خالدون فيها على الدوام دون موت ولا فناء، أما فريق الجنة ففي جنان الخلد التي تجري من تحت بساتينها الأنهار، ولهم الغرف والمساكن الطيبة وألوان المياه العذبة، والرضوان الإلهي عليهم أكبر وأجل من نعيم الجنة. وأما فريق النار فهم خالدون فيها، يتقلّبون في العذاب الشديد الألم والمهانة، وعليهم لعنة الله وغضبه وطرده من رحمته، يلازمهم العذاب الدائم في النار.

والخلود صفة أبدية بمشيئة الله وإرادته، لا بمشيئة أحد أو شفاعته، ولا أمل في النجاة أو التغيير لأهل النار، كما لا تبديل ولا تحويل لأهل الجنة وذلك واضح فيما قارن الله أو وازن بين مصير السعداء ومصير الأشقياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ١٠٤ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١١/ ١٠٤-١٠٨].

إن إكرام الله تعالى لأهل طاعته وأتقياء عباده في الآخرة لا ينقطع ولا يتبدل، ولا يزول ولا يفنى، لقوله سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٨]

وإن تعذيب الكافرين الجاحدين مستمر على الدوام، لقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٦-١٩٧].

وكذلك أوضحت الأحاديث النبوية خلود أهل الجنة فيها وخلود أهل النار فيها، أخرج مسلم والترمذي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي منادٍ: إن لكم أن تصِحُّوا فلا تَسْقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا[1] أبداً، وإن لكم أن تَنْعَموا فلا تبأسوا أبداً[2]، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤٣]».

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يُدخل الله أهلَ الجنة الجنة، وأهلَ النار النار، ثم يؤذن مؤذن[3] بينهم، فيقول: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، كلٌّ خالد فيما هو فيه».

ويجمع كل ما ذكر من آيات موجزة هي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٣-١٦].

---

(١) يدوم الشباب والنضارة، فلا يصبكم هرم وضعف.
(٢) يدوم لكم العز والرفاهية، لا يحصل لكم بأس أو شقاء أو ضرر.
(٣) ينادي منادٍ بصوتٍ مرتفع.

دركات النار

١

صفات أهل النار

رسالة الإسلام الخالدة إلى يوم القيامة حددت أوصاف أهل الجنة وهم الذين التزموا أصول الإسلام أو شعب الإيمان، وصفات أهل النار وهم الذين تنكروا لشعب أو أصول الإيمان، فيستحقون العذاب الأليم في جهنم بسبب أعمالهم المنكرة في ميزان الشريعة الخاتمة وهم كثيرون.

منهم الذين ادّعوا الألوهية كفرعون وأمثاله، وأشركوا بالله إلهاً آخر، كعبدة الأصنام والأوثان، وعبدة النار والكواكب، والذين يؤلّهون بعض البشر ويعظمونهم على أنهم آلهة أو شبه آلهة تجسدت فيهم روح الله، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٨] وفي آية أخرى ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٤] وقال سبحانه عن المشركين: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٨١].

ومنهم الذين أنكروا رسالة القرآن ونبوة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه، أو جحدوا برسالة بعض الرسل، كاليهود وأمثالهم الذين

أنكروا رسالة عيسى عليه السلام ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى بقية إخوانه الرسل والأنبياء وسلم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧/٢٢] وقال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٤٥].

ومنهم الظالمون المشركون أو الكافرون، قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٤].

ومنهم المسلمون مرتكبو الكبائر الذين عصوا الله تعالى، فيستحقون دخول جهنم إلا إذا تابوا أو عفا الله عنهم، ومثل من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ، وقاتل النفس عمداً بغير حق، والمتكبرون الذين كذبوا بآيات الله، كما أنذرهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٠] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٦] ومنهم العاقّ لوالديه أو أحدِهما، ومدمن الخمر حتى الموت من غير أن يتوب، ومؤازرة الظلمة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١/ ١١٣].

ومنهم من يعذِّب الناس بغير حق، كما قال ﷺ: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشدهم عذاباً للناس في الدنيا»(١).

ومنهم الناهون عن المعروف والآمرون بالمنكر، كما قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٨-٧٩].

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ الكبير والحاكم.

ومنهم قَذَفة الرجال الأعفاء بالفاحشة أو المؤمنات العفيفات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٢٣].

ومنهم من يفرّون من الزحف في أثناء المعركة مع الأعداء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ٨/ ١٥-١٦].

ومنهم المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/ ١٤٥].

ومنهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤] ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٥] ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٧].

ومنهم السحرة وأكلة الربا وأكلة مال اليتيم ونحوهم من أصحاب الكبائر، أخرج الشيخان وأبو داوود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». أي العفيفات.

ومنهم من يتعدى حدود الله وشرائعه وأحكامه في الإرث وفرائض العبادة كالصلاة والزكاة واستباحة الحرام كالزنا والسرقة والخمر ونحوها مما ثبت تشريعه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ٤/ ١٤].

ومنهم منكر رسالة أي رسول، أو منكر السنة النبوية الثابتة بالوحي، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٤/ ١٣٦] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٧].

والنجاة من العذاب على هذه المعاصي تكون بالتوبة الخالصة الصادقة، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤/ ٤٨، ١١٦].

٢

أوصاف النار

نار الآخرة فوق تصور كل إنسان، وأهوالها شديدة، تتقطع لها الأكباد، ويرهبها ويخاف منها كل من رآها، بسبب إنكار أصول الإيمان التي ذكرتها، يُسمع هديرها من مكان بعيد، وشرارتها كالقصر العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١٢] وقال سبحانه مبيناً ما يقول خزنتها بقيادة مالك خازن النار: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٩-٣٤] ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٧-٩] الآيات.

وهي تشتعل بكل ما فيها من حجارة ومعادن وبشر، كما ذكر الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/٦].

والعذاب فيها مستمر حيث تتجدد جلود المعذَّبين كما وصف الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٤/٥٦] وفي مشهد آخر يقول تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢٢].

وتتسع النار لكل من ألقي فيها، فلها سبعة أبواب، وللجنة ثمانية أبواب، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/٤٣-٤٤] ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٥٠/٣٠] وأفواج جهنم يلعن بعضهم بعضاً، كما أخبر الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨].

وللنار من ناحية العمق طبقات أو دركات، فكما أن لها سبعة أبواب، لها سبع طبقات، وأدنى من فيها هم المنافقون الذين أضمروا الكفر وأظهروا الإيمان، وجمعوا بين الكفر والاستهزاء بالإسلام وأهله، والتآمر عليهم وتأليب الناس عليهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ٤/١٤٥] أي في قعر جهنم، وعصاة الموحدين في الدرك الأعلى، وفي الثاني والثالث الكفار، وفي الرابع الصابئة، وفي الخامس المجوس، وفي السادس المشركون.

وأسماء دركات النار جهنم، ولظى، والحُطَمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية.

والنار تستأصل كل من فيها، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٢٧-٢٩]

ودرجة الغليان في النار أعلى من كل درجات التوتر العالي في الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ - فيما رواه البخاري ومسلم - عن أبي هريرة: «ناركم هذه التي يُوقِد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

وتشتد النار وتزداد ولا تنطفئ، لقوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧].

وخزنة النار تسعة عشر من الملائكة الأشداء، كما قال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣٠-٣١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦٦/ ٦].

والنار مُظْلمة شديدة السواد، لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٧].

وأوضح النبي ﷺ تلك الظلمة بقوله فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة: «أُوقد على النار ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت، فهي سوداء كالليل المظلم».

وفي النار أودية وجبال، لقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٧] ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢] والويل وادٍ في

جهنم، قال النبي ﷺ فيما يرويه أحمد والحاكم وابن حبان في صحيحه عن أبي سعيد الخدري: «ويل وادٍ في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره». وفي النار جبال، كما قال الله سبحانه في حق الوليد بن المغيرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ٧٤/١٦-١٧] والصعود جبل في النار، لما روى أحمد وابن أبي حاتم والبزار وابن جرير الطبري عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: «هو جبل في النار يكلّف أن يصعده، فإذا وضع يده ذابت، وإذا رفعها عادت».

ويستغيث أهل النار بمالك خازن النار، فلا يجدون جواباً ويبقون خالدين في العذاب كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٧-٧٨].

٣

نوع العذاب في النار

يختلف العذاب في النار عن كل أنواع العذاب في الدنيا خلوداً وحجماً وحتمية وتفاوتاً وتنوعاً، فهو عذاب خالد دائم للكفار والمشركين والمنافقين، ومؤقت لعصاة المؤمنين، ثم يخرجون إلى الجنة فضلاً من الله ورحمة، وهم التائبون كما تقدم بيانه، أو المشفوع فيهم، أما استمرار العذاب وتخليد الكفار في جهنم، فلما ورد في القرآن الكريم من آيات، أذكر منها أمثلة:

في شأن الكفار: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٩].

وفي شأن المرتدين: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٧].

وفي المكذبين لآيات الله الكونية والقرآنية: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٦].

وفي منكري البعث: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ١٣/ ٥].

وفي المتألهين: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٩].

وفي عديمي الخير والإيمان: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٣-١٠٤].

وفي مدمني الإجرام: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٤].

وفي المنافقين والكفار: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٨] أي دائم.

وفي المتكبرين على الإيمان: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ١٦/ ٢٩].

وفي المشركين الذين أشركوا مع الله إلهاً آخر: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٥/ ٧٢].

وأما حجم العذاب فكبير جداً، قال الله تعالى: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢/ ١٩-٢٢].

والعذاب حتمي لا بد منه إحقاقاً للحق والعدل بين الناس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥-٦] أي الجزاء ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٥٢/ ٧-٨].

والعذاب متفاوت بين الناس بحسب الجرم والمعصية، فهو إما أدنى أو أكبر، أو أليم، أو شديد، أو قريب، أو مهين، أو محيط، أو أخزى، أو سيئ أو أسوأ.. الخ وأخف العذاب لعصاة المؤمنين، وأشده لمن زعم الألوهية، وأعمقه للمنافقين.

وألوان العذاب أو أنواعه كثيرة، فأوله الزجر والدفع بعنف من الخلف، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ٥٢/ ١٣-١٤].

ثم الحشر على الوجوه عمياً وبُكماً وصماً، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧].

ثم السحب على الوجوه في النار، لقوله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ، إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٠-٧٢].

ثم التقلّب في النار كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٦].

ثم صب الحميم «النار الحامية جداً» على رؤوسهم، وصهرهم في جهنم وضربهم بالمقامع، لقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢١].

ثم التضييق والإلجاء إلى أضيق الأماكن، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١١-١٤].

ثم تصعيد جبال النار والتردي منها، قال سبحانه في حق الوليد بن المغيرة: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٧٤/١٧-٢٤].

ثم الزجّ في أعماق الجحيم ووسطه، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٤/ ٤٣-٤٩].

ومن السنة النبوية ما رواه مسلم عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منها دماغه، كما يغلي المِرْجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونه عذاباً».

والتفاوت في طبقات النار ثابت، لما رواه مسلم عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته[١]، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته[٢]».

(١) موضع شد الإزار، أي على بطنه.
(٢) العظم الذي بين ثُغرة النحر والعاتق.

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث
- فهرس الموضوعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن دار الفكر بدمشق لتفخر أن تقدم لقرائها كتاب (أصول الإيمان والإسلام) للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، وذلك لما لهذا الكتاب من فرادة في طرحه ومضمونه، حيث جمع بين أصول الإيمان والإسلام، وهذا ما عرف بشعب الإيمان، فبينها ووضحها، واستدل لها بالكتاب والسنة، وبذلك يطلع المسلم على أصول دينه من خلال هذا الكتاب بطريقة تشكل عنده رؤية شاملة، وميزاناً واضحاً لشؤون حياته بكل تفاصيلها.

وإتماماً للفائدة رأت دار الفكر كعادتها أن تلحق بالكتاب فهارس علمية تجعل الوصول إلى المعلومة والمسألة سهلاً ويسيراً، وتساعد على الاستفادة من الكتاب وما فيه بشكل فعال ويسير.

وقد اعتمدنا في هذه الفهرسة منهجاً نورده مفصلاً ليتمكن القارئ من تتبع خطوات هذا العمل والاستفادة منه الفائدة المرجوة:

- يتضمن هذا العمل الفهارس التالية:

١- الأحاديث النبوية وقد رتبت ترتيباً ألفبائياً حسب أطراف الحديث.

٢- الموضوعات ومسائل الإيمان والإسلام. اعتمدنا في فهرستنا لرؤوس الموضوعات على مصطلحات وألفاظ عنوانية متعارف على ارتباطها بمدلولات موضوعية، أصبحت مصطلحاً تدل على مضمونها عند إطلاقها.

ثم رتبناها ألفبائياً على حروف المعجم. ينظر إلى المصطلحات عند ترتيبها إلى حالتها الراهنة ولو دخلت عليها بعض الحروف الزائدة على لفظها الأصلي، يبدأ بالخالي أولاً ثم ما زاد عليه من حروف أو كلمات.

- اتبعنا في الترتيب الألفبائي منهج دار الفكر وهو منهج متميز على النحو التالي:

أ - الهمزة الممدودة (آ) تعتبر ألفين (أا) في الترتيب.

ب - الهمزة المرسومة على السطر أو على ألف تعد ألفاً في الترتيب.

ج - الهمزة المرسومة على واو تعد واواً في الترتيب.

د - الهمزة المرسومة على نبرةٍ أو ياء تعد ياءً في الترتيب.

هـ - همزة الوصل كهمزة القطع تعد ألفاً في الترتيب.

والشكر لله أولاً وآخراً الذي وفقنا لإتمام هذا العمل، ونرجوه تعالى أن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق ١/٤/٢٠٠٨

د. محمد وهبي سليمان

مدير قسم الدراسات والبحوث

في دار الفكر بدمشق

فهرس الأحاديث

فهرس الموضوعات

مستخلص

كتاب في جزأين، يجمع إلى أصول الإيمان والإسلام الأخلاق الإسلامية، عدَّد منها المؤلف ما يزيد على سبعين أصلاً من القرآن والسنة.

اشتملت هذه الأصول على الإيمان بالله عز وجل، ومعاني أسمائه وصفاته، والإيمان بالرسل، والملائكة، والكتب المنزلة، وبالقدر، وباليوم الآخر، وبالجنة والنار. ومن الأصول محبة الله تعالى، والخوف منه، ورجاؤه، والتوكل عليه، وحب النبي ﷺ، وتعظيمه، والحرص على الدين، وطلب العلم، وتعظيم القرآن. ومنها الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والاعتكاف، والحجُ والجهاد، والرباط، والثبات أمام العدو، وأداء خُمس المغانم للمصالح العامة. ومنها السعي لتحرير العبيد، وكفارات الجنايات، والوفاء بالعقود. ومنها التحدث بالنعم الإلهية، وحفظ اللسان، وكف اليد عن الأموال والأنفس.

ومنها الامتناع عن المطاعم والمشارب المحرمة، وترك الألبسة والزينة من الحرير والذهب للرجال، واجتناب الملاهي الضارة، والعمل على الاقتصاد بالنفقة، والتطهر من الحقد والحسد، والكف عن تناول أعراض الناس، وإخلاص العمل لله وترك الرياء والسرور بالحسنة، والاغتمام بالسيئة، والتوبة بعد الذنب، وتقديم القرابين لله. ومنها طاعة أولي الأمر، والعمل لما عليه جماعة المسلمين، والحكم بالعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى. ومنها الحياء، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الخلق، والإحسان إلى الخدم، وأداء حقوق الأولاد والأقارب، ومودة أهل التقى، وإفشاء السلام ورده، وعيادة المرضى، والصلاة على الميت، وتشميت العاطس، والبعد عن الفاسدين، وإكرام الجار والضيف، والستر على العصاة. ومنها التحلي بالصبر، وبالزهد، وقصر الأمل، والغيرة، والإعراض عن اللغو، والسخاء، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والإصلاح بين الناس، وحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه.

وختم المؤلف كتابه في وصف الجنة والنار. ثم ألحق به فهارس تفصيلية وكشافات هامة.

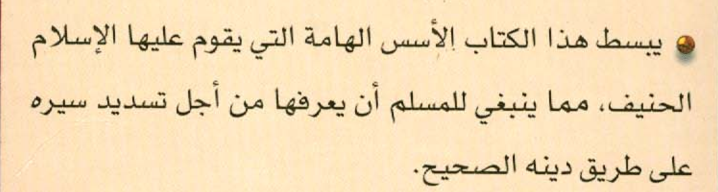
Abstract

This book appears in two volumes. In addition to the fundamentals of faith and Islam, it reviews the Islamic morals, of which the author mentions more than seventy roots from the Holy Qur'an and the Prophetic Tradition.

These roots cover the belief in Allah, the Great and the Almighty, in the meanings of His Names and Attributes, in the messengers, angels, scriptures; fate, the Hereafter; Heaven and Hellfire. They also cover the love of Allah, the All-High, the fear from Him, being hopeful about His mercy and depending on Him; the love of the Prophet (pbuh), glorifying him, caring about the religion, seeking science, glorifying the Qur'an, purification, prayer, the ritual charity, fast, seclusion in the mosque, pilgrimage, striving (Jihad), guarding in the Cause of Allah, keeping steadfast before an enemy, performing the five prayers, offering one fifth of the booties for the general welfare, endeavoring to emancipating slaves, expiating felonies, fulfilling contracts, admitting the divine blessings, preserving the tongue and desisting from others' wealth and souls.

Other roots are abstaining from unlawful foods and drinks, quitting silk and gold clothing and ornaments as for men, avoiding harmful diversions, economizing on expenditure, purification from grudge and jealousy, desisting from slandering people's honor, faithfulness to Allah in deeds, quitting dissimulation, getting pleased by good deeds and depressed by evil deeds, repenting after committing a guilt, offering sacrifices for Allah, obeying native rulers, following what the majority of Muslims have agreed upon, giving just judgements, enjoining good and forbidding evil, cooperating for righteousness and piety, modesty, doing good to parents, keeping kith and kin relations, good morals, doing good to servants, giving children and relatives their due rights, being intimate with righteous people, greeting people and returning their salutations, visiting patients, performing prayer for the dead, praying for the one who sneezes, averting corrupt people, entertaining the neighbor and the guest, concealing the deeds of the disobedient, assimilating patience, asceticism, reducing hope, jealousy, averting diversion, generosity, having mercy on the young, showing respect to old aged people, reconciling people and loving for others whatever one loves for one's own self.

The author concludes his book by describing Paradise and Hellfire, and then he appends detailed tables of contents and significant indexes.



- يبسط هذا الكتاب الأسس الهامة التي يقوم عليها الإسلام الحنيف، مما ينبغي للمسلم أن يعرفها من أجل تسديد سيره على طريق دينه الصحيح.
- وهي أصول تقدم ولا شك المنهج المتكامل لحياة المسلم الذي يبني عليها شخصيته المتميزة في العقيدة والعبادة والتعامل مع الآخرين والصلة بهم من أجل السعادة في الدنيا وفي الآخرة. ومن أجل أن يكون امرأ كاملاً في مجتمعه..
- يعرض كل أولئك مؤلفه بأسلوب هادئ واضح يعتمد فيه على ما جاء في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة.
- إنه كتاب يزن المسلم فيه نفسه، ويعرضها على ما جاء فيه ليرى أهو على الطريق السوي، أم إنه يزيغ عنه قليلاً أو كثيراً؟ فمن وجد خيراً حمد الله، ومن وجد غير ذلك وقع على منهج يتبعه..
- أشياء كثيرة مهمة في هذا السفر الرائع.


ISBN 995351121-7
9 789953 511214